الرافدين على الجلالين

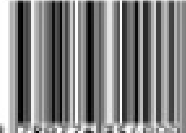
بسم الله الرحمن الرحيم

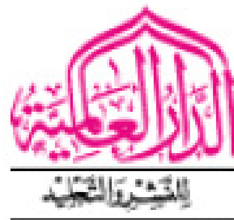
الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨







 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الحادي والعشرون





بسم الله الرحمن الرحيم

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩).

{وهل} قد {أتاك حديث موسى}.

إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠).

{إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ} لِامْرَأَتِهِ {امْكُثُوا} هُنَا وَذَلِكَ فِي مَسِيره مِنْ مَدْيَنَ طَالِبًا مِصْر {إِنِّي آنَسْت} أَبْصَرْت {نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ} بِشُعْلَةٍ فِي رَأْس فَتِيلَة أَوْ عود {أَوْ أَجِد عَلَى النَّار هُدًى} أَيْ هَادِيًا يَدُلّنِي عَلَى الطَّرِيق وَكَانَ أَخْطَأَهَا لِظُلْمَةِ اللَّيْل وقال لعل لعدم الجزم بوفاء الوعد.

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى (١١).

{فلما أتاها} وهي شجرة عوسج {نودي يا موسى}.

إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢).

{إِنِّي} بِكَسْرِ الْهَمْزَة بِتَأْوِيلِ نُودِيَ بِقِيلَ وَبِفَتْحِهَا بِتَقْدِيرِ الْبَاء {أَنَا} تَأْكِيد لِيَاءِ الْمُتَكَلِّم {رَبّك فاخلع نعليك إنك بالواد الْمُقَدَّس} الْمُطَهَّر أَوْ الْمُبَارَك {طُوًى} بَدَل أَوْ عَطْف بَيَان بِالتَّنْوِينِ وَتَرْكه مَصْرُوف بِاعْتِبَارِ الْمَكَان وَغَيْر مَصْرُوف لِلتَّأْنِيثِ بِاعْتِبَارِ الْبُقْعَة مَعَ الْعِلْمِيَّة.

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣).

{وَأَنَا اخْتَرْتُك} مِنْ قَوْمك {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} إليك مني.

إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤).

{إِنَّنِي أَنَا الله لَا إله إِلَّا أَنَا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري} فيها.

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥).

{إنَّ السَّاعَة آتِيَة أَكَاد أُخْفِيهَا} عَنْ النَّاس وَيَظْهَر لَهُمْ قُرْبهَا بِعَلَامَاتِهَا {لِتُجْزَى} فِيهَا {كُلّ نَفْس بِمَا تَسْعَى} بِهِ مِنْ خَيْر أَوْ شر.

فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦).

{فَلَا يَصُدَّنَّك} يَصْرِفَنَّك {عَنْهَا} أَيْ عَنْ الْإِيمَان بِهَا {مَنْ لَا يُؤْمِن بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} فِي إنْكَارهَا {فَتَرْدَى} أَيْ فَتَهْلِك إنْ صَدَدْت عنها[(١)].

---

(١) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} في حاله التي هي مبدأ سعادته، ومنشأ نبوته، أنه رأى نارا من بعيد، وكان قد ضل الطريق، وأصابه البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره.

قوله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} [طه: ٩].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ مسليه عما يلقى من الشدّة من مشركي قومه، ومعرفه ما إليه بصائر أمره وأمرهم، وأنه معليه عليهم، وموهن كيد الكافرين، ويحثه على الجدّ في أمره، والصبر على عبادته، وأن يتذكر فيما ينوبه فيه من أعدائه من مُشركي قومه وغيرهم، وفيما يزاول من الاجتهاد في طاعته ما ناب أخاه موسى صلوات الله عليه من عدّوه، ثم من قومه، ومن بني إسرائيل وما لقي فيه من البلاء والشدة طفلا صغيرا، ثم يافعا مترعرعا، ثم رجلا كاملا {وَهَلْ أَتَاكَ} يا محمد {حَدِيثُ مُوسَى} ابن عمران".

قال الثعلبي:" وهل أتاك يا محمد حديث موسى قال أهل المعاني: هو استفهام اثبات، مجازه: أليس قد أتاك؟. وقال بعضهم: معناه: وقد أتاك، وقال: لم يكن قد أتاه ثم أخبره".

قال القشيري:" سؤال في صيغة الاستفهام والمراد منه التقرير والإثبات. وأجرى تعالى سنته فى كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام فى أكثر المواقع التي يذكر فيها =

=

حديث نبينا ﷺ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام".

قال الواحدي:" هذا استفهام تقرير بمعنى الخبر، أي: وقد أتاك، ونحو هذا قال ابن عباس: يريد وقد أتاك حديث موسى".

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما عظم حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه أتبع ذلك بما يقوي قلب رسول الله ﷺ من ذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام تقوية لقلبه في الإبلاغ كقوله: وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك [هود: ١٢٠] وبدأ بموسى عليه السلام لأن المحنة والفتنة الحاصلة له كانت أعظم ليسلي قلب الرسول ﷺ بذلك ويصبره على تحمل المكاره.

وقال ابن كثير- رحمه الله: «من هاهنا شرع- تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحى إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله، قيل: قاصدا بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلا بين شعاب وجبال، في برد وشتاء، وسحاب وظلال وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليورى نارا، كما جرت العادة به، فجعل لا يقدح شيئا، ولا يخرج منه شرر ولا شيء، فبينما هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور نارا.

أى: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم:

... امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أى: شهاب من نار.. .

والاستفهام في قوله-سبحانه-: وَهَلْ أَتاكَ.. لتقرير الخبر وتثبيته، وهذا أبلغ عن مجيئه بصورة الخبر المجرد. لأن في الاستفهام التقريرى تطلع واشتياق لمعرفة الخبر.

والجملة الكريمة مستأنفة لتأكيد ما سبق الحديث عنه من وحدانية الله تعالى ولتسلية الرسول ﷺ عما أصابه من قومه. ببيان جانب من جهاد أخيه موسى-

=

=

عليه السلام.

وقال القاسمي: وهل أتاك حديث موسى من عطف القصة أو استئناف. والقصد تقرير أمر التوحيد الذي انتهى إليه الآية قبله، ببيان أنه دعوى كل نبي لا سيما أشهرهم نبأ، وهو موسى عليه السلام. فقد خوطب بقوله تعالى: إنني أنا الله لا إله إلا أنا [طه: ١٤] وبه ختم تعالى نبأه في هذه السورة بقوله: إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو [طه: ٩٨]، أو تقرير لسعة علمه المبين في قوله تعالى: وإن تجهر بالقول [طه: ٩٨]، أو تقرير لسعة علمه المبين في قوله تعالى: وإن تجهر بالقول [طه: ٧] إلخ لقوله بعد وسع كل شيء علما [طه: ٩٨]، أو لهما معا.

أو لحمله، صلوات الله عليه، على التأسي بموسى في الصبر والثبات. لكونه ابتلي بأعظم من هذا فصبر، وكانت العاقبة له. وقد أشير في طليعة نبأ موسى عليه السلام، إلى كيفية ابتداء الوحي إليه، وتكليمه تعالى إياه. وذلك بعد أن قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم. وصار بأهله قاصدا بلاد مصر، بعد ما طالت غيبته عنها ومعه زوجته ا.هـ

قوله تعالى: {إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا} [طه: ١٠]، أي:" حين رأى في الليل نارًا موقدة فقال لأهله: انتظروا لقد أبصرت نارًا".

قال الطبري:" ذكر أن ذلك كان في الشتاء ليلا وأن موسى كان أضلّ الطريق؛ فلما رأى ضوء النار {قَالَ لأَهْلِهِ} ما قال".

عن ابي صالح، قال ابن عباس:" لما قضى موسى الأجل، سار بأهله فضلّ الطريق. قال عبد الله بن عباس: كان في الشتاء، ورُفعت لهم نار، فلما رآها ظنّ أنها نار، وكانت من نور الله: {قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا} ".

حكي الواحدي عن ابن عباس، قال: "كان موسى رجلا غيورا، لا يحب الرفقة لئلا ترى امرأته، فأخطأ الطريق في ليلة مظلمة، فرأى نارا من بعيد".

=

=

قال وهب بن منبه:" لما قضى موسى الأجل، خرج ومعه غنم له، ومعه زند له، وعصاه في يده يهشّ بها على غنمه نهارا، فإذا أمسى اقتدح بزنده نارا، فبات عليها هو وأهله وغنمه، فإذا أصبح غدا بأهله وبغنمه، فتوكأ على عصاه، فلما كانت الليلة التي أراد الله بموسى كرامته، وابتداءه فيها بنبوّته وكلامه، أخطأ فيه الطريق حتى لا يدري أين يتوجه، فأخرج زنده ليقتدح نارا لأهله ليبيتوا عليها حتى يصبح، ويعلم وجه سبيله، فأصلد زنده فلا يوري له نارا، فقدح حتى أعياه، لاحت النار فرآها، {فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى} ".

قوله تعالى: {لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ} [طه: ١٠]، أي:" لعلي أجيئكم منها بشعلة تستدفئون بها، وتوقدون بها نارًا أخرى".

قال الطبري:" يقول: لعلي أجيئكم من النار التي آنست بشعلة. و «القَبَس»: هو النار في طَرَف العود أو القصبة، يقول القائل لصاحبه: أقبسني نارا، فيعطيه إياها في طرف عود أو قصبة، وإنما أراد موسى بقوله لأهله: {لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ} لعلي آتيكم بذلك لتصطلوا به".

عن وهب بن منبه:" {لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ}، قال: بقبس تَصْطَلون".

قوله تعالى: {أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى} [طه: ١٠]، أي:" أو أجد عندها هاديًا يدلنا على الطريق".

قال الطبري: أي:" دلالة تدلّ على الطريق الذي أضللناه، إما من خبر هاد يهدينا إليه، وإما من بيان وعلم نتبينه به ونعرفه".

عن ابن عباس، قوله: {أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى}، يقول: من يدلّ على الطريق".

قال مجاهد:" هاديا يهديه الطريق".

قال قتادة:" أي: هداة يهدونه الطريق".

=

=

قال وهب:" هدى عن علم الطريق الذي أضللنا بنعت من خبر".

قال ابن عباس:" كانوا أضلوا عن الطريق، فقال: لعلي أجد من يدلني على الطريق، أو آتيكم بقبس لعلكم تصطلون".

والمعنى: لقد أتاك- أيها الرسول الكريم- خبر أخيك موسى، وقت أن رأى نارا وهو عائد ليلا من مدين إلى مصر فَقالَ لِأَهْلِهِ أى لامرأته ومن معها امْكُثُوا أى: أقيموا في مكانكم ولا تبرحوه حتى أعود إليكم.

وجملة إِنِّي آنَسْتُ نارًا تعليل للأمر بالمكوث، وآنست من الإيناس بمعنى الإبصار الواضح الجلى. أى: إنى أبصرت إبصارا بينا لا شبهة فيه نارا على مقربة منى، فامكثوا في أماكنكم لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ.

والقبس: الشعلة التي تؤخذ من النار في طرف عود أو نحوه. ووزنه فعل- بفتح العين- بمعنى مفعول أى: لعلى آتيكم من هذه النار بشعلة مقتبسة منها، ومأخوذة عنها.

وقوله: أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً معطوف على ما قبله.

أى: امكثوا في مكانكم حتى أذهب إلى النار التي شاهدتها، لعلى آتيكم منها بشعلة، أو أجد عندها هاديا يهديني الى الطريق الذي أسلكه لكي أصل إلى المكان الذي أريده.

فقوله هُدىً مصدر بمعنى اسم الفاعل أى: هاديا.

وقد دلت آية أخرى على أن موسى قد ذهب إلى النار ليأتى منها بما يدفئ أهله من البرد.

وهذه الآية هي قوله تعالى: فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ نارًا. قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نارًا، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ .

=

=

ثم بين -سبحانه- ما حدث لموسى بعد أن اقترب من النار فقال: فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً.

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ} [طه: ١١ - ١٢]، أي:" فلما أتى موسى تلك النار ناداه الله: يا موسى، إني أنا ربك".

قال الطبري:" فلما أتى النار موسى، ناداه ربه: {يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ.. } ".

قال المراغي:" أي: فلما خرج موسى نحوها وجد نارا بيضاء تتقد كأضو إما يكون فى شجرة خضراء، فلا ضوء النار يغير خضرتها، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار- وهناك نودى يا موسى، قال من المتكلم؟ قال إنى أنا ربك".

قال النسفي:" وجد نارًا بيضاء تتوقد في شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها وكانت شجرة العناب أو العوسج ولم يجد عندها أحد أو روى أنه كلما طلبها بعدت عنه فإذا تركها قربت منه، فنودي فقيل: {يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ}.. روى انها لما نودي يا موسى قال مَن المتكلم؟ فقال الله ﷻ أنا ربك فعرف انه كلام الله ﷻ بأنه سمعه من جميع جهاته الست وسمعه بجميع أعضائه.

قال يحيى بن سلّام: قوله: " {فلما أتاها}، يعني: أتى النار التي ظنَّ أنها نار".

قال النحاس:" معنى {نودي}: قيل له".

عن وهب بن مُنَبِّه -من طريق عبد الصمد بن معقل- قال: "لَمّا رأى موسى النارَ انطلق يسير، حتى وقف منها قريبًا، فإذا هو بنار عظيمة، تفور مِن ورق شجرة خضراء شديدة الخضرة، يُقال لها: العُلِّيق".

عن وهب بن مُنَبِّه -من طريق عبد الصمد بن معقل- قال: "نُودِي من الشجرة، فقيل: يا موسى. فأجاب سريعًا، وما يدري مَن دعاه، وما كان سرعة إجابته إلا استئناسًا بالإنس، فقال: لبَّيْك -مِرارًا-، إني لَأسمعُ صوتَك، وأُحِسُّ حِسَّك، ولا أرى مكانك، فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك وخلفك، وأقربُ إليك مِن نفسك.

=

فلمّا سمع هذا موسى عَلِم أنّه لا ينبغي هذا إلا لِرَبِّه، فأيْقَنَ به".

عن وهب بن مُنَبِّه -من طريق ابن إسحاق- قال: "خرج موسى نحوها -يعني: نحو النار-، فإذا هي في شجر من العُلِّيق، وبعض أهل الكتاب يقول: في عَوْسَجَة، فلمّا دنا اسْتَأْخَرَتْ عنه، فلما رأى اسْتِئْخارها رَجَع عنها، وأوجس في نفسه منها خِيفَةً، فلما أراد الرجعة دَنَتْ منه، ثم كُلِّم مِن الشجرة، فلمّا سمع الصوت اسْتَأنس، وقال اللهُ -تبارك وتعالى-: يا موسى، اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى. فخلعها، فألقاها".

قوله تعالى: {فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [طه: ١٢]، أي:" فاخلع نعليك، إنك الآن بوادي «طوى» الذي باركته".

قال مقاتل:" يعني: بالوادي المطهر طوى، وهو اسم الوادي".

قال يحيى:" المقدس: المبارك".

قال ابن زيد:" بالوادي المبارك".

عن عكرمة:" {بالواد المقدس}، قال: الطاهر".

مجاهد، في قوله: " {إنك بالواد المقدس}، قال: المُبارَك".

عن ابن عباس:" {إنك بالواد المقدس}، قال: المبارك: {طوى}، قال: اسم الوادي".

قال وهب:" خرج موسى نحوها، يعني نحو النار، فإذا هي في شجر من العليق، وبعض أهل الكتاب يقول في عوسجة، فلما دنا استأخرت عنه، فلما رأى استئخارها رجع عنها، وأوجس في نفسه منها خيفة؛ فلما أراد الرجعة، دنت منه ثم كلم من الشجرة، فلما سمع الصوت استأنس، وقال الله تبارك وتعالى: {يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى}، فخلعها فألفاها".

واختلف أهل التفسير في السبب الذي من أجله أمر الله موسى بخلع نعليه، على

=

قولين:

أحدهما: ليباشر بقدميه بركة الوادي المقدس، قاله علي بن أبي طالب-في رواية-، والحسن، ومجاهد-في رواية-، وعكرمة، وابن جريج، وابن ابي نجيح.

قال الجصاص:" يدل عليه قوله عقيب ذلك: {إنك بالواد المقدس طوى} فتقديره: اخلع نعليك؛ لأنك بالوادي المقدس".

قال ابن أبي نجيح:" طأ الأرض حافيا كما تدخل الكعبة حافيا، يقول: من بركة: الوادي".

قال ابن أبي نجيح:" يقول: أَفْضِ بقَدَمَيْك إلى بركة الوادي".

قال عكرمة:" كي تمس راحة قدميك الأرض الطيبة".

قال الحسن: "كانتا، -يعني نعلي موسى- من بقر، ولكن إنما أراد الله أن يباشر بقدميه بركة الأرض، وكان قد قدس مرتين".

قال ابن جُرَيْج: "وقيل لمجاهد: زعموا أن نعليه كانتا من جلد حمار أو ميتة، قال: لا ولكنه أمر أن يباشر بقدميه بركة الأرض".

عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نَجِيح- في قوله تعالى: " {فاخلع نعليك}، قال: طَأ الأرض بقدميك".

الثاني: لأن نعليه كانتا من جلد حمار ميت، قاله علي بن أبي طالب، وكعب، وقتادة، والزهري، ومقاتل.

عن عبد الله بن مسعود، مرفوعًا، في قوله: ط {فاخلع نعليك}، قال: كانتا مِن جِلْد حمار ميِّت".

علي بن أبي طالب -من طريق عمير بن سعيد- في قوله: {فاخلع نعليك}، قال: كانتا مِن جِلْد حمار ميِّت، فقيل له: اخلعهما".

عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، قال: "رأيتُ أبا أيوب الأنصاري يُصَلِّي وعليه نعليه،

=

=

فقلتُ له: إنّ الله يقول لموسى: {فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى}. فقال أبو أيوب: إنّهما كانتا مِن جِلْد حمار ميِّت".

عن كعب الأحبار، في قوله: " {فاخلع نعليك}، قال: كان نَعْلا موسى مِن جِلْدِ حمار ميِّت، فأراد ربُّك أن يمسَّه القُدْسُ كلُّه".

عن أبي قِلابة عبد الله بن زيد الجرمي -من طريق عاصم الأحول- قال:" تدرون لِمَ قال اللهُ تعالى: {فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى}؟ قال: كانت نعلاه مِن جلد حمار ميت، فأحبَّ أن يباشر القُدْسَ بقدميه".

قال ابن شهاب الزهري:" كانتا من جلد حمار أهلي".

عن عكرمة:" {فاخلع نعليك}، قال: "كانتا مِن جلد حمار ميِّت".

وعن الحسن -في رواية- قال: "ما بالُ خَلْع النَّعْلَيْن في الصلاة؟! إنّما أُمِرَ موسى أن يخلع نعليه أنّهما كانتا مِن جلد حمار ميت".

قال مقاتل:" كانتا من جلد حمار ميت غير ذكى، فخلعهما موسى عليه السلام وألقاهما من وراء الوادي".

وقال مجاهد:" كانت نعلا موسي التي قيل له: اخلعها، من جلد الخنزير".

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: "أمره الله تعالى ذكره بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادي، إذ كان واديا مقدسا، لأنه لا دلالة في ظاهر التنزيل على أنه أمر بخلعهما من أجل أنهما من جلد حمار ولا لنجاستهما، ولا خبر بذلك عمن يلزم بقوله الحجة، وإن في قوله: {إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى}، بعقبه دليلا واضحا، على أنه إنما أمره بخلعهما لما ذكرنا".

عن علقمة: "أنّ عبد الله بن مسعود أتى أبا موسى الأشعري في منزله، فحضرت الصلاةُ، فقال له أبو موسى: تقدَّم، يا أبا عبد الرحمن؛ فإنّك أقدمُ سِنًّا وأعلم. قال: لا، بل تقدَّم أنت؛ فإنّما أتيناك في منزلك. فتقدم أبو موسى، فخلع نعليه، فلما صلّى

=

=

قال له ابن مسعود: لِمَ خَلَعْتَ نعليك؟ أبِالواد المقدس أنت؟! لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُصَلِّي في الخُفَّين والنَّعْلَيْن".

وفي قوله تعالى: {طُوىً} [طه:١٢]، خمسة وجوه من التفسير:

أحدها: أنه اسم من "طوى"، لأنه مر بواديها ليلًا فطواه، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:" يعني: الأرض المقدسة، وذلك أنه مر بواديها ليلا فطوي، يقال: طويت وادي كذا وكذا، والطاوي من الليل، وارتفع إلى أعلى الوادي: وذلك نبي الله موسى عليه السلام".

الثاني: سمي {طوى}، لأن الله تعالى ناداه مرتين. وطوى في كلامهم بمعنى: مرتين، لأن الثانية إذا أعقبتها الأولى صارت كالمطوية عليها، حكاه الطبري، واستشهد بقول عديّ بن زيد العبادي:

أعاذِل إنَّ اللَّوْمَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ... عَليَّ طَوَى مِنْ غَيِّكِ المُتَرَدّدِ

الثالث: أنه سمي بذلك، لأن الوادي قدس مرتين، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة.

قال الحسن:" واد بفلسطين قدس مرتين".

قال مجاهد: قُدِّس بُورك مرّتين".

عن مُبَشَّر بن عبيد: " {طوى} بغير نون، وادٍ بأيْلَة، زعم أنه طُوِي بالبركة مرتين".

الرابع: أن معنى «طوى»: طَإِ الوادي بقدمك، قاله ابن عباس-في رواية-، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد-في رواية-، وعكرمة.

قال سعيد:" طأ الأرض حافيا، كما تدخل الكعبة حافيا، يقول: من بركة الواد".

الخامس: أنه الاسم للوادي قديمًا. وهذا مروي عن ابن عباس -أيضا-، ومجاهد-في رواية-، وابن زيد.

قال ابن زيد:" ذاك الوادي هو طوى، حيث كان موسى، وحيث كان إليه من الله ما كان، قال: وهو نحو الطور".

=

=

أى: فلما أتى موسى- عليه السلام إلى النار، واقترب منها.. نُودِيَ من قبل الله- عز وجل يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ الذي خلقك فسواك فعدلك.. فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ تعظيما لأمرنا. وتأدبا في حضرتنا.

وقوله إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً تعليل للأمر بخلع النعل، أى: أزل نعليك من رجليك لأنك الآن موجود بالوادي الْمُقَدَّسِ أى: المطهر المبارك، المسمى طوى: فهو عطف بيان من الوادي.

(تنبيه): اختلف كما تقدم في سبب أمر الله موسي بنزع نعليه خاصة؛ مع وضوح أن هذا الموضع مكان مقدس معظم: فقيل: إن النعال كانت من جلد ميته، ولا يثبت ذلك؛ وذلك أنهم أخذوه مما روى الترمذي؛ من حديث ابن مسعود مرفوعا: "كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف، وجبة صوف، وكمة صوف، وسراويل صوف، وكانت نعلاه من جلد حمار ميت"، وقد أعل الحديث غير واحد من العلماء؛ كالترمذي وغيره.

وبعضهم جعل ذلك للاستحباب؛ أي: عند حضور الأماكن المعظمة ولقاء العظماء يستحب نزع النعال، وإن صح ذلك فيمكن تخصيصه بمن قبلنا؛ لأن النبي ﷺ ثبت عنه الصلاة في النعال، ودخول المسجد بها، بل دخل النبي ﷺ البيت الحرام ببعيره، وفعل مثله جماعة من أصحابه وأزواجه، وطافوا حول البيت عليه، وليست أقدام البهائم بأطهر من أقدام بني آدم، فضلا عن الأنبياء.

وقد وقف النبي ﷺ عند المقام بنعليه؛ كما رواه أحمد؛ من حديث أبي هريرة، وطاف ابن الزبير بنعليه؛ كما رواه الفاكهي.

وظاهر قوله تعالى بعد الأمر بخلع النعال: {إنك بالواد المقدس}: أن العلة من خلع النعال هو قدسية المكان وخصوصيته، ويتفق العلماء على أن قدسية المسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ أعظم من قدسية الوادي المقدس طوى.

=

=

ولكن يحتمل أن العلة في ذلك هي أن لذلك المكان من القدسية التي جعلها الله فيه عند قدوم موسى وسماع كلام الله بلا واسطة في الأرض: ما ليس في غيره، ثم رفع ذلك القدر من القدسية بانتهاء ذلك؛ وذلك أن الله كلم موسى في الأرص بلا واسطة، ولم يسبق موسى بأحد من الأنبياء أن كلمه الله كذلك، وأما نبينا ﷺ فقد كلمه الله بلا واسطة، ولكن في السماء، لا فى الأرض.

ويحتمل أن يكون الأمر بذلك من جنس أمر جبريل النبي ﷺ بنزع نعليه؛ لأنه كان فيهما قذر، وذلك كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري؛ قال: بينما النبي ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم، ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، قال: (ما حملكم على إلقاء نعالكم؟!)، قالوا: رأيناك ألقيت نعليك، فألقينا نعالنا، فقال رسول الله ﷺ (إن جبريل ﷺ أتاني، فأخبرني أن فيهما قذرا -أو قال: أذى-)، وقال: (إذا جاء أحدكم إلى المسجد، فلينظر: فإن رأى في نعليه قذرا أو أذى، فليمسحه وليصل فيهما)؛ رواه أحمد وأبو داود.

ولا يؤخذ من هذه الآية: عدم استحباب الصلاة بالنعال؛ فإن الصلاة بها محل اتفاق عند العلماء على جوازها، وإنما الخلاف عندهم في الاستحباب من عدمه؛ وذلك لثبوت الصلاة بها عن النبي ﷺ؛ فقد ثبت في الحديث عن عن أبي مسلمة سعيد بن يزيد الأزدي قال سألت أنس بن مالك رضي الله عنه (أكان النبي ﷺ يصلي في نعليه قال نعم) أخرجه البخاري، ومسلم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ صلى فخلع نعليه، فخلع الناس نعالهم فلما انصرف، قال: " لم خلعتم نعالكم؟ " فقالوا: يا رسول الله، رأيناك خلعت فخلعنا، قال: " إن جبريل أتاني فأخبرني أن بهما خبثا فإذا جاء أحدكم المسجد، فليقلب نعله، فلينظر فيها، فإن رأى بها خبثا فليمسه بالأرض، ثم ليصل

=

=

فيهما) وهو حديث صحيح.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال رضي الله عنه (رأيت رسول الله ﷺ يصلي حافيا ومنتعلا) وهو حديث حسن.

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم) وهو حديث حسن.

وفي الحديث أن عبد الله بن مسعود، أتى أبا موسى الأشعري في منزله، فحضرت الصلاة، فقال أبو موسى: (تقدم يا أبا عبد الرحمن، فإنك أقدم سنا وأعلم، قال: لا، بل تقدم أنت، فإنما أتيناك في منزلك، ومسجدك، فأنت أحق، قال: فتقدم أبو موسى فخلع نعليه، فلما سلم قال: ما أردت إلى خلعهما؟ أبالوادي المقدس أنت؟ " لقد رأيت رسول الله ﷺ: يصلي في الخفين والنعلين) وهو حديث صحيح.

وقال ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ١٨٠) حدثنا بن فضيل عن الحسن بن عبيد الله قال (كان إبراهيم يكره خلع النعال في الصلاة ويقول وددت أن إنسانا محتاجا دخل إلى المسجد فأخذ نعالهم).

قوله تعالى: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ} [طه: ١٣]، أي:" وإني اخترتك يا موسى لرسالتي".

قال الثعلبي: أي:" اصطفيتك".

قال ابن ابي زمنين:" أي: لرسالتي ولكلامي".

قال الطبري:" نودي أَنَّا اخترناك. فاجتبيناك لرسالتنا إلى من نرسلك إليه".

قال ابن كثير:" قوله: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ} كقوله: {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي} [الأعراف: ١٤٤]، أي: على جميع الناس من الموجودين في زمانه.

قال ابن كثير:" وقد قيل: إن الله تعالى قال: يا موسى، أتدري لم خصصتك

=

=

بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا. قال: لأني لم يتواضع لي أحد تواضعك".

ويقرأ: «وأنا اخترناك»، على الاستئناف وعلى معنى الحكاية، لأنه معنى يؤدى: قيل له إنا اخترناك.

قوله تعالى: {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} [طه: ١٣]، أي:" فاستمع لما يوحى إليك مني".

قال الطبري:" يقول: فاستمع لوحينا الذي نوحيه إليك وعه، واعمل به".

قال ابن كثير:" أي: اسمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك".

أى: اصطفيتك من بين أفراد قومك لحمل رسالتي، وتبليغ دعوتي فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى إليك منى، ونفذ ما آمرك به.

قال الرازي: وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: معناه اخترتك للرسالة وللكلام الذي خصصتك به، وهذه الآية تدل على أن النبوة لا تحصل بالاستحقاق لأن قوله: وأنا اخترتك يدل على أن ذلك المنصب العلي إنما حصل لأن الله تعالى اختاره له ابتداء لا أنه استحقه على الله تعالى.

المسألة الثانية: قوله: فاستمع لما يوحى فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال: لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفا إليه فقوله: وأنا اخترتك يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله: فاستمع يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الأول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف.

إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا مستحق للعبادة والطاعة والخضوع فَاعْبُدْنِي عبادة خالصة لوجهي.

وَأَقِمِ الصَّلاةَ التي هي من أشرف العبادات، وأفضل الطاعات لِذِكْرِي أى: وأدم إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص، ليشتد تذكرك لي. واتصالك بي، وذلك لأن

=

الصلاة مشتملة على الكثير من الأذكار التي فيها الثناء على ذاتي وصفاتي.
قوله تعالى: {إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} [طه: ١٤]، أي:" إنني أنا الله لا معبود بحق إلا أنا، لا شريك لي".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إنني أنا المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، لا إِلَهَ إلا أنا فلا تعبد غيري، فإنه لا معبود تجوز أو تصلح له العبادة سواي".

قال مكي:" أي: إني أنا المعبود، لا معبود غيري يستحق العبادة".

قال ابن كثير:" هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له".

عن محمد بن أَعْيَن، قال: "قلتُ لابن المبارك: إنّ فلانًا يقول: مَن زعم أنّ قول الله تعالى: {إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني} مخلوق؛ فهو كافر. فقال ابنُ المبارك: صَدَق".

قوله تعالى: {فَاعْبُدْنِي} [طه: ١٤]، أي:" فاعبدني وحدي".

قال الطبري:" يقول: فأخلص العبادة لي دون كلّ ما عبد من دوني".

قال ابن كثير:" أي: وحدّني وَقُم بعبادتي من غير شريك ".

قال القشيري:" أي: تذلل لحكمى، وأنفذ أمرى، واخضع لجبروت سلطانى".

قوله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤]، أي:" وأقم الصلاة لتذكرني فيها".

وفي قوله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: وأقم الصلاة لتذكرني فيها، قاله مجاهد، ومقاتل، وابن قتيبة.

قال الزجاج:" لأن الصلاة لا تكون إلا بذكر الله".

عن مجاهد-من طريق ابن أبي نَجِيح- في قوله: " {وأقم الصلاة لذكري}، قال: إذا صلّى عبدٌ ذَكَرَ ربَّه".

=

قال مجاهد بن جبر: "إذا تركتَ الصلاة ثم ذكرتَها فأقِمْها".

والثاني: وأقم الصلاة بذكري، لأنه لا يُدْخَلُ في الصلاة إلا بذكره.

الثالث: وأقم الصلاة حين تذكرها، قاله إبراهيم.

عن إبراهيم النخعي، في قوله: " {وأقم الصلاة لذكري}، قال: حين تَذْكُرُ".

عن إبراهيم النخعي وعامر الشعبي، في قوله: {أقم الصلاة لذكري}، قالا: صَلِّها إذا ذكرتَها وقد نسيتَها".

عن إبراهيم النخعي -من طريق مغيرة- قال: مَن نام عن صلاةٍ أو نسيها يُصَلِّي متى ذكرها، عند طلوع الشمس وعند غروبها. ثم قرأ: {وأقم الصلاة لذكري}. قال: إذا ذكرتها فصَلِّها في أيِّ ساعة كنتَ".

قال الزجاج:" لأن الله ﷻ لا يؤاخذنا إن تسينا ما لم نتعمد الأشياء التي تشغل وتلهي عن الصلاة، ولو ذكر ذاكر أن عليه صلاة في وقت طلوع الشمس أوعند مغيبها وجب أن يصفيها".

عن سمرة بن يحيى، قال: "نسيتُ صلاة العتمة حتى أصبحتُ، فغدوتُ إلى ابن عباس، فأخبرته، فقال: قُمْ، فَصَلِّها. ثم قرأ: {وأقم الصلاة لذكري} ".

أو المعنى: وأدم الصلاة لذكرى خاصة، بحيث تكون خالصة لوجهي، ولا رياء فيها لأحد.

قال الآلوسى ما ملخصه: قوله: لِذِكْرِي الظاهر أنه متعلق بأقم، أى: أقم الصلاة لذكرى فيها لاشتمالها على الأذكار. وقيل: المراد أقم الصلاة لذكرى خاصة لا ترائى بها ولا تشوبها بذكر غيرى.. أو لكي أذكرك بالثناء وأثيبك بها. أو لذكرى إياها في الكتب السماوية وأمرى بها. أو لأوقات ذكرى وهي مواقيت الصلاة. فاللام وقتية بمعنى عند مثلها في قوله تعالى يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي.

ومن الناس من حمل الذكر على ذكر الصلاة بعد نسيانها كما تقدم، والمراد: أقم

=

=

الصلاة عند تذكرها..

ففي الحديث عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: " ليس في النوم تفريط إنما التفريط في اليقظة. فإذا نسي أحدكم صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قال: (وأقم الصلاة لذكري) رواه مسلم.

وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "من نام عن صلاة أو نسيها، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك".

وخص-سبحانه- الصلاة بالذكر مع أنها داخلة في العبادة المأمور بها في قوله فَاعْبُدْنِي على سبيل التشريف والتكريم، إذ الصلاة أكمل وسيلة توصل الإنسان إلى مداومة ذكر الله تعالى وخشيته، لاشتمالها على ألوان متعددة من صور العبادة والطاعة، إذ فيها قراءة للقرآن الكريم، وفيها الصلاة على النبي ﷺ وفيها تسبيح الله وتمجيده.

مسألة: تقضى الفرائض في كل وقت متى ذكرها ناسيها؛ وذلك لظاهر الآية، سواء كان ذلك في وقت نهي أو غيره؛ لأن الفرائض المنسية آكد ذوات الأسباب.

وعلى هذا عامة السلف وأكثر الفقهاء.

خلافا لأبي حنيفة، فقد جعل تقدم النبي ﷺ لما نام عن صلاة الفجر وقام عند طلوع الشمس: أن ذلك كان بسبب أنها كانت بين قرني شيطان، وهو وقت نهي، فتقدم حتى ترتفع.

وهذا غير ظاهر في الحديث، ولا فهمه كذلك أحد من الصحابة، وفي الحديث قال: (فما أيقظنا إلا حر الشمس)، وحر الشمس لا يكون إلا بعد ارتفاعها، والله أعلم.

وقد أمر النبي ﷺ بذلك؛ كما في "الصحيحين"؛ من حديث أنس: (من نسي صلاة، فليصل إذا ذكرها؛ لا كفارة لها إلا ذلك: {وأقم الصلاة لذكري}).

=

=

وأما ما يقوله بعض الفقهاء: أن الصلاة المنسية لا تقضى إلا مع مثيلتها من الغد، فهذا لا دليل عليه، ويخالف ظاهر القرآن، وصريح السنة، وعمل الصحابة رضي الله عنهم.

وإذا اجتمعت صلاتان: حاضرة ومنسية، والوقت متسع، فالواجب عند عامة الفقهاء المذاهب الأربعة تقديم المنسية؛ لأنها أسبق، ولحق الترتيب بينهما؛ فهما في حكم الصلاتين الحاضرتين المجموعتين؛ كالظهر والعصر، والمغرب والعشاء، ولما فاتت صلاة العصر النبي ﷺ حتى غابت الشمس، صلاها ثم صلى المغرب؛ كما في "الصحيحين"؛ من حديث حابر بن عبد الله؛ أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق، بعدما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، قال: يا رسول الله، ما كدت أصلي العصر، حتى كادت الشمس تغرب! فقال النبي ﷺ: (والله ما صليتها!)، فقمنا إلى بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب.

ولم يثبت أن النبي ﷺ صلى على غير ترتيب؛ لا صلوات فائتة، ولا صلوات حاضرة مجموعة.

وإذا كان الوقت ضيقا لا يتسع لتقديم الفائتة على الحاضرة، وإنما يكفي للحاضرة فقط، فيقدم الحاضرة على الفائتة، ويسقط عنه الترتيب؛ حتى لا يكون في حقه فائتتان بدلا من صلاة فائتة واحدة.

وعلى هذا أكثر الفقهاء من المذاهب؛ وبهذا قال ابن المسيب والحسن وربيعة.

وخالف في ذلك المالكية، فقالوا بوجوب الترتيب ليسير الفوائت ولو فاتت الصلاة الحاضرة، وهو رواية عن أحمد اختارها بعض أصحابه؛ كالخلال وأبي بكر.

والفقهاء يختلفون في وجوب الترتيب وإن قالوا بمشروعيته جميعا، على أقوال ثلاثة:

=

=

قالت طائفة: بوجوب الترتيب بين فوائت الصلوات كثيرها ويسيرها؛ وهذا ظاهر مذهب أحمد، لأن القضاء يحكي الأداء.

وذهبت طائفة: إلى وجوب الترتيب في يسير الفوائت لا كثيرها؛ وهذا ظاهر مذهب المالكية والحنفية، واختلفوا في الفرق بين الكثير واليسير، وعامتهم على أن اليوم والليلة يسير يجب الترتيب فيه.

وذهبت طائفة: إلى استحباب الترتيب عند قضاء الفوائت، وأنه لا يجب؛ وهذا مذهب الشافعية؛ وذلك أن الفوائت كالديون لا يضره بأيها بدأ.

وظاهر الأقوال: أن الصلوات الكثيرة لا يجب فيها الترتيب، وهو قول جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية، خلافا لأحمد فلا يفرق بين قليل وكثير.

ومن نسي صلاة فائتة، ثم صلى حاضرة، فتذكر الفائتة في الوقت، فلا يجب عليه أن يعيد الحاضرة عند أحمد؛ فإنه يسقط الترتيب بالنسيان، وأما ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: (من نسي صلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام، فإذا فرغ من صلاته، فليعد الصلاة التي نسي، ثم ليعد الصلاة التي صلاها مع الإمام)، فلا يصح، بل قال أبو زرعة: هو خطأ. وأنكره ابن معين وعامة النقاد.

والصواب وقفه؛ كما رجحه أبو زرعة، والدارقطني، وابن عدي، والبيهقي، وغيرهم.

ويسقط الترتيب خشية فوت صلاة الجماعة، للأمر الصريح بها، ولأنه لا يصح انفراد الرجل بصلاة فائتة والناس يصلون في المسجد جماعة؛ وهذا قول الأئمة الأربعة، وإنما خلافهم في إعادة ما صلاه مع الإمام بعد أداء الفائتة ليتحقق له الترتيب؛ لأنه امتثل الأمر فصلى جماعة ولم ينفرد وحده، والأرجح: أنه لا يعيد؛ وهذا قول الشافعي وأحمد في رواية عنه، واختارها ابن تيمية.

والجمهور: على أنه يعيد الصلاة؛ وهذا قول مالك وأبي حنيفة والمشهور عن

=

=

أحمد، وهو قول ابن عمر، وقد صح عنه في "الموطأ"، عن نافع؛ أن ابن عمر قال: "من نسي صلاة، فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام، فإذا سلم الإمام، فليصل الصلاة التي نسي، ثم ليصل بعدها الأخرى".

* هل للصلاة الفائتة أذان وإقامة؟

ظاهر الآية: أن الله أمر بأداء الصلاة المنسية ولم يأمر بشيء قبلها، وقد اتفق الأئمه الأربعة على أنه يقام للصلاة الفائتة، ولكنهم اختلفوا في الأذان لها على قولين:

ذهب مالك والشافعي وغيرهما: إلى أنه لا يؤذن لها؛ لأن الإقامة إشعار لقرب الدخول في الصلاة، بخلاف الأذان؛ لأن إعلام بدخول الوقت.

وذهب أحمد وأبو حنيفة: إلى أنه يؤذن لها كما يقام.

وذهب سفيان: الى أنه لا يؤذن لها ولا يقام.

وإنما اختلف الفقهاء في ذلك؛ لاختلاف الروايات في قضاء النبي ﷺ لما فات منه في الخندق وفي قصة التعريس لصلاة الفجر؛ ففي بعضها يذكر الأذان وفي بعضها لا يذكره، والثابت في "الصحيح": أن النبي ﷺ أمر بلالا أن يؤذن في الناس، وذلك عندما نام النبي ﷺ والصحابة عن صلاة الفجر حتى طلع حاجب الشمس، وفيه قال النبي ﷺ لبلال: (يا بلال، قم فأذن بالناس بالصلاة)، فتوضأ، فلما ارتفعت الشمس وابياضت، قام فصلى.

وحمل بعضهم ذلك على دعوة الناس إلى الصلاة وجمعهم لا النداء المعروف.

وهذا الحمل فيه نظر، وعدم ذكره في بعض الروايات لا يعني عدم فعله؛ فإن عدم الذكر لا يدل على العدم، وقد جاء صريحا في حديث أبي قتادة؛ قال: (إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردها عليكم حين شاء، يا بلال، قم فأذن بالناس بالصلاة)، فتوضأ، فلما ارتفعت الشمس وابياضت، قام فصلى.

وجاء ذلك صريحا عند النسائي؛ من حديث بريد بن أبي مريم، عن أبيه.

=

=

وعند أحمد من حديث ابن مسعود.

والأظهر: أن الحال تختلف؛ فمن كان في حضر ونام عن الصلاة، فإن أذانه للصلاة يدعو الناس إليها، وحالهم ليست كحاله، والأفضل في حقه: ترك الأذان في الحضر، وإن رأى أن يؤذن فليؤذن لنفسه؛ حتى لا يلبس على الناس؛ كما صرح بهذا جماعة من أصحاب أحمد والشافعي؛ وإنما أمر النبي ﷺ بالأذان وهو في سفر.

* حكم قضاء النوافل: وأما قضاء النوافل، ففيه خلاف عند الفقهاء على أقوال، وأشهرها قولان، وهما روايتان عن أحمد:

الأول: قالوا بالقضاء؛ وهو الصحيح عند الشافعية.

الثاني: أنها لا تقضى؛ وبه قال أبو حنيفة ومالك وجماعة.

ومنهم: من فرق بين ترك النافلة نسيانا وشغلا وبين تركها عمدا؛ فعند النسيان والشغل: يرى قضاءها، وعند العمد: لا يرى ذلك؛ لأنه تركها عمدا وأداؤها في وقت غير وقتها يقتضي تبديلا بالهوى لمواقيت النوافل، وهي توقيفية، ولو أطلق الجواز ولم يعلق بعذر، كان بابا لتفويت عبادة عن وقتها.

والتفريق وجيه؛ وذلك لما في "الصحيحين"؛ من حديث أم سلمة؛ أن النبي ﷺ ترك الركعتين بعد الظهر فصلاهما بعد العصر، ثم قال: (إنه أتاني ناس من عبد القيس بالإسلام من قومهم، فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر، فهما هاتان)، وهذا ترك من النبي ﷺ، وبين سببه، وهو الشغل عنها.

قوله تعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا} [طه: ١٥]، أي:" إن الساعة التي يُبعث فيها الناس آتية لا بد من وقوعها، أكاد أخفيها من نفسي، فكيف يعلمها أحد من المخلوقين".

قال مقاتل:" يقول إن الساعة جائية لا بد أكاد أخفيها من نفسي".

=

=

قال الطبري:" إن الساعة التي يبعث الله فيها الخلائق من قبورهم لموقف القيامة جائية، أكاد أخفيها من نفسي، لئلا يطلع عليها أحد".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا} [طه: ١٥]، وجوه من التفسير:

احدها: معناه: أكاد أخفيها من نفسي. وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، وابي صالح.

قال الماوردي:" ويكون المقصود من ذلك تبعيد الوصول إلى علمها. وتقديره: إذا كنت أخفيها من نفسي فكيف أظهرها لك؟ ".

قال ابن عباس:" يقول: لا أظهر عليها أحدا غيري".

قال ابن عباس:" لا تأتيكم إلا بغتة".

عن ابن عباس، ومجاهد، قوله {أَكَادُ أُخْفِيهَا}، قالا: "من نفسي".

قال أبو صالح:" يخفيها من نفسه".

قال قتادة:" ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين، ومن الأنبياء المرسلين".

في قراءة أبيّ: «أكاد أخفيها من نفسي».

الثاني: معناه: لا أظهر عليها أحدًا، قاله الحسن، ويكون «أكاد» بمعنى: أريد.

الثالث: معناه: أن الساعة آتية أكاد. انقطع الكلام عند «أكاد» وبعده مضمر: أكاد آتي بها تقريبًا لورودها، ثم استأنف: «أخفيها لتجزى كل نفسٍ بما تسعى». حكاه الطبري عن آخرين، والماوردي عن الأنباري، ومثله قول ضابئ البرجمي:

هَمَمَتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وكِدْتُ ولَيْتَنِي... تَرَكْتُ على عثمانَ تَبْكِي أقارِبُهُ

أي: كدت أن أقتله، فأضمره لبيان معناه.

الرابع: أن معنى – {أخفيها}: أظهرها، قاله أبو عبيدة، وأنشد قول امرئ القيس بن عابس الكندي:

=

=

وإن تدفنوا الدّاء لا نخفيه... وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

أي: لا نظهره.

يقال: أخفيت الشيء، أي: أظهرته وأخفيته، إذا كتمته، كما يقال: أسررت الشيء إذا كتمته، وأسررته إذا أظهرته.

قال الطبري:" والذي هو أولى بتأويل الآية من القول، قول من قال: معناه: أكاد أخفيها من نفسي، لأن تأويل أهل التأويل بذلك جاء، والذي ذُكر عن سعيد بن جبير من قراءة ذلك بفتح الألف قراءة لا أستجيز القراءة بها لخلافها قراءة الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به نقلا مستفيضا".

قوله تعالى: {لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} [طه: ١٥]، أي:" لكي تُجزى كل نفس بما عملت في الدنيا من خير أو شر".

قال الطبري: يقول: " لتثاب كل نفس امتحنها ربها بالعبادة في الدنيا بما تسعى، يقول: بما تعمل من خير وشرّ، وطاعة ومعصية".

أى: إن الساعة التي هي وقت البعث والحساب والثواب والعقاب، آتية أى: كائنة وحاصلة لا شك فيها.

وقوله (أَكادُ أُخْفِيها) أى: أخفى وقتها ولا أظهره لا إجمالا ولا تفصيلا، ولولا أن في إطلاع أصفيائى على بعض علاماتها فائدة، لما تحدثت عنها.

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قال تعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا} [طه/ ١٥].

هذه الآية الكريمة يتوهم منها أنه جل وعلا لم يُخْفِها بالفعل، ولكنه قارب أن يخفيها؛ لأن "كاد" فعل مقاربة.

وقد جاء في آيات أخر التصريح بأنه أخفاها، كقوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} [الأنعام/ ٥٩]، وقد ثبت عنه ﷺ أن المراد بمفاتح الغيب:

=

=

الخمسُ المذكورة في قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} الآيات [لقمان/ ٣٤]، وكقوله: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي} [الأعراف/ ١٨٧]، وقوله: {فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣)} [النازعات/ ٤٣]، إلى غير ذلك من الآيات. والجواب من سبعة أوجه:

الأول -وهو الراجح-: أن معنى الآية: {أَكَادُ أُخْفِيهَا} من نفسي، أي: لو كان ذلك يمكن. وهذا على عادة العرب؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، والواحد منهم إذا أراد المبالغة في كتمان أمر قال: كتمته من نفسي، أى: لا أبوح لأحد. ومنه قول الشاعر:

أيام تصحبنى هندٌ وأخبرها ... ما كدت أكتمه عني من الخبر

ونظير هذا من المبالغة قوله ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله-: "رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه".

وهذا القول مروي عن أكثر المفسرين، وممن قال به: ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح، كما نقله عنهم ابن جرير، وجعفر الصادق، كما نقله عنه الألوسي في تفسيره.

ويؤيد هذا القول أن في مصحف أُبيٍّ (أكاد أخفيها من نفسي)، كما نقله الآلوسي وغيره. وروى ابن خالويه أنها في مصحف أُبيٍّ كذلك بزيادة: (فكيف أُظْهِرُكم عليها). وفي بعض القراءات بزيادة: (فكيف أظهرها لكم). وفي مصحف عبد الله بن مسعود بزيادة: (فكيف يعلمها مخلوق). كما نقله الآلوسي وغيره.

الوجه الثاني: أن معنى الآية: {أَكَادُ أُخْفِيهَا} أي: أخفي الإخبار بأنها آتية. والمعنى: أقرِّبُ أن أترك الإخبار عن إتيانها من أصله؛ لشدة إخفائي لتعيين وقت إتيانها.

الوجه الثالث: أن الهمزة في قوله: {أُخْفِيهَا} هي همزة السلب؛ لأن العرب كثيرًا

=

=

ما تجعل الهمزة أداة لسلب الفعل، كقولهم: شكا إليَّ فلان فأشكيته، أي فأزلت شكايته، وقولهم: عقل البعير فأعقلته، أي أزلت عقاله.
وعلى هذا، فالمعنى: {أَكَادُ أُخْفِيهَا} أي: أزيل خفاءها بأنْ أظهرها؛ لقرب وقتها، كما قال تعالى: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ} الآية [القمر/ ١].
وهذا القول مروي عن أبي علي، كما نقله عنه الآلوسي في تفسيره، ونقله النيسابوري في تفسيره عن أبي الفتح الموصلي.
ومنه قول امرئ القيس بن عابس الكندي:
فإن تدفنوا الداء لا نُخْفِهِ ... وإن تبعثوا الحرب لا نَقْعُدِ
على رواية ضم النون من "لا نخفه". وقد نقل ابن جرير في تفسيره هذه الآية عن معمر بن المثنى أنه قال: أنشدنيه أبو الخطاب عن أهله في بلده بضم النون من "لا نخفه"، ومعناه: لا نُظْهِرْه.
أما على الرواية المشهورة بفتح النون من "لا نخفه"، فلا شاهد في البيت، إلا على قراءة من قرأ (أكاد أَخفيها) بفتح الهمزة. وممن قرأ بذلك: أبو الدرداء وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وحميد، وروي مثل ذلك عن ابن كثير وعاصم. وإطلاق "خفاه يَخفيه" بفتح الياء، بمعنى أظهره، إطلاقٌ مشهور صحيح، إلا أن القراءة به لا تخلو من شذوذ، ومنه البيت المذكور على رواية فتح النون، وقولُ كعب بن زهير أو غيره: دابَ شهرين ثم شهرًا دميكًا ... بأريكين يخفيان غميرا
أي: يُظْهِرانه.
وقولُ امرئ القيس: خَفاهنَّ من أنفاقهنَّ كأنما ... خَفاهنَّ ودقٌ من عَشِيٍّ مجلَّب
الوجه الرابع: أن خبر "كاد" محذوف. والمعنى على هذا القول: أن الساعة آتية أكاد أظهرها. فحذف الخبر ثم ابتدأ الكلام بقوله: {أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥)}. ونظير ذلك من كلام العرب قول ضابيء بن الحارث البرجمي:

=

=

هممتُ ولم أفعل وكدتُ وليتني ... تركتُ على عثمان تبكي حلائلُه

يعني: وكدت افعل.

الوجه الخامس: أن "كاد" تأتي بمعنى أراد، وعليه فمعنى {أَكَادُ أُخْفِيهَا}: أريد أن أخفيها.

وإلى هذا القول ذهب الأخفش وابن الأنباري وأبو مسلم، كما نقله عنهم الآلوسي وغيره.

قال ابن جني في "المحتسب": ومن مجيء "كاد" بمعنى أراد قولُ الشاعر:

كادت وكدتُ وتلك خير إرادة ... لو عاد من لهو الصبابة ما مضى. كما نقله الآلوسي.

وقال بعض العلماء: إن من مجيء "كاد" بمعنى أراد قولَه تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} [يوسف/ ٧٦] أي: أردنا له. كما ذكره النيسابوري وغيره.

ومنه قول العرب: لا أفعل كذا ولا أكاد، أي: لا أريد. كما نقله بعضهم.

الوجه السادس: أن "كاد" من الله تدل على الوجوب، كما دلت عليه "عسى" في كلامه تعالى، نحو: {قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)} [الإسراء/ ٥١] أي: هو قريب.

وعلى هذا فمعنى {أَكَادُ أُخْفِيهَا}: أنا أخفيها.

الوجه السابع: أنَّ "كاد" صلة. وعليه، فالمعنى: {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ} {أُخْفِيهَا لِتُجْزَى..} الآية.

واستدل قائل هذا القول بقول زيد الخيل:

سريع إلى الهيجاء شاكٍ سلاحه ... فما أن يكاد قِرْنُه يتنفسُ

أي: فما يتنفس قِرْنُه.

قالوا: ومن هذا القبيل قوله تعالى: {لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} [النور/ ٤٠] أي: لم يرها.

=

=
وقولُ ذي الرمة: إذا غَيَّر النأْيُ المحبِّين لم يكد ... رسيسُ الهوى من حُبِّ مَيَّةَ يبرحُ
أي: لم يبرح، على قول هذا القائل.
قالوا: ومن هذا المعنى قول أبي النجم:
وإن أتاك نَعِيِّي فاندبنَّ أبًا ... قد كاد يضطلع الأعداء والخُطَبا
أي: قد أطلع الأعداء.
وقد قدمنا أن أرجح الأقوال الأول. والعلم عند الله تعالى ا.هـ
قالوا: «والحكمة في إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت، أن الله تعالى وعد بعدم قبول التوبة عند قربهما، فلو عرف وقت الموت لاشتغل الإنسان بالمعصية إلى قرب ذلك الوقت ثم يتوب، فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف الموت كالإغراء بفعل المعصية، وهو لا يجوز .
قال الآلوسى ما ملخصه: وقوله: أَكَادُ أُخْفِيها أقرب أن أخفى الساعة ولا أظهرها، بأن أقول إنها آتية.. أو أريد إخفاء وقتها المعين وعدم إظهاره.. فكاد بمعنى أراد، وإلى هذا ذهب الأخفش وغيره.. وروى عن ابن عباس أن المعنى: أكاد أخفيها من نفسي، فكيف أظهركم عليها.. وهذا محمول على ما جرت به عادة العرب من أن أحدهم إذا أراد المبالغة في كتمان الشيء قال: كدت أخفيه عن نفسي.
وقال أبو على: المعنى أكاد أظهرها بأن أوقعها، وهذا بناء على أن أخفيها من ألفاظ السلب بمعنى أزيل خفاءها.. .
ويبدو لنا أن الإخفاء هنا على حقيقته، وأن المقصود من الآية الكريمة إخفاء وقت مجيء الساعة عن الناس. حتى يكونوا على استعداد لمجيئها عن طريق العمل الصالح الذي ينفعهم يوم القيامة.
فحكمة الله تعالى اقتضت إخفاء وقت الساعة، وعدم إطلاع أحد عليها إلا
=

=

بالمقدار الذي يأذن الله تعالى به لرسله.

قال الإمام ابن جرير ما ملخصه: «والذي هو أولى بتأويل الآية من القول: قول من قال معناه: أكاد أخفيها من نفسي.. لأن المعروف من معنى الإخفاء في كلام العرب: الستر.

يقال: قد أخفيت الشيء إذا سترته.. وإنما اخترنا هذا القول على غيره لموافقته أقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين.. .

وقوله: لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى متعلق بآتية، وجملة أَكادُ أُخْفِيها معترضة بينهما.

أي: إن الساعة آتية لا ريب فيها، لكي تجزى كل نفس على حسب سعيها وعملها في الدنيا.

قال تعالى: وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا .

وقال-سبحانه-: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.

ثم حذر-سبحانه- من عدم الاستعداد للساعة. ومن الشك في إتيانها فقال: (فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها) أي: فلا يصرفنك عن الإيمان بها، وعن العمل الصالح الذي ينفعك عند مجيئها (مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها) من الكافرين والفاسقين وَاتَّبَعَ هَواهُ في إنكارها وفي تكذيب ما يكون فيها من ثواب أو عقاب فَتَرْدى أى: فتهلك، إن أنت أطعت هذا الذي لا يؤمن بها. يقال: ردى فلان- كرضى- إذا هلك، وأرداه غيره إذا أهلكه.

قوله تعالى: {فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} [طه: ١٦].

أي: فلا يصرفنَّك - يا موسى - عن الإيمان بها والاستعداد لها مَن لا يصدق بوقوعها ولا يعمل لها، واتبع هوى نفسه، فكذَّب بها، فتهلك.

=

=

قال الطبري: يقول: " فلا يردّنك يا موسى عن التأهُّب للساعة، من لا يؤمن بها، يعني: من لا يقرّ بقيام الساعة، ولا يصدّق بالبعث بعد الممات، ولا يرجو ثوابا، ولا يخاف عقابا، واتبع هوى نفسه، وخالف أمر الله ونهيه، فتهلك إن أنت انصددت عن التأهب للساعة، وعن الإيمان بها، وبأن الله باعث الخلق لقيامها من قبورهم بعد فنائهم بصدّ من كفر بها".

قال النحاس:" {فلا يصدنك عنها}، أي: عن الإيمان بها، وبما فيها، {من لا يؤمن بها واتبع هواه}، أي: في الكفر بها، {فتردى}، من: ردي يردى، إذا هلك".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: لا يصرفنك عن الإقرار بقيام الساعة من لا يصدق بقيام الساعة واتبع هواه، فتهلك، ويقال: الردى، الموت والهلاك".

قال النسفي:" فلا يصرفنك عن العمل للساعة أو عن إقامة الصلاة أو عن الإيمان بالقيامة فالخطاب لموسى والمراد به أمته {من لا يؤمن بها} لا يصدق بها {واتبع هواه} في مخالفة أمره {فتردى} فتهلك".

قال المراغي:" أي: فلا يردنك يا موسى عن التأهب للساعة من لا يقر بقيامها ولا يصدق بالبعث، ولا يرجو ثوابا، ولا يخاف عقابا، بل يركب رأسه ويخالف أمر ربه ونهيه، فإنك إن فعلت ذلك وقعت فى هاوية الخذلان والعصيان، وهذا الخطاب من وادي قولهم: «إياك أعنى واسمعي يا جاره»، فالمراد بمثل هذا الخطاب جميع المكلفين كما تقدم غير مرة.

وخلاصة ذلك- لا تتبعوا سبل من كذب بالساعة، وأقبل على لذاته فى دنياه، وعصى أمر ربه واتبع هواه، فإن من سلك سبيلهم خاب وخسر كما قال: {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} [الليل: ١١] ".

قال السعدي:" أي: فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة، والجزاء، والعمل لذلك، من كان كافرا بها، غير معتقد لوقوعها، يسعى في الشك فيها والتشكيك،

=

=

ويجادل فيها بالباطل، ويقيم من الشبه ما يقدر عليه، متبعا في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاراه اتباع هواه، فإياك أن تصغي إلى من هذه حاله، أو تقبل شيئا من أقواله وأعماله الصادرة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها، وإنما حذر الله تعالى عمن هذه حاله لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله وكون النفوس مجبولة على التشبه، والاقتداء بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل، يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك، وذكر في هذا الإيمان به، وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان، وركن الدين، وإذا تمت تم أمر الدين، ونقصه أو فقده بنقصها، أو نقص شيء منها. وهذه نظير قوله تعالى في الإخبار عن ميزان سعادة الفرق، الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [المائدة: ٦٩]، وقوله: {فتردى} أي: تهلك وتشقى، إن اتبعت طريق من يصد عنها".

قال الزجاج:" قوله: {فتردى}، معناه: فتهلك، يقال: ردي يردى ردى، إذا هلك".

قال السدي: " {فتردى}، يقول: فتهلك".

قال البيضاوي:" المراد نهيه أن ينصد عنها كقولهم: لا أرينك ها هنا، تنبيها على أن فطرته السليمة لو خليت بحالها لاختارها ولم يعرض عنها، وأنه ينبغي أن يكون راسخا في دينه فإن صد الكافر إنما يكون بسبب ضعفه فيه. واتبع هواه ميل نفسه إلى اللذات المحسوسة المخدجة فقصر نظره عن غيرها".

قال ابن كثير:" المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على

=

=

ذلك فقد خاب وخسر {فَتَرْدَى} أي: تهلك وتعطب، قال الله تعالى: {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} [الليل: ١١] ".

فالآية الكريمة تحذير شديد من اتباع المنكرين لقيام الساعة والمعرضين عن الاستعداد لها، بعد أن أكد-سبحانه- في آيات كثيرة أن الساعة آتية لا ريب فيها.

قال تعالى: ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى، وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد أثبتت وحدانية الله تعالى كما في قوله: إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا كما أثبتت وجوب التوجه إليه وحده بالعبادة كما في قوله- سبحانه-: فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي. كما أثبتت أن يوم القيامة لا شك في إتيانه في الوقت الذي يريده الله تعالى كما قال- ﷻ: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ.

مسألة: الذي يجب علينا أن نعتقده نحن المسلمين، هو ما جاءنا من الله ﷻ، وما أخبرنا رسول الله ﷺ، فقد أخبرنا الله ﷻ أنه يتكلم قال تعالى: (ومن أصدق من الله حديثا) النساء/ ٨٧ وقال تعالى: (ومن أصدق من الله قيلا) النساء / ١٢٢.

ففي هاتين الآيتين إثبات أن الله يتكلم، وأن كلامه صدق، وحق، ليس فيه كذب بوجه من الوجوه.

وقال تعالى: (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم) المائدة / ١٦٦ ففي هذه الآية أن الله يقول، وأن قوله مسموع فيكون بصوت، وأن قوله كلمات وجمل، والدليل على أنه بحرف قول الله تعالى: (يا موسى إني أنا ربك) طه/ ١١ - ١٢ فإن هذه الكلمات حروف وهي من كلام الله. والدليل على أنه بصوت قوله تعالى: (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) مريم/ ٥٢، والنداء والمناجاة لا تكون إلا بصوت.

ولهذا كانت عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى وكيف

=

=

شاء بما شاء بحرف وصوت لا يماثل أصوات المخلوقين، والدليل على أنه لا يماثل أصوات المخلوقين، قوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الشورى/ ١١، فعرف ابتداء أن هذه العقيدة هي عقيدة أهل السنة والجماعة، وأهل السنة والجماعة يعتقدون أن القرآن كلام الله، ومن الأدلة على هذا الاعتقاد قول الله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) التوبة / ٦ والمراد القرآن بالاتفاق، وأضاف الكلام إلى نفسه فدل على أن القرآن كلامه.

وعقيدة أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود.

(تنبيه): لأن مذهب الأشاعرة هو أكثر المذاهب المبتدعة انتشارا سنذكر مذهبهم المبتدع في القرآن بشئ من التفصيل.

فالكلابية والأشعرية -ومن وافقهم كالماتريدية- حين رأوا ما وقع من المعتزلة الجهمية مع أهل السنة من الفتنة، في الصفات عامة، وفي كلام الله تعالى خاصة، رأوا سلوك طريقة وسط -في زعمهم- بين معقول المعتزلة ومنقول أهل السنة، فأرادوا التوفيق بين المذهبين، لا على سبيل موافقة كل من الطائفتين: المعتزلة، وأهل السنة، وإنما على سبيل التوفيق بين صريح المعقول، وصحيح المنقول -كذا زعموا-.

ولكن القوم كانوا أعلم بالكلام والجدل الموروث عن الجهمية وغيرهم، أكثر من علمهم بالمنقول عن الله -ﷻ- والرسول -ﷺ-، وأكثر من علمهم بطريقة السلف، فمالوا إلى ما غلب عليهم من معقول الجهمية أكثر من ميلهم إلى طريقة السلف، مع أنهم ردوا على الجهمية، ونقضوا عليهم كثيرا من أصولهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "لكن الأصل العقلي الذي بني عليه ابن

=

=

كلاب قوله في كلام الله وصفاته هو أصل الجهمية والمعتزلة بعينه".

وقال الحافظ أبو نصر السجزي فيهم: "وحاولوا الرد على المعتزلة من طريق مجرد العقل، وهم لا يخبرون أصول السنة، ولا ما كان السلف عليه، ولا يحتجون بالأخبار الواردة في ذلك زعما منهم أنها أخبار آحاد لا توجب علما".

وكان من أعظم ما مالوا فيه إلى طريقة الجهمية اعتقادهم في كلام الله تعالى، فإنهم أنكروا عليهم قولهم: (القرآن مخلوق) أشد الإنكار، وصنفوا في ذلك المصنفات الكثيرة، ووقعت بينهم في ذلك مناظرات، وحسبوا أنهم انتصروا عليهم، مع أنهم وافقوهم في أصل مذهبهم، وفي كثير من أصولهم، وإن رفضوا التسليم لأكثر ذلك. فلما رأوا ما ألزمت به الجهمية المعتزلة من معقولهم، التزموه، ولم يردوه باعتقاد السلف النقي، وإنما لجؤوا إلى ابتداع أصول فاسدة لم يقل بها السلف، ولا المعتزلة، ولا أحد من الأمة، بل ولا الأمم قبلهم.

• الكلام عن الأشعرية: فأصل تلك الأصول أنهم عرفوا الكلام بتعريف لا يعرف في اللغة ولا في الشرع ولا في المعقول، فقالوا: الكلام: هو المعنى القائم بالنفس - ويعبرون عنه بـ (الكلام النفسي) - وهو الكلام الحقيقي، والألفاظ موضعة للدلالة عليه.

وعليه قالوا: الكلام ليس بحروف ولا أصوات، والمتكلم: من قام به الكلام، لا من أوجد الكلام. وهذا عندهم عام في كل كلام.

وقد نصروه ببعض الشبه حسبوها أدلة، فقالوا: دل على صحة ما قلنا اللغة والشرع.

أما اللغة، فإن العربي يقول. (كان في نفسي كلام) و (كان في نفسي قول) و (كان في نفسي حديث). وقال عمر رضي الله عنه: "زورت في نفسي كلاما فأتى أبو بكر فزاد عليه". فسمى عمر ما في نفسه كلاما. وقال الأخطل:

=

=

لا تعجبنك من أثير خطبة... حتى يكون مع الكلام أصيلا
إن الكلام لفي الفؤاد وإنما... جعل اللسان على الفؤاد دليلا.

وأما الشرع، فقال تعالى: {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون} [المنافقون: ١].

فالله تعالى لم يكذب المنافقين في ألفاظهم، وإنما كذبهم فيما تكنه ضمائرهم وسرائرهم، فدل على أنه حقيقة الكلام والقول.

ومثله قوله تعالى: {ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول} [المجادلة: ٨].

فالقول بالنفس قائم وإن لم ينطق به اللسان، والقول هو الكلام.

وقوله تعالى: {إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان} [النحل: ١٠٦].

فأسقط حكم الكفر عن المكره على كلمة الكفر، وجعل الحكم لصدق الكلام القائم بالقلب. فهذه الآيات وما في معناها دالة على أن حقيقة الكلام هو المعنى القائم بالنفس، لا الحروف والأصوات التي هي أمارات ودلالات على الكلام الحقيقي.

ومن السنة:

قوله -ﷺ-: "يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه".

فأخبر أن الكلام الحقيقي هو الذي في القلب دون نطق اللسان، وأن الحكم للكلام الذي في القلب على الحقيقة، وأن قول اللسان مجاز قد يوافق القلب وقد يخالفه.

وقوله -ﷺ-: "الندم توبة". والندم معنى في القلب.

وقوله -ﷺ-: "يقول الله -عز وجل-: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي". فأثبت الذكر للنفس.

فالذكر والقول والكلام واحد.

فعلم أن حقيقة الكلام: المعنى القائم في النفس.

=

=

وكذا احتجوا بقوله تعالى: {آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا} [آل عمران: ٤١].

فأطلق اسم الكلام على غير الألفاظ.

قلت: فهذه جملة ما احتجوا به لنصرة بدعتهم، وأنا ذاكر بتوفيق الله تعالى نقضه عليهم.

• النقض على الأشعرية:

قبل الشروع في ذلك أذكرك بما ذكرناه في الباب الأول من كون أهل السنة والجماعة يقرون بأن حديث النفس قد يسمى كلاما وقولا، ولكن بقرينة تبين ذلك، وأما مطلق الكلام والقول فإنه يعم الألفاظ والمعاني مجتمعة، فالكلام -مثلا- عند النحويين مختص بالألفاظ دون المعاني، بقرينة مباحث هذا العلم، فإنه إنما يبحث في الألفاظ لا في المعاني، كذلك قد يراد به المعنى مجردا بالقرائن، كما ستراه في الأجوبة الآتية.

أولا: ذكر الجواب عما استدلوا به من اللغة:

أما قول العربي: (كان في نفسي كلام) ونحو ذلك، فإننا لا نخالف في صحته، لكن ليس على مرادكم -معشر الأشعرية- وإنما على مرادنا من كون لفظ (الكلام) إذا جاء مقيدا، كان التقييد قرينة دالة على إخراجه من إطلاقه، ونحن نقر أنه قد تراد به المعاني أو الألفاظ بالقرائن، فلما قيده العربي ههنا بالنفس أخرجه من مطلق الكلام، فكيف يصح لكم -معشر الأشعرية- أن تحتجوا بما هو مجاز على قواعدكم لتقرير ما هو الحقيقة؟

وذلك أنكم تقولون: ما تصرفه القرائن عن حقيقته إنما هو المجاز.

وأما قول عمر يوم السقيفة، فجوابنا عنه من وجهين:

الأول: أن (التزوير) كما يقول الأصمعي: "إصلاح الكلام وتهيئته" فمعناه إذا: أنه

=

=

قدر في نفسه كلاما وهيأه لم يتكلم به بعد، فليس كلاما حتى يتكلم به.

ومثاله: من يقدر في نفسه أن يعمل عملا كان يصلي مثلا، ثم لا يفعل، فهل يقال: إنه صلى في نفسه؟ مع أن القلب له عمل، كما أن للجوارح عملا.

والثاني: لو صح ما قالوه لكان موافقا لمذهبنا لا لمذهبهم، فإنهم يعدون مطلق الكلام كلام النفس، أما نحن فعندنا مطلق الكلام اللفظ والمعنى جميعا، وقد يراد أحدهما بقرينة، وهي موجودة في قول عمر المذكور، ألا وهي التقييد بالنفس، فكيف صححتم تعريف الكلام المطلق بالكلام المقيد؟

وأما شعر الأخطل، فالجواب عنه من وجوه:

الأول: أنكر بعض العلماء كونه من شعره، وذلك أنهم فتشوا دواوينه فلم يجدوه فيه.

قال أبو محمد الخشاب نحوي العراق: "فتشت شعر الأخطل المدون كثيرا فما وجدت هذا البيت".

والثاني: أنه لم يثبت نقله عن قائله بإسناد، لا صحيح ولا ضعيف.

والثالث: لم يتلقه أهل العربية بالقبول.

والرابع: أورده بعضهم بلفظ:

إن البيان لفي الفؤاد...............

وهذا يفسد المعنى الذي أرادوا -كما لا يخفى-.

والخامس: الأخطل شاعر مولد، لا يحتج بشعره في اللغة، وهذا معلوم عند أهل التحقيق.

والسادس: أنه نصراني مثلث كافر، وقد ضلت النصارى في معنى كلام الله تعالى ومسماه، فجعلوا المسيح نفس كلمة الله.

والسابع: أكثر من يحتج من أهل البدع بهذا الشعر يخفي البيت الأول، لأنه عند

=

=

التحقيق حجة عليهم، وذلك أن الشاعر حين ذكر الكلام في البيت الأول ذكره مطلقا، ليشمل اللفظ والمعنى، إذ الذي يسمع من الخطيب ألفاظه، فأبان الشاعر عن حقيقة الكلام المؤثر الذي يقع من النفوس موقعا بأنه ما اشتمل على المعاني التي موضعها القلب، لا مجرد الألفاظ التي تسمع من المتكلم، ولم يرد تعريف الكلام ووضع حد له بكونه المعاني المجردة.

والثامن: مسمى (الكلام) و (القول) ونحوهما ليس مما يحتاج في تفسيره إلى قول شاعر، بل ولا ألف شاعر، فإنه مما قد علم ضرورة، إذ هو مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللسان، وعرفوا معناه في لغتهم.

واللغة إنما تستفاد من استعمال أهلها لها في كلامهم، لا تستفاد مما يذكر من الحدود والتعريفات، بأن يقال: (الرأس كذا... الكلام كذا...).

فالحاصل: أن الاحتجاج بهذا الشعر ظاهر الفساد، وفساده أبين وأظهر من تكلف التفصيل له، والقوم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فتركوا نصوص الوحي الصريحة لقول نصراني كافر، لم يحققوه صحة، لا رواية ولا دراية.

قال الإمام أبو المعالي أسعد بن المنجا شيخ الحنابلة:

كنت يوما عند الشيخ أبي البيان (نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي الشافعي) رحمه الله تعالى، فجاءه ابن تميم الذي يدعى الشيخ الأمين، فقال له الشيخ بعد كلام جرى بينهما: "ويحك، الحنابلة إذا قيل لهم: ما الدليل على أن القرآن بحرف وصوت؟ قالوا: قال الله كذا، وقال رسوله كذا -وسرد الشيخ الآيات والأخبار- وأنتم إذا قيل لكم: ما الدليل على أن القرآن معنى قائم في النفس؟ قلتم: قال الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد...

أيش هذا الأخطل؟ نصراني خبيث، بنيتم مذهبكم على بيت شعر من قوله، وتركتم

=

=

الكتاب والسنة؟! ".

وقال شيخ الإسلام: "كان مما يشنع به على هؤلاء أنهم احتجوا في أصل دينهم ومعرفة حقيقة الكلام -كلام الله، وكلام جميع الخلق- بقول شاعر نصراني يقال له: الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وقد قال طائفة: إن هذا ليس من شعره، وبتقدير أن يكون من شعره فالحقائق العقلية، أومسمى لفظ (الكلام) الذي يتكلم به جميع بني آدم، لا يرجع فيه إلى قول ألف شاعر فاضل، دع أن يكون شاعرا نصرانيا اسمه: الأخطل، والنصارى قد عرف أنهم يتكلمون في كلمة الله بما هو باطل، والخطل في اللغة: هو الخطأ في الكلام.

وقد أنشد فيهم المنشد:

قبحا لمن نبذ القران وراءه... فإذا استدل يقول: قال الأخطل

وقال شيخ الإسلام أيضا: "ولو احتج محتج في مسألة بحديث أخرجاه في الصحيحين عن النبي -ﷺ- لقالوا: هذا خبر واحد، ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله بإسناد صحيح لا واحد ولا أكثر من واحد، ولا تلقاة أهل العربية بالقبول، فكيف يثبت به أدنى شيء من اللغة فضلا عن مسمى الكلام".

ثانيا: ذكر الجواب عما استدلوا به من الكتاب والسنة:

إن ما احتجوا به من ذلك قد حرموا التوفيق في فهمه، فقالوا على الله غير الحق.

فقوله تعالى: {إذا جاءك المنافقون...} الآية.

نقول للأشعرية: أقررتم بأنه تعالى لم يكذب المنافقين في ألفاظهم، وقد سماه تعالى قولا، فقال: {قالوا نشهد}.

=

=

ولما كانت الألفاظ المجردة غير كافية لإثبات إيمانهم وصدقهم فيه، وإنما يجب أن يقارنها إيمان القلب، واستقرار معنى ما قالوه فيه، لأجل ذلك كذبهم في دعواهم، فالذي كذبهم الله تعالى فيه إنما هو الدعوى المجردة، وعدم صحة ذلك منهم، ولم يكذبهم في صحة كون ما نطقوا به قولا وكلاما، بل أقر ذلك وثبته، وليس الخلاف بيننا في صدق القول أو كذبه، وإنما في ماهيته وحقيقته.

ونظير هذه الآية قول النبي -ﷺ-: "يا معشر من آمن بلسانه... " الحديث.

وأما قوله تعالى: {ويقولون في أنفسهم...} الآية.

فهو كسابقه في فساد الاحتجاج به، وذلك من وجهين:

الأول: يحتمل أنهم قالوه بألسنتهم سرا، يحدث بعضهم بعضا بذلك، وهو قول بعض أهل التفسير.

والثاني: أن لفظ (القول) ورد في الآية مرتين، مرة مقيدا بالنفس، والثانية مطلقا، ولا ريب أن المطلق هو تناجيهم بالإثم والعدوان، ومعصية الرسول -ﷺ-، وتحيتهم له بغير ما حياه به الله، وكل ذلك أقوال، هي ألفاظ ومعاني، فأطلقه للعلم به، وقيد القول الأول بالنفس ليكون خاصا بالمعنى دون اللفظ، هذا على تسليم كونه حديث نفس.

فلو كان مطلق القول إنما يراد به حديث النفس لم تكن هناك حاجة إلى تقييده بها، ولكان التناجي والتحية معاني مجردة، تحدث القلوب بعضها بعضا بها من غير نطق ولا لفظ، وهذا لا يتصوره عاقل.

ومثل هذه الآية احتجاجهم بقوله تعالى: {واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول} [الأعراف:٢٠٥] فهذا هو الذكر باللسان سرا، فلم يخرج عن كونه ألفاظا أومعاني مجتمعة، ألا ترى قوله: {ودون الجهر} ؟ والذي يلي مرتبة الجهر الذي هو الذكر برفع الصوت، مرتبة الإسرار التي هي الذكر بخفض

=

=

الصوت، وكل ذلك قائم باللسان والقلب.
وأقول للأشعرية: بماذا تفسرون إذا قول أبي هريرة لمن سأله عن قراءة أم الكتاب وراء الإمام: "اقرأ بها في نفسك" ؟ هل هو عندكم المعنى القائم في القلب أيضا؟
إن قلتم: نعم، أبطلتم مذاهبكم، فإنكم تسلمون أن الخلاف في هذه المسألة إنما هو في نطق اللسان، لا في استحضار المقروء في القلب.
وإن قلتم: لا، أفسدتم أصلكم أن الكلام الحقيقي ما قام في النفس من المعاني.
ونظير الآية المذكورة احتجاجهم بحديث: "يقول الله -ﷻ-: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني... " الحديث.
فإن الذكر في النفس هنا هو ذكر اللسان سرا، ألا تراه قال في تتمة الحديث: "وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم"؟ فهما منزلتان.
ونظيره أيضا احتجاجهم بقوله تعالى: {وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور} [الملك: ١٣].
بل إن احتجاجهم بهذه الآية أظهر في الحجة عليهم، وذلك أنه تعالى أثبت لهم قولا يسر به، وقولا يجهر به، والمجهور إنما يكون برفع الصوت، وضده الذي يسر به، ويجمعهما نطق اللسان، يوضحه قوله تعالى: {وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى} [طه: ٧]، فهذه ثلاث مراتب: الأولى: الجهر، والثانية: السر، والثالثة: ما هو أخفى من السر، وليس هو إلا حديث النفس، ولذلك قال في الآية: {إنه عليم بذات الصدور} تنبيها لهم على أنه إذا كان يعلم ما في الصدور، وهو المعبر عنه في الآية الأخرى بـ {وأخفى} فعلمه بالجهر بالقول والسر به أولى، ذكر نحو هذا شيخ الإسلام.
وأما احتجاجهم بقوله -ﷺ-: "الندم توبة" وما في معناه، ونحوه احتجاجهم بقوله تعالى: {يعلم ما في أنفسكم} [البقرة: ٢٣٥] وما في معناه، فليس واردا في
=

=

محل النزاع، لأن الخلاف بيننا وبين الأشعرية إنما هو في مسمى القول والكلام، لا بقيام المعاني في القلب.

وأما احتجاجهم بآية الإكراه فشبيه بهذا، فإنه لم يسم ما في القلب كلاما، وإنما قال: {وقلبه مطمئن بالإيمان} لأنه موضعه ومحله في الأصل.

وتسمية ما في القلب من الإيمان كلاما راجع إلى أصلهم في الإيمان بأنه التصديق القلبي، إذ هم فيه مرجئة جهمية، وهو عند أهل السنة من السلف والأئمة: تصديق القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، حقيقة في هذا جميعا، فرفع الله الحرج عن المكره رفعا مؤقتا للضرورة، تيسيرا عليه وتخفيفا، لا على أن الإيمان على الحقيقة هو تصديق القلب فقط، فإنه لو كان كذلك لما كان فرق بين حال الإكراه وعدمه، ففيم الرخصة إذا؟

وعلى تسليم كون إيمان المكره كلاما فإنه مقيد بذكر القلب. وأما احتجاجهم بقوله تعالى: {آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا} فلنا عنه جوابان:

الأول: أنه تعالى قال في سورة مريم [١٠]: {ثلاث ليال سويا} والقصة واحدة، فاستثنى في الموضع الأول ولم يستثن في الثاني، فدل على أنه استثناء منقطع لا متصل، فيكون المعنى: آيتك ألا تكلم الناس، لكن ترمز لهم رمزا، وهو قوله: {فأوحى إليهم} [مريم: ١١] هو الإيحاء بالرمز.

والثاني: إن لم يصح كونه استثناء منقطعا، كان كلاما مقيدا بالرمز، فلا إشكال.

ذكر نحو لهذا شيخ الإسلام.

فهذا جملة ما موهت به الأشعرية والماتريدية على الأمة ليلبسوا عليها دينها، ولا يخفاك ما يتسم به من التناقض والاضطراب.

يا هؤلاء نحن لا نختلف معكم في كلام مقيد، فإن القرائن تخرج اللفظ عن معناه إلى وجوه من المعاني، وإنما نختلف معكم في مطلق (الكلام) و (القول) وها أنتم

=

=

قد عجزتم عن الإتيان ولو بحجة واحدة تثبتون بها صحة قولكم، وتعلقتم بما هو أوهى من بيت العنكبوت، لتنصروا ما حسبتم كونه حقا، وليتكم تصورتم قولكم وأمكنكم صياغته بتعريف لتفهموه أنتم قبل أن تفهموه خصومكم.

أي ضلال هذا الذي أدخله ابن كلاب وأتباعه على الأمة ليفسدوا به الضرورات؟ فلقد كان الناس في سلامة من ذلك، ومع ذلك فقد قابلوا باطل الجهمية حين ظهر بأحسن الرد وأبينه، ولم يحتاجوا إلى هذه الضلالات الكلابية والأشعرية.

قال شيخ الإسلام: "ولم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وتابعيهم، لا من أهل السنة، ولا من أهل البدعة، بل أول من عرف في الإسلام أنه جعل مسمى الكلام المعنى فقط هو عبد الله بن سعيد بن كلاب، وهو متأخر في زمن محنة أحمد بن حنبل، وقد أنكر ذلك عليه علماء السنة وعلماء البدعة، فيمتنع أن يكون الكلام الذي هو أظهر صفات بني آدم، كما قال تعالى: {فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون} [الذاريات: ٢٣] ولفظه لا تحصى وجوهه كثرة، لم يعرفه أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم، حتى جاء من قال فيه قولا لم يسبقه إليه أحد من المسلمين ولا غيرهم".

وقال الحافظ أبو نصر السجزي: "ركبوا مكابرة العيان، وخرقوا الإجماع المنعقد بين الكافة: المسلم والكافر" بل "ألجأهم الضيق مما دخل عليهم في مقالتهم إلى أن قالوا: الأخرس متكلم، وكذلك الساكت والنائم، ولهم في حال الخرس والسكوت والنوم كلام هم متكلمون به، ثم أفصحوا بأن الخرس والسكوت والآفات المانعة من النطق ليست بأضداد الكلام".

قال: "وهذه مقالة تبين فضيحة قائلها في ظاهرها من غير رد عليه، ومن علم منه خرق إجماع الكافة، ومخالفة كل عقلي وسمعي قبله لم يناظر، بل يجانب ويقمع".

=

=

قلت: ولقد كانت هذه البدعة جديرة بالإعراض عنها لولا ما عم بها من فساد الاعتقاد، ولبس الحق بالباطل، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وعلى الأصل الذي ذكرناه عنهم في تعريف الكلام بنوا اعتقادهم في كلام الله تعالى.

فقالوا: كلام الله القديم هو الكلام النفسي، وهو معنى واحد، قائم بذاته، غير مخلوق، صفة من صفاته، غير بائن عنه، لم يزل موصوفا به، ليس بحرف ولا صوت، وليس هو بلغة، ولا يتجزأ، ولا ينقسم، ولا يتفاضل، ولا يتعدد، ولا يدخله النسخ، ولا يتعلق بمشيئة الله واختياره، وهو الأمر والنهي والخبر، يفهمه الله من شاء من عباده بعبارات مخلوقة تدل عليه، فعبارة القرآن بالعربية، والتوراة بالعبرية، والإنجيل بالسريانية، وهي عبارات عن الكلام النفسي الحقيقي ودلالات عليه، وهي جميعا معنى واحد، فمعنى القرآن هو معنى التوراة والإنجيل وغير ذلك من كلام الله، وتكليم الله لمن كلمه من عباده إنما هو خلق إدراك ذلك المعنى لهم.

فالقرآن، والتوراة، والإنجيل، بألفاظها وحروفها مخلوقة، وهي دلالات على الكلام النفسي، خلقها الله في شيء.

قالوا في القرآن العربي: خلقه الله في اللوح المحفوظ -وهذا أشهر عند متأخريهم، وهو الذي يقوله صاحب "تحفة المريد" وغيره-.

ومنهم من قال: خلقه في الهواء، فأخذه جبريل عليه السلام.

ومنهم من قال: بل إن الله أفهم جبريل المعنى، فعبر عنه جبريل بقوله، فالقرآن قول جبريل عليه السلام -وهذا صرح به أكبر محققيهم على الإطلاق بعد الأشعري: أبو بكر الباقلاني-.

ومنهم من قال: بل هو عبارة محمد -صلى الله عليه وسلم- وهو قول مرجوح عند متأخريهم، لكنه

=

=

مذكور مشهور عندهم-.

فهذا جملة اعتقادهم في كلام الله تعالى، وأنا ذاكر تفصيله عنهم ونقضه عليهم في المباحث الآتية بتوفيق الله وتيسيره.

وقد اتفقوا -أي الأشاعرة- على كون الكلام الثابت صفة لله تعالى هو الكلام النفسي، وهو معنى واحد، وبعضهم قال: هو عدة معان، وهو الأمر، وهو النهي، وهو الخبر، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا، أو بالعبرانية كان توراة، أو بالسريانية كان إنجيلا.

قال أبوبكر الباقلاني: "الكلام القديم القائم بالنفس شيء واحد لا يختلف ولا يتغير".

وقال الباجوري:"وكلامه تعالى صفة واحدة لا تعدد فيها، لكن لها أقسام اعتبارية" ثم ذكر أنها الأمر والنهي والخبر والوعد والوعيد.

وهذه عندهم أقسام للكلام بالنظر إلى ما يعبر عن الكلام، أما في الحقيقة فإنهم يعدونها صفات للكلام، لا أنواعا وأقساما، لأنه واحد لا يتجزأ ولا ينقسم.

وقال البيهقي -وهو منهم-:"وكلام الله تعالى واحد، لا يختلف باختلاف العبارات، فبأي لسان قرىء كان قد قرىء كلام الله تعالى، إلا أنه إنما يسمى توراة إذا قرىء بالعبرانية، وإنما يسمى إنجيلا إذا قرىء بالسريانية، وإنما يسمى قرآنا إذا قرىء بالعربية، على اللغات السبع التي أذن صاحب الشرع في قراءته عليهن، لنزوله على لسان جبريل عليه الصلاة والسلام على تلك اللغات دون غيرهن، ولما في نظمه من الإعجاز".

ومما يؤكد أن عين التوراة والإنجيل -عندهم- هما عين القرآن لو كانا بالعربية، قوله:"وإنما يجوز في هذه الشريعة قراءة ما سمي قرآنا دون ما سمي توراة وإنجيلا، لأن الله تعالى كذب أهل التوراة والإنجيل الذين كانوا على عهد نبينا -

=

=

ﷺ-، وأخبر عن خيانتهم وتحريفهم الكلام عن مواضعه، ووضعهم الكتاب، ثم يقولون: هذا من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون، فلا يأمن المسلم إذا قرأ شيئا من كتبهم أن يكون ذلك من وضع اليهود والنصارى".

تأمل كيف جعل التوراة والإنجيل قبل التحريف عين القرآن، وأن الجميع كلام واحد، واللغات إنما هي عبارة عن هذا الواحد.

وهذه بدعة شنيعة، وضلالة فظيعة، أدخلها ابن كلاب على الناس بعد أن كانوا عنها في غفلة.

وجمهور العقلاء من أهل السنة وأهل البدعة، اتفقوا على فساد هذا القول، وأن فساده معلوم بالضرورة، وذلك من وجوه متعددة:

الأول: أن نفس قائليه لم يتصوروا ماهيته، وعجزوا عن بيانه بتعريف منضبط.

قال شيخ الإسلام:"الكلام القديم النفساني الذي أثبتموه لم تثبتوا ما هو؟ بل ولا تصورتموه، وإثبات الشيء فرع تصوره، فمن لم يتصور ما يثبته كيف يجوز أن يثبته؟ ولهذا كان أبو سعيد بن كلاب -رأس هذه الطائفة وإمامها في هذه المسألة- لا يذكر في بيانها شيئا يعقل، بل يقول: هو معنى يناقض السكوت والخرس، والسكوت والخرس إنما يتصوران إذا تصور الكلام، فالساكت هو الساكت عن الكلام، الأخرس هو العاجز عنه، أو الذي حصلت له آفة في محل النطق تمنعه عن الكلام، وحينئذ فلا يعرف الساكت والأخرس حتى يعرف الكلام، ولا يعرف الكلام حتى يعرف الساكت والأخرس، فتبين أنهم لم يتصوروا ما قالوه، ولم يثبتوه".

قلت: وقد أفحش القوم فذكروا فيما يستحيل في حقه تعالى الخرس والبكم، وقالوا: هو ضد الكلام، لكن قولهم بالنفسي ألجأهم إلى القول بأن المستحيل في

=

=

حقه تعالى هو الخرس النفسي،وهذا معناه أن الأخرس الذي قامت في نفسه المعاني وعجز عن التعبير عنها بلسانه يصح وصفه بالمتكلم، كما حكاه الحافظ أبو نصر السجزي رحمه الله فيما ذكرناه عنه آنفا. ويلكم! أو يصدق هذا صبيان الكتاتيب؟!

والثاني: نعلم جميعا أن الأخرس -الذي هو متكلم في نظركم معشر الأشعرية- إنما منعته آفة في لسانه عن التعبير عما في نفسه، فعجز عن البيان، فهو يفهم ما قام في نفسه من المعاني لغيره، فيعبر عنها ذلك الغير، وأنتم قلتم في ربكم ذلك: إنه يفهم المعنى القائم بنفسه من شاء من عباده، كما أفهمه لجبريل عليه السلام، فعبر جبريل عما في نفسه تعالى.

أي إفك هذا الذي جئتم به أيها المعطلة، وأي نقص جوزتموه على ربكم؟ شبهتموه بالأخرس، فأي فرق بينه وبين الآلهة التي لا ترجع إلى عابديها قولا؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

والمتكلم بالألفاظ والمعاني أكمل ممن يقوم المعنى في نفسه وهو لا يقدر على التعبير عنه -وهذا إن وجد في المخلوق الضعيف كان نقصا بينا- فجبريل إذا يكون أكمل من ربكم، لأنه فهم المعنى وأمكنه التعبير عنه.

تعالى الله عن قولكم علوا كبيرا.

والثالث: كون الأمر هو النهي، والنهي هو الخبر، مما لا يعقله عاقل، وهي على قولكم: معنى واحد، ولا يعقل عاقل أن القرآن العربي

لو ترجم إلى العبرانية كان هو التوراة، والتوراة لو عربت كانت هي القرآن، وهي على قولكم معنى واحد. وعلى هذا التزمتم أن تكون آية الدين هي آية الكرسي، و {تبت يدا أبي لهب وتب} هي {قل هو الله أحد} والعلم هو القدرة، وسائر الصفات كذلك، بل ربما جركم ذلك إلى ما هو أشد من ذلك وأدهى.

=

=

قال لهم جمهور العقلاء: إذا جوزتم أن تكون حقيقة الخبر هي حقيقة الأمر، وحقيقة النهي عن كل منهي عنه، والأمر بكل مأمور به، هو حقيقة الخبر عن كل مخبر عنه، فجوزوا أن تكون حقيقة العلم هي حقيقة القدرة، وحقيقة القدرة هي حقيقة الإرادة.

قال شيخ الإسلام:"فاعترف حذاقهم بأن هذا لازم لهم لا محيد لهم عنه".

وقال في موضع آخر:"فاعترف أئمة هذا القول بأن هذا الإلزام ليس لهم عنه جواب عقلي".

قال:"ولزمهم إمكان أن تكون حقيقة الذات هي حقيقة الصفات، وحقيقة الوجود الواجب هي حقيقة الوجود الممكن، والتزم ذلك طائفة منهم، فقالوا: الوجود واحد، وعين الوجود الواجب القديم الخالق هو عين الوجود الممكن المخلوق المحدث، وهذا أصل القائلين بوحدة الوجود، كابن عربي الطائي، وابن سبعين، وأتباعهما"

قلت: ومما يفسد عليهم بدعتهم في اعتقادهم أن كلام الله معنى واحد، حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل؟ فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه؟ فنزلت: {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} [الإسراء: ٨٥]، قالوا: أوتينا علما كثيرا، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا، قال: فأنزل الله -عَزَّ وَجَلَّ-: {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر} إلى آخر الآية، [الإسراء: ١٠٩].

فدل الحديث على كون التوراة بعض كلام الله لا كل كلامه، وبعض علم الله لا كل علمه، وأوتي نبينا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من العلم ما ليس في التوراة، ذلك لأن كلماته تعالى لا تتناهى.

وهذا لا يجري على قواعد الأشعرية وأصولهم، لأن معنى التوراة والقرآن معنى

=

=

واحد، والاختلاف إنما هو في اللغة.

والرابع: تقرون -معشر الأشعرية- بأن موسى سمع كلام الله، وإن كنتم تختلفون في معنى السماع، فهل سمع موسى جميع المعنى أم بعضه؟ إن قلتم: سمع جميع المعنى فقد قلتم الكفر، إذ ادعيتم إحاطة موسى بعلم الله وكلامه الذي لا نهاية له، والله تعالى يقول: {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء} [البقرة: ٢٥٥].

وإن قلتم: سمع بعضه، فقد نقضتم أصلكم، لأن الكلام عندكم لا يتبعض.

وهذا مما ألزمهم به جمهور العقلاء.

وقد رأيت في هذا الإلزام مناظرة لطيفة جرت بين الحافظ الإمام أبي نصر السجزي وبعض الأشعرية، يحسن سياقها لما تضمنت من الفائدة.

قال فيها الحافظ أبو نصر:"... فقلت لمخاطبي الأشعري، قد علمنا جميعا أن حقيقة السماع لكلام الله منه على أصلكم محال، وليس ههنا من تتقيه وتخشى تشنيعه، وإنما مذهبك أن الله يفهم من شاء كلامه بلطيفة منه، حتى يصير عالما متيقنا بأن الذي فهمه كلام الله، والذي أريد أن ألزمك وارد على الفهم وروده على السماع، فدع التمويه، ودع المصانعة، ما تقول في موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث كلمه الله؟ أفهم كلام الله مطلقا أم مقيدا؟ فتلكأ قليلا، ثم قال: ما تريد بهذا؟ فقلت: دع إرادتي، وأجب بما عندك. فأبى، وقال: ما تريد بهذا؟ فقلت: أريد أنك إن قلت: إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ فهم كلام الله مطلقا، اقتضى أن لا يكون لله كلام من الأزل إلى الأبد، إلا وقد فهمه موسى، وهذا يؤول إلى الكفر، فإن الله تعالى يقول: {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء} ولو جاز ذلك لصار من فهم كلام الله عالما بالغيب وبما في نفس الله تعالى، وقد نفى الله تعالى ذلك بما أخبر به عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه يقول: {تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب} [المائدة: ١١٦].

=

=

وإذا لم يجز إطلاقه، وألجئت إلى أن تقول: أفهمه الله ما شاء من كلامه، دخلت في التبعيض الذي هربت منه، وكفرت من قال به، ويكون مخالفك أسعد منك، لأنه قال بما اقتضاه النص الوارد من قبل الله ﷻ، ومن قبل رسول الله -ﷺ-، وأنت أبيت أن تقبل ذلك، وادعيت أن الواجب المصير إلى حكم العقل في هذا الباب، وقد ردك العقل إلى موافقة النص خاسئا. فقال: هذا يحتاج إلى تأمل، وقطع الكلام".

والخامس: المعنى المجرد لا يسمع باتفاق العقلاء. قال شيخ الإسلام: "والمعنى المجرد لا يسمع، ومن قال: إنه يسمع، فهو مكابر".

وموسى عليه السلام سمع كلام الله، وكذلك سمع نداءه، والنداء لا يكون إلا صوتا مسموعا، قال شيخ الإسلام: "ولا يعقل في لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع، لا حقيقة ولا مجازا" وهذا قررناه في الباب الأول.

ولكن جمهور الأشعرية أبوا التسليم لكون موسى سمع كلام الله على الحقيقة، فقالوا: إنما سمع العبارة عن كلام الله.

قال أبو بكر بن فورك -أحد رؤوسهم-: "ومعنى تكليم الله -ﷻ- خلقه: إفهامه إياهم كلامه على ما يريد، إما بإسماع عبارة تدل على مراده، أو بابتداء فهم يخلقه في قلبه يفهم به ما يريد أن يفهمه به، وكل ذلك سائغ جائز، وهو معنى ما يكلم الله تعالى به العبد عند المحاسبة".

وربما أطلق بعضهم أن موسى عليه السلام سمع كلام الله، وسكت، وهذا يصر على أمر عظيم، ليموه ويلبس على الناس الجاهلين بمذهبهم.

وربما صرح بعضهم بأنه لا يسمع بحال، إنما يسمع المعنى، كما يقوله الباقلاني،وهذا مكابرة ظاهرة، وعجبا لمن يدعي الغوص في المعقول والتبحر فيه وهو يأتي بمثل هذه الجهليات!

=

=

والسادس: لقد فرق الله تعالى بين مراتب التكليم لرسله، فقال: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء} [الشورى:٥١].

فإذا كان معنى واحدا فلا فرق إذا بين تكليم الله لموسى وإيحائه لغيره، ولا بين التكليم من وراء حجاب والتكليم إيحاء، لأن إفهام المعنى المجرد يشترك فيه جميع الأنبياء عليهم السلام، ففي عد ذلك جميعا معنى واحدا رد للقرآن.

والسابع: في قولهم: إنه معنى، إبطال دين المسلمين في أن هذا القرآن العربي بألفاظه ومعانيه كلام الله تعالى على الحقيقة، وهم يصرحون بهذا فيقولون: القرآن العربي عبارة عن كلام الله ودال عليه، وليس هو كلام الله على الحقيقة، لأن كلامه تعالى غير بائن منه، وهذا القرآن بائن منه، كذا قالوا، وسيأتي بيان ذلك.

فهذه الجملة من وجوه النقض كافية للبيب لإبطال هذا المعتقد الفاسد المناقض للمعقول والمنقول، وإجماع العقلاء قبل ابن كلاب.

قال شيخ الإسلام: "والفضلاء من أصحاب الأشعري يعترفون بضعف لوازم هذا القول مع نصرهم لكثير من أقواله الضعيفة".

وقد نشأ عن هذا الأصل الفاسد بدعتان شنيعتان:

• البدعه الأولى: كلام الله ليس بحرف ولا صوت:

حين ذهب الأشعرية إلى كون الكلام معنى مجردا، إنما فروا من وصفه بالحرف والصوت، لأن الحروف والأصوات لا تكون إلا مخلوقة عندهم، فنزهوا كلام الله تعالى أن يكون بحرف أو صوت -بزعمهم- فقالوا: هو الكلام النفسي، والحروف إنما خلقت للدلالة عليه، والصوت خلق للإعلام والإفهام.

قال محققهم الباقلاني: "ويجب أن يعلم أن الله تعالى لا يتصف كلامه القديم بالحروف والأصوات، ولا شيء من صفات الخلق".

=

=

وقال ابن فورك: "وكلام الباري ليس بحروف، وإنما هو معنى موجود قائم بذاته، يسمع وتفهم معانيه به، والحروف تكون أدلة عليه، كما تكون الكتابة أمارات الكلام ودلالات عليه، وكما نعقل متكلما لا مخارج له ولا أدوات، كذلك نعقل له كلاما ليس بحروف ولا أصوات".

وقال الغزالى -ولا يخفى قدره فيهم- في شرح صفة الكلام: "وأنه متكلم، آمر، ناه، واعد، متوعد، بكلام أزلي قديم، قائم بذاته، لا يشبه كلام الخلق، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء، واصطكاك أجرام، ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة، أو تحريك لسان".

وقال صاحب"كفاية العوام": "الكلام: وهي صفة قديمة، قائمة بذاته تعالى، ليست بحرف ولا صوت، منزهة عن التقدم والتأخر والإعراب والبناء، بخلاف كلام الحوادث". ونحو هذا قول صاحب "شرح الجوهرة".

وهم يرجعون القول بتنزيه كون كلام الله حرفا وصوتا إلى وجوه حسبوها من المعقول، مبنية على أصول الجهمية، هي عندهم علامات الحدث والخلق للحرف والصوت، فأرادوا تنزيه الرب تعالى عن مشابهة صفة الخلق، فألجاهم ذلك إلى موافقة الجهمية في حقيقة مقالتهم.

وأهم تلك الوجوه:

الأول: أن الحروف متعاقبة متوالية، يسبق بعضها بعضا، ويلي بعضها بعضا.

والثاني: أنها لا تكون إلا بمخارج من لسان وشفتين وحلق وجوف.

قال البيهقي -وهو معهم على جلالته في الفقه والحديث-: "إن كان المتكلم ذا مخارج سمع كلامه ذا حروف وأصوات، وإن كان المتكلم غير ذي مخارج سمع كلامه غير ذي حروف وأصوات، والباري جل ثناؤه ليس بذي مخارج، وكلامه ليس بحرف ولا صوت، فإذا فهمناه ثم تلوناه، تلوناه بحروف وأصوات".

=

=

والثالث: أن الحروف والأصوات من صفة قراءة القارئ، لا من صفة كلام الباري.

والدليل عليه حديث أم سلمة في صفة قراءة النبي -ﷺ-:... يقطع قراءته آية آية، ولو شاء العاد أن يعدها أحصاها.

فالعد والحصر إنما يقع لما هو مخلوق، لا لصفة الخالق.

والرابع: أنها متناهية محدودة، لها بداية ونهاية، وأول وآخر، وكلام الله القديم ليس كذلك، كما قال تعالى: {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي} [الكهف: ١٠٩] وجمع الكلمات هنا ليس للتعدد والتكثير وإنما هو للتعظيم.

والخامس: أن هذه الحروف واحدة بالوضع، فالألف هو الألف، والسين هو السين، فالحروف التي يعبر بها عن كلام الله هي نفس الحروف التي يتكلم بها الخلق، فإن قلنا: إنها غير مخلوقة، قلنا بقدم جميع كلام الخلق.

والسادس: أن الصوت يستحيل بقاؤه كما يستحيل بقاء الحركة، وما امتنع بقاؤه امتنع قدم عينه.

هذه الوجوه أهم ما تعلقت به الكلابية والأشعرية والماتريدية لإبطال كون كلام الله بحرف وصوت، فردوا بذلك الكتاب والسنة واعتقاد السلف والأئمة، وخرقوا إجماع العقلاء من أهل السنة وغيرهم، فحين ألزمتهم المعتزلة بأن الاتفاق حاصل على أن الكلام حرف وصوت، ويدخله التعاقب والتأليف، وذلك لا يوجد في الشاهد إلا بحركة وسكون، ولا بد أن يكون ذا أبعاض وأجزاء، وقالوا: هذه الصفة لا يجوز أن تكون صفة لذات الله تعالى، فضاق السبيل بالأشعرية عند هذا الإلزام، فالتزموه، للجهل بالسنن، والتسليم لمجرد العقل، الذي لو فرغ من الأهواء والظنون، وحكمه الإخلاص والتثبت والاتباع، لوقف بهم على ساحل

=

=

النجاة، ولكنهم جعلوه الحكم على ما جاء به الرسول -ﷺ-، فأرداهم وأبعدهم. وجميع ما موهوا به اعتراض على الحق المتواتر بالظنون العقلية التي مبناها على القياس على المخلوق، فإن القوم يكثرون من عيب المعتزلة بهذه البدعة، التي هي تشبيه في الأصل أفضى إلى التعطيل، وهي قياس الغائب على الشاهد، ويشنعون عليهم بذلك، مع أنهم سلموا لهم هنا ظنونهم وأهواءهم التي حسبوها عقليات، وهي في الحقيقة جهليات، لما تضمنت من الشناعة والقول على الله بغير علم، وقياس الخالق على المخلوق، فأبطلوا حقيقة كون الكلام بحروف وأصوات، وآل بهم الحال إلى إنكار أن تكون هذه صفة كلام الله تعالى، وخالفوا بهذا اعتقاد السلف، وخرجوا عن منهج أهل السنة.

وهذه أجوبة موجزة عن هذه الشبهات، تبين عن جهل القوم بحقائق التوحيد:

أما الأول: فكون التعاقب والتوالي في كلام الله دليلا على الحدث إيراد عقلي فاسد، تبعوا فيه المعتزلة الجهمية، وأولئك لم يثبتوه عن أصل معصوم، وإنما هو الرأي الفاسد، وقد بينت بطلانه في معرض الرد على شبهات المعتزلة.

وأما الثاني: فكون الحروف والأصوات لا تكون إلا بمخارج فمن أفسد اعتراضاتهم، وذلك من وجوه:

الأول: أنه قياس للرب تعالى على المخلوق، فإنهم تصوروا كلام المخلوق بأنه لا يكون إلا بمخارج، فقالوا مثله في ربهم، وهذا نقض لقاعدة أهل السنة في التنزيه {ليس كمثله شيء}.

والثاني: يلزمهم قول المعتزلة في سائر الصفات، فإنهم يثبتون العلم والسمع والبصر ونحو ذلك من الصفات لله تعالى، والمخلوق يتصف بها أيضا، وهي لا تكون منه إلا بآلة، فالعلم لا يحصل إلا بقلب، والبصر لا يكون إلا بحدقة، والسمع لا يقع إلا من انخراق، وقد ألزمتهم المعتزلة بهذا، فأجابوا: بأن هذا من

=

=

قياس الغائب على الشاهد، وهو باطل، والله تعالى ليس كمثله شيء، فهلا قالوا مثل هذا في صفة الكلام، وأنها بحرف وصوت، لا يشبه كلامه كلام خلقه، ولا صوته أصواتهم؟

والثالث: أن الله تعالى أنطق بعض مخلوقاته بغير مخارج، قال تعالى: {وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء} [فصلت: ٢١]، وسمع النبي -ﷺ- تسبيح الحصى، مما هو معروف مشهور، فبطل ما قعدوه من كون الكلام بحرف وصوت لا يكون إلا بمخارج، وثبث أنه معقول.

وأما الثالث:

فكون الحروف صفة قراءة القارىء مكابرة للحس والعقل، فإن القراءة تطلق في الغالب على المصدر، وقد يراد بها المفعول -كما فصلته في الباب الثاني- والأشعرية يفرقون بين القراءة والمقروء مطلقا، فالقراءة فعل القارىء، والمقروء المفعول، وهذا يوافقهم في إطلاقه بعض أهل السنة كالبخاري رحمة الله، ولكن مرادهم غير مراده، وتفسيرهم غير تفسيره، فإنه رحمه الله كان لقوله قوة من جهة اللغة، وعلماء السنة كالإمام أحمد وغيره أنكروا الإطلاق لدفع الإيهام والإشكال الذي تموه به الجهمية، والبخاري فصل بين القراءة والمقروء، فخص القراءة بفعل القارىء وهو حركة شفتيه وصوته بالقرآن، والمقروء: الذي تتحرك به الشفتان، وتنطق به الألسنة، وتصوت به الحناجر، الذي هو القرآن العربي المؤلف من الحروف والمعاني، والذي هو كلام الله على الحقيقة، وما أراده البخاري من المعنى حق وصواب، وقد ذكرته عنه في الباب الثاني، وبينت غلط اللفظية الأشعرية عليه فيه.

والأشعرية عندهم القراءة والتلاوة هي فعل القارىء والتالي، ويقولون: الحروف داخلة في تلاوة التالي وقراءة القارىء، وهي غير المتلو المقروء.

=

=

فجعلوا الحروف من صفة القراءة لا من صفة المقروء، لأن المقروء عندهم قائم بذات الله، وهو الكلام النفسي، والقراءة عبارة عنه، وهي هذه الحروف العربية التي تنطق بها الألسنة، وتحفظها القلوب، وتخطها الأيدي في المصاحف.

وهذا من أبعد شيء عن الحس السليم، فإن العرب وكل أحد لا يعرف الحروف إلا من صفة الكلام، لا من صفة المتكلم، وفعل المتكلم إنما هو النطق بها ورفع صوته أو خفضه، وكتابتها، وحفظها، ونحو ذلك مما هو فعل نفسه، وهذه المعاني هي التي توصف بالحسن والقبح، ويترتب عليها الثواب أو العقاب.

أما الحروف التي قرأ بها النبي -ﷺ- وبلغها أمته فهي وحي الله وتنزيله وكلامه الذي نزل به جبريل من عنده تعالى، ولقد نزل بها جبريل من عند الله تعالى على سبعة أحرف تخفيفا على الأمة وتيسيرا، وكل ذلك كلامه -عَزَّ وَجَلَّ- على الحقيقة.

ولقد حاول بعض من يوصف بالتحقيق من رؤوس الأشعرية الإكثار من الاستدلال من الكتاب والسنة على الفرق بين التلاوة والمتلو، ولكنها جميعا على مذهب البخاري رحمه الله الذي ذكرناه عنه، أما على تفسير الأشعرية أنفسهم في عد الحروف العربية من صفة القراءة لا من صفة المقروء، فلم يقدروا على الإتيان بحجة واحدة عليه يعول عليها، سوى أصلهم الفاسد الذي أبطلناه فيما سموه بـ (الكلام النفسي).

وحديث أم سلمة الذي ذكروه حجة عليهم، فإن النطق بالحروف هنا غير الحروف، فقراءة النبي -ﷺ- التي تحكيها أم سلمة هنا هي نطقه بالحروف وأداؤه لها، وهو فعله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو مخلوق، أما الحروف التي نطق بها وأداها، والتي لو شاء العاد أن يعدها أحصاها، لوضوح أدائه لها وبيانه، فهي حروف كلام الله العربي المنزل من عنده، وهي غير مخلوقة، وهذا الفصل بين الحروف والنطق بها بين لا يخفى.

=

=

ولكن القوم ضاقوا ذرعا بقول أم سلمة: "ولو شاء العاد أن يعدها أحصاها" فصاروا بين أمرين:

إما أن يثبتوا أن الذي تلاه النبي -ﷺ- من كلام الله الذي هو صفته، فيبطلوا أصلهم، لأن كلام الله عندهم لا يحد ولا يعد وليس هو آيات وسورا.

وإما أن يقولوا: الحروف صفة قراءة القارىء، ورأوا هذه أوفق لمذهبهم، فكابروا وقالوا: هي صفة لقراءة القارىء، لا صفة لكلام الباريء.

وأما وصف كلام الله بالصوت، فلقد عموا عن فقهه، وضلوا عن معرفته، فحسبوا أن قول أهل السنة بإثبات كلام الله تعالى بصوت إثبات أن أصوات التالين هي صفة كلام الله -كما طعنوا فيه على أهل السنة، ونبزوهم بالألقاب لأجله- وحاولوا لأجل هذا الفهم السقيم أن يستدلوا بأدلة إضافة الصوت إلى القارىء، وجعله من فعله، وأهل السنة والأئمة لا يخالفون في هذا المعنى، فإن أصوات القراء بالقرآن من أفعالهم، وهي مضافة إليهم، وأفعالهم مخلوقة وقد شرحت اعتقاد أهل السنة في ذلك في أواخر الباب الثاني بما هذا حاصله.

والسلف والأئمة لا يقولون: إن أصوات القراء صفة لكلام الله، ومن قال ذلك ونقله عنهم فقد أبطل في المقال.

ولكن الصوت الذي هو صفة لكلام الله تعالى هو الذي سمعه موسى حين ناداه ربه وكلمه، وسمعه جبريل عليه السلام حين يوحى إليه بالوحي، ويسمعه العباد يوم القيامة، وهو الذي أثبتناه في اعتقاد السلف في الباب الأول من هذا الكتاب.

وقد فهم بعض الأشعرية هذا المعنى الأخير -الذي هو اعتقاد السلف والأئمة- فرأوا أنه ليس على أصلهم في كون كلام الله معنى مجردا، فنفوه، وقالوا: كلام الله لا يكون بصوت، وأبطلوا بذلك دلائل الكتاب والسنة والمعقول الصريح على صحة هذا المعنى، على ما ذكرناه آنفا في تفسيرهم لسماع موسى عليه السلام كلام الله.

=

=

ولا داعي هنا لسرد دلائل الكتاب والسنة والعقل الصريح على إثبات كون كلام الله تعالى حروفا، وأنه يتكلم بصوت، اكتفاء بما سقناه لذلك في الباب الأول.

وأما الرابع: فكون الحروف متناهية محدودة لها بداية ونهاية وأول وآخر يوردونه على معنيين:

الأول: على عدد الحروف العربية التي هي حروف المعجم.

والثاني: على الكلام العربي الذي بين دفتي المصحف المبدوء بالفاتحة والمختوم بالناس. قالوا: وجميع هذا محصور محدود، وهذه علامة الحدث.

قلنا: كلا، بل كلا الإيرادين باطلان.

أما الأول فإنه لم يقل أحد: إن كلام الله تعالى حروف مجردة: أ، ب، ت... وإنما هو كلام مؤلف منها، وهو أكثر من أن يحصر أو يحد، كما لا يخفى.

فإن اعترض معترض بالحروف التي في أوائل بعض السور، مثل {الم} فجوابه: أن هذه لا تنطق حروفا، وإنما تنطق أسماء، فتقول: (ألف، لام، ميم) وهذا كلام مؤلف، وقد نبهت على هذا في الباب الأول، وأزلت عنه اللبس بفضل الله.

وأما الثاني فهو مبني على بدعة الأشعرية الثانية الناتجة عن أصلهم الفاسد في الكلام، وهي عدم تعلق كلامه تعالى بمشيئته واختياره، لأنه عندهم لا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتبعض، وهو خلاف اعتقاد أهل السنة من السلف والأئمة، فإنه عندهم متعلق بمشيئته واختياره، يتكلم إذا شاء بما شاء، والقرآن -مثلا- المفتتح بالفاتحة والمختتم بالناس بعض كلامه الذي لا يتناهى، لا كل كلامه. وسيأتي قريبا ذكر بدعتهم هذه ونقضها.

وأما الخامس: فمثل ما سبق في الفساد والبطلان أو أشد، وذلك أن القوم يطلقون القول بخلق حروف المعجم، فلما رأوا كلام الله العربي مؤلفا منها قالوا: لا يكون إلا مخلوقا، لأن الحروف مخلوقة.

=

=

وهذا الإطلاق ليس لديهم عليه حجة، ومثله يحتاج إلى توقيف، والدعوى المجردة لا يعول عليها في مواطن النزاع، فكيف يقوم على أساسها الاعتقاد؟

والفيصل في هذه القضية هو: أن الكلام إنما يضاف لمن قاله منشئا مبتدئا، فكلام الله تعالى مضاف إليه، وهو صفته، فهو غير مخلوق، لأن صفاته تعالى غير مخلوقة، وكلام المخلوق الذي ينشئه من نفسه ويبتديه مضاف إليه، وهو مخلوق، لأن الصفة تابعة للموصوف، فحين كانت للخالق كانت غير مخلوقة، وحين كانت للمخلوق كانت مخلوقة، فإذا قال قائل: (محمد رسول الله) فهذا كلام، تكلم به الله تعالى، ويتكلم به المخلوق من نفسه لا يريد به القرآن، ففي الحالة الأولي غير مخلوق، لأنه أراد به كلام الله، وفي الحالة الثانية مخلوق، لأنه أراد كلام نفسه.

يوضحه صفة العلم، فعلم المخلوق الذي يكتسبه -سوى وحي الله وتنزيله- مخلوق، وهو معلوم لله تعالى، حواه علم الله تعالى وأحاط به، فباعتبار إضافته للمخلوق فهو مخلوق، وباعتبار إضافته للخالق فغير مخلوق، والله تعالى ليس كمثله شئ في ذاته، وصفاته، وأسمائه، فليس ككلامه كلام، ولا كصوته صوت، ولا كفعله فعل.

قال شيخ الإسلام: "وأصل هذا أن ما يوصف الله به ويوصف به العباد، يوصف الله به على ما يليق به، ويوصف به العباد بما يليق بهم من ذلك، مثل الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام، فإن الله له حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وكلام، فكلامه يشتمل على حروف، وهو يتكلم بصوت نفسه، والعبد له حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وكلام، وكلام العبد يشتمل على حروف، وهو يتكلم بصوت نفسه.

فهذه الصفات لها ثلاث اعتبارات: تارة تعتبر مضافة إلى الرب. وتارة تعتبر مضافة

=

=

إلى العبد. وتارة تعتبر مطلقة لا تختص بالرب ولا بالعبد.

فإذا قال العبد: حياة الله، وعلم الله، وقدرة الله، وكلام الله، ونحو ذلك، فهذا كله غير مخلوق، ولا يماثل صفات المخلوقين.

وإذا قال: علم العبد، وقدرة العبد، وكلام العبد، فهذا كله مخلوق، ولا يماثل صفات الرب. وإذا قال: العلم، والقدرة، والكلام، فهذا مجمل مطلق لا يقال عليه كله: إنه مخلوق، ولا إنه غير مخلوق، بل ما اتصف به الرب من ذلك فهو غير مخلوق، وما اتصف به العبد من ذلك فهو مخلوق، فالصفة تتبع الموصوف، فإن كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة، وإن كان الموصوف، هو العبد المخلوق فصفاته مخلوقة".

وقد سبق إيرادنا لقول الإمام أحمد في ذلك، حين سأله الحافظ أحمد بن الحسن الترمذي، قال: قلت لأحمد بن حنبل: إن الناس قد وقعوا في أمر القرآن، فكيف أقول؟ قال: "أليس أنت مخلوقا؟ " قلت: نعم، قال: "فكلامك منك مخلوق؟ " قلت: نعم، قال: "أو ليس القرآن من كلام الله؟ " قلت: نعم. قال: "وكلام الله؟ " قلت: نعم، قال: "فيكون من الله شيء مخلوق؟! ".

قلت: وهذا الفرق بين لا يخفى.

وأما السادس:

فهو قياس ظاهر لصفة الخالق على صفة المخلوق، وتكييف لها، وهو منتقض بالقاعدة السنية السلفية: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

فهذه الأجوبة المدحضة لجملة هذه التشكيكات والتلبيسات التي أوردها الأشعرية وموافقوهم، وهي تنبيك عن شدة تناقض القوم.

ولهم في تفصيل ذلك من التناقض شيء كثير، ولكن مرجع ذلك أجمع إلى ما بينته.

=

=

• البدعة الثانية: أن الله تعالي لا يتكلم بمشيئته واختياره:

شرحت في اعتقاد السلف الأئمة من أهل السنة اعتقادهم في أن الله تعالى يتكلم بمشيئته واختياره، أي متى شاء تكلم، ومتى شاء لم يتكلم، يتكلم بكلام بعد كلام، فهو متكلم أزلا وأبدا، تكلم قبل خلق الخلق، وبعد خلقهم، وكلم من شاء من ملائكته ورسله في الدنيا، ويكلم من شاء من عباده في الآخرة، وصفة الكلام ثابتة له أزلا وأبدا، وكل ذلك واقع على الحقيقة لا على المجاز.

وذلك أن الله تعالى له صفات الكمال، وكل صفة كمال لا نقص فيه فالله يتصف بها، والكلام صفة كمال، فإن من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، والذي يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وهو إما أن يكون قادرا على الكلام أو غير قادر، فإن لم يكن قادرا فهو الأخرس، وإن كان قادرا ولم يتكلم مطلقا إلا إذا مكن أو استنطق فهو لا يتكلم بمشيئته واختياره، وليست هذه ولا تلك صفة لله.

وهذا الاعتقاد لا تقر به الأشعرية، لأن ما تعلق عندهم بالمشيئة والاختيار مخلوق، والله تعالى لا يقوم به شيء يتعلق بمشيئته وقدرته.

وهذا مما نتج عن أصلهم الفاسد في كون كلام الله تعالى معنى أزليا واحدا، ومما وافقوا فيه الجهمية.

قال شيخ الإسلام: "وهؤلاء وافقوا الجهمية والمعتزلة في أصل قولهم: إنه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته، وإنه لا تقوم به الأمور الاختيارية، وإنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السماوات والأرض، ولا يأتي يوم القيامة، ولم يناد موسى حين ناداه، ولا تغضبه المعاصي، ولا ترضيه الطاعات، ولا تفرحه توبة التائبين".

قلت: لأن الله عندهم لا يوصف بالرضا والغضب والفرح، ولا بالإتيان والمجيء،

=

=

ولا بالاستواء على العرش بعد خلق السماوات والأرض، وهو خلاف ما نطق به الكتاب العزيز من أنه كان بعد خلق السماوات والأرض.

وهذا المعنى الذي ذكرناه عن الأشعرية من عدم تعلق كلامه تعالى بمشيئته وقدرته، لم يتصوروه هم أنفسهم، ولم يقدروا على تفسيره بتفسير معقول واضح، إلا على معنى إبطال حقيقة الكلام.

وهذا كلام بعض محققيهم يفصح لك عن حقيقة اعتقادهم:

قال ابن فورك: "كلام الله تعالى أزلي قديم، سابق لجملة الحوادث، وإنما أسمع وأفهم لمن أراد من خلقه على ما أراد في الأوقات والأزمنة، لا أن [عين] كلامه يتعلق وجوده بمدة وزمان".

وقال: "نقول: إن الله لم يزل متكلما، ولا يزال متكلما، وأنه قد أحاط كلامه بجميع معاني الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وأن العبارات عنه والدلالات كثيرة تتجدد وتتزايد، ولا يزيد بتزايد العبارات كما أن الدلالات على الله عز ذكره تتجدد وتتزايد، ولا يقتضي تجدد المدلول وتزايده، فإذا حصلت هذا الأصل علمت حقيقة ما نقول".

وقال: "إن كلام الله لم يزل ولا يزال موجودا، فإنه يفهم خلقه معاني كلامه أولا فأولا، وشيئا فشيئا، وأن الذي يتجدد الإسماع والإفهام دون المسموع المفهوم".

وقال حول ما ورد من تكليم الله لعباده يوم القيامة: "والصحيح أن يقال: إن كلام الله لم يزل ولا يزال، وإنه مسمع من يشاء من خلقه، ومفهم من أراد منهم إفهامه في الوقت الذي يريد أن يسمعه ويفهمه ما يريد من ذلك، من غير تجديد قول ولا كلام، وإذا قيل في ألفاظ هذه الأخبار: يقول الله، ويتكلم الله، فليس المراد به تجديد القول والكلام، وإنما المراد تجديد الإسماع والإفهام للقول الذي لم يزل".

=

=

وصرح بإنكار قول من يقول: إن الله يتكلم مرة بعد أخرى، وعلل ذلك بقوله: "لأن ذلك يوجب حدث الكلام".

وقال الباجوري في تكليم الله لموسى: "وليس المراد أنه تعالى يبتديء كلاما ثم يسكت، لأنه لم يزل متكلما أزلا وأبدا".

قلت: وفي هذا الكلام عدة أمور:

الأول: أن صفة الكلام الثابتة لله تعالى هي المعنى القديم، لا أول لها ولا آخر.

والثاني: أن الذي يوحى للرسل، وغيرهم مما يتعلق بالأزمنة والأمكنة هو العبارات عن هذا الكلام، والدلالات عليه، وهي مخلوقة، كالذي سمع موسى حين أتى الشجرة.

والثالث: أن قول الله لما يريد تكوينه (كن) وما يوحي إلى رسله من الكلام المعبر عنه بعبارات كالقرآن والتوراة والإنجيل، كل ذلك معنى ثابت في الأزل، ولا يزال، وإنما تكون الأشياء في الأوقات التي شاء الله فيها كونها، لا أنه يتجدد قوله لما يريد تكوينه (كن) وينزل على رسله العبارات عن كلامه، وهي المتجددة الموصوفة بالابتداء والانتهاء والتقدم والتأخر كالتوراة والإنجيل والقرآن، أما الكلام القديم فثابت لا يتجدد.

وجملة هذه الأمور هي ما يعبر عنه بأن كلام الله غير متعلق بمشيئته واختياره.

ولم يعقل القوم أن هذه صفة نقص وعجز، لا تليق بالمخلوق الضعيف فكيف جعلوها لائقة بربهم تعالى وهو القدوس السلام؟

وإن مما اضطربوا فيه بسبب هذه البدعة الأمر والنهي، فقال: الأمر والنهي وصفان للكلام، والله لم يزل آمرا ناهيا، ولا يزال آمرا ناهيا، كما أنه لا يزال متكلما، وهذا يقتضي القول بجواز خطاب المعدوم، بمعنى أن الله خاطب العباد بالأمر والنهي أزلا قبل خلق الخلق، أمرا ونهيا لا أول له، فافترقوا إزاء هذا فريقين:

=

=

الأول: قالوا بجواز خطاب المعدوم، فكلام الله لم يزل أمرا ونهيا للمكلفين الذين خلقوا بعد ذلك، بشرط أن يفعلوا ما أمروا به بعد الوجود والبلوغ ووفور العقل.

والثاني: قالوا بعدم جواز خطاب المعدوم قبل خلق الخلق، فهؤلاء منهم لا يصفون الله بكونه آمرا ناهيا، وإنما يقولون: صار كلامه أمرا ونهيا عند توجه اللزوم على المكلف.

وكلا المذهبين فاسدان.

أما الأول فبما نقضناه عليهم في قولهم: كلام الله معنى مجرد، وإقامة الأدلة على أن كلامه تعالى متعلق بمشيئته واختياره، يتكلم بأمره ونهيه وخبره تعالى إذا شاء، ومتى شاء.

وأما الثاني فمقتضاه القول بأن كلام الله مخلوق جميعا، لأنه لا يعرف الكلام إلا ما كان خبرا أو إنشاء، وعند هؤلاء ما لا يسبق الحوادث فهو حادث، والخبر والإنشاء لم يكونا إلا بعد وجود المكلف، فالمكلف سابق الوجود للأمر والنهي والخبر، فهي مخلوقة على أصلهم، وهل كلام الله إلا الأمر والنهي والخبر؟

وهذا القول مقتض أن يكون معنى كلام الله مخلوقا أيضا لا ألفاظه فحسب، وبهذا يبطل دين الأشعرية في إثبات صفة الكلام، فليس ثم معنى قديم، وهم أنفسهم لم يكونوا يتصورون معنى قديما هو الأمر والنهي والخبر، فكيف يمكنهم تصور كلام هو معنى ليس بأمر ولا نهي ولا خبر؟

فمحصل ما ذكرنا أن الأشعرية مضطربون كل الاضطراب في إثبات مذهبهم، وسبب فلك عجزهم عن تصوره وإدراكه، وإلا فكيف يمكن وقوع الكلام من موصوف به من غير أن يكون بقدرته ومشيئته؟

وهم ينزهون الله تعالى عن الخرس والسكوت، ومعنى هذا على التحقيق أنه متكلم بالحروف والأصوات، لأن الخرس عدم القدرة على الكلام، والسكوت

=

=

عدم النطق بالكلام، لكن القوم فروا من هذه الحقيقة التي لا يعقل العاقل سواها إلى خرافة لا يستسيغها الصبيان، فضلا عن العقلاء العارفين، فقالوا: الخرس والسكوت نفسيان، فالذي ينزه الله عنه عندهم هو الخرس النفسي والسكوت النفسي، أرأيت كلاما أشبه بالسفسطة من هذا؟!

فتأمل رحمك الله اعتقاد السلف والأئمة، وانظر بيانه وظهوره وقوة حجته ودليله، وقارنه بهذه السفاهات الأشعرية وغيرها يجل لك الحق وينقطع عنك الشك والريب، فإن اعتقاد السلف لا يرد عليه بفضل الله شيء من أقوال أهل البدع، وقد كفيناكه في الباب الأول ولله الحمد.

وأما ما حاول أهل البدع أن يموهو به فهو دليل حيرتهم، وهو حجة عليهم لو عقلوه -كما قد رأيت- ولو أنهم تركوا الكلام المذموم وأقبلوا على الوحي المعصوم لسلم لهم دينهم.

* القرآن العربي عند الأشعرية.

بينت في شرح اعتقاد السلف أن هذا القرآن العربي المؤلف من الحروف العربية، المشتمل على المعاني من الأوامر والنواهي، والأخبار، وغير ذلك مما خاطب الله تعالى به العباد، وأنزله على رسوله محمد -ﷺ- بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، على الأحرف السبعة تيسيرا على الأمة، وهذا القرآن هو كلام الله على الحقيقة بألفاظه ومعانيه، وبحروفه وكلماته وآياته وسوره، غير مخلوق، من أول الفاتحة إلى آخر الناس، لا قرآن سواه، وبسطت ذلك بالأدلة، وبينت في الباب الثاني في إقامة الحجة على بطلان اعتقاد اللفظية، الذين يعتقدون خلق الألفاظ العربية، بالحجج القواطع من كتاب الله تعالى واعتقاد السلف، وسقت هناك من نصوص الأئمة ما فيه الكفاية والمقنع لمن طلب الهدى وقصده، ورام اتباع السلف وترك البدع.

=

ولكن الأشعرية -رأس القائلين بخلق الألفاظ- أبوا التسليم لهذا المعتقد السلفي، وقالوا فيه بقول الجهمية الضلال: بأنه مخلوق، وليس هو كلام الله على الحقيقة، وإنما هو عبارة عنه، لأن كلام الله عندهم هو المعنى القائم بنفسه -كما شرحناه عنهم-.

وهذا القول فاقوا فيه المعتزلة، لأن المعتزلة كانوا يسمون هذا القرآن العربي كلام الله، ويصفونه بالخلق، أما هؤلاء فوافقوهم في وصفه بالخلق، لكنهم زادوا عليهم نفي كونه كلام الله، وهذا وإن كان حقيقة قول المعتزلة، إلا أنهم لم يصرحوا به تصريح الأشعرية.

ويتلخص اعتقادهم في القرآن العربي في الأمور الآتية:

١ - هو عبارة ودلالة على الكلام القديم، وليس هو الكلام القديم.

٢ - لا يسمى كلام الله على الحقيقة، إلا على معنى أنه خلقه في اللوح المحفوظ أو غيره.

٣ - يسمى كلام الله مجازا من تسمية الدال باسم المدلول.

٤ - الأكثرون منهم على أنه مخلوق في اللوح المحفوظ، ومنهم من قال: في غيره، ومنهم من قال: هو قول جبريل عليه السلام، ومنهم من قال: هو قول محمد -صلى الله عليه وسلم-.

٥ - لم ينزل إلى الأرض إلا ما هو مخلوق.

وهذه بعض نصوصهم الصريحة تثبت صحة ما ذكرته عنهم:

قال أبو بكر الباقلاني: "إن الكلام الحقيقي هو المعنى الموجود في النفس، لكن جعل عليه أمارات تدل عليه، فتارة تكون قولا بلسان على حكم أهل ذلك اللسان وما اصطلحوا عليه وجرى عرفهم به وجعل لغة لهم، وقد بين تعالي ذلك بقوله: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} [إبراهيم: ٤] فأخبر تعالي أنه أرسل موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل بلسان عبراني، فأفهم كلام الله القديم القائم =

=

بالنفس بالعبرانية، وبعث عيسى عليه السلام بلسان سرياني، فأفهم قومه كلام الله القديم بلسانهم، وبعث نبينا -صلى الله عليه وسلم- بلسان العرب، فأفهم قومه كلام الله القديم القائم بالنفس بكلامهم، فلغة العرب غير لغة العبرانية، ولغة السريانية غيرهما، لكن الكلام القديم القائم بالنفس شيء واحد لا يختلف ولا يتغير... ".

حتى قال: "فصح أن الكلام الحقيقي هو المعنى القائم بالنفس دون غيره، وإنما الغير دليل عليه بحكم التواضع والاصطلاح، ويجوز أن يسمى كلاما إذ هو دليل على الكلام، لا أنه نفس الكلام الحقيقي".

ويفصح عن منشيء هذا الكلام العربي فيقول: "والمنزول به هو اللغة العربية التي تلا بها جبريل، ونحن نتلو بها إلى يوم القيامة، لقوله تعالى: {بلسان عربي مبين} [الشعراء: ١٩٥] والنازل على الحقيقة، المنتقل من قطر إلى قطر قول جبريل عليه السلام، يدل على هذا قوله تعالى: {فلا أقسم بما تبصرون (٣٨) وما لا تبصرون (٣٩) إنه لقول رسول كريم...} وذكر الآيات، ثم ذكر آية التكوير، ثم قال: "وهذا إخبار من الله تعالى بأن النظم العربي الذي هو قراءة كلام الله تعالى هو قول جبريل، لا قول شاعر، ولا قول كاهن... ".

قلت: وقد بينا الحق في تفسير آيتي الرسولين في الباب الثاني في شرح مسألة اللفظ، بما يبطل مذهب الباقلاني ومن تابعه، فارجع إليه.

وقال صاحب "كفاية العوام" -منهم-: "وليس المراد بكلامه تعالى الواجب له تعالى الألفاظ الشريفة المنزلة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأن هذه حادثة، والصفة القائمة بذاته تعالى قديمة، وهذه مشتملة على تقدم وتأخر وإعراب وسور وآيات، والصفة القديمة خالية عن جميع ذلك، فليس فيها آيات، ولا سور، ولا إعراب، لأن هذه تكون للكلام المشتمل على حروف وأصوات، والصفة القديمة منزهة عن الحروف والأصوات".

=

=

حتى قال: "ويسمى كل من الصفة القديمة والألفاظ الشريفة: قرآنا، وكلام الله، إلا أن الألفاظ الشريفة مخلوقة، مكتوبة في اللوح المحفوظ، نزل بها جبريل عليه السلام على النبي -ﷺ-، بعد أن نزلت في ليلة القدر في بيت العزة: محل في سماء الدنيا".

وقال الباجوري: "مذهب أهل السنة -يريد الأشعرية- أن القرآن بمعنى الكلام النفسي ليس بمخلوق، وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق"

وقال: "من أضيف له كلام لفظي دل عرفا أن له كلاما نفسيا، وقد أضيف له تعالي كلام لفظي، كالقرآن، فإنه كلام الله قطعا، بمعنى أنه خلقه في اللوح المحفوظ، فدل التزاما على أن له تعالى كلاما نفسيا، وهذا هو المراد بقولهم: القرآن حادث، ومدلوله قديم، فأرادوا بمدلوله الكلام النفسي، وتكفي الإضافة الإجمالية وإن لم يكن اللفظي قائما بالذات".

وقال صاحب "الجوهرة":

فكل لفظ للحدوث دلا... احمل على اللفظ الذي قد دلا

فقال الباجوري في "شرحه": " (على اللفظ) أي على القرآن، بمعنى: اللفظ المنزل على نبينا -ﷺ-، المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه، والراجح أن المنزل اللفظ والمعنى، وقيل: المنزل المعنى، وعبر عنه جبريل بألفاظ من عنده، وقيل: المنزل المعنى، وعبر عنه النبي -ﷺ- بألفاظ من عنده، لكن التحقيق الأول، لأن الله خلقه أولا في اللوح المحفوظ، ثم أنزله في صحائف إلى سماء الدنيا، في محل يقال له: بيت العزة، في ليلة القدر، كما قال تعالى: {إنا أنزلناه في ليلة القدر} ثم أنزله على النبي -ﷺ- مفرقا بحسب الوقائع".

حتى قال: "والحاصل أن كل ظاهر من الكتاب والسنة دل على حدوث القرآن فهو محمول على اللفظ المقروء، لا على الكلام النفسي".

قلت: يعنون بهذا قوله تعالى: {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث} وما في معناه

=

=

مما ذكرناه عن أسلافهم الجهمية في الفصل السابق، وأظهرنا زيفهم فيه.

فهذه نصوص بعض محققي الأشعرية، وهي أبين من أن تشرح، وأصرح من أن توضح، مصرحة بخلق هذا القرآن العربي الذي يقول الله تعالى فيه: {وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله} [يونس: ٣٧] والذي تحدى الخلق أن يأتوا بسورة مثله، فوافقوا الجهمية في قولهم، ونبذوا مذهب السلف وأهل السنة واعتقادهم وراء ظهورهم، وكابروا، فتظاهروا بالرد على الجهمية، والانتساب لأهل السنة، وسأذكر لك قريبا مقالة أحد فحولهم في أنهم موافقون للمعتزلة في هذه القضية، تنبيك عن براءتهم من اعتقاد أهل السنة من السلف والأئمة في مسألة كلام الله تعالى.

ولقد أبطلت قول هؤلاء اللفظية في الباب السابق، بما فيه غنية إن شاء الله.

وأقول هنا إلزاما وإفحاما: لقد صرحتم -معشر الأشعرية- في غير موضع من كتبكم في صدد الرد على المعتزلة، بأن كلام الله لوكان مخلوقا لكان مخلوقا في محل، ولكان صفة لذلك المحل الذي خلق فيه، لا صفة لله تعالى.

وقولكم هذا صواب ومعقول موافق للمنقول، فإنه إذا خلق الله تعالى حركة أو وصفا في محل كان ذلك المحل هو المتحرك الموصوف بذلك الوصف، لا الخالق تعالى، فإنه لا يوصف بخلقه، فكلامه تعالى المضاف إليه صفته، فإن قيل: مخلوقة، وجب أن تكون قائمة بمخلوق لا بالله تعالى، وأنتم تقرون بهذا، فإذا كانت قائمة بمخلوق لم تجز إضافتها لله تعالى على أنها صفة له، وهذا موافق لإلزامكم للمعتزلة.

وهذا القرآن العربي معلوم الإضافة إلى الله تعالى بالضرورة، فإن الأمة متفقة على ذلك، وقد تلقت ذلك عن رسول الله -ﷺ- على أنه كلام الله لا كلام غيره، ففي نفي إضافته إلى الله تكذيب للرسول -ﷺ- بما جاء

=

=

به، وتجهيل للصحابة رضي الله عنهم، وهم أجل من أن يجهلوا أنه لو كان مخلوقا لكان مخلوقا في محل، فيكون بهذا صفة لذلك المحل لا لله تعالى.

وأنتم -معشر الأشعرية- قلتم: إن الله خلقه، قال أكثركم: في اللوح المحفوظ، وقال آخرون: في غيره.

وهذا يلزمكم على أصلكم الذي ألزمتم به المعتزلة أن يكون كلام اللوح، لا كلام الله، فلا يحسن منكم إضافته إلى الله بحال من الأحوال، ولكنكم أردتم التشبيه على الأمة والتلبيس عليها، وستر مقالتكم الشنيعة التي هي في الحقيقة مقالة الجهمية، فكسوتموها زورا بكساء أهل السنة، لتخفوا حقيقة أمركم.

فكذبتم الرسول -صلى الله عليه وسلم- في أنه كلام الله، وجهلتم أصحابه والتابعين لهم بإحسان، الذين لم يكونوا يعرفون هذا القرآن العربي إلا أنه كلام الله ووحيه وتنزيله.

بل تبجح بعضكم فافترى، وزاد إفكا أنه قول جبريل، ولبس على الناس بما لم يفهمه هو من القرآن، وأضل منه وأكفر من قال منكم: إنه من إنشاء النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأنتم أيها المساكين توردون خلاف أصحابكم في كونه مخلوقا في اللوح، أو في الهواء، أو في جبريل، أو محمد -صلى الله عليه وسلم-، مورد مسائل الفروع الخلافية.

وأما قول إمامكم الجويني ومن تبعه: إن إطلاق كلام الله على الكلام النفسي، والنظم العربي، حقيقة فيهما جميعا، فهو أبعد شيء عن المعقول الذي تدعونه، فإنه إن كان كلام الله على الحقيقة على هذه المقالة، بطل أن يكون مخلوقا، سواء كان ما سميتموه بالكلام النفسي، أو النظم العربي، وهذا يبطل أصلكم، ولكن الأمر ينطوي على سر لا تظهرونه على كل حال خشية أن تبدو سوآتكم، وتنكشف عوراتكم، وهو الذي صرح به شارح الجوهرة حين قال: "إنه كلام الله قطعا، بمعنى أنه خلقه في اللوح المحفوظ" فهذه الحقيقة المرادة عندكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإن قيل: إنه كله كلام الله تكلم به، وبلغه عنه جبريل

=

=

إلى محمد -كما هو المعلوم من دين المرسلين- كان هذا صريحا بأنه لا فرق بين الحروف والمعاني، وأن هذا من كلام الله، كما أن هذا من كلام الله، وإن قيل؛ إنه خلق في غيره حروفا منظمة دلت على معنى قائم بذاته، فقد صرح بأن تلك الحروف المؤلفة ليست كلامه، وأنه لم يتكلم بها بحال، وإذا قيل: إن تلك تسمى كلاما حقيقة، وقد خلقت في غيره، لزم أن تكون كلاما لذلك الغير، فلا يكون كلام الله، وهو خلاف المعلوم من دين الإسلام، وإن قيل: لا يسمى كلاما حقيقة كان خلاف المعلوم من اللغة والشريعة ضرورة".

فالتحقيق الذي لا مرية فيه أن الأشعرية يعتقدون أن القرآن العربي مخلوق، وهذا عين قول المعتزلة الجهمية.

شبهة:

ومع التحقيق الذي ذكرنا في اعتقادهم، فإنهم نصوا على أن القرآن الذي نتلوه كلام الله، متلو بألسنتنا على الحقيقة، مكتوب في مصاحفنا على الحقيقة، محفوظ في صدورنا على الحقيقة، مسموع بأسماعنا على الحقيقة.

وهذه شبهة التبست حقيقتها على كثير من الناس، وخاصة من بعض إخواننا السلفيين، فإنهم لما رأوا ذلك في "الإبانة" للأشعري، وغيره من أتباعه، حسبوها موافقة منهم لاعتقاد أهل السنة. وليس الأمر كذلك، فإن القوم حين فصلوا اعتقادهم بان حقيقة المعنى الذي أرادوا وراء هذه الألفاظ المجملة، بل إنهم فسروها في غير موضع.

قال أبو القاسم القشيري -وهو من كبار محققيهم- في "شكاية أهل السنة" وهو يذب عن الأشعري: "بل القرآن مكتوب في المصحف على الحقيقة، والقرآن كلام الله، وهو قديم غير مخلوق، لم يزل الله به متكلما، ولا يزال به قائلا، ولا يجوز انفصال القرآن عن ذات القديم سبحانه، ولا الحلول في المحال، وكون

=

=

الكلام مكتوبا على الحقيقة في أبواب لا يقتضي حلوله فيه، ولا انفصاله عن ذات المتكلم، قال الله تعالى: {النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة} [الأعراف: ١٥٧] فالنبي -ﷺ- على الحقيقة مكتوب في التوراة، فكذلك القرآن على الحقيقة مكتوب في المصاحف، محفوظ في قلوب المؤمنين، مقروء متلو على الحقيقة بألسنة القارئين من المسلمين، كما أن الله على الحقيقة لا على المجاز معبود في مساجدنا، معلوم في قلوبنا، مذكور بألسنتنا".

قلت: فأفصح بالمثل الذي ضربه عن حقيقة هذه المقالة، فإن الذي في التوراة هو ذكر النبي -ﷺ-، لا عينه، وهذا مما لا يشك فيه أحد، فالمكتوب على الحقيقة في التوراة هو ذكره -ﷺ-، كما أن المذكور بالألسنة على الحقيقة هو اسمه تعالى، فليس مراد القوم أن القرآن الذي هو كلام الله عندهم لا النظم العربي مكتوب في المصاحف على الحقيقة، بمعنى أن عين كلام الله تعالى مكتوب في المصاحف، أو عين كلامه محفوظ في الصدور، أو عين كلامه مسموع بالآذان، وإنما كتابة ذلك وقراءته وتلاوته، وهذه جميعا معاني مخلوقة عندهم، إذ هي العبارات عن الكلام القديم.

وأفصح عن ذلك ابن فورك، فقال: "كلام الله تعالى محفوظ في القلوب، متلو بالألسنة، مكتوب في المصاحف، كما أن الله جل ذكره مذكور بالألسنة، معبود بالجوارح، ولا يجوز أن يكون في شيء من ذلك حالا، ومثل هذا قوله تعالى: {وأشربوا في قلوبهم العجل} [البقرة: ٩٣] والمراد حب العجل، لأن العجل لم يحل في قلوبهم، واعلم أنا لا نأبى أن كلام الله تعالى محفوظ على الحقيقة بحفظ في القلوب، مكتوب على الحقيقة في المصاحف كتابة حالة فيها، متلو بالألسنة بتلاوة فيها، مسموع في الأسماع، غير حال في شيء من هذه المخلوقات، ولا نجاوز".

=

=

وقال عبد القاهر: "ونقول: كلام الله في المصحف مكتوب، وفي القلب محفوظ، وباللسان متلو، ولا يقال: إنه في المصاحف مطلقا، ولا نقول على الإطلاق: إن كلام الله سبحانه في محل، ولكن نقول على التقييد: إنه مكتوب في المصاحف".

فهذا صريح منهم أن ما بين الدفتين كتابة كلام الله التي هي الألفاظ العربية، لا كلام الله، وما قد شرحناه عنهم فيما مضى كاف في توضيح هذا المراد، ورفع الإشكال الوارد بسببه.

وقد ذكر شيخ الإسلام أنهم غلطوا في التمثيل الذي ذكروه غلطين: غلطا في تصوير مذهبهم، وغلطا في الشريعة.

قال رحمه الله: "أما الغلط في تصوير مذهبهم، فكان الواجب أن يقولوا: إن القرآن في المصحف مثل ما إن العلم والمعاني في الورق، فكما يقال: العلم في هذا الكتاب، يقال: الكلام في هذا الكتاب، لأن الكلام عندهم هو المعنى القائم بالذات، فيصور له المثل بالعلم القائم بالذات، لا بالذات نفسها.

وأما الغلط في الشريعة، فيقال لهم: إن القرآن في المصاحف مثلما أن اسم الله في المصاحف، فإن القرآن كلام، فهو محفوظ بالقلوب، كما يحفظ الكلام بالقلوب، وهو مذكور بالألسنة كما يذكر الكلام بالألسنة، وهو مكتوب في المصاحف والأوراق، كما أن الكلام يكتب في المصاحف والأوراق، والكلام الذي هو اللفظ يطابق المعنى ويدل عليه، والمعنى يطابق الحقائق الموجودة.

فمن قال: إن القرآن محفوظ كما أن الله معلوم، وهو متلو كما أن الله مذكور، ومكتوب كما أن الرسول مكتوب، فقد أخطأ القياس والتمثيل بدرجتين، فإنه جعل وجود الموجودات القائمة بأنفسها بمنزلة وجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها، والمسلمون يعلمون الفرق بين قوله تعالى: {إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون} [الواقعة: ٧٧ – ٧٨] وبين قوله تعالى: {وإنه لفي زبر الأولين}

=

=

[الشعراء: ١٩٦] فإن القرآن لم ينزل على أحد قبل محمد لا لفظه ولا جميع معانيه، ولكن أنزل الله ذكره، والخبر عنه، كما أنزل ذكر محمد والخبر عنه.
فذكر القرآن في زبر الأولين كما أن ذكر محمد في زبر الأولين، وهو مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، فالله ورسوله معلوم بالقلوب، مذكور بالألسن، مكتوب في المصحف، كما أن القرآن معلوم لمن قبلنا، مذكور لهم، مكتوب عندهم، وإنما ذاك ذكره والخبر عنه، وأما نحن فنفس القرآن أنزل إلينا، ونفس القرآن مكتوب في مصاحفنا، كما أن نفس القرآن في الكتاب المكنون، وهو في الصحف المطهرة.
ولهذا يجب الفرق بين قوله تعالى: {وكل شيء فعلوه في الزبر} [القمر: ٥٢] وبين قوله تعالى: {وكتاب مسطور (٢) في رق منشور} [الطور: ٢ - ٣] فإن الأعمال في الزبر كالرسول وكالقرآن في زبر الأولين، وأما الكتاب المسطور في الرق المنشور، فهو كما يكتب الكلام نفسه في الصحيفة، فأين هذا من هذا؟ ".
قلت: فتأمل -أرشدك الله- مدى تناقض القوم المتبجحين بمعرفة المعقول، المجانبين لما جاء به الرسول -ﷺ-.
تنبيه:
ترى في بعض نصوص الأشعرية المذكورة قريبا وغيرها، تنزيههم القرآن الذي هو كلام الله عن الحلول في المصحف، ولو طلبت تفسير الحلول في كلامهم وجدتهم يريدون تنزيه كلام الله تعالى الذي هو صفته عن الكون في الورق، لأن هذا بزعمهم بينونة للصفة عن الموصوف ومفارقة له، فيرون أنهم إن أقروا بأن كلام الله على الحقيقة في المصحف أبطلوا أن تكون لله تعالى صفة الكلام، لأن كلامه حينئذ ينتقل ويحل في الورق.
وهذا منهم جهل بحقيقة الأمر، فإن نقل الكلام ليس كنقل الحجر والصخر، فنقل
=

=

الحجر والصخر يزيله عن موضعه إلى الموضع الذي نقل إليه، بخلاف الكلام، فهذا رسول الله -ﷺ- كان يحدث أصحابه بالسنن والشرائع، وأصحابه يحفظون ذلك وينقلونه عنه، فهل ما علمهم من قوله -ﷺ- وحفظوه زال عنه وفارقه؟ لا يعقل هذا عاقل، وإلا كان ما يتكلم به المتكلم لا يقدر أن يتكلم به أكثر من مرة، وإن قلنا: فارقته صفة الكلام وانتقلت إلى غيره بسماع ذلك الغير هذا الكلام وحفظه له، لما صح أن يبقى وصف الكلام لازما له، ولعاد أبكم بعد تكلمه مرة، وهذا غير معقول ولا متصور. ولو صح ما قالوه -أيضا- لما صحت إضافة الكلام إلى من قاله إبتداء، فالحديث -مثلا- سمعه أبو هريرة رضي الله عنه من النبي -ﷺ-، يضاف على قول هؤلاء إلى أبي هريرة لا إلى النبي -ﷺ-، لأنه فارق النبي -ﷺ- بتكلمه به وحل في أبي هريرة فصار قولا لأبي هريرة، وهذا المعنى زيغ وضلال ومجانبة للفهم السليم، وبعد عن الصراط المستقيم.

قال شيخ الإسلام: "ولهذا يقال: فلان ينقل علم فلان، وينقل كلامه، ويقال: العلم الذي كان عند فلان صار إلى فلان، وأمثال ذلك، كما يقال: نقلت ما في الكتاب، ونسخت ما في الكتاب، أو نقلت الكتاب أو نسخته، وهم لا يريدون أن نفس الحروف التي في الكتاب الأول عدمت منه، وحلت في الثاني، بل لما كان المقصود من نسخ الكتاب من الكتب ونقلها من جنس نقل العلم والكلام، وذلك يحصل بأن يجعل في الثاني مثل ما في الأول، فيبقى المقصود بالأول منقولا منسوخا، وإن كان لم يتغير الأول؛ بخلاف نقل الأجسام وتوابعها، فإن ذلك إذا نقل من موضع إلى موضع زال عن الأول".

فهذا النظم العربي مكتوب فيما لا يحصى من المصاحف، ويحفظه من لا يحصيهم إلا الله من الخلائق، وهو نفسه الذي سمعه الصحابة من رسول الله -ﷺ-، قرآن واحد كما أنزل بسوره وآياته وحروفه وكلماته، وهو نفسه الذي في

=

=

اللوح المحفوظ، وهو نفسه الذي تكلم الله تعالى به.

قال شيخ الإسلام: "بل إذا قرأه الناس، أو كتبوه في المصاحف، لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئا، لا إلى من قاله مبلغا مؤديا، وهو كلام الله: حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف".

وقال الإمام ابن قتيبة: "والقرآن لا يقوم بنفسه وحده، وإنما يقوم بواحدة من أربع: كتابة، أو قراءة، أو حفظ، أو استماع، فهو بالعمل في الكتابة قائم، والعمل خط وهو مخلوق، والمكتوب قرآن وهو غير مخلوق، وهو بالعمل في القراءة قائم، والعمل تحريك للسان واللهوات بالقرآن وهو مخلوق، والمقروء قرآن وهو غير مخلوق، وهو بحفظ القلب قائم، والحفظ عمل وهو مخلوق، والمحفوظ قرآن وهو غير مخلوق، وهو بالاستماع قائم في السمع، والاستماع عمل وهو مخلوق، والمسموع قرآن وهو غير مخلوق".

وقال الحافظ الذهبي: "إنك تنقل من المصحف مئة مصحف، وذاك الأول لا يتحول في نفسه ولا يتغير، وتلقن القرآن ألف نفس، وما في صدرك باق بهيئته لا يقصل عنك ولا يغير، وذاك لأن المكتوب واحد، والكتابة تعددت، والذي في صدرك واحد وما في صدور المقرئين هو عين ما في صدرك سواء، والمتلو وإن تعدد التالون به واحد، مع كونه سورا وآيات وأجزاء متعددة، وهو كلام الله ووحيه وتنزيله وإنشاؤه، ليس هو بكلامنا أصلا، نعم، وتكلمنا به وتلاوتنا له ونطقنا به من أفعالنا، وكذلك كتابتنا له وأصواتنا به من أفعالنا، قال الله -ﷻ-: {والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: ٩٦]... ".

وقال: "فالمقرىء يلقن الختمة مئة نفس ومئتين فيحفظونه، وهو لا ينفصل عنه منه شيء، كسراج أوقدت منه سرجا ولم يتغير".

=

=

وذكر شيخ الإسلام رحمه الله اعتقادهم هذا الذي ذكرنا، وقال: "بل كلام المخلوقين يكتب في الأوراق وهو لم يفارق ذواتهم، فكيف لا يعقل مثل هذا في كلام الله تعالى".

فتفسير القوم للحلول في المصحف على ما ذكرنا وإنكارهم له باطل، مبني على أصلهم في نفي أن يكون ما بين دفتي المصحف كلام الله على الحقيقة، لأن هذا محصور محدود، وكلام الله لا نهاية له، وهو معنى واحد، وهذا تلبيس قد كشفناه بفضل الله تعالى ومنته.

وأما إطلاق اللفظ: إن كلام الله حال في المصحف، فليس مما جرت به ألسنة السلف والأئمة، وإن كان قد ذكره بعض المتأخرين من أهل السنة، إلا أن مذهب السلف أولي بالاتباع، وإنه يخشى من الإطلاق ورود معاني باطلة، وإنما يكتفى بالقول: إن ما بين دفتي المصحف كلام الله بحروفه ومعانيه، منه بدأ وإليه يعود، وهو صفته، غير بائن منه.

قال ابن قتيبة - رحمه الله -: "ولسنا نشك في أن القرآن في المصاحف على الحقيقة، لا على المجاز، كما يقول أصحاب الكلام: إن الذي في المصحف دليل على القرآن وليس به، والله تبارك وتعالى يقول: {إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون} [الواقعة: ٧٧ - ٧٩] والنبى -ﷺ- يقول: "لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو" يريد المصحف".

وقد شرحت معنى هذا في الباب الأول بما يزيل تلبيس الأشعرية ومن قال بقولهم.

• تعظيم المصحف عند الأشعرية:

اعتقاد الأشعرية في كلام الله تعالى أنه المعنى القائم بنفسه، وأن هذا لم ينزل، وإنما نزلت العبارة عنه، وهذه العبارة مخلوقة تحل في المصاحف أدى بمتأخريهم إلى تهوين شأن المصحف، بل أدى بجهالهم إلى الاستهانة به، وهذا مما فاقوا به

=

=

المعتزلة، وشبهوا به غلاة الجهمية.

وبيان ذلك: أن تعظيمه عند عقلائهم والقدماء منهم على وجه الخصوص، لأجل كونه عبارة عن الكلام النفسى ودلالة عليه، فتعظيمه لدلالته على العظيم.

وبهذا يفسرون قول النبي -ﷺ-: "لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو، فإني أخاف أن يناله العدو".

والذي يحمل إنما هو المصاحف التي فيها القرآن، وتعليل النهي عن السفر بها بين في الخبر، وهو الخوف من أن تناله أيدي الكفار، فلا تؤمن منهم إهانته، وهذا المعنى حق وصواب، لكنه عند أهل السنة والأئمة لأن فيه كلام الله على الحقيقة بألفاظه ومعانيه، وهذا وجه النهي عندهم، أما الأشعرية فلأن فيه العبارة عن كلام الله.

فجاء متأخروهم وزادوا أنه مخلوق في اللوح المحفوظ، أو غيره، أو قول جبريل، أو محمد -ﷺ-، فهون هذا من شأن المصحف عندهم، حتى فاضلوا بينه وبين رسول الله -ﷺ-، قال الباجوري: "وهل القرآن بمعنى اللفظ المقروء أفضل أو سيدنا محمد -ﷺ-؟ " فأشار إلى خلاف عندهم في ذلك، ثم قال: "والحق أنه -ﷺ- أفضل لأنه أفضل من كل مخلوق".

قلت: سبحانك هذا بهتان عظيم، أي جرأة هذه التي تؤدي بأصحابها إلى جعل صفة الرب تعالى أدنى من المخلوق -مع شرف المخلوق-؟!!

بل إن بعضهم لما رأوا أن لهذا القرآن الذي في المصحف ليس كلام الله حقيقة وإنما هو دلالة عليه، رأوا أن كل المخلوقات سواه أدلة على الخالق وصفاته، ومع ذلك فلا يجب احترامها، وما دل على الخالق أولى بالاحترام مما دل على صفته، وصل بهم الحال حينئذ إلى أن قالوا في هذا القرآن العربي: ما هذا إلا ورق ومداد، فحصل بذلك شر أعظم.

=

=

قال شيخ الإسلام: "ثم تبع أقوام من أتباعهم أحد أهل المذهب، وأن القرآن معنى قائم بذات الله فقط، وأن الحروف ليست من كلام الله، بل خلقها الله في الهواء، أو صنفها جبريل أو محمد، فضموا إلى ذلك أن المصحف ليس فيه إلا مداد وورق، وأعرضوا عما قاله سلفهم من أن ذلك دليل على كلام الله فيجب احترامه، لما رأوا أن مجرد كونه دليلا لا يوجب الاحترام، كالدليل على الخالق المتكلم بالكلام، فإن الموجودات كلها أدلة عليه، ولا يجب احترامها، فصار هؤلاء يمتهنون المصحف حتى يدوسوه بأرجلهم، ومنهم من يكتب أسماء الله بالعذرة إسقاطا لحرمة ما كتب في المصاحف والورق من أسماء الله وآياته".

قلت: ومما يصدق ما حكاه عنهم شيخ الإسلام، ما رواه ابن حزم في "الفصل" قال: أخبرني علي بن حمزة المرادي الصقلي الصوفي أنه رأى بعض الأشعرية يبطح المصحف برجله، قال: فأكبرت ذلك، وقلت له: ويحك! هكذا تصنع بالمصحف، وفيه كلام الله تعالى؟ فقال لي: ويلك! والله ما فيه إلا السخام والسواد، وأما كلام الله فلا، ونحو هذا من القول الذي هذا معناه.

وأنت -وفقك الله- قد تعجب من هذه الحال التي وصل إليها بعض الأشعرية، وقد لا تصدق ذلك ابتداء وتستنكره، من أجل ما تراه من تظاهرهم بتكريم المصاحف، وتعظيمها، وتقبيلها، والقيام لها حين الإتيان بها، ولكنك حين تدرك ما شرحناه من اعتقادهم، فليس يبعد وقوع ذلك من سفلتهم الذين لم يقدروا الله تعالى قدره.

ولهؤلاء السفهاء سلف في الاستهانة بالمصحف وعدم تعظيمه، ذلك هو الجهم بن صفوان -رأس الجهمية- فقد قال أبو نعيم البلخي -وكان صدوقا-:

كان رجل من أهل مرو صديقا لجهم، ثم قطعه وجفاه، فقيل له: لم جفوته؟ فقال: جاء منه ما لا يحتمل، قرأت يوما آية كذا وكذا، فقال: ما كان أظرف محمدا،

=

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى (١٧).

=

فاحتملتها، ثم قرأ سورة طه، فلما قال: {الرحمن على العرش استوى} قال: أما والله لو وجدت سبيلا إلى حكها لحككتها من المصحف، فاحتملتها، ثم قرأ سورة القصص، فلما انتهى إلى ذكر موسى قال: ما هذا، ذكر قصة في موضع فلم يتمها، ثم ذكر ههنا فلم يتمها، ثم رمى بالمصحف من حجره برجليه، فوثبت عليه.

وهذا المعنى الذي تقشعر منه الجلود، وتنفر منه القلوب، ويأباه دين المسلمين، لم يكن عند قدماء الأشعرية، والله تعالى أمر بالعدل، فإن أولئك -على ما ذكرنا عنهم من الاعتقاد في القرآن العظيم- إلا أنهم كانوا يعظمون المصحف، ويبجلوله لدلالته عندهم على القديم النفسي، بل إنك تجد فيهم من يصرح بتكفير من استهان بالمصحف.

ولكن بدعة هؤلاء الأوائل ضرت بهؤلاء السفهاء، فإنهم توسعوا فيها حتى أخرجتهم من الإسلام، وهذا شأن البدع وتأثيرها على أصحابها.

قال شيخ الإسلام: "فالبدع تكون في أولها شبرا، ثم تكثر في الأتباع حتى تصير أذرعا وأميالا وفراسخ".

وحين ذكر شيخ الإسلام بدعة الأشعرية واعتقادهم الباطل الذي شرحناه، قال: "وهذا القول فيه نوع من الضلال والنفاق، والجهل بحدود ما أنزل الله على رسوله، وهو الذي أوقع الجهال في الاستخفاف بحرمة آيات الله وأسمائه، حتى ألحدوا في أسمائه وآياته".

وقال: "وقد اتفق المسلمون على أن من استخف بالمصحف، مثل أن بلقيه في الحش، أو يركضه برجله، إهانة له، أنه كافر مباح الدم". انظر العقيدة السلفية فى كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية.

{وما تلك} كائنة {بيمينك يا موسى} الِاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِيرِ لِيُرَتِّب عَلَيْهِ الْمُعْجِزَة فِيهَا.

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨).

{قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأ} أَعْتَمِد {عَلَيْهَا} عِنْد الْوُثُوب وَالْمَشْي {وَأَهُشّ} أَخْبِط وَرَق الشَّجَر {بِهَا} لِيَسْقُط {عَلَى غَنَمِي} فَتَأْكُلهُ {وَلِيَ فِيهَا مَآرِب} جَمْع مَأْرُبَة مُثَلَّث الرَّاء أَيْ حَوَائِج {أُخْرَى} كَحَمْلِ الزَّاد وَالسِّقَاء وَطَرْد الْهَوَامّ زَادَ فِي الجواب بيان حاجاته بها.

قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى (١٩).

{قال ألقها يا موسى}.

فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠).

{فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّة} ثُعْبَان عَظِيم {تَسْعَى} تَمْشِي عَلَى بَطْنهَا سَرِيعًا كَسُرْعَةِ الثُّعْبَان الصَّغِير الْمُسَمَّى بِالْجَانِّ الْمُعَبَّر بِهِ فِيهَا فِي آيَة أخرى.

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١).

{قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ} مِنْهَا {سَنُعِيدُهَا سِيرَتهَا} مَنْصُوب بِنَزْعِ الْخَافِض أَيْ إِلَى حَالَتهَا {الْأُولَى} فَأَدْخَلَ يَده فِي فَمهَا فَعَادَتْ عَصًا فَتَبَيَّنَ أَنَّ مَوْضِع الْإِدْخَال مَوْضِع مَسْكهَا بَيْن شُعْبَتَيْهَا وَأُرِيَ ذَلِكَ السَّيِّد مُوسَى لِئَلَّا يَجْزَع إذَا انْقَلَبَتْ حَيَّة لَدَى فِرْعَوْن.

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢).

{وَاضْمُمْ يَدك} الْيُمْنَى بِمَعْنَى الْكَفّ {إِلَى جَنَاحك} أَيْ جَنْبك الْأَيْسَر تَحْت الْعَضُد إِلَى الْإِبط وَأَخْرِجْهَا {تَخْرُج} خِلَاف مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ الْأُدْمَة {بَيْضَاء

مِنْ غَيْر سُوء} أَيْ بَرَص تُضِيء كَشُعَاعِ الشَّمْس تَغْشَى الْبَصَر {آيَة أُخْرَى} وَهِيَ بَيْضَاء حَالَانِ مِنْ ضَمِير تَخْرُج.

لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣).

{لِنُرِيَك} بِهَا إذَا فَعَلْت ذَلِكَ لِإِظْهَارِهَا {مِنْ آيَاتنَا} الْآيَة {الْكُبْرَى} أَيْ الْعُظْمَى عَلَى رِسَالَتك وَإِذَا أَرَادَ عَوْدهَا إلَى حَالَتهَا الْأُولَى ضَمَّهَا إلَى جَنَاحه كَمَا تَقَدَّمَ وَأَخْرَجَهَا.

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤).

{اذْهَبْ} رَسُولًا {إلَى فِرْعَوْن} وَمَنْ مَعَهُ {إنَّهُ طَغَى} جَاوَزَ الْحَدّ فِي كُفْره إلَى ادِّعَاء الإلهية.

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥).

{قَالَ رَبّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي} وَسِّعْهُ لِتَحَمُّلِ الرسالة.

وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦).

{وَيَسِّرْ} سَهِّلْ {لِي أَمْرِي} لِأُبَلِّغهَا.

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧).

{وَاحْلُلْ عُقْدَة مِنْ لِسَانِي} حَدَثَتْ مِنْ احْتِرَاقه بِجَمْرَةٍ وَضَعَهَا بِفِيهِ وَهُوَ صَغِير.

يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨).

{يَفْقَهُوا} يَفْهَمُوا {قَوْلِي} عِنْد تَبْلِيغ الرِّسَالَة.

وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩).

{وَاجْعَلْ لي وزيرا} معينا عليها {من أهلي}.

هَارُونَ أَخِي (٣٠).

{هارون} مفعول ثاني {أخي} عطف بيان.

اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١).

{اشدد به أزري} ظهري.

وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢).

{وَأَشْـرِكْهُ فِـي أَمْـرِي} أَيْ الرِّسَـالَة وَالْفِعْـلَانِ بِـصِيغَتِي الْأَمْـر وَالْمُـضَارِع الْمَجْزُوم وَهُوَ جَوَاب الطَّلَب.

كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣).

{كي نسبحك} تسبيحا {كثيرا}.

وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤).

{ونذكرك} ذكرا {كثيرا}.

إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥).

{إِنَّك كُنْت بِنَا بَصِيرًا} عَالِمًا فَأَنْعَمْت بِالرِّسَالَةِ[1].

---

(١) لما بين الله لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين لـه ويريـه مـن آياتـه مـا يطمئن بـه قلبه، وتقر به عينه، ويقوي إيمانه، بتأييد الله له على عدوه فقال: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى} هذا، مع علمه تعـالى، ولكـن لزيـادة الاهتمـام في هـذا الموضـع، أخـرج الكلام بطريق الاستفهام.

قوله تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى } [طه: ١٧]

قال مقاتل:" يعني: عصاه كانت بيده اليمنى".

قال يحيى بن سلام:" يسأله عن العصا التي في يده اليمنى وهو أعلم بها".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وما هذه التي في يمينك يـا موسـى؟.. وإنـما قـال ذلك عزّ ذكره له إذا أراد أن يحوّلها حية تسعى، وهـي خـشبة، فنبهـه عليهـا، وقـرّره =

=

بأنها خشبة يتوكأ عليها، ويهشّ بها على غنمه، ليعرّفه قُدرته على ما يشاء، وعظم سلطانه، ونفاذ أمره فيما أحبّ بتحويله إياها حيَّة تسعى، إذا أراد ذلك به ليجعل ذلك لموسى آية مع سائر آياته إلى فرعون وقومه".

قال الماوردي:" ليس هذا سؤال استفهام، وإنما هو سؤال تقرير لئلاّ يدخل عليه ارتياب بعد انقلابها حيةٌ تسعى".

قال ابن العربي:" قال علماؤنا: إنما سأله عنها لما كان أضمر من الآية له فيها، حتى إذا رجع عليها، وتحقق حالها، وكسيت تلك الحلة الثعبانية بمرأى منه لابتدائها كان تبديلها مع الذكر أوقع في القلب وأيسر له من أن يغفل عنها، فيراها بحلة الثعبانية مكسوة، فيظن أنما عين أخرى سواها".

فالاستفهام في قوله تعالى: وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى للتقرير، لأن الله تعالى عالم بما في يمين موسى، فالمقصود من هذا السؤال اعتراف موسى وإقراره بأن ما في يده إنما هي عصا فيزداد بعد ذلك يقينه بقدرة الله تعالى عند ما يرى العصا التي بيمينه قد انقلبت حية تسعى.

قال الزمخشري: إنما سأله-سبحانه- ليريه عظم ما يخترعه- عز وعلا- في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضاضة- أى تحرك لسانها في فمها-، وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه، والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة. ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد- أى قطعة من حديد- ويقول لك: ما هي؟ فتقول: زبرة حديد. ثم يريك بعد أيام لبوسا مسردا فيقول لك: هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة، وأنيق السرد.. ا.هـ

والآية الكريمة: شروع في بيان ما كلف الله تعالى به عبده موسى- عليه السلام- من الأمور المتعلقة بالخلق، إثر حكاية ما أمر-سبحانه- به موسى من إخلاص العبادة له، والإيمان بالساعة وما فيها من حساب وثواب وعقاب.

=

=

والمعنى: وأى شيء بيدك اليمنى يا موسى؟ فأجاب موسى بقوله- كما حكى القرآن عنه قالَ هِيَ عَصايَ أى: الشيء الذي بيميني هو عصاي.. ونسبها إلى نفسه لزيادة التحقق والتثبت من أنها خاصة به وكائنة بيده اليمنى.

قوله تعالى: {قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا} [طه: ١٨]، أي:" قال موسى: هي عصاي أعتمد عليها في المشي".

قال ابن زيد:" يتوكأ عليها حين يمشي مع الغنم".

قال ابن العربي:" قال أرباب القلوب: الجواب المطلق أن يقول هي عصا، ولا يضيف إلى نفسه شيئا، فلما أراد أن يكونا اثنين أفرد عنها بصفة الحية، فبقي وحده لله، كما يحب، حتى لا يكون معه إلا الله، يقول الله: أنت عبدي، ويقول موسى: أنت ربي".

قوله تعالى: {وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي} [طه: ١٨]، أي:" أهزُّ بها الشجر؛ لترعى غنمي ما يتساقط من ورقه".

وقرأ عكرمة «وأهس»، بسين غير معجمة. وفي «الهش» و «الهس»، وجهان:

أحدهما: أنهما لغتان معناهما واحد.

والثاني: أن معناهما مختلف، فـ «الهش» بالمعجمة: خبط الشجر، و «الهس» بغير إعجام: زجر الغنم.

قال الفراء: {وأهش بها على غنمي}: " أضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقها فترعاه غنمه".

قال أبو عبيدة:" أي: أختبط بها فأضرب بها الأغصان ليسقط ورقها على غنمى فتأكله، قال:

أهشّ بالعصا على أغنامى... من ناعم الأراك والبشام".

قال ابو قتيبة:" {وأهش بها على غنمي}، أخبط بها الورق".

=

=

قال مقاتل:" يقول أخبط بها الشجر فيتهاش الورق في الأرض فتأكله غنمي إذا رعيتها وكانت صغارا لا تعلون الشجر، وكان موسى عليه السلام يضرب بعصاه الشجر فيتهاش الورق في الأرض فتأكله غنمه".

قال ابن زيد:" ويهش بها، يحرك الشجر حتى يسقط الورق الحبلة وغيرها".

قال السدي:" أضرب بها الشجر للغنم، فيقع الورق".

قال عكرمة:" أضرب بها الشجر، فيسقط من ورقها علي". وفي لفظ:" أضرب بها الشجر، فيتساقط الورق على غنمي".

قال الضحاك:" أضرب بها الشجر حتى يسقط منه ما تأكل غنمي".

قال قتادة:" أخبط بها الشجر".

قال قتادة:" كان نبي الله موسى صلى الله عليه وسلم يهش على غنمه ورق الشجر".

قوله تعالى: {وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى} [طه: ١٨]، أي:" ولي فيها منافع أخرى".

قال الطبري:" ولي في عصاي هذه حوائج أخرى".

قال ابن عباس:" حوائج أخرى قد علمتها".

عن مجاهد:" {وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى}، قال: حاجات".

قال قتادة:" حاجات ومنافع أخرى".

قال ابن ابي نجيح:" حاجات ومنافع".

قال الضحاك:" حاجات أخرى".

قال ابن وهب:" أي: منافع أخرى".

قال ابن زيد:" حوائج أخرى سوى ذلك".

قال السدي:" يقول: حوائج أخرى أحمل عليها المزود والسقاء".

قال الفراء: {مَآرِبُ} " يعني: حوائج".

وفي قوله تعالى: {وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى} [طه: ١٨]، وجوه من التفسير:

=

=

أحدها: أنه كان يقتل بها الحيات والعقارب، قاله مقاتل.

الثاني: أنه كان يَقْدَحُ بها النار، ويستخرج الماء بها. قاله مقاتل ايضا.

الثالث: أنها كانت تضيء له بالليل، قاله قتادة.

وقال قتادة:" كانت عصا آدم عليه السلام".

الرابع: أنه كان يحمل عليها المزود والسقاء. قاله السدي.

قال مقاتل:" وكان موسى عليه السلام يحمل زاده وسقاءه على عصاه ويضرب الأرض بعصاه فيخرج ما يأكل يومه ويركزها في الأرض فيخرج الماء فإذا رفعها ذهب الماء وتضيء بالليل في غير قمر ليهتدي بها ويرد بها غنمه عليه فتقيه بإذن الله- عز وجل- من الآفات ويقتل بها الحيات والعقارب بإذن الله- عز وجل-".

قال ابن العربي:" تعرض قوم لتعديد منافع العصا، كأنهم يفسرون بذلك قول موسى {ولي فيها مآرب أخرى} [طه: ١٨]، وهذا مما لا يحتاج إليه في العلم، وإنما ينبغي أن يصرف العصا في حاجة عرضت؛ أما إنه

يحتاج إليها في الدين في موضع واحد إجماعا وهو الخطبة، وفي موضع آخر باختلاف وهو التوكؤ عليها في صلاة النافلة. وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر به ".

قال الحافظ ابن كثير: "وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأقوال الخارقة للعادة. والظاهر: أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعبانا، فما كان يفر منها هاربا. ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية".

يقال هش فلان الشجرة بالعصا- من باب رد- فهو يهشها هشا، إذا ضربها بعصاه أو بما يشبهها ليتساقط ورقها. ومفعول أهش محذوف. أى: وأهش بها الشجر والورق.

=

=

وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى والمآرب: جمع مأربة- بتثليث الراء- بمعنى حاجة. تقول: لا أرب لي في هذا الشيء، أى: لا حاجة لي فيه.

أى: ولي في هذه العصا حاجات أخرى، ومنافع غير التي ذكرتها.

وقد كان يكفى موسى- عليه السلام في الجواب أن يقول: هي عصاي، ولكنه أضاف إلى ذلك أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي.. لأن المقام يستدعى البسط والإطالة في الكلام، إذ هو مقام حديث العبد مع خالقه، والحبيب مع حبيبه.

وأجمل في قوله: وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى إما حياء من الله تعالى لطول الكلام في الجواب، وإما رجاء أن يسأل عن هذه المآرب المجملة، فيجيب عنها بالتفصيل تلذذا في الخطاب.

قال القرطبي: وفي هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل، لأنه لما قال: وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى ذكر معاني أربعة وهي: إضافة العصا إليه، وكان حقه أن يقول عصا، والتوكؤ، والهش، والمآرب المطلقة. فذكر موسى من منافع عصاه معظمها.

وفي الحديث: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر» ا.هـ

وقوله-سبحانه-: قالَ أَلْقِها يا مُوسى جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله تعالى لموسى بعد ذلك؟.

فكان الجواب: قال-سبحانه- لموسى: اطرح يا موسى هذه العصا التي بيمينك لترى ما يكون بعد ذلك. فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى.

{قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى} [طه: ١٩]

قال الطبري:" قال الله لموسى: ألق عصاك التي بيمينك يا موسى".

=

=

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: ألق عصاك من يدك".

قال السمعاني:" أي: انبذها".

عن عبد الصمد بن معقل، قال: سمعت وهبا، قال: " فقال له الرب ﷻ: {ألقها يا موسى}، فظن موسى أنه يقول: «ارفضها فألقاها على وجه الرفض».

قوله تعالى: {فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} [طه: ٢٠]

فألقاها موسى على الأرض، فانقلبت بإذن الله حية تسعى، فرأى موسى أمرًا عظيمًا وولى هاربًا.

قوله تعالى: {فَأَلْقَاهَا} [طه: ٢٠]، أي:" فألقاها موسى على الأرض".

قال الطبري:" فألقاها موسى".

قال الحافظ ابن كثير:" فألقاها على وجه الأرض".

قال أبو الليث السمرقندي:" فظن موسى أنه يأمره بإلقائها على وجه الرفض، فلم يجد بدا فألقاها".

قوله تعالى: {فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} [طه: ٢٠]، أي:" فانقلبت بإذن الله حية تسعى".

قال يحيى:" أي: تزحف على بطنها بسرعة".

قال الطبري:" فجعلها الله حية تسعى، وكانت قبل ذلك خشبة يابسة، وعصا يتوكأ عليها ويهشّ بها على غنمه، فصارت حية بأمر الله".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: تسرح وتسير على بطنها رافعة رأسها".

قال الحافظ ابن كثير:" ثم حانت نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون، فَدَبّ يلتمس كأنه يبتغي شيئًا يريد أخْذَه، يمر بالصخرة مثل الخَلِفَة من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه توقدان نارا، وقد عاد المحْجَن منها عُرفًا. قيل: شعر مثل النيازك، وعاد الشعبتان منها مثل القليب

=

=

الواسع، فيه أضراس وأنياب، لها صريف، فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرًا ولم يُعَقِّب، فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجَز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودي: يا موسى أنْ: ارجع حيث كنت. فرجع موسى وهو شديد الخوف".

قال ابن عباس:" لما قيل لموسى: ألقها يا موسى، ألقاها {فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} ولم تكن قبل ذلك حية، قال: فمرّت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعتها، قال: فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها، قال: فولى مدبرا، فنودي أن يا موسى خذها، فلم يأخذها، ثم نودي الثانية: أن {خُذْهَا وَلا تَخَفْ}، فلم يأخذها، فقيل له في الثالثة {إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ} فأخذها".

عن وهب:" {قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} تهتزّ، لها أنياب وهيئة كما شاء الله أن تكون، فرأى أمرا فظيعا، {وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} فناداه ربه: {يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ} {سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولَى} ".

أى: فامتثل موسى أمر ربه، فألقاها على الأرض، ونظر إليها فإذا هي قد تحولت بقدرة الله تعالى إلى «حية» - أى ثعبان عظيم- «تسعى»، أى: تمشى على الأرض بسرعة وخفة حركة ووصفها-سبحانه- هنا بأنها حَيَّةٌ تَسْعى، ووصفها في سورة الشعراء بأنها ثُعْبانٌ مُبِينٌ ووصفها في سورة النمل بأنها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ.

ولا تنافى بين هذه الأوصاف، لأن الحية اسم جنس يطلق على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والثعبان: هو العظيم منها، والجان: هو الحية الصغيرة الجسم، السريعة الحركة.

وقد صرحت بعض الآيات أن موسى- عليه السلام عند ما رأى عصاه قد تحولت إلى ذلك، ولى مدبرا ولم يعقب. قال تعالى: وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ...

=

=
ولكن الله تعالى ثبت فؤاده، وطمأن نفسه: قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ.
قوله تعالى: {قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ} [طه: ٢١]، أي:" قال الله لموسى: خذ الحية، ولا تَخَفْ منها".
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره قال الله لموسى: خذ الحية، ولا تخف من هذه الحية".
قال ابن كثير:" فقال: {خُذْهَا} بيمينك {وَلا تَخَفْ} ".
قال محمد بن إسحاق: "نظر موسى، فإذا العصا حيَّةٌ مِن أعظم ما يكون مِن الحيّات، صارت شعبتاها شِدْقَين لها، والمحجن عنقًا وعرفًا، تهتز كالنيازك، وعيناها تَتَّقِدان كالنار، تمرُّ بالصخرة العظيمة مثل الخَلِفَة مِن الإبل فَتَلْقَمُها، وتَقْصِف الشجرة العظيمة بأنيابها، ويسمع لأسنانها صَريفٌ عظيم. فلما عاين ذلك موسى ولّى مُدبرًا وهرب، ثم ذكر ربَّه، فوقف استحياءً منه، ثم نودي: أن يا موسى، أقبِل وارجع حيث كنت. فرجع وهو شديد الخوف".
قوله تعالى: {سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى} [طه: ٢١]، أي:" سوف نعيدها عصًا كما كانت في حالتها الأولى".
قال الفراء:" أي: طريقتها الأولى. يقول: يردها عصا كما كانت".
قال الطبري:" يقول: فإنا سنعيدها لهيئتها الأولى التي كانت عليها قبل أن نصيرها حية، ونردّها عصا كما كانت".
قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: سنجعلها عصا كما كانت أول مرة. وأصل السيرة: الطريقة كما يقال: فلان على سيرة فلان، أي: على طريقته".
قال ابن كثير:" وعلى موسى حينئذ مِدْرَعة من صوف، فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها أدلى طرف المدرعة على يده، فقال له ملك: أرأيت يا موسى، لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئًا؟ قال: لا ولكني ضعيف، ومن
=

=

ضَعْف خلقت. فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية، حتى سمع حسّ الأضراس والأنياب، ثم قَبض فإذا هي عصاه التي عهدها، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين؛ ولهذا قال تعالى: {سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولَى} أي: إلى حالها التي تعرف قبل ذلك".

عن ابن عباس، قوله:" {سِيرَتها الأولى}، يقول: حالتها الأولى".

عن مجاهد:" {سِيرَتَهَا الأولَى}، قال: هيئتها".

قال قتادة:" إلى هيئتها الأولى".

قال وهب:" أي: سنردّها عصا كما كانت".

أى: خذ هذه الحية التي تحولت عصاك إليها ولا تخف منها، كما هو الشأن في الطبائع البشرية، فإنا سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى أى: سنعيد هذه الحية إلى هيئتها الأولى التي كانت عليها قبل أن تصير حية تسعى، وهي أن نعيدها بقدرتنا التي لا يعجزها شيء إلى عصا كما كانت من قبل.

فالجملة الكريمة مسوقة لتعليل وجوب الامتثال للأمر وعدم الخوف، أى: خذها ولا تخف منها، فإن هذه الحية سنرجعها عصا كما كانت من قبل.

وقوله تعالى سِيرَتَهَا فعلة من السّير، وهي الحالة والهيئة التي يكون عليها الإنسان، وهو منصوب بنزع الخافض. أى: سنعيدها إلى هيئتها وحالتها الأولى.

قال الرازي: ما الحكمة في قلب العصا حية في ذلك الوقت؟ الجواب فيه وجوه: أحدها:

أنه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه وذلك لأنه عليه السلام إلى هذا الوقت ما سمع إلا النداء، والنداء وإن كان مخالفا للعادات إلا أنه لم يكن معجزا لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن فلا جرم قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلا قاهرا والعجب أن موسى عليه السلام قال: أتوكأ

=

=

عليها فصدقه الله تعالى فيه وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له. وثانيها: أن النداء كان إكراما له فقلب العصا حية مزيدا في الكرامة ليكون توالي الخلع والكرامات سببا لزوال الوحشة عن قلبه. وثالثها: أنه عرض عليه ليشاهده أولا فإذا شاهده عند فرعون لا يخافه. ورابعها: أنه كان راعيا فقيرا ثم إنه نصب للمنصب العظيم فلعله بقي في قلبه تعجب من ذلك فقلب العصا حية تنبيها على أني لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد مني نصرة مثلك في إظهار الدين. وخامسها: أنه لما قال: هي عصاي أتوكؤا عليها إلى قوله: ولي فيها مآرب أخرى فقيل له: ألقها فلما ألقاها وصارت حية فر موسى عليه السلام منها فكأنه قيل له: ادعيت أنها عصاك وأن لك فيها مآرب أخرى فلم تفر منها، تنبيها على سر قوله: ففروا إلى الله [الذاريات: ٥٠] وقوله: قل الله ثم ذرهم [الأنعام: ٩١] ا.هـ

ثم وجه-سبحانه- أمرا آخر إلى عبده موسى فقال: وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى.

قوله تعالى: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ} [طه: ٢٢]، أي:" واضمم يدك إلى جنبك تحت العَضُد".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: واضمم يا موسى يدك، فضعها تحت عضدك، و «الجناحان»: هما اليدان".

وفي قوله تعالى: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ} [طه: ٢٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: معناه: اضمم يدك تحت عضدك، قاله مجاهد.

وقال الفراء:" الجناح في هذا الموضع من أسفل العضد إلى الإبط".

الثاني: إلى جيبك.

الثالث: إلى جنبك، فعبر عن «الجنب» بـ «الجناح»، لأنه مائل في محل الجناح.

قوله تعالى: {تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} [طه: ٢٢]، أي:" تخرج بيضاء كالثلج

=

=

من غير برص".

قال الطبري:" ذكر أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان رجلا آدم، فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها بيضاء من غير سوء، من غير برص، مثل الثلج، ثم ردّها، فخرجت كما كانت على لونه".

قال الفراء:" {من غير سوء}، أي: برص".

عن ابن عباس ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، قوله:" {تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}، قال: من غير برص".

قال الحسن:" أخرجها الله من غير سوء، من غير برص، فعلم موسى أنه لقي ربه".

قوله تعالى: {آيَةً أُخْرَى} [طه: ٢٢]، أي:" لتكون لك علامة أخرى".

قال الفراء:" المعنى: هي آية أخرى وهذه آية أخرى".

وقال يحيى: يعني: " اليد بعد العصا".

قال الطبري:" يقول: وهذه علامة ودلالة أخرى غير الآية التي أريناك قبلها من تحويل العصا حية تسعى على حقيقة ما بعثناك به من الرسالة لمن بعثناك إليه، ونصب آية على اتصالها بالفعل، إذ لم يظهر لها ما يرفعها من هذه أو هي".

قال ابن كثير:" وهذا بُرهان ثان لموسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه، كما صرح به في الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ} وقال في مكان آخر: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ} [القصص: ٣٢].. وذلك أن موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر".

والضم: الجمع. يقال: ضم فلان أصابعه إذا جمعها. والجناح، يطلق على العضد وعلى الجنب، وعلى الإبط. وأصله جناح الطائر وسمى بذلك لأنه يجنحه، أي: يميله عند الطيران، ثم توسع فيه فأطلق على العضد وغيره. والمراد باليد هنا: كف

=

=

يده اليمنى.

والسوء: الرديء والقبيح من كل شيء، وكنى به هنا عن البرص لشدة قبحه.

والمعنى: واضمم- يا موسى- يدك اليمنى الى عضد يدك اليسرى بأن تجعلها تحته عند الإبط. ثم أخرجها فإنها تخرج بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أى: تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض دون أن يعلق بها أى سوء من برص أو مرض أو غيرهما، وإنما يكون بياضها بياضا مشرقا بقدرة الله تعالى وإرادته.

قال الحسن البصري: أخرجها- والله- كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقى ربه تعالى.

وقوله: تَخْرُجْ بَيْضاءَ ... جواب الأمر وهو قوله: وَاضْمُمْ يَدَكَ.

وقوله: مِنْ غَيْرِ سُوءٍ احتراس لدفع توهم أن يكون بياضها بسبب مرض أو أذى، وهو متعلق بتخرج.

وقوله: آيَةً أُخْرى أى: معجزة أخرى غير معجزة العصا التي سبق أن منحناها لك.

كما قال- تعالى: وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمًا فاسِقِينَ.

وقوله: لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى، تعليل لمحذوف، أى: فعلنا ما فعلنا من إعطائك معجزة العصا ومعجزة اليد، لنريك بهاتين المعجزتين بعض معجزاتنا الكبرى، الدالة على عظيم قدرتنا، وانفرادنا بالربوبية والألوهية.

قوله تعالى: {لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى } [طه: ٢٣]

قال مقاتل:" يعني: اليد كانت أكبر وأعجب أمرا من العصا".

قال ابن أبي زمنين:" كانت اليد أكبر من العصا".

وقال يحيى: يعني: " العصا واليد".

قال أبو عبيدة:" أي: لنريك الكبرى من عجائبنا".

=

=

قال الطبري: يقول:" كي نريك من أدلتنا الكبرى على عظيم سلطاننا وقُدرتنا".

قال مكي:"أي: لنريك من آياتنا العجائب".

قال الحسن:" أخرجها كأنها مصباح فعلم موسي أنه قد لقي ربه، ولهذا قال تعالى: {لنريك من آياتنا الكبرى} ".

قال القشيري:" كما أراه آية من خارج أراه آية من نفسه، وهى قلب يده بيضاء إذ جعلها في جيبه من غير البرص. قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٥٣] ".

ثم صرح -سبحانه- بالمقصود من إعطاء موسى هاتين المعجزتين العظيمتين فقال: اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى.

قوله تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤)} [طه: ٢٤]

قال السدي: "إنه عصى الله".

قال يحيى:" يعني: إنه كفر".

قال الطبري:" يقول: إنه تجاوز قدره، وتمرّد على ربه، وفي الكلام محذوف، والتقدير: فادعه إلى توحيد الله وطاعته، وإرسال بني إسرائيل معك ".

قال الواحدي: أي:" جاوز القدر في العصيان، وذلك أنه خرج في معصيته إلي فتجاوز به معاصي الناس".

قال مقاتل:" يقول إنه عصى، فادعوه إلى عبادتي، واعلم أني قد ربطت على قلبه، فلم يؤمن فأتاه ملك خازن من خزان الريح، فقال له: انطلق لما أمرت".

قال الماتريدي:" الطغيان: هو المجاوزة عن الحدود التي جعلت، كان فرعون قد تعدى، وجاوز الحد في كل شيء، حتى أدعى لنفسه الربوبية، حيث قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤] ".

أي: اذهب يا موسى ومعك هاتان المعجزتان، فادعه إلى عبادتي وحدي، ومره

=

=

فليحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم، وانهه عن التجبر والظلم، فإنه قد طغى وبغى وتجاوز حدود الحق والعدل، وزعم للناس أنه ربهم الأعلى.

وهنا التمس موسى- عليه السلام العون من خالقه، لكي يتسنى له أداء ما كلفه به فقال: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي أى: أسألك يا إلهى أن توسع صدري بنور الإيمان والنبوة، وأن تجعله يتقبل تكاليفك بسرور وارتياح.

وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي أى: وسهل لي ما أمرتنى به، فإنك إن لم تحطنى بهذا التيسير، فلا طاقة لي بحمل أعباء هذه الرسالة.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي} [طه: ٢٥]، أي:" قال موسى: رب وسِّع لي صدري".

قال مقاتل:"يقول: أوسع لي قلبي".

قال السدي:" أي: وسع لي صدري".

قال يحيى:" دعاء أن يشرح له صدره بالإيمان".

قال الطبري:" يقول: ربّ اشرح لي صدري، لأعي عنك ما تودعه من وحيك، وأجترئ به على خطاب فرعون".

عن ابن زيد قوله: " {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي}، قال: جرأة لي".

قال السعدي:" أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم".

قال ابن كثير:" هذا سؤال من موسى، عليه السلام، لربه عز وجل، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم

كفرًا، وأكثرهم جنودًا، وأعمرهم ملكًا، وأطغاهم وأبلغهم تمردًا، بلغ من أمره أن

=

=

ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهًا غيره.

هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليدًا عندهم، في حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفسا فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها. ثم بعد هذا بعثه ربه ﷻ إليهم نذيرًا يدعوهم إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}، أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري، وعضدي وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك".

قال الزمخشري:" لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي لعنه الله عرف أنه كلف أمرا عظيما وخطبا جسيما يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه، ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات ".

قوله تعالى: {وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} [طه: ٢٦]، أي:" وسَهِّل لي أمري".

قال مقاتل:" يقول: وهون علي ما أمرتني به من البلاغ إلى فرعون وقومه ولا تعسره علي".

قال الطبري:" يقول: وسهل عليّ القيام بما تكلفني من الرسالة، وتحملني من الطاعة".

قال مكي:" أي: سهّل عليّ القيام بما كلفتني من الرسالة والطاعة".

قال الزمخشري: استوهب ربه " أن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة معاظم الشؤون ومقاساة جلائل الخطوب".

قال الماتريدي:" يحتمل: تبليغ الرسالة إليهم، والقيام بها، أو سأله التيسير بجميع ما أمره به ونهاه عنه".

قال السعدي:" أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك،

=

=

وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله".

قال الزمخشري: «لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي- لعنه الله- عرف أنه كلف أمرا عظيما، وخطبا جسيما يحتاج معه إلى احتمال مالا يحتمله إلا ذو جأش رابط، وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره، ويفسح قلبه، ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر.. وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه، وما يصحبها من مزاولة معاظم الشئون، ومقاساة جلائل الخطوب..

وقوله: وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي دعاء ثالث تضرع به إلى خالقه تعالى أى: وأسألك يا رب أن تحل عقدة من لساني حتى يفهم الناس قولي لهم، وحديثي معهم، فهما يتأتى منه المقصود.

قوله تعالى: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)} [طه: ٢٧ - ٢٨].

قال الطبري:" يقول: وأطلق لساني بالمنطق، يفقهوا عني ما أخاطبهم وأراجعهم به من الكلام، وكانت فيه فيما ذكر عُجمة عن الكلام الذي كان من إلقائه الجمرة إلى فيه يوم همّ فرعون بقتله، ".

قال مقاتل:" كان في لسانه رتة، يعني: الثقل".

قال الفراء:" كانت في لسانه رتة".

قال أبو عبيدة:" العقدة فى اللسان: كل ما لم ينطلق بحرف أو كانت منه مسكة من تمتمة أو فأفأة".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي}، قال: عجمة لجمرة نار أدخلها في

=

=

فيه عن أمر امرأة فرعون، تردّ به عنه عقوبة فرعون، حين أخذ موسى بلحيته وهو لا يعقل، فقال: هذا عدو لي، فقالت له. إنه لا يعقل".

عن مجاهد، قوله:" {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي}، قال: عجمة الجمرة نار أدخلها في فيه، عن أمر امرأة فرعون تردّ به عنه عقوبة فرعون حين أخذ بلحيته".

قال السدي:" لما تحرّك الغلام، يعني موسى، أورته أمه آسية صبيا، فبينما هي ترقصه وتلعب به، إذ ناولته فرعون، وقالت: خذه، فلما أخذه إليه أخذ موسى بلحيته فنتفها، فقال فرعون: عليّ بالذباحين، قالت آسية: {لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} إنما هو صبيّ لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، وقد علمت أنه ليس في أهل مصر أحلى منى أنا أضع له حليا من الياقوت، وأضع له جمرا، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فإنه هو صبيّ، فأخرجت له ياقوتها ووضعت له طستا من جمر، فجاء جبرائيل ﷺ، فطرح في يده جمرة، فطرحها موسى في فيه، فأحرقت لسانه، فهو الذي يقول الله ﷻ: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي}، فزالت عن موسى من أجل ذلك".

عن الحسن البصري: " {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي}، قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطى".

وقال ابن عباس: "شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءًا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه".

عن أرطاة بن المنذر، قال:" حدثني بعض أصحاب محمد بن كعب، عنه قال: أتاه ذو قرابة له فقال له: ما بك بأس لولا أنك تلحن في كلامك ولست تعرب في قراءتك، فقال القرظي: يا ابن أخي ألست أفهمك إذا حدثتك؟ قال: نعم، قال: فإن

=

=

موسي عليه السلام إنما سأل ربه إن حل عقدة من لسانه كي يفقه بنو إسرائيل كلامه ولم يزد عليها".

وقد اختلف العلماء في معنى (من) في هذه الآية على أقوال:

الأول: أنَّها تبعيضية، وأن موسى عليه السلام سأل ربه سبحانه أن يزيل عقدة من عقد لسانه، وممن نص على جواز كونها للتبعيض:

الشهاب الخفاجي في حاشيته "عناية القاضي وكفاية الراضي، فقال: "فـ (من) ابتدائية، أي: عقدة ناشئة من لساني، أو: بمعنى (في)، أو: تبعيضية، والتقدير: من عقد لساني".

والآلوسي"، حكاية عمن قال إن عقد لسانه لم تنحل بالكلية "... أنه عليه السلام لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية، بل عقدة تمنع الإفهام ولذلك نكرها، ووصفها بقوله: (مِنْ لِسانِي)، ولم يُضِفْها مع أنه أخصر، ولا يصلح ذلك للوصفية إلا بتقدير مضاف، وجعل (مِنْ) تبعيضية، أي: عقدة كائنة من عقد لساني فإن العقدة للسان لا منه"، ا.هـ

ومن لم يقرر أن "من" هنا للتبعيض، فلا يلزم أن يكون قائلا بأن عقد لسان موسى عليه السلام قد انحلت جميعها بالكلية؛ فإن "التبعيض" هنا يمكن أن يستفاد من التنكير والإفراد، قال "الشنقيطي": "قال بعض العلماء: دل قوله: (عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي) بالتنكير والإفراد، وإتباعه لذلك بقوله: (يَفْقَهُوا قَوْلِي) على أنه لم يسأل إزالة جميع ما بلسانه من العقد، بل سأل إزالة بعضها الذي يحصل بإزالته فهم كلامه مع بقاء بعضها.

وهذا المفهوم دلت عليه آيات أخر، كقوله تعالى عنه: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا) الآية، وقوله تعالى عن فرعون: (أَمْ أَنَا خَيرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)، والاستدلال بقول فرعون في موسى: فيه أن فرعون معروف بالكذب

=

=

والبهتان. والعلم عند الله تعالى"، ا.هـ

ولعل كلام القرطبي ينحو إليه، في قوله: ".. وقيل: لم تزل كلها، بدليل قوله حكاية عن فرعون: (ولا يكاد يبين)، ولأنه لم يقل: احلل كل لساني، فدل على أنه بقي في لسانه شيء من الاستمساك" ا.هـ

وفي سبب ذلك يقول ابن كثير: "واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة.

ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخبارا عن فرعون أنه قال: أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين أي: يفصح بالكلام"، انتهى.

وممن أشار إلى ذلك: "القسطلاني" في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري.

الثاني: أن "من" (صلة)، أي: زائدة، والمعنى: احلل عقدة لساني، ولعل الطبري رحمه الله أشار إلى ذلك بقوله: «وقوله: واحلل عقدة من لساني يقول: وأطلق لساني بالمنطق»، انتهى من "التفسير" (١٦/ ٥٣).

قال "مكي" في الهداية الى بلوغ النهاية بعد ذكر قصة الجمرة: ".. فهو الذي يقول الله واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي أي يفهموا عني ما أقول لهم، وأبلغهم عنك. ففعل الله به ما سأل.

وقيل: إنه إنما زال بعض ما كان في لسانه من الحبسة، ولم يزل كله، بدلالة قول فرعون أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْ هذا الذي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ [الزخرف: ٥٢].

وقد يجوز أن يكون كان هذا قبل أن يزيل الله ما كان به، ثم أزاله كله بعد ذلك. والله أعلم"، انتهى.

=

=

وأمَّا الجواب عن قول فرعون لعنه الله عن موسى عليه السلام وَلَا يَكَادُ يُبِينُ، فأحد أمرين:

١ - أن المراد: لا يستطيع إظهار حجته.

٢ - أن المراد: الإشارة إلى ما كان عليه، لا أنها بقيت في لسانه.

قال الواحدي في البسيط: فإن قيل: أليس موسى سأل الله أن يذهب الرُّتَّةَ من لسانه بقوله: وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي أعطاه ذلك بقوله: قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى؛ فكيف عابه فرعون باللثغة؟

والجواب عن هذا من وجهين: أحدهما: أن فرعون أراد: لا يكاد يبين حجته التي تدل على صدقه فيما يدعي، ولم يرد أنه لا يوضح ما يتكلم به، وهذا كذب من فرعون وعناد، بعد ما رأى من الآية، هذا معنى قول مقاتل.

والجواب الثاني: عابه بما كان عليه أولًا، وذلك أن موسى كان عند فرعون دهرًا وهو ألثغ لا يكاد يبين، فنسبه فرعون إلى ما عهده عليه من الرُّتَّةَ.

ويقوي الجواب الأول قوله تعالى: فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ألا ترى أنه اقترح الآيات، ولم يكتف بما ظهر من معجزته، وليس للأمم أن يقترحوا من الآيات ما يريدون؛ بل إذا أتى الرسول بما فيه دلالة على صدقه، وجب الإيمان به"، ا.هـ

وقال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قوله تعالى: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي} [طه/ ٢٧ - ٢٨].

لا يخفى أنه من سؤل موسى الذي قال له ربه إنه آتاه إياه بقوله: {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى (٣٦)} [طه/ ٣٦]، وذلك صريح في حَلِّ العقدة من لسانه.

وقد جاء في بعض الآيات ما يدل على بقاء شيء من الذي كان بلسانه، كقوله تعالى: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)} [الزخرف/ ٥٢]،

=

=

وقوله تعالى عن موسى: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ} الآية [القصص/ ٣٤].

والجواب: أن موسى -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- لم يسأل زوال ما كان بلسانه بالكلية، وإنما سأل زوال القدر المانع من أن يفقهوا قوله، كما يدل عليه قوله: {يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)} [طه/ ٢٨].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧)} [طه/ ٢٧] ما نصه: وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العِيُّ ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية.

قال تعالى إخبارًا عن فرعون أنه قال: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)} أي يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصري: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧)}، قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أُعْطِيَ.

وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون ردءًا له، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن عمر بن عثمان، حدثنا بقية، عن أرطاة بن المنذر، حدثني بعض أصحاب محمد بن كعب عنه، قال: أتاه ذو قرابة له، فقال له: ما بك بأس، لولا أنك تلحن في كلامك، ولست تعرب في قراءتك. فقال القرظي: يا ابن أخي، ألستُ أُفْهِمُكَ إذا حدثتك؟ قال: نعم. قال: فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما سأل ربه أن يحل عقدة من لسانه كي يفقه بنو إسرائيل قوله، ولم يزد عليها. انتهى كلام ابن

=

=

كثير بلفظه.

وقد نقل فيه عن الحسن البصري وابن عباس ومحمد بن كعب القرظي ما ذكرناه من الجواب.

ويمكن أن يجاب -أيضًا- بأن فرعون كذب عليه؛ فإنَّ قوله: {هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا} [القصص/ ٣٤] يدل على اشتراكه مع هارون في الفصاحة، فكلاهما فصيح، إلا أن هارون أفصح. وعليه فلا إشكال. والعلم عند الله تعالى ا.هـ

وبكل حال؛ فإن "من" في الآية الكريمة: لا تتعين أن تكون للتبعيض، بدليل أن طائفة من السلف والمفسرين ذهبوا إلى أن الله تعالى قد أجاب سؤال موسى عليه السلام، وحل عقد لسانه "كلها" فلم يبق منها عقدة.

وعلى ذلك؛ فـ"من" تحتمل أنها "زائدة"، وتحتمل أيضا أن تكون لابتداء الغاية، أو لبيان الجنس.

قوله تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠)} [طه: ٢٩ - ٣٠]} [طه: ٣٥]،

قال مقاتل:" يعني عونا من أهلي، لكي يصدقني فرعون {هارون أخي} ".

قال الطبري:" يقول: واجعل لي عونا من أهل بيتي {هَارُونَ أَخِي} ".

قال ابن كثير:" وهذا أيضًا سؤال من موسى في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له".

قال ابن عباس:" كان هارون أكبر من موسى".

قوله تعالى: {اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي} [طه: ٣١]} [طه: ٣٥]، أي:" قَوِّني به وشدَّ به ظهري".

قال مقاتل:" يقول: اشدد به ظهري وليكون عونا لي".

قال الطبري:" سأل ربه أن يشدد أزره بأخيه هارون، يعني: قوْ ظهري، وأعني به،

=

=

يقال منه: قد أزر فلان فلانا: إذا أعانه وشدّ ظهره".
قال ابن عباس:" يقول: أشدد به ظهري".
قال ابن زيد:" يقول: اشدد به أمري، وقوّني به، فإن لي به قوّة".
وقرأ عبد الله بن أبي إسحاق: «أَشْدُد بِهِ أَزْرِي» بفتح الألف من: أشدد، بمعنى الخبر من موسى عن نفسه، أنه يفعل ذلك، لا على وجه الدعاء.
قوله تعالى: {وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} [طه: ٣٢]} [طه: ٣٥]، أي:" وأشركه معي في النبوة وتبليغ الرسالة".
قال السمعاني:" أي: النبوة وأداء الرسالة".
قال الطبري:" يقول: واجعله نبيا مثل ما جعلتني نبيا، وأرسله معي إلى فرعون".
قال ابن عباس:" نبئ هارون ساعتئذ حين نبئ موسي عليهما السلام".
وقرأ عبد الله بن أبي إسحاق: «وأُشْرِكْهُ فِي أَمْرِي» بضم الألف من: أشركه، بمعنى الخبر من موسى عن نفسه، أنه يفعل ذلك، لا على وجه الدعاء.
وقوله: وَزِيرًا من الموازرة وهي المعاونة. يقال: وازرت فلانا موازرة، إذا أعنته على أمره. أو من الوزر- بفتح الواو والزاى- وهو الملجأ الذي يعتصم به الإنسان لينجو من الهلاك.
أى: وأسألك- يا إلهى- أن تجعل لي «وزيرا» أى: معينا وظهيرا من أهلى في إبلاغ رسالتك، وهذا الوزير والمعين هو أخى هارون، الذي أسألك أن تقوى به ظهري، وأن تجعله شريكا لي في تبليغ رسالتك، حتى نؤديها على الوجه الأكمل وكأن موسى- عليه السلام- قد علم من نفسه حدة الطبع، وسرعة الانفعال، فالتجأ إلى ربه لكي يعينه بأخيه هارون، ليقويه ويتشاور معه في الأمر الجليل الذي هو مقدم عليه، وهو تبليغ رسالة الله إلى فرعون الذي طغى وبغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى.
قال ابن عباس: نبئ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى.

=

=

وقوله: كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيرًا تعليل للدعوات الصالحات التي تضرع بها موسى إلى ربه تعالى.

قوله تعالى: {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا} [طه: ٣٣]} [طه: ٣٥]، أي:" كي ننزهك بالتسبيح كثيرًا".

قال الطبري:" يقول: كي نعظمك بالتسبيح لك كثيرا".

قال الحسن:" يعني: الصلاة، أي نصلي لك كثيرا".

قال مقاتل:" في الصلاة".

قوله تعالى: {وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا} [طه: ٣٤]} [طه: ٣٥]، أي:" ونذكرك كثيرا فنحمدك".

قال الطبري:" فنحمدك".

قال مقاتل:" باللسان".

قال الواحدي: أي:" بحمدك والثناء عليك، بما أوليتنا من نعمك، ومنيت به علينا من تحميل رسالتك".

قوله تعالى: {إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} [طه: ٣٥]، أي:" إنك كنت بنا بصيرًا، لا يخفى عليك شيء من أفعالنا".

قال الطبري:" يقول: إنك كنت ذا بصر بنا لا يخفى عليك من أفعالنا شيء".

قال الواحدي: أي:" عالما إذ خصصتنا بهذه النعمة".

قال البغوي: أي:" خبيرا عليما".

قال مقاتل:" يقول: ما أبصرك بنا".

عن عائشة:"أنها خرجت فيما كنت تعتمر فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلا يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه. قالوا: والله إنا أدري. قال: ما ندري. قال: فقلت: في نفسي في حفه لا يستثني إنه ليعم أي أخ في الدنيا كان أنفع لأخيه. قال:

=

=

موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله، قلت: وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام: {وكان عند الله وجيها} ".

أي: أجب- يا إلهى- دعائي بأن تشرح صدري.. وتشد بأخى هارون أزرى، كي نسبحك تسبيحا كثيرا، ونذكرك ذكرا كثيرا، إنك- سبحانك- كنت وما زلت بنا بصيرا، لا يخفى عليك شيء من أمرنا أو من أمر خلقك، فأنت المطلع على حالنا وعلى ضعفنا، وأنت العليم بحاجتنا إليك وإلى عونك ورعايتك.

(فائدة): في الآية استحباب اتخاذ البطانة الصالحة والوزير المعين.

الوجيه بعلم أو سلطان عليه أن يقرب إليه الصادقين قبل أن يسبق إليه غيرهم؛ وذلك لأن الناس تطمع في ذي اليد والجاه والمال والقوة، وفي "الصحيح"؛ من حديث أبي سعيد؛ قال: قال النبي ﷺ: (ما استخلف خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه؛ وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله).

وهذا إن كان في الأنبياء والخلفاء، فهو في غيرهم من السلاطين والعلماء من باب أولى؛ وذلك لأن الناس يقربون فيختلط أمرهم، وكلهم يبدي مصلحة من قربوا منه، ولا يعلم بواطنهم إلا الله، والواجب على الحاكم والعالم: اتخاذهم قبل أن يتخذوه، وقد كان النبي ﷺ يدنو منه الأولياء والصالحون ويدنو منه المنافقون والمرتزقون، وكان يتخذ بطانة منهم ولا يتخذونه؛ فبطانته أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من خيار الصحابة، ولا يمنع جليسا مريدا للخير؛ لكنه لا يتخذ كل أحد أمينا ووزيرا وبطانة، وقد يدخل عليه البر والفاجر، وفي "الصحيح"، قال عمر له: "يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب".

ومن توفيق الله لعبده: أن يقدر له بطانة خير ووزراء حق؛ فعن عائشة مرفوعا: (من

=

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى (٣٦).

{قَالَ قَدْ أُوتِيت سُؤْلك يَا مُوسَى} مِنًّا عليك.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧).

{ولقد مننا عليك مرة أخرى}.

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨).

{إذْ} لِلتَّعْلِيلِ {أَوْحَيْنَا إلَى أُمّك} مَنَامًا أَوْ إلْهَامًا لَمَّا وَلَدَتْك وَخَافَتْ أَنْ يَقْتُلك فِرْعَوْن فِي جُمْلَة مَنْ يُولَد {مَا يُوحَى} فِي أَمْرك وَيُبْدَل مِنْهُ.

أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩).

{أَنْ اقْذِفِيهِ} أَلْقِيهِ {فِي التَّابُوت فَاقْذِفِيهِ} بِالتَّابُوتِ {فِي الْيَمّ} بَحْر النِّيل {فَلْيُلْقِهِ الْيَمّ بِالسَّاحِلِ} أَيْ شَاطِئِهِ وَالْأَمْر بِمَعْنَى الْخَبَر {يَأْخُذهُ عَدُوّ لِي وَعَدُوّ لَهُ} وَهُوَ فِرْعَوْن {وَأَلْقَيْت} بَعْد أَنْ أَخَذَك {عَلَيْك مَحَبَّة مِنِّي} لِتُحَبّ فِي النَّاس فَأَحَبَّك فِرْعَوْن وَكُلّ مَنْ رَآك {وَلِتُصْنَع عَلَى عَيْنِي} تُرَبَّى عَلَى رِعَايَتِي وَحِفْظِي لَك.

=

ولي منكم عملا فأراد الله به خيرا، جعل له وزيرا صالحا؛ إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه)؛ رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

وأكثر ما يؤتى السلطان والعالم من بطانته، فيتخذونه بطانة قبل أن يتخذهم، فيقرب من يصلح دنياه، ولا يلتفت لما يصلح دينه، وبينهما مراتب كثيرة، واستخبار الناس وتجربتهم وتتبعهم واصطفاء الصادقين أهل القوة والأمانة: مطلب واجب كلما علا قدر الرجل في الناس وعظم أمره واتباع الناس له.

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى (٤٠).

{إِذْ} لِلتَّعْلِيلِ {تَمْشِي أُخْتك} مَرْيَم لِتَتَعَرَّف مِنْ خَبَرك وَقَدْ أَحْضَرُوا مَرَاضِع وَأَنْتَ لَا تَقْبَل ثَدْي وَاحِدَة مِنْهُنَّ {فَتَقُول هَلْ أَدُلّكُمْ عَلَى من يكفله} فأجيت فَجَاءَتْ بِأُمِّهِ فَقَبِلَ ثَدْيهَا {فَرَجَعْنَاك إِلَى أُمّك كَيْ تَقَرّ عَيْنهَا} بِلِقَائِك {وَلَا تَحْزَن} حِينَئِذٍ {وَقَتَلْت نَفْسًا} هُوَ الْقِبْطِيّ بِمِصْرَ فَاغْتَمَمْت لِقَتْلِهِ مِنْ جِهَة فِرْعَوْن {فَنَجَّيْنَاك مِنْ الْغَمّ وَفَتَنَّاك فُتُونًا} اخْتَبَرْنَاك بِالْإِيقَاعِ فِي غَيْر ذَلِكَ وَخَلَّصْنَاك مِنْهُ {فَلَبِثْت سِنِينَ} عَشْرًا {فِي أَهْل مَدْيَنَ} بَعْد مَجِيئِك إلَيْهَا مِنْ مِصْر عِنْد شُعَيْب النَّبِيّ وَتَزَوُّجك بِابْنَتِهِ {ثُمَّ جِئْت عَلَى قَدَر} فِي عِلْمِي بِالرِّسَالَةِ وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَة مِنْ عمرك {يا موسى}.

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١).

{وَاصْطَنَعْتُك} اخْتَرْتُك {لِنَفْسِي} بِالرِّسَالَةِ(١).

---

(١) قوله تعالى: {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا} [طه: ٣٣]} [طه: ٣٥]، أي:" كي ننزهك بالتسبيح كثيرًا".

قال الطبري:" يقول: كي نعظمك بالتسبيح لك كثيرا".

قال الحسن:" يعني: الصلاة، أي نصلي لك كثيرا".

قال مقاتل:" في الصلاة".

قوله تعالى: {وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا} [طه: ٣٤]} [طه: ٣٥]، أي:" ونذكرك كثيرا فنحمدك".

قال الطبري:" فنحمدك".

=

=

قال مقاتل:" باللسان".

قال الواحدي: أي:" بحمدك والثناء عليك، بما أوليتنا من نعمك، ومنيت به علينا من تحميل رسالتك".

قوله تعالى: {إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} [طه: ٣٥]، أي:" إنك كنت بنا بصيرًا، لا يخفى عليك شيء من أفعالنا".

قال الطبري:" يقول: إنك كنت ذا بصر بنا لا يخفى عليك من أفعالنا شيء".

قال الواحدي: أي:" عالما إذ خصصتنا بهذه النعمة".

قال البغوي: أي:" خبيرا عليما".

قال مقاتل:" يقول: ما أبصرك بنا".

عن عائشة:"أنها خرجت فيما كنت تعتمر فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلا يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه. قالوا: والله إنا أدري. قال: ما ندري. قال: فقلت: في نفسي في حفه لا يستثني إنه ليعم أي أخ في الدنيا كان أنفع لأخيه. قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله، قلت: وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام: {وكان عند الله وجيها} ".

قوله-سبحانه-: قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى حكاية لما رد الله تعالى به على نبيه موسى- عليه السلام بعد أن تضرع إليه بتلك الدعوات النافعات.

قوله تعالى {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦)} [طه: ٣٦]

قال ابن قتيبة:" أي: أعطيت [ما] سألت".

قال الطبري:" قال الله لموسى صلى الله عليه وسلم: قد أعطيت ما سألت يا موسى ربك من شرحه صدرك وتيسيره لك أمرك، وحلّ عقدة لسانك، وتصيير أخيك هارون وزيرا لك، وشدّ أزرك به، وإشراكه في الرسالة معك".

قال السمعاني:" أي: أعطيت جميع ما سألت".

=

=

قال الواحدي: أي: "أُعطيت مرادك".

قال يحيى:" فاستجاب الله تبارك وتعالى له".

قال السعدي:" أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك ونيسر أمرك ونحل عقدة من لسانك يفقهوا قولك ونشد عضدك بأخيك هارون".

قال القرطبي:" لما سأله شرح الصدر، وتيسير الأمر إلى ما ذكر، أجاب سؤله، وأتاه طلبته ومرغوبه، و «السؤل»: الطلبة".

والسؤال هنا بمعنى المسئول، كالأكل بمعنى المأكول.

قال السعدي: وهذا السؤال من موسى عليه السلام يدل على كمال معرفته بالله وكمال فطنته ومعرفته للأمور وكمال نصحه وذلك أن الداعي إلى الله المرشد للخلق خصوصا إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان يحتاج إلى سعة صدر وحلم تام على ما يصيبه من الأذى ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون لكثرة المراجعات والمراوضات ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه ليحببه إلى النفوس وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه ويحتاج مع ذلك أيضا أن يتيسر له أمره فيأتي البيوت من أبوابها ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن يعامل الناس كلا بحسب حاله وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور فأعطيها وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق رأيتهم بهذه الحال بحسب أحوالهم خصوصا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر وتيسير الأمر وفصاحة اللسان وحسن التعبير والبيان والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم ما ليس لغيره ا.هـ

=

=

وقال الآلوسي: «والإيتاء: عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له- عليه السلام ألبتة، وتقديره تعالى إياها حتما، فكلها حاصلة له- عليه السلام وإن كان وقوع بعضها بالفعل مرتبا بعد، كتيسير الأمر، وشد الأزر.. ا.هـ.

أي: قال الله تعالى لموسى بعد أن ابتهل إليه-سبحانه- بما ابتهل: لقد أجبنا دعاءك يا موسى، وأعطيناك ما سألتنا إياه، فطب نفسا وقر عينا.

وقوله تعالى: وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى تذكير منه-سبحانه- لموسى، بجانب من النعم التي أنعم بها عليه، حتى يزداد ثباتا وثقة بوعد الله تعالى ولذا صدرت الجملة بالقسم.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧)} [طه: ٣٧]

قال الفراء: يعني:" قبل هذه. وهو ما لطف له إذ وقع إلى فرعون فحببه إليهم حتى غذوه. فتلك المنة الأخرى مع هذه الآية".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولقد تطولنا عليك يا موسى قبل هذه المرة مرّة أخرى".

قال السمعاني:" أي: أنعمنا عليك مرة أخرى سوى هذه المرة".

قال يحيى:" فذكره النعمة الأولى يعني قوله: {إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى} [طه: ٣٨]".

قال القرطبي:" أي قبل هذه، وهي حفظه سبحانه له من شر الأعداء في الابتداء، وذلك حين الذبح. والله أعلم. و «المن»: الإحسان والإفضال".

أي: وبعزتي وجلالي لقد مننا عليك، وأحسنا إليك مَرَّةً أُخْرى قبل ذلك، ومنحناك من رعايتنا قبل أن تلتمس منا أن نشرح لك صدرك، وأن نيسر لك أمرك ...

قال الرازي: ثم قال -تعالى-: ولقد مننا عليك مرة أخرى فنبه بذلك على أمور:

أحدها: كأنه تعالى قال: إني راعيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك

=

=

مرادك بعد السؤال.

وثانيها: إني كنت قد ربيتك فلو منعتك الآن مطلوبك لكان ذلك ردا بعد القبول وإساءة بعد الإحسان فكيف يليق بكرمي.

وثالثها: إنا لما أعطيناك في الأزمنة السالفة كل ما احتجت إليه ورقيناك من حالة نازلة إلى درجة عالية دل هذا على أنا نصبناك لمنصب عال ومهم عظيم فكيف يليق بمثل هذه الرتبة المنع من المطلوب ا.هـ

ثم فصل -سبحانه- هذه المنن التي امتن بها على عبده موسى، فذكر ثمانية منها: أما أول هذا المنن فتتمثل في قوله تعالى: إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى.

قوله تعالى: {إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى} [طه: ٣٨]، أي:" وذلك حين ألهمنا أمَّك ما يُلهم ممّا كان سببا في نجاتك".

قال الطبري:" وذلك حين أوحينا إلى أمك، إذ ولدتك في العام الذي كان فرعون يقتل كل مولود ذكر من قومك ما أوحينا إليها".

قال ابن قتيبة:" أي: قذفنا في قلبها، ومثله: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّين} [المائدة: ١١١] ".

قال الواحدي:" أَيْ: ألهمناها ما يلهم الإنسان من الصَّواب".

قال القرطبي:" قيل: {أوحينا}: ألهمنا. وقيل: أوحى إليها في النوم. وقال ابن عباس -رضى الله عنهما-: أوحى إليها كما أوحى إلى النبيين".

قل مقاتل:" اسمها يوخاند".

وإِذْ ظرف لقوله مَنَنَّا والإيحاء: الإعلام في خفاء.. وإيحاء الله تعالى إلى أم موسى كان عن طريق الإلهام أو المنام أو غيرهما.

قال الزمخشري: «الوحى إلى أم موسى: إما أن يكون على لسان نبي في وقتها، كقوله تعالى: وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أو يبعث إليها ملكا لا على وجه النبوة

=

=

كما بعث إلى مريم. أو يريها ذلك في المنام فتتنبه عليه أو يلهمها كقوله تعالى: وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ.

وقال الشنقيطي: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه مَنَّ على موسى مرة أخرى قبل مَنِّهِ عليه بالرسالة ورسالة أخيه معه، وذلك بإنجائه من فرعون وهو صغير، إذ أوحى إلى أمه، أي: ألهمها وقذف في قلبها، وقال بعضهم: هي رؤيا منام. وقال بعضهم: أوحى إليها ذلك بواسطة ملك كلَّمها بذلك. ولا يلزم من الإيحاء في أمر خاص أن يكون الموحى إليه نبيًّا. ا.هـ

أى: أوحينا إليها أمرا لا سبيل إلى التوصل إليه، ولا إلى العلم به، إلا بالوحي ا.هـ.

والمعنى: ولقد مننا عليك يا موسى مرة أخرى، وقت أن أوحينا إلى أمك بما أوحينا من أمر عظيم الشأن، يتعلق بنجاتك من بطش فرعون.

فالتعبير بالموصول في قوله: ما يُوحى للتعظيم والتهويل، كما في قوله تعالى فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى.

ثم وضح -سبحانه- ما أوحاه إلى أم موسى فقال: أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ، يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ...

وأَنِ في قوله أَنِ اقْذِفِيهِ مفسرة، لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه.

والمراد بالقذف هنا: الوضع، والمراد به في قوله فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ الإلقاء في البحر وهو نيل مصر.

والتابوت: الصندوق الذي يوضع فيه الشيء.

قوله تعالى: {أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ} [طه: ٣٩]، أي:" أن ضعي ابنك موسى بعد ولادته في التابوت، ثم اطرحيه في النيل".

قال الطبري:" أن اقذفي ابنك موسى حين ولدتك في التابوت {فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ} يعني بـ «اليم»: النيل".

=

=

قال مقاتل:" أن اجعليه في التابوت، والمؤمن الذي صنع التابوت اسمه: خربيل بن صابوث، {فاقذفيه في اليم}، يعني: في نهر مصر وهو النيل".

عن السدي: قوله:" {فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ}، وهو البحر، وهو النيل".

قوله تعالى: {فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ} [طه: ٣٩]، أي:" فسوف يلقيه النيل على الساحل".

قال مقاتل:" على شاطئ البحر".

قوله تعالى: {يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ} [طه: ٣٩]، أي:" فيأخذه فرعون عدوي وعدوه".

قال مقاتل:" يعني: فرعون عدو الله- عز وجل- وعدو لموسى عليه السلام".

قال الفراء:" ذكر أن البحر ألقاه إلى مشرعة آل فرعون، فاحتمله جواريه إلى امرأته".

قال الطبري: " فرعون هو العدوّ، كان لله ولموسى".

قوله تعالى: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي} [طه: ٣٩]، أي:" وألقيت عليك محبة مني فصرت بذلك محبوبًا بين العباد".

وفي قوله تعالى: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي} [طه: ٣٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: حببتك إلى عبادي، قاله سلمى بن كميل.

وقال الحسين بن عليّ الصدائي:" حببتك إلى خلقي".

قال أبو عبيدة:" جعلت لك محبة منى فى صدور الناس".

الثاني: يعني: حسنًا وملاحة، قاله عكرمة.

الثالث: ألقيت عليك رحمتي، ومن ذلك قول الرجل إذا أحبّ أخاه: ألقيت عليك رحمتى، أى: محبتى. ذكره ابو عبيدة، ومن ثم الطبري.

الرابع: جعلت من رآك أحبك، قاله ابن عباس.

=

=

قال ابن عباس:" كان كل من رآه ألقيت عليه منه محبة".

قال الفراء:" حبب إلي من رآه".

وحكي الماوردي عن ابن زيد:"حتى أحبك فرعون فسلمت من شره وأحبتك آسية بنت مزاحم فتبنتك".

الخامس: معناه: وأظهرت عليك محبتي لك وهي نعمة عليك لأن من أحبه الله أوقع في القلوب محبته. أفاده الماوردي.

قال الطبري: والصواب: "أن الله ألقى محبته على موسى، فحببه إلى آسية امرأة فرعون، حتى تبنَّته وغذّته وربَّته، وإلى فرعون، حتى كفّ عنه عاديته وشرّه".

قال ابن قتيبة:" لم يرد في هذا الموضع: أني أحببتك، وإن كان يحبه، وإنما أراد أنه حبّبه إلى القلوب، وقرّبه من النفوس، فكان ذلك سببا لنجاته من فرعون، حتى استحياه في السّنة التي كان يقتل فيها الولدان".

قال ابن إسحاق:" لما ولدت موسى أمه أرضعته، حتى إذا أمر فرعون بقتل الولدان من سنته تلك عمدت إليه، فصنعت به ما أمرها الله تعالى، جعلته في تابوت صغير، ومهدت له فيه، ثم عمدت إلى النيل فقذفته فيه، وأصبح فرعون في مجلس له كان يجلسه على شفير النيل كلّ غداة، فبينا هو جالس، إذ مرّ النيل بالتابوت فقذف به وآسية ابنة مُزَاحم امرأته جالسة إلى جنبه، فقال: إن هذا لشيء في البحر، فأتوني به، فخرج إليه أعوانه حتى جاءوا به، ففتح التابوت فإذا فيه صبيّ في مهده، فألقى الله عليه محبته، وعطف عليه نفسه".

قوله تعالى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: ٣٩]، أي:" ولِتربى على عيني وفي حفظي".

قال أبو عبيدة:" ولتغذى ولتربّى على ما أريد وأحب، يقال: اتخذه لى على عينى، أي: على ما أردت وهويت".

=

=

قال ابن قتيبة:" أي: لتربى بمرأى مني، على محبتي فيك".

قال الطبري: يقول: " ولتغذى على عيني، ألقيت عليك المحبة مني، وعني بقوله {عَلى عَيْنِي} :بمرأى مني ومحبة وإرادة".

عن أبي نهيك قوله: " {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} ، قال: ولتعمل علي عيني". وقرئ «وَلِتَصْنَعَ»، بفتح التاء".

قال أبو عمران الجوني:" تربى بعين الله".

قال قتادة: "يقول: ولتغذى على عيني".

قال عبد الرزاق: "هو غذاؤه، ولتغذى على عيني".

قال ابن زيد:" جعله في بيت الملك ينعم ويترف غذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة".

قال ابن جريج:" أنت بعيني إذ جعلتك أمك في التابوت، ثم في البحر، و {إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ} ".

قال مقاتل:" حين قذف التابوت في البحر وحين التقط وحين غذي فكل ذلك بعين الله- ﷻ-".

والمعنى: لقد كان من رعايتنا لك يا موسى أن أوحينا إلى أمك عند ما خافت عليك القتل:

أن ضعي ابنك في التابوت، ثم بعد ذلك اقذفيه بالتابوت في البحر، ويأمرنا وقدرتنا يلقى اليم بالتابوت على شاطئ البحر وساحله، وفي هذه الحالة يأخذه عدو لي وعدو له، وهو فرعون الذي طغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى.

والضمائر كلها تعود إلى موسى- عليه السلام- وقيل إن الضمير في قوله فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ. وفي قوله فَلْيُلْقِهِ يعود إلى التابوت، والأول أرجح، لأن تفريق الضمائر هنا لا داعي له، بل الذي يقتضيه بلاغة القرآن الكريم، عودة الضمائر إلى موسى- عليه السلام- قال

=

=

بعض العلماء: وصيغة الأمر في قوله فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ فيها وجهان معروفان عند العلماء.

أحدهما: أن صيغة الأمر معناها الخبر: قال أبو حيان في البحر: وقوله فَلْيُلْقِهِ أمر معناه الخبر، وجاء بصيغة الأمر مبالغة، إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها.

الثاني: أن صيغة الأمر في قوله فَلْيُلْقِهِ أريد بها الأمر الكونى القدري كقوله: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فالبحر لا بد أن يلقيه بالساحل، لأن الله تعالى أمره بذلك كونا وقدرا.. .

وقوله يَأْخُذْهُ مجزوم في جواب الطلب وهو قوله فَلْيُلْقِهِ ... إذ أنه على الوجه الأول يكون الطلب باعتبار لفظه وصيغته.

وقوله-سبحانه- وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي بيان للمنة الثانية.

قال ابن عباس {وَأَلْقَيتُ عَلَيكَ مَحَبَّةً مِنِّي}: أي أحبه الله وحببه إلى خلقه. وقال ابن عطية: جعل عليه مسحة من جمال؛ لا يكاد يصبر عنه من رآه. وقال قتادة: كانت في عيني موسى ملاحة، ما رآه أحد إلا أحبه وعشقه؛ قاله القرطبي.

قال الآلوسى: وكلمة «منى» متعلقة بمحذوف وقع صفة لمحذوف، مؤكدة لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية. أى: وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة منى- لا من غيرى- قد زرعتها في القلوب، فكل من رآك أحبك ا.هـ.

ولقد كان من آثار هذه المحبة: عطف امرأة فرعون عليه، وطلبها منه عدم قتله، وطلبها منه كذلك أن يتخذه ولدا.

وكان من آثار هذه المحبة أن يعيش موسى في صغره معززا مكرما في بيت فرعون مع أنه في المستقبل سيكون عدوا له.

وهكذا رعاية الله تعالى ومحبته لموسى جعلته يعيش بين قوى الشر والطغيان آمنا مطمئنا.

=

=

قال ابن عباس: أحب الله تعالى موسى، وحببه إلى خلقه.

وقوله تعالى: وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي بيان للمنة الثالثة ...

أي: أوحيت إلى أمك بما أوحيت من أجل مصلحتك ومنفعتك وألقيت عليك محبة منى، ليحبك الناس، ولتصنع على عيني.

(**تنبيه**): أهل السنة والجماعة مجمعون على إثبات صفة العين لله تعالى، ولا يقتضي إثباتها تشبيها ولا تمثيلا كما هو معلوم.

قال ابن تيمية: (ولله تعالى ذكره عين ووجه..) إلى أن قال: (... وقال سبحانه: {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا} [الطور:٤٨]، وقال ﷻ: {ولتصنع على عيني}، وقال تعالى: {وكان الله سميعا بصيرا} [النساء:١٣٤]، وقال تعالى لموسى وهارون: {إنني معكما أسمع وأرى} [طه:٤٦]، فأخبر عن سمعه ورؤيته وبصره).

وهذا ما حدث لموسى فعلا، فقد عاش في طفولته تحت عين فرعون، وهو عدو الله تعالى ومع ذلك لم تستطع عين فرعون أن تمتد بسوء إلى موسى، لأن عين الله تعالى كانت ترعاه وتحميه من بطش فرعون وشيعته.

فالجملة الكريمة فيها من الرفق بموسى- عليه السلام ومن الرعاية له، ما يعجز القلم عن وصفه.

وكيف يستطيع القلم وصف حال إنسان قال الله في شأنه: وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي.

قال صاحب الكشاف: أي: ولتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به، وتقول للصانع اصنع هذا على عيني إنى أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادى وبغيتي.

وقوله: وَلِتُصْنَعَ معطوف على علة مضمرة مثل: ليتعطف عليك.. أو حذف معلله أى: ولتصنع على عيني فعلت ذلك ا.هـ.

=

=

ثم بين -سبحانه- المنة الرابعة على موسى فقال: إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ، فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ....

وكان ذلك بعد أن التقط آل فرعون موسى من فوق الشاطئ، وبعد أن امتنع عن الرضاعة من أى امرأة سوى أمه.

أى: وكان من مظاهر إلقاء محبتي عليك، ورعايتى لك، أن أختك بعد أن أمرتها أمك بمعرفة خبرك، سارت في طرقات مصر فأبصرتك في بيت فرعون وأنت تمتنع عن الرضاعة من أى امرأة، فقالت أختك لفعون وامرأته هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ.

أى: ألا تريدون أن أرشدكم إلى امرأة يقبل هذا الطفل الرضاعة منها، وتحفظه وترعاه، والفاء في قوله: فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ هي الفصيحة. أى: التي تفصح عن كلام مقدر.

والمعنى: بعد أن قالت أختك لفرعون وامرأته: هل أدلكم على من يكفله. أجابوها بقولهم: دلينا عليها، فجاءت بأمك فرجعناك إليها كي تسر برجوعك، ويمتلئ قلبها فرحا بلقائها بك بعد أن ألقتك في اليم، ولا تحزن بسبب فراقك عنها.

ثم حكى -سبحانه- المنة الخامسة فقال: وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وكان ذلك عند ما استنصر به رجل من قومه على رجل من أعدائه.

أى: وقتلت نفسا هي نفس القبطي، عند ما استعان بك عليه الإسرائيلى فنجيناك من الغم الذي نزل بك بسبب هذا القتل.

قال الآلوسى: وقد حل له هذا الغم من وجهين: خوف عقاب الله تعالى حيث لم يقع القتل بأمره -سبحانه- وخوف القصاص، وقد نجاه الله من ذلك بالمغفرة حين قال: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ وبالمهاجرة إلى مدين.

=

=

والغم في الأصل: ستر الشيء، ومنه الغمام لستره ضوء الشمس. ويقال: لما يغم القلب بسبب خوف أو فوات مقصود.. ا.هـ.

وقوله- ﷻ: وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا بيان للمنة السادسة التي امتن الله تعالى بها على موسى- عليه السلام.

والفتون: جمع فتن كالظنون جمع ظن. والفتن: الاختبار والابتلاء تقول: فتنت الذهب بالنار، أى: أدخلته فيها لتعلم جودته من رداءته.

والمعنى: واختبرناك وابتليناك- يا موسى- بألوان من الفتن والمحن.

ونظم-سبحانه- هذا الفتن والاختبار في سلك المنن، باعتبار أن الله تعالى ابتلاه بالفتن ثم نجاه منها، ونجاه من شرورها.

وقوله تعالى: فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى أى: فلبثت عشر سنين في قرية أهل مدين، تعمل كأجير عند الرجل الصالح. ثم جئت بعد ذلك إلى المكان الذي ناديتك فيه عَلى قَدَرٍ أى على وفق الوقت الذي قدرناه لمجيئك، وحددناه لتكليمك واستنبائك، دون أن تتقدم أو تتأخر، لأن كل شيء عندنا محدد ومقدر بوقت لا يتخلف عنه.

قال تعالى: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ وقال-سبحانه-: وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ وقال- ﷻ: وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا.

و قوله تعالى: {إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ} [طه: ٤٠]، أي:" ومننَّا عليك حين تمشي أختك تتبعك ثم تقول لمن أخذوك: هل أدلكم على من يكفُله، ويرضعه لكم؟ ".

قال الطبري: أي:" هل أدلكم على من يضمه إليه فيحفظه ويرضعه ويربيه".

قال أبو عبيدة:" {عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ}، أي: يضمه، وقال الله: {وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا}، أي: ضمها".

=

=

قال الفراء:" ذكر المشي وحده، ولم يذكر أنها مشت حتى دخلت على آل فرعون فدلتهم على الظئر وهذا في التنزيل كثير مثله قوله: {أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون (٤٥) يُوسُفُ} [يوسف: ٤٥] ولم يقل: فأرسل فدخل فقال: يوسف. وهو من كلام العرب: أن تجتزئ بحذف كثير من الكلام وبقليله إذا كان المعنى معروفا".

قال السدي:" لما ألقته أمه في اليم {قَالَتْ لأخْتِهِ قُصِّيهِ}، فلما التقطه آل فرعون، وأرادوا له المرضعات، فلم يأخذ من أحد من النساء، وجعل النساء يطلبن ذلك لينزلن عند فرعون في الرضاع، فأبى أن يأخذ، فقالت أخته: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}؟ فأخذوها وقالوا: بل قد عرفت هذا الغلام، فدلينا على أهله، قالت: ما أعرفه، ولكن إنما قلت هم للملك ناصحون".

قوله تعالى: {فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ} [طه: ٤٠]، أي:" فرددناك إلى أمِّك بعد ما صرتَ في أيدي فرعون؛ كي تطيب نفسها بسلامتك من الغرق والقتل، ولا تحزن على فَقْدك".

قال الطبري: يقول: " فرددناك إلى أمك بعد ما صرت في أيدي آل فرعون، كيما تقرّ عينها بسلامتك ونجاتك من القتل والغرق في اليم، وكيلا تحزن عليك من الخوف من فرعون عليك أن يقتلك".

قال ابن إسحاق:" لما قالت أخت موسى لهم ما قالت، قالوا: هات، فأتت أمه فأخبرتها، فانطلقت معها حتى أتتهم، فناولوها إياه، فلما وضعته في حجرها أخذ ثديها، وسرّوا بذلك منه، وردّه الله إلى أمه كي تقرّ عينها، ولا تحزن، فبلغ لطف الله لها وله، أن ردّ عليها ولدها وعطف عليها نفع فرعون وأهل بيته مع الأمنة من القتل الذي يتخوف على غيره، فكأنهم كانوا من أهل بيت فرعون في الأمان والسعة، فكان على فرش فرعون وسرره".

قوله تعالى: {وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ} [طه: ٤٠]، أي:" وقتلت الرجل

=

=

القبطي خطأ فنجيناك من غَمِّ فِعْلك وخوف القتل".

قال الطبري: يعني:" قتله القبطي الذي قتله حين استغاثه عليه الإسرائيلي، فوكزه موسى. وقوله {فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}، يقول تعالى ذكره: فنجيناك من غمك بقتلك النفس التي قتلت، إذ أرادوا أن يقتلوك بها فخلصناك منهم، حتى هربت إلى أهل مدين، فلم يصلوا إلى قتلك وقودك وكان قتله إياه فيما ذُكر خطأ".

عن مجاهد:" {فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}، قال: من قتل النفس".

عن قتادة:" {فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}، النفس التي قتل".

عن عبد الله بن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّما قَتَلَ مُوسَى الَّذي قَتَلَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ خَطَأً، فقال الله له: {وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا} ".

قوله تعالى: {وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا} [طه: ٤٠]، أي:" وابتليناك ابتلاء عظيمًا بأنواعٍ من المِحن".

قال الفراء:" ابتليناك بالغم: غم القتل ابتلاء".

قال ابن قتيبة:" أي: اختبرناك".

قال الماتريدي:" الفتنة في البلايا والشدائد: الغموم التي ذكر أنه نجاه منها. ويحتمل: النعم والخيرات؛ إذ لم يكن الأنبياء في جميع الأوقات في البلاء، ولكن كانوا في وقت في بلاء وشدة، وفي وقت آخر في نعمة وخير، أو فتنه بهما جميعا، على ما أخبر: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: ٣٥] ".

قال سهل:" أي: فتنا لنفسك الطبيعية وبيناها حتى لا تأمن مكر الله".

عن سعيد بن جبير، ومجاهد: قوله: {وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا}، قالا: "أخلصناك إخلاصا".

قال الطبري:" الفتنة: الابتلاء والاختبار".

عن ابن عباس: قوله:" {وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا}، يقول: اختبرناك اختبارا".

=

=

وقال ابن عباس أيضا: "ابتليت بلاء".

قال قتادة:" ابتليناك بلاء".

قال الضحاك:" هو البلاء على إثر البلاء".

عن مجاهد، قوله: " {فُتُونًا} قال: بلاء، إلقاؤه في التابوت، ثم في البحر، ثم التقاط آل فرعون إياه، ثم خروجه خائفا".

عن سعيد بن جبير، قال: (سألت عبد الله بن عباس عن قول الله، ﷻ، لموسى، عليه السلام: { وفتناك فتونا } فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا بن جبير، فإن لها حديثا طويلا. فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم، عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكا، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، ما يشكون فيه وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم الشفار، يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: يوشك أن تفنوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاما كل مولود ذكر، فيقل أبناؤهم ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحدا، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار؛ فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك.

فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة. فلما كان من قابل حملت بموسى، عليه السلام، فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون -يا بن جبير-ما دخل عليه في بطن أمه، مما يراد به، فأوحى الله [جل ذكره]

=

=

إليها أن { لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين } [القصص: ٧] فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم. فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت با بني، لو ذبح عندي فواريته وكفنته، كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فرضة مستقى جواري امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن إن في هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئا حتى رفعنه إليها. فلما فتحته رأت فيه غلاما، فألقى عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط. وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شيء، إلا من ذكر موسى.

فلما سمع الذباحون بأمره، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يا بن جبير، فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتى فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألمكم.

فأتت فرعون فقالت: { قرة عين لي ولك } [القصص: ٩] فقال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه. فقال رسول الله ﷺ: "والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته، لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك". فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئرا، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئرا تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والها، فقالت لأخته: قصي أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكرا، أحي ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون –

=

=

والجنب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه وهو لا يشعر به - فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها فقالوا: ما يدريك؟ ما نصحهم له؟ هل يعرفونه ؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا بن جبير. فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظؤرة الملك، ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر. فجاءت أمه، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه، حتى امتلأ جنباه ريا، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرا. فأرسلت إليها. فأتت بها وبه فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئا حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي، فيكون معي لا آلوه خيرا [فعلت، وإلا] فإني غير تاركة بيتي وولدي. وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز وعده فرجعت به إلى بيتها من يومها، [وأنبته] الله نباتا حسنا وحفظه لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل، وهم في ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أتريني ابني؟ فوعدتها يوما تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك وأنا باعثة أمينا يحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والنحل والكرامة تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته وأكرمته، وفرحت به ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون يمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه، إنه زعم أن

=

=

يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه. وذلك من الفتون يا بن جبير بعد كل بلاء ابتلي به، وأريد به .

فجاءت امرأة فرعون فقالت ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني! فقالت: اجعل بيني وبينك أمرا يعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين، فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين فاعرف أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. فقرب إليه فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد هم به، وكان الله بالغا فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى، عليه السلام، يمشي في ناحية المدينة، إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضبا شديدا؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون الله [سبحانه] أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره. فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: { هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين } [القصص: ١٥]. ثم قال { رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم } [القصص: ١٦] فأصبح في المدينة خائفا يترقب الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم. فقال: ابغوني قاتله، ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صغوه مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم

=

=

بحقكم. فبينما هم يطوفون ولا يجدون ثبتا، إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلا من آل فرعون آخر. فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال: للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: { إنك لغوي مبين } فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني فخاف أن يكون بعد ما قال له: { إنك لغوي مبين } [القصص: ١٨] أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراده، وإنما أراد الفرعوني. فخاف الإسرائيلي وقال: { يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس } [القصص: ١٩] وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله، فتتاركا، وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: { أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس } فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقا حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره وذلك من الفتون يا بن جبير.

فخرج موسى متوجها نحو مدين، لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه ﷻ، فإنه قال: { عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان } [القصص: ٢٢، ٢٣].

يعني بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا ليس لنا قوة نزاحم القوم، إنما ننتظر فضول حياضهم. فسقى لهما، فجعل يغترف في الدلو ماء كثيرا، حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى، عليه السلام، فاستظل بشجرة، وقال: { رب إني لما أنزلت إلي

=

=

من خير فقير } [القصص: ٢٤]. واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلا بطانا فقال: إن لكما اليوم لشأنا، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه قال: { لا تخف نجوت من القوم الظالمين } [القصص: ٢٥]. ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: { يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين } [القصص: ٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته؟ وما أمانته؟ فقالت: أما قوته، فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلا قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه، حتى بلغته رسالتك. ثم قال لي: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق. فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسرى عن أبيها وصدقها، وظن به الذي قالت.

فقال له: هل لك { أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين } [القصص: ٢٧] ففعل فكانت على نبي الله موسى ثماني سنين واجبة، وكانت سنتان عدة منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرا.

قال سعيد -وهو ابن جبير-: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا. وأنا يومئذ لا أدري. فلقيت ابن عباس، فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانيا كانت على نبي الله واجبة، لم يكن لنبي الله أن ينقص منها شيئا، ويعلم أن الله كان قاضيا عن موسى عدته التي وعده فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك. قلت: أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، =

=

فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له ردءا، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه. فآتاه الله سؤله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه. فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون، عليهما السلام. فانطلقا جميعا إلى فرعون، فأقاما على بابه حينا لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا { إنا رسولا ربك } [طه: ٤٧]. قال: فمن ربكما؟ فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن؟ قال: فما تريدان؟ وذكره القتيل، فاعتذر بما قد سمعت. قال: أريد أن تؤمن بالله، وترسل معي بنى إسرائيل؟ فأبى عليه وقال: { فأت بآية إن كنت من الصادقين } [الشعراء: ١٥٤]. فألقى عصاه [فإذا هي] حية تسعى عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون. فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه. ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء -يعني من غير برص-ثم ردها فعادت إلى لونها الأول. فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا له: هذان ساحران { يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى } [طه: ٦٣] يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما. فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذي نعمل. فما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير: فحدثني ابن عباس: أن يوم الزينة الذي أظهر الله فيه موسى

=

=

على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، { لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين } [الشعراء: ٤٠] يعنون موسى وهارون استهزاء بهما، فقالوا: يا موسى -لقدرتهم بسحرهم- { إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين } [الأعراف: ١١٥]{ قال بل ألقوا } [طه: ٦٦]{ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون } [الاشعراء: ٤٤] فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن ألق عصاك، فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جزرا إلى الثعبان، تدخل فيه، حتى ما أبقت عصا ولا حبالا إلا ابتلعته، فلما عرفت السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحرا لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله ﷻ، آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله مما كنا عليه. فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون { فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين } [الأعراف: ١١٩] وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟. فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويواثقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك أخلف موعده، ونكث عهده.

حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلا فلما أصبح فرعون ورأى أنهم

=

=

قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر: إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه. فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيا لله.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال وعدني أن إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة، حتى أجاوزه. ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه. فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: { قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون } [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ومضى. فأنزلهم موسى منزلا وقال أطيعوا هارون، فإني قد استخلفته عليكم، فإني ذاهب إلى ربي. وأجلهم ثلاثين يوما أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوما وقد صامهن، ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئا فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذي كان، قال: يا رب، إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشرا ثم ائتني. ففعل موسى، عليه السلام، ما أمر به، فلما رأى قوم

=

=

موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل، ساءهم ذلك. وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم قد خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع، ولكم فيهم مثل ذلك وأنا أرى أنكم تحتسبون ما لكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئا من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيرا، وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، فقضي له أن رأى أثرا فقبض منه قبضة، فمر بهارون، فقال له هارون، عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا سامري، ألا تلقي ما في يدك؟ وهو قابض عليه، لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد. فألقاها، ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلا. فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلا أجوف. ليس فيه روح، وله خوار.

قال ابن عباس: لا والله، ما كان له صوت قط، إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقا، فقالت فرقة: يا سامري ما هذا؟ وأنت أعلم به. قال: هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق. وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا عمل الشيطان، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل، وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون: { يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن } [طه:

=

=

٩٠]. قالوا فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا، هذه أربعون يوما قد مضت؟ وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه.
فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده، { فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا } [طه: ٨٦] فقال لهم ما سمعتم في القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره، واستغفر له وانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول، وفطنت لها وعميت عليكم فقذفتها { وكذلك سولت لي نفسي قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا } [طه: ٩٦، ٩٧] ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه. فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فيكفر عنا ما عملنا. فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك، لا يألو الخير، خيار بني إسرائيل، ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال: { رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا } [الأعراف: ١٥٥] وفيهم من كان اطلع الله منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: { ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل } [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. فقال: يا رب، سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، هلا أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد،
=

=

فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى، عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقروا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكر -وذكروا من ثمارهم أمرا عجيبا من عظمها-فقالوا: يا موسى إن فيها قوما جبارين، لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون-قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبارين، آمنا بموسى، وخرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون-ويقول أناس: إنهم من قوم موسى. فقال الذين يخافون، بنو إسرائيل: { [قالوا] يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون } [المائدة: ٢٤] فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك، لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون، ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجرا مربعا، وأمر موسى فضربه بعصاه.

=

=

فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، في كل ناحية ثلاث أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس) وهذا الحديث يسمى حديث الفتون وقد أخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٢٦)، وابن جرير (١٦/ ١٢٥)، وأبو يعلى (٢٦١٨)، والطحاوي في المشكل (رقم ٦٦)، وغيرهم والحديث قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٢٨٠): في رفعه نظر والأشبه وقفه وغالبه متلقى من الإسرائيليات وفي بعض ما فيه نظر ونكارة، وقال في تفسيره (٥/ ٢٩٣): هو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس، ﵁ مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضًا..، وقال البوصيرى في الإتحاف: هذا إسناد صحيح، القاسم بن أبى أيوب وثقه ابن سعد وأبو داود، وذكره ابن حبان في الثقات وأصبغ بن زيد وثقه أحمد وابن معين والنسائى، وباقى رجال الإسناد على شرط الشيخين، وقال الهيثمى في المجمع ([٧/ ١٥٢): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير أصبغ بن زيد، والقاسم بن أبى أيوب وهما ثقتان) وقوى سنده الحافظ في الأربعين المتباينة السماع (ص ١٠٠)، وقال العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٠ - ١٠١): سنده حسن والجزم بأنه أخذه من الإسرائيليات فيه نظر ففي قوله في آخر الحديث رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ ما يدفع هذا التردد والله أعلم.

قوله تعالى: {فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ} [طه: ٤٠]، أي:" فمكثت سنين عديدة عند شعيب في أرض «مدين» ".

قال الطبري: في الكلام حذف، تقديره" وفتناك فتونا، فخرجت خائفا إلى أهل مدين، فلبثت سنين فيهم".

=

=

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخاطبًا لموسى، عليه السلام: إنه لبث مقيمًا في أهل "مدين" فارًا من فرعون وملئه، يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل".

قوله تعالى: {ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى} [طه: ٤٠]، أي:" ثم جئت على موعدٍ ووقت مقدر للرسالة والنبوة".

قال الطبري: يقول:" ثم جئت للوقت الذي أردنا إرسالك إلى فرعون رسولا ولمقداره، والعرب تقول: جاء فلان على قدر: إذا جاء لميقات الحاجة إليه؛ ومنه قول الشاعر:

نالَ الخِلافَةَ أوْ كانَتْ لَهُ قَدَرا... كَمَا أَتى رَبَّهُ مُوسَى عَلى قَدَرِ".

قال الفراء:" يريد على ما أراد الله من تكليمه".

قال ابن كثير:" ثم جاء موافقًا لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء ".

عن مجاهد: {عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى} ، قال: علي ذي موعد".

قال ابن عباس:" يقول: لقد جئت لميقات يا موسى".

قال قتادة:" قدر الرسالة والنبوّة".

ثم حكى-سبحانه- المنة الثامنة: فقال: وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي أى: وجعلتك محل صنيعتي وإحساني، حيث اخترتك واصطفيتك لحمل رسالتي وتبليغها إلى فرعون وقومه، وإلى قومك بنى إسرائيل.

قوله تعالى {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)} [طه: ٤١]

قال يحيى:"قال: واخترتك لنفسي ولرسالتي".

قال النحاس:" أي: قويتك وعلمتك لتبلغ عبادي أمري ونهيي".

قال الطبري: يقول:" أنعمت عليك يا موسى هذه النعم، ومننت عليك هذه المنن، اجتباء مني لك، واختيارا لرسالتي والبلاغ عني، والقيام بأمري ونهيي".

=

=

قال مقاتل:" وهو ابن أربعين سنة يقول واخترتك لنفسي رسولا".
قال الواحدي:" اخترتك بالرِّسالة لكي تحبَّني وتقوم بأمري".
قال ابن كثير:" أي: اصطفيتك واجتبيتك رَسُولا لنفسي، أي: كما أريد وأشاء".
قال الزجاج:" تأويله: اخترتك لإقامة حجتي، وجعلتك بيني وبين خلقي حتى صرت في الخطاب عني والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم".
قال سهل:" أي: تفرد إلي بالتجريد لا يشغلك عني شيء".
قال القشيري: أي:" استخلصتك لى حتى لا تصلح لأحد غيرى، ولا يتأتى شئ منك غير تبليغ رسالتى، وما هو مرادى منك".
قال الجصاص:" «الاصطناع»: الإخلاص بالألطاف ومعنى {لنفسي} لتصرف على إرادتي ومحبتي".
قال ابن جماعة، بدرالدين الكناني:" المراد بقوله تعالى {واصطنعتك لنفسي} المبالغة في الاختصاص والتقريب".
عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: "التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدتَه قد كتب عَليّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فحَجّ آدم موسى".
فالآية الكريمة تكريم عظيم لموسى- عليه السلام اختاره الله تعالى واجتباه من بين خلقه لحمل رسالته إلى فرعون وبنى إسرائيل.
هذه ثماني منن ساقها الله تعالى هنا مجملة، وقد ساقها-سبحانه- في سورة القصص بصورة أكثر تفصيلا، ومن ذلك قوله تعالى: وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ

=

=

وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ .

مسألة: اعلم رحمني الله وإياك، أن العين صفة ذاتية خبرية ثابتة لله ﷻ بالكتاب والسنة، وأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن، الله ﷻ له عينان تليقان به؛ {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} . أولا: الأدلة من كتاب الله ﷻ:

قال الله تعالى: "ولتصنع على عيني" [طه:٣٩]، وقال جل ثناؤه: "واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا" [الطور:٤٨]، وقال سبحانه: "تجري بأعيننا" [القمر:١٤].

ففي هذه الآيات الكريمات وغيرها كثير إضافة صفة العين لله ﷻ مفردة ومجموعة؛ ففهم أهل السنة السنية من هذه الآيات وما شابهها أن لله تعالى عينين اثنتين، ولم يقل أحد من السلف أن لله سبحانه عينا واحدة، أو عدة أعين؛ فـ"ذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة فقط؛ لأن المفرد المضاف يراد به أكثر من واحد؛ مثل قوله تعالى: "وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها"، فالمراد نعم الله المتنوعة التي لا تدخل تحت الحصر والعد. وقوله تعالى: "أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسآئكم" فالمراد بها جميع ليالي رمضان. ولو قال قائل: نظرت بعيني، أو وضعت المنظار على عيني. لا يكاد يخطر ببال أحد ممن سمع هذا الكلام أن هذا القائل ليست له إلا عين واحدة. هذا ما لا يخطر ببال أحد أبدا. قال الإمام ابن القيم: إذا أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهرا، أو مضمرا فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ؛ كقوله تعالى: "تجري بأعيننا"، و"فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا"، وهذا نظير المشاكلة في لفظ اليد المضافة إلى المفرد؛ كقوله تعالى: "بيدك الخير"، و"بيده الملك". وإن أضيفت إلى جمع جمعت كقوله تعالى:

=

=

"مما عملت أيدينا".

ومما يجدر التنبيه عليه في هذا الصدد ما وقع فيه ابن حزم رحمه الله من الخطأ الجسيم في هذا الباب؛ إذ يقول في كتابه المحلى (١/ ٣٣): "وأن لله عز وجل عزا وعزة، وجلالا وإكراما، ويدا ويدين وأيديا، ووجها، وعينا وأعينا".

فهذه زلة عظيمة من مثل هذا العالم، لا يتابع عليها، وما حمله على هذا إلا أنه من نفاة الصفات، مع تعظيمه غفر الله له للحديث والسنة، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في "منهاج السنة النبوية" (٢/ ٥٨٤).

ثانيا: الأدلة من السنة النبوية:

أخرج البخاري في "صحيحه" (٧٤٠٧) من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: ذكر الدجال عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: " إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور - وأشار بيده إلى عينه - وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية".

فهذا الحديث وما جاء في معناه حجة لأهل الحق أهل السنة في إثبات العينين لله تبارك وتعالى وقد نصص على هذه العقيدة العلماء المتقدمين منهم والمتأخرين لا خلاف بينهم في ذلك؛ مثل: عثمان بن سعيد الدارمي، وإمام الإئمة أبو بكر بن خزيمة، وأبو إسماعيل الهروي، وابن قتيبة الدينوري، وأبو الحسن الأشعري، واللالكائي، وأبو عمرو الداني، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية، وغيرهم كثير.

قال العلامة العثيمين وقد سئل عن إثبات العينين لله تعالى، ودليل ذلك؟

فأجاب بقوله: الجواب على ذلك يتحرر في مقامين:

المقام الأول: أن لله تعالى عينين، فهذا هو المعروف عن أهل السنة والجماعة، ولم يصرح أحد منهم بخلافه فيما أعلم، وقد نقل ذلك عنهم أبو الحسن الأشعري

=

=

في كتابه: "اختلاف المصلين ومقالات الإسلاميين". قال: "مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث" فذكر أشياء ثم قال: "وأن له عينين بلا كيف كما قال: "تجري بأعيننا" [القمر:١٤] ". نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية (ص ٩٠/ ٥) من مجموع الفتاوى لابن قاسم، ونقل عنه أيضا مثله في (ص ٩٢) عن كتابه: "اختلاف أهل القبلة في العرش". ونقل عنه أيضا مثله في (ص ٩٤) عن كتابه: "الإبانة في أصول الديانة". وذكر له في هذا الكتاب ترجمة باب بلفظ: "باب الكلام في الوجه، والعينين، والبصر، واليدين". ونقل شيخ الإسلام في هذه الفتوى (ص ٩٩) عن الباقلاني في كتابه: "الإبانة". قوله: "صفات ذاته التي لم يزل ولا يزال متصفا بها هي الحياة والعلم"، إلى أن قال: "والعينان واليدان".

ونقل ابن القيم (ص ١١٨، ١١٩، ١٢٠) في كتابه: "اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية" عن أبي الحسن الأشعري، وعن الباقلاني في كتابيه: "الإبانة" و"التمهيد" مثل ما نقل عنه شيخ الإسلام، ونقل قبل ذلك في (ص ١١٤) عن الأشعري في كتابه: "الإبانة" أنه ذكر ما خالفت به المعتزلة كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ـ ﷺ ـ، وإجماع الصحابة إلى أن قال: "وأنكروا أن يكون لله عينان مع قوله تعالى: "تجري بأعيننا" [القمر:١٤].

وقال الحافظ ابن خزيمة في "كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب" (ص ٣٠): "بيان النبي ﷺ الذي جعله الله مبينا عنه في قوله ﷻ: "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم" [النحل:٤٤] فبين النبي ﷺ أن لله عينين، فكان بيانه موافقا لبيان محكم التنزيل، ثم ذكر الأدلة، ثم قال في (ص ٣٥): "نحن نقول: لربنا الخالق عينان يبصر بهما ما تحت الثرى".

وقال في (ص ٥٥، ٥٦): "فتدبروا يا أولي الألباب ما نقوله في هذا الباب في ذكر

=

=

اليدين؛ ليجري قولنا في ذكر الوجه والعينين تستيقنوا بهداية الله إياكم، وشرحه ـ جل وعلا صدوركم للإيمان بما قصه الله ﷻ في محكم تنزيله، وبينه على لسان نبيه ﷺ من صفات خالقنا ﷻ وتعلموا بتوفيق الله إياكم أن الحق والصواب والعدل في هذا الجنس مذهبا مذهب أهل الآثار ومتبعي السنن، وتقفوا على جهل من يسميهم مشبهة" ا. هـ.

فتبين بما نقلناه أن مقالة أهل السنة والحديث أن لله تعالى عينين تليقان بجلاله وعظمته لا تكيفان، ولا تشبهان أعين المخلوقين، لقوله تعالى: " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" [الشورى:١١].

روى عثمان بن سعيد الدارمي (ص ٤٧) من رده على المريسي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: "إن الله كان سميعا بصيرا". فوضع إصبعه الدعاء على عينيه، وإبهامه على أذنيه.

المقام الثاني: في ذكر الأدلة على إثبات العينين:

قال البخاري رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: "ولتصنع على عيني" [طه:٣٩]. وقوله جل ذكره: "تجري بأعيننا" [القمر:١٤] ثم ساق بسنده حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: "إنه لا يخفى عليكم أن الله ليس بأعور وأشار بيده إلى عينه وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية ".

وقد استدل بحديث الدجال على أن لله تعالى عينين عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه: "الرد على بشر المريسي" الذي أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية. وقال: "إن فيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما" ـ يعني ـ هذا الكتاب وكتابه الثاني: "الرد على الجهمية".

قال الدارمي في الكتاب المذكور (ص ٤٣ ـ ط: أنصار السنة المحمدية)، بعد أن

=

=

ساق آيتي صفة العينين: "ثم ذكر رسول الله - ﷺ - الدجال فقال: إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور. قال: والعور عند الناس ضد البصر، والأعور عندهم ضد البصير بالعينين".

وقال في (ص ٤٨): "ففي تأويل قول رسول الله - ﷺ -: "إن الله ليس بأعور" بيان أنه بصير ذو عينين خلاف الأعور".

واستدل به أيضا الحافظ ابن خزيمة في "كتاب التوحيد" كما في (ص ٣١) وما بعدها.

وقال الشيخ عبد الله الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٢٨٥): قوله: (إن الله ليس بأعور): هذه الجملة هي المقصودة من الحديث في هذا الباب؛ فهذا يدل على أن لله عينين حقيقة؛ لأن العور فقد أحد العينين أو ذهاب نورها. اهـ.

ووجه الاستدلال به ظاهر جدا؛ فإن النبي ﷺ أراد أن يبين لأمته شيئا مما ينتفي به الاشتباه عليهم في شأن الدجال في أمر محسوس، يتبين لذوي التفكير العالمين بالطرق العقلية وغيرهم، بذكر أن الدجال أعور العين، والرب سبحانه ليس بأعور، ولو كان لله تعالى أكثر من عينين لكان البيان به أولى لظهوره، وزيادة الثناء به على الله - تعالى -؛ فإن العين صفة كمال، فلو كان لله أكثر من اثنتين كان الثناء بذلك على الله أبلغ.

وتقرير ذلك أن يقال: ما زاد على العينين فإما أن يكون كمالا في حق الله تعالى أو نقصا، فإن كان نقصا فهو ممتنع على الله تعالى لامتناع صفات النقص في حقه، وإن كان كمالا فكيف يهمله النبي ﷺ - مع كونه أبلغ في الثناء على الله تعالى!! فلما لم يذكره النبي ﷺ علم أنه ليس بثابت لله ﷻ وهذا هو المطلوب.

فإن قيل: ترك ذكره من أجل بيان نقص الدجال بكونه أعور.

=

=

قلنا: يمكن أن يذكر مع بيان نقص الدجال فيجمع بين الأمرين حتى لا يفوت ذكر كمال صفة الله ﷻ.

واعلم أن النبي ﷺ ذكر هذه العلامة الحسية ليبين نقص الدجال، وأنه ليس بصالح لأن يكون ربا، ولظهورها لجميع الناس لكونها علامة حسية بخلاف العلامات العقلية، فإنها قد تحتاج إلى مقدمات تخفى على كثير من الناس، لا سيما عند قوة الفتنة، واشتداد المحنة، كما في هذه الفتنة فتنة الدجال، وكان هذا من حسن تعليمه - ﷺ - حيث يعدل في بيانه إلى ما هو أظهر وأجلى مع وجود علامات أخرى.

وقد ذكر ابن خزيمة رحمه الله في "كتاب التوحيد" (ص ٣١) حديثا ساقه في ضمن الأدلة على أن النبي ﷺ بين أن لله تعالى عينين، فساقه بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه يقرأ قوله تعالى:"إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها" إلى قوله: "سميعا بصيرا" فيضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه. ويقول: هكذا سمعت رسول الله - ﷺ - يقرؤها ويضع أصبعيه.

وقد سبقت رواية الدارمي له بلفظ التثنية، وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح (ص ٣٧٣/ ١٣ - ط: خطيب) أن البيهقي ذكر له شاهدا من حديث عقبة بن عامر - رضي الله عنه - سمعت رسول الله - ﷺ - يقول على المنبر: "إن ربنا سميع بصير، وأشار إلى عينيه" وسنده حسن ا. هـ.

وقد ذكر صاحب مختصر الصواعق (ص ٣٥٩ - ط: الإمام)، قبيل المثال السادس حديثا عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ -: "إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن". الحديث لكنه لم يعزه، فلينظر في صحته.

وبهذا تبين وجوب اعتقاد أن لله تعالى عينين؛ لأنه مقتضى النص، وهو المنقول عن أهل السنة والحديث.

=

=

فإن قيل: ما تصنعون بقوله تعالى: "أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا". وقوله: "تجري بأعيننا" حيث ذكر الله تعالى العين بلفظ الجمع؟

قلنا: نتلقاها بالقبول والتسليم، ونقول: إن كان أقل الجمع اثنين كما قيل به إما مطلقا أو مع الدليل فلا إشكال لأن الجمع هنا قد دل الدليل على أن المراد به اثنتان فيكون المراد به ذلك، وإن كان أقل الجمع ثلاثة فإننا نقول جمع العين هنا كجمع اليد في قوله تعالى: "أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما". يراد به التعظيم والمطابقة بين المضاف والمضاف إليه، وهو ـ نا ـ المفيد للتعظيم دون حقيقة العدد، وحينئذ لا يصادم التثنية.

فإن قيل: فما تصنعون بقوله تعالى يخاطب موسى: "ولتصنع على عيني". حيث جاءت بالإفراد؟

قلنا: لا مصادمة بينها وبين التثنية، لأن المفرد المضاف لا يمنع التعدد فيما كان متعددا، ألا ترى إلى قوله تعالى: "وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها". وقوله تعالى: "واذكروا نعمة الله عليكم". فإن النعمة اسم مفرد، ومع ذلك فأفرادها لا تحصى.

وبهذا تبين ائتلاف النصوص واتفاقها وتلاؤمها، وأنها ـ ولله الحمد ـ كلها حق، وجاءت بالحق، لكنها تحتاج في بعض الأحيان إلى تأمل وتفكير بقصد حسن، وأداة تامة، بحيث يكون عند العبد صدق نية بطلب الحق، واستعداد تام لقبوله، وعلم بمدلولات الألفاظ، ومصادر الشرع وموارده، قال الله تعالى: "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" [النساء:٨٢].

فحث على تدبر القرآن الكريم، وأشار إلى أنه بتدبره يزول عن العبد ما يجد في قلبه من الشبهات، حتى يتبين له أن القرآن حق يصدق بعضه بعضا. والله المستعان. ا. هـ من مجموع فتاوى العثيمين (١/ ١٤٦ ـ ١٥٣).

=

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢).

{اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوك} إلَى النَّاس {بِآيَاتِي} التِّسْع {وَلَا تَنِيَا} تَفْتُرَا {فِي ذِكْرِي} بِتَسْبِيحٍ وَغَيْره.

اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣).

{اذْهَبَا إلَى فِرْعَوْن إنَّهُ طَغَى} بِادِّعَائِهِ الرُّبُوبِيَّة.

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤).

{فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا} فِي رُجُوعه عَنْ ذلك {لعله يتذكر} يتعظ {أو يخشى} الله فيرجع وَالتَّرَجِّي بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِمَا لِعِلْمِهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا يرجع.

قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥).

{قَالَا رَبّنَا إنَّنَا نَخَاف أَنْ يَفْرُط عَلَيْنَا} أَيْ يَعْجَل بِالْعُقُوبَةِ {أَوْ أَنْ يَطْغَى عَلَيْنَا} أي يتكبر.

قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦).

{قَالَ لَا تَخَافَا إنَّنِي مَعَكُمَا} بِعَوْنِي {أَسْمَع} مَا يَقُول {وَأَرَى} مَا يَفْعَل.

فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧).

{فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إنَّا رَسُولَا رَبّك فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسْرَائِيل} إلَى الشَّام {وَلَا تُعَذِّبهُمْ} أَيْ خَلِّ عَنْهُمْ مِنْ اسْتِعْمَالك إيَّاهُمْ فِي أَشْغَالك الشَّاقَّة كَالْحَفْرِ وَالْبِنَاء

=

قلت: الحديث الذي طلب الشيخ التحقق من صحته: "إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن"، لا يصح، ولا تقوم به حجة؛ فانظر غير مأمور "السلسلة الضعيفة" (١٠٢٤) و (٤٣٩٩).

وَحَمْل الثَّقِيل {قَدْ جِئْنَاك بِآيَةٍ} بِحُجَّةٍ {مِنْ رَبّك} عَلَى صِدْقنَا بِالرِّسَالَةِ {وَالسَّلَام عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى} أَيْ السَّلَامَة لَهُ مِنْ الْعَذَاب.

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨).

{إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَاب عَلَى مَنْ كَذَّبَ} مَا جِئْنَا بِهِ {وَتَوَلَّى} أَعْرَضَ عَنْهُ فَأَتَيَاهُ وَقَالَا جَمِيع مَا ذُكِرَ(١).

---

(١) لما امتن الله على موسى بما امتن به، من النعم الدينية والدنيوية قال له: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ} هارون {بِآيَاتِي} أي: الآيات التي مني، الدالة على الحق وحسنه، وقبح الباطل، كاليد، والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى فرعون وملئه، {وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي} أي: لا تفترا، ولا تكسلا عن مداومة ذكري بل استمرًّا عليه، والزماه كما وعدتما بذلك {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا} فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور، يسهلها، ويخفف حملها.

قوله تعالى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي} [طه: ٤٢]، أي:" اذهب - يا موسى - أنت وأخوك هارون بآياتي الدالة على ألوهيتي وكمال قدرتي وصدق رسالتك".

قال الطبري:" اذهبا إلى فرعون بها إنه تمرّد في ضلاله وغيه، فأبلغاه رسالاتي".

قال الثعلبي: {بِآيَاتِي}:" اليد والعصا ".

قال ابن عباس: "يعني: الآيات التسع التي بعث بها موسى".

وقال ابن الأنباري: "يجوز أن يريد {بِآيَاتِي} العصا، واليد، وأوقع عليهما اسم الجمع، ويجوز أن يريدهما مع حل العقدة من لسانه التي لم يزل موسى يعرف بها".

قال الكلبي: "وكان هارون يومئذ بمصر، فألهم أن يتلقى موسى، فتلقاه من مصر، فلما لقي موسى قال له موسى: إن الله أمرني أن آتي فرعون فسألت ربي أن يجعلك معي".

=

=

قوله تعالى: {وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي} [طه: ٤٢]، أي:" ولا تَضْعُفا عن مداومة ذكري".

قال الطبري:" يقول: ولا تضعفا في أن تذكراني فيما أمرتكما ونهيتكما، فإن ذكركما إياي يقوي عزائمكما، ويثبت أقدامكما، لأنكما إذا ذكرتماني، ذكرتما منِّي عليكما نِعَما جمَّة، ومننا لا تحصى كثرة".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي} [طه: ٤٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: لا تفترا في ذكري. حكاه الماوردي، وأنشد قول الشاعر:

فَمَا وَنى مُحَمَّدٌ مُذْ أنْ غفر... لَهُ الإلهُ ما مَضَى وَما غَبَرْ

الثاني: لا تضعفا، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة.

قال مقاتل:" يقول: ولا تضعفا في أمري".

وروي عن نافع بن الأزرق، قال:" يا ابن عباس: أخبرني عن قول الله ﷻ: {وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي}.

قال: أي: لا تضعفا عن أمري، يعني موسى وهارون.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت الشاعر وهو يقول:

إنّي وجدّك ما ونيت ولم أزل... أبغي الفكاك له بكلّ سبيل".

الثالث: أن «الواني»: هو الغافل المفرط. قاله ابن زيد.

الرابع: لا تبطئا، قاله ابن عباس.

الخامس: لا تضعفا في الدعاء إلي والتبليغ عني رسالتي. حكاه يحيى عن الحسن.

السادس: لا تزالا، حكاه أبان، واستشهد بقول طرفة:

كأن القدور الراسيات أمامهم... قباب بنوها لا تني أبدًا تغلي

السابع: معناه: لا تكثر الذكر باللسان، وتغفل عن مراقبة القلب. قاله سهل بن عبد

=

=

الله.

قال القرطبي:" الونى الضعف والفتور، والكلال والإعياء، وكله مراد في الآية، وقال امرؤ القيس:

مِسَحٍّ إذا ما السّابحاتُ على الونى... أثَرْنَ غبارا بالكديدِ المُرَكَّلِ ".

وقوله-سبحانه- وَلا تَنِيا فعل مضارع مصدره الونى- بفتح الواو وسكون النون- بمعنى الضعف والفتور والتراخي في الأمر.

يقال: ونى فلان في الأمر ينى ونيا- كوعد يعد وعدا- إذا ضعف وتراخى في فعله.

وقوله: أَخُوكَ فاعل لفعل محذوف. أى: وليذهب معك أخوك.

والمراد بالآيات: المعجزات الدالة على صدق موسى- عليه السلام، وعلى رأسها عصاه التي ألقاها فإذا هي حية تسعى، ويده التي ضمها إلى جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء.

والمعنى: اذهب يا موسى أنت وأخوك إلى حيث آمركما متسلحين بآياتى ومعجزاتي، ولا تضعفا أو تتراخيا في ذكرى وتسبيحي وتقديسي بما يليق بذاتى وصفاتي من العبادات والقربات.

فإن ذكركما لي هو عدتكما وسلاحكما وسندكما في كل أمر تقدمان عليه.

فالآية الكريمة تدعو موسى وهارون، كما تدعو كل مسلم في كل زمان ومكان إلى المداومة على ذكر الله تعالى في كل موطن، بقوة لا ضعف معها وبعزيمة صادقة لا فتور فيها ولا كلال.

وقد مدح-سبحانه- المداومين على تسبيحه وتحميده وتقديسه في كل أحوالهم فقال:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ .

=

=

قال الزمخشري: قوله وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي الونى: الفتور والتقصير. أى لا تنسيانى ولا أزال منكما على ذكر حيث تقلبتما، واتخذا ذكرى جناحا تصيران به مستمدين بذلك العون والتأييد منى، معتقدين أن أمرا من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكرى. ويجوز أن يريد بالذكر تبليغ الرسالة، فإن الذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها فكان جديرا بأن يطلق عليه اسم الذكر.. ا.هـ.

وقال ابن كثير: والمراد بقوله وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عونا لهما عليه، وقوة لهما. وسلطانا كاسرا له، كما جاء في الحديث «إن عبدى كل عبدى الذي يذكرني وهو مناجز قرنه» ا.هـ.

ثم أرشدهما-سبحانه- إلى الوجهة التي يتوجهان إليها فقال: اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى.

أى: اذهبا إلى فرعون لتبلغاه دعوتي، ولتأمراه بعبادتي، فإنه قد طغى وتجاوز حدوده، وأفسد في الأرض، وقال لقومه: أنا ربكم الأعلى. وقال لهم- أيضا- ما علمت لكم من إله غيرى.

قال الجمل: وقوله: اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ جمعهما في صيغة أمر الحاضر مع أن هارون لم يكن حاضرا محل المناجاة بل كان في ذلك الوقت بمصر- للتغليب فغلب الحاضر على غيره، وكذا الحال في صيغة النهى. أى: قوله وَلا تَنِيا روى أنه تعالى أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى- عليه السلام وقيل: سمع بإقباله فتلقاه.. ا.هـ.

قوله تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٤]، أي:" فقولا له قولا لطيفًا؛ لعله يتذكر أو يخاف ربه".

قال الطبري:" فقولا لفرعون قولا ليِّنا".

=

=

قال الواحدي:" أي: ادعواه على الرجاء والطمع، لا على اليأس من فلاحه، فوقع التعبد لهما على هذا الوجه، لأنه أبلغ لهما في دعائه إلى الحق".

قال الحسن:" أعذرا إليه وقولا له إن لك ربا ولك معادا وإن بين يديك جنه ونارا".

وفي قوله تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا} [طه: ٤٤]، ثلاثة وجوه:

أحدها: لطيفًا رقيقًا. حكاه الماوردي.

الثاني: كنّياه، قاله علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وسفيان، والسدي، ومقاتل.

قال سفيان:" كنياه يا أبا مرة".

قال مقاتل:" يقول: ادعواه بالكنية".

قال يحيى:" سمعت بعض الكوفيين يقول: كنياه".

الثالث: أن يبدأه بالرغبة قبل الرهبة، ليلين بها فيتوطأ بعدها من رهبة ووعيد. حكاه الماوردي.

روي عن الفضل بن عيس الرقاشي: "أنه تلا هذه الآية: {فقولا له قولا لينا}، فقال: يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولى ويناديه".

قال محمد بن إبراهيم: "حضرت مجلس يحيى بن معاذ، وقرأ رجل هذه الآية: {فقولا له قولا لينا} [طه: ٤٤] فبكى يحيى، ثم قال: إلهي، هذا رفقك بمن يقول: «أنا إله»، فكيف رفقك بمن يقول: «أنت إلهي»، إن قول «لا إله إلا الله» يهدم كفر خمسين سنة، فما تصنع بذنوب خمسين سنة".

وحكي الماوردي عن بعض المتصوفة: "يا رب هذا رفقك لمن عاداك، فكيف رفقك بمن والاك؟ ".

قال الماوردي:"وقيل: إن فرعون كان يحسن لموسى حين رباه، فأراد أن يجعل رفقه به مكافأة له حين عجز موسى عن مكافأته".

=

=

قال سهل:" حكي عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا دخل على فرعون قال له: يا أبا مصعب قل لا إله إلا الله وإني رسول الله.

قال سهل: إن الله تعالى ألبس موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لبسة المتأوبين، ونفى عنه عجلة المتهجمين لما رآه من الفضل والتمكين، ولم يرد به إيمانا، إذ لو أراد لقال: لعله يؤمن، وإنما أراد الحق عَزَّ وَجَلَّ بذلك ملاطفة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأجمل الخطاب وألين الكلام، لأن ذلك محرك لقلوب الخلائق أجمعين، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»، ليقطع به حجته، ويرغب من علم الله هدايته من السحرة وغيرهم".

وفي معنى: «لعل» في قوله تعالى: {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٤]، وجهان:

احدهما: أنها تفيد الاستفهام، والمعنى: فانظرا هل يتذكر ويراجع أو يخشى الله فيرتدع عن طغيانه. وهذا قول ابن عباس.

الثاني: أنها في معنى: «كي»، أي: فادعواه وعظاه ليتذكر أو يخشى. حكاه الطبري.

قال الطبري:" لكلا هذين القولين وجه حسن، ومذهب صحيح".

قال الزجاج:" «لعل» في اللغة: ترج وطمع، تقول: لعلي أصير إلى خير، فمعناه أرجو وأطمع أن أصير إلى خير، والله - عَزَّ وَجَلَّ - خاطب العباد بما يعقلون، والمعنى عند سيبويه فيه: اذهبا على رجائكما وطمعكما. والعلم من الله عَزَّ وَجَلَّ قد أتى من وراء ما يكون. وقد علم الله عَزَّ وَجَلَّ أنه لا يتذكر ولا يخشى، إلا أن الحجة إنما تجب عليه بالإبانة، وإقامتها عليه، والبرهان".

أى: اذهبا إليه، وادعواه إلى ترك ما هو فيه من كفر وطغيان، وخاطباه بالقول اللين، وبالكلام الرقيق. فإن الكلام السهل اللطيف من شأنه أن يكسر حدة الغضب، وأن يوقظ القلب للتذكر، وأن يحمله على الخشية من سوء عاقبة الكفر والطغيان.

وهذا القول اللين الذي أمرهما الله تعالى به هنا قد جاء ما يفسره في آيات أخرى،

=

=

وهي قوله تعالى: اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى. فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى، وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى ...

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على ألطف أساليب المخاطبة وأرقها وألينها وأحكمها.

قال الرازي: السؤال الأول: لم أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد. الجواب لوجهين: الأول:

أنه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الأبوين. الثاني: أن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم في الوعظ أن يزدادوا عتوا وتكبرا، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق.

السؤال الثاني: كيف كان ذلك الكلام اللين. الجواب: ذكروا فيه وجوها. أحدها: ما حكى الله تعالى بعضه فقال: هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى [النازعات: ١٨، ١٩] وذكر أيضا في هذه السورة بعض ذلك فقال: فأتياه فقولا إنا رسولا ربك إلى قوله: والسلام على من اتبع الهدى [طه: ٤٧]. وثانيها: أن تعداه شبابا لا يهرم بعده وملكا لا ينزع منه إلا بالموت وأن يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته. وثالثها: كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة.

ورابعها: حكي عن عمرو بن دينار قال: بلغني أن فرعون عمر أربعمائة سنة وتسع سنين فقال له موسى عليه السلام: إن أطعتني عمرت مثل ما عمرت فإذا مت فلك الجنة

واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة. أما الأول: فقيل لو حصلت له هذه الأمور الثلاثة في هذه المدة الطويلة لصار ذلك كالإلجاء إلى معرفة الله تعالى وذلك لا يصح مع التكليف. وأما الثاني: فلأن خطابه بالكنية أمر سهل فلا يجوز

=

=

أن يجعل ذلك هو المقصود من قوله: فقولا له قولا لينا بل يجوز أن يكون ذلك من جملة المراد. وأما الثالث: فالاعتراض عليه كما في الأول ا.هـ

وقال ابن كثير: قوله فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ... هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهي أن فرعون كان في غاية العتو والاستكبار، وموسى كان صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين كما قال يزيد الوقاشى عند قراءته لهذه الآية: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟.

والحاصل أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.. ا.هـ.

(لطيفة): قال ابن القيم في إعلام الموقعين: قوله تعالى لكليمه موسى وأخيه هارون: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} فأمر تعالى أن يلينا القول لأعظم أعدائه وأشدهم كفرا وأعتاهم عليه لئلا يكون إغلاظ القول له مع أنه حقيقي به ذريعة إلى تنفيره وعدم صبره لقيام الحجة فنهاهما عن الجائز لئلا يترتب عليه ما هو أكره إليه تعالى. ا.هـ

والترجي في قوله تعالى: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى على بابه إلا أنه يعود إلى موسى وهارون.

أي: اذهبا إليه، وإلينا له القول، وباشرا الأمر معه مباشرة من يرجو ويطمع في نجاح سعيه، وحسن نتيجة قوله.

وإلى هذا المعنى أشار الزمخشري بقوله: والترجي لهما أي: اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو أن يثمر عمله فهو يجتهد بطوقه، ويحتشد- أي- يستعد ويتأهب- بأقصى وسعه، وجدوى إرسالهما إليه مع العلم أنه لن يؤمن، إلزام الحجة، وقطع المعذرة، كما قال تعالى: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ

=

=

بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى ا.هـ.

ويرى بعضهم أن الترجي هنا للتعليل. أى: فقولا له قولا لينا لأجل أن يتذكر أو يخشى.

قال الآلوسى: قال الفراء: «لعل» هنا بمعنى كي التعليلية.. وعن الواقديّ: أن جميع ما في القرآن من «لعل» فإنها للتعليل، إلا قوله تعالى وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ فإنها للتشبيه أى: كأنكم تخلدون ا.هـ.

وقال الشنقيطي: قد قدمنا قول بعض العلماء: إن "لعل" في القرآن بمعنى التعليل، إلا التي في سورة "الشعراء": {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)} فهي بمعنى كأنكم. وقد قدمنا أيضًا أن "لعل" تأتي في العربية للتعليل؛ ومنه قوله:

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا ... نكف ووثَّقتم لنا كل موثق

فلما كَفَفْنا الحرب كانت عهودكم ... كشبه سراب بالفلا متألق

فقوله: "لعلنا نكف" أي لأجل أن نكف.

وقال بعض أهل العلم: {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)} معناه على رجائكما وطمعكما، فالترجِّي والتوقع المدلول عليه بلعل راجع إلى جهة البشر. وعزا القرطبي هذا القول لكبراء النحويين كسيبويه وغيره ا.هـ

قال ابن القيم في شفاء العليل: النوع السابع:- التعليل بـ(لعل) وهي في كلام الله تعالى للتعليل مجردة عن معنى الترجي فإنها إنما يقارنها معنى الترجي إذا كانت من المخلوق وأما في حق من لا يصح عليه الترجي فهي للتعليل المحض كقوله { اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } فقيل:- هو تعليل لقوله { اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ } وقيل تعليل لقوله { خَلَقَكُمْ } والصواب:- أنه تعليل للأمرين، لشرعه وخلقه ومنه قوله { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن

=

=

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } وقوله { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } وقوله { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } وقوله { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } فلعل في هذا كله قد أخلصت للتعليل والرجاء الذي فيها إنما هو متعلق بالمخاطبين) ا.هـ.

قوله تعالى: {قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥)} [طه: ٤٥]

أي: قال موسى وهارون: ربنا إننا نخاف أن يعاجلنا بالعقوبة، أو أن يتمرد على الحق فلا يقبله.

قوله تعالى: {قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا} [طه: ٤٥]، أي:" قال موسى وهارون: ربنا إننا نخاف أن يعاجلنا بالعقوبة".

قال مقاتل:" يعني: أن يعجل علينا بالقتل ".

قال الطبري:" قال موسى وهارون: ربنا إننا نخاف فرعون إن نحن دعوناه إلى ما أمرتنا أن ندعوه إليه، أن يعجل علينا بالعقوبة، و «الإفراط:»: هو الإسراف والإشطاط والتعدّي، يقال منه: أفرطت في قولك: إذا أسرف فيه وتعدّى، وأما «التفريط»: فإنه التواني، يقال منه: فرطت في هذا الأمر حتى فات: إذا توانى فيه".

قال الفراء:" {يفرط}، يريد في العجلة إلى عقوبتنا. والعرب تقول: فرط منه أمر. وأفرط: أسرف، وفرط: توانى ونسي".

قال ابو عبيدة: معناه:" أن يقدم علينا ببسط وعقوبة ويعجل علينا، وكل متقدّم أو متعجّل فارط، قال:

قَدْ فَرَط العِلْجُ عَلَيْنَا وَعَجِلْ".

قال الزجاج:" معنى: {يفرط علينا}: يبادر بعقوبتنا، يقال: قد فرط منه أمر أي قد بدر منه أمر، وقد أفرط في الشيء إذا سقط فيه، وقد فرط في الشيء أي: قصر، ومعناه كله: التقدم في الشيء، لأن «الفرط» في اللغة: المتقدم. ومنه قوله ﷺ «أنا فرطكم على الحوض» ".

=

=

عن مجاهد:" {أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا}، قال: عقوبة منه".

قال ابن زيد:" نخاف أن يعجل علينا إذ نبلغه كلامك أو أمرك، يفرط ويعجل. وقرأ: {لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} ".

قوله تعالى: {أَوْ أَنْ يَطْغَى} [طه: ٤٥]، أي:" أو أن يتمرد على الحق فلا يقبله".

قال مقاتل:" يعنى: يستعصى".

قال يحيى:" يطغى فيقتلنا".

عن ابن عباس: قوله: " {أَوْ أَنْ يَطْغَى}، قال: يعتدي".

أي: قال موسى وهارون بعد أن أمرهما ربهما بالذهاب إلى فرعون لتبليغه دعوة الحق:

يا ربنا إننا نخاف أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أى يعاجلنا بالعقوبة قبل أن ننتهي من الحديث معه في الأمر.

يقال: فرط فلان على فلان يفرط إذا عاجله بالعقوبة وأذاه بدون تمهل، ومنه قولهم:

فرس فارط، أى سابق لغيره من الخيل.

أَوْ أَنْ يَطْغى أى يزداد طغيانه، فيقول في حقك يا ربنا مالا نريد أن نسمعه، ويقول في حقنا ما نحن برءاء منه، ويفعل معنا ما يؤذينا.

وقد جمع -سبحانه- بين القولين اللذين حكاهما عنهما، لأن الطغيان أشمل من الإفراط، إذ الجملة الأولى تدل على الإسراع بالأذى لأول وهلة، أما الثانية فتشمل الإسراع بالأذى، وتشمل غيره من ألوان الاعتداء سواء أكان في الحال أم في الاستقبال.

وهنا يجيبهما الخالق- جل وعلا- بما يثبت فؤداهما، ويزيل خوفهما فقال: لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى.

=

=

قوله تعالى: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦]، أي:" قال الله لموسى وهارون: لا تخافا من فرعون؛ فإنني معكما أسمع كلامكما وأرى أفعالكما".

قال الطبري:" يقول الله تعالى ذكره: قال الله لموسى وهارون {لا تخافا} فرعون {إِنَّنِي مَعَكُمَا} أعينكما عليه، وأبصركما {أسمَعُ} ما يجري بينكما وبينه، فأفهمكما ما تحاورانه به {وأرَى} ما تفعلان ويفعل، لا يخفى عليّ من ذلك شيء".

قال يحيى:" فإنه ليس بالذي يصل إلى قتلكما حتى تبلغا الرسالة".

قال الماتريدي:" أي: اسمع قوله وجوابه إياكما، وأرى ما يفعل، أي: أنصركما فلا تخافا".

قال ابن كثير:" أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي".

عن عبد الله قال: "لما بعث اللهُ ﷻ موسى إلى فرعون قال: رب، أيّ شيء أقول؟ قال قل: هيا شراهيا. قال الأعمش: فَسَّرَ ذلك: الحي قبل كل شيء، والحي بعد كل شيء".

قال ابن كثير:" إسناد جيد، وشيء غريب".

عن حجاج:" {قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}، ما يحاوركما، فأوحي إليكما فتجاوبانه".

قال سهل:" أخبر الله أنه معهما بالنظر، مشاهد لكل حال هما عليه بالقوة والمعونة والتأييد، لا تخافا إبلاغ الرسالة بحال".

=

=

أي: قال الله تعالى لهما لا تخافا من بطش فرعون، إننى معكما بقوتي وقدرتي ورعايتى، وإننى أسمع كلامكما وكلامه، وأرى فعلكما وفعله. لا يخفى على شيء من حالكما وحاله، فاطمئنا أننى معكما بحفظي ونصرى وتأييدى، وأن هذا الطاغية ناصيته بيدي، ولا يستطيع أن يتحرك أو يتنفس إلا بإذنى ...

وفي هذه الآية إثبات صفة السمع والبصر لله تعالى.

ثم رسم لهما-سبحانه- طريق الدعوة فقال: فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ.

قوله تعالى: {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ} [طه: ٤٧]، أي:" فاذهبا إليه وقولا له: إننا رسولان إليك من ربك أن أطلق بني إسرائيل، ولا تكلِّفهم ما لا يطيقون من الأعمال".

قال الطبري: يقول:" أرسلنا إليك يأمرك أن ترسل معنا بني إسرائيل، فأرسلهم معنا ولا تعذّبهم بما تكلفهم من الأعمال الرديئة".

قال يحيى:" كان بنو إسرائيل عند القبط بمنزلة أهل الجزية فينا".

عن ابن عباس:" مكثا على بابه حينًا لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد".

ذكر محمد بن إسحاق بن يسار:" أن موسى وأخاه هارون خرجا، فوقفا بباب فرعون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان: إنا رسل رب العالمين، فآذنوا بنا هذا الرجل، فمكثا فيما بلغني سنتين يَغْدوان ويروحان، لا يعلم بهما ولا يجترئ أحد على أن يخبره بشأنهما، حتى دخل عليه بَطَّال له يلاعبه ويُضْحكه، فقال له: أيها الملك، إن على بابك رجلا يقول قولا عجيبًا، يزعم أن له إلهًا غيرك أرسله إليك. قال: ببابي؟ قال: نعم. قال: أدخلوه، فدخل ومعه أخوه هارون وفي يده عصاه، فلما وقف على فرعون قال: إني رسول رب العالمين. فعرفه فرعون".

وذكر السّدّي:" أنه لما قدم بلاد مصر، ضاف أمّه وأخاه وهما لا يعرفانه، وكان

=

=

طعامهما ليلتئذ الطعثلل وهو اللفت، ثم عرفاه وسلما عليه، فقال له موسى: يا هارون، إن ربي قد أمرني أن آتي هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى الله، وأمر أن تعاونني. قال: افعل ما أمرك ربك. فذهبا، وكان ذلك ليلا فضرب موسى باب القصر بعصاه، فسمع فرعون فغضب وقال: من يجترئ على هذا الصنيع؟ فأخبره السدنة والبوابون بأن هاهنا رجلا مجنونًا يقول: إنه رسول الله. فقال: عليّ به. فلما وقفا بين يديه قالا وقال لهما ما ذكر الله في كتابه".

قوله تعالى: {قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ} [طه: ٤٧]، أي:" قد أتيناك بدلالة معجزة من ربك تدل على صدقنا في دعوتنا".

قال السمعاني: أي:" بدلالة من ربك".

قال ابن كثير:" أي: بدلالة ومعجزة من ربك".

قال الطبري: أي: معجزة {مِنْ رَبِّكَ} على أنه أرسلنا إليك بذلك، إن أنت لم تصدّقنا فيما نقول لك أريناكها".

قال الحسن: "العصا واليد".

قال الواحدي:" يعني: اليد البيضاء والعصا".

قوله تعالى: {وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى} [طه: ٤٧]، أي:" والسلامة من عذاب الله تعالى لمن اتبع هداه".

قال الطبري:" يقول: والسلامة لمن اتبع هدى الله، وهو بيانه".

قال ابن كثير:" أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابًا، كان أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين».

وكذلك لما كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ كتابًا صُورَتُه: «من مسيلمة رسول الله

=

=

إلى محمد رسول الله، سلام عليك. أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر مَعَكَ، فلك المدر ولي الوبر، ولكن قريش
قوم يعتدون». فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» ".

قال الزجاج: قوله:" {والسلام على من اتبع الهدى}، ليس يعنى به التحية، وإنما معناه: أن من اتبع الهدى سلم من عذاب الله وسخطه، والدليل على أنه ليس بسلام: أنه ليس ابتداء لقاء وخطاب".

عن مسلم بن أبي مريم:"أن رسول الله ﷺ كان إذا كتب إلى المشركين كتب: «السلام على من اتبع الهدى»".

قوله تعالى: {إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [طه: ٤٨]، أي:" إن ربك قد أوحى إلينا أن عذابه على مَن كذَّب وأعرض عن دعوته وشريعته".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لرسوله موسى وهارون: قولا لفرعون إنا قد أوحى إلينا ربك أن عذابه الذي لا نفاد له، ولا انقطاع على من كذب بما ندعوه إليه من توحيد الله وطاعته، وإجابة رسله وأدبر مُعرضا عما جئناه به من الحق".

عن قتادة، قوله:" {أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى}، كذب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله".

أى: فأتيا فرعون، وادخلا عليه داره أو مكان سلطانه، وقولا له بلا خوف أو وجل إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ الذي خلقك فسواك فعدلك.

وكان البدء بهذه الجملة لتوضيح أساس رسالتهما، ولإحقاق الحق من أول الأمر، ولإشعاره منذ اللحظة الأولى بأنهما قد أرسلهما ربه وربهما ورب العالمين،
=

=

لدعوته إلى الدين الحق، وإلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وإلى التخلي عن الكفر والطغيان. وأنهما لم يأتياه بدافع شخصى منهما وإنما أتياه بتكليف من ربه ورب العالمين.

أما الجملة الثانية التي أمرهما الله تعالى أن يقولاها لفرعون فقد حكاها -سبحانه- بقوله: فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ أى: فأطلق سراح بنى إسرائيل، ودعهم يعيشون أحرارا في دولتك ولا تعذبهم باستعبادهم وقهرهم، وقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم.

قال تعالى: وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ، يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ، وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ .

قال الآلوسى: والمراد بالإرسال: إطلاقهم من الأسر، وإخراجهم من تحت يده العادية، لا تكليفهم أن يذهبوا معهما إلى الشام، كما ينبئ عنه قوله -سبحانه- وَلا تُعَذِّبْهُمْ أى: بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب، فإنهم كانوا تحت سيطرة القبط، يستخدمونهم في الأشغال الشاقة كالحفر والبناء.. .

وقوله تعالى: قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ جملة ثالثة تدل على صدقهما في رسالتهما. والمراد بالآية هنا: جنسها، فتشمل العصا واليد وغيرهما من المعجزات التي أعطاها الله تعالى لنبيه موسى- عليه السلام.

أى: قد جئناك بمعجزة من ربك تثبت صدقنا، وتؤيد مدعانا، وتشهد بأنا قد أرسلنا الله تعالى إليك لهدايتك ودعوتك أنت وقومك إلى الدخول في الدين الحق.

فالجملة الكريمة تقرير لما تضمنه الكلام السابق من كونهما رسولين من رب العالمين، وتعليل لوجوب إطلاق بنى إسرائيل، وكف الأذى عنهم.

أما الجملة الرابعة التي أمرهما الله تعالى بأن يقولاها لفرعون فهي قوله -سبحانه- : وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى.

=

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى (٤٩).

{قَالَ فَمَنْ رَبّكُمَا يَا مُوسَى} اقْتَصَرَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ الْأَصْل وَلِإِدْلَالِهِ عَلَيْهِ بِالتَّرْبِيَةِ.

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠).

{قَالَ رَبّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلّ شَيْء} مِنْ الْخَلْق {خَلْقه} الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ مُتَمَيِّز بِهِ

=

أى: وقولا له- أيضا- السلامة من العذاب في الدارين لمن اتبع الهدى بأن آمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ...

فالسلام مصدر بمعنى السلامة، وعلى بمعنى اللام. ويفهم من الآية الكريمة أن من لم يتبع الهدى، لا سلامة له، ولا أمان عليه.

وفي هذه الجملة من الترغيب في الدخول في الدين الحق ما فيها، ولذا استعملها النبي ﷺ في كثير من كتبه، ومن ذلك قوله ﷺ في رسالته إلى هرقل ملك الروم: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى..

ثم حكى -سبحانه- الجملة الخامسة التي أمر موسى وهارون أن يخاطبا بها فرعون فقال: إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى.

أى: وقولا له إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا من عند ربنا وخالقنا أَنَّ الْعَذابَ في الدنيا والآخرة عَلى مَنْ كَذَّبَ بآياته وحججه -سبحانه- وَتَوَلَّى عنها. وأعرض عن الاستجابة لها.

وبذلك نرى في هذه الآيات الكريمة أسمى ألوان الدعوة إلى الحق وأحكمها، فهي قد بدأت بالأساس الذي تقوم عليه كل رسالة سماوية إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ وثنت ببيان أهم ما أرسل موسى وهارون من أجله، فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ وثلثت بإقامة الأدلة على صدقهما قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وربعت بالترغيب والاستمالة وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى.

عَنْ غَيْره {ثُمَّ هَدَى} الْحَيَوَان مِنْهُ إلَى مَطْعَمه وَمَشْرَبه وَمَنْكَحِهِ وَغَيْر ذَلِكَ.

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١).

{قَالَ} فِرْعَوْن {فَمَا بَال} حَال {الْقُرُون} الْأُمَم {الْأُولَى} كَقَوْمِ نُوح وَهُود وَلُوط وَصَالِح فِي عبادتهم الأوثان.

قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢).

{قَالَ} مُوسَى {عِلْمهَا} أَيْ عِلْم حَالهمْ مَحْفُوظ {عِنْد رَبِّي فِي كِتَاب} هُوَ اللَّوْح الْمَحْفُوظ يُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا يَوْم الْقِيَامَة {لَا يَضِلّ} يَغِيب {رَبِّي} عَنْ شَيْء {وَلَا يَنْسَى} رَبِّي شَيْئًا.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣).

هو {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ} فِي جُمْلَة الْخَلْق {الْأَرْض مهادا} فِرَاشًا {وَسَلَكَ} سَهَّلَ {لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا} طُرُقًا {وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاء مَاء} مَطَرًا قَالَ تَعَالَى تَتْمِيمًا لِمَا وَصَفَهُ بِهِ مُوسَى وَخِطَابًا لِأَهْلِ مَكَّة {فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا} أَصْنَافًا {مِنْ نَبَات شَتَّى} صِفَة أَزْوَاجًا أَيْ مُخْتَلِفَة الْأَلْوَان وَالطُّعُوم وَغَيْرهمَا وَشَتَّى جَمْع شَتِيت كَمَرِيضٍ وَمَرْضَى مِنْ شَتَّ الْأَمْر تَفَرَّقَ.

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤).

{كُلُوا} مِنْهَا {وَارْعَوْا أَنْعَامكُمْ} فِيهَا جَمْع نَعَم وَهِيَ الْإِبِل وَالْبَقَر وَالْغَنَم يُقَال رَعَتْ الْأَنْعَام وَرَعَيْتهَا وَالْأَمْر لِلْإِبَاحَةِ وَتَذْكِير النِّعْمَة وَالْجُمْلَة حَال مِنْ ضَمِير أَخْرَجْنَا أَيْ مُبِيحِينَ لَكُمْ الْأَكْل وَرَعْي الْأَنْعَام {إنَّ فِي ذَلِكَ} الْمَذْكُور هُنَا {لَآيَات} لَعِبَرًا {لِأُولِي النُّهَى} لِأَصْحَابِ الْعُقُول جَمْع نُهْيَة كَغُرْفَةٍ وَغُرَف سُمِّيَ بِهِ الْعَقْل لِأَنَّهُ يَنْهَى صَاحِبه عَنْ ارْتِكَاب الْقَبَائِح.

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥).

{مِنْهَا} أَيْ مِنْ الْأَرْض {خَلَقْنَاكُمْ} بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَم مِنْهَا {وَفِيهَا نُعِيدكُمْ} مَقْبُورِينَ بَعْد الْمَوْت {وَمِنْهَا نُخْرِجكُمْ} عِنْد الْبَعْث {تَارَة} مَرَّة {أُخْرَى} كَمَا أَخْرَجْنَاكُمْ عِنْد ابْتِدَاء خَلْقكُمْ.

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦).

{وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ} أَيْ أَبْصَرْنَا فِرْعَوْن {آيَاتنَا كُلّهَا} التِّسْع {فَكَذَّبَ} بِهَا وَزَعَمَ أَنَّهَا سِحْر {وَأَبَى} أَنْ يُوَحِّد الله تَعَالَى.

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى (٥٧).

{قَالَ أَجِئْتنَا لِتُخْرِجنَا مِنْ أَرْضنَا} مِصْر وَيَكُون لك الملك فيها {بسحرك يا موسى}.

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨).

{فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ} يُعَارِضُهُ {فَاجْعَلْ بَيْننَا وَبَيْنك مَوْعِدًا} لِذَلِكَ {لَا نُخْلِفهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا} مَنْصُوب بِنَزْعِ الْخَافِض فِي {سُوًى} بِكَسْرِ أَوَّله وَضَمّه أَيْ وَسَطًا تَسْتَوِي إِلَيْهِ مَسَافَة الْجَائِي مِنْ الطَّرَفَيْنِ.

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩).

{قَالَ} مُوسَى {مَوْعِدكُمْ يَوْم الزِّينَة} يَوْم عِيد لَهُمْ يَتَزَيَّنُونَ فِيهِ وَيَجْتَمِعُونَ {وَأَنْ يُحْشَر النَّاس} يُجْمَع أَهْل مِصْر {ضُحًى} وَقْتَهُ لِلنَّظَرِ فِيمَا يقع.

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠).

{فَتَوَلَّى فِرْعَوْن} أَدْبَرَ {فَجَمَعَ كَيْده} أَيْ ذَوِي كَيْده مِنْ السَّحَرَة {ثُمَّ أَتَى}

بِهِمْ الْمَوْعِد[١].

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى (٤٩)} [طه: ٤٩]

قال الطبري: في الكلام محذوف، تقديره:"فقالا له ما أمرهما به ربهما وأبلغاه رسالته، فقال فرعون لهما: {فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى} فخاطب موسى وحده بقوله: يا موسى، وقد وجه الكلام قبل ذلك إلى موسى وأخيه. وإنما فعل ذلك كذلك، لأن المجاوبة إنما تكون من الواحد".

قال الفراء:" يكلم الاثنين ثم يجعل الخطاب لواحد لأن لكلام إنما يكون من الواحد لا من الجميع".

وقال الزمخشري:" خاطب الاثنين، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى، لأنه الأصل في النبوة، وهرون وزيره وتابعه. ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه، لما عرف من فصاحة هرون والرتة في لسان موسى. ويدل عليه قوله: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِين} ".

ولم تذكر السورة الكريمة كيف وصلا إليه.. لأن القرآن لا يهتم بجزئيات الأحداث التي لا تتوقف عليها العبر والعظات، وإنما يهتم بذكر الجوهر واللباب من الأحداث.

والمعنى: قال فرعون لموسى وهارون بعد أن دخلا عليه. وأبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه:

من ربكما يا موسى الذي أرسلكما إلي؟.

وكأنه- لطغيانه وفجوره- لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه وخالقه.

كما قالا له قبل ذلك إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ.

وخص موسى بالنداء مع أنه وجه الخطاب إليهما لظنه أن موسى- عليه السلام هو =

=

الأصل في حمل رسالة الحق إليه، وأن هارون هو وزيره ومعاونه أو أنه لخبثه ومكره، تجنب مخاطبة هارون لعلمه أنه أفصح لسانا من موسى- عليهما السلام.

قال الزمخشري: خاطب فرعون الاثنين، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى، لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره وتابعه، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته- أى فسقه- على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه، لما عرف من فصاحة هارون والرّتة في لسان موسى، ويدل عليه قوله: أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ.

ولا شك أن ما حكاه الله تعالى عن فرعون من قوله فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى يدل على نهاية الغرور والفجور والجحود، وشبيه بذلك قوله: -سبحانه- حكاية عنه: وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ... ا.هـ

وقوله تعالى: فَحَشَرَ فَنادى فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى.

ثم حكى -سبحانه- بعد ذلك أن موسى قد رد على فرعون ردا يخرسه ويكبته فقال:

قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى.

وقوله خَلْقَهُ مصدر بمعنى اسم المفعول، وهو المفعول الثاني لقوله أَعْطى والمفعول الأول قوله: كُلَّ شَيْءٍ.

{قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)} [طه: ٥٠]

أي: قال له موسى: ربنا الذي أعطى كل شيء خَلْقَه اللائق به على حسن صنعه، ثم هدى كل مخلوق الهداية الكاملة إلى الانتفاع بما خلقه الله له.

وفي قوله تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: أعطى كل شيء زوجه من جنسه، ثم هداه لنكاحه، قاله ابن عباس،

=

=

والسدي.

قال ابن عباس:" خلق لكل شيء زوجة، ثم هداه لمنكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه ومولده".

وقال ابن عباس:" {ثُمَّ هَدَى}، يعني: هدى بعضهم إلى بعض، ألف بين قلوبهم وهداهم للتزويج أن يزوّج بعضهم بعضا".

قال السدي:" يقول: أعطى كلّ دابة خلقها زوجا، ثم هدى للنكاح".

قال الكلبي:" أعطى الرجل المرأة ، والجمل الناقة، والذكر أعطاه الأنثى، ثم هداه لذلك".

قال ابن قتيبة: "أي: أعطى كل ذكر خلقا مثله من الإناث، [ثم] هدى الذكر لإتيان الأنثى".

قال الطبري:" {أعطى كل شيء خلقه} "يعني: نظير خلقه في الصورة والهيئة كالذكور من بني آدم. أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجا، وكالذكور من البهائم، أعطاها نظير خلقها، وفي صورتها وهيئتها من الإناث أزواجا، فلم يعط الإنسان خلاف خلقه، فيزوجه بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الإنس، ثم هداهم للمأتي الذي منه النسل والنماء كيف يأتيه، ولسائر منافعه من المطاعم والمشارب، وغير ذلك".

عن عكرمة قوله: " {أعطى كل شيء خلقه ثم هدى}، قال: ألم تر إلى البعير كيف يقوم لصاحبه ينتظره حتي يحيي هذا منه".

قال سعيد بن جبير:" أعطي كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل الإنسان في خلق الدابة ولا الدابة في خلق الكلب ولا الكلب في خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح وهيأ كل شيء على ذلك، ليس منها شيء يملك شيئا في فعاله في الخلق والرزق والنكاح ثم هدى قال: هدى كل شيء إلى رزقه وإلى

=

=

زوجته".

الثاني: أعطى كل شيء صورته، ثم هداه إلى معيشته ومطعمه ومشربه، قاله مجاهد، قال الشاعر:

وَلَهُ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ خِلْقَةٌ... وَكَذَلِكَ اللهُ مَا شَاءَ فَعَلْ

يعني: بالـ «خلقة» الصورة.

قال يحيى:" قوله: {ثُمَّ هدى}، يعني: ألهمه لمرعاه، فمنها ما يأكل النَّبْت، ومنها ما يأكل الحب، ومنها ما يأكل اللَّحم. وقوله: {خَلْقَهُ} يعني صورته التي تصلح له. قال: {ثُمَّ هدى} يعني ألهمه كيف يأتي معيشته ومرعاه،

وذلك قوله في سَبِّح اسم ربِّك الأعلى {والذي قَدَّرَ فهدى} يعني قدَّر الخلق، الذَّكر والأُنثى، {فهدى}، يعني: أَلهَم كيف يأتيها وتأتيه".

الثالث: أعطى كلًا ما يصلحه، ثم هداه له، قاله الحسن، وقتادة.

الرابع: أعطى كل شيءٍ ما ألهمه من علم أو صناعة وهداه إلى معرفته. أفاده الماوردي.

قال الطبري:" الأصوب من معانيه أن يكون موجها إلى أن كلّ شيء أعطاه ربه مثل خلقه، فزوجه به، ثم هداه".

قال ابن سابط: "ما أبهمت عليه البهائم فلم تبهم، عن أربع: تعلم إن الله ربها، ويأتي الذكر الأنثى، وتهتدي لمعايشها وتخاف الموت".

وكما تقدم فإن للعلماء في تفسير هذه الآية الكريمة اتجاهات يؤيد بعضها بعضا، منها ما يراه بعضهم من أن معنى الآية الكريمة:

١ – قال موسى في رده على فرعون: يا فرعون ربنا وربك هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي أعطى كل مخلوق من مخلوقاته، وكل شيء من الأشياء، الصورة التي تلائمه، والهيئة التي تتحقق معها منفعته ومصلحته، ثم هداه إلى

=

=

وظيفته التي خلقه من أجلها، وأمده بالوسائل والملكات التي تحقق هذه الوظيفة. وثم في قوله ثُمَّ هَدى للتراخي في الرتبة، إذ اهتداء المخلوق إلى وظيفته مرتبة تعلو كثيرا عن خلقه دون أن يفقه شيئا.

وإلى هذا المعنى أشار الزمخشري بقوله: «أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان، كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه.

ثُمَّ هَدى أى: عرفه كيف يرتفق بما أعطى، وكيف يتوصل إليه ولله در هذا الجواب، وما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن، ونظر بعين الإنصاف وكان طالبا للحق.

٢- ومنهم من يرى أن المعنى: قال موسى لفرعون: ربنا الذي أعطى كل شيء نظير خلقه في الصورة والهيئة، كالذكور من بنى آدم، أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجا، وكالذكور من البهائم أعطاها نظير خلقها في صورتها وهيئتها من الإناث أزواجا.. ثم هدى الجميع لسائر منافعهم من المطاعم والمشارب ووسائل التناسل.

وقد صدر الإمام ابن جرير تفسيره للآية بهذا المعنى فقال ما ملخصه: وقوله: قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ يعنى نظير خلقه في الصورة والهيئة.. ثم هداهم للمأتى الذي منه النسل والنماء كيف يأتيه، ولسائر منافعه من المطاعم والمشارب وغير ذلك.

٣- ويرى بعضهم أن: المعنى أعطى كل شيء صلاحه ثم هداه إلى ما يصلحه.

٤- ومنهم من يرى أن قوله خَلْقَهُ هو المفعول الأول لأعطى، وأن قوله كُلَّ شَيْءٍ هو المفعول الثاني فيكون المعنى: قال موسى لفرعون: ربنا الذي أعطى الخلائق

=

=

كل شيء يحتاجون إليه، ثم هداهم إلى طريق استعماله والانتفاع به.

والآية الكريمة تتسع لهذه المعاني جميعها لأنه-سبحانه- هو الذي أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه في معاشهم، ثم هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم، كما أعطى كل نوع من أنواع خلقه الصورة التي تناسبه، والشكل الذي يتناسب مع جنسه صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ....

ثم حكى-سبحانه- بعد ذلك ما قاله فرعون لموسى: قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى.

قوله تعالى: {قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١)} [طه: ٥١]

قال قتادة:" فما حال القرون". وفي رواية:"أين أعمال القرون الأولى".

قال أبو عبيدة:" أي: ما خبر الأمم الأولى وما حديثهم".

قال ابن قتيبة:" أي: فما حالها؟ يقال: أصلح الله بالك؛ أي حالك".

قال البغوي:" معنى «البال»: الحال، أي: ما حال القرون الماضية والأمم الخالية، مثل قوم نوح وعاد وثمود فيما تدعونني إليه فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث؟ ".

قال الطبري:" قال فرعون لموسى، إذ وصف موسى ربه جلّ جلاله بما وصفه به من عظيم السلطان، وكثرة الإنعام على خلقه والأفضال: فما شأن الأمم الخالية من قبلنا لم تقرّ بما تقول، ولم تصدّق بما تدعو إليه، ولم تخلص له العبادة، ولكنها عبدت الآلهة والأوثان من دونه، إن كان الأمر على ما تصف من أن الأشياء كلها خلقه، وأنها في نِعمه تتقلَّب، وفي مِنَنه تتصرف".

قال الماوردي:" «القرون»: جمع قرن، و «القرن»: أهل كل عصر مأخوذ من قرانهم فيه".

قال الثعلبي:" القرن: أهل كل عصر سموا بذلك لاقترابهم في الوجود أنهم إليهم لا يرجعون".

=

=

وقال الزجاج: قيل القرن ثمانون سنة وقيل سبعون، والذي يقع عندي - والله أعلم - أن

القرن أهل مدة كان فيها نبي أو كان فيها طبقة من أهل العلم. قلّت السنون أو كثرت، والدليل على هذا قول النبي ﷺ: «خيركم قرني»، أي: أصحابي-رحمة الله عليهم- «ثم الذين يلونهم»، يعني: التابعين، «ثم الذين يلونهم»، يعني: الذين أخذوا عن التابعين".

والجمهور على أن القرن مائة سنة، وأكثر المحققين على أنه غير مقدر بزمن معين لا يقع فيه زيادة ولا نقصان، بل المراد أهل كل عصر، فإذا انقضى أكثرهم قيل: قد انقضى القرن.

واختلف في سؤال فرعون عن «القرون» على خمسة وجوه:

أحدها: أنه سأله عنها فيما دعاه إليه من الإيمان، هل كانوا على مثل ما يدعو إليه أو بخلافه.

الثاني: أنه قال ذلك له قطعًا للاستدعاء ودفعًا عن الجواب.

الثالث: أنه سأله عن ذنبهم ومجازاتهم.

الرابع: أنه لما دعاه إلى الإقرار بالبعث قال: ما بال القرون الأولى لم تبعث.

الخامس: أنه لما سمع فرعون قول مؤمن آل فرعون: {يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣١) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ} [غافر: ٣٠ - ٣١]، في الهلاك، فقال فرعون لموسى-عليه السلام-

: {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى} [طه: ٥١]، فلم يعلم موسى ما أمرهم؟ لأن التوراة إنما أنزلت على موسى عليه السلام بعد هلاك فرعون وقومه، فمن ثم رد عليه موسى فـ {قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ} [طه: ٥٢]، يعنى: اللوح المحفوظ. وهذا قول مقاتل.

=

=

والبال في الأصل: الفكر. تقول: خطر ببالي كذا، أى: بفكرى وعقلي، ثم أطلق على الحال التي يهتم بشأنها، وهذا الإطلاق هو المراد هنا.

أي: قال فرعون بعد أن رد عليه موسى هذا الرد الحكيم: يا موسى فما حال القرون الأولى، كقوم نوح وعاد وثمود.. الذين كذبوا أنبياءهم، وعبدوا غير الله تعالى الذي تدعوني لعبادته؟.

وسؤاله هذا يدل على خبثه ومكره، لأنه لما سمع من موسى الجواب المفحم له على سؤاله السابق فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى أراد أن يصرف الحديث إلى منحى آخر يتعلق بأمور لا صلة لها برسالة موسى إليه وهي دعوته لعبادة الله تعالى وحده، وإطلاق سراح بنى إسرائيل من الأسر.

ولذا رد عليه موسى- عليه السلام بما يخرس لسانه، ويبطل كيده، فقال- كما حكى القرآن عنه- عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى.

قوله تعالى: {قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ} [طه: ٥٢]، أي:" قال موسى لفرعون: ما سألت عنه مما نحن بصدده، بل عِلْمُ تلك القرون فيما فَعَلَت من ذلك عند ربي في اللوح المحفوظ، ولا عِلْمَ لي به".

قال السمعاني:" أي: علم القرون الأولى عند ربي {في كتاب} ".

قال البغوي:" أي: أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها".

قال الطبري:" فأجابه موسى فقال: علم هذه الأمم التي مضت من قبلنا فيما فعلت من ذلك، عند ربي في كتاب: يعني في أمّ الكتاب، لا علم لي بأمرها وما كان سبب ضلال من ضل منهم فذهب عن دين الله".

قال الزجاج:" معناه: لا يضلها ولا ينساها، ولا يضله ربي ولا ينساه، يعنى به: الكتاب".

قال مقاتل:" فلم يعلم موسى ما أمرهم؟ لأن التوراة إنما أنزلت على موسى عليه السلام

=

=

بعد هلاك فرعون وقومه، فمن ثم رد عليه موسى فـ {قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ}، يعني: اللوح المحفوظ".

قال قتادة:" فوكلها نبي الله موكلا فقال: {عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي}.... الآية، يقول: أي: أعمارها وآجالها".

قال أبو المليح: "الناس يعيبون علينا الكتاب، وقال الله تعالى: {علمها عند ربي في كتاب} ".

قال أبو هلال:" كنا عند قتادة، فذكروا الكتاب وسألوه عن ذلك، فقال: وما بأس بذلك أليس الله الخبير يخبر قال: {فما بال القرون الأولى} {قال علمها عند ربي في كتاب} ".

قوله تعالى: {لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [طه: ٥٢]، أي:" لا يضل ربي في أفعاله وأحكامه، ولا ينسى شيئًا ممَّا علمه منها ".

قال ابن عباس:" يقول: لا يخطئ ربي ولا ينسى".

قال الحسن:" لا يضله فيذهب ولا ينسى ما فيه".

قال قتادة:" لا يضل ربي الكتاب ولا ينسى ما فيه".

وقال مجاهد:" {لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى}: هما شيء واحد".

قال مقاتل:" يعني: لا يخطئ ذلك الكتاب ربي ولا ينسى ما فيه، فلما أنزل الله- ﷻ- عليه التوراة أعلمه وبين له فيها القرون الأولى".

قال الطبري:" يقول: لا يخطئ ربي في تدبيره وأفعاله، فإن كان عذّب تلك القرون في عاجل، وعجل هلاكها، فالصواب ما فعل، وإن كان أخر عقابها إلى القيامة، فالحقّ ما فعل، هو أعلم بما يفعل، لا يخطئ ربي {ولا يَنْسَى} فيترك فعل ما فعْله حكمة وصواب".

وقرأ الحسن: «لا يضل ربي»، برفع الياء، من: «الإضلال».

=

=

أي: علم حال هذه القرون الأولى محفوظ عند ربي وحده في كتاب هو اللوح المحفوظ، وهو -سبحانه- لا يخفى عليه شيء من حالهم، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب.

وقوله: لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى مؤكد لما قبله. أى: لا يخطئ ربي في علمه، ولا ينسى شيئا مما علمه لأنه منزه عن ذلك، فالضلال هنا بمعنى الخطأ وقلة الإدراك.

وجمع -سبحانه- بين نفى الضلال والنسيان، لإفادة تنزهه عن أن يغيب شيء من أحوال هذا الكون عن علمه الشامل لكل شيء، ولبيان أن علمه باق بقاء أبديا لا نسيان معه، ولا زوال له.

ثم بين له آثار علم الله تعالى وقدرته فقال: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ...

قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا} [طه: ٥٣]، أي:" هو الذي جعل لكم الأرض ميسَّرة للانتفاع بها".

قال السدي:" بساطا".

قال مقاتل:" يعني: فراشا".

قوله تعالى: {وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا} [طه: ٥٣]، أي:" وجعل لكم فيها طرقًا كثيرة".

قال مقاتل:" يعني: طرقا في الأرض".

قال يحيى:" أي: وجعل لكم فيها طرقا".

قال الطبري:" يقول: وأنهج لكم في الأرض طرقا".

عن قتادة:" {وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا} ، أي: طرقا".

قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [طه: ٥٣]، أي:" وأنزل من السماء مطرًا".

قال مقاتل:" يعني: بالمطر".

قوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى} [طه: ٥٣]، أي:" فأخرج به

=

=

أنواعًا مختلفة من النبات".

قال مقاتل:" يعني: مختلفا من كل لون من النبات منها للدواب ومنها للناس".

قال يحيى:" مختلف في لونه وطعمه، وكل ما ينبت في الأرض فالواحد منه «زوج»، قال: فالذي ينبت هذه الأزواج الشتى قادر على أن يبعثكم بعد الموت".

قال الأخفش:" يريد: أزواجا شتى من نبات، أو يكون النبات هو شتى. كل ذلك مستقيم".

قال الطبري:" وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن إنعامه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذي ينزله من سمائه إلى أرضه، بعد تناهي خبره عن جواب موسى فرعون عما سأله عنه وثنائه على ربه بما هو أهله، يقول جلّ ثناؤه: فأخرجنا نحن أيها الناس بما ننزل من السماء من ماء أزواجا، يعني ألوانا {من نبات شتى}، يعني مختلفة الطعوم، والأراييح والمنظر".

عن ابن عباس، قوله:" {مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى}، يقول: مختلف".

أي: هو-سبحانه- الذي جعل لكم الأرض ممهدة كالفراش، ليتسنى لكم الانتفاع بخيراتها، وقرأ الأكثرون من السبعة، مِهادًا أي: فراشا. والمهاد في الأصل ما يمهد للصبي لينام عليه.

وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا والسلك: الإدخال. أي: وجعل لكم في داخلها طرقا تنتقلون فيها من مكان إلى مكان، ومن بلدة إلى أخرى، لقضاء مصالحكم.

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجًا مِنْ نَباتٍ شَتَّى والأزواج: الأصناف.

أي: وأنزل-سبحانه- بقدرته من السماء ماء نافعا كثيرا فأخرجنا بسبب هذا الماء من الأرض أصنافا شتى- أى متفرقة- من النبات، وهذه الأصناف مختلفة المنافع والألوان والطعوم والروائح، مما يدل على كمال قدرتنا، ونفاذ إرادتنا.

وفي قوله فَأَخْرَجْنا التفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم، للتنبيه على عظم

=

=

شأن هذا الإخراج، وأثره الكبير في حياة الناس.

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أربع منن قد امتن الله بها على عباده، وهي: تمهيد الأرض، وجعل الطرق فيها، وإنزال المطر من السماء، وإخراج النبات المتنوع من الأرض.

وهذه المنن وإن كانت ظاهرة وواضحة في جميع فجاج الأرض، إلا أنها أظهر ما تكون وأوضح ما تكون في أرض مصر التي كان يعيش فيها فرعون حيث تبدو الأرض فيها منبسطة ممهدة على جانبي النيل الممتد امتدادا كبيرا.

وكان الأجدر بفرعون- لو كان يعقل- أن يخلص العبادة لواهب هذه المنن، ومسدي هذه النعم، وهو الله رب العالمين.

والأمر في قوله-سبحانه-: كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ للإباحة.

قوله تعالى {كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤)} [طه: ٥٤]

كلوا - أيها الناس - من طيبات ما أنبتنا لكم، وارعوا حيواناتكم وبهائمكم. إن في كل ما ذُكر لَعلامات على قدرة الله، ودعوة لوحدانيته وإفراده بالعبادة، لذوي العقول السليمة.

قوله تعالى: {كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ} [طه: ٥٤]، أي:" كلوا - أيها الناس - من طيبات ما أنبتنا لكم، وارعوا حيواناتكم وبهائمكم".

قال يحيى: أي: "من ذلك النبات".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كلوا أيها الناس من طيب ما أخرجنا لكم بالغيث الذي أنزلناه من السماء إلى الأرض من ثمار ذلك وطعامه، وما هو من أقواتكم وغذائكم، وارعوا فيما هو أرزاق بهائمكم منه وأقواتها أنعامكم ".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى} [طه: ٥٤]، أي:" إن في كل ما ذُكر

=

=

لَعلامـات علـى قـدرة الله، ودعـوة لوحدانيتـه وإفـراده بالعبـادة، لـذوي العقـول السليمة".

قال ابن كثير:" أي: لدلالات وحججا وبراهين لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه".

قـال مقاتـل:" يعنـي: لـذوي العقـول في توحيـد الله- ﷻ-. هـذا قـول موسـى عليه السلام لفرعون".

قال الفراء:" يقول: في اختلاف ألوانه وطعمه آيات لذوي العقول. وتقول للرجل. إنه لذو نهية إذا كان ذا عقل".

قـال أبـو عبيـدة: معنـاه: "لـذوى الحجـى، واحـدتها: «نهيـة»، أي: أحـلام وعقـول، وانتهى إلـى عقـول أمرهـم ورأيهـم، ومجاز قـولهم: لـذى حجـى، أي: لـذى عقـل ولبّ".

قال ابن قتيبة:" أي أولي العقول. والنهية: العقل. قال ذو الرمة:

[لعرفانها والعهد ناء] وقد بدا... لذي نهية إلا إلى أم سالم".

قال الطبري:" يقول: إن فيما وصفت في هذه الآية من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه لآيات: يعني لدلالات وعلامات تدلّ على وحدانية ربكم، وأن لا إلـه لكـم غيـره لأهل الحجى والعقول، و «النهى»: جمع نُهية، وخصّ تعالى ذكره بأن ذلـك آيـات لأولي النُّهَى، لأنهم أهل التفكُّر والاعتبار، وأهل التدبر والاتعاظ".

قال الزجاج:" يقال: فلان ذو نهية ومعناه ذو عقل ينتهي به عن المقـابح ويـدخل بـه في المحاسن. وقال بعض أهل اللغة: ذو النهية الذي ينتهى إلى رأيه وعقله. وهـذا حسن أيضا".

عن قتادة: {لِأُولِي النُّهَى}، قال:"لأولي الورع".

وقال ابن عباس: "لأولي التقى".

=

=

وقال الحسن: "لأولي العقول".

أي: هذه الأرض وما اشتملت عليه من طرق ومن نبات شتى هي لمنفعتكم ومصلحتكم، فكلوا- أيها الناس- من هذه الثمار المتنوعة التي انشقت عنها الأرض، وارعوا أنعامكم من إبل وبقر وغنم في المكان الصالح للرعي من هذه الأرض، واشكروا الله تعالى على هذه النعم لكي يزيدكم منها.

واسم الإشارة في قوله إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى يعود إلى المذكور من تلك النعم السابقة.

والنُّهى جمع نهية- بضم النون وإسكان الهاء- وهي العقل. سمى بذلك لأنه ينهى صاحبه عما لا يليق. تقول العرب: نهو الرجل- ككرم- إذا كملت نهيته، أى عقله.

والمعنى: إن في ذلك الذي ذكرناه لكم من نعمة تمهيد الأرض، وجعل الطرق فيها: وإنزال المطر عليها، وإخراج النبات منها.. إن في كل ذلك لآيات وعظات وعبر، لأصحاب العقول السليمة، والأفكار القويمة.

ثم بين-سبحانه- أن هذه الأرض منها خلق الإنسان، وإليها يعود، ومنها يبعث للحساب يوم القيامة، فقال تعالى: مِنْها خَلَقْناكُمْ، وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى.

قوله تعالى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ} [طه: ٥٥]، أي:" من الأرض خَلَقْناكم – أيها الناس –".

قال الطبري: يقول: " من الأرض خلقناكم أيها الناس، فأنشأناكم أجساما ناطقة".

قال يحيى:" يعني: من الأرض خلقناكم".

قال الزجاج:" يعنى به الأرض، لأن الله – ﷻ – خلق آدم من تراب".

قال الحسن: "يعني: خلق آدم".

قال ابن كثير:" أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم

=

=

الأرض ".

قوله تعالى: {وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ} [طه: ٥٥]، أي:" وفي الأرض نعيدكم بعد الموت".

قال الطبري:" وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم، فنصيركم ترابا، كما كنتم قبل إنشائنا لكم بشرا سويا".

قال ابن كثير:" أي: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم".

قوله تعالى: {وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [طه: ٥٥]، أي:" ومن الأرض نخرجكم أحياء مرة أخرى للحساب والجزاء".

قال الطبري:" يقول: ومن الأرض نخرجكم كما كنتم قبل مماتكم أحياء، فننشئكم منها، كما أنشأناكم أول مرة".

عن ابن زيد:" {تَارَةً أُخْرَى}، قال: مرّة أخرى الخلق الآخر".

قال الزجاج: كأنه قال – والله أعلم –: ومنها نخلقكم تارة أخرى، لأن إخراجهم وهم تراب بمنزلة خلق آدم من تراب".

قال ابن كثير:" وهذه الآية كقوله تعالى: {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} [الأعراف: ٢٥]. وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر ثم قال: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ} ثم أخذ أخرى وقال: {وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ}. ثم أخذ أخرى، وقال: {وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} ".

والضمير في «منها، وفيها» يعود إلى الأرض المذكورة قبل ذلك في قوله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا.. والتارة: بمعنى المرة.

أى: من هذه الأرض خلقنا أباكم آدم، وأنتم تبع له، وفرع عنه، كما قال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

وقوله: وَفِيها نُعِيدُكُمْ أى: وفي الأرض نعيدكم عند موتكم، حيث تكون محل

=

=

دفنكم واستقرار أجسادكم.

وقوله: وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى أي: ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى أحياء يوم القيامة، للحساب والجزاء.

قال تعالى: فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعًا كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ.

وقال-سبحانه-: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا، هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ.

وقوله تعالى: وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى بيان للموقف الجحودى الذي وقفه فرعون من الحجج والمعجزات التي طرحها أمامه موسى- عليه السلام.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦)} [طه: ٥٦]

قال مقاتل:" يعني: فرعون، الآيات السبع: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمس، والسنين، والعصا، واليد، «فكذب» بها، بأنها ليست من الله- عز وجل- وأبى أن يصدق بها وزعم أنها سحر".

قال الطبري:" ولقد أرينا فرعون آياتنا، يعني أدلتنا وحججنا على حقيقة ما أرسلنا به رسولينا، موسى وهارون إليه كلها {فَكَذَّبَ وَأَبَى} أن يقبل من موسى وهارون ما جاءا به من عند ربهما من الحق استكبارا وعتوّا".

قال مكي:" أي: أرينا فرعون أدلتنا وحججنا الي أعطينا موسى وهارون كلها عيانًا فكذب بها وأبى أن يؤمن، استكبارًا وعتوا".

قال السمعاني:" هي الآيات التسع التي أعطيها موسى عليه السلام، فكذب بالتوحيد، وأبى عن الإيمان".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعبانًا عظيما ونزع يده من تحت جناحه

=

=

فخرجت بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر".

وقال الماتريدي:" ولم يره جميع آياته، إنما أراه بعض آياته، لكن إن كان المراد منها الإعلام له، فقد أعلم الآيات كلها؛ لأنه إنما أراه آية واحدة أو بعض الآيات، فرؤية آية واحدة وبعضها يدل على إعلام غيرها من الآيات، فهو على الإعلام قد أعلمه كلها، وهو ما قال له موسى: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الإسراء: ١٠٢]، علم اللعين أنها الآيات وليست بسحر.

أو أن يكون يريد بالآيات كلها الآيات التي أرسلها إلى موسى، فقد أراه آياته كلها، فكذب بتلك الآيات وأبى أن يصدقها ويقبلها فيسلم".

قال السعدي:" يخبر تعالى، أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع، جميع أنواعها العيانية، والأفقية والنفسية، فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى، كذب الخبر، وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلا والباطل حقا، وجادل بالباطل ليضل الناس".

وأريناه: من الرؤية البصرية المتعدية إلى مفعول واحد فلما دخلت عليها الهمزة تعدت إلى اثنين أولهما الهاء والثاني آياتنا.

والإضافة في آياتِنا قائمة مقام التعريف العهدي. أى: آياتنا المعهودة لموسى، والتي على رأسها اليد والعصا.

والمعنى: ولقد أرينا فرعون بعينيه آياتنا كلها الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق نبينا موسى، فكانت نتيجة ذلك أن كذب بها، وأبى أن يستجيب للحق..

كما قال تعالى: وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ.

وكما قال-سبحانه-: فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ.

والآية الكريمة تؤكد جحود فرعون وطغيانه بجملة من المؤكدات، وهي لام القسم، وقد، والرؤية البصرية، ولفظ «كل» الدال على الشمول والإحاطة.

=

=

والفاء في قوله فَكَذَّبَ للتعقيب، أى: فكذب بدون تريث أو تمهل.
والمفعول محذوف. أى: فكذب الآيات أو فكذب موسى بدون تردد أو تأخير.
والتعبير بقوله فَكَذَّبَ وَأَبى لزيادة ذمه وتحقير شأنه. لأنه لـم يكتف بالتكـذيب بـل أضاف إلى ذلك الامتناع عن قبول الآيات، والجحود لها، والتعالي على مـن جـاء بها كما ينبئ عنه قوله: تعالى بعد ذلك: قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِـنا بِـسِحْرِكَ يـا مُوسى.
قوله تعالى: {قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧)} [طه: ٥٧]
قال الطبري:" قال فرعون لما أريناه آياتنـا كلهـا لرسـولنا موسـى: أجئتنـا يـا موسـى لتخرجنا من منازلنا ودورنا بسحرك هذا الذي جئتنا به".
قال السمعاني:" معناه: لتأخذ رمنا أرضنا؛ فيكون لـك الملـك والـسلطان، وتخـرج من تشاء، وتدخل من تشاء".
قال ابـن كثيـر:" يقـول تعـالى مخبرًا عـن فرعـون أنـه قـال لموسـى حين أراه الآيـة الكـبرى، وهـي إلقـاء عـصاه فـصارت ثعبانًـا عظيمـا ونـزع يـده مـن تحـت جناحـه فخرجت بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس، فيتبعونك وتكاثرنا بهم".
قـال الـسعدي:" زعـم أن هـذه الآيـات التـي أراه إياهـا موسـى، سـحر وتمويـه، المقصود منها إخـراجهم مـن أرضـهم، والاسـتيلاء عليهـا، ليكـون كلامـه مـؤثرا في قلـوب قومـه، فـإن الطبـاع تميـل إلـى أوطانهـا، ويـصعب عليهـا الخـروج منهـا ومفارقتها، فأخبرهم أن موسى هذا قصده، ليبغضوه، ويسعوا في محاربته".
قال مقاتل: {بِسِحْرِكَ}، يعني:" اليد والعصا".
أى: قال فرعون لموسى على سبيل التهديد والوعيد: يا موسى أجئتنـا مـن المكـان الذي هربت إليه، ومعك هذه الآيات التي رأيناهـا، لكـي تخرجنـا مـن أرضـنا التـي

=

=

عشنا فيها وهي أرض مصر بسبب ما أظهرته أمامنا من سحر وخفة يد.

وسمى اللعين ما جاء به موسى- عليه السلام من معجزات سحرا، ليزيل من أذهان قومه أثر هذه المعجزات الباهرة.

وقال: لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا ليحمل أتباعه على الوقوف في وجه موسى بإبراز أن موسى جاء ليحتل أرضهم، ويجوز أموالهم، ويجعل السلطان لغيرهم.

وقد تكرر هذا المعنى في آيات كثيرة منه قوله تعالى: قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَماذا تَأْمُرُونَ.

وقوله-سبحانه-: قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا، وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ، وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ.

ثم أضاف فرعون إلى تهديده لموسى تهديدا آخر فقال: فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكانًا سُوىً.

قوله تعالى: {فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ} [طه: ٥٨]، أي:" فسوف نأتيك بسحر مثل سحرك".

قال السمعاني:" يعني: مثل سحرك".

قال القرطبي:" أي: لنعارضنك بمثل ما جئت به ليتبين للناس أن ما أتيت به ليس من عند الله".

قال ابن كثير: أي:" فإن عندنا سحرًا مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه ".

قال السعدي: أي:" فلنأتينك بسحر مثل سحرك فأمهلنا".

قوله تعالى: {فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ} [طه: ٥٨]، أي:" فاجعل بيننا وبينك موعدًا محددًا، لا نخلفه نحن ولا تخلفه أنت".

قال البغوي:" أي: فاضرب بيننا أجلا وميقاتا".

قال ابن كثير:" أي: يومًا نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندك من

=

=

السحر في مكان معين ووقت معين".

قال القرطبي:" أي: وعدا. وقيل: الموعد اسم لمكان الوعد، كما قال تعالى: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر: ٤٣] فالموعد ها هنا مكان. وقيل: الموعد اسم لزمان الوعد، كقوله تعالى: {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ} [هود: ٨١] فالمعنى: اجعل لنا يوما معلوما، أو مكانا معروفا، لا نخلف ذلك الوعد، و «الإخلاف»: أن يعد شيئا ولا ينجزه ".

قوله تعالى: {مَكَانًا سُوًى} [طه: ٥٨]، أي:" في مكان مستوٍ معتدل بيننا وبينك".

قال الطبري:" يقول: بمكان عدل بيننا وبينك ونَصَف".

قال السعدي:" أي: مستو علمنا وعلمك به، أو مكانا مستويا معتدلا ليتمكن من رؤية ما فيه".

عن مجاهد: قوله: " {مَكَانًا سُوًى}، قال: منصفا بينهم".

قال قتادة:" أي: عادلا بيننا وبينك".

وقال قتادة:" نصفا بيننا وبينك".

قال السدي:" يقول: عدلا".

وقال ابن زيد:" مكانا مستويا يتبين للناس ما فيه، لا يكون صوب ولا شيء فيغيب بعض ذلك عن بعض مستو حين يرى".

وقوله: فَلَنَأْتِيَنَّكَ ... جواب لقسم محذوف. أي: والله لنأتينك بسحر مثله..

قال الجمل: وقوله: مَوْعِدًا يجوز أن يكون زمانا، ويرجحه قوله: قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ.

والمعنى: عين لنا وقت اجتماع: ولذلك أجابهم بقوله: مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ويجوز أن يكون مكانا، والمعنى: بين لنا مكانا معلوما نعرفه نحن وأنت فنأتيه، وهذا يؤيده قوله:

=

=

مَكانًا سُوىً.

ويجوز أن يكون مصدرا، ويؤيد هذا قوله لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ لأن المواعدة توصف بالخلف وعدمه.

وقوله: لا نُخْلِفُهُ من الإخلاف بمعنى عدم إنجاز الوعد.

وقوله: سُوىً قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة بضم السين، وقرأه الباقون بالكسر ومعنى القراءتين واحد.

وأصله من الاستواء. يقال: مكان سوى وسواء. أى: عدل ووسط، بحيث يستوي طرفاه بالنسبة للفريقين.

أى: قال فرعون لموسى مهددا ومتوعدا: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى، والله لنأتينك بسحر مثل سحرك، فاجعل بيننا وبينك موعدا للمباراة والمنازلة، لا نخلف نحن ولا أنت هذا الموعد، وأن يكون مكان منازلتنا لك في مكان يتوسط المدينة، بحيث يستطيع جميع سكانها أن يحضروا إليه.

والمتأمل في الآية الكريمة يرى أن فرعون قد قال ما قال لموسى وهو كأنه قد جمع أطراف النصر بين يديه.

ويشهد لذلك: تصديره كلامه بالقسم فَلَنَأْتِيَنَّكَ.. وتركه لموسى اختيار الموعد الذي يناسبه فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا واشتراطه عدم الخلف في الوعد لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ واقتراحه أن يكون مكان المبارزة في وسط المدينة، حتى يراها جميع الناس مَكانًا سُوىً.

ولقد حكى القرآن أن موسى- عليه السلام قد قبل تحدى فرعون، ورد عليه بقول: قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى.

قوله تعالى: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ} [طه: ٥٩]، أي:" قال موسى لفرعون: موعدكم للاجتماع يوم العيد".

=

=

قال الطبري:" {يَوْمُ الزِّينَةِ}، يعني: يوم عيد كان لهم، أو سوق كانوا يتزينون فيه".

قال ابن كثير:" وهو يوم عيدهم ونَوروزُهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية ".

قال السعدي:" وهو عيدهم، الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم".

قال ابن عباس:" فإنه يوم زينة يجتمع الناس إليه ويحشر الناس له".

عن سعيد بن جبير:" {يَوْمُ الزِّينَةِ}، قال: يوم السوق".

عن مجاهد:" {يَوْمُ الزِّينَةِ}، موعدهم".

قال السدي:" قال موسى: {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}، وذلك يوم عيد لهم".

عن قتادة: " {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ}، يوم عيد كان لهم".

عن ابن زيد، قوله:" {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ}، قال: يوم العيد، يوم يتفرغ الناس من الأعمال، ويشهدون ويحضرون ويرون".

قال ابن إسحاق:" يوم عيد كان فرعون يخرج له".

قال العز بن عبدالسلام:" {يَوْمُ الزِّينَةِ} عيد كان لهم، أو يوم السبت، أو عاشوراء، أو يوم سوق كانوا يتزينون فيه".

قال الزمخشري:" وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد وفي المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حدّ المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر".

قوله تعالى: {وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} [طه: ٥٩]، أي:" حين يتزيَّن الناس، ويجتمعون من كل فج وناحية وقت الضحى".

=

=

قال الطبري:" يقول: وأن يُساق الناس من كلّ فجّ وناحية {ضُحًى}، فذلك موعد ما بيني وبينك للاجتماع".

قال ابن كثير:" {وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ}، أي: جميعهم {ضُحًى}، أي: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح، بيّن، ليس فيه خفاء ولا ترويج؛ ولهذا لم يقل "ليلا" ولكن نهارًا ضحى".

قال السعدي:" أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى فيه يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء على حقائقها، ما لا يحصل في غيره".

عن قتادة: "قوله: {وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}، يجتمعون لذلك الميعاد الذي وعدوه".

عن ابن إسحاق: " {وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}، حتى يحضروا أمري وأمرك".

وروي عن أبي نهيك، قوله: {وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}، قال: " يعني: فرعون يحشر قومه".

قال القشيري:" فكان فى ذلك اليوم افتضاحهم".

والمراد بيوم الزينة: يوم كانوا يتزينون فيه، ويجتمعون فيه، لأنه يوم عيد لهم.

قيل إنه كان يوم عاشوراء، وقيل يوم النيروز ...

أى: قال موسى لفرعون: موعد المنازلة بيني وبينكم هو يوم زينتكم وعيدكم، وفي هذا اليوم أطلب منكم أن يجمع الناس جميعا في وقت الضحى عند ارتفاع الشمس، لكي يشهدوا ما سيكون بيني وبين سحرتك يا فرعون.

وبذلك نرى أن موسى- عليه السلام قد قابل تهديد فرعون له، بتهديد أشد وأعظم، فقد طلب منه أن يكون موعد المبارزة يوم العيد، كما طلب منه- أيضا- أن يجمع الناس في وقت الضحى لكي يشاهدوا تلك المباراة.

=

=

قال الزمخشري: وإنما واعدهم موسى ذلك اليوم، ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه، وكبت الكافر، وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد وفي المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حد المبطلين وأشياعهم، ويكثر الحديث بذلك في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع. أهل الوبر والمدر.

ثم حكى القرآن ما كان من فرعون بعد أن حدد موسى- عليه السلام موعد المبارزة فقال: فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى.

قوله تعالى: {فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ} [طه: ٦٠]، أي:" فأدبر فرعون معرضًا عما أتاه به موسى من الحق، فجمع سحرته".

قال الطبري:" يقول: فأدبر فرعون معرضا عما أتاه به من الحقّ، فجمع مكره، وذلك جمعه سحرته بعد أخذه إياهم بتعلمه ".

قال ابن عطية:" المعنى: فجمع السحرة ووعدهم وأمرهم بالإعداد لموسى، وروي أمرهم، فهذا هو كيده".

قال النسفي: أي:" أدبر عن موسى معرضا {فجمع} مكره وسحرته، وكانوا اثنين وسبعين او اربعمائة أو سبعين ألفا".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه لما تواعد هو بموسى عليه السلام، إلى وقت ومكان معلومين، تولى، أي: شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى سحر في ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيرًا نافقًا جدًا، كما قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [يونس: ٧٩] ".

قال الشوكاني:" أي: انصرف من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعدا عليه، وقيل: معنى «تولى»: أعرض عن الحق، والأول أولى فجمع كيده أي: جمع ما يكيد به من سحره وحيلته، والمراد أنه جمع السحرة، قيل: كانوا اثنين وسبعين، وقيل أربعمائة، وقيل: اثنا عشر ألفا، وقيل: أربعة عشر ألفا، وقال ابن المنذر:

=

=

كانوا ثمانين ألفا".

قال الألوسي: {فَجَمَعَ كَيْدَهُ}، "أي: ما يكاد به من السحرة وآلاتهم وقيل جمع جنوده وجوز أن يراد جمع أهل مملكته فَنادى في المجمع نفسه أو بواسطة المنادي".

قال السعدي:" أي: جميع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشر السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك، متوفرا، وعلمه علما مرغوبا فيه، فجمع خلقا كثيرا من السحرة، ثم أتى كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.

فكان الجمع حافلا حضره الرجال والنساء، والملأ والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع، وقالوا للناس: {هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} [الشعراء: ٣٩ - ٤٠] ".

قوله تعالى: {ثُمَّ أَتَى} [طه: ٦٠]، أي:" ثم جاء فرعون بعد ذلك لموعد الاجتماع".

قال النسفي: أي:"للموعد".

قال الشوكاني:" أي: أتى الموعد الذي تواعدا إليه مع جمعه الذي جمعه".

قال الطبري:" يقول: ثم جاء للموعد الذي وعده موسى، وجاء بسحرته".

قال ابن عطية: أي:" ثم أتى فرعون بجمعه وأهل دولته والسحرة معه، وكانت عصابة لم يخلق الله أسحر منها، وجاء أيضا موسى -عليه السلام- ببني إسرائيل معه".

قال ابن كثير:" أي: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة وأقبل موسى، عليه السلام، يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين

=

=

يدي فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: {أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [الشعراء: ٤١، ٤٢] ".

أي: وبعد أن استمع فرعون إلى موسى، انصرف من المجلس، وولى مدبرا فَجَمَعَ كَيْدَهُ.

أي: فجمع كبار سحرته من أطراف مملكته ثُمَّ أَتى بهم في الموعد المحدد، ليتحدى موسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ جانبا من المحاورات التي دارت بين موسى وفرعون، وأرتنا كيف واجه موسى طغيان فرعون وغروره، برباطة جأش، وقوة إرادة، ومضاء عزيمة.

(منبهة): قال ابن تيمة في بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٦٦): وقد ظن بعض الناس إن سؤال فرعون: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} هو سؤال عن ما هية الرب كالذي يسأل عن حدود الأشياء فيقول: ما الإنسان؟ ما الملك؟ ما الجني؟ " ونحو ذلك قالوا ولما لم يكن للمسئول عنه ماهية عدل موسى عن الجواب إلى بيان ما يعرف به وهو قوله: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض} وهذا قول قاله بعض المتأخرين وهو باطل فإن فرعون إنما استفهم استفهام إنكار وجحد لم يسأل عن ماهية رب أقر بثبوته بل كان منكرا له جاحدا ولهذا قال في تمام الكلام: {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} وقال: {وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا} فاستفهامه كان إنكارا وجحدا يقول: ليس للعالمين رب يرسلك فمن هو هذا؟ إنكارا له فبين موسى أنه معروف عنده وعند الحاضرين وأن آياته ظاهرة بينة لا يمكن معها جحده وأنكم إنما تجحدون بألسنتكم ما تعرفونه بقلوبكم كما قال موسى في موضع آخر لفرعون: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ} وقال الله تعالى: {وَجَحَدُوا

=

=

بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} ولـم يقـل فرعون: "ومن رب العالمين" فإن من سؤال عن عينه يسأل بها من عرف جنس المسؤول عنه أنه من أهل العلم وقد شك في عينه كما يقول لرسول عرف أنه جاء من عند إنسان: "من أرسلك"؟ وأما "ما"؟ فهي سؤال عن الوصف يقول: أي شيء هو هذا؟ وما هو هذا الذي اسميته رب العالمين؟ قال ذلك منكرا له جاحدا، فلما سأل جحدا أجابه موسى بأنه أعرف من أن ينكر وأظهر من أن يشك فيه ويرتاب فقال: {قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} ولـم يقل موقنين بكذا وكذا بل أطلق فأي يقين كان لكم بشيء من الأشياء فأول اليقين اليقين بهذا الرب كما قالت الرسل لقومهم: {أَفِي اللهِ شَكٌّ} وإن قلتم لا يقين لنا بشيء من الأشياء بل سلبنا كل علم فهذه دعوى السفسطة العامة ومدعيها كاذب ظاهر الكذب فإن العلوم من لوازم كل إنسان فكل إنسان عاقل لا بد له من علم ولهذا قيل في حد العقل إنه علوم ضرورية وهي التي لا يخلو منها عاقل فلما قال فرعون: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} وهذا من افتراء المكذبين على الرسل لما خرجوا من عاداتهم التي هي محمودة عندهم نسبوهم إلى الجنون ولما كانوا مظهرين للجحد بالخالق أو للاسترابة والشك فيه هذه حال عامتهم ودينهم وهذا عندهم دين حسن وإنما إلههم الذي يطيعونه فرعون قال: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} فبين له موسى إنكم الذين سلبتم العقل النافع وأنتم أحق بهذا الوصف فقال: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} فإن العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينيه وأعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق فلما ذكر "أولا" أن من أيقن بشيء فهو موقن به واليقين بشيء هو من لوازم العقل بين "ثانيا" أن الإقرار به هو من لوازم العقل ولكن المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه فإن لم يعمل به صاحبه قيل أنه ليس له عقل ويقال أيضا لمن لم

=

قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ

=

يتبع ما أيقن به إنه ليس له يقين فإن اليقين أيضا يراد به العلم المستقر في القلب ويراد به العمل بهذا العلم فلا يطلق الموقن إلا على من أستقر في قلبه العلم والعمل وقوم فرعون لم يكن عندهم إتباع لما عرفوه فلم يكن لهم عقل ولا يقين وكلام موسى يقتضي الأمرين: إن كان لك يقين فقد عرفته وإن كان لك عقل فقد عرفته وإن ادعيت أنه لا يقين لك ولا عقل لك فكذلك قولك فهذا إقرار منكم بسبكم خاصية الإنسان ومن يكن هكذا لا يصلح له ما أنتم عليه من دعوى الالهية مع أن هذا باطل منكم فانكم موقنون به كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} ولكم عقل تعرفونه به ولكن هواكم يصدكم عن إتباع موجب العقل وهو إرادة العلو في الأرض والفساد فأنتم لا عقل لكم بهذا الاعتبار كما قال أصحاب النار: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} وقال تعالى عن الكفار: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} قال تعالى عن فرعون وقومه: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} والخفيف هو السفيه الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه وبسط هذا له موضع آخر.

والله تعالى قد أخبر عن فرعون أنه طلب أن يصعد ليطلع إلى إله موسى فلو لم يكن موسى أخبره أن إلهه فوق لم يقصد ذلك فإنه لو لم يكن مقرا به فإذا لم يخبره موسى به لم يكن إثبات العلو لا منه ولا من موسى عليه الصلاة والسلام فلا يقصد الاطلاع ولا يحصل به ما قصده من التلبيس على قومه بأنه صعد إلى إله موسى.

فموسى صدق محمدا في أن ربه فوق وفرعون كذب موسى في أن ربه فوق فالمقرون بذلك متبعون لموسى ومحمد والمكذبون بذلك موافقون لفرعون.

مَنِ افْتَرَى (٦١).

{قَالَ لَهُمْ مُوسَى} وَهُمْ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ مَعَ كُلّ وَاحِد حَبْل وَعَصًا {وَيْلكُمْ} أَيْ أَلْزَمَكُمْ الله الْوَيْل {لَا تَفْتَرُوا عَلَى الله كَذِبًا} بِإِشْرَاكِ أَحَد مَعَهُ {فَيُسْحِتَكُمْ} بِضَمِّ الْيَاء وَكَسْر الْحَاء وَبِفَتْحِهِمَا أَيْ يُهْلِككُمْ {بِعَذَابٍ} مِنْ عِنْده {وَقَدْ خَابَ} خَسِرَ {مَنْ افْتَرَى} كَذَبَ عَلَى الله.

فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢).

{فَتَنَازَعُوا أَمْرهمْ بَيْنهمْ} فِي مُوسَى وَأَخِيهِ {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} أَيْ الْكَلَام بَيْنهمْ فِيهِمَا.

قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣).

{قَالُوا} لِأَنْفُسِهِمْ {إِنْ هَذَانِ} وَهُوَ مُوَافِق لِلُغَةِ من يأتي في المثنى بالألف في أحواله الثلاثة وَلِأَبِي عَمْرو هَذَيْنِ {لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمْ الْمُثْلَى} مُؤَنَّث أَمْثَل بِمَعْنَى أَشْرَف أَيْ بِأَشْرَافِكُمْ بِمَيْلِهِمْ إِلَيْهِمَا لغلبتهما.

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤).

{فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ} مِنْ السِّحْر بِهَمْزَةِ وَصْل وَفَتْح الْمِيم مِنْ جَمَعَ أَيْ لَمَّ وَبِهَمْزَةِ قَطْع وَكَسْر الْمِيم مِنْ أَجْمَعَ أَحْكَمَ {ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا} حَال أَيْ مُصْطَفِّينَ {وَقَدْ أَفْلَحَ} فَازَ {الْيَوْم مَنْ اسْتَعْلَى} غَلَبَ.

قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥).

{قَالُوا يَا مُوسَى} اخْتَرْ {إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ} عَصَاك أَوَّلًا {وَإِمَّا أَنْ نَكُون أَوَّل مَنْ ألقى} عصاه.

قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦).

{قَالَ بَلْ أَلْقُوا} فَأَلْقَوْا {فَإِذَا حِبَالهمْ وَعِصِيّهمْ} أَصْله عُصُوو قُلِبَتْ الْوَاوَانِ يَاءَيْنِ وَكُسِرَتْ الْعَيْن وَالصَّاد {يُخَيَّل إِلَيْهِ مِنْ سِحْرهمْ أَنَّهَا} حَيَّات {تَسْعَى} عَلَى بُطُونهَا.

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧).

{فَأَوْجَسَ} أَحَسَّ {فِي نَفْسه خِيفَة مُوسَى} أَيْ خَافَ مِنْ جِهَة أَنَّ سِحْرهمْ مِنْ جِنْس مُعْجِزَته أَنْ يَلْتَبِس أَمْره عَلَى النَّاس فَلَا يؤمنوا به.

قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨).

{قُلْنَا} لَهُ {لَا تَخَفْ إنَّك أَنْتَ الْأَعْلَى} عليهم بالغلبة.

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩).

{وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينك} وَهِيَ عَصَاهُ {تَلْقَف} تَبْتَلِع {مَا صَنَعُوا إنَّمَا صَنَعُوا كَيْد سَاحِر} أَيْ جِنْسه {وَلَا يُفْلِح السَّاحِر حَيْثُ أَتَى} بِسِحْرِهِ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَتَلَقَّفَتْ كُلّ مَا صنعوه.

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠).

{فَأُلْقِيَ السَّحَرَة سُجَّدًا} خَرُّوا سَاجِدِينَ لِلَّهِ تَعَالَى {قالوا آمنا برب هارون وموسى}[١].

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ} [طه: ٦١]، أي:" قال موسى لسحرة فرعون يعظهم: احذروا، لا تختلقوا على الله الكذب، فيستأصلكم بعذاب مِن عنده ويُبيدكم".

=

=

قال مقاتل:" لقولهم: إن اليد والعصا ليستا من الله- ﷻ- وإنها سحر، {فَيُسْحِتَكُمْ}، فيهلككم جميعا بعذاب".

قال الطبري:" يقول: لا تختلقوا على الله كذبا، ولا تتقوّلوه، فيستأصلكم بهلاك فيبيدكم، يقال منه: سحت الدهر، وأسحت مال فلان: إذا أهلكه، من الإسحات قول الفرزدق:

وَعَضُّ زَمان يا بنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ... مِنَ المَالِ إلا مُسْحَتا أوْ مُجلَّف

ويُروى: إلا مسحت أو مجلف".

عن ابن عباس، قوله:" {فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ}، يقول: فيهلككم".

قال الحسن:" فيستأصلكم بعذاب".

قال قتادة:" فيستأصلكم بعذاب فيهلككم".

قال السدي:" يقول: يهلككم بعذاب".

قال ابن زيد:" يهلككم هلاكا ليس فيه بقيَّة، قال: والذي يسحت ليس فيه بقية".

وقرئ: «فَيَسْحَتَكُمْ»، بفتح الياء من: سحت يَسحت.

قوله تعالى: {وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى} [طه: ٦١]، أي:" وقد خسر من اختلق على الله كذبًا".

قال مقاتل:" وقد خسر {من افترى}، وقال الكذب على الله- ﷻ-".

قال الطبري:" يقول: لم يظفر من يخلق كذبا، ويقول بكذبه ذلك بحاجته التي طلبها به، ورجا إدراكها به".

والآية حكاية لما وجهه موسى- عليه السلام- من نصح وإنذار. قيل: كان عددهم اثنين وسبعين، وقيل: أكثر من ذلك.

قال الجمل: قوله فَيُسْحِتَكُمْ قرأ الأخوان وحفص عن عاصم فيسحتكم- بضم الياء وكسر الحاء-. وقرأ الباقون بفتحهما. فقراءة الأخوين من أسحت الرباعي،

=

=

وهي لغة نجد وتميم، وقراءة الباقين من سحت الثلاثي- وبابه قطع- وهي لغة الحجازيين.

وأصل هذه المادة. الدلالة على الاستقصاء، والنفاد، ومنه سحت الحالق الشعر، أى:

استقصاء فلم يترك منه شيئا، ويستعمل في الإهلاك والإذهاب، ونصبه بإضمار أن في جواب النهى.

أى: قال موسى- عليه السلام للسحرة الذين التقى بهم وجها لوجه بعد أن حشدهم فرعون أمامه، فقال لهم: الويل والهلاك لكم، لا تفتروا على الله تعالى كذبا، بأن تقفوا في وجهى، وتزعموا أن معجزاتي هي نوع من السحر. فإنكم لو فعلتم ذلك أهلككم الله تعالى وأبادكم بعذاب عظيم من عنده.

وجملة وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى معترضة لتقرير وتأكيد ما قبلها.

أى: وقد خاب وخسر كل من قال على الله تعالى قولا باطلا لا حقيقة له، وفرعون أول المبطلين المفترين الخاسرين، فاحذروا أن تسيروا في ركابه، أو أن تطيعوا له أمرا.

ويبدو أن هذه النصيحة الصادقة المخلصة كان لها أثرها الطيب في نفوس بعض السحرة، بدليل قوله تعالى بعد ذلك فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى والنجوى: المسارة في الحديث.

قوله تعالى: {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ} [طه: ٦٢]، أي:" فتجاذب السحرة أمرهم بينهم".

قال ابن كثير:" قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقائل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم".

=

=

قوله تعالى: {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} [طه: ٦٢]، أي:" وتحادثوا سرًا".

قال الطبري: يقول:" وأسرّوا السحرة المناجاة بينهم".

قال ابن كثير:" أي: تناجوا فيما بينهم".

وفي قوله تعالى: {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} [طه: ٦٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن النجوى التي أسروها أن قالوا: إن كان هذا سحرًا فسنغلبه، وإن كان السماء كما زعم فله أمره، قاله قتادة.

الثاني: أنه لما قال لهم {وَيْلَكُمْ} الآية. قالوا: ما هذا بقول ساحر، قاله ابن منبه. قال وهب:" جمع كلّ ساحر حباله وعصيه، وخرج موسى معه أخوه يتكئ على عصاه، حتى أتى المجمع، وفرعون في مجلسه، معه أشراف أهل مملكته، قد استكف له الناس، فقال موسى للسحرة حين جاءهم: {وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى}، فترادّ السحرة بينهم، وقال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر".

الثالث: أنه أسروا النجوى دون موسى وهارون بقولهم: {إِنْ هَـذَانِ لَسَاحِرَانِ...} الآيات، قاله السدي.

الرابع: أنهم أسروا النجوى. إن غَلَبَنَا موسى اتبعناه، قاله ابن عباس، والكلبي.

قال الزمخشري:" الظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجاذبوا أهداب القول، ثم قالوا: إن هـذان لساحران. فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره، خوفا من غلبتهما. وتثبيطا للناس عن اتباعهما".

أي: وبعد أن سمع السحرة من موسى نصيحته لهم وتهديده إياهم بالاستئصال والهلاك إذا ما استمروا في ضلالهم، اختلفوا فيما بينهم، وَأَسَرُّوا النَّجْوى أي: وبالغوا في إخفاء ما يسارون به عن موسى وأخيه- عليهما السلام.

فمنهم من قال- كما روى عن قتادة-: إن كان ما جاءنا به موسى سحرا فسنغلبه،

=

=

وإن كان من عند الله فسيكون له أمر.

ومنهم من قال بعد أن سمع كلام موسى: ما هذا بقول ساحر.

ومنهم من أخذ في حض زملائه المترددين على منازلة موسى- عليه السلام، لأنه جاء هو وأخوه لتغيير عقائد الناس ولاكتساب الجاه والسلطان، ولسلب المنافع التي تأتى لهم أى للسحرة عن طريق السحر..

ويبدو أن هذا الفريق الأخير هو الذي استطاع أن ينتصر على غيره من السحرة في النهاية، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما، وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى.

قوله تعالى: {قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا} [طه: ٦٣]، أي:" قالوا: إن موسى وهارون ساحران يريدان أن يخرجاكم من بلادكم بسحرهما".

قال ابن كثير:" السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون: موسى وهارون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم".

وقرئ: «إِنْ هَذَينِ لَسَاحِرَانِ»، وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه.

قوله تعالى: {وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} [طه: ٦٣]، أي:" ويذهبا بطريقة السحر العظيمة التي أنتم عليها".

قال الطبري:" يقول: ويغلبا على ساداتكم وأشرافكم، يقال: هو طريقة قومه ونظورة قومه، ونظيرتهم إذا كان سيدهم وشريفهم والمنظور إليه، يقال ذلك

=

=

للواحد والجمع، وربما جمعوا، فقالوا: هؤلاء طرائق قومهم، ومنه قول الله تبارك وتعالى: {كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} وهؤلاء نظائر قومهم".

قال ابن كثير:" أي: ويستبدا بهذه الطريقة، وهي السحر، فإنهم كانوا معظَّمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم ".

عن مجاهد قوله: {ويذهبا بطريقتكم المثلى}، قالوا: أولو العقل والشرف [والأنساب] ".

عن ابن عباس: قوله " {وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى}، يقول: أمثلكم وهم بنو إسرائيل".

عن أبي صالح:" {ويذهبا بطريقتكم المثلى}، قال: بأشرافكم".

قال ابن زيد:" يذهبا بالذي انتم عليه".

قال السدي:" يقول: يذهبا بأشراف قومكم".

قال قتادة:" وطريقتهم المُثلى يومئذ كانت بنو إسرائيل، وكانوا أكثر القوم عددا وأموالا وأولادا، قال عدوّ الله: إنما يريدان أن يذهبا بهم لأنفسهما".

وقال ابن زيد:" يذهبا بالذي أنتم عليه، يغير ما أنتم عليه، وقرأ: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ}، قال: هذا قوله: {وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى}، وقال: يقول طريقتكم اليوم طريقة حسنة، فإذا غيرت ذهبت هذه الطريقة".

وقال علي بن أبي طالب:" يصرفا وجوه الناس إليهما".

وقال مقاتل:" يقول: يغلبانكم على الرجال والأمثال، جمع: أمثل، وهو الممتاز من الرجال، من أهل العقول والشرف، فيتبعون موسى وهارون ويتركون فرعون".

=

قال الفراء:" الطريقة: الرجال الأشراف وقوله «المثلى» يريد: الأمثل، يذهبون بأشرافكم".

فهاتان الآيتان تشيران إلى خوف السحرة من موسى وهارون، وإلى أنهم بذلوا أقصى جهدهم في تجميع صفوفهم، وفي تشجيع بعضهم لبعض، حتى لا يستلب موسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ منهم جاههم وسلطانهم ومنافعهم ...

أى: قال السحرة بعضهم لبعض بطريق التناجي والإسرار، ما استقر عليه رأيهم، من أن موسى وهارون ساحران يُرِيدانِ عن طريق سحرهما أن يخرجا السحرة من أرضهم مصر: ليستوليا هما وأتباعهما عليها.

ويريدان كذلك أن يذهبا بطريقتكم المثلى. أى بمذهبكم ودينكم الذي هو أمثل المذاهب وأفضلها، وبملككم الذي أنتم فيه، وبعيشكم الذي تنعمون به.

فالمثلى: مؤنث أمثل بمعنى أشرف وأفضل. وإنما أنث باعتبار التعبير بالطريقة. هذا.

والفاء في قوله تعالى: فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ... فصيحة، أى: إذا كان الأمر كذلك من أن موسى وهارون قد حضرا ليخرجاكم من أرضكم بسحرهما.. فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ أى: فأحكموا سحركم واعزموا عليه ولا تجعلوه متفرقا.

قوله تعالى: {فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا} [طه: ٦٤]، أي:" فأحكموا كيدكم، واعزموا عليه من غير اختلاف بينكم، ثم ائتوا صفًا واحدًا، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة؛ لتَبْهَروا الأبصار، وتغلبوا سحر موسى وأخيه".

قال يحيى:" يعني: سحركم، يقوله بعضهم لبعض، [ثم] تعالوا جميعا".

قال الطبري: أي: "فأحكموا كيدكم، واعزموا عليه، [ثم] حضروا وجيئوا صفوفا".

قال البغوي:" أي: اعزموا كلكم على كيده مجتمعين له، ولا تختلفوا فيختل

=

أمركم، {ثم ائتوا} جميعا".

قال الصابوني: أي:" أحْكموا أمركم وأعزموا عليه ولا تتنازعوا وارموا عن قوسٍ واحدة، ثم ائتوا إلى الميدان مصطفين ليكون أهيب في صدور الناظرين".

قال الزمخشري:" أى: أزمعوه واجعلوه مجمعا عليه، حتى لا تختلفوا ولا يخلف عنه واحد منكم، كالمسألة المجمع عليها. أمروا بأن يأتوا صفا لأنه أهيب في صدور الرائين. وروى أنهم كانوا سبعين ألفا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقد أقبلوا إقبالة واحدة. وعن أبى عبيدة أنه فسر «الصف» بالمصلى، لأن الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم مصطفين. ووجه صحته أن يقع علما لمصلى بعينه، فأمروا بأن يأتوه. أو يراد. ائتوا مصلى من المصليات".

وقرئ: «فاجْمِعُوا كَيْدكُمْ» بوصل الألف.

قوله تعالى: {وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} [طه: ٦٤]، أي:" وقد ظفر بحاجته اليوم مَن علا على صاحبه، فغلبه وقهره".

قال الطبري:" يقول: قد ظفر بحاجته اليوم من علا على صاحبه فقهره".

عن قتادة، قوله: " {وقد أفلح اليوم من استعلى}، قال: من غلب".

قال وهب بن منبه:" جمع فرعون الناس لذلك الجمع، ثم أمر السحرة فقال: {ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى}، أي: قد أفلح من أفلج اليوم على صاحبه".

يقال: أجمع فلان رأيه وأزمعه، إذا عزم عليه وأحكمه واستعد لتنفيذه وقوله ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا أى: ثم ائتوا جميعا مصطفين، حتى يكون أمركم أكثر هيبة في النفوس، وأعظم وقعا على القلوب، وأدعى إلى الترابط والثبات وقوله وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى تذييل مؤكد لما قبله.

أى: وقد أفلح وفاز بالمطلوب في يوم النزال من طلب العلو، وسعى من أجله،

=

=

واستطاع أن يتغلب على خصمه، لأننا إذا تغلبنا على موسى كانت لنا الجوائز العظمى، وإذا تغلب علينا خسرنا خسارة ليس هناك ما هو أشد منها.

وحانت ساعة المبارزة والمنازلة. فتقدم السحرة نحو موسى- عليه السلام وقالوا له- كما حكى القرآن عنهم-:.. يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى.

قوله تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥)} [طه: ٦٥]

التفسير:

قال السحرة: يا موسى إما أن تلقي عصاك أولا وإما أن نبدأ نحن فنلقي ما معنا.

قال مقاتل: أي:"ما في أيدينا من الحبال والعصي".

قال الطبري: أي:" اختر أن تلقي عصاك، أو نلقي نحن عصينا".

قال أبو الليث:" يعني: إما أن تطرح عصاك على الأرض وإما أن نكون نحن الملقين قبل".

قال السمعاني:" معناه: اختر، إما أن تلقي أنت أولا، أو نلقي نحن أولا".

قال ابن كثير: "هذه مبارزة من السحرة لموسى، عليه السلام".

قال القشيري:" أظهروا من أنفسهم التجلد ظنا بأن النصرة لهم، وإخلادا إلى ما كان السحرة يسولون لهم، فخيروا موسى فى الابتداء بناء على ما توهموا من الإلقاء".

قال الزمخشري:" تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين، قبل أن يتخاوضوا في الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع. وقولهم وإما أن نكون نحن الملقين فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل".

=

=

قال الزمخشري: "وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه، وتواضع له وخفض جناح، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم، وكأن الله عز وعلا ألهمهم ذلك، وعلم موسى صلوات الله عليه اختيار إلقائهم أو لا، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر. ويستنفدوا أقصى طوقهم

ومجهودهم، فإذا فعلوا: أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين، وعبرة بينة للمعتبرين".

قال وهب:" صف خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه".

قال ابن عباس:" اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على السحرة وفرعون هو يوم عاشورا، فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، ونتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين يعني بذلك موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم استهزاء بهما، قالوا يا موسى لقدرتهم بسحرهم: إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين، قال ألقوا،... فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله ﷻ إليه أن ألق العصا".

والإلقاء في الأصل: طرح الشيء، ومفعول «تلقى» محذوف للعلم به، والمراد به العصا.

أى قال السحرة لموسى على سبيل التخيير الذي يبدو فيه التحدي والتلويح بالقوة:

يا موسى إما أن تلقى أنت عصاك قبلنا، وإما أن تتركنا لنلقى حبالنا وعصينا قبلك.

قال الآلوسى: خيروه- عليه السلام وقدموه على أنفسهم إظهارا للثقة بأمرهم.

=

=

وقيل. مراعاة للأدب معه- عليه السلام. و «أن» مع ما في حيزها منصوب بفعل مضمر. أى، إما تختار إلقاءك أو تختار كوننا أول من ألقى. أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف.

أى: «الأمر إما إلقاؤك أو كوننا أول من ألقى..».

ثم حكى القرآن بعد ذلك أن موسى- عليه السلام ترك فرصة البدء لهم، واستبقى لنفسه الجولة الأخيرة، فقال تعالى: قالَ بَلْ أَلْقُوا، فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى. والتخيل: هو إبداء أمر لا حقيقة له. ومنه الخيال، وهو الطيف الطارق في النوم.

قوله تعالى: {قَالَ بَلْ أَلْقُوا} [طه: ٦٦]، أي:" قال لهم موسى: بل ألقُوا أنتم ما معكم أولا".

قال الطبري:" قال موسى للسحرة: بل ألقوا أنتم ما معكم قبلي".

قال ابن كثير: "أي: أنتم أولا قبلي. والحكمة في هذا - والله أعلم - ليري الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فُرغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان".

قال السمعاني:" يعني: ابتدءوا أنتم بالإلقاء. فإن قال قائل: إلقاؤهم كان كفرا وسحرا، فهل يجوز أن يأمرهم موسى بالإلقاء الذي هو سحر وكفر؟ الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن هذا أمر بمعنى الخبر، ومعناه:

إن كان إلقاؤكم عندكم حجة فألقوا، والثاني: أنه أمرهم بالإلقاء على قصد إبطال سحرهم بما يلقى من عصاه، وهذا جائز".

قوله تعالى: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} [طه: ٦٦]، أي:" فألقَوا حبالهم وعصيَّهم، فتخيل موسى مِن قوة سحرهم أنها حيات تسعى".

=

=

قال السدي:" فألقوا حبالهم وعصيهم! وكانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس منهم رجل إلا معه حبل وعصا".

قال وهب:" فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كلّ رجل منهم ما في يده من العصي والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الحبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضا".

قال ابن جريج:" كان السحرة ثلاث مئة من العريش، وثلاث مئة من فيوم، ويشكون في ثلاث مئة من الإسكندرية، فقالوا لموسى: إما أن تلقي ما معك قبلنا، وإما أن نلقي ما معنا قبلك".

قال ابن عباس:" ألقوا حبالا غلاظًا طوالا وخشبًا طوالا قال: فأقبلت يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى".

قال القاسم بن أبي بزة: " القاسم بن أبي بزّة، قال: جمع فرعون سبعين ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف حبل، وسبعين ألف عصا، فألقى موسى عصاه، فإذا هي ثعبان مبين فاغر به فاه، فابتلع حبالهم وعصيهم {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا} عند ذلك، فما رفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما، فعند ذلك: {قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ} ".

قال ابن إسحاق:" صفّ خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه. وخرج موسى معه أخوه يتكئ على عصاه حتى أتى الجمعَ، وفرعونُ في مجلسه مع أشراف مملكته، ثم قالت السحرة: {يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} [طه: ٦٥ - ٦٦]، فكان أوّل ما اختطفوا بسحرهم بصرَ موسى وبصرَ فرعون، ثم أبصارَ الناس بعدُ. ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصيّ والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركبُ بعضها بعضًا.

=

=

أى: قال موسى- عليه السلام للسحرة في الرد على تخييرهم له، ابدءوا أنتم بإلقاء ما معكم من حبال وعصى.

والفاء في قوله: فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ... فصيحة وهي معطوفة على كلام محذوف، وإذا هي الفجائية.

أى: قال لهم موسى بل ألقوا أنتم أولا، فامتثلوا أمره وألقوا ما معهم، فإذا حبالهم وعصيهم التي طرحوها، جعلت موسى- لشدة اهتزازها واضطرابها- يخيل إليه من شدة سحرهم، أن هذه الحبال والعصى حيات تسعى على بطونها.

قال ابن كثير: وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمّا غفيرا، وجمعا كبيرا- أى السحرة- فألقى كل منهم عصا وحبلا حتى صار الوادي ملآن حيات، يركب بعضها بعضا...

ويبدو أن فعل السحرة هذا، قد أثر في موسى- عليه السلام بدليل قوله تعالى: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى.

قوله تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧)} [طه: ٦٧]

قال الفراء:" أحسّ ووجد".

قال أبو عبيدة:" أي: أضمر وأحسّ منهم خوفا".

قال ابن قتيبة:" أي أضمر خوفا" الزمخشري.

قال الطبري:" فأوجس في نفسه خوفا موسى فوجده".

قال الواحدي:" أي: أحس ووجد خوفا، لأن سحرهم كان من جنس ما أراهم في العصا، فخاف أن يلتبس الناس على أمره ولا يؤمنوا به".

قال الرازي:" «الإيجاس»: استشعار الخوف، أي: وجد في نفسه خوفا".

قال الزجاج:" أصلها خوفة، ولكن الواو قلبت ياء لانكسار ما قبلها".

=

=

واختلفوا في هذا «الخوف»، على قولين:

أحدهما: أنه خوف البشرية، إذ أخذ سحرهم بصره كما أخذ أعين الناس.

قال الباقلاني:" تلك الخيفة طباعية بشرية".

قال القرطبي: معناه" أضمر. وقيل: وجد. وقيل: أحس. أي: من الحيات، وذلك على ما يعرض من طباع البشر على ما تقدم".

قال البيضاوي: أي:" أضمر فيها خوفا من مفاجأته على ما هو مقتضى الجبلة البشرية".

قال الراغب:" الخيفة: الحالة التي عليها الإنسان من الخوف".

الثاني: أنه خاف على القوم أن يلتبس عليهم الأمر، فلا يؤمنوا، ويقال: خاف على قومه أن يشكوا، فيرجعوا عن الإيمان.

قال القرطبي:" قيل: خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه، وقيل: خاف حين أبطأ عليه الوحي بإلقاء العصا أن يفترق الناس قبل ذلك فيفتتنوا".

قال النحاس:" يقال: إنه خاف أن يفتن الناس لما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، وكانوا بالبعد من الناس في ناحية، وفرعون وجنوده في ناحية، وموسى وهارون صلى الله عليهما في ناحية. فخاف موسى ﷺ أن يشبه على الناس إذ كانوا يتخيلون أن الحبال والعصي تسعى، وأنها حيات فيتوهمون أنهم قد ساووا موسى ﷺ فيما جاء به، إن موسى ﷺ إنما خاف لأنه أبطأ عليه الأمر بإلقاء العصا فأوحى الله جل وعز إليه لا تخف إنك أنت الأعلى أي لا تخف الشبه فإنا سنبين أمرك حتى تعلو عليهم بالبرهان".

والإيجاس: الإخفاء والإضمار، والخيفة: الخوف. أى فأخفى موسى- عليه السلام في نفسه شيئا من الخوف، حين رأى حبال السحرة وعصيهم كأنها حيات تسعى على بطونها، وخوفه هذا حدث له بمقتضى الطبيعة البشرية عند ما رأى هذا الأمر

=

=

الهائل من السحر، وبمقتضى أن يؤثر هذا السحر في نفوس الناس فيصرفهم عما سيفعله.

وهنا ثبته الله تعالى وقواه، وأوحى إليه -سبحانه- بقوله: قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى.

قوله تعالى: {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨)} [طه: ٦٨]

قال الطبري: أي:" على هؤلاء السحرة، وعلى فرعون وجنده، والقاهر لهم".

قال البيضاوي: أي:" {لا تخف} ما توهمت، {إنك أنت الأعلى} تعليل للنهي وتقرير لغلبته مؤكدا بالاستئناف، وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ «العلو» الدال على الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل".

قال مقاتل:" {الْأَعْلَى}، يعني: الغالب، نظيرها: {وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْن}، الغالبون، هذا قول جبريل لموسى عليه السلام عن أمر ربه- عز وجل- وهو على يمينه تلك الساعة".

قال الألوسي:"أي: إنك المحفوظ بعيون الرعاية وحرس اللطف أو أنت الرفيع القدر الغالب عليهم غلبة تامة بحيث يكونون بسببها من أتباعك فلا يفوتهم حظهم من الله تعالى".

قال وهب:" لما رأى ما ألقوا من الحبال والعصيّ وخيل إليه أنها تسعى، وقال: والله إن كانت لعصيا في أيديهم، ولقد عادت حيات، وما تعدو عصاي هذه، أو كما حدّث نفسه".

قال ابن الأثير:" فإن موسى لم يكن متيقنا أنه غالب للسحرة، فلذلك أكد خطابه بالضميرين، ليكون أبلغ في تقرير ذلك في نفسه.. فتوكيد الضميرين ههنا في قوله: {إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}، أنفى للخوف من قلب موسى، وأثبت في نفسه للغلبة والقهر، ولو قال: "لا تخف إنك الأعلى" أو"فأنت الأعلى" لم يكن له من التقرير، والإثبات لنفي الخوف ما لقوله: {إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} ".

=

=

وفي هذه الكلمات الثلاث، وهي قوله: {إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}، ست فوائد:
الأولى: "إن" المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها، كقولك: "زيد قائم"، ثم تقول: "إن زيدا قائم"، ففي قولك: "إن زيدًا قائم" من الإثبات لقيام زيد ما ليس في قولك: "زيد قائم".
الثانية: تكرير الضمير في قوله: {إِنَّكَ أَنْتَ}، ولو اقتصر على أحد الضميرين لما كان بهذه المكانة في التقرير لغلبة موسى، والإثبات لقهره.
الثالثة: لام التعريف في قوله: {الْأَعْلَى}، ولم يقل: "أعلى" ولا "عال"؛ لأنه لو قال ذلك لكان قد نكره، وكان صالحا لكل واحد من جنسه، كقولك: "رجل"، فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال، وإذا قلت: الرجل، فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف، وجعلته علما فيهم، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}، أي دون غيرك.
الرابعة: لفظ "أفعل" الذي من شأنه التفضيل، ولم يقل "العالي".
الخامسة: إثبات الغلبة له من العلو؛ لأن الغرض من قوله: {الْأَعْلَى}، أي: الأغلب، إلا أن في الأعلى زيادة، وهي الغلبة من عال.
السادسة: الاستئناف، وهو قوله تعالى: {لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}، ولم يقل "لأنك أنت الأعلى"؛ لأنه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه كونه عاليا، وإنما نفى الخوف عنه أولًا بقوله: {لَا تَخَفْ}، ثم استأنف الكلام، فقال: {إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}، فكان ذلك أبلغ في إيقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلاء، وأثبت لذلك في نفسه.
أى: قلنا له عند ما أوجس في نفسه خيفة من فعل السحرة: لا تخف يا موسى مما فعلوه، إنك أنت الأعلى عليهم بالغلبة والظفر. أنت الأعلى لأن معك الحق ومعهم الباطل.

=

=

وقد أكد الله تعالى هذه البشارة لموسى بجملة من المؤكدات أحدها: إن المؤكدة، وثانيها: تكرير الضمير وثالثها: التعبير بالعلو المفيد للاستعلاء عليهم.
وقوله-سبحانه-: وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا.. زيادة في تشجيعه وتثبيته.
قوله تعالى: {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا} [طه: ٦٩]، أي:" وألق عصاك التي في يمينك تبتلع حبالهم وعصيهم".
قال الطبري:" يقول: وألق عصاك تبتلع حبالهم وعصيهم التي سحروها حتى خيل إليك أنها تسعى".
قال البيضاوي: {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ}،" أبهمه ولم يقل: «عصاك»، تحقيرا لها، أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويدة التي في يدك، أو تعظيما لها، أي: لا تحتفل بكثرة هذه الأجرام وعظمها فإن في يمينك ما هو أعظم منها أثرا فألقه. تلقف ما صنعوا تبتلعه بقدرة الله تعالى".
عن الحسن: {تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا}، قال:" تلقفه بفيها".
قال قتادة:" فألقى موسى عصاه، فتحولت حية، فأكلت سحرهم كله".
قال ابن عباس:"فجعلت العصا بدعوة موسى تلتبس بالحبال، فصارت جرزا إلى الثعبان حتى تدخل فيه حتى ما بقيت عصا ولا حبل إلا ابتلعته".
قال السدي:" أوحى الله إلى موسى: لا تخف، وألق ما في يمينك تلقف ما يأفكون. فألقى عصاه، فأكلت كل حية لهم. فلما رأوا ذلك سجدوا، وقالوا: آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون".
قال وهب:" فأوحى الله إليه أن: {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}، وفرح موسى فألقى عصاه من يده، فاستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، وهي حيات في عين فرعون وأعين الناس تسعى، فجعلت تلقفها، تبتلعها حية حية، حتى ما يرى بالوادي قليل ولا

=

=

كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت".

قال ابن إسحاق:" أوحى الله إليه: أن ألق ما في يمينك! فألقى عصاه من يده، فاستعرضَت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، وهي حيات في عين فرعون وأعين الناس تسعى، فجعلت تلقفها، تبتلعها، حية حية، حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوه. ثم أخذها موسى، فإذا هي عصاه في يده كما كانت، ووقع السحرة سجدًا قالوا: "آمنا برب العالمين رب موسى وهارون. لو كان هذا سحرا ما غلبنا"! ".

قال ابن عباس:" وعصى موسى اسمها: «ماسا»، وهي مع يوشع بن نون".

قوله تعالى: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ} [طه: ٦٩]، أي:" فما عملوه أمامك ما هو إلا مكر ساحرٍ وتخييل سِحْرٍ".

قال مقاتل:" يقول: إن الذي عملوا هو عمل ساحر، يعني: كبيرهم، وما صنع موسى فليس بسحر".

قال البيضاوي: أي:" أن الذي زوروا وافتعلوا {كيد ساحر} ".

وقرئ: «إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِر»، برفع الكيد وبغير الألف في السحر بمعنى إن الذي صنعوه كيد سحر، وقرئ: «كَيْدَ سِحْرٍ»، بنصب «كيد».

قال الطبري:" «الكيد» هو المكر والخدعة، فالساحر مكره وخدعته من سحر يسحر، ومكر السحر وخدعته: تخيله إلى المسحور، على خلاف ما هو به في حقيقته، فالساحر كائد بالسحر، والسحر كائد بالتخييل، فإلى أيهما أضفت الكيد فهو صواب".

قوله تعالى: {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [طه: ٦٩]، أي:" ولا يظفر الساحر بسحره أين كان".

قال مقاتل:" أينما كان الساحر فلا يفلح".

=

=

قال أبو عبيدة:" أي: حيث كان".

قال الحسن:" حيث كان".

قال يحيى:"وقال بعضهم: حيث جاء".

قال الطبري:" يقول: ولا يظفر الساحر بسحره بما طلب أين كان".

قال السدي:" فأوحى الله إليه: {لا تَخَفْ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ}، فألقى عصاه فأكلت كل حية لهم، فلما رأوا ذلك سجدوا و {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} ".

وتلقف من اللقف بمعنى الأخذ للشيء بسرعة وخفة. يقال: لقف فلان يلقفه لقفا ولقفانا، إذا تناوله بسرعة وحذق باليد أو الفم.

وفي هذه الكلمات ثلاث قراءات سبعية، أحدها: «تلقّف» بتاء مفتوحة مخففة، بعدها لام مفتوحة، ثم قاف مشددة وفاء ساكنة، وأصل الفعل تتلقف، فحذفت إحداهما تخفيفا، وهو مجزوم في جواب الأمر وهو أَلْقِ.

وثانيها: تَلْقَفْ كالقراءة السابقة مع ضم الفاء، على أن الفعل خبر لمبتدأ محذوف. أى: وألق ما في يمينك فهي تلقف ما صنعوا.

وثالثها: تَلْقَفْ بفتح التاء وسكون اللام وفتح القاف المخففة وجزم الفعل كالقراءة الأولى.

والمراد بما في يمينه عصاه، كما جاء ذلك صريحا في آيات أخرى منها قوله تعالى: فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ.

وعبر عنها بقوله: ما فِي يَمِينِكَ على سبيل التهويل من شأنها، أو لتذكيره بما شاهده منها بعد أن قال الله تعالى له قبل ذلك وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى.. قالَ أَلْقِها يا مُوسى، فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى....

والمعنى: وألق يا موسى ما في يمينك تبتلع كل ما صنعه السحرة من تمويه وتزوير

=

=

وتخييل، جعل الناس يتوهمون أن حبالهم وعصيهم تسعى.

قال ابن كثير: وذلك أنها صارت تنينا هائلا- أى حية عظيمة- ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهارا نهارا.. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون.

وقوله: إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ تعليل لقوله تَلْقَفْ ما صَنَعُوا وما موصولة وهي اسم إن، وكَيْدُ خبرها، والعائد محذوف.

والتقدير: وألق يا موسى عصاك تلقف ما صنعوه، فإن الذي صنعوه إنما هو كيد من جنس كيد السحرة وصنعهم وتمويههم.

وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ أى ولا يفوز هذا الجنس من الناس حَيْثُ أَتى أى: حيث كان فحيث ظرف مكان أريد به التعميم.

أى: أن الساحر لا يفلح ولا يفوز أينما كان، وحيثما أقبل، وأنّى اتجه، لأنه يصنع للناس التخييل والتمويه والتزوير والتزييف للحقائق.

قال الزمخشري: «فإن قلت: لم وحد ساحر ولم يجمع؟ قلت: لأن القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية، لا إلى معنى العدد. فلو جمع لخيل أن المقصود هو العدد.

ثم كانت بعد ذلك المفاجأة الكبرى فقد آمن السحرة حين رأوا ما رأوا بعد أن ألقى موسى ما في يمينه، قال تعالى: فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى.

قوله تعالى: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا} [طه: ٧٠]، أي" فألقى موسى عصاه، فبلعت ما صنعوا، فظهر الحق وقامت الحجة عليهم. فألقى السحرة أنفسهم على الأرض ساجدين".

=

قال الطبري: في الكلام محذوف تقديره: "فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}، وذكر أن موسى لما ألقى ما في يده تحوّل ثعبانا، فالتقم كلّ ما كانت السحرة ألقته من الحبال والعصي".

قال الواحدي:" خرُّوا لله عابدين سامعين مطيعين".

قال الثعلبي:" حيث عرفوا أن ذلك أمر سماوي وليس سحرا".

قال سعيد بن جبير:" رأوا منازلهم تبنى لهم وهم في سجودهم".

قال مقاتل:" وكانوا ثلاثة وسبعين ساحرا أكبرهم اسمه شمعون، فلما التقمت الحبال والعصي ألقاهم الله- ﷻ- على وجوههم سجدا".

قال ابن عباس:" لما رأت السحرة ما رأت، عرفت أن ذلك أمر من السماء وليس بسحر، فخروا سجدًا، وقالوا: {آمنا برب العالمين* رب موسى وهارون} ".

قال البغوي والثعلبي:"قيل: ألهمهم الله أن يسجدوا فسجدوا".

وقال الأخفش: "من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا".

قال السمعاني:" قيل: إن موسى وهارون سجدا شكرا لله - تعالى - فوافقهم السحرة".

قال الزمخشري:" كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم. وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا، فكأنهم ألقوا".

قوله تعالى: {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} [طه: ٧٠]، أي" قالوا صدّقنا برب هارون وموسى".

قال الزجاج:" فسلموا الأمر لله وتبين لهم ما لا يدفع".

قال ابن عطية:" لما رأى السحرة من عظيم القدرة وما تيقنوا به نبوة موسى آمنوا بقلوبهم وانضاف إلى ذلك الاستهوال والاستعظام والفزع من قدرة الله تعالى فخروا سجدا لله تعالى متطارحين وآمنوا نطقا بألسنتهم".

=

قال الخازن:" وإنما قالوا: {رب موسى وهارون}، لأن فرعون كان يدعي الربوبية فأرادوا عزله".

قال ابن عطية:" وتبينهم الرب بذكر موسى وهارون زوال عن ربوبية فرعون وما كان يتوهم فيه الجهال من أنه رب الناس، وهارون أخو موسى أسن منه بثلاث سنين".

قال المراغي:" روى أن رئيسهم قال: كنا نغلب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا، فلو كان هذا سحرا فأين الذي ألقيناه، فاستدلوا بتغيير أحوال الأجسام على وجود الصانع القادر، وبظهورها على يد موسى على كونه رسولا صادقا من عند الله، لا جرم تابوا وآمنوا وأتوا وهم خاضعون ساجدون".

قال الزمخشري:" سبحان الله ما أعجب أمرهم! قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين! ".

قال وهب:" ووقع السحرة سجدا، قالوا: آمنا برب هارون وموسى، لو كان هذا سحر ما غلبنا ".

قال ابن عباس:" فألقى عصاه فإذا هي حية تلقف ما يأفكون، لا تمر بشيء من حبالهم وخُشُبهم التي ألقوها إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا أمرٌ من السماء، وليس هذا بسحر، فخرُّوا سجَّدًا وقالوا: {آمنا بربّ العالمين* رب موسى وهارون} ".

قال سعيد:" فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، قال: فتحت فما لها مثل الدحل، ثم وضعت مشفرها على الأرض ورفعت الآخر، ثم استوعبت كل شيء ألقوه من السحر، ثم جاء إليها فقبض عليها، فإذا هي عصا، فخرّ السحرة سجدا {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ

=

السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ}، قال: فكان أول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}، قال: فكان أول من صلب في جذوع النخل فرعون".

عن القاسم بن أبي بزة قال: "أوحى الله إليه: أن ألق عصاك! فألقى عصاه، فاذا هي ثعبان فاغرٌ فاه، فابتلع حبالهم وعصيهم. فألقي السحرة عند ذلك سجّدًا، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنارَ وثوابَ هلهما".

قال محمد بن إسحاق:" وكان من رؤوس السحرة الذي جمع فرعون لموسى فيما بلغني سابور، وعاذور، وحصحط، ومصفى أربعة هم الذين آمنوا حين رأوا ما رأوا من سلطان الله فآمنت معهم السحرة جميعا".

قتادة: "كانوا أول النهار كفارا سحرة، وفي آخره شهداء بررة".

وعن الحسن، قال: "تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا، وهؤلاء كفار نشأوا في الكفر، بذلوا أنفسهم لله".

قال أبو الليث:" قال بعض الحكماء: إن سحرة فرعون كانوا كفروا خمسين سنة فغفر لهم بإقرار واحد وبسجدة فكيف بالذي أقر وسجد خمسين سنة كيف لا يرجو رحمته ومغفرته؟ ".

قال الآلوسي: «والفاء في قوله فَأُلْقِيَ ... فصيحة معربة عن جمل غنية عن التصريح».

أي: فزال الخوف، وألقى موسى ما في يمينه، وصارت حية، وتلقفت حبالهم وعصيهم، وعلم السحرة أن ذلك معجزة، فخروا سجدا لله على وجوههم قائلين آمنا برب هارون وموسى...

والحق أن التعبير بقوله تعالى: فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا.. يدل على قوة البرهان الذي عاينوه، حتى لكأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التي

=

عاينوها، وأطلق -سبحانه- عليهم اسم السحرة في حال سجودهم له تعالى وإيمانهم به، نظرا إلى حالهم الماضية.
وهكذا النفوس النقية عند ما يتبين لها الحق، لا تلبث أن تفيء إليه، وتستجيب لأهله. قال الكرخي: خروا ساجدين لله لأنهم كانوا في أعلى طبقات السحر، فلما رأوا ما فعله موسى خارجا عن صناعتهم، عرفوا أنه ليس من السحر ألبتة.
(تنبيه): قال شيخ الإسلام ا بن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٥٢): فصل في قوله تعالى {إن هذان لساحران} . فإن هذا مما أشكل على كثير من الناس فإن الذي في مصاحف المسلمين {إن هذان} بالألف وبهذا قرأ جماهير القراء وأكثرهم يقرأ (إن مشددة وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم (إن مخففة لكن ابن كثير يشدد نون (هذان دون حفص والإشكال من جهة العربية على القراءة المشهورة وهي قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم وجمهور القراء عليها وهي أصح القراءات لفظا ومعنى. وهذا يتبين بالكلام على ما قيل فيها. فإن منشأ الإشكال: أن الاسم المثنى يعرب في حال النصب والخفض بالياء وفي حال الرفع بالألف وهذا متواتر من لغة العرب: لغة القرآن وغيرها في الأسماء المبنية كقوله: {ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك} ثم قال {فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث} وقال: {ورفع أبويه على العرش} وقال: {وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين} ولم يقل: الكعبان وقال: {واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون} {إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث} ولم يقل: اثنان وقال: {قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين} . وقال: {ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين} ولم يقل: اثنان ولا الذكران والأنثيان وقال: {ومن كل شيء خلقنا زوجين} ولم يقل: زوجان وقال: {فإن كن نساء

=

=

فوق اثنتين} ولم يقل: اثنتان. ومثل هذا كثير مشهور في القرآن وغيره. فظن النحاة أن الأسماء المبهمة المبنية مثل هذين واللذين تجري هذا المجرى وأن المبني في حال الرفع يكون بالألف ومن هنا نشأ الإشكال. وكان أبو عمرو إماما في العربية فقرأ بما يعرف من العربية: إن هذين لساحران.

وقد ذكر أن له سلفا في هذه القراءة وهو الظن به: أنه لا يقرأ إلا بما يرويه لا بمجرد ما يراه وقد روي عنه أنه قال: إني لأستحيي من الله أن أقرأ: {إن هذان} وذلك لأنه لم ير لها وجها من جهة العربية ومن الناس من خطأ أبا عمرو في هذه القراءة ومنهم الزجاج قال: لا أجيز قراءة أبي عمرو خلاف المصحف. وأما القراءة المشهورة الموافقة لرسم المصحف فاحتج لها كثير من النحاة بأن هذه لغة بني الحارث بن كعب وقد حكى ذلك غير واحد من أئمة العربية. قال المهدوي: بنو الحارث بن كعب يقولون: ضربت الزيدان ومررت بالزيدان كما تقول: جاءني الزيدان: قال المهدوي: حكى ذلك أبو زيد والأخفش والكسائي والفراء وحكى أبو الخطاب أنها لغة بني كنانة وحكى غيره أنها لغة لخثعم ومثله قول الشاعر: تزود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هاوي التراب عقيم وقال ابن الأنباري: هي لغة لبني الحارث بن كعب وقريش قال الزجاج: وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب - وهو رأس من رءوس الرواة - أنها لغة لكنانة يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد وأنشدوا: فأطرق إطراق الشجاع ولو يجد مساغا لناباه الشجاع لصمما وقال: ويقول هؤلاء: ضربته بين أذناه. قلت بنو الحارث بن كعب هم أهل نجران ولا ريب أن القرآن لم ينزل بهذه اللغة بل المثنى من الأسماء المبنية في جميع القرآن هو بالياء في النصب والجر كما تقدمت شواهده. وقد ثبت في الصحيح عن عثمان أنه قال: إن القرآن نزل بلغة قريش وقال للرهط القرشيين الذين كتبوا المصحف هم وزيد: إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه

=

=

بلغة قريش؛ فإن القرآن نزل بلغتهم ولم يختلفوا إلا في حرف وهو (التابوت فرفعوه إلى عثمان فأمر أن يكتب بلغة قريش رواه البخاري في صحيحه.

وعن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى [إذا] نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. وهذه الصحيفة التي أخذها من عند حفصة هي التي أمر أبو بكر وعمر بجمع القرآن فيها لزيد بن ثابت وحديثه معروف في الصحيحين وغيرهما وكانت بخطه؛ فلهذا أمر عثمان أن يكون هو أحد من ينسخ المصاحف من تلك الصحف ولكن جعل معه ثلاثة من قريش ليكتب بلسانهم فلم يختلف لسان قريش والأنصار إلا في لفظ (التابوه و (التابوت فكتبوه (التابوت بلغة قريش. وهذا يبين أن المصاحف التي نسخت كانت مصاحف متعددة وهذا معروف مشهور وهذا مما يبين غلط من قال في بعض الألفاظ: إنه غلط من الكاتب أو نقل ذلك عن عثمان؛ فإن هذا ممتنع لوجوه.

منها: تعدد المصاحف واجتماع جماعة على كل مصحف ثم وصول كل مصحف إلى بلد كبير فيه كثير من الصحابة والتابعين يقرءون القرآن ويعتبرون ذلك

=

=

بحفظهم والإنسان إذا نسخ مصحفا غلط في بعضه عرف غلطه بمخالفة حفظه القرآن وسائر المصاحف فلو قدر أنه كتب كاتب مصحفا ثم نسخ سائر الناس منه من غير اعتبار للأول والثاني أمكن وقوع الغلط في هذا وهنا كل مصحف إنما كتبه جماعة ووقف عليه خلق عظيم ممن يحصل التواتر بأقل منهم ولو قدر أن الصحيفة كان فيها لحن فقد كتب منها جماعة لا يكتبون إلا بلسان قريش ولم يكن لحنا فامتنعوا أن يكتبوه إلا بلسان قريش فكيف يتفقون كلهم على أن يكتبوا: {إن هذان} وهم يعلمون أن ذلك لحن لا يجوز في شيء من لغاتهم أو: {المقيمين الصلاة} وهم يعلمون أن ذلك لحن كما زعم بعضهم. قال الزجاج في قوله: {المقيمين الصلاة} قول من قال: إنه خطأ - بعيد جدا؛ لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والقدوة فكيف يتركون شيئا يصلحه غيرهم فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم وقال ابن الأنباري: حديث عثمان لا يصح لأنه غير متصل ومحال أن يؤخر عثمان شيئا ليصلحه من بعده. قلت: ومما يبين كذب ذلك: أن عثمان لو قدر ذلك فيه فإنما رأى ذلك في نسخة واحدة فإما أن تكون جميع المصاحف اتفقت على الغلط وعثمان قد رآه في جميعها وسكت: فهذا ممتنع عادة وشرعا: من الذين كتبوا ومن عثمان ثم من المسلمين الذين وصلت إليهم المصاحف ورأوا ما فيها وهم يحفظون القرآن ويعلمون أن فيه لحنا لا يجوز في اللغة فضلا عن التلاوة وكلهم يقر هذا المنكر لا يغيره أحد فهذا مما يعلم بطلانه عادة ويعلم من دين القوم الذين لا يجتمعون على ضلالة؛ بل يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر أن يدعوا في كتاب الله منكرا لا يغيره أحد منهم مع أنهم لا غرض لأحد منهم في ذلك ولو قيل لعثمان: مر الكاتب أن يغيره لكان تغييره من أسهل الأشياء عليه، فهذا ونحوه مما يوجب القطع بخطأ من زعم أن في المصحف لحنا أو غلطا وإن نقل ذلك عن بعض الناس ممن ليس قوله حجة فالخطأ جائز عليه فيما قاله؛

=

=

بخلاف الذين نقلوا ما في المصحف وكتبوه وقرءوه فإن الغلط ممتنع عليهم في ذلك وكما قال عثمان: إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش وكذلك قال عمر لابن مسعود أقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل؛ فإن القرآن لم ينزل بلغة هذيل. وقوله تعالى في القرآن: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه} يدل على ذلك فإن قومه هم قريش كما قال: {وكذب به قومك وهو الحق} . وأما كنانة فهم جيران قريش والناقل عنهم ثقة ولكن الذي ينقل بنقل ما سمع وقد يكون سمع ذلك في الأسماء المبهمة المبنية فظن أنهم يقولون [ذلك] في سائر الأسماء؛ بخلاف من سمع " بين أذناه " و " لناباه " فإن هذا صريح في الأسماء التي ليست مبهمة. وحينئذ فالذي يجب أن يقال: إنه لم يثبت أنه لغة قريش؛ بل ولا لغة سائر العرب: أنهم ينطقون في الأسماء المبهمة إذا ثنيت بالياء وإنما قال ذلك من قاله من النحاة قياسا جعلوا باب التثنية في الأسماء المبهمة كما هو في سائر الأسماء وإلا فليس في القرآن شاهد يدل على ما قالوه وليس في القرآن اسم مبهم مبني في موضع نصب أو خفض إلا هذا ولفظه (هذان فهذا نقل ثابت متواتر لفظا ورسما. ومن زعم أن الكاتب غلط فهو الغالط غلطا منكرا كما قد بسط في غير هذا الموضع: فإن المصحف منقول بالتواتر وقد كتبت عدة مصاحف وكلها مكتوبة بالألف فكيف يتصور في هذا غلط. وأيضا فإن القراء إنما قرءوا بما سمعوه من غيرهم والمسلمون كانوا يقرءون (سورة طه على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وهي من أول ما نزل من القرآن قال ابن مسعود بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول وهن من تلادى. رواه البخاري عنه.

وهي مكية باتفاق الناس قال أبو الفرج وغيره: هي مكية بإجماعهم؛ بل هي من أول ما نزل وقد روي: أنها كانت مكتوبة عند أخت عمر وأن سبب إسلام عمر كان

=

=

لما بلغه إسلام أخته وكانت السورة تقرأ عندها. فالصحابة لا بد أن قد قرءوا هذا الحرف ومن الممتنع أن يكونوا كلهم قرءوه بالياء كأبي عمرو فإنه لو كان كذلك لم يقرأها أحد إلا بالياء ولم تكتب إلا بالياء فعلم أنهم أو غالبهم كانوا يقرءونها بالألف كما قرأها الجمهور وكان الصحابة بمكة والمدينة والشام والكوفة والبصرة يقرءون هذه السورة في الصلاة وخارج الصلاة ومنهم سمعها التابعون ومن التابعين سمعها تابعوهم فيمتنع أن يكون الصحابة كلهم قرءوها بالياء مع أن جمهور القراء لم يقرءوها إلا بالألف وهم أخذوا قراءتهم عن الصحابة أو عن التابعين عن الصحابة فهذا مما يعلم به قطعا أن عامة الصحابة إنما قرءوها بالألف كما قرأ الجمهور وكما هو مكتوب. وحينئذ فقد علم أن الصحابة إنما قرءوا كما علمهم الرسول وكما هو لغة للعرب ثم لغة قريش فعلم أن هذه اللغة الفصيحة المعروفة عندهم في الأسماء المبهمة تقول: إن هذان ومررت بهذان: تقولها في الرفع والنصب والخفض بالألف ومن قال إن لغتهم أنها تكون في الرفع بالألف طولب بالشاهد على ذلك والنقل عن لغتهم المسموعة منهم نثرا ونظما وليس في القرآن ما يشهد له ولكن عمدته القياس.

وحينئذ فنقول: قياس هذا بغيرها من الأسماء غلط فإن الفرق بينهما ثابت عقلا وسماعا: أما النقل والسماع فكما ذكرناه وأما العقل والقياس فقد تفطن للفرق غير واحد من حذاق النحاة فحكى ابن الأنباري وغيره عن الفراء قال: ألف التثنية في " هذان " هي ألف هذا والنون فرقت بين الواحد والاثنين كما فرقت بين الواحد والجمع نون الذين وحكاه المهدوي وغيره عن الفراء ولفظه قال: إنه ذكر أن الألف ليست علامة التثنية بل هي ألف هذا فزدت عليها نونا ولم أغيرها كما زدت على الياء من الذي فقلت الذين في كل حال قال وقال بعض الكوفيين: الألف في هذا مشبهة يفعلان فلم تغير كما [لم] تغير. قال: وقال الجرجاني: لما

=

=

كان اسما على حرفين أحدهما حرف مد ولين وهو كالحركة ووجب حذف إحدى الألفين في التثنية لم يحسن حذف الأولى؛ لئلا يبقى الاسم على حرف واحد فحذف علم التثنية وكان النون يدل على التثنية ولم يكن لتغيير النون الأصلية الألف وجه فثبت في كل حال كما يثبت في الواحد. قال المهدوي: وسأل إسماعيل القاضي ابن كيسان عن هذه المسألة فقال: لما لم يظهر في المبهم إعراب في الواحد ولا في الجمع جرت التثنية على ذلك مجرى الواحد إذ التثنية يجب أن لا تغير فقال إسماعيل: ما أحسن ما قلت لو تقدمك أحد بالقول فيه حتى يؤنس به فقال له ابن كيسان: فليقل القاضي حتى يؤنس به فتبسم. قلت: بل تقدمه الفراء وغيره والفراء في الكوفيين مثل سيبويه في البصريين؛ لكن إسماعيل كان اعتماده على نحو البصريين والمبرد كان خصيصا به.

وبيان هذا القول: أن المفرد " ذا " فلو جعلوه كسائر الأسماء لقالوا في التثنية: " ذوان " ولم يقولوا: " ذان " كما قالوا عصوان ورجوان ونحوهما من الأسماء الثلاثية " وها " حرف تنبيه وقد قالوا فيما حذفوا لامه: أبوان فردته التثنية إلى أصله وقالوا في غير هذا ويدان وأما " ذا " فلم يقولوا " ذوان " بل قالوا كما فعلوا في " ذو " و " ذات " التي بمعنى صاحب فقالوا: هو ذو علم وهما ذوا علم كما قال: {ذواتا أفنان} وفي اسم الإشارة قالوا: " ذان " و " تان " كما قال: {فذانك برهانان من ربك} فإن " ذا " بمعنى صاحب هو اسم معرب فتغير إعرابه في الرفع والنصب والجر فقيل: ذو وذا وذي. وأما المستعمل في الإشارة والأسماء الموصولة والمضمرات هي مبنية؛ لكن أسماء الإشارة لم تفرق لا في واحده ولا في جمعه بين حال الرفع والنصب والخفض فكذلك في تثنيته؛ بل قالوا: قام هذا وأكرمت هذا ومررت بهذا وكذلك هؤلاء في الجمع فكذلك المثنى قال: هذان وأكرمت هذان ومررت بهذان فهذا هو القياس فيه أن يلحق مثناه بمفرده

=

=

وبمجموعه لا يلحق بمثنى غيره الذي هو أيضا معتبر بمفرده ومجموعه. فالأسماء المعربة ألحق مثناها بمفردها ومجموعها تقول: رجل ورجلان ورجال فهو معرب في الأحوال الثلاثة: يظهر الإعراب في مثناه كما ظهر في مفرده ومجموعه. فتبين أن الذين قالوا: إن مقتضى العربية أن يقال: إن هذين ليس معهم بذلك نقل عن اللغة المعروفة في القرآن التي نزل بها القرآن؛ [بل] هي أن يكون المثنى من أسماء الإشارة مبنيا في الأحوال الثلاثة على لفظ واحد كمفرد أسماء الإشارة ومجموعها. وحينئذ فإن قيل: إن الألف هي ألف المفرد زيد عليها النون أو قيل: هي علم للتثنية وتلك حذفت أو قيل بل هذه الألف تجمع هذا وهذا معنى جواب ابن كيسان وقول الفراء مثله في المعنى وكذلك قول الجرجاني وكذلك قول من قال: إن الألف فيه تشبه ألف يفعلان.

ثم يقال: قد يكون الموصول كذلك كقوله: {واللذان يأتيانها منكم} فإن ثبت أن لغة قريش أنهم يقولون رأيت الذين فعلا ومررت باللذين فعلا وإلا فقد يقال: هو بالألف في الأحوال الثلاثة؛ لأنه اسم مبني والألف فيه بدل الياء في الذين وما ذكره الفراء وابن كيسان وغيرهما يدل على هذا؛ فإن الفراء شبه هذا بالذين وتشبيه اللذان به أولى وابن كيسان علل بأن المبهم مبني لا يظهر فيه الإعراب فجعل مثناه كمفرده ومجموعه وهذا العلم يأتي في الموصول. يؤيد ذلك: أن المضمرات من هذا الجنس والمرفوع والمنصوب لهما ضمير متصل ومنفصل؛ بخلاف المجرور فإنه ليس له إلا متصل؛ لأن المجرور لا يكون إلا بحرف أو مضاف لا يقدم على عامله فلا ينفصل عنه فالضمير المتصل في الواحد الكاف من أكرمتك ومررت بك وفي الجمع أكرمتكم ومررت بكم وفي التثنية زيدت الألف في النصب والجر فيقال: أكرمتكما ومررت بكما كما نقول في الرفع ففي الواحد والجمع فعلت وفعلتم وفي التثنية فعلتما بالألف وحدها زيدت علما على التثنية في حال الرفع

=

=

والنصب والجر كما زيدت في المنفصل في قوله " إياكما " و " أنتما ". فهذا كله مما يبين أن لفظ المثنى في الأسماء المبنية في الأحوال الثلاثة نوع واحد: لم يفرقوا بين مرفوعه وبين منصوبه ومجروره كما فعلوا ذلك في الأسماء المعربة وأن ذلك في المثنى أبلغ منه في لفظ الواحد والجمع إذ كانوا في الضمائر يفرقون بين ضمير المنصوب والمجرور وبين ضمير المرفوع في الواحد والمثنى ولا يفرقون في المثنى وفي لفظ الإشارة والموصول ولا يفرقون بين الواحد والجمع وبين المرفوع وغيره ففي المثنى بطريق الأولى.

والحمد لله وحده. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

ذكر شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة في موضع آخر وذكر فيها هذا الاعتراض: فصل وقد يعترض على ما كتبناه أولا بأنه جاء أيضا في غير الرفع بالياء كسائر الأسماء قال تعالى: {وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس} ولم يقل " اللذان أضلانا " كما قيل في الذين إنه بالياء في الأحوال الثلاثة وقال تعالى في قصة موسى: {إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين} ولم يقل " هاتان " و " هاتان " تبع لابنتي وقد يسمى عطف بيان وهو يشبه الصفة كقوله: {وإلى ثمود أخاهم صالحا} لكن الصفة تكون مشتقة أو في معنى المشتق وعطف البيان يكون بغير ذلك كأسماء الأعلام وأسماء الإشارة وهذه الآية نظير قوله: {إن هذان لساحران}. وأما قوله: {أرنا الذين أضلانا} فقد يفرق بين اسم الإشارة والموصول بأن اسم الإشارة على حرفين؛ بخلاف الموصول؛ فإن الاسم هو " اللذا " عدة حروف وبعده يزاد علم الجمع فتكسر الذال وتفتح النون وعلم التثنية فتفتح الذال وتكسر النون والألف فقلت في النصب والجر؛ لأن الاسم الصحيح إذا جمع جمع التصحيح كسر آخره في النصب وفي الجر وفتحت نونه وإذا ثني فتح آخره وكسرت نونه في الأحوال الثلاثة. وهذا يبين أن الأصل في التثنية هي الألف

=

=

وعلى هذا فيكون في إعرابه لغتان جاء بهما القرآن: تارة يجعل كاللذان وتارة يجعل كاللذين؛ ولكن في قوله: {إحدى ابنتي هاتين} كان هذا أحسن من قوله " هاتان " لما فيه من اتباع لفظ المثنى بالياء فيهما ولو قيل هاتان لأشبه كما لو قيل: " إن ابنتي هاتان " فإذا جعل بالياء علم تابع مبين عطف بيان لتمام معنى الاسم؛ لا خبر تتم به الجملة، وأما قوله: {إن هذان لساحران} فجاء اسما مبتدأ: اسم (إن وكان مجيئه بالألف أحسن في اللفظ من قولنا: " إن هذين لساحران " لأن الألف أخف من الياء؛ ولأن الخبر بالألف فإذا كان كل من الاسم والخبر بالألف كان أتم مناسبة وهذا معنى صحيح وليس في القرآن ما يشبه هذا من كل وجه وهو بالياء. فتبين أن هذا المسموع والمتواتر ليس في القياس الصحيح ما يناقضه لكن بينهما فروق دقيقة والذين استشكلوا هذا إنما استشكلوه من جهة القياس؛ لا من جهة السماع ومع ظهور الفرق يعرف ضعف القياس. وقد يجيب من يعتبر كون الألف في هذا هو المعروف في اللغة بأن يفرق بين قوله: {إن هذان} وقوله: {إحدى ابنتي هاتين} أن هذا تثنية مؤنث وذاك تثنية مذكر والمذكر المفرد منه " ذا " بالألف فزيدت فوق نون التثنية وأما المؤنث فمفرده " ذي " أو " ذه " أو " ته ". وقوله: {إحدى ابنتي هاتين} تثنية " تي " بالياء فكان جعلها بالياء في النصب والجر أشبه بالمفرد؛ بخلاف تثنية المذكر وهو " ذا " فإنه بالألف فإقراره بالألف أنسب وهذا فرق بين تثنية المؤنث وتثنية المذكر والفرق بينه وبين اللذين قد تقدم. وحينئذ فهذه القراءة هي الموافقة للسماع والقياس ولم يشتهر ما يعارضها من اللغة التي نزل بها القرآن. والله أعلم. وقوله: {إحدى ابنتي هاتين} هو كقول النبي ﷺ {من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الآدميون} ومثله في الموصول قول ابن عباس لعمر: أخبرني عن المرأتين اللتين قال الله فيهما: {وإن تظاهرا عليه فإن الله هو

=

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١).

{قال} فرعون {آآمنتم} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَال الثَّانِيَة أَلِفًا {لَهُ قَبْل أَنْ آذَن} أَنَا {لَكُمْ إنَّهُ لَكَبِيركُمْ} مُعَلِّمكُمْ {الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْر فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلكُمْ مِنْ خِلَاف} حَال بِمَعْنَى مُخْتَلِفَة أَيْ الْأَيْدِي الْيُمْنَى وَالْأَرْجُل الْيُسْرَى {وَلَأُصَلِّبَنكُمْ فِي جُذُوع النَّخْل} أَيْ عَلَيْهَا {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيّنَا} يَعْنِي نَفْسه وَرَبّ مُوسَى {أَشَدّ عَذَابًا وَأَبْقَى} أَدْوَم عَلَى مُخَالَفَته.

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢).

{قَالُوا لَنْ نُؤْثِرك} نَخْتَارك {عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَات} الدَّالَّة عَلَى صِدْق مُوسَى {وَالَّذِي فَطَرَنَا} خَلَقَنَا قَسَم أَوْ عَطْف عَلَى مَا {فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ} أَيْ اصْنَعْ مَا قُلْته {إنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاة الدُّنْيَا} النَّصْب عَلَى الِاتِّسَاع أَيْ فِيهَا وَتُجْزَى عَلَيْهِ فِي الآخرة.

إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣).

{إنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِر لَنَا خَطَايَانَا} مِنْ الْإِشْرَاك وَغَيْره {وَمَا أَكْرَهْتنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْر} تَعَلُّمًا وَعَمَلًا لِمُعَارَضَةِ مُوسَى {وَاَللَّه خَيْر} مِنْك ثَوَابًا إذَا أُطِيعَ {وَأَبْقَى} مِنْك عَذَابًا إذَا عصي.

=

مولاه} الآية. آخره والحمد لله وحده.

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤).

قال تعالى {إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبّه مُجْرِمًا} كَافِرًا كَفِرْعَوْن {فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّم لَا يَمُوت فِيهَا} فَيَسْتَرِيح {ولا يحيى} حياة تنفعه.

وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥).

{وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَات} الْفَرَائِض وَالنَّوَافِل {فَأُولَئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَات الْعُلَى} جَمْع عُلْيَا مؤنث أعلى.

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦).

{جنات عدن} أي إقامة بيان له {تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِك جَزَاء مَنْ تَزَكَّى} تَطَهَّرَ مِنْ الذُّنُوب[1].

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ} [طه: ٧١]، أي:" قال فرعون للسحرة: أصدَّقتم بموسى، واتبعتموه، وأقررتم له قبل أن آذن لكم بذلك؟ ".

قال يحيى:" فرعون يقوله على الاستفهام، أصدقتموه؟ {قبل أن آذن لكم}، أي: قد فعلتم".

قال الطبري:" وقال فرعون للسحرة: أصدقتم وأقررتم لموسى بما دعاكم إليه من قبل أن أطلق ذلك لكم".

قال مقاتل:" يعني: صدقتم لموسى قبل أن آمركم بالإيمان لموسى".

قال ابن كثير:" قال قولا يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بَهْت وكذب: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} أي أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه عليّ وعلى رعيتي، لتظهروه، كما قال في الآية الأخرى: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف ١٢٣] ".

=

=

روي عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: "التقى موسى وأميرُ السحرة، فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي، وتشهد أنّ ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غدًا بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأومنن بك، ولأشهدن أنك حق! وفرعون ينظر إليهم، فهو قول فرعون: {إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة}، إذ التقيتما لتتظاهرا فتخرجا منها أهلها".

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} [طه: ٧١]، أي:" إن موسى لَعظيمكم الذي عَلَّمكم السحر؛ فلذلك تابعتموه".

قال مقاتل:" يعني: لعظيمكم في السحر، هو الذي علمكم السحر".

قال السدي:" يعني لعالمكم في علم السحر، ولم يكن أكبرهم في السن".

قال أبو عبيدة:" أي: معلمكم. قال أبو عبيدة سمعت بعض المكّيين، يقول: الغلام لمستأجره كبيرى".

قال الطبري:" يقول: إن موسى لعظيمكم {الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} ".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغُلِب كل الغلب - شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهددهم وأوعدهم وقال {آمَنْتُمْ لَهُ} أي: صدقتموه {قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ} أي: وما أمرتكم بذلك، وافتتم عليّ في ذلك".

قال وهب:" لما قالت السحرة {آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} قال لهم فرعون، وأسف ورأى الغلبة والبينة: {آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}: أي لعظيم السحار الذي علمكم".

قوله تعالى: {فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ} [طه: ٧١]، أي:" فلأقطعنَّ

=

=

أيديكم وأرجلكم مخالفًا بينها، يدًا من جهة ورِجْلا من الجهة الأخرى".

قال الطبري:" يقول: فلأقطعن أيديكم وأرجلكم مخالفا بين قطع ذلك، وذلك أن يقطع يمنى اليدين ويسرى الرجلين، أو يسرى اليدين، ويمنى الرجلين، فيكون ذلك قطعا من خلاف، وكان فيما ذُكر أوّل من فعل ذلك فرعون".

قال ابن عباس:" أوّل من صلّب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون".

قوله تعالى: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه: ٧١]، أي:" ولأصلبنَّكم - بربط أجسادكم - على جذوع النخل".

قال أبو عبيدة:" أي: على جذوع النخل، قال:

هُمْ صَلَبُوا العَبْدِيّ فِي جِذعِ نَخْلَةٍ... فَلا عَطَسَتْ شَيْبان إلا بأجْدَعا".

قال الطبري:" يقول: ولأصلبنكم على جذوع النخل، وإنما قيل: في جذوع، لأن المصلوب على الخشبة يرفع في طولها، ثم يصير عليها، فيقال: صلب عليها" .. "وإنما قال هذا فرعون، لما رأى من خذلان الله إياه، وغلبة موسى عليه السلام وقهره له".

قال قتادة:" لما رأى السحرة ما جاء به عرفوا أنه من الله فخروا سجدا، وآمنوا عند ذلك، قال عدو الله: {فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ}... الآية".

قوله تعالى: {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى} [طه: ٧١]، أي:" ولتعلمنَّ أيها السحرة أينا: أنا أو رب موسى أشد عذابًا من الآخر، وأدوم له؟ ".

قال الطبري:" يقول: ولتعلمنَّ أيها السحرة أينا أشدّ عذابا لكم، وأدوم، أنا أو موسى".

قال ابن كثير:" أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ".

=

=

قال السدي:" فقتلهم وقطعهم".

قال ابن عباس:"كانوا في أوّل النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء".

أى: قال فرعون للسحرة بعد أن شاهدهم وقد خروا لله تعالى ساجدين: آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ أى: هل آمنتم لموسى وصدقتموه في دعوته وانقدتم له، قبل أن أعطيكم الإذن بذلك. فالاستفهام للتقريع والتهديد.

إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ أى: أن موسى الذي انقدتم له لهو كبيركم وشيخكم الذي علمكم فنون السحر، فأنتم تواطأتم معه. وآمنتم به لأنكم من أتباعه.

وغرضه من هذا القول صرف الناس عن التأسى بهم، وعن الإيمان بالحق الذي آمن به السحرة والظهور أمام قومه بمظهر الثبات والتماسك بعد أن استبد به وبهم الخوف والهلع، من هول ما رأوه.

ثم أضاف إلى قوله هذا تهديدا أشد فقال: (فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ، وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ).

قال قتادة قوله (ولأصلبنكم في جذوع النخل) لما رأى السحرة ما جاء به عرفوا أنه من الله فخروا سجدا، وآمنوا عند ذلك، قال عدو الله (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف).. الآية.

أى: فو الله لأقطعن أيديكم اليمنى- مثلا- مع أرجلكم اليسرى، ولأصلبنكم على جذوع النخل، لتكونوا عبرة لغيركم ممن تسول له نفسه أن يفعل فعلكم.

فالمراد من قوله «من خلاف» أى: من الجهة المخالفة أو من الجانب بأن يقطع اليد اليمنى ومعها الرجل اليسرى، لأن ذلك أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة إذ قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شيء كامل صحيح، بخلاف قطعهما من جهتين مختلفتين فإنه إفساد للجانبين.

=

=

واختار أن يصلبهم في جذوع النخل، لأن هذه الجذوع أخشن من غيرها والتصليب عليها أشق من التصليب على غيرها، وأظهر للرائى لعلوها عن سواها.

فهو لطغيانه وفجوره اختار أقسى ألوان العذاب ليصبها على هؤلاء المؤمنين.

قال الجمل: قوله: وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ يحتمل أن يكون حقيقة. وفي التفسير أنه نقر جذوع النخل حتى جوفها ووضعهم فيها فماتوا جوعا وعطشا.

ويحتمل أن يكون مجازا وله وجهان: أحدهما: أنه وضع حرفا مكان آخر، والأصل على جذوع النخل، والثاني: أنه شبه تمكنهم بتمكن من حواه الجذع واشتمل عليه.

وقال الكرخي «في» بمعنى «على» مجازا، من حيث إنه شبه تمكن المصلوب بالجذع، بتمكن المظروف في الظرف وهذا هو المشهور.

قال أبو يعلى في العدة ١/ ٢٠٨: (قوله تعالى: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} [طه:٧١]، أي: على جذوع النخل).

وقال ابن منظور في لسان العرب ١٥/ ١٦٧: (وتجيء [في] بمعنى [على]، وفي التنزيل العزيز: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} [طه:٧١]، المعنى: على جذوع النخل).

ويستدل كثير من المفسرين بهذه الآية على أن [في] تكون بمعنى [على].

قال السمعاني: (وقوله: {يستمعون فيه} [الطور:٣٨]، أي: عليه، وهو مثل قوله تعالى: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} [طه:٧١]، أي: على جذوع النخل).

والقول الثاني: أن [في] على بابها، واستعمالها في هذا الموضع إشارة إلى أن تمكن المصلوب من الجذع كتمكن المظروف بالظرف، ويحتجون بأن لكل حرف معناه.

قال البيضاوي: ({ولأصلبنكم في جذوع النخل} [طه:٧١]، شبه تمكن

=

=

المصلوب بالجذع بتمكن المظروف بالظرف).

وقال النحاس: (وذهب بعض أهل اللغة: إلى أن حروف الخفض يبدل بعضها من بعض، واحتجوا بقوله تعالى: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} [طه:٧١]، قالوا معنى: [في] معنى: [على]، وهذا القول عند أهل النظر لا يصح؛ لأن لكل حرف معناه، وإنما يتفق الحرفان لتقارب المعنى، فقوله تعالى: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} [طه:٧١]، كان الجذع مشتملا على من صلب، ولهذا دخلت [في]؛ لأنه قد صار بمنزلة الظرف).

وهذا الذي ذكره النحاس معنى دقيق، وهو أن الحرفين لا يتفقان في المعنى اتفاقا كليا، بحيث إن لفظ [في] هو معنى [على] سواء بسواء، وإنما يتقاربان في المعنى فيفيد استعمال أحدهما في موضع الآخر معنى زائدا عن استعمال كل منهما في موضعه.

ولذا قال الرازي: (ثم قال: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} [طه:٧١]، فشبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه، فلذلك قال: {في جذوع النخل}، والذي يقال في المشهور: أن [في] بمعنى [على] فضعيف).

والقول بأن القولين يجتمعان هو القول الصحيح، وأن [في] تأتي بمعنى [على]، و يفيد هذا الاستعمال معنى زائدا يدل عليه سياق الكلام، ولا ينافي استقلال كل منهما بمعناه.

قال أبو السعود: ({ولأصلبنكم في جذوع النخل} [طه:٧١]، أي: عليها، وإيثار كلمة [في] للدلالة على إبقائهم عليها زمانا مديدا، تشبيها لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف في الظرف المشتمل عليه).

وقال الزركشي في البرهان البرهان ٤/ ٣٠٣ عن [في] في الآية: (وقيل: ظرفية؛ لأن الجذع للمصلوب بمنزلة القبر للمقبور فلذلك جاز أن يقال: [في]). والله تعالى

=

=

أعلم.

وقوله: وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذابًا وَأَبْقى تهديد فوق تهديد، ووعيد إثر وعيد.

أى: والله لتعلمن أيها السحرة أينا أشد تعذيبا لكم، وأبقى في إنزال الهلاك بكم، أنا أم موسى وربه.

وكأنه بهذا التهديد يريد أن يهون من كل عذاب سوى عذابه لهم، ومن كل عقاب غير عقابه إياهم.

وهذا التهديد التي حكاه الله تعالى هنا، قد جاء ما يشبهه في آيات أخرى منها قوله تعالى: قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ، إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ .

ثم حكى -سبحانه- أن السحرة بعد أن استقر الإيمان في قلوبهم، قد قابلوا تهديد فرعون لهم بالاستخفاف وعدم الاكتراث فقال: قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ ...

قوله تعالى: {قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ} [طه: ٧٢]، أي:" قال السحرة: لن نختارك ونفضّلك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا".

قال الطبري:" قالت السحرة لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به {لَنْ نُؤْثِرَكَ} فنتبعك ونكذب من أجلك موسى {عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ}، يعني: من الحجج والأدلة على حقيقة ما دعاهم إليه موسى".

قال وهب:" أي: على الله على ما جاءنا من الحجج مع بينة".

قوله تعالى: {وَالَّذِي فَطَرَنَا} [طه: ٧٢]، أي:" ولن نُفَضِّل ربوبيتك المزعومة على ربوبية اللهِ الذي خلقنا".

=

=

قال الطبري:" قالوا: ولن نؤثرك على الذي خلقنا".

قال الأخفش:" يقول: "لن نؤثرك على الذي فطرنا".

قال الفراء:" فـ «الذي» في موضع خفض: «وعلى الذي»، ولو أرادوا بقولهم {والذي فطرنا} القسم بها، كانت خفضا وكان صوابا، كأنهم قالوا: لن نؤثرك والله".

قوله تعالى: {فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ} [طه: ٧٢]، أي:" فافعل ما أنت فاعل بنا".

قال الفراء:" افعل ما شئت".

قال الطبري:" يقول: فاصنع ما أنت صانع، واعمل بنا ما بدا لك".

قال وهب:" أي: اصنع ما بدا لك".

قوله تعالى: {إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [طه: ٧٢]، أي:" إنما سلطانك في هذه الحياة الدنيا، وما تفعله بنا، ما هو إلا عذاب منتهٍ بانتهائها".

قال الطبري:" يقول: إنما تقدر أن تعذّبنا في هذه الحياة الدنيا التي تفنى".

قال وهب:" أي: ليس لك سلطان إلا فيها، ثم لا سلطان لك بعده".

قال الزمخشري:" روى أن السحرة- يعنى رؤسهم- كانوا اثنين وسبعين: الاثنان من القبط، والسائر من بنى إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر. وروى أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائما ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر، لأن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه".

أى: قال السحرة في ردهم على تهديد فرعون لهم: لن نختارك يا فرعون ولن نرضى بأن نكون من حزبك، ولن نقدم سلامتنا من عذابك.. على ما ظهر لنا من المعجزات التي جاءنا بها موسى، والتي على رأسها عصاه التي ألقاها فإذا هي تبتلع حبالنا وعصينا.

وجملة «والذي فطرنا» الواو فيها للعطف على «ما» في قوله ما جاءَنا.

=

=

أي: لن نختارك يا فرعون على الذي جاءنا من البينات على يد موسى، ولا على الذي فطرنا أي خلقنا وأوجدنا في هذه الحياة.

ويصح أن تكون هذه الواو للقسم، والموصول مقسم به، وجواب القسم محذوف دل عليه ما قبله، والمعنى: وحق الذي فطرنا لن نؤثرك يا فرعون على ما جاءنا من البينات.

وقوله: فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ تصريح منهم بأن تهديده لهم لا وزن له عندهم، ورد منهم على قوله: فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ.

أي: لن نقدم طاعتك على طاعة خالقنا بعد أن ظهر لنا الحق، فافعل ما أنت فاعله، ونفذ ما تريد تنفيذه في جوارحنا، فهي وحدها التي تملكها، أما قلوبنا فقد استقر الإيمان فيها، ولا تملك شيئا من صرفها عما آمنت به.

قال بعض العلماء: واعلم أن العلماء اختلفوا: هل فعل بهم فرعون ما توعدهم به، أو لم يفعله بهم؟.

فقال قوم: قتلهم وصلبهم، وقوم أنكروا ذلك، وأظهر هما عندي: أنه لم يقتلهم، وأن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم الراسخ بالله تعالى لأن الله قال لموسى وهارون: أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ.

وقوله: إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا تعليل لعدم مبالاتهم بتهديده لهم.

أي: افعل يا فرعون ما أنت فاعله بأجسامنا، فإن فعلك هذا إنما يتعلق بحياتنا في هذه الحياة الدنيا، وهي سريعة الزوال، وعذابها أهون من عذاب الآخرة.

قوله تعالى: {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ} [طه: ٧٣].

قال الطبري:" إنا أقررنا بتوحيد ربنا، وصدقنا بوعده ووعيده، وأن ما جاء به

=

=

موسى حق، ليعفو لنا عن ذنوبنا فيسترها علينا، وليغفر لنا ذنوبنا، وتعلمنا ما تعلمناه من السحر، وعملنا به الذي أكرهتنا على تعلُّمه والعمل به، وذُكر أن فرعون كان أخذهم بتعليم السحر".

عن ابن عباس: قوله: "أخذ فرعون أربعين غلاما من بني إسرائيل فأمر إن يعلموا السحر بالفرما، وقال: علموهم تعليما لا يعلمه أحد في الأرض قال: ابن عباس فهم من الذين أمنوا بموسى وهم الذين قالوا: آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ".

قال ابن زيد:" أمرهم بتعلم السحر، قال: تركوا كتاب الله، وأمروا قومهم بتعليم السحر".

قوله تعالى: {وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه: ٧٣]، أي:" والله خير لنا منك - يا فرعون - جزاء لمن أطاعه، وأبقى عذابًا لمن عصاه وخالف أمره".

قال الطبري:" يقول: والله خير منك يا فرعون جزاء لمن أطاعه، وأبقى عذابا لمن عصاه وخالف أمره".

قال ابن إسحاق:": خير منك ثوابا، وأبقى عذابا".

عن عن محمد بن كعب، ومحمد بن قيس في قول الله:" {وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}، قالا: خيرا منك إن أطيع، وأبقى منك عذابا إن عُصي".

قال الشنقيطي: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن فرعون لعنه الله لما قال للسحرة ما قال لما آمنوا، قالوا له: {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا} يعنون ذنوبهم السالفة كالكفر وغيره من المعاصي {وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيهِ مِنَ السِّحْرِ} أي: ويغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر. وهذا الذي ذكره عنهم هنا أشار له في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى في "الشعراء" عنهم: {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)}، وقوله عنهم في "الأعراف":

=

=

{رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)}.

وفي آية "طه" هذه سؤال معروف، وهو أن يقال: قولهم: {وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ} يدل على أنه أكرههم عليه، مع أنه دلت آيات أخر على أنهم فعلوه طائعين غير مكرهين، كقوله في "طه": {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤)}، فقولهم: {فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا} صريح في أنهم غير مكرهين، وكذلك قوله عنهم في "الشعراء": { قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَال نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)}، وقوله في "الأعراف": {قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَال نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤)} فتلك الآيات تدل على أنهم غير مكرهين.

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة:

منها: أنه أكرههم على الشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم، فلما أكرهوا على القدوم وأمروا بالسحر أتوه طائعين، فإكراههم بالنسبة إلى أول الأمر، وطوعهم بالنسبة إلى آخر الأمر، فانفكت الجهة وبذلك ينتفي التعارض، ويدل لهذا قوله: {وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦)}، وقوله: {وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١)}.

ومنها: أنه كان يكرههم على تعليم أولادهم السحر في حال صغرهم، وأن ذلك هو مرادهم بإكراههم على السحر. ولا ينافي ذلك أنهم فعلوا ما فعلوا من السحر بعد تعلمهم وكبرهم طائعين.

ومنها: أنهم فعلوا لفرعون: أرنا موسى نائمًا: ففعل فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر؛ لأن الساحر إذا نام بطل سحره؛ فأبى إلا أن يعارضوه،

=

=

وألزمهم بذلك. فلما لم يجدوا بدًا من ذلك فعلوه طائعين. وأظهرها عندي الأول، والعلم عند الله تعالى ا.هـ

وقوله: وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى تذييل قصدوا به الرد على قول فرعون لهم: وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذابًا وَأَبْقَى.

أي: والله تعالى خير ثوابا منك يا فرعون، وأبقى جزاء وعطاء، فإن ثوابه-سبحانه- لا نقص معه، وعطاءه أبقى من كل عطاء.

قوله تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا} [طه: ٧٤]، أي:" إنه من يأت ربه كافرًا به".

قال يحيى: يعني:" مشركا".

قال الطبري: أي:" مكتسبا الكفر به".

قال البغوي:" أي: مشركا، يعني: مات على الشرك".

قال القرطبي:" أي: من يأت موعد ربه [مجرما] ".

قوله تعالى: {فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ} [طه: ٧٤]، أي:" فإن له نار جهنم يُعَذَّب بها".

قال الطبري: أي:" فإن له جهنم مأوى ومسكنا، جزاء له على كفره".

قوله تعالى: {لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} [طه: ٧٤]، أي:" لا يموت فيها فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها".

قال الطبري:" {لَا يَمُوتُ} فتخرج نفسه، {وَلا يَحْيَا} فتستقر نفسه في مقرها فتطمئن، ولكنها تتعلق بالحناجر منهم".

قال البغوي:" {لا يموت فيها} فيستريح، {ولا يحيا} حياة ينتفع بها".

وقوله- ﷻ: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ... يصح أن يكون كلاما مستأنفا ساقه الله تعالى لبيان سوء عاقبة المجرمين، وحسن عاقبة المؤمنين.

ويصح أن يكون من بقية كلام السحرة في ردهم على فرعون.

والمعنى: إِنَّهُ أى الحال والشأن مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ يوم القيامة في حال كونه مُجْرِمًا.

=

=

أى: مرتكبا لجريمة الكفر والشرك بالله تعالى فَإِنَّ لَهُ أى: لهذا المجرم جَهَنَّمَ يعذب فيها عذابا شديدا من مظاهره أنه لا يَمُوتُ فِيها فيستريح وَلا يَحْيى حياة فيها راحة.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها، كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ .

ثم بين-سبحانه- حسن عاقبة المؤمنين فقال: وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا به إيمانا حقا، وقَدْ عَمِلَ الأعمال الصَّالِحاتِ بجانب إيمانه. فَأُولئِكَ الموصوفون بتلك الصفات لَهُمُ بسبب إيمانهم وعملهم الصالح الدَّرَجاتُ الْعُلى أى: المنازل الرفيعة، والمكانة السامية.

قوله تعالى: {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ} [طه: ٧٥]، أي:" ومن يأت ربه مؤمنًا به قد عمل الأعمال الصالحة".

قال الطبري: أي:" موحدا لا يُشرك به، قد عمل ما أمره به ربه، وانتهى عما نهاه عنه".

قال البغوي: {مؤمنا}، أي:" مات على الإيمان".

قال السمعاني: {قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ}، " أي: أدى الفرائض".

قال القرطبي:" يمت عليه ويوافيه مصدقا به، وقد عمل الطاعات وما أمر به ونهي عنه".

قال الحسن: "من أدى الفراض فقد استكمل الإيمان، ومن لم يؤد الفرائض فلم يستكمل الإيمان".

عن ابن عباس: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".

عن زيد بن أسلم:" {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: رسول الله ﷺ

=

=

وأصحابه رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ".

قرأ أبو عمرو: «ومن يأته» ساكنة الهاء، ويختلسها أبو جعفر، وقالون ويعقوب، وقرأ الآخرون بالإشباع.

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} [طه: ٧٥]، أي:" فله المنازل العالية".

قال الطبري:" يقول: فأولئك الذين لهم درجات الجنة العلى".

قال القرطبي:" أي: الرفيعة التي قصرت دونها الصفات".

قوله تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [طه: ٧٥]، أي:" في جنات الإقامة الدائمة، تجري من تحت أشجارها الأنهار".

قال الطبري:" يعني: جنات إقامة لا ظعن عنها ولا نفاد لها ولا فناء، تجري من تحت أشجارها الأنهار".

قال القرطبي:" أي [تجري] من تحت غرفها وسررها {الأنهار} من الخمر والعسل واللبن والماء، و «العدن»: الإقامة".

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا} [طه: ٧٥]، أي:" ماكثين فيها أبدًا".

قال يحيى:" لا يموتون ولا يخرجون منها".

قال الطبري:" يعني: ماكثين فيها إلى غير غاية محدودة".

عن سعيد بن جبير: {خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون".

عن السدي: " {هم خالدون}: خالدا أبدا".

قوله تعالى: {وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى} [طه: ٧٦]، أي:" أي وذلك ثواب من تطهَّر من دنسْ الكفر والمعاصي".

قال يحيى:" يعني: من آمن".

وقال قتادة:" من عمل صالحا".

=

=

قال البغوي: أي:" تطهر من الذنوب".

وقال الكلبي: "أعطى زكاة نفسه وقال لا إله إلا الله".

قال الطبري:" يقول: وهذه الدرجات العُلى التي هي جنات عدن على ما وصف جلّ جلاله ثواب من تزكى، يعني: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله فيما أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه".

قال الزمخشري: أي:" تطهر من أدناس الذنوب، قيل في هذه الآيات الثلاث: هي حكاية قولهم. وقيل: خبر من الله، لا على وجه الحكاية".

قال القرطبي:" أي: من تطهر من الكفر والمعاصي. ومن قال هذا من قول السحرة، قال: لعل السحرة سمعوه من موسى أو من بني إسرائيل إذ كان فيهم بمصر أقوام، وكان فيهم أيضا المؤمن من آل فرعون. قلت: ويحتمل أن يكون ذلك إلهاما من الله لهم أنطقهم بذلك لما آمنوا، والله أعلم".

عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أهل الدرجات العلى لَيَراهم مَن تحتَهم كما ترون الكوكب الدُّرِّي في أُفُقِ السماء، وإنّ أبا بكر وعمر منهم، وأنْعما».

وقوله: جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يدل على الدرجات العلى.

أى: لهم جنات باقية دائمة تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار خالِدِينَ فِيها خلودا أبديا.

وَذلِكَ العطاء الجزيل الباقي جزاء من تزكى، أى من تطهر وتجرد من دنس الكفر والمعاصي.

❋ ذكر مسائل السحر.

مسألة: تعريف السحر.

السحر لغة: هو الأخذة، وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر، والجمع أسحار،

=

=

وسحور. وسحره يسحره سَحرًا وسِحرًا وسَحّره، ورجل ساحر من قوم سحرة وسُحّار، وسَحّار من قوم سحّارين، ولا يكسر."

والسحر أيضا: البيان في فطنة كما جاء في الحديث أنه صلىالله عليه وسلم قال: "إن من البيان لسحرا"

قال ابن الأثير: يعني إن من البيان لسحرا: أي منه ما يصرف قلوب السامعين وإن كان غيرحق. وقيل معناه إن من البيان ما يكسب من الإثم ما يكتسبه الساحر بسحره فيكون في معرض الذم. ويجوز أن يكون في معرض المدح، لأنه تستمال به القلوب ويرضى به الساخط ويستنزل به الصعب.

قال الأزهري: وأصل السَّحر: صرف الشي عن حقيقته إلى غيره فكأن الساحر لما أرى الباطل في صورة الحق وخيّل الشيء على غير حقيقته قد سحر الشيء عن وجهه أي صرفه.

قال الفراء: في قوله تعالى: {فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} معناه فأنى تصرفون.

كما يأتي السحر ويراد به الخديعة. يقال سحره بالطعام والشراب: أي خدعه، والسحور المفسد من الطعام أو المكان.

يقال: سحر المطر الطين والتراب: أفسد فلم يصلح للعمل.

السحر في الإصطلاح:

عرف السحر اصطلاحا بتعاريف كثيرة مختلفة متباينة، ذلك لكثرة الأنواع الداخلة تحته ولا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعًا لها مانعًا لغيرها.

ولاختلاف المذاهب فيه بين الحقيقة والتخييل. فمثلا البعض يعرفه بتعاريف لا تصدق إلا على ما لا حقيقة له من أنواع السحر، أو ما هو سحر في اللغة.

ومن هؤلاء أبو بكر الرازي حيث قال: "هو كل أمر خفي سببه وتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخدع".

=

=

وعرفه البعض بماله حقيقة وأثر كابن قدامة حيث قال: "السحرعزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين امرء وزوجه ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه".

وعرفه أحد العلماء المعاصرين - تعريفًا جمع فيه القسمين. فقال: "هو عبارة عن أمور دقيقة موغلة في الخفاء يمكن اكتسابها بالتعلم تشبه الخارق للعادة وليس فيها تحد، أو تجري مجرى التمويه والخداع تصدر من نفس شريرة تؤثر في عالم العناصر بغير مباشرة أو بمباشرة".

ونستخلص من هذه التعاريف وغيرها تعريفًا لعله يكون جامعًا بلفظ موجز إن شاء الله.

فنقول: السحر: هو كل ما فيه مخادعة أوتأثير في عالم العناصر نتيجة الاستعانة بغير الله من شيطان أو نحوه، يشبه الخارق للعادة وليس فيه تحد يمكن اكتسابه بالتعلم.

مسألة: أنواع السحر.

السحرأنواع كثيرة منها: ماله حقيقة، ومنها ما ليس له حقيقة، ومنها ما هو سحر في اللغة "هو السحر المجازي"، ولذا اختلفت تقسيمات العلماء للسحر فبعضهم جمع الجميع كالرازي وبعضهم اقتصر على ما هو سحر في عرف الشرعوبعضهم اقتصر على ماله حقيقة فقط. وإليك شيئًا من هذه الأنواع بشيء من الإيجاز.

القسم الأول:- ما هو سحر في الشرع - ومنه ماله حقيقة، ومنه ما ليس له حقيقة - ومن أنواعه ما يلي:

النوع الأول: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية. ذلك أن الوهم والنفس لهما تأثير على الإنسان، وبناءً على ذلك يقوم الساحر بأقوال وأفعال مخصوصة تقوي النفس حتى تؤثر في الآخرين بقدرة الله تعالى.

=

=

وقد ذكر الرازي وجوها كثيرة تؤكد أن للوهم والنفس تأثيرًا، منها:
الأول: أن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجذع الموضوع على وجه الأرض ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدودًا على نهر أو نحوه ذلك أن توهم السقوط متى قوي أوجبه.
الثاني: قد أجمع الأطباء على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر خشية أن يؤثر هذا على نفسه فيستمر رعافه وعلى نهي المصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران لأن هذا يؤثر في نفسه فيتمادى به صرعه.
كل ذلك دليل على أن التصورات النفسية التي تعرض للنفس تؤثر في صاحبها.
الثالث: التجربة والعيان شاهدان بأن هذه التصورات مبادئ قريبة لحدوث الكيفيات في الأبدان فإن الغضبان تشتد سخونة مزاجه حتى إنه يفيده سخونة قوية. وذلك دليل على أن النفوس لها تأثير في بدن صاحبها وإذا جاز كون التصورات مبادئ لحدوث الحوادث في البدن فأي استبعاد من كونها مبادئ لحدوث الحوادث خارج البدن.
الرابع: ومما يؤكد أن النفس قد تؤثر بالآخرين الإصابة بالعين
وقد اتفق النقل والعقل على ذلك. قال ﷺ: "العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين"
ثم قال: "النفس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جدًا تستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات... وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات.

وتحقيقه أن النفس إذا كانت متعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات صارت كأنها روح من الأرواح السماوية فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم، وإذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه اللذات البدنية فحينئذ لا
=

=

يكون لها تأثير البتة إلا في هذا البدن... ثم أرشد إلى أنه لا بد لمزاولة هذه الأعمال من انقطاع المألوفات والمشتهيات وتقليل الغذاء والانقطاع عن مخالطة الخلق، وكلما كانت هذه الأمور أكثر كان ذلك التأثير أقوى".

والحق أن هذا الساحر لم يؤثر على الآخرين بنفسه فقط بل هناك معين، وهذا المعين إنما هو شيطان، ذلك أن الساحر عندما خرج عن حد الاعتدال المشروع في تلبية رغبات الروح والجسد وأشقى نفسه في معصية الله، تعلت روحه على بدنه وقويت حتى أصبح من السهل على الأرواح التعامل معها، ومن ثم تولتها الأرواح الشيطانية لكونها خبيثة ورغبتها في هذا السلوك، وذلك بتحقيق أمور لا تستطيعها في حال اعتدالها، لتستمر في هذا الطريق الباطل مع عدم شعورها بعون تلك الأرواح. ولذا يمكن أن يطلق على ما تحققه من أمور أحوال شيطانية أعاذنا الله منها.

النوع الثاني: السحر الذي يستعان فيه بالكواكب ومنه:

- سحر الكلدانيين وأهل بابل وغيرهم، وهؤلاء كانوا قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويعتقدون أنها المدبرة للعالم وأن حوادث العالم كلها من أفعالها، ومنها يصدر كل مظهر خير وشر، وقد بعث الله إليهم إبراهيم عليه السلام مبطلًا لمقالتهم ونظرًا لاعتقادهم أنها مدبرة من دون الله فهم يزعمون أن لها ادراكات روحانية فإذا قوبلت ببخور خاص ولباس خاص على الذي يباشر البخور مع إقدامه على أفعال خاصة، وألفاظ يخاطب بها الكواكب كانت روحانية الفلك مطيعة له متى ما أراد شيئًا فعلته له على حد زعمهم. والحق أن الروحانيات التي قضت حوائجهم إنما هي الشياطين أعاذنا الله منها ليستمروا في باطلهم فيضلوا ويضلوا.

- ومنه نوع يسمى بالطلاسم: وهو عبارة عن نقش أسماء خاصة لها تعلق

=

=

بالأفلاك والكواكب – على زعم أهلها – في جسم من المعادن أو غيرها تحدث به خاصية ربطت في مجاري العادات، ولا بد مع ذلك من نفس صالحة لهذه الأعمال فإن بعض النفوس لا تجري الخاصية المذكورة على يده

وهذا النوع من السحر يحصل في الغالب إما من محتال ذكي مع مغفل فنتيجة تصديقه يحصل الشعور النفسي بتأثيره. وأما من صاحب علاقة بالشياطين، وإنما يستعمل هذا الطلسم لإخفاء ضلاله وكفره وكلاهما محرم. فالأول كذب وغش، والثاني شرك ظاهر من فاعله. وعليه فليس للكواكب فيه أي أثر.

– ومنه: النظر في حركات الأفلاك ودورانها وطلوعها وغروبها واقترابها وافتراقها معتقدين أن لكل نجم منها تأثير حال انفراده كما أن له تأثيرًا حال اجتماعه بغيره، على الحوادث الأرضية من غلاء الأسعار ورخصها ووقوع الحوادث وهبوب الرياح ونحو ذلك وقد ينسبون إليه ذلك مطلقًا

– ومنه النظر في منازل القمر الثمانية والعشرين معتقدين التأثير، في اقتران القمر بكل منها ومفارقته وان في تلك المقارنة أو المفارقة سعودًا أو نحسًا أوتأليفا أو تفريقًا وغير ذلك.

– ومنه ما يفعله من يستخدم الأرقام لحروف أبجد هوز.... المسمى بعلم الحرف. وهو أن يكتب حروف أبجد هوز... الخ. ويجعل لكل حرف منها قدرًا من العدد معلومًا ويجري على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة وغيرها ويجمع جمعًا معروفًا عنده ويطرح طرحًا خاصًا ويثبت إثباتًا خاصًا، وينسبه إلى الأبراج الاثني عشر المعروفة عند أهل الحساب، ثم يحكم على تلك القواعد بالسعود والنحوس وغيرها مما يوحيه إليه الشيطان وكثير منهم يفرق بين المرء وزوجته بذلك بدعوى أنهم إن جمعهم بيت لا يعيش أحدهم، وقد يتحكم بذلك في الغيب فيدعي أن هذا يولد له وهذا لا. وهذا يكون غنيًا وهذا يكون فقيرا ونحو

=

ذلك. كأنه هو الكاتب ذلك للجنين في بطن أمه لا والله لا يدريه الملك الذي يكتب حتى يسأل ربه فكيف بهذا الكاذب المفترى ولا شك في تحريم هذا العمل وكذب مدعيه وأن أحكامه رجم بالغيب.

النوع الثالث: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم الجن. وهم على قسمين مؤمنين – وكفار، وهم الشياطين. أما المؤمنون فمن المعلوم أنهم لا يعملون فعل محرم أو يعينون عليه. إذا فالاستعانة إنما هي بالشياطين.

واتصال النفوس الناطقة بها سهل، لما بينهما من المشابهة والقرب. وهذا الاتصال يحصل بشي من الرقى والدخن والتجريد.

قال الرازي: "إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل تسخير الجن".

وعندما يتحقق الاتصال تحصل الاستعانة ثم الإعانة لكن ذلك لا يكون دون الشرك بالله تعالى.

وأصحاب هذا النوع قد يخفون استعانتهم بالشياطين بما يزعمونه من أن لكل نوع من الملائكة أسماء أمروا بتعظيمها ومتى أقسم عليهم بها أطاعواوفعلوا ما طلب منهم ولا يخفى بطلان هذا الزعم، وأن ما يحصل من تعظيم وقسم إنما هو متوجه إلى الشياطين.

النوع الرابع: العقد والنفث فيه قال تعالى: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}

والنفاثات في العقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن في كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر وذلك إذا كان المسحور غير مباشر، أما إذا كان مباشرًا فينفثن عليه مباشرة. وذلك كله بعد أن تكيف نفس الساحر بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني =

=

القدري. ويطلق البعض على هذا النوع الرقى لشبهها بها في الصورة ومن هذا النوع سحر لبيد بن ألاعصم اليهودي للرسول ﷺ والشرك في هذا النوع ظاهر ذلك أنه استعانة بالأرواح الخبيثة وهم الشياطين.

النوع الخامس: الهيمياء بكسر الهاء على وزن كبرياء، وهو ما تركب من خواص سماوية تضاف لأحوال الأفلاك يحصل لمن عمل له شيء من ذلك أمور معلومة عند السحرة، وقد يبقى له إدراك وقد يسلبه بالكلية فتصير أحواله كحالات النائم من غير فرق حتى يتخيل مرور السنين الكثيرة في الزمن اليسير وحدوث الأولاد وإنقضاء الأعمار وغير ذلك في ساعة ونحوها من الزمن اليسير، ومن لم يعلم له ذلك لا يجد شيئا مما ذكر وكل ما يتصوره المسحور في هذه الحالة من الأوهام التي لا حقيقة لها.

النوع السادس: السيمياء: بكسر السين وهو عبارة عما تركب من خواص أرضية كدهن خاص أو كلمات خاصة توجب إدارك الحواس الخمسة أو بعضها بما له وجود حقيقي، أو بما هو تخييل صرف.

وهذا النوع تخييلي. يأتي بأحد أمرين إما بتأثير عقاقير بخواصها. وهذا ليس سحرًا في الشرع. وإما بكلمات خاصة، وهذا لا يحصل بمجرد الكلام وإنما هو بمعين من الشياطين يكون منه التخييل على الحواس بعد ذلك الكلام الذي يستدعي به الساحر ذلك المعين وهذا الكلام تذلل للشياطين يعاوضون عنه الساحر بما يريد من الخداع. ولا شك في حرمته لكونه شركًا.

القسم الثاني: ماسحر في اللغة.وهو"السحر المجازي" ومداره على قوة البيان وخفة اليد، والحيل والاكتشافات التي سبق بها الساحر عصره وإنما أدخل هذا القسم في فن السحر للطافة مأخذه، ذلك أن السحر في اللغة عبارة عما خفي ولطف سببه. وهو أنواع منها:

=

=

الأول: الأخذ بالأبصار والشعبذة، وهذا النوع مبني على مقدمات. أحدها: أن أغلاط البصر كثيرة ومن أمثلة ذلك أن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة والشط متحركًا ومثلها السيارة ونحوها. وذلك دليل على أن الساكن يرى متحركًا والمتحرك يرى ساكنًا.

ثانيها: أن القوة الباصرة إنما تقف على المحسوسات وقوفًا تامًا إذا أدركت المحسوسات في زمان له مقدار ما، أما إذا أدركت المحسوس في زمان قصير جدًا ثم أدركت بعده محسوسًا آخر وهكذا فانه يختلط البعض بالبعض.

وثالثها: أن النفس إذاكانت مشغولة بشيء فربما حضر عند الحس شيء آخر ولا يشعر الحس به ألبتة. مثاله: أن الإنسان عند دخوله على السلطان قديلقاه إنسان آخر ويتكلم معه فلا يعرفه ولا يفهم كلامه، إذ إن قلبه مشغول بشيء آخر. ثم بعد أن فصّل الرازي في تلك المقدمات قال: إذا عرفت هذه المقدمات سهل عند ذلك تصور كيفية هذا النوع من السحر، وذلك أن المشعبذ الحاذق يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه عمل شيئا آخر بسرعة شديدة فيبقى ذلك العمل خفيًا لتفاوت الشيئين.

أحدهما: اشتغالهم بالأمر الأول والثاني: سرعة الإتيان بهذا العمل الثاني وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غيرما انتظروه فيتعجبون منه جدًا ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه لفطن الناظرون لكل ما يفعله.

وهذا النوع - كما نرى - تخييل لا حقيقة له وهو محرم، لما يتضمنه من الكذب والخداع وقد قال البعض بأن سحر سحرة فرعون من هذا النوع والأظهر والله أعلم أنه ليس من هذا النوع ذلك أن سحرة فرعون لم يكن منهم حركات سوى

=

=

إلقاء الحبال والعصي ثم تراءى للناس أنها متحركة فكان سحرهم بفعل آخر أثر على الأعين، وهو من نوع الاستخدامات.

الثاني: الاستعانة بخواص الأدوية والأطعمة والملابس ونحوها. وهو ضرب من الاحتيال يقوم به بعض من يدعي السحر.

فمن ذلك أن يدعي القدرة على فعل أمور خارقة، فيستخدم خواص بعض المواد التي خلقها الله مما عرف خاصيته ولم يعلمه بقية الناس.

ومن أمثلة ذلك دخول بعض هؤلاء النار بعد أن يدهنوا جلودهم بمواد لها خاصية مقاومة النار، أو يلبس ثياب لا تحرقها النار، فيظن الرائي الجاهل أنه فعل أمرًا خارقًا، ولو علم بما فعل لزال العجب، كذلك من هذا النوع أن يجعل في طعام من يريد إيذاءه بعض الأدوية أو الأطعمة المبلدة المزيلة للعقل أو الدخن المسكرة، فإذا تناولها الضحية تبلد عقله وقلت فطنته فيتصرف تصرفًا غيرسليم فيقول الناس إنه مسحور، وقد يستعين بهذه الأدوية ونحوها في مسك الحيات، ثم يزعم أمام جهلة الناس أنها أحوال له.

الثالث: السعي بالنميمة وإغراء بعض الناس ببعض من وجوه لطيفة خفية وهذا شائع بين الناس وخصوصًا ضعاف الإيمان منهم.

قال أبو الخطاب في عيون المسائل: "ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس"

وإنما أطلق على النميمة للإفساد سحرًا، لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بوسيلة خفية كاذبة.

وقال ابن كثير: "النميمة على قسمين تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين فهذا حرام متفق عليه، فأما إذا كانت على وجه الإصلاح بين الناس... أو على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة فهذا أمر مطلوب

=

=

كما فعل نعيم بن مسعود".

الرابع: تعليق القلب:

وهو أن يدعي الساحر أنه قد عرف اسم الله الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك، وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة، وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر من أن يفعل ما يشاء.

قال الرازي: "وإن من جرب الأمور وعرف أحوال أهل العلم علم أن لتعلق القلب أثرًا عظيمًا في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار".

مسألة: اختلاف أهل القبلة في حقيقة السحر.

اعلم رحمني الله وإياك أن للسحر حقيقة وأثرًا ثابتًا بالكتاب والسنة.

قال القرطبي رحمه الله "ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة... " وقال أيضًا: "وعندنا أنه حق وله حقيقة يخلق الله عندها ما يشاء" وقال المازري: "مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة خلافًا لمن أنكر ذلك".

قال الإمام ابن القيم: "وقد دل قوله تعالى: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} وحديث عائشة رضى الله عنها على تأثير السحر وأن له حقيقة.

أدلة أهل السنة:

لقد استدل أهل السنة على أن للسحر حقيقة وأثرًا بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة، ومن الواقع وإليك شيئا منها:

أولا: الأدلة من الكتاب منها ما يلي:

- قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ

=

=

وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}

وجه الاستدلال: الآية تدل على أن للسحر حقيقة من وجوه الأول: أن الله سبحانه وتعالى قد أخبر فيها عن السحر وأنه مما يعلم ويتعلم وأن متعلمه يكفر بذلك وهذه الصفات لا تكون إلا لماله حقيقة، مما يدل على أن له حقيقة.

الثاني: أن الله تعالى قد أخبر في هذه الآية بأن للسحر آثارًا محسوسة كالتفريق بين المرء وزوجه والأثر دليل على وجود المؤثر وأن له حقيقة.

الثالث: كما أخبر الله تعالى في هذه الآية بأن للسحرضررًا لا يتحقق إلا بإذنه، والاستثناء دليل على حصول الآثار بسببه والضرر أو الأثر لا يكون إلا مماله حقيقة.

- قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}

وجه الاستدلال: أن الله تعالى أمرنبيه ﷺ في هذه السورة بالاستعاذة من شر النفاثات في العقد وهن السواحر كما فسرها جمهور المفسرين مما يدل على أن للسحر حقيقة وأثرا إضافة إلى ذلك أن هذه السورة وسورة الناس باتفاق جمهور المفسرين سبب نزولهما سحر لبيد بن الأعصم اليهودي لرسول الله ﷺ

ولو لم يكن له حقيقة وأثر لما أنزلت هاتان السورتان لإبطال أثره.

ثانيًا: الأدلة من السنة وهي كثيرة منها ما يلي:

- أخرج البخاري بسنده إلى عيسى بن يونس عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان

=

=

رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة – وهو عندي لكنه دعا ودعا، ثم قال "يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه. أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل؟ قالا: مطبوب

قال: ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم. قال في أي شيئ؟ قال في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال في بئر ذروان.فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة كأن مائها نقاعة الحنا وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين قلت يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال قد عافاني الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شرًا فأمر بها فدفنت

وفي رواية لمسلم "فقلت يا رسول الله أفلا أحرقته"

ويقول الإمام النووي عن الروايتين: "كلاهماصحيح: فطلبت أن يخرجه ثم يحرقه والمراد إخراج السحر".

وفي رواية عمرة عن عائشة "فنزل رجل فاستخرجه" وفيه من الزيادة أنه "وجد في الطلعة تمثالًا من شمع تمثال رسول الله ﷺ وإذا فيه إبر مغروزة، وإذابه وتر فيه إحدى عشرة عقدة فنزل جبريل بالمعوذتين فكلما قرأ آية انحلت عقدة وكلما نزع إبرة وجد لها ألما ثم يجد بعدها راحة"

وجه الاستدلال: الحديث كما نرى يروي واقعة سحره عليه الصلاة والسلام ابتداءً من تغيرعادته ﷺ حتى إنه يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله وانتهاءً بقراءة المعوذتين وحل العقد ونزع الإبر وما بين ذلك من دعائه صلىالله عليه وسلم ثم نزول الملكين ونقاشهما فيما حصل له ﷺ ثم ذهابه إلى البئر في جماعة من أصحابه وإخبار عائشة فيما حصل. وطلبها رضي الله عنها استخراجه، قوله ﷺ "إن الله شفاني" كل هذا لا يكون إلا فيما له حقيقة وأثر بيّن.

=

=

- ما رواه البخاري بسنده إلى أبي الغيث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال:"اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"

وجه الاستدلال: أن الرسول ﷺ أمرنا باجتناب السبع الموبقات وعد منها السحر بل جعله في المرتبة الثانية بعد الشرك بالله. مما يدل على أن له حقيقة.

- قول الرسول ﷺ: "من تصّبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر"

وجه الاستدلال: أن الرسول ﷺ أرشدنا إلى ما فيه وقاية من السحر ولايتوقى إلاشيء له حقيقة وأثر بين، كما أنه قارنه بالسم والسم متفق بأن له حقيقة وأثرًا فكذلك إذًا السحر.

ثالثًا: الدليل من الواقع: كذلك من أدلة أهل السنة على أن للسحر حقيقة: الواقع المشاهد وما اشتهر بين الناس من عقد الرجل عن امرأته حين يتزوجها فلا يقدرعلى إتيانها. وحل عقده فيقدر عليها بعد عجز عنها حتى صار متواترًا لا يمكن جحده.

وروى من أخبار السحرة ما لا يكاد يمكن التواطؤ على الكذب فيه.

كل هذا دليل ظاهر على أن للسحر حقيقة والله أعلم.

القول الثاني: وهو قول عامة المعتزلة.

وجماعة من العلماء كأبي منصور الماتريدي وابن حزم وأبي جعفر الأستراباذي من الشافعية وأبي بكر الجصاص، وغيرهم.

ويتلخص رأيهم في أن السحر لا حقيقة له وإنما هو تمويه وتخييل فلا تأثير له لا في مرض ولا حل ولا عقد ولاغير ذلك، وعلى ذلك فهم ينكرون من أنواع السحر ما

=

=

كان له حقيقة ويجعلونه ضربًا واحدًا وهو سحر التخييل.

يقول القاضي عبد الجبار:"إن السحر في الحقيقة لا يوجب المضرة لأنه ضرب من التمويه والحيلة..."

ويقول أبو منصور الماتريدي: "والأصل أن الكهانة محمول أكثرها على الكذب والمخادعة والسحر على التشبيه والتخييل"

ويقول ابن حزم: "...وقد نص الله ﷻ على ما قلنا فقال تعالى: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} فأخبر الله تعالى أن عمل أولئك السحرة إنما كان تخيلًا لا حقيقة... "

وقال ابن حجر: "واختلف في السحر: فقيل هو تخييل فقط ولا حقيقة له وهذا اختيار أبي جعفر الاستراباذي من الشافعية وأبي بكر الرازي من الحنفية وابن حزم الظاهري وطائفة"

وقد أيدوا قولهم هذا بشبهات نقلية وعقلية.

وإليك شيئًا منها مع المناقشة:

أولا: الشبهات النقلية منها، ما يلي

الشبهة الأولى: قوله تعالى: {فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}

وجه الاستدلال: قالوا الآية تدل على أن السحرة حاولوا إرهاب الناس وتخويفهم بأن خيلوا لأعين الناظرين أمرًا لا حقيقة له مما يدل على أن السحر لا حقيقة له.

الشبهة الثانية: قوله تعالى: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}

الشبهة الثالثة: قوله تعالى: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}

وجه الاستدلال: يقول ابن حزم:"وقد نص الله ﷻ على ما قلنا فقال تعالى {فَإِذَا

=

=

حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}

فأخبر تعالى: (أن عمل أولئك السحرة إنما كان تخييلا لا حقيقة له.

وقال تعالى {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}

فأخبر تعالى أنه كيد لا حقيقة له)

الجواب يقال لهم:

أولًا: الآيات دليل على أن للسحر حقيقة إذ إنها دلت على أن للسحر أثرًا في نظر المسحور حتى تخيل الشيء عليخلاف ما هو عليه وهو تأثير في إحساسهم، وإذا جاز، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم؟ وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير الواقع في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟ وعليه فالآيات حجة عليكم لا لكم.

ثانيًا: على التسليم بدلالة الآيات على التخييل فقط فإن هذا لا يمنع أن يكون غير التخييل من جملة السحر؛ لأنها لم تحصر السحر في التخييل، وإنما دلت على أن سحر سحرة فرعون ونحوهم كان من هذا النوع ونحن لاننكر أن يكون التخييل من أنواع السحر وعلى ذلك فلا حجة في الآيات على نفي حقيقة السحر وتأثيرهوالله أعلم.

ثانياُ: الشبهات العقلية: منها ما يلي:

الشبهة الأولى: قالوا إن في القول بأن للسحر أثرًا خارقًا للعادة يلزم منه أن يكون هناك موجودًا مثلًا لله تعالى. كما أنه لا يمكن العلم معه بالفرق بين ما يختص الله بالقدرة عليه وبين مقدور العباد.

الجواب: يقال لهم هذه الشبهة باطلة ولا يلزم من القول بأن للسحر أثرًا ما زعمتم، ذلك أن أهل السنة لما قالوا بأن للسحر أثرًا لم يطلقوا القول بحصول كل أثر أو بحصول أثر يصل إلى مرتبة الخلق والإيجاد، ذلك أن الموجد الحق هو الله

=

=

وحده لا شريك له.

قال تعالى: {اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ....الآية} وقال تعالى {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} وقال تعالى {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ ...الآية} والقول بأن أثر السحر يصل إلى درجة الخلق شرك في الربوبية. أعاذنا الله منه.

وإنما قالوا له أثر على النفس والبدن يؤدي إلى المرض.

فهو سبب قد ربط الله به بعض المسببات في حدود قدرة الخلق من الجن والإنس وبما أن قدرة الشياطين تختلف عن قدرة الإنس لذا قد يظن الجاهل أن حصول الأثر المناقض للعادة فوق قدرة الخلق والواقع أنه في حدود قدرة الخلق من الجن والإنس ولذا يمكن معارضته بمثله وأقوى منه.

وإذا كان كذلك فلن يلزم من القول بان للسحر أثرًا ما زعمتم. والله أعلم.

الشبهة الثانية: يروي الرازي عن القاضي أنه قال: "أنا لو جوزنا ذلك" لتعذر الاستدلال بالمعجزات على النبوات لأنا لو جوزنا استحداث الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية لم يمكنا القطع بأن هذه الخوارق التي ظهرت على أيدي الأنبياء عليهم السلام صدرت عن الله تعالى بل يجوز فيها أنهم أتوا بها عن طريق السحر وحينئذ يبطل القول بالنبوات من كل الوجوه.

الجواب: يقال لهم العادة تنخرق على يد النبي والولي والساحر.

ولكن النبي يتحدى بها الخلق ويستعجزهم عن مثلها ويخبر عن الله تعالى بخرق العادة بها لتصديقه فلو كان كاذبًا لم تنخرق العادة على يديه. ولذا لا يمكن معارضته بمثله أو أقوى منه؛ إذ إنّه ليس في مقدور الجن والإنس.

قال تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}

أما الولي والساحر: فلا يتحديان الخلق ولا يستدلان على نبوة ولو ادعيا شيئًا من

=

=

ذلك لم تنخرق العادة لهما.

وأما الفرق بين الولي والساحر فمن وجوه منها:

الأول: وهو المشهور، إجماع المسلمين على أن السحر لا يظهر إلا على فاسق أو كافر، والكرامة لا تظهر إلا على ولي.

الثاني: أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم لساحر ما يريد.

والكرامة لا تفتقر إلى شيئ من ذلك. وفي كثير من الأوقات تقع الكرامة اتفاقا من غير أن يستدعيها أو يشعر بها.

الثالث: أن ما يأتي به السحرة، يمكن معارضته بمثله وأقوى منه كما هو الواقع بخلاف الكرامات فهي كالمعجزات لا يمكن لأحد أن يعارضها بمثلها أو أقوى منها.

الرابع: إن مايأتي به السحرة لا يخرج عن كونه مقدورًا للإنس والجن بخلاف الكرامات فهي كالمعجزات لا يقدر عليها إلا الله.

الشبهة الثالثة: يروي الرازي عن القاضي أنه قال:"... لو جوزنا أن يكون في الناس من يقدر عليخلق الجسم والحياة والألوان لقدر ذلك الإنسان على تحصيل الأموال العظيمة من غير تعب. لكنا نرى من يدعي السحر متوصلاً إلى اكتساب الحقير من المال بجهد جهيد فعلمنا كذبه."

الجواب: يقال لهم هذه الشبهة باطلة ولا تلزمنا لأنا لم نطلق الحكم بحصول كل تأثير مهما كان بل قلنا في نطاق معين لا يتجاوز التصرف في الأعراض من باب التأثير على القلوب بالحب والبغض وعلى الأبدان بالألم والسقم. أما أن يقلب الجماد حيوانًا أو عكسه أو الحديد ذهبًا أو نحوه فليس في مقدور الساحر.

وبذلك يزول اللبس وتبطل هذه الشبهة. والله أعلم.

والأظهر في هذه المسألة - والله أعلم - أن السحر المذموم صاحبه ليس كله

=

=

حقيقة وليس كله تخييلًا. بل منه ما هو حقيقة كما دلت عليه أدلة أهل السنة، ومنه ما هو تخييل كما دلت عليه الآيات التي استدل بها المخالفون. وبذلك يتضح عدم التعارض بين الأدلة النقلية. وعلى هذا جماهير العلماء من المسلمين. والله أعلم.

مسألة: حكم تعلم السحر وتعليمه.

اختلف أهل القبلة في حكم تعلم السحر وتعليمه على أقوال.

الأول: أهل السنة، قالوا إن تعلم السحر وتعليمه حرام. قال ابن قدامة رحمه الله "... فإن تعلم السحر وتعليمه حرام لا نعلم فيه خلافًا بين أهل العلم"

لكن ما هي درجة هذا التحريم؟

إن قصد من تعلمه العمل به وكان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر، أو تعلمه معتقدًا إباحته فهو كفر، وإلا فهو فسق.

قال الإمام الشافعي: "إذا تعلم السحر قيل له صف لنا سحرك؟ فإن وصف ما يستوجب الكفر مثل سحر أهل بابل من التقرب للكواكب وأنها تفعل ما يطلب منها فهو كافر وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر وإلا فلا

وقال النووي رحمه الله وهو يتكلم عن السحر: "... وأما تعلمه وتعليمه فحرام فإن تضمن ما يقضي الكفر كفر وإلا فلا".

وقال أبو حيان: "وأما حكم السحر فما كان منه يعظم به غير الله من الكواكب والشياطين وإضافة ما يحدثه الله إليها فهوكفر إجماعًا لا يحل تعليمه ولا العمل به وكذا ما قصد بتعلمه سفك الدماء والتفريق بين الزوجين والأصدقاء، وأما إذا كان لا يعلم منه شيئا من ذلك بل يحتمل فالظاهر أنه لا يحل تعلمه والعمل به... "

وقال الشيخ سليمان بن عبد الوهاب: "وقد نص أحمد على أنه يكفر بتعلمه وتعليمه.

الأدلة: وقد أيدوا قولهم بأدلة كثيرة منها ما يلي:

=

=

الأول: قوله تعالى {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ... الآية}

قال ابن حجر:"فإن ظاهرها أنهم كفروا بذلك، ولا يكفر بتعليم الشيء إلا وذلك الشيء كفر"

الثاني: قوله تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ... الآية}

قال ابن حجر: "الآية فيها إشارة إلى أن تعلم السحر كفر"

الثالث: قوله تعالى {... وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ... الآية}

قال الشوكاني: "الآية فيها تصريح بأن السحر لا يعود على صاحبه بفائدة ولا يجلب إليه منفعة بل هو ضرر محض وخسران بحت"

وإذا كان كذلك فتعلمه لا يجوز. لأنه وسيلة إلى هذا الضرر والخسران الرابع: قوله تعالى {... وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}

قال أبو جعفر:".... قد دللنا فيما مضى على أن معنى "شروا" باعوا فمعنى الكلام إذا ولبئس ماباعه نفسه من تعّلم السحر لو كان يعلم سوء عاقبته"

الخامس: ما روى عبد الرّزّاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله ﷺ: "من تعلم شيئًا من السحر قليلًا كان أو كثيرًا كان آخر عهده من الله"

القول الثاني: جواز تعلم السحر عند الضرورة:

قال ابن حجر: "وقد أجاز بعض العلماء تعلم السحر لأمرين، إما لتمييز ما فيه كفر من غيره، وإما لإزالته عمن وقع فيه"

ثم قال ابن حجر: فأما الأول: فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرده لا يستلزم منعًا كمن يعرف كيفية عبادة أهل

=

=

الأوثان للأوثان، لأن كيفية ما يعمله الساحر إنما هي حكاية قول أو فعل بخلاف تعاطيه والعمل به.

وأما الثاني: فإن كان لا يتم كما زعم بعضهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق فلا يحل أصلا وإلا جاز للمعنى المذكور"

القول الثالث جواز تعلم السحر مطلقًا: والى هذا ذهب الرازي في تفسيره حيث قال: "العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور اتفق المحققون على ذلك لأن العلم لذاته شريف وأيضا لعموم قوله تعالى {... هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ... الآية}

ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة، والعلم بكون المعجز معجزًا واجب وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب. فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبًا وما يكون واجبًا كيف يكون حرامًا وقبيحًاوهذا قول باطل ولذا رد عليه بعض الأئمة كابن كثير في تفسيره حيث قال - بعد أن عرض رأيه-" وفي كلام الرازي نظر من وجوه أحدها: قوله: العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور اتفق المحققون على ذلك.

أ- أما قوله"ليس بقبيح: إن عنى به ليس بقبيح عقلًا فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا وإن عني أنه ليس بقبيح شرعًا ففي الكتاب والسنة ما يبطل زعمه، فمن الكتاب قوله تعالى {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ... الآية} ففي هذه الآية تبشيع لتعلم السحر. ومن السنة ما في الصحيح "من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد"

وفي السنن:"من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر... الحديث" تبشيع لتعلم السحر

=

=

أيضا.

ب- وأما قوله "لا محظور" فيقال: كيف لا يكون محظورًا مع ما ذكرناه من الآية والحديث وما ورد فيهما من التبشيع له.

ج- وأما قوله "اتفق المحققون على ذلك" فيقال: اتفاق المحققين يقتضي أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم وأين نصوصهم على ذلك؟

ثانيًا: أ- أن إدخال السحر في عموم قوله تعالى {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ... الآية}

فيه نظر، لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين العلم الشرعي والعلم بالسحر ليس من العلم الشرعي فلم قلت أنه منه؟

ب- ثم ترقيته إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به: ضعيف بل فاسد لما يلي:

- إن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هي القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، والعلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلًا.

- أن من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا يعلمون المعجز ويفرقون بينه وبين غيره ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموهوبذلك يتبين بطلان قوله. والله أعلم.

كما تعقبه الألوسي في تفسيره.

وبذلك يتضح أن القول الأول هو الصحيح للأدلة الدالة من الكتاب والسنة.

وأما القول الثاني: فيمكن إرجاعه إلى القول الأول، كما تعقبه ابن حجر بأنه يشترط سلامة الاعتقاد في الأول وأن لا يكون بنوع فيه كفر في الثاني.

=

=

وأما القول الثالث: فلا صحة له كما رد عليه ابن كثير والألوسي.

مسألة: حكم العمل بالسحر.

محرم بالكتاب والسنة بلاخلاف بين أهل العلم ولكن ما هي درجة هذا التحريم؟

إن كان فيه اعتقاد أوقول أوفعل يقتضي الكفر مثل: اعتقاد أن الكواكب السبعة أو غيرها مدبرة مع الله.

أو أن الساحر قادر على خلق الأجسام أو اعتقد أن فعله مباح أو تضمن تقربًا إلى الشياطين بشيء من الأوراد الكفرية، أو الذبح لها ونحو ذلك فهو كفر.

أما إذا لم يكن فيه شيء من ذلك وهو ما يسمى بالسحر المجازي مثل: السحر بالأدوية والتدخين، وسقيا شيء يضر، أو بالحركات الخفية ونحو ذلك فليس بكفر وإنما هو فسق.

يقول النووي: "علم السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبي ﷺ من السبع الموبقات، ومنه ما يكون كفرًا ومنه ما لا يكون كفرًا، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كافر، وإلا فلا"

ويقول ابن قدامة: "والساحر الذي يركب المكنسة وتسيربه في الهواء ونحوه يكفر ويقتل، فأما السحر بالأدوية والتدخين وسقيا شيء يضر فلا يكفر"

الأدلة: وهي كثيرة منها ما يلي:

- "ما سبق ذكره آنفا في أدلة الجمهور الدالة على تحريم تعلم السحر تعليمه، ذلك أن كل دليل يدل على تحريم تعلم السحر فدلالته على تحريم العمل به أولى.

- "ومن الأدلة أيضا قوله تعالى {وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}

وجهة الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى نفى الفلاح عن الساحر نفيًا عامًا حيث توجه وسلك وذلك دليل كفره، لأن الفلاح لا ينفى بالكلية نفيًا عامًا إلا عمن لا خير فيه وهو الكافر، ذلك أنه قد عرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظه "لا يفلح"

=

=

يراد بها الكافر. كقوله تعالى {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} وقوله تعالى {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

- قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}

وجه الدلالة: أن الآية تدل على نفي الإيمان عن السحرة، إذ إن لو حرف امتناع، فيثبت نقيضه وهو الكفر

قال ابن عباس: "كل شيء في القرآن لو فإنه لا يكون أبدًا"

وقال الشوكاني: "ولو أنهم آمنوا واتقوا ما وقعوا فيه من السحر والكفر"

وقال ابن كثير:"وقد استدل بقوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا} من ذهب إلى تكفير الساحر كما هو رواية الإمام أحمد وطائفة من السلف"

- قوله ﷺ: "من أتى عرافًا أوساحرًا أو كاهنًا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد" في الحديث - كما نرى - تحذير من إتيان العرافين أو السحرة أو الكهنة وتصديقهم - مشيرًا إلى أن تصديقهم كفر بما أنزل على محمد ﷺ وإذا كان هذا حال الآتي فكيف حال المأتي.

والكفر هنا ظاهره الكفر الحقيقي وهو الكفر الأكبر، وقيل الكفر المجازي وهو الكفر الأصغر، وقيل من اعتقد أن العراف أو الساحر أو الكاهن يعرفان الغيب ويطلعان على الأسرار الإلهية كان كافرًا كفرًا أكبر كمن اعتقد تأثير الكواكب، وإلا فلا.

- قوله ﷺ: "ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له.... الحديث"

في الحديث إشارة إلى براءة المصطفى ﷺ ممن يفعل شيئا من هذه الأفاعيل التي

=

=

منها السحر ولا يتبرأ ﷺ من فاعل فعل مباح.

- قوله ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله ما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات" في هذا الحديث - قد عد المصطفى ﷺ السحر من السبع الموبقات وأمر باجتنابها لما يترتب على فعلها من ضرر في الدنيا وعذاب في الآخرة.

قوله ﷺ: "من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق بشيء وكل إليه"

وجه الدلالة: أن في الحديث تصريحًا بأن فاعل السحر قد أشرك.

هذا شيئ من الأدلة من الكتاب والسنة. كلها صريحة بتحريم السحر وعده إما كفرًا أو معصية كبيرة - مما يدل على أن السحر قد يكون كفرًا، وذلك إذا كان فيه ما يقتضي الكفر، ويكون فسقًا إذا لم يكن فيه شيء من ذلك. وهو السحر المجازي والله أعلم.

مسألة: عقوبة الساحر.

نظرًا لتعدد أنواع السحر لذا اختلف العلماء في عقوبة الساحر على قولين:

القول الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور أهل السنة من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار ورواية عن الإمام الشافعي أنه متى ما ثبتت جريمة السحر بحق إنسان بإقرار أو بيّنه وجب قتله مطلقًا من غير استتابة إلا أن يأتي تائبًا قبل أن يقدر عليه.

يقول الإمام أبو حنيفة: "يقتل الساحر إذا علم أنه ساحر ولا يستتاب ولا يقبل قوله إني أترك السحر وأتوب منه."فإذا أقرّ أنه ساحر فقد حل دمه، وإن شهد عليه شاهدان أنه ساحر فوصفوا ذلك بصفة يعلم أنه ساحر قتل ولا يستتاب، وإن أقرّ فقال: كنت أسحر وتركت هذا منذ زمان قبل منه ولم يقتل.

=

=

وكذا لو شهد عليه أنه كان مرة ساحر وأنه ترك منذ زمان لم يقتل إلا أن يشهدوا أنه الساعة ساحر وأقرّ بذلك فيقتل.
وحكى محمد بن شجاع عن علي الرازي. قال: سألت أبا يوسف عن قول أبي حنيفة في الساحر: يقتل ولا يستتاب. لمَ لم يكن ذلك بمنزلة المرتد؟ فقال الساحر جمع مع كفره السعي في الأرض بالفساد والساعي بالفساد إذا قتل قتل.
وقال الإمام مالك: "الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب ولا تقبل توبته بل يتحتم قتله كالزنديق"
وقال أيضًا: "فإذا جاء الساحر أو الزنديق تائبًا قبل أن يشهدوا عليهما قبلت توبتهما"
وقال ابن قدامة:"... وحد الساحر القتل روي ذلك عن عمر وعثمان ابن عفان وابن عمر وحفصة وجندب بن عبد الله وجندب بن كعب وقيس ابن سعد وعمر بن عبد العزيز وهو قول أبي حنيفة ومالك... إلى أن قال: وهل يستتاب الساحر؟ فيه روايتان: أحدهما: لا يستتاب، وهو ظاهر ما نقل عن الصحابة فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه استتاب ساحرًا.
وقال عياض: "وبقول مالك قال أحمد وجماعة من التابعين"
وقال القرطبي: "اختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم... فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرًا يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته؛ لأنه أمر يستسر به كالزنديق والزاني... وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق والشافعي وأبي حنيفة.
وقد أيدوا قولهم بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة وأفعال الصحابة والتابعين منها ما يلي:
الأول: قال تعالى {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ

=

=

وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ... الآية}

وجه الدلالة: أن الآية تدل على أن السحر كفر من وجوه - أحدها: نفي الكفر عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في معرض اتهامه بالسحر وإثباته للشياطين لتعليمهم الناس السحر دليل على أن السحر كفر.

ثانيها: تحذير الملكين من تعلم السحر بأنه كفر. وعليه فإن الساحر يقتل لأنه كافر.

الثاني: قوله ﷺ فيما رواه الترمذي عن الحسن عن جندب أنه ﷺ قال: "حد الساحر ضربة السيف". أخرجه الترمذي (٤/ ٦٠، رقم ١٤٦٠)، وابن عدي في الكامل (١/ ٢٨٤)، والدارقطنى (٣/ ١١٤)، والحاكم (٤/ ٤٠١، رقم ٨٠٧٣)، والبيهقى في الكبرى (٨/ ١٣٦، رقم ١٦٢٧٧)، والحديث ضعفه الترمذي بقوله: هذا حديث لا نعرفه إلا مرفوعا من هذا الوجه و إسمعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث و إسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال وكيع هو ثقة ويروي عن الحسن أيضا والصحيح عن جندب موقوف، وقال في العلل: سألت عنه محمدا يعني البخاري فقال: هذا لا شيء وإسماعيل ضعيف جدا اهـ وضعفه ابن عدي، والبيهقي، وقال ابن المنذر في الإقناع (٢/ ٦٨٧): في إسناده مقال، وضعفه ابن العربي في العارضة (٤/ ٤٢٧)، والضياء في السنن والأحكام (٥/ ٥٢٥)، وقال ابن القيم في الزاد (٥/ ٥٧): الصحيح أنه موقوف على جندب بن عبد الله، وكذا قال ابن كثير في إرشاد الفقيه (٢/ ٢٥٧)، وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٦): في سنده ضعف، وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٨/ ٨٢): ورد مرفوعا وموقوفا، والصحيح أنه موقوف، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (١٤٤٦).

(تنبيه) قول الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ١٤٩): فيه إسماعيل بن

=

=

مسلم المكي حديثه حسن، ومن تكلم فيه فإنما تكلم من قبل حفظه. متعقب بما تقدم.

ولجندب راوي الحديث قصة توضح معنى الحديث وتؤكده وهي: أن ساحرًا كان عند الوليد بن عقبة يلعب فذبح إنسانًا وأبان رأسه فعجبنا فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدي فقتله.فثبت بهذا أن عقوبة الساحر هي القتل.

الثالث: ما روي عن بجالة بن عبدة قال: كنت كاتبًا لجزي بن معاوية عم الأحنف بن قيس فأتى كتاب عمر قبل موته بسنة "أن اقتلوا كل ساحر وساحرة... " فقتلنا ثلاث سواحر في يوم.

الرابع: ماروي عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وكانت قد دبّرتها فأمرت بها فقتلت رواه مالك في الموطأ.

الخامس: ما ذكره ابن حزم عن يحي بن أبي كثير قال: إن غلامًا لعمر بن عبد العزيز أخذ ساحرة فألقاها في الماء فطفت فكتب إليه عمر بن عبد العزيز إن الله لم يأمرك أن تلقيها في الماء فإن اعترفت فاقتلها.

كما روي قتل السحرة عن غير هؤلاء من الصحابة والتابعين من الصحابة: عثمان وابن عمر وأبي موسى وقيس بن سعد، ومن التابعين سبعة منهم عمر بن عبد العزيز.

وكما نرى قتل الساحر مذهب عدد من كبار الصحابة ولم يعلم لهم مخالف من الصحابة.

وعند علماء الأصول أن الصحابي إذا قال قولًا أو فعله واشتهر ولم يعلم له مخالف فإنه يعد إجماعًا سكوتيًاويؤكد هذا أنه مذهب جماعة من التابعين قال ابن قدامة – بعد أن ذكر من قال بوجوب قتل الساحرمن الصحابة وهذا اشتهر فلم

=

=

ينكر فكان إجماعا.

وبذلك ثبت في الكتاب والسنة والإجماع من الصحابة والتابعين قتل الساحر مطلقًا عند الجمهور.

قال الإمام الشنقيطي: "فهذه الآثار التي لم يعلم أن أحدًا من الصحابة أنكرها على من عمل بها مع اعتضادها بالحديث المرفوع المذكور هي حجة من قال بقتله مطلقًا، والآثار المذكورة والحديث فيهما الدلالة على أنه يقتل ولو لم يبلغ به سحره الكفر لأن الساحر الذي قتله جندب كان سحره من نوع الشعوذة... وقول عمر: "اقتلوا كل ساحر" يدل على ذلك بصيغة العموم.

القول الثاني: وهو مذهب الإمام الشافعي وابن المنذر وراية عن الإمام أحمدأن الساحر إذا عمل بسحره ما يبلغ الكفر وجب قتله كفرًا بعد الاستتابة أما إذا لم يبلغ الكفر وقتل نفسًا قتل قصاصًا. وما سوى ذلك يعزر. يقول السبكي "وأما مذهب الشافعي فحاصله أن الساحر له ثلاثة أحوال حال يقتل كفرًا، وحال يقتل قصاصًا، وحال لا يقتل أصلًا بل يعزر. أما الحالة التي يقتل فيها كفرًا فقال الشافعي رحمه الله أن يعمل بسحره ما يبلغ الكفر. وشرح أصحابه ذلك بثلاثة أمثلة – أحدها: أن يتكلم بكلام هو كفر، ولاشك أن ذلك موجب للقتل ومتى تاب منه قبلت توبته وسقط عنه القتل وهو يثبت بالإقرار وبالبينة.

المثال الثاني: أن يعتقد ما يوجب الكفر مثل التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل بأنفسها، فيجب عليه أيضًا القتل... وتقبل توبته. ولا يثبت هذا القسم إلا بالإقرار.

المثال الثالث: أن يعتقد أنه حق يقدر به على قلب الأعيان فيجب عليه القتل... ولا يثبت ذلك أيضًا إلا بالإقرار، وإذا تاب قبلت توبته وسقط عنه القتل. وأما الحالة التي يقتل فيها قصاصًا فإذا اعترف أنه قتل بسحره إنسانا... وأنه مات به

=

=

وأن سحره يقتل غالبًا فها هنا يقتل قصاصًا ولا يثبت هذه الحالة إلا الإقرار ولا يسقط القصاص بالتوبة. وأما الحالة التي لا يقتل فيها أصلًا ولكن يعزر فهي ما عدا ذلك.

وقال القرطبي: "نقل عن ابن المنذر أنه قال: "إذا أقر الرجل أنه سحر بكلام يكون كفرًا وجب قتله إن لم يتبت وكذلك لو ثبتت عليه بينة، ووصفت البينة كلامًا يكون كفرًا وإن كان الكلام الذي ذكر أنه سحر به ليس بكفر لم يجز قتله، فإن كان أحدث في المسحور جناية توجب القصاص اقتص منه إن عمد ذلك".

أدلتهم: وقد استدل الشافعي ومن وافقه على هذا القول بأدلة منها ما يلي:

- ما رواه الشافعي في مسنده من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمان أو زنا بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس".

يقول السبكي: بعد إيراد الحديث - "القتل" في الحالة الأولى بقوله "كفر بعد إيمان، وفي الحالة الثالثة بقوله "أو قتل نفس بغير نفس" وامتنع في الثانية لأنها ليست بإحدى الثلاث، فلا يحل دمه عملًا بصدر الحديث.

- ما روي عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها باعت مدبرة لها سحرتها.

وجه الدلالة: أنه لو وجب قتلها تأجل بيعها قاله ابن المنذر وغيره.

- ما ورد في الصحيحين وغيرهما: أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ فلم يقتلهفوجب أن يكون المؤمن كذلك لقوله عليه الصلاة والسلام: "لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين".

- ما وراه ابن حزم عن ربيعة بن عطاء أن "رجلًا عبدًا سحر جارية عربية فكانت تتبعه فرفع إلى عروة بن محمد وكان عامل عمر بن عبد العزيز فكتب إليه عمر بن عبد العزيز أن يبيعه بغير أرضها وأرضه ثم أمره أن يدفع ثمنه إليه" فعمر كما نرى

=

=

أمر بتعزير فقط دليل على أنه لا يقتل. وقد استدل به الشافعية على الحالة الثالثة.
مما ذكرنا يظهر - والله أعلم - أنه لا خلاف في قتل الساحر الذي بلغ بسحره الكفر أو قتل بسحره نفسًا اللهم - إلا أن الجمهور قالوا يقتل حدًا والشافعي ومن معه قالوا: يقتل كفرًا أو قصاصًا.
وإنما الخلاف في الساحر الذي لم يبلغ بسحره الكفر ولم يقتل نفسًا. فالجمهور - كما نرى- قالوا بقلته مطلقًا. والشافعي ومن معه قالوا لا يقتل، إنما يعزر. وقد رجح البعض رأي الجمهور - لاتفاق الكتاب والسنة وفعل الصحابة له من غير نكير. ولذا أجابوا عن أدلة الشافعي ومن معه بما يلي:
أما الدليل الأول: فأجيب عنه: بأن الساحر عند الجمهور كافر، ذلك أن السحر في الشرع لا يتحقق إلا بالتقرب إلى الشياطين وعبادة الكواكب ونحوه، وذلك عين الكفر، وعليه فهو حلال الدم وعلى فرض أنه ليس بكافر فإن هذا الدليل عام.
وأدلة قتل الساحر خاصة. والخاص يقضي على العام.
أما الدليل الثاني: فقيل لعل الأمة التي سحرت عائشة كان سحرها ليس فيه كفر كالأدوية ونحوها. أو أن السحر لم تعلمه وإنما عمل لها أو أنها تابت فسقط عنها القتل والكفر بتوبتها.
أما الدليل الثالث: فأجيب عنه بما يلي:
- الرسول ﷺ لم يترك قتل لبيد لأنه ليس بواجب وإنما ترك قتله خشية أن تثار فتنة بين الناس، وهي أعظم من قتل واحد. وهو ما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: "قد عافاني الله فكرهت أن أثير على الناس شرًا".
أو يكون في قتله تنفير عن الدخول في الإسلام.
قال القرطبي: "لا حجة على مالك من هذه القصة؛ لأن ترك قتل لبيد بن الأعصم كان لخشية أن يثير بسبب قتله فتنة، أو لئلا ينفر الناس عن الدخول في الإسلام

=

=

وهو من جنس ما راعاه ﷺ من منع قتل المنافقين حيث قال: " لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه".

- على فرض أنه ﷺ ترك قتله لأنه ليس بواجب فوجب أن يكون المؤمن كذلك، لقوله ﷺ: "لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم" يقال استدلال غير مسلم؛ لأن المراد بالحديث: المنقادون للدين الإسلامي فأصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ويدل على ذلك أول الحديث قال ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله... حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين" وعلى هذا فليس المراد أهل الكتاب.

وأما الدليل الرابع: فأجيب عنه بما يلي:

- أن هذا الخبر غير صحيح؛ لأنه يتنافى مع رأي عمر إذ إنه من أصحاب القول الأول.

- على فرض صحة هذا الخبر فإنه مؤول بالسحر المجازي الذي يقوم على حسن البيان ونعومة الألفاظ التي تستمال بها القلوب. وهو ما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: "إن من البيان لسحرا". ويؤكد ذلك استدلال الشافعية به على الحالة الثالثة، وهي التعزير. ورجح البعض رأي الشافعي ومن معه، بأن دماء المسلمين حرام إلا بيقين ولا يقين مع الإختلاف وأقول: الذي يظهر- والله أعلم- أن الخلاف بين الجمهور والشافعي ومن معه فيما يتأتى به السحر الحقيقي. فالجمهور: يرون أن السحر الحقيقي لايتأتى إلا بالتقرب إلى الشياطين وعبادة الكواكب ونحو ذلك، وذلك عين الكفر. ولذا كان حقه القتل مطلقًا والشافعي ومن معه يظنون أنه يتأتى بدون الشرك ولذا فصّلوا فيه. والحق أن السحر أنواع، الأول: ماله حقيقة والثاني سحر التخييل وهذان يطلق عليهما السحر الحقيقي، ولا يتأتيان إلا بقول أو فعل

=

=

أواعتقاد مكفر كالتقرب إلى الشياطين وعبادة الكواكب ونحو ذلك ولذا فهو كفر يقتل صاحبه.

الثالث: السحر المجازي: وهذا يتأتى بالأدوية وبالكلام وخفة الحركة ونحو ذلك ولذا فهو ليس بكفر بل معصية حق صاحبها التعزير إذا لم يقتل نفسًا والله أعلم.

حكم المرأة الساحرة: اختلف في حكمها. فذهب الأئمة الثلاثة أحمد والشافعي ومالك إلى أن حكم المرأة الساحرة حكم الرجل.

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن حكمها الحبس حتى ترجع إلى الإسلام بالتوبة، لأنها مرتدة أو تموت.

والأظهر - والله أعلم - الأول: بدليل قول عمر: "اقتلوا كل ساحر وساحرة" حيث لم يفرق بينهما، ولأن لفظ من في قوله: ﷺ: " من بدل دينه فاقتلوه" تشمل الأنثى على أظهر القولين وأصحهما إن شاء الله تعالى.

مسألة: حكم ساحر أهل الكتاب.

ذهب الإمام أبوحنيفة إليأنه يقتل لعموم ما تقدم من الأخبار التي دلت على قتل الساحر المسلم ولأنه جناية أوجبت قتل المسلم فأوجبت قتل الذمي كالقتل.

وذهب الأئمة الثلاثة: مالك والشافعي وأحمد، وابن شهاب الزهري إليأنه لا يُقتل إلا أن يقتل بسحره، وهو مما يقتل غالبًا لما يلي:

- أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ فلم يقتله

- أن الكتابي مشرك، والشرك أعظم من السحر ولا يقتل به وقد رجح البعض رأي الجمهور، ولذا أجابوا عن أدله أبي حنيفة بما يلي:

- أما الأخبار التي وردت في قتل الساحر المسلم، فلأن المسلم يكفر بسحره. والكتابي كافر أصلي.

- أما قوله "بأن السحر جناية أوجبت قتل المسلم فأوجبت قتل الذمي، كالقتل.

=

=

فيقال: هذا القياس ينتقض باعتقاد الكفر والتكلم به. وينتقض بالزنى من المحصن فإنه لا يقتل به الذمي ويقتل به المسلم.

- ورجح البعض رأي أبي حنيفة وأجابوا عن استدلال الجمهور بقصة لبيد أنه ﷺ لم يقتله، لأنه لا ينتقم لنفسه، ولأنه خشي أن تثور بسبب قتله فتنه، ولئلا يكون في قتله تنفير عن الإسلام. ولعل قول الجمهور أولى، لأنه غير مسلم فلا يؤاخذ بمخالفة تعاليم الإسلام. ما لم يكن في ذلك نقض للعهد.

مسألة: توبة الساحر.

ذكرنا آنفا عند الكلام على عقوبة الساحر أن مذهب الإمام أبي حنيفة، ومالك وأبي ثور ورواية عن أحمد، وعدد من كبار الصحابة، وجماعة من التابعين أن الساحر يقتل بدون استتابة وذكرنا جملة من أقوالهم التي تؤكد ذلك وقد استدلوا على ذلك بأدلة منها:

الأول: قوله تعالى: {فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا... الآية} وجه الدلالة: أن الآية دلت على أن الكفار لاينفعهم الإيمان بعد رؤية العذاب. فكذلك الساحر بعد الشهادة عليه قد رأى البأس فلا ينفعه الإيمان ولا تقبل توبته،

الثاني: قوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا... إلى قوله تعالى- إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وجه الدلالة: أن الله أطلق في هذه الآية الحكم على المحاربين والذين يسعون في الأرض فسادًا إلا من تاب قبل أن يقدر عليه. ومثل ذلك الساحر، إذ هو من الذين يسعون في الأرض بالفساد - إذا تاب قبل أن يقدر عليه قبلت توبته وإلا فلا.

الثالث: فعل الصحابة في السحرة حيث قتلوهم من غير استتابة.

الرابع: أن السحر أمر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزنديق.

=

=

الخامس: أن السحر معنى في القلب، وعلم لا يزول بالتوبة، فيشبه من لم يتب.

وذهب الإمام الشافعي، ورواية عن الإمام أحمد إلى أن الساحر يستتاب ويمهل ثلاثة أيام فإن تاب قبلت منه.

وقد استدلوا بأدلة منها:

الأول: قوله تعالى {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ}.

وجه الدلالة: أن الله تعالى علق الغفران على الانتهاء عن الكفر والانتهاء لا يكون إلا بالتوبة. وعليه فالسحر كغيره من أنواع الكفر الانتهاء عنه بالتوبة سبب للمغفرة.

الثاني: قوله تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

وجه الدلالة: الآيات تدل على الوعيد باللعنة والخلود بالنار للمرتد، إلا من تاب وذلك دليل على قبول توبة المرتد. وإذا كان كذلك فالساحر كغيره من المرتدين يستتاب وتقبل توبته.

يقول القرطبي:" ويدخل في الآية بالمعنى كل من راجع الإسلام وأخلص"..

الثالث: أن الله تعالى قد أخبر أن سحرة فرعون قد آمنوا وقبل توبتهم، قال تعالى عنهم: {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ... } الآية وعليه فإن المعرفة بالسحر لا تمنع قبول التوبة.

الرابع: أن ذنب الساحر ليس بأعظم من الشرك، والمشرك يستتاب.

الخامس: أن الساحر لو كان كافرًا فأسلم صح إسلامه وتوبته.

=

=

السادس: أن الكفر والقتل إنما هو بعمله السحر لا بعلمه بدليل الساحر إذا أسلم. والعمل به يمكن التوبة منه، وكذلك اعتقاد ما يكفر باعتقاده يمكن التوبة منه كالشرك ولعل القول الأول هو الأولى لظاهر عمل الصحابة، وأما قياسه على المشرك فلا يصح لأنه أكثر فسادًا وكذلك لا يصح قياسه على ساحر أهل الكتاب أو الكافر لأن الإسلام يجب ما قبله.

وهذا الخلاف - إنما هو في ثبوت حكم التوبة في الدنيا من سقوط القتل ونحوه. أما فيما بينه وبين الله تعالى وسقوط عقوبة الدار الآخرة عنه فلا خلاف في صحة توبته إن كان صادقًا فإن الله تعالى لم يسد باب التوبة عن أحد من خلقه، ومن تاب إلى الله قبل توبته لا خلاف في ذلك.

مسألة: هل يجوز الذهاب للسحرة بغرض حل السحر عن المسحور؟.

اختلفت أقوال الناس في ذلك فمنهم من قال بالجواز إذا كان الغرض الإصلاح لا الإفساد ومنهم من قال بأنه لايجوز إطلاقًا الذهاب إليهم بأي شكل من الأشكال.

وإذا نظرت إلى نصوص الشريعة تجد أنها جاءت واضحة في بيان النهي عن الذهاب للسحرة سواء كان للإفساد أو الإصلاح.

فلا يجوز حل السحر بالسحر، وإنما يحل السحر بالقرآن الكريم والأدعية النبوية، والأدوية المباحة.

أما السحر فهو كفر، فلا يجوز فعله، ولا الذهاب إلى الساحر طلبا للشفاء، وقد سئل النبي ﷺ عن النشرة وهي حل السحر فقال: (هو من عمل الشيطان) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٤)، وعبد الرزاق (١٩٧٦٢)، وأبو داود (٣٨٦٨)، والبيهقي (٩/ ٣٥١)، والمزي في تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٤١)، وعلقه البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٥٣) من حديث جابر رضي الله عنه، والحديث قال عنه البيهقي: روي مرسلا وهو أصح، وقال الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (ص٩٤، رقم ٨٨): إذا

=

=

نظرت إلى رجال هذا الحديث وجدتهم رجال الصحيح إلا عقيل بن معقل وقد وثقه ابن معين ولكن العلائي في جامع التحصيل يقول في ترجمة وهب: قال ابن معين: لم يلق جابر بن عبد الله إنما هو كتاب، وقال في موضع آخر هو صحيفة ليست بشيء، أما النووي فقال في المجموع (٩/ ٦٧): إسناده صحيح، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٦٣): إسناده جيد، وكذا قال العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٣/ ٢٨٠)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٧٦٠)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٢/ ٤٠): إسناده صحيح.

قال الإمام ابن القيم في فتاوى إمام المفتين (ص٢٠٧، ٢٠٨): والنشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: حل سحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، فإن السحر من عمله، فيتقرب إليه الناشر والمنتشر بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة، فهذا جائز، بل مستحب " انتهى.

وقال العلامة العثيمين في "القول المفيد" (٢/ ٧٠): "وهذا الحديث بين فيه الرسول ﷺ حكم النشرة، وأنها من عمل الشيطان، وهذا يغني عن قوله إنها حرام، بل هذا أشد من قوله إنها حرام، لأن ربطها بعمل الشياطين يقتضي تقبيحها، والتنفير عنها، فهي محرمة " انتهى.

وقد حكى بعض أهل العلم عن سعيد بن المسيب رحمه الله أنه يرى جواز حل السحر بالسحر للضرورة(.

قال البخاري في صحيحه (باب هل يستخرج السحر) وقال قتادة قلت لسعيد بن المسيب رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر قال لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه.

=

=

قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٣): كذا أورد الترجمة بالاستفهام إشارة إلى الاختلاف وصدر بما نقله عن سعيد بن المسيب من الجواز إشارة إلى ترجيحه قوله وقال قتادة قلت لسعيد بن المسيب الخ وصله أبو بكر الأثرم في كتاب السنن من طريق أبان العطار عن قتادة ومثله من طريق هشام الدستوائي عن قتادة بلفظ يلتمس من يداويه فقال إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع وأخرجه الطبري في التهذيب من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأسا إذا كان بالرجل سحر أن يمشي إلى من يطلق عنه فقال هو صلاح قال قتادة وكان الحسن يكره ذلك يقول لا يعلم ذلك إلا ساحر قال فقال سعيد بن المسيب إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع وقد أخرج أبو داود في المراسيل عن الحسن رفعه النشرة من عمل الشيطان ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر قال بن الجوزي النشرة حل السحر عن المسحور ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر وقد سئل أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور فقال لا بأس به وهذا هو المعتمد ويجاب عن الحديث والأثر بأن قوله النشرة من عمل الشيطان إشارة إلى أصلها ويختلف الحكم بالقصد فمن قصد بها خيرا كان خيرا وإلا فهو شر ثم الحصر المنقول عن الحسن ليس على ظاهره لأنه قد ينحل بالرقى والأدعية والتعويذ ولكن يحتمل أن تكون النشرة نوعين ا. هـ

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٧٢): هل يسأل الساحر حل سحره؟ فأجاز سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري، وقال عامر الشعبي: لا بأس بالنشرة، وكره ذلك الحسن البصري، وفي الصحيح عن عائشة: أنها قالت: يا رسول الله، هلا تنشرت، فقال: "أما الله فقد شفاني، وخشيت أن أفتح على الناس شرا" وحكى القرطبي عن وهب: أنه قال: يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم

=

=

يغتسل بباقيه فإنه يذهب ما به، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته.

قلت: أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله ﷺ في إذهاب ذلك وهما المعوذتان، وفي الحديث: "لم يتعوذ المتعوذون بمثلهما" وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان ا. هـ

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٦/ ١/ ٦١١، ٦١٣ - ٦١٥): و" النشرة ": الرقية. قال الخطابي: " النشرة: ضرب من الرقية والعلاج، يعالج به من كان يظن به مس الجن ".

قلت: يعني الرقى غير المشروعة، وهي ما ليس من القرآن والسنة الصحيحة وهي التي جاء إطلاق لفظ الشرك عليها في غير ما حديث، وقد يكون الشرك مضمرًا في بعض الكلمات المجهولة المعنى، أو مرموزًا له بأحرف مقطعة، كما يرى في بعض الحجب الصادرة من بعض الدجاجلة، وعلى الرقى المشروعة يحمل ما علقه البخاري عن قتادة قال: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب (أي سحر) أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه. ووصله الحافظ في " الفتح " (١٠/ ٢٣٣) من رواية الأثرم وغيره من طرق عن قتادة عنه. ورواية قتادة أخرجها ابن أبي شيبة (٨/ ٢٨) بسند صحيح عنه مختصرًا.

هذا ولا خلاف عندي بين الأثرين، فأثر الحسن يحمل على الاستعانة بالجن والشياطين والوسائل المرضية لهم كالذبح لهم ونحوه، وهو المراد بالحديث، وأثر سعيد على الاستعانة بالرقى والتعاويذ المشروعة بالكتاب والسنة، وإلى هذا مال البيهقي في " السنن "، وهو المراد بما ذكره الحافظ عن الإمام أحمد أنه سئل عمن يطلق السحر عن المسحور؟ فقال: " لا بأس به ".وأما قول الحافظ: " ويختلف الحكم بالقصد، فمن قصد بها خيرا، وإلا فهو شر ".

=

=

قلت: هذا لا يكفي في التفريق، لأنه قد يجتمع قصد الخير مع كون الوسيلة إليه شر، كما قيل في المرأة الفاجرة:

ككفالة الأيتام من كسب فرجها... لكِ الويل لا تزني ولا تتصدقي.

ومن هذا القبيل معالجة بعض المتظاهرين بالصلاح للناس بما يسمونه بـ "الطب الروحاني " سواء كان ذلك على الطريقة القديمة من اتصاله بقرينة من الجن كما كانوا عليه في الجاهلية، أو بطريقة ما يسمى اليوم باستحضار الأرواح، ونحوه عندي التنويم المغناطيسي، فإن ذلك كله من الوسائل التي لا تشرع لأن مرجعها إلى الاستعانة بالجن التي كانت من أسباب ضلال المشركين كما جاء في القرآن الكريم: {وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا} أي خوفا وإثمًا، وادعاء بعض المبتلين بالاستعانة بهم أنهم إنما يستعينون بالصالحين منهم، دعوى كاذبة لأنهم مما لا يمكن - عادة - مخالطتهم ومعاشرتهم، التي تكشف عن صلاحهم أو طلاحهم، ونحن نعلم بالتجربة أن كثيرًا ممن تصاحبهم أشد المصاحبة من الإنس، يتبين لك أنهم لا يصلحون، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم} هذا في الإنس الظاهر، فما بالك بالجن الذين قال الله تعالى فيهم: {إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم}.

وقال العلامة العثيمين في القول المفيد (٢/ ٧٣): " ولكن على كل حال حتى ولو كان ابن المسيب، ومن فوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز، فلا يلزم من ذلك أن يكون جائزا في حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنة، وقد سئل الرسول ﷺ عن النشرة، فقال: (هي من عمل الشيطان) انتهى.

وقد فهم بعضهم من تجويز الإمام أحمد للنشرة أنه أجاز حل السحر بالسحر، وإنما كلامه رحمه الله في الرقية الشرعية المباحة.

=

=

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في "تيسير العزيز الحميد" (٤١٩): "وكذلك ما روي عن الإمام أحمد من إجازة النشرة، فإنه محمول على ذلك -أي النشرة بالرقية الشرعية- وغلط من ظن أنه أجاز النشرة السحرية، وليس في كلامه ما يدل على ذلك، بل لما سئل عن الرجل يحل السحر قال: قد رخص فيه بعض الناس. قيل: إنه يجعل في الطنجير ماء ويغيب فيه، فنفض يده وقال: لا أدري ما هذا! قيل له: أفترى أن يؤتى مثل هذا؟ قال: لا أدري ما هذا. وهذا صريح في النهي عن النشرة على الوجه المكروه، وكيف وهو الذي روى الحديث (أنها من عمل الشيطان)، لكن لما كان لفظ النشرة مشتركا بين الجائزة والتي من عمل الشيطان ورأوه قد أجاز النشرة ظنوا أنه قد أجاز التي من عمل الشيطان، وحاشاه من ذلك" انتهى.

وقد صرح كثير من العلماء بتحريم حل السحر بالسحر، وأن الضرورة لا تبيح ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والمسلمون وإن تنازعوا في جواز التداوي بالمحرمات كالميتة والخنزير، فلا يتنازعون في أن الكفر والشرك لا يجوز التداوي به بحال، لأن ذلك محرم في كل حال، وليس هذا كالتكلم به عند الإكراه، فإن ذلك إنما يجوز إذا كان قلبه مطمئنا بالإيمان، والتكلم به إنما يؤثر إذا كان بقلب صاحبه، ولو تكلم به مع طمأنينة قلبه بالإيمان لم يؤثر، والشيطان إذا عرف أن صاحبه مستخف بالعزائم لم يساعده، وأيضا فإن المكره مضطر إلى التكلم له ولا ضرورة إلى إبراء المصاب به لوجهين:

أحدهما: أنه قد لا يؤثر أكثر مما يؤثر من يعالج بالعزائم، فلا يؤثر، بل يزيده شرا.

والثاني: أن في الحق ما يغني عن الباطل " انتهى من مجموع الفتاوى (١٩/ ٦١).

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: " قال بعض الحنابلة: يجوز الحل بسحر

=

=

للضرورة ٠ والقول الآخر أنه لا يحل، وهذا الثاني هو الصحيح....... والسحر حرام وكفر، أفيعمل الكفر لتحيا نفوس مريضة أو مصابة! " انتهى من "فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم" (١/ ١٦٥).

وقال الشنقيطي في أضواء البيان (٤/ ٤٦٥): التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه في هذه المسألة: أن استخراج السحر إن كان بالقرآن كالمعوذتين، وآية الكرسي، ونحو ذلك مما تجوز الرقية به فلا مانع من ذلك، وإن كان بسحر أو ألفاظ أعجمية أو بما لا يفهم معناه، أو بنوع آخر مما لا يجوز فإنه ممنوع، وهذا واضح، وهو الصواب إن شاء الله تعالى كما ترى انتهى.

وسئل العلامة ابن باز رحمه الله عن حكم علاج السحر بالسحر عند الضرورة؟

فأجاب: "لا يجوز علاج السحر بالسحر، لأن النبي ﷺ سئل عن النشرة فقال: (هي من عمل الشيطان) والنشرة هي حل السحر بالسحر؛ ولأن حلها بالسحر يتضمن دعوة الجن والاستعانة بهم، وهذا من الشرك الأكبر؛ ولهذا أخبر الله سبحانه عن الملكين أنهما يقولان لمن يريد التعلم منهما ما نصه: (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) البقرة/ ١٠٢، وقبلها قوله تعالى: (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) البقرة/ ١٠٢. ثم قال سبحانه: (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الأخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون *ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) البقرة/ ١٠٣،١٠٢.

وفي هاتين الآيتين تحذير من تعلم السحر وتعليمه من وجوه كثيرة، منها: أنه من

=

=

عمل الشيطان، ومنها: أن تعلمه كفر ينافي الإيمان، ومنها: أنه قد يحصل به التفريق بين المرء وزوجه، وهذا من أعظم الظلم والفساد في الأرض، ومنها: أنه لا يقع شيء من الضرر ولا غيره إلا بإذن الله، والمراد بالإذن هنا الإذن الكوني القدري، ومنها: أن هذا التعلم يضرهم ولا ينفعهم، ومنها: أن من فعله ليس له عند الله من خلاق • والمعنى: ليس له حظ ولا نصيب من الخير • وهذا وعيد عظيم يوجب الحذر من تعلم السحر وتعليمه، ومنها: ذمه سبحانه من تعاطي هذا السحر بقوله تعالى: (ولبئس ما شروا به أنفسهم) والمراد بالشراء هنا البيع •• ومنها: إخباره سبحانه أن هذا العمل ينافي الإيمان والتقوى.

وبهذه الوجوه يظهر لكل مسلم شدة تحريم تعلم السحر وتعليمه، وكثرة ما فيه من الفساد والضرر، وأنه مع هذا كفر بعد الإيمان، وردة عن الإسلام، نعوذ بالله من ذلك، فالواجب الحذر من ذلك، وأن يكتفي المسلم بالعلاج الشرعي وبالأدوية المباحة بدلا من العلاج بما حرمه الله عليه شرعا، والله ولي التوفيق " انتهى.

وسئلت اللجنة الدائمة عن حكم حل السحر بسحر مثله.

فأجابت: "لا يجوز ذلك، والأصل فيه ما رواه الإمام أحمد وأبو داود بسنده عن جابر رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ عن النشرة فقال: (هي من عمل الشيطان).

وفي الأدوية الطبيعية، والأدعية الشرعية، ما فيه كفاية: (فإن الله ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله)، وقد أمر رسول الله ﷺ بالتداوي، ونهى عن التداوي بالمحرم، فقال ﷺ: (تداووا ولا تتداووا بحرام)، وروي عنه ﷺ أنه قال: (إن الله لم يجعل شفاءكم في حرام) " انتهى • "فتاوى مهمة لعموم الأمة" (١٠٧،١٠٦) •

وقال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين حفظه الله: "لا يجوز حل السحر بسحر مثله، وذلك بأن يطلب من الساحر نفسه أن يبطل عمله الذي هو السحر،

=

=

فإن في ذلك إقرارا له، وإبقاء لعمله، مع أن الواجب قتله متى عرف وتحقق أنه ساحر، فإن حده ضربة بالسيف، وكذا لا يجوز الذهاب إلى ساحر آخر لطلب حل ذلك السحر لما في ذلك من إبقائه وتقريره الذي هو كرضى بفعله " انتهى.

وسئل الدكتور صالح الفوزان حفظه الله"كما في المنتقى من فتاواه (٢/ ١٣٢،١٣٣ عن حكم حل السحر بسحر مثله؟

فأجاب: "أما قضية حل السحر بسحر مثله فقد نص كثير من العلماء على أن ذلك لا يجوز، لأن التداوي إنما يكون بالحلال والمباح، ولم يجعل الله شفاء المسلمين فيما حرم عليهم، وقال النبي ﷺ: (تداووا ولا تداووا بحرام) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم)، ومن أعظم المحرمات السحر فلا يجوز التداوي به ولا حل السحر به، وإنما السحر يحل بالأدوية المباحة وبالآيات القرآنية والأدعية المأثورة،هذا الذي يجوز حل السحر به " انتهى.

(**تنبيه**): الرقية الشرعية هي ما اجتمع فيها ثلاثة أمور:

١ - أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته أو المأثور عن النبي ﷺ.

٢ - ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية شرطا وهو أن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه: فكل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقي به فضلا عن أن يدعو به ولو عرف معناه لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعارا فليس من دين الإسلام.

٣ - أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى.

فإذا كانت هذه الشروط الثلاثة مجتمعة في الرقية فهي الرقية الشرعية، وقد قال ﷺ: " لا بأس بالرقى ما لم تكن شركا ". رواه مسلم.

وإن أنفع الرقية وأكثرها تأثيرا رقية الإنسان نفسه، وذلك لما ورد في النصوص

=

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧).

{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي} بِهَمْزَةِ قَطْع مِنْ أَسْرَى وَبِهَمْزَةِ وَصْل وَكَسْر النُّون مِنْ سَرَى لُغَتَانِ أَيْ سِرْ بِهِمْ لَيْلًا مِنْ أَرْض مِصْر {فَاضْرِبْ لَهُمْ} اجْعَلْ لَهُمْ بِالضَّرْبِ بِعَصَاك {طَرِيقًا فِي الْبَحْر يَبَسًا} أَيْ يَابِسًا فَامْتَثَلَ مَا أُمِرَ بِهِ وَأَيْبَسَ الله الْأَرْض فَمَرُّوا فيها {لَا تَخَاف دَرَكًا} أَيْ أَنْ يُدْرِكك فِرْعَوْن {وَلَا تَخْشَى} غَرَقًا.

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨).

{فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْن بِجُنُودِهِ} وَهُوَ مَعَهُمْ {فَغَشِيَهُمْ مِنْ اليم} أي البحر {ما غشيهم} أغرقهم.

وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩).

{وَأَضَلَّ فِرْعَوْن قَوْمه} بِدُعَائِهِمْ إِلَى عِبَادَته {وَمَا هَدَى} بَلْ أَوْقَعَهُمْ فِي الْهَلَاك خِلَاف قَوْله {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيل الرَّشَاد}.

يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠).

{يَا بَنِي إِسْرَائِيل قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوّكُمْ} فِرْعَوْن بِإِغْرَاقِهِ {وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِب الطُّور الْأَيْمَن} فَنُؤْتِي مُوسَى التَّوْرَاة لِلْعَمَلِ بِهَا {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنّ وَالسَّلْوَى} هُمَا الترنجبين وَالطَّيْر السُّمَانَى بِتَخْفِيفِ الْمِيم وَالْقَصْر وَالْمُنَادَى مَنْ

=

على عكس ما اشتهر عند كثير من الناس من البحث عن قارئ ولو كان عاميا أو مشعوذا.

وُجِدَ مِنْ الْيَهُود زَمَن النَّبِيّ ﷺ وَخُوطِبُوا بِمَا أَنْعَمَ الله بِهِ عَلَى أَجْدَادهمْ زَمَن النَّبِيّ مُوسَى تَوْطِئَة لِقَوْلِهِ تَعَالَى لَهُمْ.

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١).

{كُلُوا مِنْ طَيِّبَات مَا رَزَقْنَاكُمْ} أَيْ الْمُنْعَم بِهِ عَلَيْكُمْ {وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ} بِأَنْ تَكْفُرُوا النِّعْمَة بِهِ {فَيَحِلّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي} بِكَسْرِ الْحَاء أَيْ يَجِب وَبِضَمِّهَا أَيْ يَنْزِل {وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي} بِكَسْرِ اللَّام وَضَمّهَا {فَقَدْ هَوَى} سَقَطَ فِي النَّار.

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢).

{وَإِنِّي لَغَفَّار لِمَنْ تَابَ} مِنْ الشِّرْك {وَآمَنَ} وَحَّدَ الله {وَعَمِلَ صَالِحًا} يَصْدُق بِالْفَرْضِ وَالنَّفْل {ثُمَّ اهْتَدَى} بِاسْتِمْرَارِهِ عَلَى مَا ذُكِرَ إِلَى موته[1].

---

(١) لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل ويريه الله من الآيات والعبر، ما قصه الله علينا في القرآن، وبنو إسرائيل لا يقدرون أن يظهروا إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم، ويمكن لهم في الأرض ليعبدوه جهرا، ويقيموا أمره، فأوحى إلى نبيه موسى أن سر أو سيروا أول الليل.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي} [طه: ٧٧]، أي:" ولقد أوحينا إلى موسى: أن اخرُج ليلا بعبادي من بني إسرائيل من «مصر» ".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره {ولقد أوحينا إلى} نبينا {موسى} إذ تابعنا له =

=

الحجج على فرعون، فأبى أن يستجيب لأمر ربه، وطغى وتمادى في طغيانه {أن أسر} ليلا بعبادي من بني إسرائيل".

قوله تعالى: {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا} [طه: ٧٧]، أي:" فاتَّخِذْ لهم في البحر طريقًا يابسًا".

قال الطبري:" يقول: فاتخذ لهم في البحر طريقا يابسا".

عن مجاهد، قوله:" {يبسا}، قال: يابسا".

قال الحسن، في قوله: " {فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا}: أتاه جبريلُ على فرس، فأمره أن يضرب البحر بعصاه، فصار طريقًا يبسًا".

عن محمد بن كعب القرظي، في قوله: " {فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا}، قال: يابِسًا، ليس فيه ماء ولا طين".

عن محمد بن إسحاق -من طريق عبيد الله بن سعد القرشي، عن عمِّه، عن أبيه- في قوله: " {فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم} [الشعراء: ٦٣]، قال: عن يَبَس مِن الأرض. يقول الله - ﷻ - لموسى: {فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى}، فلما شقَّ له البحر عن طريق قاعه يَبِسَ تَلا موسى ببني إسرائيل، فاتبعه فرعون وجنوده".

قال ابن كثير:" وقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه أن {اضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا} فضرب البحر بعصاه، وقال: «انفلق بإذن الله»، {فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [الشعراء: ٦٣] أي: الجبل العظيم. فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض".

قوله تعالى: {لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [طه: ٧٧]، أي:" لا تخاف من فرعون وجنوده أن يلحقوكم فيدركوكم، ولا تخشى في البحر غرقًا".

=

=

قال الطبري:" يعني: لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدركوك من ورائك، ولا تخشى غرقا من بين يديك ووحلا".

قال مقاتل:" بني إسرائيل قالوا لموسى: هذا فرعون قد لحقنا بالجنود وهذا البحر قد غشينا فليس لنا منفذ".

قال ابن كثير:" {لا تَخَافُ دَرَكًا}، أي: من فرعون، {وَلا تَخْشَى}، يعني: من البحر أن يغرق قومك".

عن ابن جريج -من طريق حجّاج- قال: "قال أصحاب موسى: هذا فرعون قد أدركنا، وهذا البحر قد عَمَّنا. فأنزل الله: {ولا تخاف دركا} مِن آل فرعون، {ولا تخشى} مِن البحر غرقًا ولا وحَلًا".

قال ابن عباس:" {لا تخاف} من آل فرعون {دركا ولا تخشى} من البحر غرقا".

قال قتادة:" لا تخاف أن يدركك فرعون من بعدك ولا تخشى الغرق أمامك".

عن هشيم:" عن بعض أصحابه، في قوله {لا تخاف دركا ولا تخشى}، قال: الوحل".

قال الآلوسى ما ملخصه: وقوله-سبحانه-: وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي ... حكاية إجمالية لما انتهى اليه أمر فرعون وقومه، وقد طوى-سبحانه- ذكر ما جرى عليهم بعد أن تغلب موسى على السحرة.. وبعد أن مكث موسى يبلغهم دعوة الله تعالى مدة طويلة ويطلب منهم إرسال بنى إسرائيل معه».

وصدرت الآية الكريمة باللام الموطئة للقسم وبقد تأكيدا لهذا الإيحاء، وتقريرا له ...

أى: والله لقد أوحينا إلى عبدنا موسى- عليه السلام وقلنا له: سر بعبادي من بنى إسرائيل في أول الليل متجها بهم من مصر إلى البحر الأحمر فإذا ما وصلت إليه، فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا.

=

=

أى: فاجعل لهم طريقا في البحر يابسا، فالضرب هنا بمعنى الجعل كما في قولهم: ضرب له في ماله سهما. إذا جعل له سهما.

والمراد بالطريق جنسه فإن الطرق التي حدثت بعد أن ضرب موسى بعصاه البحر. كانت اثنى عشر طريقا بعدد أسباط بنى إسرائيل.

وعبر -سبحانه- عن بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى بعنوان العبودية لله تعالى للإشعار بعطفه- ﷻ عليهم ورحمته بهم، وللتنبيه على طغيان فرعون حيث استعبد واستذل عبادا للخالق -سبحانه- وجعلهم عبيدا له..

قال الجمل: «وقوله يَبَسًا صفة لقوله طَرِيقًا وصف به لما يؤول إليه، لأنه لم يكن يبسا بعد. وإنما مرت عليه الصبا فجففته. وقيل: هو في الأصل مصدر وصف به للمبالغة، أو على حذف مضاف، أو جمع يابس كخادم وخدم وصف به الواحد مبالغة».

وقوله -سبحانه-: لا تَخافُ دَرَكًا وَلا تَخْشى تذييل قصد به تثبيت فؤاد موسى- عليه السلام وإدخال الطمأنينة على قلبه.

والدرك: اسم مصدر بمعنى الإدراك. والجملة في محل نصب على الحال من فاعل «اضرب».

أى: اضرب لهم طريقا في البحر يابسا، حالة كونك غير خائف من أن يدركك فرعون وجنوده من الخلف، وغير وجل من أن يغرقكم البحر من أمامكم.

قال مجاهد قوله (يبسا)، قال: يابسا.

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (لا تخاف دركا ولا تخشى) يقول: (لا تخاف) من آل فرعون (دركا ولا تخشى) من البحر غرقا.

فالآية الكريمة قد اشتملت على كل ما من شأنه أن يغرس الأمان والاطمئنان في قلب موسى ومن معه.

=

=

ثم بين-سبحانه- موقف فرعون بعد أن علم بأن موسى قد خرج بقومه من مصر فقال تعالى: فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ.

قوله تعالى: {فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ} [طه: ٧٨]، أي:" فأسرى موسى ببني إسرائيل، وعبر بهم طريقًا في البحر، فأتبعهم فرعون بجنوده".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فسرى موسى ببني إسرائيل إذ أوحينا إليه أن أسر بهم، فأتبعهم فرعون بجنوده حين قطعوا البحر".

قال وهب بن مُنَبِّه: "استعار بنو إسرائيل حليًّا كثيرًا مِن القبط، ثم خرج بهم موسى في أول الليل، وكانوا سبعين ألفًا، فأُخْبِر فرعونُ بذلك، فركب في ستمائة ألف مِن القِبْط، يقصُّ أثرَ موسى".

قوله تعالى: {فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ} [طه: ٧٨]، أي:" فغمرهم من الماء ما لا يعلم كنهه إلا الله".

قال مقاتل:" يعنى: الغرق".

قال الطبري:" فغشي فرعون وجنده في اليم ما غشيهم، فغرقوا جميعا".

قال ابن كثير:" {فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ}، أي: البحر {مَا غَشِيَهُمْ}، أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى} [النجم: ٥٣، ٥٤]، وكما قال الشاعر:

أَنَا أَبُو النَّجْم وشِعْري شِعْري

أي: الذي يعرف، وهو مشهور.".

قال السدي:" اليم: البحر".

أى: وبعد أن علم فرعون بخروج موسى وبنى إسرائيل من مصر، جمع جنوده وأسرع في طلب موسى ومن معه، فكانت نتيجة ذلك، أن أغرق الله تعالى فرعون وجنوده في البحر. وأهلكهم عن آخرهم ...

=

=

والتعبير بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ يدل على تعظيم ما غشيهم وتهويله، أي: فعلاهم وغمرهم من ماء البحر ما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى بحيث صاروا جميعا في طيات أمواجه.

ونظيره قوله تعالى: إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى وقوله: فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى.

قال الزمخشري: قوله تعالى: ما غَشِيَهُمْ من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة. أى: غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله تعالى وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم، والتغشية: التغطية ....

وقوله-سبحانه-: وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى بيان لحال فرعون قبل أن يهلكه الله تعالى بالغرق.

قوله تعالى: {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩)} [طه: ٧٩]

قال مقاتل: أي:" القبط، ما هداهم، وذلك أن فرعون قال لقومه في حم المؤمن: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: ٢٩]، فأضلهم ولم يهدهم".

قال الطبري: يقول:" وجاوز فرعون بقومه عن سواء السبيل، وأخذ بهم على غير استقامة، وذلك أنه سلك بهم طريق أهل النار، بأمرهم بالكفر بالله، وتكذيب رسله، وما سلك بهم الطريق المستقيم، وذلك أنه نهاهم عن اتباع رسول الله موسى، والتصديق به، فأطاعوه، فلم يهدهم بأمره إياهم بذلك، ولم يهتدوا باتباعهم إياه".

قال النحاس:" أي: أضلهم عن الرشد، وما هداهم إلى خير ولا نجاة لأنه قدر أن موسى ﷺ ومن تبعه لا يفوتونه لأن بين أيديهم البحر، فلما ضرب موسى ﷺ البحر بعصاه انفلق منه اثنا عشر طريقا، وبين الطرق الماء قائما كالجبال. فأخذ كل سبط طريقا، فلما أقبل فرعون ورأى الطرق في البحر والماء قائما أوهمهم أن

=

=

البحر فعل ذلك لهيبته فدخل هو وأصحابه فانطبق البحر عليهم".

قال ابن كثير:" وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ} [هود: ٩٨] ".

عن ابن عباس في قوله: {وَما هَدى}، "يريد ما أرشد نفسه".

قال الزمخشري:" قوله: {وَما هَدى}، تهكم به في قوله: {وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ} ".

أى: وأضل فرعون في حياته قومه عن طريق الحق، وما هداهم إليها وإنما هداهم إلى طريق الغي والباطل، فكانت عاقبتهم جميعا الاستئصال والدمار.

وما اشتملت عليه الآيتان من إجمال بالنسبة لتلك الأحداث، قد جاء مفصلا في آيات أخرى ومن ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ. فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ. إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ. فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ. كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ. فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ. فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ. فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ. وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ.

ثم ذكر -سبحانه- بنى إسرائيل بنعمه عليهم فقال: يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ فرعون وجنده، بأن أغرقناهم أمام أعينكم وأنتم تنظرون إليهم، بعد أن كانوا يسومونكم سوء العذاب.

وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ أى: وواعدنا نبيكم موسى في هذا المكان

=

=

لإعطائه التوراة لهدايتكم وإصلاح شأنكم، وهذا الوعد هو المشار إليه بقوله تعالى: وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً.

قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ} [طه: ٨٠]، أي:" يا بني إسرائيل اذكروا حين أنجيناكم مِن عدوكم فرعون".

قال ابن كثير:" يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام، ومننه الجسام، حيث نَجَّاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال تعالى: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} [البقرة: ٥٠] ".

قال الزمخشري: {يا بَنِي إِسْرائِيل}، "خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك آل فرعون. وقيل: هو للذين كانوا منهم في عهد رسول الله ﷺ منّ الله عليهم بما فعل بآبائهم والوجه هو الأوّل، أى: قلنا يا بنى إسرائيل، وحذف القول كثير في القرآن".

قال ابن عباس: (ثم ذكر الله تعالى منته على بني إسرائيل فقال: {بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ} يعني فرعون أغرقه بمرآى منهم".

عن ابن عباس قال: "لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه» ".

وقرئ: «أنجيتكم».

قوله تعالى: {وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ} [طه: ٨٠]، أي:" وجَعَلْنا موعدكم الجانب الأيمن من جبل الطور لإنزال التوراة عليكم".

قال النحاس:" أي: أمرنا موسى ﷺ أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام".

=

=

قال ابن كثير:" ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك. وفي غُضُون ذلك عَبَدَ بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالى قريبا".

وقرئ: «الْأَيْمَن» بالجر، على الجوار.

قوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} [طه: ٨٠]، أي:" ونزلنا عليكم في التيه ما تأكلونه، مما يشبه الصَّمغ طعمه كالعسل، والطير الذي يشبه السُّمَانَى".

قال ابن كثير:" فالمن: حلوى كانت تنزل عليه من السماء. والسّلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل، قدر الحاجة إلى الغد، لطفًا من الله ورحمة بهم، وإحسانًا إليهم".

واختلف أهل التفسير في معنى «المن» وتعيينه، على أقوال:

أحدها: أنه الترنجبين، قاله ابن عباس، وابن عامر، والضحاك، وعلى هذا أكثر المفسرين.

الثاني: أنه صمغة حلوة. قاله مجاهد.

الثالث: أنه العسل. قاله ابن زيد، وعامر، ومنه قول أمية بن الصلت في وصف تيه بني اسرائيل وما رزقوا فيه:

فرأى الله أنهم بمَضِيعٍ... لا بذي مَزْرِعٍ ولا معمورا

فَنَساها عليهم غاديات... ومرى مزنهم خلايا وخورا

عسلا ناطِفا وماء فراتا... وحليبا ذا بهجة مثمورا

المثمور: الصافي من اللبن، فجعل المن الذي كان ينزل عليهم عسلا ناطفا، والناطف: هو القاطر.

الرابع: أنه الذي يسقط على الثمام والعُشَر، وهو حلو كالعسل، حكاه الطبري، ومنه قول الأعشى:

=

=

لو أُطعِموا المن والسلوى مكانَهمُ... ما أبصر الناس طُعما فيهمُ نجعا

الخامس: أنه خبز الرقاق. قاله وهب.

السادس: أنه الزنجبيل. قاله السدي.

السابع: أنه الكمأة. ومنه حديث الرسول-ﷺ-: " الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين ".

قال ابن عطية:" فقيل: أراد عليه السلام أن الكمأة نفسها مما أنزل نوعها على بني إسرائيل".

الثامن: أن {المن}، مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من غير تعب ولا زرع، ومنه قول رسول الله ﷺ في حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: " الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ" في رواية:"الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُوسَى، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ".

فقيل: "أراد أنه لا تعب في الكمأة ولا جذاذ ولا حصاد، فهي منة دون تكلف، من جنس مَنِّ بني إسرائيل في أنه كان دون تكلف".

والصواب- والله أعلم- أن «المن» هو: "كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب، وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاما وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شرابا طيبا، وإن ركب مع غيره صار نوعا آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده"؛ وهذا الرأي يعضده الحديث السابق.

كما يمكن إرجاع المن بأنه مادة صمغية جوية تنزل على شجر البادية تشبه الدقيق المبلول فيه حلاوة إلى حموضة، فإن أُكِل وحده كان طعامًا وحلاوة، وإن مزج معه الماء صار شرابًا طيبًا، وإن ركب مع غيره صار نوعًا

آخر، وعلى هذا القول يمكن حمل أكثر أقوال المفسرين أعلاه عليه، باعتبار كل

=

=

قول منها ذكر وصفًا للمن سواء في كيفية النزول أم مكان وجوده أم طعمه أم طريقة تناوله. والله أعلم.

واختلف في معني: «السلوى»، على أقوال:

أحدها: أنه طائر ناعم يسمى (السُّمَانَى)، قاله ابن عباس، وعامر، والضحاك.

الثاني: أنه طائر شبيه بالسّماني. قاله ابن عباس، والسدي، والربيع.

الثالث: أنه طائر سمين، يشبه الحمام. قاله وهب.

الرابع: أنه العسل بلغة كنانة، وسمي به لأنه يسلى به، ومنه عين السلوان. قاله المؤرج، وأنشد قول رؤبة:

لو أشرب السلوان ما سليت... ما بي غنى عنك وإن غنيت

واختاره أبو عبيد، مستشهدا ببيت خالد بن زهير الهذلي:

وَقَاسَمَها بالله جَهْدًا لَأَنْتُمُ... أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورُهَا

قال الزمخشري:" ذكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم، وفيما واعد موسى صلوات الله عليه من المناجاة بجانب الطور، وكتب التوراة في الألواح. وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لا بستهم واتصلت بهم حيث

كانت لنبيهم ونقبائهم، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه".

قال الزمخشري: ذكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم، وفيما واعد موسى من المناجاة بجانب الطور، وكتب التوراة في الألواح. وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لا بستهم واتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ونقبائهم، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه...

وقال القرطبي ما ملخصه: وقوله: جانِبَ نصب على المفعول الثاني لقوله واعدنا..

=

والْأَيْمَنَ نصب لأنه نعت للجانب، إذ ليس للجبل يمين ولا شمال.

وتقدير الآية: وواعدناكم إتيان جانب الطور ثم حذف المضاف. أى: أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام وقيل: وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة، فالوعد كان لموسى، ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم...

وقوله: وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى نعمة ثالثة من نعمه-سبحانه- عليهم.

والمن: مادة حلوة لزجة تشبه العسل كانت تسقط على الشجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

والسلوى: طائر لذيذ الطعم، يشبه الطائر الذي يسمى السمانى، كانوا يأخذونه ويتلذذون بأكله.

وقيل: هما كناية عما أنعم الله به عليهم، وهما شيء واحد، سمى أحدهما «منا» لامتنان الله تعالى عليهم، وسمى الثاني «سلوى» لتسليتهم به.

أى: ونزلنا عليكم بفضلنا ورحمتنا وأنتم في التيه تلك المنافع والخيرات التي تأخذونها من غير كد أو تعب.

قوله تعالى: {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [طه: ٨١]، أي:" وقلنا لكم كلوا من الحلال اللذيذ الذي أنعمتُ به عليكم".

قال ابن كثير:" أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم ".

قال السدي:" يعني: من الحلال، المن والسلوى".

قال المراغي:" وقلنا لكم، كلوا من تلك اللذائذ التي أنعمنا بها عليكم".

قوله تعالى: {وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي} [طه: ٨١]، أي:" لا تحملنكم السعة والعافية على العصيان لأمري فينزل بكم عذابي".

قال السدي:" يعني: لا تعصوا الله في رفع المن والسلوى".

=

قال النحاس:" أي: لا تحملكم السعة والعافية أن تعصوا لأن الطغيان: التجاوز إلى ما لا يجب".

قال ابن كثير:" ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به، فأغضب عليكم ".

قال المراغي:" ولا تطغوا فى رزقى بالإخلال بشكره وتعدى حدودى فيه بالسرف والبطر والاستعانة به على المعاصي ومنع الحقوق الواجبة فيه فينزل عليكم غضبى، وتجب عليكم عقوبتى".

قال الزمخشري:" طغيانهم في النعمة: أن يتعدّوا حدود الله فيها بأن يكّفروها ويشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها، وأن ينفقوها في المعاصي: وأن يزووا حقوق الفقراء فيها، وأن يسرفوا في إنفاقها، وأن يبطروا فيها ويأشروا ويتكبروا".

قال قتادة:" كانوا لا يأخذون منه لغد، لأنه كان يفسد عندهم ولا يبقى إلا يوم الجمعة فإنهم كانوا يأخذون ليوم الجمعة والسبت، لأنهم كانوا يتفرغون في السبت للعبادة ولا يعلمون شيئا".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى} [طه: ٨١]، أي:" ومن ينزل عليه غضبي وعقابي فقد هلك وشقي".

قال مقاتل:" يقول: ومن وجب عليه عذابي فقد هلك".

قال النحاس: أي:" فقد هلك صار إلى الهاوية وهي قعر النار".

عن ابن عباس قوله: " {فقد هوى}، قال: شقي".

قال شُفَيّ بن ماتع: "إن في جهنم قصرًا يُرمى الكافر من أعلاه، فيهوي في جهنم أربعين خريفًا قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: {وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى} ".

قال الزمخشري: {هَوى}، أي: "هلك. وأصله: أن يسقط من جبل فيهلك. قالت:

=

=

هوى من رأس مرقبة... ففتّت تحتها كبده

ويقولون: هوت أمّه. أو سقط سقوطا لا نهوض بعده".

والأمر في قوله-سبحانه- كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ للإباحة، والجملة مقول لقول محذوف. أى: وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم من المن والسلوى، ومن غيرهما من اللذائذ التي أحلها الله لكم.

وقوله تعالى: وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى تحذير لهم من تجاوز الحدود التي شرعها الله تعالى لهم، إذ الطغيان مجاوزة الحد في كل شيء.

قال الشنقيطي: واعلم أن الغضب صفة وصف الله بها نفسه إذا انتهكت حرماته، تظهر آثارها في المغضوب عليهم. نعوذ بالله من غضبه جل وعلا. ونحن معاشر المسلمين نمرها كما جاءت فنصدق ربنا في كل ما وصف به نفسه، ولا نكذب بشيء من ذلك -مع تنزيهنا التام له جل وعلا عن مشابهة المخلوقين سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا- ا.هـ

والضمير في قوله فِيهِ يعود إلى الموصول الذي هو ما في قوله: ما رَزَقْناكُمْ ويحل- بكسر الحاء- بمعنى يجب. يقال: حل أمر الله على فلان يحل حلالا بمعنى وجب.

قوله تعالى: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ} [طه: ٨٢]، أي:" وإني لَغفار لمن تاب من ذنبه وكفره".

قال ابن كثير:" أي: كل من تاب إليّ تبتُ عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب على من عبد العجل من بني إسرائيل، وقوله: {تَابَ} أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية ".

عن ابن عباس: قوله:" {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ}، من الشرك".

=

=

عن الربيع:" {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ}، من الشرك".
عن قتادة، قوله:" {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ}، من ذنبه".
عن الحسن -من طريق الحسن بن دينار- قوله: " {وإني لغفار لمن تاب} مِن الشرك، {وآمن} أي: أخلص الإيمان لله، {وعمل صالحا} في إيمانه".
قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:" أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".
قوله تعالى: {وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [طه: ٨٢]، أي:" وآمن بي وعمل الأعمال الصالحة".
قال ابن كثير:" {وَآمَنَ} أي: بقلبه، {وَعَمِلَ صَالِحًا}، أي: بجوارحه".
عن ابن عباس: قوله:" {وآمَنَ}، يقول: وحد الله {وَعَمِلَ صَالِحًا}، يقول: أدى فرائضي".
عن قتادة، قوله:" {وآمَنَ}، به {وَعَمِلَ صَالِحًا}، فيما بينه وبين الله".
عن الربيع:" {وآمَنَ} يقول: وأخلص لله، وعمل في إخلاصه".
قوله تعالى: {ثُمَّ اهْتَدَى} [طه: ٨٢]، أي:" ثم اهتدى إلى الحق واستقام عليه".
واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {ثُمَّ اهْتَدَى} [طه: ٨٢]، على وجوه:
أحدها: علم أن لعمله هذا ثوابا، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وبه قال الشعبي.
عن الشعبي في قوله تعالى: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا} [طه: ٨٢]، قال: «لغفار لمن تاب من الذنوب، وآمن من الشرك، وعمل صالحا، وصام وصلى ثم اهتدى، علم أن لهذا ثوابا».
قال سفيان:" صام وصلى وعرف أن لها ثوابا".
قال الفراء:" علم أن لذلك ثوابا وعقابا".
قال مقاتل:" يعني: عرف أن لعمله ثوابا يجازى به كقوله سبحانه: {وَبِالنَّجْمِ هُمْ

=

=

يَهْتَدُون} [النحل: ١٦]، يعني: يعرفون الطريق".

وقال الكلبي:" عرف مثيبه إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر".

الثاني: لم يشكك في إيمانه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

الثالث: علم أن ذلك توفيق من الله له، رواه عطاء عن ابن عباس.

الرابع: أخذ بسنة النبي -ﷺ-، قاله الربيع بن أنس.

وقال فضيل الناجي:"اتبع السنة".

الخامس: ثم مضى على العمل الصالح حتى يموت. قاله الحسن.

وحكي عن الضحاك، قال: "استقام".

قال الزجاج:" أي: ثم أقام على إيمانه".

قال المراغي: أي:" ويستقيم حتى الموت".

السادس: ثم استقام لفرقة السنة والجماعة. قاله سعيد بن جبير.

السابع: لزم الإسلام حتى يموت عليه، قاله قتادة.

الثامن: أصاب العمل، أي: اهتدى كيف يعمل، قاله ابن زيد.

وقال زيد بن أسلم: "علم علما يحسن به عمله. قال: يقول: {اهْتَدَى} كيف يعمل".

عن زيد بن أسلم -من طريق هشام بن سعد- قال: "لا بُدَّ لأهل هذا الدِّين مِن أربع: دخول في دعوة الإسلام، ولا بُدَّ مِن الإيمان وتصديق بالله وبالمرسلين أولهم وآخرهم، وبالجنة والنار، والبعث بعد الموت، ولا بد مِن أن تعمل عملًا تَصدُق به، ولا بد مِن أن تَعْلَم عِلْمًا يحسُن به عَمَلُك. ثم قرأ: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} ".

التاسع: اهتدى إلى ولاية بيت النبي ﷺ، قاله ثابت البناني.

والراجح أن "الاهتداء": "هو الاستقامة على هدى، ولا معنى للاستقامة عليه إلا

=

=

وقد جمعه الإيمان والعمل الصالح والتوبة، فمن فعل ذلك وثبت عليه فلا شكّ في اهتدائه".

قال الزمخشري:" الاهتداء: هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو التوبة والايمان والعمل الصالح، ونحوه قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}، وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين في «جاءني زيد ثم عمرو» أعنى أنّ منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه، لأنها أعلى منها وأفضل".

قال ابن كثير:" «ثم» هاهنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [البلد: ١٧] ".

قال النحاس: "قال وكيع عن سفيان: كنا نسمع في قوله ﷻ: {وإني لغفار لمن تاب}، أي: من الشرك، {وآمن}، أي: بعد الشرك، {وعمل صالحا}، صلى وصام، {ثم اهتدى}، مات على ذلك. قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل في الآية".

عن علي بن زمعة: "مكتوب حول العرش قبل أن تخلق الدنيا بأربعة آلاف عام: {وإنِّي لَغَفّارٌ لِمَن تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالِحًا ثُمَّ اهْتَدى} ".

عن ابن شوذب، قال الحسن: "هذه الآية {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} [طه: ٨٢] قال: قلت: «يا لكع ما أجد لك -هاهنا- شيئا».

والمعنى: كلوا يا بنى إسرائيل من الطيبات التي رزقكم الله إياها واشكروه عليها، ولا تتجاوزوا فيما رزقناكم الحدود التي شرعناها لكم، فإنكم إذا فعلتم ذلك حق عليكم غضبى، ونزل بكم عقابي، ومن حق عليه غضبى ونزل به عقابي فَقَدْ هَوى أي: إلى النار.

وأصله السقوط من مكان مرتفع كجبل ونحوه. يقال: هوى فلان- بفتح الواو-

=

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى (٨٣).

{وَمَا أَعْجَلَك عَنْ قَوْمك} لِمَجِيءِ مِيعَاد أَخْذ التوراة {يا موسى}.

قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤).

{قَالَ هُمْ أُولَاءِ} أَيْ بِالْقُرْبِ مِنِّي يَأْتُونَ {عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْت إِلَيْك رَبّ لِتَرْضَى} عَنِّي أَيْ زِيَادَة فِي رِضَاك وَقَبْل الْجَوَاب أَتَى بِالِاعْتِذَارِ حَسَب ظَنّه وَتَخَلُّف الْمَظْنُون لَمَّا.

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥).

{قَالَ} تَعَالَى {فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمك مِنْ بَعْدك {أَيْ بَعْد فِرَاقك لَهُمْ {وَأَضَلَّهُمْ السَّامِرِيّ} فعبدوا العجل.

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦).

=

يهوى- بكسرها- إذا سقط إلى أسفل، ثم استعمل في الهلاك للزومه له.

ثم فتح -سبحانه- باب الأمل لعباده فقال: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ أى: لكثير المغفرة لِمَنْ تابَ من الشرك والمعاصي وَآمَنَ بكل ما يجب الإيمان به وَعَمِلَ صالِحًا أى: وعمل عملا مستقيما يرضى الله تعالى. ثُمَّ اهْتَدى أى: ثم واظب على ذلك، وداوم على استقامته وصلاحه إلى أن لقى الله تعالى.

وثم في قوله ثُمَّ اهْتَدى للتراخي النسبي، إذ أن هناك فرقا كبيرا بين من يتوب إلى الله تعالى ويقدم العمل الصالح، ويستمر على ذلك إلى أن يلقى الله تعالى وبين من لا يداوم على ذلك.

{فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمه غَضْبَان} مِنْ جِهَتهمْ {أَسِفًا} شَدِيد الْحُزْن {قَالَ يَا قَوْم أَلَمْ يَعِدكُمْ رَبّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا} أَيْ صِدْقًا أَنَّهُ يُعْطِيكُمْ التَّوْرَاة {أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْد} مُدَّة مُفَارَقَتِي إيـاكم {أم أردتـم أن يحـل} يجـب {عليكم غضب من ربكم} بِعِبَادَتِكُمْ الْعِجْل {فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي} وَتَرَكْتُمْ الْمَجِيء بَعْدِي.

قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧).

{قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدك بِمَلْكِنَا} مُثَلَّث الْمِيم أَيْ بِقُدْرَتِنَا أَوْ أَمْرنَا {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا} بِفَتْحِ الْحَاء مُخَفَّفًا وَبِضَمِّهَا وَكَسْر الْمِيم مُشَدَّدًا {أَوْزَارًا} أَثْقَالًا {مِنْ زِينَة الْقَوْم} أَيْ حُلِيّ قَوْم فِرْعَوْن اسْتَعَارَهَا مِنْهُمْ بَنُو إسْرَائِيل بِعِلَّةِ عُرْس فَبَقِيَتْ عِنْدهمْ {فَقَذَفْنَاهَا} طَرَحْنَاهَا فِي النَّار بِإِمْرِ السَّامِرِيّ {فَكَذَلِكَ} كَمَا أَلْقَيْنَا {أَلْقَى السَّامِرِيّ} مَا مَعَهُ مِنْ حُلِيّهمْ وَمِنْ التُّرَاب الَّذِي أَخَذَهُ مِنْ أَثَر حَافِر فَرَس جِبْرِيل عَلَى الْوَجْه الآتي.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨).

{فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا} صَاغَهُ مِنْ الْحُلِيّ {جَسَدًا} لَحْمًا وَدَمًا {لَهُ خُوَار} أَيْ صَوْت يُسْمَع أَيْ انْقَلَبَ كَذَلِكَ بِسَبَبِ التُّرَاب الَّذِي أَثَرُهُ الْحَيَاةُ فِيمَا يُوضَع فِيهِ وَوَضَعَهُ بَعْد صَوْغه فِي فَمه {فَقَالُوا} أَيْ السَّامِرِيّ وَأَتْبَاعه {هَذَا إلَهكُمْ وَإِلَه مُوسَى فَنَسِيَ} مُوسَى رَبّه هُنَا وَذهب يطلبه قال تعالى.

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩).

{أَفَلَا يَرَوْنَ أَ} أَنْ مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ أَنَّهُ {لَا يَرْجِع} الْعِجْل {إلَيْهِمْ قَوْلًا} أَيْ لَا يَرُدّ لَهُمْ جَوَابًا {وَلَا يَمْلِك لَهُمْ ضَرًّا} أَيْ دَفْعه {وَلَا

نَفْعًا} أَيْ جَلْبه أَيْ فَكَيْفَ يَتَّخِذ إلَهًا(١).

(١) هذه الآيات الكريمة تحكى قصة ملخصها: أن موسى عليه السلام بعد أن أهلك الله تعالى فرعون وجنوده، سار ببني إسرائيل متجها ناحية جبل الطور، ثم تركهم مستخلفا عليهم أخاه هارون، وذهب لمناجاة ربه ومعه سبعون من وجهائهم، ثم عجل من بينهم شوقا للقاء ربه، فأخبره -سبحانه- بما أحدثه قومه في غيبته عنهم. وجملة وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى مقول لقول محذوف.
قوله تعالى: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣)} [طه: ٨٣]
قال السمعاني:" في القصة: أنه لما جاء مع السبعين الميعاد تعجل بنفسه، وخلف السبعين وراءه، فقال الله تعالى له: أي شيء حملك على العجلة؟ ".
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأي شيء أعجلك {عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى}، فتقدمتهم وخلفتهم وراءك، ولم تكن معهم.. وإنما قال الله تعالى ذكره لموسى: ما أعجلك عن قومك، لأنه جلّ ثناؤه، فيما بلغنا، حين نجاه وبني إسرائيل من فرعون وقومه، وقطع بهم البحر، وعدهم جانب الطور الأيمن، فتعجل موسى إلى ربه، وأقام هارون في بني إسرائيل يسير بهم على أثر موسى".
قال مقاتل:" يعني: السبعين الذين اختارهم موسى حين ذهبوا معه إلى الطور ليأخذوا التوراة من ربه- عز وجل- فلما ساروا عجل موسى عليه السلام شوقا إلى ربه- تبارك وتعالى- وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل فقال الله- عز وجل- له- {وما أعجلك عن قومك}؟ - السبعين".
قال الزمخشري:" قصص هذه الآية أن موسى عليه السلام لما شرع في النهوض ببني إسرائيل إلى جانب الطور الأيمن حيث كان الموعد أن يكلم الله موسى بما فيه شرف العاجل والآجل رأى علي جهة الاجتهاد أن يتقدم وحده مبادرا إلى أمر الله تعالى، وحرصا على القرب منه وشوقا إلى مناجاته، واستخلف هارون على بني =

=

إسرائيل وقال لهم موسى تسيرون إلى جانب الطور، فلما انتهى موسى عليه السلام وناجى ربه زاده في الأجل عشرا، وحينئذ وقفه على معنى استعجاله دون القوم ليخبره موسى أنهم على الأثر فيقع الإعلام له بما صنعوا".

عن ابن إسحاق، قال: "وعد الله موسى حين أهلك فرعون وقومه ونجاه وقومه، ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة، تلقاه فيها بما شاء، فاستخلف موسى هارون في بني إسرائيل، ومعه السامريّ، يسير بهم على أثر موسى ليلحقهم به، فلما كلم الله موسى، قال له: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} ".

قال ابن عباس: كان الله عالما ولكن قال:" {وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى} رحمة لموسى، وإكراما له بهذا القول، وتسكينا لقلبه، ورقة عليه".

قال أهل العلم:" وهذا يدل أنَّ من أخلاق النبيين عليهم السلام الشوق والمحبة لأنها مستلزمة له".

والمعنى: وقلنا لموسى: أى شيء جعلك تتعجل المجيء إلى هذا المكان قبل قومك وتخلفهم وراءك، مع أنه ينبغي لرئيس القوم أن يتأخر عنهم في حالة السفر، ليكون نظره محيطا بهم ونافذا عليهم؟.

فأجاب موسى معتذرا لربه تعالى بقوله: هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي أى: على مقربة منى، وسيلحقون بي بعد زمن قليل وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى أى: وقد حملني على أن أحضر قبلهم، شوقي إلى مكالمتك- يا إلهى- وطمعي في زيادة رضاك عنى.

قوله تعالى: {قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي} [طه: ٨٤]، أي:" قال: إنهم خلفي سوف يلحقون بي".

قال الطبري:" يقول: قومي على أثري يلحقون بي".

قال مقاتل:" يجيئون من بعدي".

=

=

قال البغوي:" أي: هم بالقرب مني يأتون من بعدي".

قال البيضاوي:" أي: ما تقدمتهم إلا بخطا يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم بعضا".

قال يحيى:" قال: هم أولاء ينتظرونني من بعدي بالذي آتيهم به، وليس يعني أنهم يتبعونه. وقال بعضهم: يعني السبعين الذي اختاروا فذهبوا معه للميعاد".

قوله تعالى: {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه: ٨٤]، أي:" وسبقتُهم إليك - يا ربي - لتزداد عني رضا".

قال مقاتل:" يعني: أسرعت إليك رب حتى ترضى عني".

قال الطبري:" يقول: وعجلت أنا فسبقتهم ربّ كيما ترضى عني".

عن ابن زيد: " {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}، قال: لأرضيك".

قال البغوي:" لتزداد رضا".

قال البيضاوي:" فإن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك توجب مرضاتك".

قال أبو السعود:" يعني بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك واعتنائي بالوفاء بعهدك وزيادة رب لمزيد الضراعة والابتهال رغبة في قبول العذر".

فموسى- عليه السلام قد علل تقدمه على قومه في الحضور بعلتين: الأولى: أنهم كانوا على مقربة منه. والثانية: حرصه على استدامة رضى ربه عنه.

قال الزمخشري: فإن قلت: وَما أَعْجَلَكَ سؤال عن سبب العجلة، فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق في كلامك. وقوله: هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي كما ترى غير منطبق عليه؟.

قلت: قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين: أحدهما: إنكار العجلة في نفسها، والثاني: السؤال عن سببها الحامل عليها، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط

=

=

العذر، وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه، فاعتل بأنه لم يوجد منى إلا تقدم يسير، مثله لا يعتد به في العادة، ولا يحتفل به، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة، يتقدم بمثلها الوفد رئيسهم ومقدمهم. ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال: وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى.

وقال الرازي: قال: وعجلت والعجلة مذمومة. والجواب: إنها ممدوحة في الدين. قال تعالى: وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة [آل عمران: ١٣٣] ا.هـ

وقال الشنقيطي: وفي هذه الآية سؤال معروف: وهو أن جواب موسى ليس مطابقًا للسؤال الذي سأله ربه؛ لأن السؤال عن السبب الذي أعجله عن قومه، والجواب لم يأت مطابقا لذلك؛ لأنه أجاب بقوله: {قَال هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيكَ} الآية.

وأجيب عن ذلك بأجوبة: (منها) أن قوله: {هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي} يعني هم قريب وما تقدمتهم إلا بيسير يغتفر مثله، فكأني لم أتقدمهم ولم أعجل عنهم لقرب ما بيني وبينهم. (ومنها) أن الله جل وعلا لما خاطبه بقوله: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ} داخله من الهيبة والإجلال والتعظيم لله جل وعلا ما أذهله عن الجواب المطابق ا.هـ

وقوله تعالى: قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ إخبار منه- سبحانه- بما فعله قومه بعد مفارقته لهم.

قوله تعالى: {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ} [طه: ٨٥]، أي:" قال الله لموسى: فإنا قد ابتلينا قومك بعد فراقك إياهم بعبادة العجل".

قال مقاتل:" يعنى: الذين خلفتهم مع هارون على ساحل البحر سوى السبعين {من بعدك} بالعجل".

قال الطبري:" يقول الله تعالى ذكره قال الله لموسى: فإنا يا موسى قد ابتلينا قومك

=

=

من بعدك بعبادة العجل، وذلك كان فتنتهم من بعد موسى".

قوله تعالى: {وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} [طه: ٨٥]، أي:" وإن السامري قد أضلهم".

قال الطبري:" وكان إضلال السامريّ إياهم دعاءه إياهم إلى عبادة العجل".

قال القرطبي:" أي: دعاهم إلى الضلالة أو هو سببها".

عن ابن عباس:"إن هارون مر بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع فقال: أصنع ما يضر ولا ينفع، فقال هارون اللهم أعطه ما سأله علي ما في نفسه، ومضى هارون، فقال السامري: اللهم إني أسألك إن يخور، فخار فكان إذا خار سجدوا له وإذا خار رفعوا رؤوسهم".

قال ابن عباس:" كان السامريُّ رجلًا مِن أهل باجَرْما، وكان مِن قوم يعبدون البقر، فكان حُبُّ عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلامَ في بني إسرائيل... وكان اسمُ السامري: موسى بن ظفر، وقع في أرض مصر، فدخل في بني إسرائيل".

قال ابن عباس:" كان السامريُّ مِن أهل كَرمان".

وكلمة فَتَنَّا من الفتن ومعناه لغة: وضع الذهب في النار ليتبين أهو خالص أم زائف.

والفتنة تطلق في القرآن بإطلاقات متعددة منها: الدخول في النار كما في قوله تعالى: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. ومنها الحجة كما في قوله تعالى: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ. ومنها: الاختبار والامتحان، كما في قوله- سبحانه-: أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ.

ومنها الإضلال والإشراك، كما في قوله تعالى: وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وقوله-سبحانه-: وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا ...

والمراد بالفتنة هنا هذا المعنى الأخير وهو الإضلال والشرك، لأن فتنتهم كانت بسبب عبادتهم للعجل في غيبة موسى- عليه السلام.

ويدل على هذا قوله تعالى: وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ

=

=
خُوارٌ ...

قال الشنقيطي: الظاهر أن الفتنة المذكورة هي عبادتهم العجل؛ فهي فتنة إضلال؛ كقوله: {إِنْ هِيَ إلا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ}. وهذه الفتنة بعبادة العجل جاءت مبينة في آيات متعددة؛ كقوله: {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)} ونحو ذلك من الآيات.

قوله هنا: {وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥)} أوضح كيفية إضلاله لهم في غير هذا الموضع؛ كقوله: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ - إلى قوله- اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)} أي: اتخذوه إلهًا، وقد صنعه السامري لهم من حلي القبط فأضلهم بعبادته. وقوله هنا: {فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨)}...... وقوله تعالى في هذه الآية: {وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} أسند إضلالهم إليه؛ لأنه هو الذي تسبب فيه بصياغته لهم العجل من حلي القبط ورميه عليه التراب الذي مسه حافر الفرس التي جاء عليها جبريل، فجعله الله بسبب ذلك عجلًا جسدًا له خوار، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة: {فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ}، وقال في "الأعراف": {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ} الآية. والخوار: صوت البقر. قال بعض العلماء: جعل الله بقدرته ذلك الحلي المصوغ جسدًا من لحم ودم، وهذا هو ظاهر قوله: {عِجْلًا جَسَدًا}. وقال بعض العلماء: لم تكن تلك الصورة لحمًا ولا دمًا، ولكن إذا دخلت فيها الريح صوتت كخوار العجل. والأول أقرب لظاهر الآية، والله تعالى قادر على أن يجعل الجماد لحمًا ودمًا، كما جعل آدم لحمًا ودمًا وكان طينًا ا.هـ

والسامري: اسم للشخص الذي كان سببا في ضلال بنى إسرائيل، قيل: كان من
=

=

زعماء بنى إسرائيل وينسب إلى قبيلة تعرف بالسامرة.

وقيل: إنه كان من قوم يعبدون البقر، وقيل غير ذلك وكلها أقوال ليس عليها دليل.

أى: قال الله تعالى لموسى: فإنا قد أضللنا قومك من بعد مفارقتك لهم، وكان السبب في ضلالهم السامري، حيث دعاهم إلى عبادة العجل فانقادوا له وأطاعوه.

وقوله تعالى: فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفًا بيان لما كان منه- عليه السلام بعد أن علم بضلال قومه، وكان رجوع موسى إليهم بعد أن ناجى ربه، وتلقى منه التوراة.

قوله تعالى: {فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا} [طه: ٨٦]، أي:" فرجع موسى إلى قومه غضبان عليهم حزينًا".

قال الطبري:" يقول: فانصرف موسى إلى قومه من بني إسرائيل بعد انقضاء الأربعين ليلة، متغيظا على قومه، حزينا لما أحدثوه بعده من الكفر بالله".

قال الزجاج:" أسف: شديد الحزن مع غضبه".

قال أبو الدرداء:" «الأسف»، منزلة وراء الغضب، أشدُّ من ذلك، وتفسير ذلك في كتاب الله: ذهب إلى قومه غضبان، وذهب أسفًا".

عن ابن عباس قوله:" {غَضْبَانَ أَسِفًا}، يقول: حزينا، وقال في الزخرف {فَلَمَّا آسَفُونَا} يقول: أغضبونا، والأسف على وجهين: الغضب، والحزن".

عن مجاهد، والسدي:" {أَسِفًا}، يقول: حزينا".

وعن مجاهد:" {غضبان أسفا}، قال: جزعا".

قال قتادة:" أي: حزينا على ما صنع قومه من بعده".

وعن الحسن:" {غضبان أسفًا}، قال: غضبان حزينًا".

وقال ابن قتيبة:" {أسفا} شديد الغضب. يقال: آسفني فأسفت. أي: أغضبني فغضبت. ومنه قوله: {فلما آسفونا انتقمنا منهم} ".

قال ابن عطية:" «الأسف» قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأكثر ما يكون بمعنى

=

=

الحزن والمعنيان مترتبان هاهنا".

وفي غضبه وأسفه قولان:

أحدهما: غضبان من قومه على عبادة العجل؟ أسفًا على ما فاته من مناجاة ربه.

والثاني: غضبان على نفسه في ترك قومه حتى ضلوا، أسفًا على ما رأى في قومه من ارتكاب المعاصي.

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا} [طه: ٨٦]، أي:" قال لهم: يا قوم ألم يَعِدْكم ربكم وعدًا حسنًا بإنزال التوراة؟ ".

قال مقاتل:"يعني: حقا، أن يعطيكم التوراة فيها بيان كل شيء".

قوله تعالى: {أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ} [طه: ٨٦]، أي:" هل طال عليكم الزمن حتى نسيتم العهد".

قل الطبري:" أفطال عليكم العهد بي، وبجميل نعم الله عندكم، وأياديه لديكم".

عن مجاهد قوله: " {أفطال عليكم العهد}، يقول: الوعد".

قوله تعالى: {أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي} [طه: ٨٦]، أي:" أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتم موعدي وعبدتم العجل، وتركتم الالتزام بأوامري؟؟ ".

قل الطبري:" يقول: أم أردتم أن يجب عليكم غضب من ربكم فتستحقوه بعبادتكم العجل، وكفركم بالله، فأخلفتم موعدي".

عن مجاهد قوله: " {فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي}، يقول: عهدي".

قال الآلوسى ما ملخصه: فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ عند رجوعه المعهود أى: بعد ما استوفى الأربعين «ذا القعدة وعشر ذي الحجة» وأخذ التوراة لا عقيب الإخبار المذكور، فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هي باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله غَضْبانَ أَسِفًا لا باعتبار نفسه، وإن كانت داخلة عليه حقيقة، فإن كون الرجوع

=

=

بعد تمام الأربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم إلى كونه عند الإخبار المذكور ... ».

والمعنى فرجع موسى إلى قومه- بعد مناجاته لربه وبعد تلقيه التوراة حالة كونه غَضْبانَ أَسِفًا أى: غضبان شديد الغضب.

فالمراد بالأسف شدة الغضب، وقيل المراد به الحزن والجزع.

ثم بين-سبحانه- ما قاله موسى لقومه بعد رجوعه إليهم فقال: قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ...

أى: قال لهم على سبيل الزجر والتوبيخ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا لا سبيل لكم إلى إنكاره، ومن هذا الوعد الحسن: إنزال التوراة لهدايتكم وسعادتكم، وإهلاك عدوكم أمام أعينكم. فلماذا أعرضتهم عن عبادته وطاعته مع أنكم تعيشون في خيره ورزقه..؟.

ثم زاد في تأنيبهم وفي الإنكار عليهم فقال: أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي.

قال قتادة قوله (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا): أي حزينا على ما صنع قومه من بعده.

وقال عن مجاهد قوله (موعدي) قال: عهدي، وذلك العهد والموعد هو ما بيناه قبل

والاستفهام في قوله أَفَطالَ.. للنفي والإنكار وأَمْ منقطعة بمعنى بل.

والمعنى: أفطال عليكم الزمان الذي فارقتكم فيه؟ لا إنه لم يطل حتى تنسوا ما أمرتكم به، بل إنكم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم، فأخلفتم موعدي الذي وعدتموني إياه وهو أن تثبتوا على إخلاص العبادة لله تعالى.

ومعنى إرادتهم حلول الغضب عليهم، أنهم فعلوا ما يستوجب ذلك وهو طاعتهم

=

=

للسامري في عبادتهم للعجل.

قال ابن جرير: كان إخلافهم موعده: عكوفهم على عبادة العجل، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذي كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل ودعاهم إلى السير معه في أثر موسى: لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى.

ثم حكى -سبحانه- معاذيرهم الواهية التي تدل على بلادة عقولهم، وانتكاس أفكارهم، وتفاهة شخصيتهم فقال تعالى: قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا ...

قوله تعالى: {قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا} [طه: ٨٧]، أي:" قالوا: يا موسى ما أخلفنا موعدك باختيارنا".

قال السعدي:" أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا، وملك منا لأنفسنا".

وفي قوله تعالى: {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا} [طه: ٨٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: ما أخلفنا موعدك بأمرنا. قاله ابن عباس، ومجاهد.

قال مجاهد قوله: "بأمر ملكنا".

وقال مقاتل:" ونحن نملك أمرنا".

الثاني: معناه: بطاقتنا. وهذا قول قتادة، والسدي.

الثالث: معناه: ما أخلفنا موعدك بهوانا، ولكنا لم نملك أنفسنا. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد:" يقول بهوانا، قال: ولكنه جاءت ثلاثة، قال ومعهم حلي استعاروه من آل فرعون، وثياب".

قال الطبري:" وكلّ هذه الأقوال الثلاثة في ذلك متقاربات المعنى، لأن من لم يملك نفسه، لغلبة هواه على ما أمر، فإنه لا يمتنع في اللغة أن يقول: فعل فلان هذا الأمر، وهو لا يملك نفسه وفعله، وهو لا يضبطها وفعله وهو لا يطيق تركه، فإذا

=

=

كان ذلك كذلك، فسواء بأيّ القراءات الثلاث قرأ ذلك القارئ، وذلك أن من كسر الميم من الملك، فإنما يوجه معنى الكلام إلى ما أخلفنا موعدك، ونحن نملك الوفاء به لغلبة أنفسنا إيانا على خلافه، وجعله من قول القائل: هذا ملك فلان لما يملكه من المملوكات، وأن من فتحها، فإنه يوجه معنى الكلام إلى نحو ذلك، غير أنه يجعله مصدرا من قول القائل: ملكت الشيء أملكه ملكا وملكة، كما يقال: غلبت فلانا أغلبه غَلبا وغَلَبة، وأن من ضمها فإنه وجَّه معناه إلى ما أخلفنا موعدك بسلطاننا وقدرتنا، أي ونحن نقدر أن نمتنع منه، لأن كل من قهر شيئا فقد صار له السلطان عليه، وقد أنكر بعض الناس قراءة من قرأه بالضمّ، فقال: أيّ ملك كان يومئذ لبني إسرائيل، وإنما كانوا بمصر مستضعفين، فأغفل معنى القوم وذهب غير مرادهم ذهابا بعيدا، وقارئو ذلك بالضم لم يقصدوا المعنى الذي ظنه هذا المنكر عليهم ذلك، وإنما قصدوا إلى أن معناه: ما أخلفنا موعدك بسلطان كانت لنا على أنفسنا نقدر أن نردها عما أتت، لأن هواها غلبنا على إخلافك الموعد".

القول الرابع: معناه: بسلطاننا. وهذا قول الحسن.

قوله تعالى: {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا} [طه: ٨٧]، أي:" ولكنَّا حُمِّلنا أثقالا مِن حليِّ قوم فرعون، فألقيناها في حفرة فيها نار بأمر السامري".

قال الطبري:" يقول: ولكنا حملنا أثقالا وأحمالا من زينة القوم، يعنون من حلي آل فرعون، وذلك أن بني إسرائيل لما أراد موسى أن يسير بهم ليلا من مصر بأمر الله إياه بذلك، أمرهم أن يستعيروا من أمتعة آل فرعون وحليهم، وقال: إن الله مغنمكم ذلك، ففعلوا، واستعاروا من حليّ نسائهم وأمتعتهم، قوله {فَقَذَفْناها} يقول: فألقينا تلك الأوزار من زينة القوم في الحفرة".

قال السعدي: أي:" ولكن السبب الداعي لذلك، أننا تأثمنا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يذكرون استعاروا حليا كثيرا من القبط، فخرجوا وهو معهم

=

=

وألقوه، وجمعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع".

قال ابن عباس:" فهو ما كان مع بني إسرائيل من حلي آل فرعون، يقول: خطئونا بما أصبنا من حليّ عدوّنا".

عن مجاهد: " {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا}، قال أثقالا، {مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ}: وهي الحلي الذي استعاروه من ال فرعون، {فَقَذَفْنَاهَا}: فألقيناها".

عن قَتادة: {فَقَذَفْناها}، أي: فنبذناها".

عن السديّ:" {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ}، يقول: من حليّ القبط".

قال مقاتل:" {ولكنا حملنا أوزارا}، يعني: خطايا، لأن ذلك حملهم على صنع العجل وعبادته من زينة القوم يقول من حلي آل فرعون الذهب والفضة، وذلك أنه لما مضى خمسة وثلاثون يوما، قال لهم السامري وهو من بني إسرائيل: يا أهل مصر إن موسى لا يأتيكم فانظروا هذا الوزر وهو الرجس الذي على نسائكم وأولادكم من حلي آل فرعون الذي أخذتموه منهم غصبا فتطهروا منه واقذفوه في النار. ففعلوا ذلك وجمعوه فعمد السامري، فأخذه ثم صاغه عجلا لست وثلاثين يوما وسبعة وثلاثين يوما وثمانية وثلاثين يوما، فصاغه في ثلاثة أيام ثم قذف القبضة التي أخذها من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام فخار العجل خورة واحدة، ولم يثن

فأمرهم السامري بعبادة العجل لتسعة وثلاثين يوما، ثم أتاهم موسى عليه السلام من الغد لتمام أربعين يوما".

قال ابن زيد:" الحليّ الذي استعاروه والثياب، ليست من الذنوب في شيء، لو كانت الذنوب كانت حملناها نحملها، فليست من الذنوب في شيء".

قال القرطبي:" قيل: هذا الحلي ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق، وأن هارون قال لهم: إن الحلي غنيمة، وهي لا تحل لكم، فجمعها في حفرة

=

=

حفرها فأخذها السامري. وقيل: استعاروا الحلي ليلة أرادوا الخروج من مصر، وأوهموا القبط أن لهم عرسا أو مجتمعا".

وقرئ: «حَمَلْنا» بتخفيف الحاء والميم وفتحهما، بمعنى أنهم حملوا ذلك من غير أن يكلفهم حمله أحد.

قوله تعالى: {فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ} [طه: ٨٧]، أي:" فكذلك ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل عليه السلام".

قال الطبري:" يقول: فكما قذفنا نحن تلك الأثقال، فكذلك ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل".

قال مقاتل:" يعني: هكذا ألقى السامري الحلي في النار".

عن مجاهد: " {فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ}: قال: فكذلك صنع".

عن ابن عباس:" إن بني إسرائيل استعاروا حليا من القبط فخرجوا به معهم فقال لهم هارون: قد ذهب موسي إلى السماء أجمعوا هذا الحلي حتي يجيء موسى فيقضي فيه ما قضي فجمع، ثم أذيب فلما ألقي السامري القبضة تحول عجلا جسدا له خوار، فقال: هذا إلهكم وإله موسى فنسي، قال: إن موسي ذهب يطلب ربه فضل فلم يعلم مكانه وهو هذا".

عن ابن عباس:" أن هارون مَرَّ بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضر ولا ينفع فقال هارون: اللهم اعطه ما سأل على ما في نفسه ومضى هارون، فقال السامري: اللهم إني أسألك أن يَخُور فَخَار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم".

وقال ابن عباس:" إذا خار سجدوا وإذا سكت رفعوا رؤسهم".

قال ابن عباس:" كان السامري من أهل كرمان".

قال القرطبي:" روي في قصص العجل: أن السامري، واسمه موسى بن ظفر،

=

=

ينسب إلى قرية تدعى سامرة. ولد عام قتل الأبناء، وأخفته أمه في كهف جبل فغذاه جبريل فعرفه لذلك، فأخذ حين عبر البحر على فرس وديق ليتقدم فرعون في البحر- قبضة من أثر حافر الفرس. وهو معنى قوله: {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ} [طه: ٩٦]. وكان موسى وعد قومه ثلاثين يوما، فلما أبطأ في العشر الزائد ومضت ثلاثون ليلة قال لبني إسرائيل وكان مطاعا فيهم: إن معكم حليا من حلي آل فرعون، وكان لهم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحلي فاستعاروا لذلك اليوم، فلما أخرجهم الله من مصر وغرق القبط بقي ذلك الحلي في أيديهم، فقال لهم السامري: إنه حرام عليكم، فهاتوا ما عندكم فنحرقه".

وقوله بِمَلْكِنا قرأه نافع وعاصم- بفتح الميم وسكون اللام- أى: بأمرنا. وقرأه حمزة والكسائي بِمِلْكِنا بكسر الميم وسكون اللام- أى: بطاقتنا: وقرأه الباقون- بضم الميم وسكون اللام- أى: بسلطاننا، وهو مصدر مضاف لفاعله ومفعوله محذوف، أى: بملكنا أمرنا.

أى: قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى على سبيل الاعتذار الذي هو أقبح من ذنب: ما أخلفنا موعدك فعبدنا العجل بأمرنا وطاقتنا واختيارنا، فقد كان الحال أكبر من أن يدخل تحت سلطاننا، ولو خلينا بيننا وبين أنفسنا ولم يسول لنا السامري ما سول لبقينا على العهد الذي عاهدناك عليه، وهو أن نعبد الله تعالى وحده.

وقوله: وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ حكاية لبقية ما قالوه من أعذر قبيحة.

ولفظ: «حملنا» قرأه ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم- بضم الحاء وتشديد الميم- على أنه فعل ونائب فاعل، وقرأه الباقون- بفتح الحاء والميم- على أنه فعل وفاعل.

قال الآلوسى ما ملخصه: والمراد بالقوم: القبط، وبالأوزار: الأحمال وتسمى بها

=

=

الآثام، وقصدوا بذلك ما استعاروه من القبط من الحلي في عيد لهم قبل الخروج من مصر، وقيل: استعاروه باسم العرس. وقيل: هي ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا وهم فرعون وجنوده فأخذ بنو إسرائيل ذلك على أنه غنيمة مع أنها غنيمة مع أنها لم تكن حلالا لهم.

أي: قال بنو إسرائيل لموسى: ما أخلفنا عهدك بأمرنا ولكنا حملنا أثقالا وأحمالا من زينة القبط التي أخذناها منهم بدون حق فَقَذَفْناها في النار بتوجيه من السامري، فَكَذلِكَ أي: فكما ألقينا ما معنا أَلْقَى السَّامِرِيُّ ما معه من تلك الزينة.

قال ابن كثير: وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، فعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير، وفعلوا الأمر الكبير...

ثم بين -سبحانه- ما صنعه لهم السامري من تلك الحلي فقال: فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ.

قوله تعالى: {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ} [طه: ٨٨]، أي:" فصنع السامري لبني إسرائيل من الذهب عجلا جسدًا يخور خوار البقر".

قال مقاتل:" يعني: صورة عجل ليس فيه روح، له صوت البهائم، ثم لم يصوت غير مرة واحدة ".

قال الطبري:" يقول: فأخرج لهم السامريّ مما قذفوه ومما ألقاه عجلا جسدا له خوار، ويعني بـ «الخوار»: الصوت، وهو صوت البقر".

قال أبو عبيدة:" {لَهُ خُوارٌ}، أي: صوت كخوار البقر إذا خار، وهو يخور".

عن مجاهد: " {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ}: قال: حفيف الريح فيه فهو خواره، والعجل ولد البقره".

روي عن نافع، قال:" يا ابن عباس: فأخبرني عن قول الله ﷻ: {عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوارٌ}؟ قال: يعني له صياح. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت

=

=

الشاعر وهو يقول:

كأنّ بني معاوية بن بكر... إلى الإسلام صائحة تخور".

والخوار: «صوت الثور»، وفيه قولان:

أحدهما: أنه صوت حياة خلقه، لأن العجل المُصَاغُ انقلب بالقبضة التي من أثر الرسول فصار حيوانًا حيًا، قاله الحسن، وقتادة، والسدي.

قال قتادة:" استعاروا حليا من آل فرعون فجمعه السامري فصاغ منه عجلا فجعله الله جسدا لحما ودما له خوار".

قال السدي:" كان يخور ويمشي".

وقال الضحاك:" العجل: خار خورة لم يثن، ألم تر أن الله قال: {ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يرجع إليهم قولا} ".

الثاني: أن خواره وصوته كان بالريح، لأنه عمل فيه خروقًا فإذا دخلت الريح فيه خار ولم يكن فيه حياة، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد.

قال مجاهد:" فانسكبت عجلا له خوار خفيف، وهو الريح".

قال الزجاج:" والذي قاله مجاهد من أن خواره حفيف الريح فيه، أسرع إلى القبول، لأنه شيء ممكن. والتفسير الآخر وهو أنه خوار ممكن في محنة الله ﷻ - أن امتحن القوم بذلك، وليس في خوار صفر ما يوجب عبادته لأنهم قد رأوه معمولا مصنوعا، فعبادتهم إياه لو خار وتكلم كما يتكلم الآدمي لم تجب به عبادته".

قال القفال: "كان السامري احتال بأن جوف العجل، وكان قابل به الريح، حتى جاء من ذلك ما يحاكي الخوار، وأوهمهم أن ذلك إنما صار كذلك لما طرح في الجسد من التراب الذي كان أخذه من تراب قوائم فرس جبريل".

قال سعيد بن جبير:" والله ما كان له صوت قط ولكن الريح كانت تدخل في دبره

=

=

وتخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك".

قال ابن عباس:" لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج فيه، فيسمع له صوت".

وروي عن الحسن، قال:" كان أسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه بهموت".

وأخرجه ابن أبي حاتم، ولفظه:"يهبوث".

قال السدي:" قال: موسى: يا رب هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل أرأيت الروح من نفخها فيه قال الرب: أنا، قال رب: فأنت إذا أضللتهم".

قال السمعاني:" فإن قيل: السامري كان كافرا، وهذا الذي ظهر على يده معجزة، فكيف يجوز أن تظهر المعجزة على يد كافر؟ والجواب: أن ذلك كان لفتنة بني إسرائيل وابتلائهم. وعند أهل السنة هذا جائز، ولا نقول: هو معجزة، ولكنه محنة وفتنة".

واختلف أهل العلم في كيفية إخراج السامريّ العجل، على قولين:

أحدهما: أن السامري صاغه صياغة، ثم ألقى من تراب حافر فرس جبرائيل في فمه فخار. وهذا قول قتادة.

قال قتادة:" كان الله وقَّت لموسى ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر، فلما مضت الثلاثون قال عدوّ الله السامري: إنما أصابكم الذي أصابكم عقوبة بالحلي الذي كان معكم، فهلموا وكانت حليا تعيروها من آل فرعون، فساروا وهي معهم، فقذفوها إليه، فصوّرها صورة بقرة، وكان قد صرّ في عمامته أو في ثوبه قبضة من أثر فرس جبرائيل، فقذفها مع الحليّ والصورة {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ} فجعل يخور خوار البقر، فقال: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى} ".

الثاني: أن السامري جاء بتلك القبضة فقذفها فأخرج الله من الحليّ عجلا جدسا له خوار. وهذا قول السدي.

=

=

قال السدي:" أخذ السامريّ من تربة الحافر، حافر فرس جبرائيل، فانطلق موسى واستخلف هارون على بني إسرائيل وواعدهم ثلاثين ليلة، فأتمها الله بعشر، قال لهم هارون: يا بني إسرائيل إن الغنيمة لا تحلّ لكم، وإن حليّ القبط إنما هو غنيمة، فاجمعوها جميعا، فاحفروا لها حفرة فادفنوها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها، وإلا كان شيئا لم تأكلوه، فجمعوا ذلك الحليّ في تلك الحفرة، فجاء السامريّ بتلك القبضة فقذفها فأخرج الله من الحليّ عجلا جسدا له خوار، وعدّت بنو إسرائيل موعد موسى، فعدوا الليلة يوما، واليوم يوما، فلما كان لعشرين خرج لهم العجل، فلما رأوه قال لهم السامريّ {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ} فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي.. ".

قوله تعالى: {فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ} [طه: ٨٨]، أي:" فقال المفتونون به منهم للآخرين: هذا هو إلهكم وإله موسى، نسيه وغَفَل عنه".

قال ابن كثير:" فقالوا – أي: الضُّلال منهم، الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه –: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}، أي: نسيه هاهنا، وذهب يتطلبه".

قال مقاتل:" قال السامري وحده: هذا إلهكم وإله موسى معشر بني إسرائيل، وذلك أن بني إسرائيل لما عبروا البحر مروا على العمالقة وهم عكوف على أصنام لهم، قالوا لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فاغتنمها السامري فلما اتخذه قال: هذا إلهكم وإله موسى معشر بني إسرائيل {فنسي}، يقول: فترك موسى ربه وهو هذا، وقد ذهب موسى يزعم خطاب ربه".

قال قتادة: "لما استبطأ موسى قومه قال لهم السامريّ: إنما احتبس عليكم لأجل ما عندكم من الحليّ، وكانوا استعاروا حليا من آل فرعون فجمعوه فأعطوه السامريّ فصاغ منه عجلا ثم أخذ القبضة التي قبض من أثر الفرس، فرس الملك، فنبذها في جوفه، فإذا هو عجل جسد له خوار، قالوا: هذا إلهكم وإله موسى،

=

=

ولكن موسى نسي ربه عندكم".

عن مجاهد:" {فنسي}، قال: هم يقولونه قومه أخطأ الرب العجل".

وفي قوله تعالى: {فَنَسِيَ} [طه:٨٨]، أقوال:

أحدها: فنسي السامري إسلامه وإيمانه، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:" أي: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني: السامري".

قال ابن عباس:" فعكفوا عليه وأحبوه حبًّا لم يحبوا شيئًا قط يعني مثله، يقول الله: {فَنَسِيَ}، أي: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني: السامري".

وقال مكحول: " {فنسي}، أي: فترك السامري ما كان عليه من الدين.

الثاني: فنسي موسى إلهه عندكم، قاله قتادة، والضحاك، والسدي، وابن زيد. وأبوبكر الهذلي.

عن أبي بكر بن عبد الله الهذلي -من طريق حجاج- قال: " {هذا إلهكم وإله موسى فنسي}، يقول: إنّ موسى - عليه السلام - نَسِي ربَّه".

قال قتادة:" يقول: قال السامريّ: موسى نسي ربه عندكم".

وقال قتادة:"يقول: طلب هذا موسى فخالفه الطريق".

قال الضحاك:" يقول: نسي موسى ربه فأخطأه، وهذا العجل إله موسى".

قال السدي:" يقول: ترك موسى إلهه هاهنا وذهب يطلبه".

قال ابن زيد:" يقول: فنسي حيث وعده ربه هاهنا، ولكنه نسي".

وقال مجاهد:" هم يقولونه: أخطأ الربّ العجل".

الثالث: فنسي أن قومه لا يصدقونه في عبادة عجل لا يضر ولا ينفع، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

الرابع: أن موسى نسي أن قومه قد عبدوا العجل بعده، قاله مجاهد.

الخامس: فنسي موسى: أن يذكركم أن هذا إلهكم، رواه عكرمة عن ابن عباس.

=

=

السادس: فنسي موسى ضلّ عنه فلم يهتد له، روي عن ابن عباس أيضا.
قال الزمخشري: أي:" فنسي موسى أن يطلبه هاهنا، وذهب يطلبه عند الطور".
السابع: فنسي السامري أن العجل لا يرجع إليهم قولا، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا. حكاه ابن الجوزي.
قال ابن الجوزي:" فعلى هذا القول، يكون قوله تعالى: فنسي من إخبار الله ﷻ عن السامري. وعلى ما قبله، فيمن قاله قولان: أحدهما: أنه السامري. والثاني: بنو إسرائيل".
قال الطبري: والصواب" أن ذلك خبر من الله عزّ ذكره عن السامريّ أنه وصف موسى بأنه نسي ربه، وأنه ربه الذي ذهب يريده هو العجل الذي أخرجه السامري، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، وأنه عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبرا من السامري عنه بذلك أشبه من غيره".
قال ابن عباس:"كان السامريُّ رجلًا من أهل باجَرْما، وكان من قوم يعبدون البقر، فكان حبُّ عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل، فلمّا فصل موسى إلى ربه قال لهم هارون: إنكم قد حُمِّلتم أوزارًا مِن زينة القوم -آل فرعون- ومتاعًا وحليًّا، فتطهروا منها؛ فإنها رجس. وأوقد لهم نارًا، فقال: اقذفوا ما معكم مِن ذلك فيها. فجعلوا يأتون بما معهم فيقذفون فيها، ورأى السامريُّ أثر فرس جبريل، فأخذ ترابًا مِن أثر حافره، ثم أقبل إلى النار، فقال لهارون: يا نبيَّ الله، أُلْقِي ما في يدي؟ قال: نعم. ولا يظنُّ هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره مِن ذلك الحلي والأمتعة، فقذفه فيها، فقال: كُن عجلًا جسدًا له خوار. فكان؛ للبلاء والفتنة، فقال: {هذا إلهكم وإله موسى}. فعكفوا عليه، وأحبوه حبًّا لم يحبوا مثله شيئًا قط. يقول الله: {فنسي} أي: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني: السامري، {أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا}. وكان اسمُ

=

=

السامري: موسى بن ظَفَر، وقع في أرض مصر، فدخل في بني إسرائيل، فلما رأى هارون ما وقعوا فيه قال: {يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى} . فأقام هارون في مَن معه من المسلمين مِمَّن لم يُفْتَتَنْ، وأقام مَن يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوَّف هارونُ إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: {فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي} . وكان له هائبًا مطيعًا".

عن علي بن أبي طالب –من طريق أُبَيِّ بن عِمارة– قال: "إنّ جبريل لَمّا نزل فصعد بموسى إلى السماء بَصُر به السامريُّ مِن بين الناس، فقبض قبضة مِن أثر الفرس، وحمل جبريلُ موسى خلفَه، حتى إذا دنا مِن باب

السماء صعد، وكتب اللهُ الألواحَ وهو يسمع صرير الأقلام في الألواح، فلما أخبره أنّ قومه قد فُتِنوا من بعده نزل موسى، فأخذ العِجْل، فأحرقه".

والخوار: الصوت المسموع.

أي: فكانت نتيجة ما قذفوه من الحلي في النار، أن أخرج السامري لهم من ذلك عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوارٌ أي: صوت كصوت البقر.

قيل: إن الله تعالى خلق الحياة في ذلك العجل على سبيل الاختبار والامتحان لهم.

وقيل: لم تكن به حياة، ولكن السامري صنعه لهم بدقة، وجعل فيه منافذ إذا دخلت فيها الريح أخرجت منه صوتا كصوت خوار البقر.

فقال بنو إسرائيل عند ما رأوا العجل الذي صنعه لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه، لأن موسى نسى إلهه هنا، وذهب ليبحث عنه في مكان آخر، فالضمير في قوله فَنَسِيَ يعود لموسى.

وقولهم هذا يدل على بلادتهم وسوء أدبهم مع نبيهم، فهم لم يكتفوا بعبادة العجل، بل زعموا أن نبيهم الداعي لهم إلى توحيد الله، قد كان يعبد العجل وأنه قد نسى

=

مكانه فذهب يبحث عنه.
وقيل: إن الذي حدث منه النسيان هو السامري، وأن النسيان بمعنى الترك، أى: فترك السامري ما كان عليه من الإيمان الظاهري، ونبذ الدين الذي بعث الله تعالى به موسى، وحض الناس على عبادة العجل الذي صنعه لهم.
والقول الأول أرجح، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة، ولأنه هو المأثور عن السلف.
قال ابن جرير: «وأولى الأقوال بالصواب عندنا أن يكون فَنَسِيَ خبرا من الله تعالى عن السامري، وأنه وصف موسى بأنه نسى ربه، وأن ربه الذي ذهب يريده هو العجل الذي أخرجه السامري، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، ولأنه عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبرا من السامري عنه بذلك أشبه من غيره».
قوله تعالى: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا} [طه: ٨٩]، أي:" أفلا يرى الذين عبدوا العجل أنه لا يكلمهم ابتداء، ولا يردُّ عليهم جوابًا".
قال ابن كثير:" قال الله تعالى ردًّا عليهم، وتقريعًا لهم، وبيانًا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: {أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا} أي: العجل {أَفَلا يَرَوْنَ} أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه".
قال مقاتل:" يعني: أفهلا يرون أنه لا يكلمهم العجل".
قال السعدي:" أي: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه".
عن مجاهد:" {أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا}، قال: العجل".
قال السمعاني:" في بعض التفاسير: أن العجل خار خوارا واحدا، ولم يعد، فهو معنى قوله: {ألا يرجع إليهم قولا}، وقال بعضهم: لا يجيبهم إذا دعوه".
قوله تعالى: {وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} [طه: ٨٩]، أي:" ولا يقدر على دفع ضرٍّ عنهم، ولا جلب نفع لهم؟ ".

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠).

{وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُون مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل أَنْ يَرْجِع مُوسَى {يَا قَوْم إِنَّمَا فَتَنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبّكُمْ الرَّحْمَن فَاتَّبِعُونِي} فِي عِبَادَته {وَأَطِيعُوا أَمْرِي} فِيهَا.

قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١).

=

قال ابن كثير: " أي: في دنياهم ولا في أخراهم".

قال مقاتل:" يقول: لا يقدر العجل على أن يرفع عنهم سوءا، ولا يسوق إليهم خيرا".

عن مجاهد:" {ولا يملك لهم ضرا}، قال: ضلالة".

قال السعدي:" فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يعبد وهو أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدرون على بعض الأشياء، من النفع والدفع، بإقدار الله لهم، وهذا من بلادتهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جمادا، فظنوه إله الأرض والسماوات".

وقوله تعالى: أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا، وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا تقريع لهم على جهلهم وغبائهم وسوء أدبهم.

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أى: أبلغ عمى البصيرة عند هؤلاء السفهاء أنهم لم يفطنوا إلى أن هذا العجل الذي اتخذوه إلها، لا يستطيع أن يجيبهم إذا سألوه أو خاطبوه، ولا يرد عليهم قولا يقولونه له، ولا يملك لهم شيئا لا من الضر ولا من النفع.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا، اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ.

{قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ} نَزَال {عَلَيْهِ عَاكِفِينَ} عَلَى عبادته مقيمين {حتى يرجع إلينا موسى}(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ} [طه: ٩٠]، أي:" ولقد قال هارون لبني إسرائيل من قبل رجوع موسى إليهم".

قال الطبري:" يقول: لقد قال لعبدة العجل من بني إسرائيل هارون، من قبل رجوع موسى إليهم".

قوله تعالى: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ} [طه: ٩٠]، أي: "يا قوم إنما اختُبرتم بهذا العجل؛ ليظهر المؤمن منكم من الكافر".

قال السدي:" قال لهم هارون: يا بني إسرائيل، {إنما فتنتم به}، يقول: إنما ابتليتم به، يقول: بالعِجل".

قال مقاتل:" يعني: ابتليتم بالعجل".

قال الطبري:" يقول: إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل الذي أحدث فيه الخوار، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض القلب، الشاك في دينه".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عما كان من نَهْي هارون، عليه السلام، لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم".

وفي قوله تعالى: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ} [طه: ٩٠]، وجهان من التفسير:

أحدهما: معناه: صرتم مفتونين بالعجل بصوته وخواره أو بغيره.

الثاني: معناه: ضللتم به، أي: باتخاذ العجل إلها. يدل عليه قول موسى-عليه السلام-: {يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا} [طه: ٩٢].

قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ} [طه: ٩٠]، أي:" وإن ربكم الرحمن لا غيره".

قال ابن كثير:" الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، ذو العرش المجيد، الفعال لما =

=

يريد".

قال الطبري:" يقول: وإن ربكم الرحمن الذي يعم جميع الخلق نعمه".

قوله تعالى: {فَاتَّبِعُونِي} [طه: ٩٠]، أي:" فاتبعوني فيما أدعوكم إليه من عبادة الله".

قال مقاتل:" على ديني".

قال الطبري:" فاتبعوني على ما آمركم به من عبادة الله، وترك عبادة العجل".

قال الماتريدي:" أي: أجيبوا لي إلى ما أدعوكم به".

قال ابن كثير:" أي: فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه".

قوله تعالى: {وَأَطِيعُوا أَمْرِي} [طه: ٩٠]، أي:" وأطيعوا أمري في اتباع شرعه".

قال مقاتل:" يعني: قولي".

قال الطبري:" وأطيعوا أمري فيما آمركم به من طاعة الله، وإخلاص العبادة له".

قال الماتريدي:" أي: ما آمركم به".

وجملة: وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ ... قسمية مؤكدة لما قبلها.

أى: والله لقد نصح هارون- عليه السلام عبدة العجل من قومه، قبل رجوع موسى إليهم، فقال لهم مستعطفا:.. يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ.. أى: يا قوم إن ضلالكم وكفركم إنما هو بسبب عبادتكم العجل، فالضمير في بِهِ يعود إلى العجل.

وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ هو وحده المستحق للعبادة والطاعة.

وجمع -سبحانه- بين لفظي الرب والرحمن، لجذبهم نحو الحق، واستمالتهم نحوه، وللتنبيه على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم، لأنه -سبحانه- هو الرحمن الرحيم.

والفاء في قوله: فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

أى: وما دام الأمر كذلك فاتبعوني وأطيعوا أمرى، في الثبات على الحق، وفي نبذ

=

=

عبادة العجل، وفي المحافظة على ما عاهدكم عليه موسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هارون لهم لم تجد أذنا صاغية. بل قابلوا نصيحته لهم بالاستخفاف والتصميم على ما هم فيه من ضلال، إذ قالوا في الرد عليه: لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ أى: سنستمر على عبادة العجل، وسنواظب على هذه العبادة مواظبة تامة حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى فنرى ماذا سيكون منه.

قوله تعالى: {قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١)} [طه: ٩١]

قال الطبري:" يقول: قال عبدة العجل من قوم موسى: لن نزال على العجل مقيمين نعبده، حتى يرجع إلينا موسى".

قال الماتريدي:" أي: لن نزال على عبادة العجل مقيمين حتى يرجع إلينا موسى، وقيل: أي: لن نفارق عبادته".

قال ابن كثير:" أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه".

قال أبو عبيدة: {لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ}، معناه: "لن نزال، قال أوس بن حجر:

فما برحت خيل تثوب وتدّعى... ويلحق منها لاحق وتقطّع

أي: فما زالت".

واختلف في الذين عبدوا العجل على أقوال:

أحدها: أنهم كلهم عبدوا العجل، إلا هارون. وها يدل عليه ظاهر قوله تعالى: {ثم اتخذتم} [البقرة:٥١].

الثاني: وقيل: الذين عكفوا على عبادته من قوم موسى، ثمانية آلاف رجل.

الثالث: وقيل: كلهم عبدوه إلا هارون مع اثني عشر ألفًا.

الرابع: وقيل: إلا هارون والسبعين رجلًا الذين كانوا مع موسى.

=

=

قال أبو حيان: "وهذا هو الصحيح"، أي القول الأخير.

قال الثعلبي:" وكان بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدّوا اليوم والليلة يومين، فلما مضت عشرون يوما ولم يرجع موسى عليه السلام ورأوا العجل وسمعوا قول السامري، أفتتن بالعجل ثمانية ألف رجل منهم، وعكفوا عليه يعبدونه من دون الله عز وجل".

فهم لجهالاتهم وانطماس بصائرهم، وسوء أدبهم، يرون أن هارون- عليه السلام ليس أهلا للنصيحة والطاعة، مع أنه قد خاطبهم بأحكم أسلوب، وألطف منطق.

قال الرازي: واعلم أن هارون- عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم عن الباطل- أولا- بقوله: يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ ثم دعاهم إلى معرفة الله- ثانيا- بقوله: وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ ثم دعاهم- ثالثا- إلى معرفة النبوة بقوله: فَاتَّبِعُونِي ثم دعاهم- رابعا- إلى الشرائع بقوله: وَأَطِيعُوا أَمْرِي.

وهذا هو الترتيب الجيد، لأنه لا بد قبل كل شيء من إماطه الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات، ثم معرفة الله تعالى هي الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة: فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه، ولكنهم لجهلهم وعنادهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال، بالتقليد والجمود فقالوا: لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى. ا.هـ

قال الشنقيطي: بين جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين: أن بني إسرائيل لما فتنهم السامريّ وأضلهم بعبادة العجل، نصحهم نبي الله هارون عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وبين لهم أن عبادتهم العجل فتنة فتنوا بها؛ أي: كفر وضلال ارتكبوه بذلك، وبين لهم أن ربهم الرحمن خالق كل شيء جل وعلا، وأن عجلًا مصطنعًا من حُلي لا يعبده إلا مفتون ضال كافر. وأمرهم باتباعه في توحيد الله تعالى، والوفاء بموعد موسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام وأن يطيعوه في ذلك؛ فصارحوه بالتمرد والعصيان والديمومة على الكفر حتى يرجع موسى،

=

=

وهذا يدل على أنه بلغ معهم غاية جهده وطاقته، وأنهم استضعفوه وتمردوا عليه ولم يطيعوه.

وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في "الأعراف": {قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} فقوله عنهم في خطابهم له: {لَنْ نَبْرَحَ عَلَيهِ عَاكِفِينَ} يدل على استضعافهم له وتمردهم عليه المصرح به في "الأعراف" كما بينا. وقال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات الكريمات ما نصه: وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأُعلِمَ حرس الله مدته: أنه اجتمع جماعة من رجال، فيكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد ﷺ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيًّا عليه، ويحضرون شيئًا يأكلونه. هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفتونا مأجورين. وهذا القول الذي يذكرونه:

يا شيخُ كفَّ عن الذنوب ... قبلَ التفرُّق والزَّلَل

واعمل لنفسك صالحًا ... مادام ينفعك العمل

أما الشبابُ فقد مضى ... ومشيبُ رأسك قد نزل

وفي مثل هذا ونحوه.

الجواب يرحمك الله: مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأما الرقص والتواجد؛ فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلًا جسدًا له خوار، قاموا يرقصون حواليه، ويتواجدون، فهو دين الكفار وعباد العجل. وأما القضيب؛ فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى. وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رءوسهم الطير من الوقار؛ فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من حضور المساجد

=

=

وغيرها. ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا أن يعينهم على باطلهم. هذا مذهب مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق. انتهى منه للفظه.

قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: قد قدمنا في سورة "مريم" ما يدل على أن بعض الصوفية على الحق؛ ولا شك أن منهم ما هو على الطريق المستقيم من العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبذلك عالجوا أمراض قلوبهم وحرسوها، وراقبوها وعرفوا أحوالها، وتكلموا على أحوال القلوب كلامًا مفصلًا كما هو معلوم، كعبد الرحمن بن عطية، أو ابن أحمد بن عطية، أو ابن عسكر أعني أبا سليمان الداراني، وكعون بن عبد الله الذي كان يقال له: حكيم الأمة، وأضرابهما، وكسهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي، وأبي عثمان النيسابوري، ويحيى بن معاذ الرازي، والجنيد بن محمد، ومن سار على منوالهم، لأنهم عالجوا أمراض أنفسهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولا يحيدون عن العمل بالكتاب والسنة ظاهرًا وباطنًا، ولم تظهر منهم أشياء تخالف الشرع. فالحكم بالضلال على جميع الصوفية لا ينبغي ولا يصح على إطلاقه، والميزان الفارق بين الحق والباطل في ذلك هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فمن كان منهم متبعًا لرسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، وهديه وسمته، كمن ذكرنا وأمثالهم، فإنهم من جملة العلماء العاملين، ولا يجوز الحكم عليهم بالضلال، وأما من كان على خلاف ذلك فهو الضال.

نعم، صار المعروف في الآونة الأخيرة، وأزمنة كثيرة قبلها بالاستقراء، أن عامة الذين يدعون التصوف في أقطار الدنيا إلا من شاء الله منهم دجاجلة يتظاهرون بالدين ليضلوا العوام الجهلة وضعاف العقول من طلبة العلم، ليتخذوا بذلك أتباعًا وخدمًا، وأموالًا وجاهًا، وهم بمعزل عن مذهب الصوفية الحق، لا يعملون

=

قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢).

{قَالَ} مُوسَى بَعْد رُجُوعه {يَا هَارُون مَا مَنَعَك إذْ رَأَيْتهمْ ضَلُّوا} بِعِبَادَتِهِ.

أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣).

{أَ} ن {لا تتبعن} لَا زَائِدَة {أَفَعَصَيْت أَمْرِي} بِإِقَامَتِك بَيْن مَنْ يعبد غير الله تعالى.

قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤).

{قال} هارون {يا بن أُمّ} بِكَسْرِ الْمِيم وَفَتْحهَا أَرَادَ أُمِّي وَذِكْرهَا أَعْطَف لِقَلْبِهِ

=

بكتاب الله ولا بسنة نبيه، واستعمارهم لأفكار ضعاف العقول أشد من استعمار كل طوائف المستعمرين. فيجب التباعد عنهم، والاعتصام من ضلالتهم بكتاب الله وسنة نبيه، ولو ظهر على أيديهم بعض الخوارق، ولقد صدق من قال:

إذا رأيت رجلًا يطير ... وفوق ماء البحر قد يسير

ولم يقف عند حدودِ الشرع ... فإنه مُسْتدرج أو بِدعي

والقول الفصل في ذلك هو قوله تعالى: {لَيسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}، فمن كان عمله مخالفًا للشرع كمتصوفة آخر الزمان فهو الضال، ومن كان عمله موافقًا لما جاء به نبينا عليه الصلاة والسلام فهو المهتدي. نرجو الله تعالى أن يهدينا وإخواننا المؤمنين، وألا يزيغنا ولا يضلنا عن العمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ التي هي محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

{لَا تَأْخُذ بِلِحْيَتِي} وَكَانَ أَخَذَهَا بِشِمَالِهِ {وَلَا بِرَأْسِي} وَكَانَ أَخَذَ شَعَره بِيَمِينِهِ غَضَبًا {إِنِّي خَشِيت} لَوْ اتَّبَعْتُك وَلَا بُدّ أَنْ يَتَّبِعَنِي جَمْع مِمَّنْ لَمْ يَعْبُدُوا الْعِجْل {أَنْ تَقُول فَرَّقْت بَيْن بَنِي إِسْرَائِيل} وَتَغْضَب عَلَيَّ {وَلَمْ تَرْقُب} تَنْتَظِر {قَوْلِي} فِيمَا رَأَيْته فِي ذلك[1].

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ} [طه: ٩٢ - ٩٣]، أي:" قال

قال الطبري:" قال موسى لأخيه هارون لما فرغ من خطاب قومه ومراجعته إياهم على ما كان من خطأ فعلهم: يا هارون أي شيء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم، فكفروا بالله وعبدوا العجل ألا تتبعني".

قال ابن كثير:" يقول مخبراً عن موسى، عليه السلام، حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلأ عند ذلك غيظًا، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا في «الأعراف» بسط ذلك، وذكرنا هناك حديث "ليس الخبر كالمعاينة».

وشرع يلوم أخاه هارون فقال: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلا تَتَّبِعَنِ} أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع".

قال الماتريدي:" يحتمل {ألا تتبعن}، أي: ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا صرت إلى ما كنت صرت أنا؟ وقد علمت إلى أين صرت أنا، أو أن يكون قوله: {ألا تتبعن}، أي: ألا تتبع ديني وسنتي، وكانت سنته ومذهبه القتال والحرب معهم إذا ضلوا وتركوا دين الله".

عن ابن زيد: قوله: " {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِي}، قال: تدعهم".

وقال ابن جريج:" أمر موسى هارون أن يصلح، ولا يتبع سبيل المفسدين، فذلك قوله: {أَلا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} بذلك".

=

=

قوله تعالى: {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [طه: ٩٣]، أي:" أفعصيت أمري فيما أمرتك به من خلافتي والإصلاح بعدي؟ ".

قال ابن كثير:" أي: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ١٤٢] ".

قال محمد بن إسحاق:" لما انتهى موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، ألقى الألواح من يده، ثم أخذ برأس أخيه ولحيته، ويقول: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [سورة طه: ٩٢، ٩٣] ".

أي: قال موسى لأخيه هارون على سبيل اللوم والمعاتبة: يا هارون أي شيء منعك من مقاومتهم وقت أن رأيتهم ضلوا بسبب عبادتهم للعجل و «لا» في قوله: أَلَّا تَتَّبِعَنِ مزيدة للتأكيد. والاستفهام في قوله: أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي للإنكار.

قال الشنقيطي: قال بعض أهل العلم: "لا" في قوله: {أَلَّا تَتَّبِعَنِ} زائدة للتوكيد. واستدل من قال ذلك بقوله تعالى في "الأعراف": {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} قال لأن المراد: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك بدليل قوله في القصة بعينها في سورة "ص": {قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} الآية؛ فحذف لفظة "لا" في "ص" مع ثبوتها في "الأعراف" والمعنى واحد؛ فدل ذلك على أنها مزيدة للتوكيد.

قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: قد عرف في اللغة العربية أن زيادة لفظة "لا" في الكلام الذي فيه معنى الجحد لتوكيده مطردة؛ كقوله هنا: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ} أي ما منعك أن تتبعني، وقوله: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ} بدليل قوله في "ص": {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} الآية، وقوله تعالى: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ} الآية؛ أي: ليعلم أهل الكتاب، وقوله: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ} أي: فوربك لا يؤمنون، وقوله: {وَلَا

=

=

تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ} أي: والسيئة، وقوله: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥)} على أحد القولين، وقوله: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)} على أحد القولين، وقوله: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا} الآية على أحد الأقوال فيها. ونظير ذلك من كلام العرب قول امرئ القيس:

فلا وأبيك ابنةَ العامري ... لا يدَّعِي القومُ أني أَفِرْ

يعني: فوأبيك. وقول أبي النجم:

فما ألوم البِيضَ ألا تسخرا ... لما رأَين الشَّمَط القَفَنْدَرا

يعني: أن تسخر. وقول الآخر:

ما كان يرضي رسول الله دينهم ... والأطيبان أبو بكر ولا عمر

يعني: وعمر. وقول الآخر

وتلحينني في اللهو ألَّا أحبه ... وللهو داع دائب غير غافل

يعني أن أحبه، و"لا" مزيدة في جميع الأبيات لتوكيد الجحد فيها. وقال الفراء: إنها لا تزاد إلا في الكلام الذي فيه معنى الجحد كالأمثلة المتقدمة. والمراد بالجحد النفي وما يشبهه كالمنع في قوله: {مَا مَنَعَكَ} ونحو ذلك. والذي يظهر لنا والله تعالى أعلم: أن زيادة لفظة "لا" لتوكيد الكلام وتقويته أسلوب من أساليب اللغة العربية، وهو في الكلام الذي فيه معنى الجحد أغلب مع أن ذلك مسموع في غيره. وأنشد الأصمعي لزيادة "لا" قول ساعدة الهذلي:

أفعنك لا برق كان وميضه ... غاب تسنمه ضرام مثقب

ويروى "أفمنك" بدل "أفعنك" و"تشيمه" بدل "تسنمه" يعني أعنك برق و"لا" زائدة للتوكيد، والكلام ليس فيه معنى الجحد. ونظيره قول الآخر:

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة ... وكاد صميم القلب لا يتقطع

=

=

يعني: كاد يتقطع. وأنشد الجوهري لزيادة "لا" قول العجاج:

في بئر لا حور سرى وما شعر ... بإفكه حتى رأى الصبح جشر

والحور الهلكة؛ يعني في بئر هلكة و"لا" زائدة للتوكيد؛ قاله أبو عبيدة وغيره. والكلام ليس فيه معنى الجحد. وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة "البلد"...

وهذه الآية الكريمة تدل على اقتضاء الأمر للوجوب؛ لأنه أطلق اسم المعصية على عدم امتثال الأمر، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة؛ كقوله تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)}، وقوله: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} فجعل أمره وأمر رسوله ﷺ مانعا من الاختيار، موجبا للامتثال. وقوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} فوبخه هذا التوبيخ الشديد على عدم امتثال الأمر المدلول عليه بصيغة أفعل في قوله تعالى: {اسْجُدُوا لِآدَمَ}. وجماهير الأصوليين على أن صيغة الأمر المجردة عن القرائن تقتضي الوجوب للأدلة التي ذكرنا وغيرها مما هو مماثل لها؛ وإلى ذلك أشار في مراقي السعود بقوله:

وافعل لدى الأكثر للوجوب ... وقيل للندب أو المطلوب.. الخ ا.هـ

أى: ما الذي منعك من أن تتبعني في الغضب عليهم لدين الله حين رأيتهم عاكفين على عبادة العجل، أفعصيت أمرى فيما قدمت إليك من قولي: اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ وفيما أمرتك به من الصلابة في الدين، لأن وجودك فيهم وقد عبدوا غير الله تعالى يعتبر تهاونا معهم فيما لا يصح التهاون فيه. وكأن موسى- عليه السلام كان يريد من أخيه هارون- عليه السلام موقفا يتسم بالحزم والشدة مع هؤلاء الجاهلين، حتى ولو أدى الأمر لمقاتلتهم ...

وهنا يرد هارون على أخيه موسى ردا يبدو فيه الرفق والاستعطاف فيقول: ابْنَ أُمَّ

=

=
لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي.
قوله تعالى: {قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي} [طه: ٩٤]، أي:" ثم أخذ موسى بلحية هارون ورأسه يجرُّه إليه، فقال له هارون: يا ابن أمي لا تمسك بلحيتي ولا بشعر رأسي".
قال الطبري: في الكلام محذوف، تقدير:" ثم أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجرّه إليه، فقال هارون: {يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي} ".
وفي قوله تعالى:{يَبْنَؤُمَّ} [طه: ٩٤]، قولان:
أحدهما: أنه قال ذلك لأنه كان أخاه لأمه، قاله الحسن.
الثاني: أنه قال ذلك على عادة العرب استعطافًا بالرحم، كما قال الشاعر:
يَا ابْنَ أُمِّي وَيَا شقيقَ نَفْسِي... أَنْتَ خَلَّيْتَنِي لأَمْرٍ شَدِيدِ
قال ابن عطية:" وقوله: {ابْنَ أُمَ}، استلطاف برحم الأم إذ هو ألصق القرابات".
قال ابن كثير:" ترفق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ، أي: في الحنو والعطف ".
قال الماتريدي:" دل قوله: {لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي} بأن كان له الشعر، فكنى بالرأس عن الشعر".
قال الثعلبي: {لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي}، " يعني: ذؤابتي وشعر رأسي إذ هما عضوان مصونان يقصدان بالإكرام والإعظام من بين سائر الأعضاءني".
روي عن ابن عباس: "أخذ شعره بيمينه ولحيته بيساره، لأن الغيرة في الله ملكته".
قال القرطبي:" وقد قيل: إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما فعل هذا على غير استخفاف ولا عقوبة كما يأخذ الإنسان بلحية نفسه. والله ﷻ أعلم بما أراد نبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ".
قوله تعالى: {إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [طه: ٩٤]، أي:" إني خفتُ - إن تركتهم ولحقت بك - أن تقول: فرَّقت بين بني
=

=

إسرائيل، ولم تحفظ وصيتي بحسن رعايتهم".

قال الطبري:" فقال له هارون: إني خشيت أن تقول، فرّقت بين جماعتهم، فتركت بعضهم وراءك، وجئت ببعضهم، ولم تنظر قولي وتحفظه".

قال ابن كثير:" هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم قال {إِنِّي خَشِيتُ} أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم {وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}، أي: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم".

قال مقاتل:" لو أنكرت عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضا".

قال يحيى:" يقول: لو اتبعتك وتركتهم لخشيت أن تقول لي هذا القول".

عن ابن عباس:" {وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}، قال: لم تحفظ قولي".

قال أبو عبيدة:" {لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}، معناه: "لم تسمع قولى ولم تنتظر. وفى آية أخرى: {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً} [التوبة: ١٠]، أي: لا يراقبون".

وفي قوله تعالى: {إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [طه: ٩٤]، وجهان:

أحدهما: أني خشيت إن اتبعتك وصرت إلى ما صرت أنت تقول لي: {فرقت بين بني إسرائيل}؛ لأنك لو نهيتهم عما اختاروا من عبادة العجل وبينت لهم السبيل لعلهم يتبعونك، فحيث لم تفعل فأنت الذي فرقت بينهم.

والثاني: على تفسير القتال والحرب في قوله: {ألا تتبعن} إني خشيت لو قاتلتهم ونصبت الحرب بينهم صاروا فريقين، فإذا تفرقوا اقتتلوا وسفكوا الدماء وتفانوا، فترك القتال لما أطمعوه الإيمان إذا رجع إليهم موسى ونهاهم عن ذلك، فلعل سنته في القتال مع من لم يطمع منه الإيمان، هذا على تأويل من يقول بأن هارون اعتزلهم لما عبدوا العجل مع عشرة آلاف نفر وأكثر أو أقل على ما ذكر.

=

=

وأما الحسن فإنه يقول: "كلهم قد عبدوا العجل إلا هارون".

فعلى قوله لا يحتمل الحرب والقتال معهم".

قال ابن زيد:" خشيت أن يتبعني بعضهم ويتخلف بعضهم".

قال ابن جريج:" كنا نكون فرقتين فيقتل بعضنا بعضا حتى نتفانى".

قال قتادة:" قد كَرِه الصالحون الفُرْقَةَ قبلكم".

قال السمعاني:" فإن قال قائل: هل تقولون إن هارون خالف موسى فيما طلب منه، وأنه داهن عبدة العجل، ولم يشدد في منعهم عنها؟

والجواب: أن موسى لم يطلب من هارون إلا أن يخلفه في قومه، وأن يرفق بهم، فرأى هارون أن لا يقاتلهم، وأن الإمساك عن قتالهم أصلح، ورأى موسى أن يقاتلهم، ورأى أن القتال أصلح، فهذا رأي مجتهد خالف رأي مجتهد، ولا عيب فيه، وإنما عاتبه موسى في تركه القتال، يعني: لو كنت أنا مكانك كنت أقاتلهم، فهلا فعلت مثل ذلك".

قال ابن عباس:" لما قال القوم: {لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}، أقام هارون فيمن تبعه من المسلمين ممن لم يُفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوّف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: {فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}، وكان له هائبا مطيعا".

أى: قال هارون لموسى محاولا أن يهدئ من غضبه، بتحريك عاطفة الرحم في قلبه:

يا بن أمى لا تمسك بلحيتي ولا برأسى على سبيل التأنيب لي. فإنى لست عاصيا لأمرك، ولا معرضا عن اتباعك.

قال الآلوسى ما ملخصه: خص الأم بالإضافة استعطافا وترقيقا لقلبه، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه، فإن الجمهور على أنهما كانا شقيقين.

=

=

وقوله: تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي

... روى أنه أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله، وكان موسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ حديدا متصلبا غضوبا لله تعالى، وغلب على ظنه أن هارون قد قصر معهم.. .

وقوله: (نِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي).

استئناف لتعليل موجب النهى، بتحقيق أنه غير عاص لأمره، وغير معرض عن اتباعه.

أى: يا بن أمى لا تأخذ بلحيتي ولا برأسى، فإنى ما حملني على البقاء معهم وعلى ترك مقاتلتهم بعد أن عبدوا العجل، إلا خوفي من أن تقول لي- لو قاتلتهم أو فارقتهم بمن معى من المؤمنين- إنك بعملك هذا قد جعلت بنى إسرائيل فرقتين متنازعتين.

(لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى أن معنى قوله تعالى: { ولم ترقب قولي } أي لم تنتظر عهدي وقدومي. وبنحوه روي عن ابن جريج. وبه قال أبو عبيدة معمر بن المثنى، والسمرقندي.

وروي عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن المعنى: لم تحفظ قولي. وبه قال السمعاني. وقال الثعلبي: (أي لم تحفظ وصيتي).

وجمع الطبري بين قولين بقوله: (لم تنتظر قولي وتحفظه).

أى: ولم تتبع وتطع قولي لك: اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ولذلك لم أقدم على مقاتلتهم بمن معى من المؤمنين، ولم أقدم كذلك على مفارقتهم، بل بقيت معهم ناصحا واعظا، حتى تعود أنت إليهم، فتتدارك الأمر بنفسك، وتعالجه برأيك.

قال بعض العلماء ما ملخصه: وهذه الآية الكريمة ... تدل على لزوم إعفاء اللحية وعدم حلقها، لأنه لو كان هارون حالقا لحيته لما أخذ بها موسى- إذ من المشهور

=

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ (٩٥).

{قَالَ فَمَا خَطْبك} شَأْنك الدَّاعِي إلَى مَا صنعت {يا سامري}.

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦).

{قَالَ بَصُرْت بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء أَيْ عَلِمْت مَا لَمْ يَعْلَمُوهُ {فَقَبَضْت قَبْضَة مِنْ} تُرَاب {أَثَر} حَافِر فَرَس {الرَّسُول} جِبْرِيل {فَنَبَذْتهَا} أَلْقَيْتهَا فِي صُورَة الْعِجْل الْمُصَاغ {وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ} زَيَّنَتْ {لِي نَفْسِي} وَأُلْقِيَ فِيهَا أَنَّ آخِذ قَبْضَة مِنْ تُرَاب مَا ذُكِرَ وَأُلْقِيهَا عَلَى مَا لَا رُوح لَهُ يَصِير لَهُ رُوح وَرَأَيْت قَوْمك طَلَبُوا مِنْك أَنْ تَجْعَل لَهُمْ إلَهًا فَحَدَّثَتْنِي نَفْسِي أَنْ يَكُون ذَلِكَ الْعِجْل إلَههمْ.

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧).

{قَالَ} لَهُ مُوسَى {فَاذْهَبْ} مِنْ بَيْننَا {فَإِنَّ لَك فِي الْحَيَاة} أَيْ مُدَّة حَيَاتك {أَنْ تَقُول} لِمَنْ رَأَيْته {لَا مِسَاس} أَيْ لَا تَقْرَبنِي فَكَانَ يَهِيم فِي الْبَرِيَّة وَإِذَا مَسَّ أَحَدًا أَوْ مَسَّهُ أَحَد حُمَّا جَمِيعًا {وَإِنَّ لَك مَوْعِدًا} لِعَذَابِك {لَنْ تُخْلِفهُ} بِكَسْرِ

=

أن اللحية تطلق على الشعر النابت في العضو المخصوص وهو الذقن- وبذلك يتبين لك أن إعفاء اللحية سمت الرسل الكرام الذين أمرنا الله تعالى بالاقتداء بهم. فقد قال تعالى: بعد أن ذكر عددا من الأنبياء منهم هارون: أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ ... والعجب من الذين مسخت ضمائرهم ... حتى صاروا ينفرون من صفات الذكورية، وشرف الرجولة إلى خنوثة الأنوثة..

اللَّام أَيْ لَنْ تَغِيب عَنْهُ وَبِفَتْحِهَا أَيْ بَلْ تُبْعَث إلَيْهِ {وَانْظُرْ إلَى إلَهك الَّذِي ظَلْتَ} أَصْله ظَلِلْت بِلَامَيْنِ أُولَاهُمَا مَكْسُورَة حُذِفَتْ تَخْفِيفًا أَيْ دُمْت {عَلَيْهِ عَاكِفًا} أَيْ مُقِيمًا تَعْبُدهُ {لَنُحَرِّقَنَّهُ} بِالنَّارِ {ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمّ نَسْفًا} نُذْرِيَنَّهُ فِي هَوَاء الْبَحْر وَفَعَلَ مُوسَى بَعْد ذَبْحه مَا ذَكَرَهُ.

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨).

{إنَّمَا إلَهكُمْ الله الَّذِي لَا إلَه إلَّا هُوَ وَسِعَ كُلّ شَيْء عِلْمًا} تَمْيِيز مُحَوَّل عَنْ الْفَاعِل أَيْ وَسِعَ عِلْمه كُلّ شَيْء[1].

(١) قوله تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥)} [طه: ٩٥]

قال يحيى: " أي: ما حجتك؟ ".

قال ابن قتيبة: " أي ما أمرك وما شأنك؟ ".

قال الطبري: " قال موسى للسامري: فما شأنك يا سامري، وما الذي دعاك إلى ما فعلته".

قال ابن زيد: " ما أمرك؟ ما شأنك؟ ما هذا الذي أدخلك فيما دخلت فيه".

قال السدي: " ما لك يا سامريّ؟ ".

قال قتادة: " لَمْ يكن اسمَه، ولكنه كان من قرية اسمها: سامِرَة".

قال قتادة: " كان والله السامريّ عظيما من عظماء بني إسرائيل، من قبيلة يقال لها سامرة، ولكن عدوّ الله نافق بعد ما قطع البحر مع بني إسرائيل".

أي: قال موسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ للسامري: فَما خَطْبُكَ أي: ما شأنك، وما الأمر العظيم الذي جعلك تفعل ما فعلت؟ مصدر خطب يخطب- كقعد يقعد- ومنه قولهم: هذا خطب يسير أو جلل، وجمعه خطوب. وخصه بعضهم بما له خطر من الأمور، وأصله:

الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب والتشاور، ويخطب الخطيب الناس من =

=

أجله.

وقد رد السامري على موسى بقوله: بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ أي: علمت ما لم يعلمه القوم، وفطنت لما لم يفطنوا له، ورأيت ما لم يروه.

قوله تعالى: {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ} [طه: ٩٦]، أي:" قال السامري: رأيت ما لم يروه - وهو جبريل عليه السلام - على فرس، وقت خروجهم من البحر وغرق فرعون وجنوده".

قال الطبري:" يقول: قال السامريّ: علمت ما لم يعلموه، وهو فعلت من البصيرة: أي صرت بما عملت بصيرا عالما".

قال الزجاج: أي:"علمت بما لم يعلموا به، وكان رأى فرس جبريل -عليه السلام-".

عن قتادة:" {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ}، يعني: فرس جبرائيل عليه السلام".

وقال ابن جريج:" لما قتل فرعون الولدان قالت أمّ السامريّ: لو نحيته عني حتى لا أراه، ولا أدري قتله، فجعلته في غار، فأتى جبرائيل، فجعل كفّ نفسه في فيه، فجعل يُرضعه العسل واللبن، فلم يزل يختلف إليه حتى عرفه، فمن ثم معرفته إياه حين قال: {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ} ".

قوله تعالى: {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ} [طه: ٩٦]، أي:" فأخذتُ بكفي ترابا من أثر حافر فرس جبريل".

قال الزجاج:" فقبض قبضة من تراب حافر الفرس، والقبضة: قبض الشيء مرة واحدة، والقبصة مقدار ما يقبص".

عن مجاهد، قوله:" {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا}، قال: من تحت حافر فرس جبرائيل، نبذه السامريّ على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلا جسدا له خوار، حفيف الريح فيه فهو خواره، والعجل: ولد البقرة".

قال ابن عباس:" لما قذفت بنو إسرائيل ما كان معهم من زينة آل فرعون في النار،

=

=

وتكسرت، ورأى السامري أثر فرس جبرائيل عليه السلام، فأخذ ترابا من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار فقذفه فيها، وقال: كن عجلا جسدا له خوار، فكان للبلاء والفتنة".

روي عن الحسن:"أنه قرأها" «فَقَبَصْتُ قَبْصَةً»، بالصاد".

قال الطبري:" بمعنى: أخذت بأصابعي من تراب أثر فرس الرسول، والقبضة عند العرب: الأخذ بالكفّ كلها، والقبصة: الأخذ بأطراف الأصابع".

قوله تعالى: {فَنَبَذْتُهَا} [طه: ٩٦]، أي:" فألقيته على الحليّ الذي صنعت منه العجل".

قال الطبري:" يقول: فألقيتها".

قال الزجاج:" ألقيتها في العجل لتخور".

قال يحيى:" أي: ألقيتها في العجل، يعني حين صاغه، وكان صائغا، فخار العجل".

قال يحيى:" وفي قراءة ابن مسعود: «من أثر الفرس»، كان أخذها من أثر فرس جبريل، فصرها في عمامته ثم قطع البحر فكانت معه".

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي} [طه: ٩٦]، أي:" وكذلك زيَّنت لي نفسي الأمَّارة بالسوء هذا الصنيع".

قال الطبري:" يقول: وكما فعلت من إلقائي القبضة التي قبضت من أثر الفرس على الحلية التي أوقد عليها حتى انسبكت فصارت عجلا جسدا له خوار، زينت لي نفسي أن يكون ذلك كذلك".

قال ابن الجوزي:" أي: وكما حدثتك زينت لي نفسي".

عن ابن زيد:" {وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}، قال: كذلك حدثتني نفسي".

قال يحيى:" وكذلك زينت لي نفسي. وقع في نفسي إذا ألقيتها في العجل خار".

عن ابن عباس:"أن هارون أتى على السامري وهو يصنع العجل فقال: ما تصنع؟

=

=

قال: أصنع ما يضر ولا ينفع، فقال هارون: اللهم أعطه الذي سألك على ما في نفسه. فلما صنعه قال هارون: اللهم إني أسألك أن يخور، فخار العجل وذلك بدعوة هارون".

قال الزجاج: يقال: بصر بالشيء يبصر- ككرم وفرح- إذا علمه، وأبصره إذا نظر إليه.

وقيل: هما بمعنى واحد.

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها روى أن السامري رأى جبريل- عليه السلام حين جاء إلى موسى ليذهب به إلى الميقات لأخذ التوراة عن الله- عز وجل ولم ير جبريل أحد غير السامري من قوم موسى، ورأى الفرس كلما وضعت حافرها على شيء اخضرت، فعلم أن للتراب الذي تضع عليه الفرس حافرها شأنا، فأخذ منه حفنة وألقاها في الحلي المذاب فصار عجلا جسدا له خوار.

والمعنى قال السامري لموسى: علمت ما لم يعلمه غيرى فأخذت حفنة من تراب أثر حافر فرس الرسول وهو جبريل- عليه السلام فألقيت هذه الحفنة في الحلي المذاب، فصار عجلا جسدا له خوار.

وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي أى: ومثل هذا الفعل سولته لي نفسي، أى زينته وحسنته لي نفسي، لأجعل بنى إسرائيل يتركون عبادة إلهك يا موسى، ويعبدون العجل الذي صنعته لهم.

وعلى هذا التفسير الذي سار عليه كثير من المفسرين، يكون المراد بالرسول: جبريل- عليه السلام ويكون المراد بأثره: التراب الذي أخذه من موضع حافر فرسه.

هذا، وقد نقل الفخر الرازي عن أبى مسلم الأصفهاني المعتزلي رأيا آخر في تفسير الآية فقال ما ملخصه: ليس في القرآن ما يدل على ما ذكره المفسرون، فهنا وجه آخر، وهو أن يكون المراد بالرسول: موسى- عليه السلام وبأثره: سنته ورسمه الذي أمر

=

=

به، فقد يقول الرجل: فلان يقص أثر فلان ويقتص أثره إذا كان يمتثل رسمه، والتقدير: أن موسى لما أقبل على السامري بالتوبيخ وبسؤاله عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم بعبادة العجل، رد عليه بقوله: بصرت بما لم يبصروا به، أي: عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول، أي: أخذت شيئا من علمك ودينك فنبذته، أي: طرحته...

وعلى هذا التفسير الذي ذهب إليه أبو مسلم يكون المراد بالرسول: موسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ ويكون المراد بأثره: دينه وسنته وعلمه.

ويكون المعنى الإجمالى للآية: أن السامري قال لموسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ كنت قد أخذت جانبا من دينك وعلمك، ثم تبين لي أنك على ضلال فنبذت ما أخذته عنك وسولت لي نفسي أن أصنع للناس عجلا لكي يعبدوه لأن عبادته أراها هي الحق.

وقد رجحه الزمخشري بتقديمه في الذكر على تفسير الجمهور، وكذا رجحه الرازي في تفسيره فقال: واعلم أن هذا القول الذي قاله أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة للمفسرين، ولكنه أقرب إلى التحقيق لوجوه.

١ - أن جبريل ليس مشهورا باسم الرسول، ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه.

٢- أنه لا بد فيه من الإضمار، وهو قبضته من أثر حافر فرس الرسول، والإضمار خلاف الأصل.

٣- أنه لا بد من التعسف في بيان أن السامري كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته؟ ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر؟ والذي ذكروه أن جبريل هو الذي رباه بعيد...

وقد رد الآلوسى هذا القول فقال: وأجيب بأنه قد عهد في القرآن العظيم إطلاق الرسول على جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد قال سبحانه إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ [الحاقة: ٤٠،

=

=

التكوير: ١٩] وعدم جريان ذكر له فيما تقدم لا يمنع من أن يكون معهودا، ويجوز أن يكون إطلاق الرسول عليه عليه السلام شائعا في بني إسرائيل لا سيما إن قلنا بصحة ما روي أنه عليه السلام كان يغذي من يلقى من أطفالهم في الغار في زمان قتل فرعون لهم، وبأن تقدير المضاف في الكلام أكثر من أن يحصى وقد عهد ذلك في كتاب الله تعالى غير مرة، وبأن رؤيته جبريل عليه السلام دون الناس كان ابتلاء منه تعالى ليقضي الله أمرا كان مفعولا. وبأن معرفته تأثير ذلك الأثر ما ذكر كانت لما ألقى في روعه أنه لا يلقيه على شيء فيقول كن كذا إلا كان كما في خبر ابن عباس أو كانت لما شاهد من خروج النبات بالوطء كما في بعض الآثار. ويحتمل أن يكون سمع ذلك من موسى عليه السلام، وبأن ما ذكر من أولوية الأثر نفسه بالحياة غير مسلم ألا ترى أن الإكسير يجعل ما يلقي هو عليه ذهبا ولا يكون هو بنفسه ذهبا. وبأن المعجزة مقرونة بدعوى الرسالة من الله تعالى والتحدي وقد قالوا: متى ادعى أحد الرسالة وأظهر الخارق وكان لسبب خفي يجهله المرسل إليهم قبض الله تعالى ولا بد من بين حقيقة ذلك بإظهار مثله غير مقرون بالدعوى أو نحو ذلك أو جعل المدعي بحيث لا يقدم على فعل ذلك الخارق بذلك السبب بأن يسلب قوة التأثير أو نحو ذلك لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وتكون له ﷻ الحجة البالغة، وجوزوا ظهور الخارق لا عن سبب أو عن سبب خفي على يد مدعي الألوهية لأن كذبه ظاهر عقلا ونقلا. ولا تتوقف إقامة الحجة على تكذيبه بنحو ما تقدم. وبأن ما ذكر من بعد الكفر والإضلال من السامري بعد أن عرف نبوة موسى عليه السلام في غاية السقوط فقد قال تعالى وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ [النمل: ١٤] وليس كفر السامري بأبعد من كفر فرعون وقد رأى ما رأى. ويرد على ما ذكره أبو مسلم مع مخالفته للمأثور عن خير القرون مما لا يقال مثله من قبل الرأي فله حكم المرفوع أن التعبير عن موسى عليه السلام بلفظ الغائب بعيد. وإرادة وقد كنت

=

=

قبضت قبضة إلخ من النظم الكريم أبعد. وأن نبذ ما عرف أنه ليس بحق لا يعد من تسويل النفس في شيء فلا يناسب ختم جوابه بذلك. فزعم أن ما ذكره أقرب إلى التحقيق باطل عند أرباب التدقيق، وزعمت اليهود أن ما ألقاه السامري كان قطعة من الحلي منقوشا عليها بعض الطلسمات وكان يعقوب عليه السلام قد علقها في عنق يوسف عليه السلام إذ كان صغيرا كما يعلق الناس اليوم في أعناق أطفالهم التمائم وربما تكون من الذهب والفضة منقوشا عليها شيء من الآيات أو الأسماء أو الطلسمات وقد ظفر بها من حيث ظفر فنبذها مع حلي بني إسرائيل فكان ما كان لخاصية ما نقش عليها فيكون على هذا قد أراد بالرسول رسول بني إسرائيل في مصر من قبل وهو يوسف عليه السلام. ولم يجيء عندنا خبر صحيح ولا ضعيف بل ولا موضوع فيما زعموا. نعم جاء عندنا أن يعقوب كان قد جعل القميص المتوارث في تعويذ وعلقه في عنق يوسف عليه السلام.

وفسر بعضهم بذلك قوله تعالى اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا [يوسف: ٩٣] إلخ. وما أغفل أولئك البهت عن زعم أن الأثر هو ذلك القميص فإنه قد عهد منه ما تقدم في أحسن القصص في قوله تعالى: اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا فبين معافاة المبتلي وحياة الجماد مناسبة كلية فهذا الكذب لو ارتكبوه لربما كان أروج قبولا عند أمثال الأصبهاني الذين ينبذون ما روي عن الصحابة مما لا يقال مثله بالرأي وراء ظهورهم نعوذ بالله تعالى من الضلال. ا.هـ

وقوله-سبحانه-: قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ حكاية لما قاله موسى- عليه السلام للسامري.

قوله تعالى: {قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ} [طه: ٩٧]، أي:" قال موسى للسامري: فاذهب فإن عقوبتك في الحياة الدنيا أن تعيش منبوذًا تقول لكل أحد: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ".

=

=

قال ابن قتيبة:" أي: لا تخالط أحدا".

قال قتادة:"عقوبة له".

قال الزجاج:" التأويل: أن موسى عليه السلام حرم مخالطة السامري، فالمعنى: إنك في الدنيا لا تخالط جزاء لفعلك".

قال الطبري:" قال موسى للسامريّ: فاذهب فإن لك في أيام حياتك أن تقول: لا مساس: أي لا أمس، ولا أُمسُّ، وذُكر أن موسى أمر بني إسرائيل أن لا يؤاكلوه، ولا يخالطوه، ولا يبايعوه، فلذلك قال له: إن لك في الحياة أن تقول لا مساس، فبقي ذلك فيما ذكر في قبيلته".

قال قتادة:" كان والله السامريّ عظيما من عظماء بني إسرائيل، من قبيلة يقال لها سامرة، ولكن عدوّ الله نافق بعد ما قطع البحر مع بني إسرائيل، قوله: {فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ}، فبقاياهم اليوم يقولون لا مساس".

حكي الثعلبي: "إن موسى -عليه السلام- هم بقتل السامري، فقال الله له: لا تقتله، فإنه سخي".

وهذا الذي حكاه الثعلبي ضعيف، فلا يمنع من قتله كونه كان سخيا.

وفي بعض الكتب:" إنه إن مس واحد من غيرهم أحدا منهم حمّ كلاهما في الوقت".

وفي قوله تعالى: {قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ} [طه: ٩٧]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أن قوله: {فَاذْهَبْ}، وعيد من موسى، ولذا فإن السامري خاف فهرب فجعل يهيم في البرية مع الوحوش والسباع، لا يجد أحدًا من الناس يمسه، حتى صار كالقائل: لا مساس، لبعده عن الناس وبعد الناس منه. قالت الشاعرة:

حمال رايات بها قنعاسا... حتى يقول الأزد لا مساسا

=

=

القول الثاني: أن هذا القول من موسى كان تحريمًا للسامري، وأن موسى أمر بني إسرائيل ألا يؤاكلوه ولا يخالطوه، فكان لا يَمَسُّ وَلاَ يُمَسُّ، قال الشاعر:

تميم كرهط السامري وقوله... ألا لا يريد السامري مساسا

أي: لا يُخَالِطُونَ وَلاَ يُخَالَطُون.

قال مقاتل:" يعني: لا تخالط الناس".

قال ابن قتيبة:" أي لا تخالط أحدا".

قال الكلبي: " لا يخالط أحدًا ولا يخالطك".

قال يحيى:" لا تماس الناس ولا يماسونك، فهذه عقوبتك في الدنيا ومن كان على دينك إلى يوم القيامة. و «السامرة»: صنف من اليهود".

قال الفراء:" أي: لا أمس ولا أمس، أوّل ذلك أن موسى أمرهم ألا يؤاكلوه ولا يخالطوه ولا يبايعوه".

قال أبو عبيدة:" هو المماسة والمخالطة".

قال سعيد بن جبير: "كان كان السامري من أهل كرمان "، "ويقال: من باجرما".

والأكثرون: أن السامري:" كان من بني إسرائيل من رهط يقال لهم: السامري".

قال قتادة: "بقايا السامرة حتى الآن بأرض الشام، يقولون: لا مساس". وفي رواية:" فبقاياهم اليوم يقولون: لا مساس.

قال القرطبي:" ويقال: ابتلي بالوسواس، وأصل الوسواس من ذلك الوقت".

قوله تعالى: {وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ} [طه: ٩٧]، أي:" وإن لك موعدا لعذابك وعقابك، لن يُخْلفك الله إياه، وسوف تلقاه".

قال مقاتل:" يقول: لن تغيب عنه".

قال يحيى:" يعني يوم القيامة، توافيه فيجزيك الله فيه بأسوأ عملك".

عن قتادة:" {وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ}، يقول: لن تغيب عنه".

=

=

قال عبدالرحمن:" سمعت أبا نهيك يقرأ: «لَن تُخْلِفَهُ أَنْتَ»، يقول: لن تغيب عنه".
قوله تعالى: {وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا} [طه: ٩٧]، أي:" وانظر إلى معبودك الذي أقمت على عبادته ".

قال الطبري:" يقول: وانظر إلى معبودك الذي ظلت عليه مقيما تعبده".

قال ابن قتيبة: {عَاكِفًا} " أي: مقيما".

عن ابن عباس، قوله: " {ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا}، الذي أقمت عليه".

قوله تعالى: {لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} [طه: ٩٧]، أي:" لنُحرقنَّه بالنار، ثم لنُذرونَّه في البحر ذروا لتذهب به الريح؛ حتى لا يبقى منه أثر".

قال الطبري:" يقول: ثم لنذرّينه في البحر تذرية، يقال منه: نسف فلان الطعام بالمنسف: إذا ذراه فطير عنه قشوره وترابه باليد أو الريح".

عن ابن عباس، قوله:" {ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا}، يقول: لنذرينه في البحر".

قال ابن عباس:" ذراه في اليمّ، واليمّ: البحر".

قال السدي:" ثم أخذه فذبحه، ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في اليم، فلم يبق بحر يومئذ إلا وقع فيه شيء منه".

قال قتادة:" وفي بعض القراءة: «لنذبحنه ثم لنحرقنه، ثم لننسفنه في اليمّ نسفا» ".

والمساس: مصدر ماسّ- بالتشديد- كقتال من قاتل، وهو منفي بلا التي لنفى الجنس.

والمعنى: قال موسى للسامري: مادمت قد فعلت ذلك فاذهب، فإن لك في مدة حياتك، أن تعاقب بالنبذ من الناس، وأن تقول لهم إذا ما اقترب أحد منك: لا مِساسَ أى لا أمسّ أحدا ولا يمسّنى أحد، ولا أخالط أحدا ولا يخالطني أحد.

قال الزمخشري: عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعا كليا، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومكالمته ومبايعته

=

=

ومواجهته، وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضا. وإذا اتفق أن يماس أحدا- رجلا أو امرأة- حم الماس والممسوس- أى أصيبا بمرض الحمى- فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح: لا مساس. وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم، ومن الوحش النافر في البرية...

وقال الآلوسى ما ملخصه: والسر في عقوبته على جنايته بما ذكر. أنه ضد ما قصده من إظهار ذلك ليجتمع عليه الناس ويعززوه، فكان ما فعله سببا لبعدهم عنه وتحقيره. وقيل:

عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل، حيث نبذ فنبذ، فإن ذلك التحامى عنه أشبه شيء بالنبذ...

قالوا: وهذه الآية الكريمة أصل في نفى أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وعدم مخالطتهم.

ثم بين -سبحانه- عقوبة السامري في الآخرة، بعد بيان عقوبته في الدنيا فقال: وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ.

وقوله: تُخْلَفَهُ قرأها الجمهور بضم التاء وفتح اللام. أى: وإن لك موعدا في الآخرة لن يخلفك الله تعالى إياه. بل سينجزه لك، فيعاقبك يومئذ العقاب الأليم الذي تستحقه بسبب ضلالك وإضلالك، كما عاقبك في الدنيا بعقوبة الطرد والنفور من الناس.

وقرأ ابن كثير وأبو عمر لَنْ تُخْلَفَهُ بضم التاء وكسر اللام أى: وإن لك موعدا في الآخرة لن تستطيع التخلف عنه، أو المهرب منه، بل ستأتيه وأنت صاغر..

ثم بين -سبحانه- ما فعله موسى- عليه السلام- بالعجل الذي صنعه السامري لإضلال الناس. فقال: وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفًا.

أى: وقال موسى- أيضا- للسامري: وانظر الى معبودك العجل الذي أقمت على

=

=

عبادته أنت وأتباعك في غيبتي عنكم.
لَنُحَرِّقَنَّهُ بالنار أمام أعينكم، والجملة جواب لقسم محذوف، أى: والله لنحرقنه ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا أى: ثم لنذرينّه في البحر تذرية، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر.
يقال: نسف الطعام ينسفه نسفا، إذا فرقه وذراه بحيث لا يبقى منه شيء.
وقد نفذ موسى- عليه السلام ذلك حتى يظهر للأغبياء الجاهلين الذين عبدوا العجل، أنه لا يستحق ذلك. وإنما يستحق الذبح والتذرية، وأن عبادتهم له إنما هي دليل واضح على انطماس بصائرهم، وشدة جهلهم.
وقوله تعالى: إِنَّما إِلهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا. استئناف مسوق لإحقاق الحق وإبطال الباطل. أى: إنما المستحق للعبادة والتعظيم هو الله تعالى وحده، الذي وسع علمه كل شيء. ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.
قوله تعالى: {إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [طه: ٩٨]، أي:" إنما إلهكم - أيها الناس - هو الله الذي لا معبود بحق إلا هو".
قال الطبري:" يقول: ما لكم أيها القوم معبود إلا الذي له عبادة جميع الخلق لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي أن تكون إلا له".
عن كعب، قال: " {لا إله إلا الله} : كلمة الإخلاص".
قوله تعالى: {وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [طه: ٩٨]، أي:" وسع علمه كل شيء".
قال قتادة:" يقول: ملأ كلّ شيء علما تبارك وتعالى".
قال يحيى: "أي: لا يكون شيء إلا بعلم الله".
قال أبو عبيدة: معناه:" أحاط به علما وعلمه".
قال ابن قتيبة:"أي: وسع علمه كل شيء".

=

=

قال الطبري:" يقول: أحاط بكل شيء علما فعلمه، فلا يخفى عليه منه شيء ولا يضيق عليه علم جميع ذلك، يقال منه: فلان يسع لهذا الأمر: إذا أطاقه وقوي عليه، ولا يسع له: إذا عجز عنه فلم يطقه ولم يقو عليه".

قرأ طلحة: «الله الذي لا إله إلا هو الرحمن رب العرش وسع كل شيء علما».

(فائدة): لما قام السامري بصناعة العجل من ذهب بني إسرائيل، وعبده هو ومن معه، غضب موسى على ما فعل، وقام بحرقه ونسفه في البحر.

وفي هذا أن موسى قام بإتلاف المال، وهو الذهب، ولم يقم بحفظه ولا تغييره بصياغته؛ خشية تعلق قلب بني إسرائيل به؛ فقد أشربت قلوبهم حبه وتعظيمه؛ كما قال تعالى: {وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم} [البقرة: ٩٣]؛ يعني: امتزج بقلوبهم كما لو شربوه فجرى في عروقهم.

ودلت الآية على أن حفظ ضرورة الدين مقدمة على حفظ ضرورة المال، وأنه لا حرمة للأموال إن كانت تعارض إقامة توحيده، وأنه يجب إتلافها إن كانت الحالة كذلك؛ فإن موسى لو غيرها بصياغتها، لكان في بني إسرائيل من يجمعها، أو يعبد ما صاغه منها وقطعه ولو في قلائد في أعناق النساء.

وإذا كان هذا ما فعله موسى، وهو وحي، فمثل ذلك ما يتعلق بالأصنام التي يتعلق الناس بها وبأصولها ولو كانت ثمينة القيمة لتاريخها ونفاسة جوهرها؛ فإنه لا أعظم ولا أشد نفاسة من توحيد الله الذي لأجله وجد الخلق وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب.

وإن كانت الأصنام تصنع من جوهر نفيس ولم تتعلق بعينها النفوس، ويمكن تغييرها وصهرها وانتفاع الناس بها من غير مفسدة لاحقة، فالأمر في مثل هذه الحالة يختلف؛ لاختلاف الحال والعلة، فإن الحكم يختلف تبعا؛ فإن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما.

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩).

{كَذَلِكَ} أَيْ كَمَا قَصَصْنَا عَلَيْك يَا مُحَمَّد هَذِهِ الْقِصَّة {نَقُصّ عَلَيْك مِنْ أَنْبَاء} أَخْبَار {مَا قَدْ سَبَقَ} مِنْ الْأُمَم {وَقَدْ آتَيْنَاك} أَعْطَيْنَاك {مِنْ لَدُنَّا} مِنْ عِنْدنَا {ذِكْرًا} قُرْآنًا.

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠).

{مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ} فَلَمْ يُؤْمِن بِهِ {فَإِنَّهُ يَحْمِل يَوْم الْقِيَامَة وِزْرًا} حِمْلًا ثَقِيلًا مِنْ الإِثم.

خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١).

{خَالِدِينَ فِيهِ} أَيْ فِي عَذَاب الْوِزْر {وَسَاءَ لَهُمْ يَوْم الْقِيَامَة حِمْلًا} تَمْيِيز مُفَسِّر لِلضَّمِيرِ فِي سَاءَ وَالْمَخْصُوص بِالذَّمِّ مَحْذُوف تَقْدِيره وِزْرهمْ وَاللَّام لِلْبَيَانِ وَيُبْدَل مِنْ يَوْم الْقِيَامَة.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢).

{يوم ننفخ فِي الصُّور} الْقَرْن النَّفْخَة الثَّانِيَة {وَنَحْشُر الْمُجْرِمِينَ} الْكَافِرِينَ {يَوْمئِذٍ زُرْقًا} عُيُونهمْ مَعَ سَوَاد وُجُوههمْ.

يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣).

{يَتَخَافَتُونَ بَيْنهمْ} يَتَسَارُّونَ {إِنْ} مَا {لَبِثْتُمْ} فِي الدُّنْيَا {إِلَّا عَشْرًا} مِنْ اللَّيَالِي بِأَيَّامِهَا.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤).

{نَحْنُ أَعْلَم بِمَا يَقُولُونَ} فِي ذَلِكَ أَيْ لَيْسَ كَمَا قَالُوا {إِذْ يَقُول أَمْثَلهمْ} أَعْدَلهمْ {طَرِيقَة} فِيهِ {إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} يَسْتَقِلُّونَ لُبْثهمْ فِي الدُّنْيَا جِدًّا لِمَا

يُعَايِنُونَهُ فِي الْآخِرَة مِنْ أَهْوَالِهَا(١).

---

(١) يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين، وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن دراها، فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم، دليل على أنك رسول الله حقا، وما جئت به صدق.

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ} [طه: ٩٩]، أي:" كما قصصنا عليك - أيها الرسول - أنباء موسى وفرعون وقومهما، نخبرك بأنباء السابقين لك".

قال يحيى:" من أخبار ما قد مضى".

قال الطبري:" كما قصصنا عليك يا محمد نبأ موسى وفرعون وقومه وأخبار بني إسرائيل مع موسى، كذلك نخبرك بأنباء الأشياء التي قد سبقت من قبلك، فلم تشاهدها ولم تعاينها".

قال البيضاوي: أي:" مثل ذلك الاقتصاص- يعني: اقتصاص قصة موسى عليه الصلاة والسلام- نقص عليك من أخبار الأمور الماضية والأمم الدارجة تبصرة لك وزيادة في علمك وتكثيرا لمعجزاتك وتنبيها وتذكيرا للمستبصرين من أمتك".

قوله تعالى: {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا} [طه: ٩٩]، أي:" وقد آتيناك مِن عندنا هذا القرآن ذكرى لمن يتذكر".

عن أبي زيد: " {وقد آتيناك من لدنا ذكرا} ، قال: القرآن".

قال يحيى:" أي: وقد أعطيناك من عندنا القرآن".

قال الطبري:" وقد آتيناك يا محمد من عندنا ذكرا يتذكر به، ويتعظ به أهل العقل والفهم، وهو هذا القرآن الذي أنزله الله عليه، فجعله ذكرى للعالمين".

=

=

قال البيضاوي: أي:" كتابا مشتملا على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقا بالتفكر والاعتبار، والتنكير فيه للتعظيم. وقيل ذكرا جميلا وصيتا عظيما بين الناس".

قال السمعاني:" «الذكر» ها هنا هو: القرآن".

والكاف في قوله تعالى: كَذلِكَ في محل نصب نعت لمصدر محذوف، أى: نقص عليك- أيها الرسول الكريم- من أنباء ما قد سبق من أحوال الأمم الماضية، قصصا مثل ما قصصناه عليك عن موسى وهارون. وما دار بينهما وبين فرعون وبين بنى إسرائيل.

ومِنْ في قوله مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ للتبعيض، ويشهد لذلك أن القرآن قد صرح في كثير من آياته، أن الله تعالى لم يقص على الرسول ﷺ جميع أحوال الأمم السابقة، ومن ذلك قوله تعالى: وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ.

ومن فوائد ما قصه الله تعالى عليه من أنباء السابقين: زيادة علمه ﷺ، وتكثير معجزاته، وتثبيت فؤاده، وتسليته عما أصابه من سفهاء قومه، وتذكير المؤمنين بأحوال تلك الأمم السابقة ليعتبروا ويتعظوا.

وقوله-سبحانه-: وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا تنويه وتعظيم لشأن القرآن الكريم.

أى: وقد أعطيناك ومنحناك من عندنا وحدنا ذِكْرًا عظيما. وهو القرآن الكريم، كما قال تعالى: وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ.

قال الفخر الرازي: وفي تسمية القرآن بالذكر وجوه:

أحدها: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم.

وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه على الناس، ففيه التذكير والوعظ.

وثالثها: أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك، كما قال-سبحانه-: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ا.هـ.

=

=

ثم بين -سبحانه- سوء عاقبة من يعرض عن هداية هذا القرآن فقال: مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْرًا.. خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا.

قوله تعالى: {مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ} [طه: ١٠٠]، أي:" من أعرض عن هذا القرآن، ولم يصدق به، ولم يعمل بما فيه".

قال يحيى:" عن القرآن ولم يؤمن به".

قال الطبري: يقول:" من ولى عنه فأدبر فلم يصدّق به ولم يقر".

قال القرطبي:" أي: القرآن، فلم يؤمن به، ولم يعمل بما فيه".

قال البيضاوي: أي:" عن الذكر الذي هو القرآن الجامع لوجوه السعادة والنجاة وقيل عن الله".

قوله تعالى: {فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا} [طه: ١٠٠]، أي:" فإنه يأتي ربه يوم القيامة يحمل إثمًا عظيمًا".

قال الطبري: " يقول: فإنه يأتي ربه يوم القيامة يحمل حملا ثقيلا وذلك الإثم العظيم".

عن مجاهد، قوله:" {يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا}، قال: إثما".

قال السمعاني:" أي: ثقلا، ومعناه: إثما يثقله ".

قال البيضاوي: أي:" عقوبة ثقيلة فادحة على كفره، وذنوبه سماها وزرا تشبيها في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره، أو إثما عظيما".

والوزر في الأصل يطلق على الحمل الثقيل، وعلى الإثم والذنب، والمراد به هنا العقوبة الثقيلة الأليمة المترتبة على تلك الأثقال والآثام.

قال الزمخشري: والمراد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة، سماها وزرا تشبيها في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يفدح الحامل، وينقض

=

=

ظهره، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم ا.هـ.

وقد أخبرنا القرآن في كثير من آياته، أن الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون أوزارهم، أى: أثقال ذنوبهم على ظهورهم، ومن ذلك قوله تعالى: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ .

أى: من أعرض عن هذا الذكر وهو القرآن الكريم فإنه بسبب هذا الإعراض والترك، يحمل يوم القيامة على ظهره آثاما كثيرة: تؤدى إلى العقوبة المهينة من الله تعالى.

وقوله: خالِدِينَ فِيهِ أى: في العذاب المترتب على هذا الوزر.

وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا أى: وبئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم بسبب إعراضهم عن هداية القرآن الكريم.

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهِ} [طه: ١٠١]، أي:" خالدين في العذاب".

قال الطبري: المعنى:" أنهم خالدون في النار بأوزارهم".

قال السمعاني:" أي: مقيمين في عذاب الوزر".

قال القرطبي:" يريد مقيمين فيه، أي: في جزائه وجزاؤه جهنم".

قال البيضاوي: أي:" في الوزر أو في حمله، والجمع فيه والتوحيد في أعرض للحمل على المعنى واللفظ".

قوله تعالى: {وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا} [طه: ١٠١]، أي:" وساءهم ذلك الحمل الثقيل من الآثام حيث أوردهم النار".

قال السمعاني:" أي: بئس الوزر حملهم يوم القيامة".

قال الطبري: يقول:" وساء ذلك الحمل والثقل من الإثم يوم القيامة حملا وحقّ لهم أن يسوءهم ذلك، وقد أوردهم مهلكة لا منجى منها".

=

=

قال القرطبي:" يريد بئس الحمل حملوه يوم القيامة".

قال ابن عباس:" يقول: بئسما حملوا".

قال ابن عباس:" يعني بذلك: ذنوبهم".

عن ابن زيد، في قوله: " {وساء لهم يوم القيامة حملا}، قال: ليس هي: وساء لهم موصولة ينبغي أنت يقطع فإنك إن وصلت لم تفهم وليس بها خفاء ساءلهم حملا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا، قال: حمل السوء وبوئ صاحبه النار قال: وإنما هي وساء لهم مقطوعة وساء بعدها لهم".

قال الآلوسى: قوله: وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا إنشاء للذم، على أن «ساء» فعل ذم بمعنى بئس.. وفاعله على هذا هنا مستتر يعود على «حملا» الواقع تمييزا.. والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: ساء حملهم حملا وزرهم ا.هـ.

ثم بين-سبحانه- أحوال المجرمين عند الحشر فقال: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا.

قوله تعالى: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} [طه: ١٠٢]، أي:" يوم يَنفُخ الملَكُ في «القرن» لصيحة البعث".

قال الطبري: يقول:" وساء لهم يوم القيامة، يوم ينفخ في الصور".

قال الزجاج:" أكثر ما يذهب إليه أهل اللغة أن «الصور» جمع: صورة".

قرأ أبو عمرو: «ننفخ» بالنون وفتحها وضم الفاء لقوله: {ونحشر}، على إسناد النفخ إلى الآمر به تعظيما له أو للنافخ، وقرأ الآخرون بالياء وضمها وفتح الفاء على غير تسمية الفاعل.

قوله تعالى: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} [طه: ١٠٢]، أي:" ونسوق الكافرين ذلكم اليوم وهم زرق، تغيَّرت ألوانهم وعيونهم؛ من شدة الأحداث والأهوال".

=

=

قال البغوي:" الزرقة: هي الخضرة: في سواد العين، فيحشرون زرق العيون سود الوجوه".

وفي قوله تعالى: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} [طه: ١٠٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: عُميًا، قال تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا} [الإسراء: ٩٧]، حكاه الفراء.

وقال ابن قتيبة: "أي: بيض العيون من العمى: قد ذهب السواد والناظر".

قال الزمخشري:" لأن حدقة من يذهب نور بصره تزراق".

الثاني: عطاشًا قد أزرقت عيونهم من شدة العطش، قاله الأزهري، وبه قال الطبري.

الثالث: تشويه خَلْقِهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم.

قال مقاتل:" زرق الأعين".

قال السدي: {ونحشر المجرمين}، يعني: بعد الحساب، نسوق المشركين إلى النار زرقا. قال: مسودة وجوههم، كالحة".

الرابع: أنه الطمع الكاذب إذ تعقبته الخيبة، وهو نوع من العذاب. حكاه الماوردي.

الخامس: أن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف. حكاه الماوردي.

قال الثعلبي:" العرب تتشاءم بزرقة العيون. قال الشاعر يهجو رجلا:

لَقَدْ زَرِقَتْ عَيْنَاكَ يا ابنْ مُكَعْبَرٍ... أَلاَ كُلُّ ضَبِّيٍّ مِنَ اللؤْم أزرقُ".

قال الزمخشري:" قيل: أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين".

قال الطبري:" عنى بالزرق في هذا الموضع: ما يظهر في أعينهم من شدة العطش

=

=

الذي يكون بهم عند الحشر لرأي العين من الزرق".

عن ابن عباس أن رجلا أتاه فقال: "أرأيت قوله: {ونحشر المجرمين يومئذ زرقا}، وأخرى {عميا}، قال: إن يوم القيامة فيه حالات يكونون في حال زرقا وفي حال عميا".

أي: اذكر- أيها العاقل- يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، ونحشر المجرمين يومئذ ونجمعهم للحساب حالة كونهم زرق العيون من شدة الهول، أو حالة كونهم «زرقا» أي: عميا، لأن العين إذا ذهب ضوؤها أزرق ناظرها. أو «زرقا» معناه: عطاشا، لأن العطش الشديد يغير سواد العين فيجعله كالأزرق.

قال تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ. ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ .

وقوله-سبحانه-: يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا استئناف لبيان ما يقوله بعضهم لبعض على سبيل الهمس وخفض الصوت.

قوله تعالى: {يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ} [طه: ١٠٣]، أي:" يتهامسون بينهم".

قال ابن عباس وقتادة: أي:" يتسَارُّون بينهم".

قال قتادة: "أي: يتسارون بينهم، يسار بعضهم بعضا".

قال مقاتل:" يعني: يتساءلون بينهم".

قال الفراء:" التخافت: الكلام المخفي".

قال الطبري:" يتهامسون بينهم، ويسرّ بعضهم إلى بعض".

قال الزمخشري:" تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول".

قوله تعالى: {إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا} [طه: ١٠٣]، أي:" يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الحياة الدنيا إلا عشرة أيام".

قال مقاتل:" يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم إلا عشر ليال".

=

=

قال طبري:" يعني: أنهم يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا عشرا".

قال الزمخشري:" يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا: إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر لأن أيام السرور قصار، وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضت، والذاهب وإن طالت مدته قصير بالانتهاء، ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت: «أطال الله بقاءك»: «كفى بالانتهاء قصرا».

وإما لاستطالتهم الآخرة وأنها أبد سرمد يستقصر إليها عمر الدنيا، ويقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة".

أى: إن هؤلاء المجرمين يتهامسون فيما بينهم في هذا اليوم العصيب، قائلين ما لبثتم في قبوركم إلا عشرا من الليالى أو الأيام.

ومقصدهم من هذا القول: استقصار المدة، وسرعة انقضائها، والندم على ما كانوا يزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب، بعد أن تبين لهم أن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الأمر على عكس ما كانوا يتوهمون.

وقوله تعالى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ ... بيان لشمول علمه-سبحانه-.

قوله تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} [طه: ١٠٤]، أي:" نحن أعلم بما يقولون ويُسِرُّون".

قال الطبري:" لا يخفى علينا مما يتسارونه بينهم شيء".

قال ابن كثير:" أي: في حال تناجيهم بينهم".

قوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} [طه: ١٠٤]، أي:" حين يقول أعلمهم وأوفاهم عقلا ما لبثتم إلا يومًا واحدًا".

قال مقاتل:" إن لبثتم في القبور إلا يوما واحدا".

قال قتادة:" أي: في الدنيا إلا يوما، لما تقاصرت في أنفسهم".

=

=

قال الطبري:" حين يقول أوفاهم عقلا وأعلمهم فيهم: إن لبثتم في الدنيا إلا يوما، وإنما عنى جلّ ثناؤه بالخبر عن قيلهم هذا القول يومئذ، إعلام عباده أن أهل الكفر به ينسون من عظيم ما يعاينون من هول يوم القيامة، وشدّة جزعهم من عظيم ما يردون عليه ما كانوا فيه في الدنيا من النعيم واللذّات، ومبلغ ما عاشوا فيها من الأزمان، حتى يخيل إلى أعقلهم فيهم، وأذكرهم وأفهمهم أنهم لم يعيشوا فيها إلا يوما".

قال ابن كثير:" أي: لقصر مدة الدنيا في أنفسهم [يوم المعاد؛ لأن الدنيا كُلَّها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة الحياة الدنيا يوم القيامة: وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم، لقصر المدة؛ ولهذا قال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [الروم: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: {كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤] أي: إنما كان لُبثكم فيها قليلا لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قَدَّمتُم الحاضر الفاني على الدائم الباقي".

وفي قوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً} [طه: ١٠٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: أوفاهم عقلًا. قاله شعبة، ويحيى بن سلام.

قال ابن كثير:" أي: العاقل الكامل فيهم".

الثاني: أعدلهم من الكفار. قاله قتادة.

=

=

الثالث: أعلمهم في نفسه. قاله سعيد بن جبير.

وقال الزجاج: يعني: "أعلمهم عند نفسه بما يقول".

الرابع: يعني: أمثلهم نجوى ورأيا. قاله مقاتل.

الخامس: أجودهم قولا في نفسه وعندهم. قاله الفراء.

السادس: أكبرهم سدادًا. حكاه الماوردي.

السابع: أوفاهم عقلا وأصوبهم رأيا. قاله الثعلبي.

وقال ابن قتيبة:"أي: رأيا".

قال السمعاني:" تقول العرب: فلان أمثل قومه، أي: أعدل قومه، ومعنى الآية ها هنا: أعقلهم وخيرهم طريقة في نفسه".

قال الزمخشري:" استرجح الله قول من يكون أشد تقاولا منهم في قوله تعالى: {إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما}، ونحوه قوله تعالى: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ} [المؤمنون: ١١٢ - ١١٣]، وقيل: المراد لبثهم في القبور. ويعضده قوله ﷻ: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ} [الروم: ٥٥ - ٥٦] ".

أى: نحن وحدنا أعلم بما يقولون فيما بينهم، لا يخفى علينا شيء مما يتخافتون به من شأن مدة لبثهم في قبورهم أو في الدنيا.

إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً أى: أعد لهم رأيا، وأرجحهم عقلا إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا واحدا وقيل المراد باليوم: مطلق الوقت، وتنكيره للتقليل والتحقير. أى: ما لبثتم في قبوركم إلا زمنا قليلا.

ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لا لكونه أقرب إلى الصدق، بل لكونه أدل على شدة

=

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥).

{وَيَسْأَلُونَك عَنْ الْجِبَال} كَيْفَ تَكُون يَوْم الْقِيَامَة {فَقُلْ} لَهُمْ {يَنْسِفهَا رَبِّي نَسْفًا} بِأَنْ يُفَتِّتهَا كَالرَّمْلِ السَّائِل ثُمَّ يُطِيرهَا بِالرِّيَاحِ.

فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦).

{فَيَذَرهَا قَاعًا} مُنْبَسِطًا {صَفْصَفًا} مُسْتَوِيًا.

لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧).

{لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا} انْخِفَاضًا {وَلَا أَمْتًا} إرتفاعا.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨).

{يَوْمئِذٍ} أَيْ يَوْم إذْ نُسِفَتْ الْجِبَال {يَتَّبِعُونَ} أَيْ النَّاس بَعْد الْقِيَام مِنْ الْقُبُور {الدَّاعِي} إلَى الْمَحْشَر بِصَوْتِهِ وَهُوَ إسْرَافِيل يَقُول هَلُمُّوا إلَى عَرْض الرَّحْمَن {لَا عِوَج لَهُ} أَيْ لِاتِّبَاعِهِمْ أَيْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ لَا يَتَّبِعُوا {وَخَشَعَتْ} سَكَنَتْ {الْأَصْوَات لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَع إلَّا هَمْسًا} صَوْت وَطْء الْأَقْدَام فِي نَقْلهَا إلَى الْمَحْشَر كَصَوْتِ أَخْفَاف الْإِبِل فِي مَشْيهَا.

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩).

{يومئذ لَا تَنْفَع الشَّفَاعَة} أَحَدًا {إلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَن} أَنْ يَشْفَع لَهُ {وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} بِأَنْ يَقُول لَا إلَه إلَّا الله.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠).

=

الهول.

قال تعالى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا أى الساعة لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها .

{يَعْلَم مَا بَيْن أَيْدِيهمْ} مِنْ أُمُور الْآخِرَة {وَمَا خَلْفهمْ} مِنْ أُمُور الدُّنْيَا {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ.

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١).

{وَعَنَتْ الْوُجُوه} خَضَعَتْ {لِلْحَيِّ الْقَيُّوم} أَيْ الله {وَقَدْ خَابَ} خَسِرَ {مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا} أَيْ شركا.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢).

{وَمَنْ يَعْمَل مِنْ الصَّالِحَات} الطَّاعَات {وَهُوَ مُؤْمِن فَلَا يَخَاف ظُلْمًا} بِزِيَادَةٍ فِي سَيِّئَاته {وَلَا هَضْمًا} بِنَقْصٍ مِنْ حَسَنَاته[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن جريج؛ قال: قالت قريش: يا محمد! كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟؛ فنزلت: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٤٦، ١٤٧) ونسبه لابن المنذر. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ} [طه: ١٠٥]، أي:" ويسألك - أيها الرسول - قومك عن مصير الجبال يوم القيامة".

قال الطبري: يقول:" ويسألك يا محمد قومك عن الجبال".

قال ابن كثير:" أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ".

قال الزجاج:" «النسف»: التذرية، تصير الجبال كالهباء المنثور، تذرى تذرية".

قوله تعالى: {فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا} [طه: ١٠٥]، أي:" فقل لهم: يزيلها ربِّي عن أماكنها فيجعلها هباء منبثًا".

قال الطبري: "فقل لهم: يذريها ربي تذرية، ويطيرها بقلعها واستئصالها من =

=
أصولها، ودكّ بعضها على بعض، وتصييره إياها هباء منبثا".
عن عروة، قال: "كنا قعودا عند عبد الملك حين قال كعب: إن الصخرة موضع قدم الرحمن يوم القيامة، فقال: كذب كعب، إنما الصخرة جبل من الجبال، إن الله يقول: {ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا}، فسكت عبد الملك".
يخبر تعالى عن أهوال القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، وقوله (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ) السائلون عن أحوال الجبال يوم القيامة كفار مكة، يذكر أنهم قالوا للرسول ﷺ على سبيل الاستهزاء، يا محمد إنك تدعى أن هذه الدنيا تفنى، وأننا نبعث بعد الموت، فأين تكون هذه الجبال، فنزل قوله تعالى: وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفًا.
وقيل: السائلون هم المؤمنون على سبيل طلب المعرفة والفهم.
وقوله: يَنْسِفُها من النسف بمعنى القلع. يقال: نسفت الريح التراب نسفا- من باب ضرب- إذا اقتلعته وفرقته.
أى: ويسألك- أيها الرسول الكريم- بعض الناس عن أحوال الجبال يوم القيامة، فقل لهم: ينسفها ربي نسفا، بأن يقلعها من أصولها، ثم يجعلها كالرمل المتناثر، أو كالصوف المنفوش الذي تفرقه الرياح.
والفاء في قوله: فَقُلْ للمسارعة إلى إزالة ما في ذهن السائل من توهم أن الجبال قد تبقى يوم القيامة.
والضمير في قوله فَيَذَرُها قاعًا صَفْصَفًا يعود إلى الجبال باعتبار أجزائها السفلى الباقية بعد النسف، ويصح أن يعود إلى الأرض المدلول عليها بقرينة الحال، لأنها هي الباقية بعد قلع الجبال. والقاع: هو المنكشف من الأرض دون أن يكون عليه نبات أو بناء.
والصفصف: الأرض المستوية الملساء حتى لكأن أجزاءها صف واحد من كل
=

=

جهة.

أي: فيتركها بعد النسف أرضا منكشفة متساوية ملساء، لا نبات فيها ولا بناء ...

لا تَرى فِيها عِوَجًا وَلا أَمْتًا أي: لا ترى في الأرض بعد اقتلاع الجبال منها، مكانا منخفضا، كما لا ترى فيها أَمْتًا أي: مكانا مرتفعا، بل تراها كلها مستوية ملساء كالصف الواحد.

قوله تعالى: {فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا} [طه: ١٠٦]، أي:" فيترك الأرض حينئذ منبسطة مستوية ملساء لا نبات فيها".

قال الطبري: "فيدع أماكنها من الأرض إذا نسفها نسفا، أرضا ملساء، مستويا لا نبات فيه، ولا نشز، ولا ارتفاع".

قال ابن كثير:" أي: بساطًا واحدًا، و «القاع»: هو المستوي من الأرض. والصفصف تأكيد لمعنى ذلك ".

في تفسير «القاع»، ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه الموضع المستوي الذي لا نبات فيه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وأبو عبيدة.

عن ابن زيد:" {فيذرها قاعا صفصفا}، قال: مستويا، الصفصف: المستوي".

الثاني: الأرض الملساء. قاله ابن عباس.

الثالث: مستنقع الماء، قاله الفراء.

وقال ابن قتيبة: " القاع من الأرض: المستوي الذي يعلوه الماء".

وفي تفسير: «الصفصف» وجهان:

أحدهما: الاملس الذي لا نبات فيه، قاله الكلبي، والفراء، وأبو عبيدة.

الثاني: المكان المستوي، كأنه قال على صف واحد في استوائه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسفيان، وابن قتيبة.

=

=

قال سفيان:" ترى الأرض كلها مستوية".

ومنه قول الشاعر:

بملمومة شهباء لو قذفوا بها... شماريخ من رضوى إذا عاد صفصفا

قوله تعالى: {لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [طه: ١٠٧]، أي:" لا يرى الناظر إليها مِن استوائها مَيْلا ولا ارتفاعًا ولا انخفاضًا".

قال ابن كثير:" أي: لا ترى في الأرض يومئذ واديًا ولا رابية، ولا مكانًا منخفضًا ولا مرتفعًا".

وفي قوله تعالى: {لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [طه: ١٠٧]، وجوه:

أحدها: «عوجًا» يعني: واديًا، «ولا أمتًا»، يعني: ربابية، قاله ابن عباس.

وعن مجاهد:" {لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا}، قال: ارتفاعا، ولا انخفاضا".

وقال أبو عبيدة:" لا ربى ولا وطئا، أي: لا ارتفاع ولا هبوط".

وقال ابن قتيبة: "الأمت: النبك".

الثاني: «عوجًا» يعني: صدعًا، «ولا أمتًا»، يعني: أكمة، قاله الحسن، وقتادة.

الثالث: «عوجًا» يعني: ميلًا. «ولا أمتًا»، يعني: أثرًا، وهو مروي عن ابن عباس.

الرابع: أن «العوج»: الارتفاع، و «الأمت»: المبسوط. قاله الضحاك.

الخامس: الأمت: الحدب، قاله قتادة.

السادس: الأمت: أن يغلظ مكان في الفضاء أو الجبل، ويدق في مكان، حكاه الصولي، فيكون الأمت من الصعود والارتفاع.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عنى بالعوج: الميل، وذلك أن ذلك هو المعروف في كلام العرب".

قال الزمخشري: فإن قلت: قد فرقوا بين العوج والعوج، فقالوا: العوج بالكسر في المعاني: والعوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين، فكيف صح فيها المكسور

=

=

العين؟.

قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأى المهندس فيها، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية، لعثر فيها على عوج في غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسى، فنفى الله ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني، فقيل فيه، عوج بالكسر والأمت: النتوء اليسير، يقال: مد حبله حتى ما فيه أمت.. ا.هـ..

وقال الشنقيطي: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنهم يسألونه عن الجبال، وأمره أن يقول لهم: إن ربه ينسفها نسفًا، وذلك بأن يقلعها من أصولها، ثم يجعلها كالرمل المتهايل الذي يسيل، وكالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا.

واعلم أنه جل وعلا بين الأحوال التي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آيات من كتابه. فبين أنه ينزعها من أماكنها. ويحملها فيدكها دكًا؛ وذلك في قوله: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤)}.

ثم بين أنه يسيرها في الهواء بين السماء والأرض؛ وذلك في قوله: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)}، وقوله: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَال وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} الآية، وقوله: {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣)}، وقوله تعالى: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ

=

=
فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠)}، وقوله تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠)}.

ثم بين أنه يفتتها ويدقها كقوله: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥)} أي: فتت حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن أو نحوه، على القول بذلك، وقوله: {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤)}.

ثم بين أنه يصيرها كالرمل المتهايل، وكالعِهْن المنفوش، وذلك في قوله: {يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤)}، وقوله تعالى: {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩)} في "المعارج، والقارعة".

والعهن: الصوف المصبوغ؛ ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

كأن فُتات العِهن في كل منزلٍ ... نزلنَ به حبُّ الفنا لم يُحَطَّم

ثم بين أنها تصير كالهباء المنبثّ في قوله: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا} ثم بين أنها تفسير سرابًا، وذلك في قوله: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠)} وقد بين في موضع آخر: أن السراب لا شيء؛ وذلك قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا} وبين أنّه ينسفها نسفًا في قوله هنا: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}

(تنبيه): جرت العادة في القرآن: أن الله إذا قال لنبيه ﷺ: {وَيَسْأَلُونَكَ} قال له: {قُل} بغير فاء؛ كقوله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ}الآية، وقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} الآية، وقوله: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيرٍ فَلِلْوَالِدَينِ} الآية، وقوله: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} الآية، وقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} إلى غير ذلك من الآيات، أما في آية "طه" هذه فقال فيها: {فَقُلْ يَنْسِفُهَا} بالفاء. وقد أجاب القرطبي رحمه الله عن هذا في تفسير هذه الآية بما
=

نصه: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ} أي: عن حال الجبال يوم القيامة {فَقُل} جاء هذا بفاء، وكل سؤال في القرآن "قل" بغير فاء إلا هذا؛ لأن المعنى: إن سألوك عن الجبال فقل، فتضمن الكلام معنى الشرط. وقد علم الله أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال، وتلك أسئلة تقدمت، سألوا عنها النبي ﷺ فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء، وهذا سؤال لم يسألوه عنه بعد فتفهمه. انتهى منه. وما ذكره يحتاج إلى دليل، والعلم عند الله تعالى. ا.هـ

ثم بين-سبحانه- أحوال الناس يوم القيامة فقال: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ....

قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ} [طه: ١٠٨]، أي:" في ذلك اليوم يتبع الناس صوت الداعي إلى موقف القيامة، لا محيد عن دعوة الداعي".

عن قتادة: " {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ}، قال: من الصخرة من بيت المقدس".

عن مجاهد: " {لَا عِوَجَ لَهُ}، لا معدل عنه".

قال الطبري:" يومئذ يتبع الناس صوت داعي الله الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، فيحشرهم إليه، لا عوج لهم عنه ولا انحراف، ولكنهم سراعا إليه ينحشرون".

قال ابن كثير:" أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي، حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [مريم: ٣٨]، وقال: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [القمر: ٨] ".

قال مقاتل:" يعني: صوت الملك الذي هو قائم على صخرة بيت المقدس وهو إسرافيل عليه السلام حين ينفخ في القرن، لا يزيغون ولا يروغون عنه يمينا ولا شمالا، يعني: لا يميلون عنه، كقوله-سبحانه-: {تبغونها عوجا} [آل عمران:٩٩]، يعني:

=

زيغا وهو الميل".

قال الزمخشري:" قالوا: هو إسرافيل قائما على صخرة بيت المقدس يدعو الناس، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون، {لا عوج له}، أى: لا يعوج له مدعو، بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته".

قال ابن قتيبة: {لَا عِوَجَ لَهُ}، " أي: لا يعدلون عنه ولا يعرجون في اتباعهم".

قوله تعالى: {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ} [طه: ١٠٨]، أي:" وسكنت الأصوات خضوعًا للرحمن".

قال الطبري: يقول:" وسكنت أصوات الخلائق للرحمن فوصف الأصوات بالخشوع، والمعنى لأهلها إنهم خضع جميعهم لربهم".

قال الزمخشري: أي:"خضعت الأصوات من شدة الفزع وخفتت".

عن ابن عباس، قوله:" {وَخَشَعَتِ الأصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ}، يقول: سكنت".

قوله تعالى: {فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [طه: ١٠٨]، أي:" فلا تسمع منها إلا صوتًا خفيًا".

قال أبو عبيدة:" أي: صوتا خفيا، وهو مثل الرّكز، ويقال: همس إلىّ بحديث، أي أخفاه".

قال الطبري: يقول:" فلا تسمع لناطق منهم منطقا إلا من أذن له الرحمن، و «الهمس»:الصوت الخفيّ، يقال همس فلان إلى فلان بحديثه إذا أسرّه إليه وأخفاه، ومنه قول الراجز:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بنا هَمِيسًا... إنْ يَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسًا

يعني بـ «الهمس»: صوت أخفافِ الإبل في سيرها".

قال الزمخشري: {هَمْسًا} :" هو الركز الخفي. ومنه الحروف المهموسة".

عن ابن عباس وعكرمة: {فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا}، قالا: "وطء الأقدام".

=

=

قال ابن عباس:" يقول: الصوت الخفي".

قال ابن عباس:" يعني: همس الأقدام، وهو الوطء".

وروي عن الحسن: "همس الأقدام".

قال الحسن:" وقع أقدام القوم".

قال مجاهد:" تهافتا، وقال: تخافت الكلام".

قال مجاهد:" خفض الصوت".

قال مجاهد:" كلام الإنسان لا تسمع تحرّك شفتيه ولسانه".

قال ابن زيد:" يقول: لا تسمع إلا مشيا، قال: المشي، الهمس: وطء الأقدام".

والمراد بالداعي: الملك الذي يدعوهم إلى المثول للحساب.

قيل: يناديهم بقوله: أيتها العظام البالية، والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة.. قومي إلى ربك للحساب والجزاء، فيسمعون الصوت ويتبعونه.

والمعنى: في هذا اليوم الذي تنسف فيه الجبال، وتصير الأرض قاعا صفصفا يقوم الناس من قبورهم، ويتبعون من يناديهم للحساب والجزاء دون أن يحيدوا عن هذا المنادى، أو أن يملكوا مخالفته أو عصيانه، بل الجميع يسمع دعاءه ويستجيب لأمره.

كما قال تعالى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ. خُشَّعًا أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ: مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ.

وقوله: وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا أى: وخفتت وسكنت الأصوات كلها هيبة وخوفا من الرحمن- ﷻ فلا تسمع- أيها المخاطب- في هذا اليوم الهائل الشديد إِلَّا هَمْسًا أى: إلا صوتا خفيا خافتا. يقال: همس الكلام يهمسه همسا، إذا أخفاه، ويقال للأسد: الهموس، لخفاء وطئه.

=

=

قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ} [طه: ١٠٩]، أي:" في ذلك اليوم لا تنفع الشفاعة أحدًا من الخلق، إلا إذا أذن الرحمن للشافع".

قال مكي:" أي: لا تنفع الشفاعة، إلا شفاعة من أذن له الرحمن في الشفاعة".

قوله تعالى: {وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه: ١٠٩]، أي:" ورضي عن المشفوع له".

قال مقاتل:" يعني: التوحيد".

قال مكي:" أي: قال: لا إله إلا الله".

قال ابو الليث السمرقندي:" يعني: إذا قال بإخلاص القلب لا إله إلا الله في الدنيا".

قال السمعاني:" أي: قول لا إله إلا الله، وهو القول المرضي عند الله".

قال ابن الجوزي:" أي: ورضي للمشفوع فيه قولا، وهو الذي كان في الدنيا من أهل «لا إله إلا الله» ".

قال الواحدي:" وهذا يدل على أنه لا حظ في الشفاعة لغير المؤمن".

قال أبو السعود:" أي ورضي لأجله قول الشافع في شأنه، أو رضي قوله لأجله وفي شأنه وأما من عداه فلا تكاد تنفعه".

وفي تفسير هذه الآية وجهان:

أحدهما: لا تنفع الشفاعة، ليس أن يكون لهم الشفاعة فلا تنفع، ولكن لا شافع لهم إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة أنه لا أحد يتكلم يومئذ إلا بإذنه، فضلا أن يؤذن لأحد بالشفاعة؛ كقوله: {{لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَن وَقَالَ صَوَابًا} [النبأ: ٣٨]، يقول: الشفاعة أنه لا أحد يتكلم يومئذ إلا بإذنه فضلا، وقال: صوابا.

الثاني: لا تنفع الشفاعة إلا من وفق له بما يستوجب الشفاعة له ورضي له قولا وسأله ذلك، وهو قول الشهادة والتوحيد.

قال الماتريدي: "فيرجع أحد التأويلين إلى الشفعاء: أنه لا أحد يشفع لأحد إلا

=

=

بإذنه ورضاه بالقول: قول الشفاعة، والثاني: يرجع إلى المشفوع له: أنه لا أحد يستوجب شفاعة إلا من وفق له الرحمن في الدنيا بالتوحيد وشهادة الإخلاص، والله أعلم".

أى: في هذا اليوم الذي تخشع فيه الأصوات لا تنفع الشفاعة أحدا كائنا من كان، إلا شفاعة من أذن له الرحمن في ذلك وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا أى: ورضى -سبحانه- قول الشافع فيمن يشفع له.

قال الإمام ابن كثير: وهذه الآية كقوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ وكقوله: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى، وكقوله: وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى ...

وفي الصحيحين من غير وجه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آتى تحت العرش، وأخر لله ساجدا، وبفتح على بمحامد لا أحصيها الآن، ثم يقول -سبحانه-: «يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع قولك، واشفع تشفع. قال ﷺ: فيحد لي حدا، فأدخلهم الجنة، ثم أعود، فذكر أربع مرات» ﷺ وعلى سائر الأنبياء ...

وفي الحديث: يقول تعالى: «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقول -سبحانه-: أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان، أخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرة، من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان».

وقوله تعالى: يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا بيان لشمول علمه -سبحانه- لكل شيء.

قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [طه: ١١٠]، أي:" يعلم الله ما بين أيدي الناس مِن أمر القيامة وما خلفهم من أمر الدنيا".

قال الطبري: يقول:" يعلم ربك يا محمد ما بين أيدي هؤلاء الذين يتبعون الداعي

=

=

من أمر القيامة، وما الذي يصيرون إليه من الثواب والعقاب، ويعلم أمر ما خلفوه وراءهم من أمر الدنيا".

قال ابو الليث السمرقندي:" {يعلم ما بين أيديهم} من أمر الآخرة، {وما خلفهم} من أمر الدنيا".

قال الزمخشري:" أى: يعلم ما تقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه".

قال ابن كثير:" أي: يحيط علما بالخلائق كلهم".

عن قتادة:" {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}، من أمر الساعة، {وما خلفهم}، من أمر الدنيا".

قوله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: ١١٠]، أي:" ولا يحيط خلقه به علمًا سبحانه وتعالى".

قال الطبري: يقول:" ولا يحيط خلقه به علما. ومعنى الكلام: أنه محيط بعباده علما، ولا يحيط عباده به علما".

قال ابو الليث السمرقندي:" يعني: لا يدركون علم الله تعالى".

قال الزمخشري:" ولا يحيطون بمعلوماته علما".

أى: الله تعالى وحده هو الذي يعلم جميع أحوال خلقه سواء ما كان منها يتعلق بما بين أيديهم من أمور الآخرة وأهوال الموقف، أم ما كان منها يتعلق بما خلفهم من أمور الدنيا، أما هم فإنهم لا يحيط علمهم لا بذاته تعالى ولا بصفاته، ولا بمعلوماته.

فالضمير في قوله ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ يعود على المتبعين للداعي وهم الخلق جميعا ...

وقيل: يعود للشافعين، وقيل للملائكة، والأول أولى لعمومه.

وقوله-سبحانه-: وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ... مؤكد ومقرر لما قبله من

=

=

خشوع الأصوات يوم القيامة للرحمن، ومن عدم الشفاعة لأحد إلا بإذنه- ﷻ.
قوله تعالى: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [طه: ١١١]، أي:" وخضعت وجوه الخلائق، وذلَّت لخالقها، الذي له جميع معاني الحياة الكاملة كما يليق بجلاله الذي لا يموت، القائم على تدبير كلِّ شيء، المستغني عمَّن سواه".
قال الطبري: استرّت وجوه الخلق، واستسلمت للحيّ القيوم الذي لا يموت، القيوم على خلقه بتدبيره إياهم، وتصريفهم لما شاءوا، وأصل العنو الذلّ، يقال منه: عنا وجهه لربه يعنو عنوا، يعني خضع له وذلّ، وكذلك قيل للأسير: عان لذلة الأسر، فأما قولهم: أخذت الشيء عنوة، فإنه يكون وإن كان معناه يئول إلى هذا أن يكون أخذه غلبة، ويكون أخذه عن تسليم وطاعة، كما قال الشاعر:
هَلْ أَنْتَ مُطِيعي أَيُّها القلب عنوة... ولم تلح نفس لم تلم في اختيالها
وقال آخر:
هَلْ أَخَذُوها عَنْوَةً عَنْ مَوَدَّةٍ... وَلَكِنْ بِحَدِّ المَشْرَفِي اسْتَقالَهَا".
وفي قوله تعالى: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [طه: ١١١]، وجوه من التفسير:
أحدها: أي: ذلت الوجوه للحيّ القيّوم، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن قتيبة.
قال ابن قتيبة:" أي: ذلت. وأصله من عنيته: أي: حبسته. ومنه قيل للأسير: عان".
الثاني: خشعت، قاله مجاهد.
قال الماوردي: "والفرق بين الذل والخشوع - وإن تقارب معناهما - هو أنّ الذل أن يكون ذليل النفس، والخشوع: أن يتذلل لذي طاعة. قال أمية بن الصلت:
وعنا له وجهي وخلقي كله... في الساجدين لوجهه مشكورا".
الثالث: عملت، قاله الكلبي.
الرابع: نصبت له وعملت له. قاله الفراء.
الخامس: استسلمت، قاله ابن عباس أيضا، عطية العوفي، وابن زيد، وأبو عبيدة.

=

=

قال أبو عبيدة:" أي: استأسرت، فهى عوان لربّها، واحدها: عان، بمنزلة الأسير العاني لأسره، أي: ذليل، ومنه قولهم: النساء عوان عند أزواجهن".
قال ابن زيد:" أستأسرت الوجوه للحيّ القيوم، صاروا أسارى كلهم له، قال: والعاني: الأسير".
قال ابن عباس:" يعني بـ «عنت»: استسلموا لي".
قال نافع:" يا ابن عباس: أخبرني عن قول الله ﷻ: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ}؟ قال: استسلمت الوجوه وخضعت لله يوم القيامة. قال: فهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت حسان بن ثابت وهو يقول:
ليبك عليك كلّ عان بكربة... وآل قصيّ من مقل وذي وفر".
الخامس: أنه وضع الجبهة والأنف على الأرض في السجود، قاله طلق بن حبيب.
قال طلق:" هو وضعك جبهتك وكفيك وركبتيك وأطراف قدميك في السجود".
السادس: أي: خضعت له بقدر مقامها من المعرفة بالله، وتمكين التوفيق منه. قاله سهل بن عدالله.
وفي المراد بالوجوه التي ذلت للحي القويم، قولان:
أحدهما: أن المراد: وجوه العصاة خاصة، وذلك يوم القيامة. قاله الزمخشري.
قال الزمخشري:" المراد بالوجوه وجوه العصاة، وأنهم إذا عاينوا- يوم القيامة- الخيبة والشقوة وسوء الحساب، صارت وجوههم عانية، أي: ذليلة خاشعة، مثل وجوه العناة، وهم الأسارى. ونحوه قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الملك: ٢٧]، {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ} [القيامة: ٢٤]".
قال الشنقيطي:" وأسند الذل، والخشوع لوجوههم، لأن الوجه تظهر فيه آثار الذل، والخشوع".
الثاني: معناه: ذلت وخضعت وجوه المؤمنين لله في دار الدنيا، وذلك بالسجود،
=

=

والركوع. وهذا قول طلق بن حبيب.

قال الشنقيطي:" وظاهر القرآن يدل على أن المراد الذل والخضوع لله يوم القيامة، لأن السياق في يوم القيامة، وكل الخلائق تظهر عليهم في ذلك اليوم علامات الذل، والخضوع لله جل وعلا".

وفيمعنى «الْحَيُّ»، وجوه:

أحدها: أنه سمى نفسه حيًا لصَرْفِهِ الأمور مصارِفها، وتقديره الأشياء مقاديرها، فهو حي بالتقدير لا بحياة.

والثاني: أنه حي بحياة هي له صفة.

والثالث: أنه اسم من أسماء الله تَسَمَّى به، فقلناه تسليمًا لأمره.

والرابع: أن المراد بالحي: الباقي، قاله السدي، ومنه قول لبيد:

فإمّا تَرَيْني اليَوْمَ عِندَكِ سالِمًا... فَلستُ بأحْيا مِنْ كِلابٍ وجَعْفَرِ

قال السيوطي: «الحيّ»: "الذي لا يبلى".

عن الربيع قوله: " {الحي}، حي لا يموت". وروي عن قتادة نحو ذلك.

قال السعدي:" فـ «الحيّ»: من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة".

وفي معنى «الْقَيُّومِ»، وجوه:

أحدها: أنه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجزيها بعملها، قاله الحسن.

قال قتادة:"القائم على كل شيء".

وقال مقاتل:" «القيوم»، يعني: القائم على كل شيء".

الثاني: القائم بتدبير الخلق. قاله الربيع، وروي عن مجاهد وقتادة والسدي والضحاك.

الثالث: الذي لا يحول ولا يزول. قاله ابن عباس، والحسن -أيضا-.

=

=

الرابع: أنه العالم بالأمور، من قولهم: فلان يقوم بهذا الكتاب، أي هو عالم به. حكاه الماوردي.

الخامس: أنه اسم من أسماء الله، مأخوذ من الاستقامة، حكاه الماوردي.

قال ابن كثير: أي " القيم لغيره.. فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غني عنها ولا قوام لها بدون أمره كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [الروم: ٢٥] ".

قال السعدي:" القيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره".

قوله تعالى: {وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا} [طه: ١١١]، أي:" وقد خسر يوم القيامة مَن أشرك مع الله أحدًا من خلقه".

قال مقاتل:" يقول: وقد خسر من حمل شركا يوم القيامة على ظهره".

قال الطبري: يقول:" ولم يظفر بحاجته وطلبته من حمل إلى موقف القيادة شركا بالله، وكفرا به، وعملا بمعصيته".

قال ابن كثير:" أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء.. والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو مشرك به؛ فإن الله تعالى يقول: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣] ".

عن قتادة: قوله:" {وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا}، قال: من حمل شركا".

قال ابن زيد:" من حمل شركا. الظلم هاهنا: الشرك".

قال الشنقيطي:" الأظهر أن الظلم في قوله: {وقد خاب من حمل ظلما}، يعم الشرك، وغيره من المعاصي. وخيبة كل ظالم بقدر ما حل من الظلم، والعلم عند الله تعالى".

قال الزمخشري:" قوله تعالى {وقد خاب} وما بعده اعتراض، كقولك: خابوا وخسروا. وكل من ظلم فهو خائب خاسر".

=

=

وفي الصحيح: " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ".

والفعل عَنَتِ بمعنى ذلت يقال: عنا فلان يعنو عنوا- من باب سما- إذا ذل لغيره وخضع وخشع، ومنه قيل للأسير عان لذله وخضوعه لمن أسره.

أى: وذلت وجوه الناس وخضعت في هذا اليوم لله تعالى وحده لِلْحَيِّ أى: الباقي الذي له الحياة الدائمة التي لا فناء معها الْقَيُّومِ أى: الدائم القيام بتدبير أمر خلقه وإحيائهم وإماتتهم ورزقهم.. وسائر شئونهم.

وهذا اللفظ مبالغة في القيام. وأصله قيووم بوزن فيعول.. من قام بالأمر.

إذا حفظه ودبره.

وخصت الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء، وآثار الذل أكثر ما تكون ظهورا عليها.

وظاهر القرآن يفيد أن المراد بالوجوه جميعها، سواء أكانت للمؤمنين أم لغيرهم، فالكل يوم القيامة خاضع لله تعالى ومستسلم لقضائه، فالألف واللام للاستغراق.

وقوله: وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا جملة حالية، أى: ذلت جميع الوجوه لله تعالى يوم القيامة، والحال أنه قد خاب وخسر من حمل في دنياه ظلما، أى: شركا بالله تعالى أو فسوقا عن أمره-سبحانه- ولم يقدم العمل الصالح الذي ينفعه في ذلك اليوم العسير.

ثم بشر-سبحانه- المؤمنين بما يشرح صدورهم فقال: وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا.

قوله تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [طه: ١١٢]، أي:" ومن يعمل صالحات الأعمال وهو مؤمن بربه".

قال الطبري:" ومن يعمل من صالحات الأعمال، وذلك فيما قيل أداء فرائض الله التي فرضها على عباده، وهو مصدّق بالله، وأنه مجاز أهل طاعته وأهل معاصيه

=

=

على معاصيهم".

قال يحيى:" لا يجزى بالعمل الصالح في الآخرة إلا المؤمن، ويجزى به الكافر في الدنيا".

قال قتادة:" وإنما يقبل الله من العمل ما كان في إيمان".

عن ابن جريج: قوله:" {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ}، قال: زعموا أنها الفرائض".

قوله تعالى: {فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} [طه: ١١٢]، أي:" فلا يخاف ظلمًا بزيادة سيئاته، ولا هضمًا بنقص حسناته".

قال الطبري:" يقول: فلا يخاف من الله أن يظلمه، فيحمل عليه سيئات غيره، فيعاقبه عليها، [و] لا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها، وأصل «الهضم»: النقص، يقال: هضمني فلان حقي، ومنه امرأة هضيم: أي ضامرة البطن، ومنه قولهم: قد هضم الطعام: إذا ذهب".

قال الزمخشري:" «الظلم»: أن يأخذ من صاحبه فوق حقه. و «الهضم»: أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له، كصفة المطففين {الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ} [المطففين: ٢]، ويسترجحون، {وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين: ٣]ـ أي: فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم، لأنه لم يظلم ولم يهضم".

قال ابن قتيبة:" {ولا هضما}، أي: نقصة. يقال: تهضمني حقي وهضمني. ومنه: هضيم الكشحين: أي ضامر الجنبين، كأنهما هضما. وقوله: {ونخل طلعها هضيم} [الشعراء: ١٤٨] أي منهضم".

عن حبيب بن أبي ثابت، قوله:" {وَلا هَضْمًا}، قال: الهضم: الانتقاص".

عن مجاهد، قوله: {هَضْما}، قال: انتقاص شيء من حقّ عمله".

عن ابن عباس:" {فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا، قال: هضما: غصبا".

=

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ

=

قال ابن عباس:" يقول: أنا قاهر لكم اليوم، آخذكم بقوّتي وشدّتي، وأنا قادر على قهركم وهضمكم، فإنما بيني وبينكم العدل، وذلك يوم القيامة".

قال ابن عباس:" لا يخاف ابن آدم يوم القيامة أن يظلم فيزاد عليه في سيئاته، ولا يظلم فيهضم في حسناته".

قال الضحاك:" أما {هضما}، فهو لا يقهر الرجل الرجل بقوّته، يقول الله يوم القيامة: لا آخذكم بقوّتي وشدتي، ولكن العدل بيني وبينكم، ولا ظلم عليكم".

عن قتادة، قوله:" {فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا}، قال: ظلما أن يزاد في سيئاته، ولا يهضم من حسناته".

قال قتادة:" لا يخاف أن يظلم فلا يجزى بعمله، ولا يخاف أن ينتقص من حقه فلا يوفى عمله".

قال الحسن:" لا ينتقص الله من حسناته شيئا، ولا يحمل عليه ذنب مسيء".

أى: ومن يعمل في دنياه الأعمال الصالحات، وهو مع ذلك مؤمن بكل ما يجب الإيمان به.

فإنه في هذه الحالة فَلا يَخافُ ظُلْمًا ينزل به. ولا يخاف هَضْمًا لشيء من حقوقه أو ثوابه.

يقال: هضم فلان حق غيره، إذا انتقصه حقه ولم يوفه إياه.

قالوا: والفرق بين الظلم والهضم: أن الظلم قد يكون بمنع الحق كله، أما الهضم فهو منع لبعض الحق. فكل هضم ظلم، وليس كل ظلم هضما.

فالآية الكريمة قد بشرت المؤمنين، بأن الله تعالى بفضله وكرمه سيوفيهم أجورهم يوم القيامة، بدون أدنى ظلم أو نقص من ثوابهم، فالتنكير في قوله ظُلْمًا وَلا هَضْمًا للتقليل.

ذِكْرًا (١١٣).

{وَكَذَلِكَ} مَعْطُوف عَلَى كَذَلِكَ نَقُصّ أَيْ مِثْل إنْزَال مَا ذُكِرَ {أَنْزَلْنَاهُ} أَيْ الْقُرْآن {قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا} كَرَّرْنَا {فِيهِ مِنْ الْوَعِيد لَعَلَّهُمْ يتقون} الشرك {أو يُحْدِث} الْقُرْآن {لَهُمْ ذِكْرًا} بِهَلَاكِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ الْأُمَم فَيَعْتَبِرُونَ.

فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤).

{فَتَعَالَى الله الْمَلِك الْحَقّ} عَمَّا يَقُول الْمُشْرِكُونَ {وَلَا تَعْجَل بِالْقُرْآنِ} أَيْ بِقِرَاءَتِهِ {مِنْ قَبْل أَنْ يُقْضَى إلَيْك وَحْيه} أَيْ يَفْرُغ جِبْرِيل مِنْ إبْلَاغه {وَقُلْ رَبّ زِدْنِي عِلْمًا} أَيْ بِالْقُرْآنِ فَكُلَّمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ شَيْء مِنْهُ زَادَ به علمه[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن الحسن؛ قال: لطم رجل امرأته؛ فجاءت إلى النبي ﷺ تطلب قصاصًا، فجعل النبي ﷺ بينهما القصاص؛ فأنزل الله: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}، فوقف النبي ﷺ حتى نزلت: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)} [النساء: ٣٤].

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٩/ ٢٩٩ رقم ٧٥٤٣)، والطبري في "جامع البيان" (٥/ ٣٨) من طريق وكيع ثنا جرير بن حازم عن الحسن به. وهذا مرسل صحيح الإسناد، ولكنه ضعيف لإرساله.

وعن السدي؛ قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن أتعب نفسه في =

=

حفظه، حتى يشقّ على نفسه، فيخاف أن يصعد جبريل ولم يحفظه؛ فأنزل الله: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ} الآية.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٤٧) ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله-سبحانه-: وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ ... معطوف على قوله: كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ.. والكاف للتشبيه، واسم الإشارة يعود على إنزال ما سبق من آيات.

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [طه: ١١٣]، أي:" وكما رغَّبنا أهل الإيمان في صالحات الأعمال، وحذَّرنا أهل الكفر من المقام على معاصيهم وكفرهم بآياتنا، أنزلنا هذا القرآن باللسان العربي؛ ليفهموه".

قال السمعاني:" أي: بلسان العرب".

قال مكي:" المعنى: كما رغب أهل الإيمان في صالح الأعمال فوعدهم ما وعدهم، كذلك حذر بالوعيد أهل الكفر، فقال: {وكذلك أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} أي: أنزلناه بلغتكم أيها العرب لتفهموه".

قال الزمخشري:" {وكذلك} عطف على {كذلك نقص}، أى: ومثل ذلك الإنزال، وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد، أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة".

قوله تعالى: {وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ} [طه: ١١٣]، أي:" وفصَّلنا فيه أنواعًا من الوعيد".

قال الزمخشري:" مكررين فيه آيات الوعيد".

قال مكي:" أي: وخوفناهم بضروب من الوعيد".

قال السمعاني:" أي: صرفنا القول فيه بذكر الوعيد".

=

=

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [طه: ١١٣]، أي:" رجاء أن يتقوا ربهم".

قال مكي:" أي: ما فيه من الوعيد ".

قال السمعاني:" أي: يتقون الشرك والمعاصي".

قال ابن كثير:" أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش ".

قال الزمخشري:" ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي أو فعل الخير والطاعة".

قال قتادة:" ما حذروا به من أمر الله وعقابه، ووقائعه بالأمم قبلهم".

قوله تعالى: {أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} [طه: ١١٣]، أي:" أو يُحدِث لهم هذا القرآن تذكرة، فيتعظوا، ويعتبروا".

قال السمعاني:" أي: يحدث لهم القرآن اعتبارا؛ فيعتبرون به، وقال بعضهم: يحدث لهم الوعيد ذكر العذاب؛ فينزجرون عن المعاصي".

قال الزمخشري:" الذكر: يطلق على الطاعة والعبادة".

قال ابن كثير:" وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات".

عن قتادة:" {أو يحدث لهم}: القرآن {ذِكْرًا}، أي: جدّا وورعا".

قال مكي:" فينقلبون عما هم مقيمون عليه من الكفر بالله".

وحكي الطبري عن قتادة أيضا:" معناه: أو يحدثُ لهم شرفا، بإيمانهم به".

وقرئ: «نحدث» و «تحدث»، بالنون والتاء، أى: تحدث أنت. وسكن بعضهم الثاء للتخفيف.

أى: ومثل ما أنزلنا الآيات السابقة المشتملة على الآداب والأحكام والقصص، أنزلنا عليك يا محمد القران كله، فما نزل منه متأخرا يشبه في هدايته وإعجازه ما نزل منه متقدما.

وقد اقتضت حكمتنا أن نجعله قُرْآنًا عَرَبِيًّا أى: بلغة العرب، لكي يفهموه ويقعوا

=

=

على ما فيه من هدايات وإرشادات وإعجاز للبشر.

وقوله: وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ معطوف على أَنْزَلْناهُ أى: أنزلناه قرآنا عربيا وكررنا ونوعنا فيه ألوانا من الوعيد على سبيل التخويف والتهديد.

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أى: لعل الناس يتقون- بسبب ذلك- الوقوع في الكفر والفسوق والعصيان، ويجتنبون الآثام والسيئات، ويصونون أنفسهم عن الموبقات فمعمول يَتَّقُونَ محذوف.

وقوله-سبحانه-: أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا بيان لحكمة أخرى من الحكم التي من أجلها أنزل الله القرآن الكريم.

أى: أنزلناه بهذه الصفة، وجعلناه مشتملا على ضروب من الوعيد، لعل قومك- أيها الرسول الكريم- يتقون الكفر والمعاصي، أو لعل القرآن يحدث في نفوسهم ذِكْرًا.

أى: اتعاظا واعتبارا يصرفهم عن التردي فيما ترددت فيه الأمم السابقة من آثام وموبقات أدت إلى هلاكها.

وقال-سبحانه-: أَنْزَلْناهُ بالإضمار مع أن القرآن لم يسبق له ذكر في الآيات السابقة، للإيذان بنباهة شأنه، وعلو قدره، وكونه مركوزا في العقول، حاضرا في الأذهان والقلوب.

ثم أثنى-سبحانه- على ذاته بما يستحقه من صفات كريمة فقال: فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ.

قوله تعالى: {فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ} [طه: ١١٤]، أي:" فتنزَّه الله – سبحانه – وارتفع، وتقدَّس عن كل نقص، الملك الذي قهر سلطانه كل ملك وجبار، المتصرف بكل شيء، الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، وكل شيء منه حق".

=

=

قال ابن كثير:" أي: تنزه وتقدس الملك الحق، الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق. وعدله تعالى ألا يعذب أحدًا قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه؛ لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة".

قال الزمخشري:" استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم، وغير ذلك مما يجرى عليه أمر ملكوته".

قوله تعالى: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ} [طه: ١١٤]، أي:" ولا تعجل - أيها الرسول - بمسابقة جبريل في تَلَقِّي القرآن قبل أن يَفْرَغ منه".

قال الزمخشري: أي:" وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن، فتأن عليك ريثما يسمعك ويفهمك، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته. ونحوه قوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} [القيامة: ١٦]، وقيل معناه: لا تبلغ ما كان منه مجملا حتى يأتيك البيان".

قال ابن كثير:" أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده، يعني: أنه، عليه السلام، كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدّة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه؛ لئلا يشق عليه".

قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولا تعجل يا محمد بالقرآن، فتقرئه أصحابك، أو تقرأه عليهم، من قبل أن يوحى إليك بيان معانيه، فعوتب على إكتابه وإملائه ما كان الله ينزله عليه من كتابه من كان يكتبه ذلك من قبل أن يبين له معانيه، وقيل: لا تتله على أحد، ولا تمله عليه حتى نبينه لك".

=

=

عن مجاهد، قوله " {وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}، قال: لا تتله على أحد حتى نبينه لك".

قال ابن جريج:" يقول: لا تتله على أحد حتى نتمه لك".

قال ابن عباس:" يعنى: لا تعجل حتى نبينه لك".

عن قتادة:" {مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}، أي: من قبل أن يبين لك بيانه".وفي رواية:" تبيانه".

وقرئ: «حتى تقضى إليك وحيه».

قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤]، أي:" وقل: ربِّ زدني علمًا إلى ما علمتني".

قال الطبري:" وقل يا محمد: ربّ زدني علما إلى ما علمتني أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم".

قال ابن كثير:" أي: زدني منك علمًا".

قال ابن عُيَيْنَة، رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم حتى توفاه الله ﷻ".

وجاء في الحديث: "إن الله تابع الوحي على رسوله، حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ".

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: "اللهم انفعني بما علَّمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علمًا، والحمد لله على كل حال".

قال الزمخشري:" قوله تعالى: {رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}: متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له عند ما علم من ترتيب التعلم، أى: علمتني يا رب لطيفة في باب التعلم وأدبا جميلا ما كان عندي، فزدني علما إلى علم، فإن لك في كل شيء حكمة وعلما.

وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم".

=

=

أى: فجل وعظم شأن الله -سبحانه- عن إلحاد الملحدين، وإشراك المشركين فإنه هو وحده الْمَلِكُ المتصرف في شئون خلقه، وهو وحده الإله الْحَقُّ وكل ما سواه فهو باطل.

ثم أرشد الله تعالى نبيه ﷺ إلى كيفية تلقى القرآن من جبريل- عليه السلام فقال: وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ...

أى: ولا تتعجل بقراءة القرآن من قبل أن ينتهى جبريل من إبلاغه إليك، قالوا: وكان النبي ﷺ كلما قرأ عليه جبريل آية قرأها معه، وذلك لشدة حرصه على حفظ القرآن، ولشدة شوقه إلى سماعه، فأرشده الله تعالى في هذه الآية إلى كيفية تلقى القرآن عن جبريل، ونهاه عن التعجل في القراءة.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ.

ثم أمر -سبحانه- نبيه ﷺ: أن يسأله المزيد من العلم فقال: وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا.

أى: وقل- أيها الرسول الكريم- مخاطبا ربك ومتوسلا إليه، يا رب زدني من علمك النافع.

قال الآلوسى: واستدلوا بالآية على فضل العلم حيث أمر ﷺ بطلب الزيادة منه، وذكر بعضهم أنه ﷺ ما أمر بطلب الزيادة من شيء سوى العلم. وكان ﷺ يقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علما» وكان يقول: «اللهم زدني إيمانا وفقها ويقينا وعلما».

وقال الشنقيطي: كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي كلما قال جبريل آية قالها معه ﷺ من شدة حرصه على حفظ القرآن؛ فأرشده الله في هذه الآية إلى ما ينبغي. فنهاه عن العجلة بقراءة القرآن مع جبريل، بل أمره أن ينصت لقراءة جبريل حتى ينتهي، ثم يقرؤه هو بعد ذلك، فإن الله ييسر له حفظه. وهذا المعنى المشار إليه في

=

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥).

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَم} وَصَّيْنَاهُ أَنْ لَا يَأْكُل مِنْ الشَّجَرَة {مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل أَكْله مِنْهَا {فَنَسِيَ} تَرَكَ عَهْدنَا {وَلَمْ نَجِد لَهُ عَزْمًا} حَزْمًا وَصَبْرًا عَمَّا نَهَيْنَاهُ عَنْهُ.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦).

{وَ} اُذْكُرْ {إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اُسْجُدُوا لِآدَم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيس} وَهُوَ أَبُو الْجِنّ كَانَ يَصْحَب الْمَلَائِكَة وَيَعْبُد الله مَعَهُمْ {أَبَى} عَنْ السُّجُود لِآدَم {قَالَ أَنَا خَيْر مِنْهُ}.

فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧).

=

هذه الآية أوضحه الله في غير هذا الموضع؛ كقوله في "القيامة": {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)}. وأخرج البخاري في صحيحه: حدثنا موسى بن إسماعيل قال: حدثنا أبو عوانة قال: حدثنا موسى بن أبي عائشة قال: حدثنا سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦)} قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما. وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرك شفتيه؛ فأنزل الله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)} قال: جمعه لك في صدرك، ونقرأه: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)} قال: فاستمع له وأنصت {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)} ثم علينا أن نقرأه. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع؛ فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه.

{فَقُلْنَا يَا آدَم إنَّ هَذَا عَدُوّ لَك وَلِزَوْجِك} حَوَّاء بِالْمَدِّ {فَلَا يُخْرِجَنكُمَا مِنْ الْجَنَّة فَتَشْقَى} تَتْعَب بِالْحَرْثِ وَالزَّرْع وَالْحَصْد وَالطَّحْن وَالْخَبْز وَغَيْر ذَلِكَ وَاقْتَصَرَ عَلَى شَقَائِهِ لِأَنَّ الرَّجُل يَسْعَى عَلَى زَوْجَته.

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨).

{أن لك أ} ن {لا تجوع فيها ولا تعرى}.

وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩).

{وَأَنَّك} بِفَتْحِ الْهَمْزَة وَكَسْرهَا عَطْف عَلَى اسْم إنَّ وَجُمْلَتهَا {لَا تَظْمَأ فِيهَا} تَعْطَش {وَلَا تَضْحَى} لَا يَحْصُل لَك حَرّ شَمْس الضُّحَى لِانْتِفَاءِ الشَّمْس فِي الْجَنَّة.

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠).

{فَوَسْوَسَ إلَيْهِ الشَّيْطَان قَالَ يَا آدَم هَلْ أَدُلّك عَلَى شَجَرَة الْخُلْد} أَيْ الَّتِي يُخَلَّد مَنْ يَأْكُل مِنْهَا {وَمُلْك لَا يَبْلَى} لَا يَفْنَى وَهُوَ لَازِم الْخُلْد.

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١).

{فَأَكَلَا} أَيْ آدَم وَحَوَّاء {مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتهمَا} أَيْ ظَهَرَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا قُبُله وَقُبُل الْآخَر وَدُبُره وَسُمِّيَ كُلّ مِنْهُمَا سَوْأَة لِأَنَّ انْكِشَافه يَسُوء صَاحِبه {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ} أَخَذَا يُلْزِقَانِ {عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَق الْجَنَّة} لِيَسْتَتِرَا بِهِ {وَعَصَى آدَم رَبّه فَغَوَى} بِالْأَكْلِ مِنْ الشَّجَرَة.

ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢).

{ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبّه} قَرَّبَهُ {فَتَابَ عَلَيْهِ} قَبِل تَوْبَته {وَهَدَى} أَيْ هَدَاهُ إلَى

الْمُدَاوَمَة عَلَى التوبة.

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣).

{قَالَ اهْبِطَا} أَيْ آدَم وَحَوَّاء بِمَا اشْتَمَلْتُمَا عَلَيْهِ مِنْ ذُرِّيَّتكُمَا {مِنْهَا} مِنْ الْجَنَّة {جَمِيعًا بَعْضكُمْ} بَعْض الذُّرِّيَّة {لِبَعْضٍ عَدُوّ} مِنْ ظُلْم بَعْضهمْ بَعْضًا {فَإِمَّا} فِيهِ إدْغَام نُون إنْ الشَّرْطِيَّة فِي مَا الْمَزِيدَة {يَأْتِيَنكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ} الْقُرْآن {فَلَا يَضِلّ} فِي الدُّنْيَا {وَلَا يَشْقَى} فِي الْآخِرَة[١].

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ} [طه: ١١٥]، أي:" ولقد وصينا آدم مِن قَبلِ أن يأكل من الشجرة، ألا يأكل منها، وقلنا له: إن إبليس عدو لك ولزوجك، فلا يخرجنكما من الجنة، فتشقى أنت وزوجك في الدنيا".

قال الطبري:" وإن يضيع يا محمد هؤلاء الذين نصرّف لهم في هذا القرآن من الوعيد عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتبعوا أمر عدّوهم إبليس، ويطيعوه في خلاف أمري، فقديما ما فعل ذلك أبوهم آدم، ولقد وصينا آدم وقلنا له {إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ} ووسوس إليه الشيطان فأطاعه، وخالف أمري، فحلّ به من عقوبتي ما حل".

قوله تعالى: {فَنَسِيَ} [طه: ١١٥]، أي:" فوسوس إليه الشيطان فأطاعه، ونسي آدم الوصية".

قال ابن عباس:" فترك".

قال مجاهد:" ترك أمر ربه".

قال ابن زيد:" فنسي ما عهد إليه في ذلك، قال: وهذا عهد الله إليه".

قال الطبري:" يقول: فترك عهدي".

قال ابن عباس:" إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي".

=

=

قال الزجاج:" {فنسي}، ههنا معناه: فترك، لأن الناسي لا يؤاخذ بنسيانه".

قال الحسن:" ترك ما قدم إليه ولو كان منه نسيان ما كان عليه شيء، لأن الله قد وضع، عن المؤمنين النسيان والأخطاء ولكن آدم ترك ما قدم إليه من أكل الشجرة".

قوله تعالى: {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} [طه: ١١٥]، أي:" ولم نجد له قوة في العزم يحفظ بها ما أُمر به".

قال ابن زيد:" ولو كان له عزم ما أطاع عدوّه الذي حسده، وأبي أن يسجد له مع من سجد له إبليس، وعصى الله الذي كرّمه وشرّفه، وأمر ملائكته فسجدوا له".

وقال ابن عباس:" لم نجعل له عزما".

قال عبيد بن عمير: "لم يكن آدم من أولي العزم".

وفي قوله تعالى: {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} [طه: ١١٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: ولم نجد له صبراً، قاله قتادة.

قال مقاتل:" يعني: صبرا عن أكلها".

الثاني: ولم نجد له حفظا لما عهدنا إليه. قاله ابن عباس، وسفيان، وعطية، وابن زيد.

وقال عطية:" حفظا لما أمرته به".

قال ابن زيد:" العزم: المحافظة على ما أمره الله تبارك وتعالى بحفظه والتمسك به".

الثالث: عزمًا في العودة إلى الذنب ثانيًا. حكاه الماوردي.

الرابع: ثباتًا. حكاه الماوردي.

قال ابن أمامة:" لو أن أحلام بني آدم جمعت منذ يوم خلق الله تعالى آدم إلى يوم الساعة، ووضعت في كفة ميزان. ووضع حلم آدم في الكفة الأخرى، لرجح حلمه

=

=

بأحلامهم، وقد قال الله تعالى: {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} ".

قال الطبري:" وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه، ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء، لأنه لا يجزع جازع إلا من خور قلبه وضعفه، فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله تبارك وتعالى، وهو قوله: {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}، فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلب، على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه".

عن أبي هريرة-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: " احتج آدم وموسى عليهما السلام، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم: يا موسى، أنت اصطفاك الله بكلامه - وقال مرة: برسالته -، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال: حج آدم موسى، حج آدم موسى، حج آدم موسى ".

قال الرازي: في قوله تعالى ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي] اعلم أن هذا هي المرة السادسة من قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن: أولها في سورة البقرة ثم في الأعراف ثم في الحجر ثم في الإسراء ثم في الكهف، ثم هاهنا. واعلم أن في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها.

أحدها: أنه تعالى لما قال: كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق [طه: ٩٩] ثم إنه عظم أمر القرآن وبالغ فيه ذكر هذه القصة إنجازا للوعد في قوله: كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق. وثانيها: أنه لما قال:

وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا [طه: ١١٣] أردفه بقصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كأنه قال:

إن طاعة بني آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه أمر قديم فإنا قد عهدنا

=

=

إلى آدم من قبل أي من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا في تنبيهه حيث قلنا: إن هذا عدو لك ولزوجك ثم إنه مع ذلك نسي وترك ذلك العهد فأمر البشر في ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم. وثالثها: أنه لما قال لمحمد ﷺ: وقل رب زدني علما [طه: ١١٤] ذكر بعده قصة آدم عليه السلام فإنه بعد ما عهد الله إليه وبالغ في تجديد العهد وتحذيره من العدو نسي، فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ فيحتاج حينئذ إلى الاستعانة بربه في أن يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان... ا.هـ

واللام في قوله تعالى: وَلَقَدْ عَهِدْنا ... هي الموطئة للقسم، والمعهود محذوف، وهو النهى عن الأكل من شجرة معينة، كما وضحه في آيات أخرى منها قوله تعالى: وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ.

أى: والله لقد عهدنا إلى آدم- عليه السلام وأوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة مِنْ قَبْلُ أن يخالف أمرنا فيقربها ويأكل منها، أو من قبل أن نخبرك بذلك- أيها الرسول الكريم-.

والفاء في قوله فَنَسِيَ للتعقيب، والمفعول محذوف. أى: فنسي العهد الذي أخذناه عليه بعدم الأكل منها.

والنسيان هنا يرى بعضهم أنه بمعنى الترك، وقد ورد النسيان بمعنى الترك في كثير من آيات القرآن الكريم. ومن ذلك قوله تعالى: وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا أى: نترككم كما تركتم لقاء يومكم هذا وهو يوم القيامة.

وعليه يكون المعنى: ولقد عهدنا إلى آدم من قبل بعدم الأكل من الشجرة فترك الوفاء بعهدنا وخالف ما أمرناه به.

وعلى هذا التفسير فلا إشكال في وصف الله تعالى له بقوله: وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى لأن آدم بمخالفته لما نهاه الله تعالى عنه وهو الأكل من الشجرة- صار عاصيا لأمر

=

=

ربه.

ومن العلماء من يرى أن النسيان هنا على حقيقته، أى: أنه ضد التذكر فيكون المعنى:

ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ما عاهدناه عليه، وغاب عن ذهنه ما نهيناه عنه، وهو الأكل من الشجرة.

فإن قيل: إن الناسي معذور. فكيف قال الله تعالى في حقه: وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى؟.

فالجواب: أن آدم- عليه السلام لم يكن معذورا بالنسيان، لأن العذر بسبب الخطأ والنسيان والإكراه. من خصائص هذه الأمة الإسلامية، بدليل قوله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

قال القرطبي ما ملخصه: قوله تعالى: وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ..

للنسيان معنيان: أحدهما: الترك، أى ترك الأمر والعهد، وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين، ومنه نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ وثانيهما: قال ابن عباس: «نسى» هنا من السهو والنسيان، وإنما أخذ الإنسان من أنه عهد إليه فنسي ... وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم في ذلك الوقت مؤاخذا بالنسيان، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعا.

والمراد تسلية النبي ﷺ أى: أن طاعة بنى آدم للشيطان أمر قديم أى: إن نقض هؤلاء- المشركون- العهد، فإن آدم- أيضا- عهدنا إليه فنسي..».

وقوله: وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا مقرر لما قبله من غفلة آدم عن الوفاء بالعهد.

قال الجمل: وقوله: نَجِدْ يحتمل أنه من الوجدان بمعنى العلم، فينصب مفعولين، وهما «له» و «عزما» ويحتمل أنه من الوجود الذي هو ضد العدم فينصب مفعولا وهو عَزْمًا والجار والمجرور متعلق بنجد.

والعزم: توطين النفس على الفعل، والتصميم عليه، والمضي في التنفيذ للشيء.

أى: فنسي آدم عهدنا، ولم نجد له ثبات قدم في الأمور، يجعله يصبر على عدم

=

=

الأكل من الشجرة بل لانت عريكته وفترت همته بسبب خديعة الشيطان له.
ثم ذكر -سبحانه- بعد ذلك بشيء من التفصيل، الأسباب التي أدت إلى نسيان آدم وضعف عزيمته فقال: وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى.
قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} [طه: ١١٦]، أي:" واذكر - أيها الرسول - إذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام".
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره معلما نبيه محمدا ﷺ، ما كان من تضييع آدم عهده، ومعرّفه بذلك أن ولده لن يعدوا أن يكونوا في ذلك على منهاجه، إلا من عصمه الله منهم {و} اذكر يا محمد {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ} ".
قال الحسن:" ثم أمرهم أن يسجدوا لآدم فسجدوا له كرامة من الله أكرم بها آدم، وليعلموا أن الله لا يخفى عليه شيء وأنه يصنع ما أراد".
عن أبي العالية في قول الله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}، قال: "لملائكة الذين كانوا في الأرض".
عن قتادة، قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}، فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسْجَد له ملائكته".
قوله تعالى: {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى} [طه: ١١٦]، أي:" فأطاعوا، وسجدوا، لكن إبليس امتنع من السجود".
قال ابن عطية: "وتلك معصية كفر لأنها عن معتقد فاسد صدرت".
قال قتادة:" حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني. فكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم".
قال السدي:"كان اسم إبليس «الحارث»، وإنما سمي إبليس حين أبلس متحيِّرًا".
قال ابن عباس:" إبليس، أبلسه الله من الخير كله، وجعله شيطانًا رجيمًا عقوبة لمعصيته".

=

=

أى: واذكر- أيها المخاطب- وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تكريم لا سجود عبادة، فامتثلوا لأمرنا، إلا إبليس فإنه أبى السجود لآدم تكبرا وغرورا وحسدا له على هذا التكريم.

ثم حكى -سبحانه- ما قاله لآدم بعد إباء إبليس عن السجود له فقال: يا آدَمُ إِنَّ هذا أى: إبليس عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ بسبب حسده لكما وحقده عليكما فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى أى: فاحذرا أن تطيعاه، فإن طاعتكما له ستؤدى بكما إلى الخروج من الجنة، فيترتب على ذلك شقاؤك، أى: تعبك في الحصول على مطالب حياتك.

قوله تعالى: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ} [طه: ١١٧]، أي:" قلنا: يا آدم إن إبليس هذا عدو لك ولزوجتك، فاحذرا منه".

قال الطبري:" ولذلك من شنآنه لم يسجد لك، وخالف أمري في ذلك وعصاني".

قوله تعالى: {فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} [طه: ١١٧]، أي:" ولا تطيعاه فيكون سببًا لإخراجكما من الجنة فتشقيان".

قال الطبري: يقول: "فلا تطيعاه فيما يأمركما به، فيخرجكما بمعصيتكما ربكما، وطاعتكما له {مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} يقول: فيكون عيشك من كدّ يدك، فذلك شقاؤه الذي حذّره ربه".

قال يحيى:" أي: إنكما إذا عصيتما الله أخرجكما من الجنة {فتشقى} في الدنيا، الكد فيها".

قال مقاتل:" {فتشقى} بالعمل بيديك، وكان يأكل من الجنة رغدا من غير أن يعمل بيده شيئا فلما أصاب الخطيئة أكل من عمل يده فكان يعمل ويأكل".

قال ابن كثير:" أي: إياك أن يسعى في إخراجك منها، فتتعب وتعنى وتشقى في طلب رزقك، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء، لا كلفة ولا مشقة".

=

=

قال السمعاني: {فتشقى} "أي: تتعب وتنصب".

قال الحسن:" عني به شقاء الدنيا فلا تلقي ابن آدم إلا شقيا ناصبا".

قال سعيد بن جبير:" أهبط إلى آدم ثور أحمر، فكان يحرث عليه، ويمسح العرق من جبينه، فهو الذي قال الله تعالى ذكره: {فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}، فكان ذلك شقاؤه".

قال سفيان بن عيينة: "لم يقل: فتشفيان، لأنها دخلت معه، فوقع المعنى عليهما جميعا وعلي أولادهما كقوله: {يا أيها النبي إذا طلقتم} و {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} [التحريم: ١ - ٢]، فدخلوا في المعني معه، وإنما كلم النبي وحده".

وأسند سبحانه إلى إبليس الإخراج لهما من الجنة، لأنه هو المتسبب في ذلك، عن طريق الوسوسة لهما، وطاعتهما له فيما حرضهما عليه وهو الأكل من الشجرة، وعبر عن التعب في طلب المعيشة بالشقاء، لأنه بعد خروجه من الجنة سيقوم بحراثة الأرض وفلاحتها وزرعها وريها ... ثم حصدها.. ثم إعداد نتاجها للأكل، وفي كل ذلك ما فيه من شقاء وكد وتعب.

وقال-سبحانه-: فَتَشْقى ولم يقل فتشقيا كما قال فَلا يُخْرِجَنَّكُما لأن الكلام من أول القصة مع آدم وحده: أو لأن شقاء الرجل يدخل فيه شقاء أهله، كما أن سعادته سعادتهم، أو لأنه هو الذي يعود عليه التعب إذ هو المكلف بأن يقدم لها ما تحتاجه من مطالب الحياة. كالمسكن والملبس والمطعم والمشرب.

قال القرطبي ما ملخصه: قوله فَتَشْقى يعنى أنت وزوجك لأنهما في استواء العلة واحد، ولم يقل: فتشقيا لأن المعنى معروف، وآدم- عليه السلام هو المخاطب، وهو المقصود. وأيضا لما كان هو الكاد عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص.

وفي ذلك تعليم لنا أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على

=

=

الأزواج، فلما كانت نفقة حواء على آدم، كانت كذلك نفقات بناتها على بنى آدم بحق الزوجية...

وقوله تعالى: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى تعليل لما يوجبه النهى عن طاعة إبليس التي ستؤدى بهما إلى الإخراج من الجنة وإلى الشقاء في الدنيا.

قوله تعالى: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨)} [طه: ١١٨]

قال مكي:" أي: إن لك الشبع في الجنة والكسوة والري والسترة".

قال النسفي:" {ولا تعرى} عن الملابس لأنها معدة أبدا فيها".

قال ابن كثير:" إنما قرن بين الجوع والعُرْي؛ لأن الجوع ذُلّ الباطن، والعري ذُلّ الظاهر ".

والجوع: ضد الشبع. وقوله تَعْرى من العرى الذي هو خلاف اللبس.

يقال: عرى فلان من ثيابه يعرى عريا، إذا تجرد منها.

قوله تعالى: {وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩)} [طه: ١١٩]

قال ابن عباس:" لا يصيبك فيها عطش ولا حر". وفي رواية:" لا يصيبك فيها حَرٌّ ولا أذى".

عن سعيد بن جبير، وقتادة: {ولا تضحى}، قالا: "لا تصيبك الشمس".

عن عمرة:" {ولا تضحى}، قال: لا يصيبك حر الشمس".

قال ابن كثير:" وهذان أيضًا متقابلان، فالظمأ: حر الباطن، وهو العطش. والضحى: حر الظاهر ".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها وهي شجرة الخلد".

قال الزمخشري:" الشبع والرى والكسوة والكن: هي الأقطاب التي يدور عليها

=

=

كفاف الإنسان، فذكره استجماعها له في الجنة، وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعرى والظمأ والضحو، ليطرق سمعه بأسامى أصناف الشقوة التي حذره منها، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها".

وقوله تَضْحى أى: لا يصيبك حر الشمس في الضحى. يقال: ضحا فلان يضحى ضحوا- كسعى- إذا كان بارزا لحر الشمس في الضحى.

أى: احذر يا آدم أن تطيع إبليس فيحل بك الشقاء، وتخرج من الجنة التي لا يصيبك فيها شيء من الجوع، ولا شيء من العرى أو الظمأ، ولا شيء من حر الشمس في الضحى.. وإنما أنت فيها متمتع بكل مطالب الحياة الهنيئة الناعمة الدائمة.

قال الزمخشري: الشبع والري والكسوة والسكن- هذه الأربعة- هي الأقطاب التي يدور فيها كفاح الإنسان، فذكّره استجماعها له في الجنة وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف، ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا.

وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعرى والظمأ والضحو، ليطرق سمعه بأسامى أصناف الشقوة التي حذره منها، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها.

ثم بين-سبحانه- أن آدم- عليه السلام مع هذه النصائح والتحذيرات لم يستطع أن يستمر على الاستجابة لنهى ربه إياه عن الأكل من الشجرة، بل تغلب عليه ضعفه فاستمع إلى مكر الشيطان، قال تعالى: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى.

قوله تعالى: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ} [طه: ١٢٠]، أي:" فوسوس الشيطان لآدم".

=

=

قال مقاتل:" يعني: إبليس وحده".

قال ابن كثير:" حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة ليُسلبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ".

الوسوسة: "الخطرة الرديئة، وأصله من الوسواس، وهو صوت الحلي، والهمس الخفي".

قوله تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} [طه: ١٢٠]، أي:" قال الشيطان لآدم: هل أدلك على شجرة، إن أكلت منها خُلِّدتَ فلم تمت، وملكت مُلْكًا لا ينقضي ولا ينقطع؟ ".

قال مقاتل:" يقول: ألا أدلك على شجرة «الخلد»، من أكل منها خلد في الجنة، فلا يموت، وعلى ملك لا يفنى".

قال يحيى:" أي: إنك إن أكلت منها خلدت في الجنة".

عن السدي:" {يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ} يقول: ألا أدلك"، " {على شجرة الخلد وملك لا يبلى} إن أكلت منها كنت ملكا مثل الله، {أو تكونا من الخالدين} فلا تموتان أبدا".

قال النسفي:" أضاف الشجرة إلى «الخلد» وهو: الخلود، لأن من أكل منها خلد بزعمه ولا يموت".

قال ابن كثير:" كانت شجرةَ الخلد - يعني: التي من أكل منها خلد ودام مكثه. وقد جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد".

عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم: "أنّ آدم حين دخل الجنة، ورأى ما فيها مِن الكرامة، وما أعطاه اللهُ منها؛ قال: لو أنّ خُلْدًا كان. فاغتنمها منه الشيطان لَمّا سَمِعها منه، فأتاه مِن قِبَل الخُلْد".

روي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها

=

=

مائة عام، ما يقطعها وهي شجرة الخلد".

والوسوسة: الخطرة الرديئة، وأصلها من الوسواس، وهو صوت الحلي، والهمس الخفى.

والوسواس- بكسر الواو الأولى- مصدر وبفتحها الاسم وهو من أسماء الشيطان، كما قال تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلهِ النَّاسِ، مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ.

ويقال: وسوس فلان إلى فلان، أى: أوصلها إليه، ووسوس له، أى: من أجله. أى فأوصل الشيطان وسوسته إلى آدم، وأنهاها إليه، بأن قال له: يا آدم، هل أدلك على الشجرة التي من أكل منها عاش مخلدا لا يدركه الموت وصار صاحب ملك لا يفنى، ولا يصبح باليا أبدا.

وناداه باسمه، ليكون أكثر إقبالا عليه، وأمكن في الاستماع إليه.

وعرض عليه ما عرض في صورة الاستفهام الذي بمعنى الحث والحض، ليشعره بأنه ناصح له وحريص على مصلحته ومنفعته.

ثم أكد كل هذا التحريض بالقسم كما في قوله تعالى: وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ.

فكانت نتيجة مكره بآدم وخداعه له، أن أطاعه في الأكل من الشجرة كما قال تعالى: فَأَكَلا مِنْها أى: فأكل آدم وزوجه من الشجرة التي نهاه ربه عن الأكل منها.

فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما أى: عوراتهما، وسميت العورة سوءة، لأن انكشافها يسوء صاحبها وبحزنه، ويجعل الناس تنفر منه.

وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ.. أى: وشرعا وأخذا يلزقان على أجسادهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما.

قوله تعالى: {فَأَكَلَا مِنْهَا} [طه: ١٢١]، أي:" فأكل آدم وحواء من الشجرة التي

=

نهاهما الله عنها".

قال ابن كثير:" أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها".

قوله تعالى: {فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا} [طه: ١٢١]، أي:" فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورةً عن أعينهما".

قال مقاتل:" يقول ظهرت لهما عورتهما".

قال يحيى:" فبدأت حواء قبل آدم في تفسير الكلبي".

وقال الحسن: "لو أن حواء بدأت قبل آدم فبدت سوأتها عند ذلك لكانت له عظة ولكن لما أكل آدم بدت لهما سوآتهما".

قال ابن عباس:" لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالا من الظفر، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقي في أطراف أصابعه".

عن السدي، قال: "إنما أراد، يعني إبليس بقوله: {هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى} ليبدي لهما ما توارى عنهما من سوآتهما، بهتك لباسهما، وكان قد علم أن لهما سوأة لما كان يقرأ من كتب الملائكة، ولم يكن آدم يعلم ذلك، وكان لباسهما الظفر، فأبى آدم أن يأكل منها، فتقدمت حواء، فأكلت ثم قالت: يا آدم كل، فإني قد أكلت، فلم يضرني، فلما أكل آدم بدت سوآتهما".

قوله تعالى: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ} [طه: ١٢١]، أي:" فأخذا ينزعان من ورق أشجار الجنة ويلصقانه عليهما؛ ليسترا ما انكشف من عوراتهما".

قال ابن عباس:" ينزعان ورق التين ويجعلانه على سوءاتهما".

قال السدي:" أقبلا يغطيان عليهما من ورق الجنة، التين".

قال قتادة:" يوصلان عليهما من ورق الجنة".

قال محمد بن كعب:" يأخذان ما يواريان به عورتهما".

=

قال مجاهد:" يرقعان، كهيئة الثوب".

قال الطبري:" يقول: أقبلا وجعلا يشدَّان عليهما من ورق الجنة، ليواريا سوءاتهما".

قال القرطبي:" المعنى: يقطعان الورق ويلزقانه ليستترا به، ومنه خصف النعل".

وفي {مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ} [الأعراف: ٢٢]، قولان:

أحدهما: ورق الموز.

والثاني: ورق التين، قاله ابن عباس، والسدي.

قال وهب بن منبه:" كان لباس آدم وحواء عليهما السلام نورًا على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا. فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوءاتهما".

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله ﷻ خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعره شجرة فنازعها، فناداه الرحمن يا آدم مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن، قال: يا رب لا ولكن استحياء".

عن أبي بن كعب قال، قال رسول الله ﷺ: "لما ذاق آدم من الشجرة فر هاربا فتعلقت شجرة بشعره فنودي: يا آدم، أفرارا مني؟ قال: بل حياء منك قال يا آدم اخرج من جواري، فبعزتي لا أساكن فيها من عصاني، ولو خلقت ملء الأرض مثلك خلقا ثم عصوني لأسكنتهم دار العاصين".

قوله تعالى: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} [طه: ١٢١]، أي:" وخالف آدم أمر ربه، فغوى بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها".

قال مقاتل:" يعني: فضل وتولى عن طاعة ربه- ﷻ-".

=

=

قال الطبري:" يقول: وخالف أمر ربه، فتعدّى إلى ما لم يكن له أن يتعدّى إليه، من الأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها".

قال الجصاص:" حكى لنا أبو عمر غلام ثعلب عن ثعلب عن ابن الأعرابي قال: يقال غوى الرجل يغوي غيا، إذا فسد عليه أمره أو فسد هو في نفسه، ومنه قوله تعالى: {وعصى آدم ربه فغوى} [طه:١٢١] أي فسد عليه عيشه في الجنة؛ قال: ويقال غوى الفصيل إذا لم يرو من لبن أمه. وقيل في {أغويتني}: أي حكمت بغوايتي، كقولك أضللتني أي حكمت بضلالتي. وقيل: {أغويتني} أي أهلكتني. فهذه الوجوه الثلاثة محتملة في إبليس. وقوله تعالى: {وعصى آدم ربه فغوى} يحتمل فساد أمره في الجنة وهو يرجع إلى معنى الخيبة، ولا يحتمل الهلاك ولا الحكم بالغواية التي هي ضلال؛ لأن أنبياء الله لا يجوز ذلك عليهم".

قال الربيع بن أنس: "فأخرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة، فأخرج آدم معه غصنا من شجر الجنة، على رأسه تاج من شجر الجنة، وهو الإكليل من ورق الجنة".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «"حاجّ موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني - أو: قدره الله عليّ قبل أن يخلقني - " قال رسول الله ﷺ: "فحج آدم موسى"».

وكثير من المفسرين يقولون: إن ورق الجنة الذي أخذ آدم وحواء في لزقه على أجسادهما هو ورق شجر التين لكبر حجمه.

وقد أخذ العلماء من ذلك وجوب ستر العورة، لأن قوله تعالى: وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ يدل على قبح انكشافها، وأنه يجب بذل أقصى الجهد في سترها.

=

=

وقوله: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى أى: وخالف آدم أمر ربه في اجتناب الأكل من الشجرة فَغَوَى أى: فأخطأ طريق الصواب، بسبب عدم طاعته ربه.

قالوا: ولكن آدم في عصيانه لربه كان متأولا، لأنه اعتقد أن النهى عن شجرة معينة لا عن النوع كله، وقالوا: وتسمية ذلك عصيانا لعلو منصبه، وقد قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

كما قالوا: إن الأسباب التي حملت آدم على الأكل من الشجرة، أن إبليس أقسم له بالله إنه له ناصح، فصدقه آدم- عَلَيْهِ السَّلَامُ لاعتقاده أنه لا يمكن لأحد أن يقسم بالله كاذبا، والمؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم كما جاء في الحديث الشريف.

وقوله-سبحانه-: ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدى بيان لفضل الله تعالى على آدم، حيث قبل توبته، ورزقه المداومة عليها.

قوله تعالى: {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ} [طه: ١٢٢]، أي:" ثم اصطفى الله آدم، وقرَّبه".

قال مقاتل:" يعني: استخلصه ربه- عَزَّ وَجَلَّ- ".

قال يحيى:" يعني: المعصية، ولم تبلغ بالمعصية الضلال".

قال الفراء: أي:" اختاره".

قال الطبري:" يقول: اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه".

قال صاحب المنار:" فآدم أول البشر ارتقاء إلى هذه المرتبة [أي: الإصطفاء] فإنه بعدما تنقل في الأطوار إلى مرتبة التوبة والإنابة اصطفاه - تعالى - واجتباه كما قال في سورة طه: {ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى} [طه: ١٢٢]، فكان هاديا مهديا، وكان في ذريته من النبيين والمرسلين من شاء الله - تعالى -".

قوله تعالى: {فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [طه: ١٢٢]، أي:" وقَبِل توبته، وهداه رشده".

قال مقاتل:" {فتاب عليه} من ذنبه، {وهدى}، يعني: وهداه للتوبة".

قال يحيى:" {فتاب عليه} من ذلك الذنب. {وهدى}: مات على الهدى".

=

قال الطبري:" فرزقه الرجوع إلى ما يرضى عنه، والعمل بطاعته، وذلك هو كانت توبته التي تابها عليه، وهداه للتوبة، فوفَّقه لها".

قال الفراء: " {وهدى}، أي: هداه للتوبة".

عن السدي:" {فتلقى آدم من ربه كلمات}، قال: رب، ألم تخلقني بيدك؟ قيل له: بلى. قال: ونفخت في من روحك؟ قيل له: بلى. قال وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى. قال: رب هل كنت كتبت هذا علي؟ قيل له: نعم. قال: رب، إن تبت وأصلحت، هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قيل له: نعم. قال الله تعالى: {ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى} ".

والاجتباء: الاصطفاء والاختيار، أي: ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة، وندم على ما فعل هو وزوجه، اجتباه ربه أي: اصطفاه وقربه واختاره فَتابَ عَلَيْهِ أي: قبل توبته وَهَدى أي: وهداه إلى الثبات عليها، وإلى المداومة على طاعة الله تعالى فقد اعترف هو وزوجه بخطئهما، كما في قوله تعالى: قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ.

وقد أوحى الله تعالى إليه بكلمات كانت السبب في قبول توبته، كما قال-سبحانه-: فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

ثم ختم-سبحانه- هذه الآيات ببيان ما آل إليه أمر آدم فقال تعالى قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعًا....

أي: انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين، فألف الاثنين هنا تعود إلى آدم وحواء. أما الآيات الأخرى التي جاءت بضمير الجمع، والتي منها قوله تعالى: قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ....

فالضمير فيها يعود إلى آدم وزوجته وذريتهما.

قوله تعالى: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا} [طه: ١٢٣]، أي:" قال الله تعالى لآدم

=

وحواء: اهبطا من الجنة إلى الأرض جميعًا مع إبليس".

قال مقاتل:" يعنى: آدم وإبليس".

قال ابن كثير:" يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعًا، أي: من الجنة كلكم".

قوله تعالى: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [طه: ١٢٣]، أي: "متعادين يبغى بعضكم على بعض بتضليله".

قال مقاتل:" يقول: إبليس وذريته عدو لآدم وذريته".

قال ابن كثير:" آدم وذريته، وإبليس وذريته ".

قال البغوي:" أراد العداوة التي بين ذرية آدم والحية وبين المؤمنين من ذرية آدم وبين إبليس".

قال المهايمي: "فالمرأة عدوة الزوج، في إلجائه إلى تحصيل الحرام. والزوج عدوها في إنفاقه عليها. وإبليس يوقع الفتنة بينهما، ويدعوهما إلى أنواع المفاسد التي لا ترتفع إلا باتباع الأمر السماوي".

عن أبي صالح مولى أم هانئ، قال: "يعني: آدم وحواء والحية". روي عن السدي نحو ذلك- وزاد فيه إبليس.

قال السدي:" فهبطوا فنزل آدم بالهند. وأنزل معه بالحجر الأسود، وأنزل بقبضة من ورق الجنة فبثه بالهند فنبت شجر الطيب. فإنما أصل ما يجاء به من الهند من الطيب- من قبضة الورق التي هبط بها آدم، وإنما قبضها آدم حين أخرج من الجنة أسفا على الجنة حين أخرج منها".

قوله تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى} [طه: ١٢٣]، أي:" فإن يأتكم مني شريعة ورسول وبيان ودعوة".

قال الطبري:" يقول: فإن يأتكم يا آدم وحواء وإبليس مني بيان لسبيلي، وما أختاره

=

=

لخلقي من دين".

قال سهل:" هو الاقتداء وملازمة الكتاب والسنة، فلا يضل عن طريق الهدى، ولا يشقى في الآخرة والأولى".

قال أبو العالية:" الهدى: الأنبياء والرسل، والبيان".

قال الحسن: "الهدى: القرآن".

قوله تعالى: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [طه: ١٢٣]، أي:" فمن اتبع هداي وبياني وعمل بهما فإنه يرشد في الدنيا، ويهتدي، ولا يشقى في الآخرة بعقاب الله".

قال أبو خالد:" {فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ}، يعني: كتابي".

قال الطبري:" يقول: فمن اتبع بياني ذلك وعمل به، ولم يزغ منه، فلا يزول عن محجة الحق، ولكنه يرشد في الدنيا ويهتدي، {ولا يَشْقَى} في الآخرة بعقاب الله، لأن الله يدخله الجنة، وينجيه من عذابه".

روي عن ابن عباس، قال:" تضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى} ".

قال ابن عباس:" من قرأ القرآن واتبع ما فيه عصمه الله من الضلالة، ووقاه، أظنه أنه قال: من هول يوم القيامة، وذلك أنه قال: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى} في الآخرة".

وقوله: بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ أى: بعض ذريتكما لبعض عدو، بسبب التخاصم والتنازع والتدافع على حطام هذه الدنيا.

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً يا بنى آدم عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب فعليكم أن تتبعوا رسلي، وتعملوا بما اشتملت عليه كتبي.

=

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤).

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي} الْقُرْآن فَلَمْ يُؤْمِن بِهِ {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَة ضَنْكًا} بِالتَّنْوِينِ مَصْدَر بِمَعْنَى ضَيِّقَة وَفُسِّرَتْ فِي حَدِيث بِعَذَابِ الْكَافِر فِي قَبْره {وَنَحْشُرهُ} أَيْ الْمُعْرِض عَنْ الْقُرْآن {يَوْم الْقِيَامَة أَعْمَى} أَعْمَى الْبَصَر.

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥).

{قَالَ رَبّ لَمْ حَشَرْتنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْت بَصِيرًا} فِي الدُّنْيَا وَعِنْد الْبَعْث.

قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦).

{قال} الأمر {كذلك أتتك آياتنا فَنَسِيتهَا} تَرَكْتهَا وَلَمْ تُؤْمِن بِهَا {وَكَذَلِكَ} مِثْل نِسْيَانك آيَاتنَا {الْيَوْم تُنْسَى} تُتْرَك فِي النَّار.

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧).

{وَكَذَلِكَ وَمِثْل جَزَائِنَا مَنْ أَعْرَضَ عَنْ الْقُرْآن {نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ} أَشْرَكَ {وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبّه وَلَعَذَاب الْآخِرَة أَشَدّ} مِنْ عَذَاب الدُّنْيَا وَعَذَاب الْقَبْر {وَأَبْقَى} أَدْوَم.

=

فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ بأن آمن برسلي وصدق بكتبي.

فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى لا في الدنيا ولا في الآخرة، بسبب استمساكه بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

وشبيه هذه الآية قوله تعالى: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعًا، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً، فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨).

{أَفَلَمْ يَهْدِ} يَتَبَيَّن {لَهُمْ} لِكُفَّارِ مَكَّة {كَمْ} خَبَرِيَّة مَفْعُول {أَهْلَكْنَا} أَيْ كَثِيرًا إهْلَاكنَا {قَبْلهمْ مِنْ الْقُرُون} أَيْ الْأُمَم الْمَاضِيَة بِتَكْذِيبِ الرُّسُل {يَمْشُونَ} حَال مِنْ ضَمِير لَهُمْ {فِي مَسَاكِنهمْ} فِي سَفَرهمْ إلَى الشَّام وَغَيْرهَا فَيَعْتَبِرُوا وَمَا ذُكِرَ مِنْ أَخْذ إهْلَاك مِنْ فِعْله الْخَالِي عَنْ حَرْف مَصْدَرِيّ لِرِعَايَةِ الْمَعْنَى لَا مَانِع مِنْهُ {إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات} لَعِبَرًا {لِأُولِي النُّهَى} لِذَوِي الْعُقُول.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩).

{وَلَوْلَا كَلِمَة سَبَقَتْ مِنْ رَبّك} بِتَأْخِيرِ الْعَذَاب عَنْهُمْ إلَى الْآخِرَة {لَكَانَ} الْإِهْلَاك {لِزَامًا} لَازِمًا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا {وَأَجَل مُسَمًّى} مَضْرُوب لَهُمْ مَعْطُوف عَلَى الضَّمِير الْمُسْتَتِر فِي كَانَ وَقَامَ الْفَصْل بِخَبَرِهَا مَكَان التَّأْكِيد[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي} [طه: ١٢٤]، أي:" ومن تولَّى عن ذكري الذي أذكِّره به".

قال الطبري: أي:" فتولى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه".

قال ابن كثير:" أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ".

قوله تعالى: {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} [طه: ١٢٤]، أي:" فإن له في الحياة الأولى معيشة ضيِّقة شاقة، ويُضيَّق قبره عليه ويعذَّب فيه".

قال مقاتل:" يعني معيشة سوء، لأنها في معاصي الله- ﷻ- الضنك والضيق".

قال الطبري: يقول: فإن له معيشة ضيقة، والضنك من المنازل والأماكن =

=

والمعايش: الشديد، يقال: هذا منزل ضنك: إذا كان ضيقا".

قال ابن كثير:" أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حَرَج لضلاله، وإن تَنَعَّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة ".

قال الفراء:" الضنك: الضيقة الشديدة".

قال ابن قتيبة:" أي: ضيقة".

قال أبو عبيدة:" معيشة ضيقة، والضّنك توصف به الأنثى، والمذكّر بغير الهاء وكل عيش أو منزل أو مكان ضيّق فهو ضنك، قال عنترة:

إن المنيّة لو تمثّل مثّلت... مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل

وقال:

وإن نزلوا بضنك أنزل".

وفي قوله تعالى: {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} [طه: ١٢٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: كسبًا حرامًا، لأن الحرام وإن اتسع فهو ضنك، قاله عكرمة، والضحاك، وقيس بن أبي حازم، ومالك بن دينار.

قال عكرمة:" هي المعيشة التي أوسع الله عليه من الحرام".

وروي عن قيس بن أبي حازم، قوله: {مَعِيشَةً ضَنْكًا}، قال: رزقا في معصيته".

وقال الضحاك:" الكسب الخبيث".

وقال الضحاك:" العمل الخبيث، والرزق السيئ".

قال مالك بن دينار:" يحول الله رزقه في الحرام فلا يطعمه إلا حراما حتي يموت فيعذبه عليه".

الثاني: أن يكون عيشه منغَّصًا بأن ينفق من لا يوقن بالخلف من الله تعالى، قاله ابن

=

=

عباس.

الثالث: أنه عذاب القبر، قاله أبو سعيد الخدري، وابن مسعود، ومجاهد، وأبو صالح، والسدي، ورفعه أبو هريرة عن النبي -ﷺ-، وبه قال الطبري.

قال مجاهد:"ضيقة يضيق عليه قبره".

قال أبو سعيد الخدري:" المعيشة الضنك: عذاب القبر، إنه يسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تنينا تنهشه وتخدش لحمه حتى يُبعث، وكان يقال: لو أن تنينا منها نفخ الأرض لم تنبت زرعا".

قال أبو سعيد الخدري:" يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه".

ورواه أبو سعيد الخدري مرفوعا بلفظ: «ضمة القبر».

قال ابن كثير:"الموقوف أصح".

قال أبو هريرة:" يطبق على الكافر قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، وهي المعيشة الضنك التي قال الله: {مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} ".

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: "المؤمن في قبره في روضة خضراء، ويرحب له في قبره سبعون ذراعا، وينور له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيم أنزلت هذه الآية: {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} ؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده، إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تِنِّينًا، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس، ينفخون في جسمه، ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون".

قال ابن كثير:" رفعه منكر جدًا".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قول الله ﷻ: {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} قال: "المعيشة الضنك الذي قال الله تعالى: أنه يسلط عليه تسعة وتسعون حية، ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة".

=

=

الرابع: أنه الطعام الضريع والزقوم في جهنم، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد.
قال ابن زيد:" «معيشة ضنكا»: في النار شوك من نار وزقوم وغسلين، والضريع: شوك من نار، وليس في القبر ولا في الدنيا معيشة، ما المعيشة والحياة إلا في الآخرة، وقرأ قول الله ﷻ {يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} قال: لمعيشتي، قال: والغسلين والزقوم: شيء لا يعرفه أهل الدنيا".
وروي عن ابن عباس قوله: " {معيشة ضنكا}، قال: بشدة عليه في النار".
السادس: أن يكسب دون كفايته. أفاده الماوردي.
قال الزجاج:" الضنك: أصله في اللغة الضيق والشدة، ومعناه - والله أعلم - أن هذه
المعيشة الضنك في نارجهنم. وأكثر ما جاء في التفسير أنه عذاب القبر".
قال الزمخشري:" ومعنى ذلك: أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله وعلى قسمته فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة، فيعيش عيشا رافغا كما قال ﷻ فلنحيينه حياة طيبة والمعرض عن الدين، مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك وحاله مظلمة، كما قال بعض المتصوفة: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه"..
قال القشيري:" الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله المعيشة الضنك فى الدنيا، وفي القبر، وفى النار، وبالقلب من حيث وحشة الكفر، وبالوقت من حيث انغلاق الأمور".
قوله تعالى: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: ١٢٤]، أي:" ونحشره يوم القيامة أعمى عن الرؤية وعن الحجة".
قال الفراء:" أعمى عن الحجة، ويقال: إنه يخرج من قبره بصيرا فيعمى فى

=

=

حشره".

قال الزجاج:" مثل: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} [طه: ١٠٢]، وقيل: أعمى عن حجته، وتأويله: أنه لا حجة له يهتدي إليها، لا أن له حجة، وأنه يعمى عنها. ما للناس على الله حجة بعد الرسل، ولله الحجة البالغة وقد بشر وأنذر، ووعد وأوعد".

قال ابن كثير:" يحتمل أن يكون المراد: أنه يُحشَر أو يبعث إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضًا، كما قال تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [الإسراء: ٩٧]. ولهذا يقول: {رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} أي: في الدنيا".

عن مجاهد، قوله: {ونحشره يوم القيامة أعمى}، قال: عن الحجة".

روي عن عكرمة، قال:" عمي عليه كل شيء إلا جهنم، وفي لفظ قال: لا يبصر إلا النار".

وقوله: ضَنْكًا أى: شديدة الضيق. وكل شيء ضاق فهو ضنك.

وهو مصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث، والواحد والجمع يقال: ضنك- ككرم- عيش فلان ضنكا وضناكة إذا ضاق.

والمعنى إن من اتبع هداي الذي جاءت به رسلي فلن يضل ولن يشقى، أما من أعرض عن ذِكْرِي أى: عن هداي الذي جاءت به رسلي، واشتملت عليه كتبي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا.

أى: فإن لهذا المعرض معيشة ضيقة مليئة بالهم والغم والأحزان وسوء العاقبة، حتى ولو ملك المال الوفير، والحطام الكثير.. فإن المعيشة الطيبة لا تكون إلا مع طاعة الله، وامتثال أمره، واجتناب نهيه ...

قال تعالى: مَنْ عَمِلَ صالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً.

=

=

قال ابن كثير: قوله تعالى: فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا أى: في الدنيا فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى. فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة.

وقال سفيان بن عيينة، عن أبى حازم، عن أبى سلمه، عن أبى سعيد في قوله مَعِيشَةً ضَنْكًا قال: يضيق عليه قبره. حتى تختلف أضلاعه ا.هـ.

والمراد بالعمى في قوله -سبحانه-: وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى: عمى البصر، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا.

وقوله -سبحانه- في آية أخرى: وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا.

وقيل: المراد بالعمى: هنا أنه لا حجة له يدافع بها عن نفسه، وقيل: المراد به: العمى عن كل شيء سوى جهنم.

والرأى الأول هو الصواب، لأنه هو الظاهر من الآية الكريمة، ولا قرينة تمنع من إرادة هذا الظاهر.

ويجمع بين هذه الآية وما يشبهها وبين الآيات الأخرى التي تدل على أن الكفار يبصرون ويسمعون ويتكلمون يوم القيامة، والتي منها قوله تعالى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا ...

أقول: يجمع بين هذه الآية وما يشبهها، وبين الآيات الأخرى بوجوه منها: أن عماهم وصممهم في أول حشرهم، ثم يرد الله تعالى عليهم بعد ذلك أبصارهم وسمعهم، فيرون النار، ويسمعون ما يحزنهم.

قال الجمل: قوله: أَعْمى حال من الهاء في نحشره، والمراد عمى البصر وذلك في المحشر، فإذا دخل النار زال عنه عماه ليرى محله وحاله، فهو أعمى في حال

=

=

وبصير في حال أخرى ا.هـ.

ومنها: تنزيل سمعهم وبصرهم وكلامهم منزلة العدم لعدم انتفاعهم بذلك فقد قال تعالى في شأن المنافقين: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ بتنزيل سماعهم وكلامهم وإبصارهم منزلة العدم، حيث إنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس.

وقوله-سبحانه-: قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا استئناف مسوق لبيان ما يقوله ذلك المعرض عن طاعة الله يوم القيامة.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى} [طه: ١٢٥]، أي:" قال المعرِض عن ذكر الله: ربِّ لِمَ حَشَرْتني أعمى".

قال الطبري: يقول:" ربّ لم حشرتني أعمى عن حجتي ورؤية الأشياء".

قال القرطبي:" أي: بأي ذنب عاقبتني بالعمى".

عن مجاهد:" {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى}، لا حجة لي".

قال القشيري: " وهو بعيد ما كان للكافر حجة في الدنيا".

قال الواحدي:" «الأعمى» إذا أطلق، كان الظاهر عمى البصر".

قال الفراء: "يقال: إنه يخرج من قبره بصيرا، فيعمى في حشره".

وقوله: {لِمَ حَشَرتَنِي أعْمَى} حَرَّك الياء ابن كثيرٍ ونافع، وأرسلها الباقون.

قوله تعالى: {وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} [طه: ١٢٥]، أي:" وقد كنت بصيرًا في الدنيا؟ ".

قال الطبري: يقول:" وقد كنت في الدنيا ذا بصر بالحجة ورؤية الاشياء".

قال القرطبي:" أي: في الدنيا، وكأنه يظن أنه لا ذنب له".

عن مجاهد: {وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا}، في الدنيا".

عن مجاهد:" {وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا}، قال: عالما بحجتي".

قال يحيى:" وإنما علمه ذلك عند نفسه في الدنيا. كان يحاج في الدنيا جاحدا لما جاءه من الله".

=

=

قال قتادة:" كان بعيد البصر، قصير النظر، أعمى عن الحق".

أي: قال ذلك الكافر الذي حشره الله تعالى يوم القيامة أعمى: يا رب لماذا حشرتني على هذه الحال مع أنى كنت في الدنيا بصيرا؟.

وهنا يأتيه الجواب الذي يخرسه، والذي حكاه الله تعالى في قوله: قَالَ كَذلِكَ أى: قال الله تعالى في الرد عليه: الأمر كذلك، فإنك أَتَتْكَ آياتُنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا فَنَسِيتَها أى: فتركتها وأعرضت عنها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى.

قوله تعالى: {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا} [طه: ١٢٦]، أي:" قال الله تعالى له: حشرتك أعمى؛ لأنك أتتك آياتي البينات، فأعرضت عنها، ولم تؤمن بها".

قال الطبري:" فعلت ذلك بك، فحشرتك أعمى كما أتتك آياتي، وهي حججه وأدلته وبيانه الذي بيَّنه في كتابه، {فنسيتها}: يقول: فتركتها وأعرضت عنها، ولم تؤمن بها، ولم تعمل".

قال ابن كثير:" أي: لما أعرضت عن آيات الله، وعامَلْتها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ".

عن مجاهد، {فنسيتها}، قال فتركتها".

عن السدي:" {فنسيتها}، يقول: تركتها إن تعمل بها".

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} [طه: ١٢٦]، أي:" وكما تركتَ آياتي في الدنيا فكذلك اليوم تُترك في النار".

قال الطبري:" يقول: فكما نسيت آياتنا في الدنيا، فتركتها وأعرضت عنها، فكذلك اليوم ننساك، فنتركك في النار".

عن مجاهد، قوله:" {وكذلك اليوم تنسى}، قال: [وكذلك اليوم] تترك في النار".

عن أبي صالح والسدي: " {وكذلك اليوم تنسى}، قالا: "في النار".

وعن قتادة: " {وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى}، قال: نسي من الخير، ولم ينس من الشرّ".

=

=

قال الطبري:" وهذا القول الذي قاله قَتادة قريب المعنى مما قاله أبو صالح ومجاهد، لأن تركه إياهم في النار أعظم الشرّ لهم".

قال ابن كثير:" أي: نعاملك اليوم معاملة من ينساك، {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا} [الأعراف: ٥١]، فإن الجزاء من جنس العمل، فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلا في هذا الوعيد الخاص، وإن كان مُتَوَعدًا عليه من جهة أخرى، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكي، والوعيد الشديد في ذلك ".

عن سعد بن عبادة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من رجل قرأ القرآن فنسيه، إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم".

أي: كما تركت آياتنا في الدنيا وأعرضت عنها، نتركك اليوم في النار وفي العمى جزاء وفاقا.

ثم ساق-سبحانه- سنة من سننه التي لا تختلف فقال: وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى.

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ} [طه: ١٢٧]، أي:" وهكذا نعاقب مَن أسرف على نفسه فعصى ربه، ولم يؤمن بآياته بعقوبات في الدنيا".

قال الطبري:" وهكذا نجزي: أي نثيب من أسرف فعصى ربه، ولم يؤمن برسله وكتبه، فنجعل له معيشة ضنكا في البرزخ".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ".

عن سفيان قوله: " {وكذلك نجزي من اسرف}، قال: من أشرك".

قوله تعالى: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه: ١٢٧]، أي:" ولَعذاب الآخرة

=

=

المعدُّ لهم أشد ألمًا وأدوم وأثبت؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضي".

قال الطبري: يقول:" ولعذاب في الآخرة أشدّ لهم مما وعدتهم في القبر من المعيشة الضنك وأبقى يقول: وأدوم منها، لأنه إلى غير أمد ولا نهاية".

قال الواحدي: أي:" أفظع وأعظم مما ذكر من عذاب القبر".

قال ابن كثير:" أي: أشد ألمًا من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» ".

أى: ومثل ذلك الجزاء الأليم الذي أنزلناه بهؤلاء المعرضين عن ذكرنا نجازي كل من أسرف في ارتكاب السيئات والموبقات، وكل من لم يؤمن بآيات ربه بل كذب بها وأعرض عنها، ولعذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، وَأَبْقى منه أى: وأكثر بقاء، وأطول زمانا من عذاب الدنيا.

ثم وبخ -سبحانه- أولئك الذين لم ينتفعوا بآياته فقال: أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ ...

قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ} [طه: ١٢٨]، أي:" أفلم يدل قومك - أيها الرسول - على طريق الرشاد كثرة مَن أهلكنا من الأمم المكذبة قبلهم وهم يمشون في ديارهم، ويرون آثار هلاكهم؟ ".

قال الطبري:" أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثار عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبة ما هم عليه مقيمون من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم، ويعتبروا، وينيبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا بالله ورسوله، خوفا أن يصيبهم بكفرهم بالله مثل ما أصابهم".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: {أَفَلَمْ يَهْدِ} لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به: يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا

=

=

أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها، يمشون فيها".
قال قتادة:" لأن قريشا كانت تتجر إلى الشأم، فتمر بمساكن عاد وثمود ومن أشبههم، فترى آثار وقائع الله تعالى بهم، فلذلك قال لهم: أفلم يحذّرهم ما يرون من فعلنا بهم بكفرهم بنا نزول مثله لهم، وهم على مثل فعلهم مقيمون".
قال الزجاج:" وكانت قريش تتجر وترى مساكن عاد وثمود وبها علامات الإهلاك، فذلك قوله: {يمشون في مساكنهم} ".
قال البغوي:" الخطاب لقريش كانوا يسافرون إلى الشام فيرون ديار المهلكين من أصحاب الحجر وثمود وقريات لوط".
ويقرأ: «أفلم نهد»، بالنون، و «يمشون في مساكنهم» بالتشديد.
قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى} [طه: ١٢٨]، أي:" إن في كثرة تلك الأمم وآثار عذابهم لَعبراً وعظاتٍ لأهل العقول الواعية".
قال الطبري: يقول:" إن فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثار وقائعنا بالأمم المكذّبة رسلها قبلهم، وحلول مثلاتنا بهم لكفرهم بالله لدلالات وعبرا وعظات لأهل الحجى والعقول، ومن ينهاه عقله وفهمه ودينه عن مواقعة ما يضره".
عن سعيد بن جبير، قوله: " {إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه إلى أهله".
عن سعيد بن جبير، في قوله: " {إن في ذلك لآية}، قال:" هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".
وفي قوله تعالى: {لِأُولِي النُّهَى} [طه: ١٢٨]، وجوه من التفسير:
أحدها: أولي الحكم. حكاه الماوردي.
الثاني: أولي العقل، قاله ابن عباس، والسدي، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج.
ومنه قول ذو الرُّمة:

=

=

لِعِرْفَانِها والعَهْدُ نَاءٍ وقدْ بَدَا... لِذِي نُهْيَةٍ إلا إلى أُمِّ سَالمِ

أراد: أنه لا سبيل إلى أم سالم.

قال ابن عباس:" يريد العبرة لذوي العقول".

قال ابن قتيبة:" أي: أولي العقول. والنُّهْيَةُ: العقل".

قال أبو عبيدة: أي: " لذوى الحجى، واحدتها: نهية، أي: أحلام وعقول وانتهى إلى عقول أمرهم ورأيهم ومجاز قولهم لذى حجى، أي: لذى عقل ولبّ".

قال الزجاج:" معناه: لذوي العقول، واحد لنهى نُهْيَة. يقال: فلان ذو نُهيةٍ، ومعناه: ذو عقل ينتهي به عن المقابح ويدخل به في المحاسِنِ. وقال بعض أهل اللغة: ذو النهْيةِ الذي يُنْتَهَى إلى رأيه وعقله. وهَذَا حسن أيضًا".

الثالث: أهل الورع. قاله قتادة.

قال قتادة:" أهل الورع". وفي رواية:" لأولي الورع".

الرابع: أهل التقى. قاله ابن عباس.

عن ابن عباس، قوله:" {لأولِي النُّهَى}، يقول: التقى". وفي رواية:" لذوي التقى".

وقال الضحاك: {لأولي النهى} يعني: الذين ينتهون عما حرم الله عليهم".

قال ابن كثير:" أي: العقول الصحيحة والألباب المستقيمة ".

والهمزة للاستفهام الإنكارى التوبيخي، والفاء للعطف على مقدر..

والمعنى: أبلغت الغفلة والجهالة بهؤلاء المشركين، أنهم لم يتبين لهم، أننا أهلكنا كثيرا من أهل القرون الماضية، الذين كانوا يمشون آمنين لاهين في مساكنهم ...

وكان أهلا كنا لهم بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان، والغي على الرشد، والعمى على الهدى ...

فالآية الكريمة تقريع وتوبيخ لكفار مكة الذين لم يعتبروا بما أصاب أمثالهم من

=

=

الأمم السابقة، كقوم نوح وعاد وثمود ...

قال الآلوسى: وقوله: يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ حال من الْقُرُونِ أو من مفعول أَهْلَكْنا أى: أهلكناهم وهم في حال آمن وتقلب في ديارهم. واختار بعضهم كونه حالا من الضمير في لَهُمْ مؤكدا للإنكار والعامل فيه يَهْدِ. أى: أفلم يهد للمشركين حال كونهم ماشين في مساكن من أهلكنا من القرون السالفة من أصحاب الحجر، وثمود، وقوم لوط، مشاهدين لآثار هلاكهم إذا سافروا إلى بلاد الشام وغيرها.. ا.هـ.

وقوله-سبحانه-: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى تذييل قصد به تعليل الإنكار، أى: إن في ذلك الذي أخبرناهم به، وأطلعناهم عليه من إهلاك المكذبين السابقين، لَآياتٍ عظيمة، وعبر كثيرة، ودلائل واضحة لأصحاب العقول السليمة، التي تنهى أصحابها عن القبائح والآثام.

والنهى: جمع نهية- بضم النون وإسكان الهاء- سمى العقل بها لنهيه عن القبائح.

ثم بين-سبحانه- بعض مظاهر فضله على هؤلاء المشركين الذين أرسل الرسول ﷺ لإنقاذهم من الكفر والضلالة فقال تعالى: وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ، لَكانَ لِزامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى.

قوله تعالى: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩)} [طه: ١٢٩]

قال الفراء:" يريد: ولولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاما، مقدم ومؤخر، وهو- فيما ذكروا- ما نزل بهم في وقعة بدر من القتل".

قال ابن قتيبة:" فيه تقديم وتأخير، أراد: لولا كلمة سبقت وأجل مسمى – لكان العذاب لزاما".

قال الطبري: يقول:" ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما، فاصبر

=

=

على ما يقولون".

قال ابن كثير:" أي: لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة".

قال الزمخشري:" الكلمة السابقة: هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة، يقول: لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عادا وثمودا لازما لهؤلاء الكفرة".

قال الحسن:" ألا تعذب هذه الأمة بعذاب الاستئصال، إلا بالساعة".

قال ابن زيد:" هذا مقدّم ومؤخر، ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما".

قال مجاهد:" الأجل المسمى: الدنيا".

قال مجاهد:" الأجل المسمى: الموت، وفيه تقديم وتأخير، يقول: لولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما ".

قال قتادة:" وهذه من مقاديم الكلام، يقول: لولا كلمة سبقت من ربك إلى، أجل مسمى كان لزاما، و «الأجل المسمى»: الساعة، لأن الله تعالى يقول (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ".

قال الزجاج:" يعنى بالأجل المسمى أن الله وعدهم العذاب يوم القيامة، وذلك قوله: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦] ".

وفي قوله تعالى: {لَكَانَ لِزَامًا} [طه: ١٢٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: لكان موتا. قاله ابن عباس.

الثاني: لكان قتلا. قاله ابن زيد.

الثالث: لكان عذابًا لازمًا. قاله مقاتل، وابن قتيبة.

الرابع: لكان قضاء، حكاه الماوردي عن الأخفش.

=

=

الخامس: لكان أخذا. قاله أبو صالح، والسدي.

عن السدي: " {ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما}، قال: لكان أخذ أو لكنا أخرناهم إلى يوم بدر وهو اللزوم وتفسيرها: ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى لكان لزاما، ولكنه تقديم وتأخير في الكلام".

السادس: لكان فيصلا، يلزم كل إنسان طائره إن خيرا فخير وإن شرّا فشر فلازمه. قاله أبو عبيدة.

قال الزجاج:" أي: لكان القتل الذي نالهم لازما أبدا، ولكان العذاب لازما لهم".

قال الزمخشري:" أى لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل".

والمراد بالكلمة السابقة، ما تفضل الله تعالى به من تأخير عذاب الاستئصال عن هذه الأمة التي بعث فيها الرسول ﷺ تكريما له كما قال تعالى وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ... أو لأن من نسلهم من يؤمن بالله حق الإيمان، أو لحكم أخرى يعلمها-سبحانه- ولزاما: مصدر بمعنى اسم الفاعل، وفعله لازم كقاتل.

وقوله: وَأَجَلٌ مُسَمًّى معطوف على كَلِمَةٌ.

والمعنى: ولولا الوعد السابق منا بتأخير العذاب عن هؤلاء المشركين إلى يوم القيامة.

ولولا الأجل المسمى المحدد في علمنا لانتهاء أعمارهم، لما تأخر عذابهم أصلا، بل لكان العذاب لازما لهم في الدنيا، ونازلا بهم كما نزل بالسابقين من أمثالهم في الكفر والضلال.

(فائدة) قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة: لمَّا أخبر سبحانه عن حال من اتبعَ هداه في معاشه ومعاده أخبَر عن حال من أعرَض عنه ولم يَتَّبِعْه، فقال: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا}، أي: عن الذِّكر الذي أنزلتُه.

=

=

فالذكرُ هنا مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعل، كـ «قيامي» و «قراءتي»، لا إلى المفعول. وليس المعنى: «ومن أعرض عن أن يذكرني»، بل هذا لازمُ المعنى ومقتضاه من وجهٍ آخر سنذكره.

وأحسنُ من هذا الوجه أن يقال: الذِّكرُ هنا مضافٌ إضافة الأسماء، لا إضافةَ المصادر إلى معمولاتها، والمعنى: «ومن أعرض عن كتابي ولم يتَّبعْه»؛ فإنَّ القرآن يسمَّى ذكرًا، قال تعالى: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ} [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: ٥٨] وقال تعالى: {وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} [القلم: ٥٢]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} [فصلت: ٤١]، وقال تعالى: {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ} [يس: ١١].

وعلى هذا، فإضافتُه كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يُقْصَدُ بها إضافةُ العامل إلى معموله. ونظيرُه في إضافة اسم الفاعل: «غافر الذَّنب، وقابل التَّوب، شديد العقاب»، فإنَّ هذه الإضافات لم يُقْصَد بها قصدُ الفعل المتجدِّد، وإنما قُصِدَ بها قصدُ الوصف الثابت اللازم؛ ولذلك جرت أوصافًا على أعرف المعارف، وهو اسمُ الله تعالى، في قوله تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [غافر: ٢ - ٣].

فصل: وقولُه تعالى: {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} فسَّرها غيرُ واحدٍ من السلف بعذاب القبر، وجعلوا هذه الآيةَ أحدَ الأدلَّة الدَّالَّة على عذاب القبر.

ولهذا قال: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى}، أي: تُتْرَكُ في العذاب، كما تركتَ العملَ بآياتنا. فذكرَ عذابَ البرزخ، وعذابَ دار البوار.

=

=

ونظيرُه قولُه تعالى في حقِّ آل فرعون: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}، فهذا في البرزخ، {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٦]، فهذا في القيامة الكبرى.

ونظيرُه قولُه تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام: ٩٣]، فقولُ الملائكة: {الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ} المرادُ به عذابُ البرزخ، الذي أوَّلُه يومُ القبض والموت.

ونظيرُه قولُه تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الأنفال: ٥٠]، فهذه الإذاقةُ هي في البرزخ، وأوَّلُها حين الوفاة؛ فإنه معطوفٌ على قوله: {يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}، وهو من المَقُول المحذوف قولُه لدلالة الكلام عليه، كنظائره، وكلاهما واقعٌ وقت الوفاة.

وفي «الصحيح» عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه في قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧]، قال: «نزلت في عذاب القبر».

والأحاديثُ في عذاب القبر تكادُ تبلغُ حدَّ التواتر.

والمقصودُ أنَّ الله سبحانه أخبر أنَّ من أعرض عن ذكره، وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضلُّ ولا يشقى، فإنَّ له معيشةً ضنكًا، وتكفَّل لمن حفظ عهدَه أن يُحْيِيَه حياةً طيِّبةً ويجزيه أجره في الآخرة، فقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧].

فأخبرَ سبحانه عن فلاح من تمسَّك بعهده علمًا وعملًا، في العاجلة بالحياة الطيِّبة،

=

=

وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشةُ الضَّنكُ في الدُّنيا والبرزخ، ونسيانُه في العذاب بالآخرة.

وقال سبحانه: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} [الزخرف: ٣٦ - ٣٧]، فأخبر سبحانه أنَّ ابتلاءه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب إعراضه وعَشْوِه عن ذكره الذي أنزله على رسوله، فكان عقوبةُ هذا الإعراض أنْ قيَّض له شيطانًا يقارنُه، فيصدُّه عن سبيل ربِّه وطريق فلاحه، وهو يحسبُ أنه مهتدٍ، حتى إذا وافى ربَّه يوم القيامة مع قرينه، وعاينَ هلاكَه وإفلاسَه، قال: {يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} [الزخرف: ٣٨].

وكلُّ من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكرُ الله، فلا بدَّ أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذرٌ في ضلاله إذا كان يحسبُ أنه على هدى، كما قال تعالى: {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}؟

قيل: لا عذرَ لهذا وأمثاله من الضُّلَّال الذين منشأ ضلالهم الإعراضُ عن الوحي الذي جاء به الرسولُ ﷺ، ولو ظنَّ أنه مهتدٍ، فإنه مفرِّطٌ بإعراضه عن اتباع داعي الهدى، فإذا ضلَّ فإنما أُتِيَ من تفريطه وإعراضه. وهذا بخلاف من كان ضلالُه لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكمٌ آخر، والوعيدُ في القرآن إنما يتناولُ الأول، وأما الثاني فإنَّ الله لا يعذِّبُ أحدًا إلا بعد إقامة الحجَّة عليه، كما قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى في أهل النار: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} [الزخرف:

=

=

٧٦]، وقال تعالى: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [الزمر: ٥٦ - ٥٩].

وهذا كثيرٌ في القرآن.

فصل: وقولُه تعالى: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} اختُلِف فيه: هل هو مِن عمى البصيرة أو مِن عمى البصر؟.

والذين قالوا: هو مِن عمى البصيرة، إنما حملهم على ذلك قولُه: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [مريم: ٣٨]، وقولُه: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: ٢٢]، وقولُه تعالى: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ} [الفرقان: ٢٢]، وقولُه: {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ٦ - ٧]. ونظائرُ هذا مما يُثبِتُ لهم الرؤيةَ في الآخرة، كقوله تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} [الشورى: ٤٥]، وقوله: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [الطور: ١٣ - ١٤]، وقوله: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا} [الكهف: ٥٣].

والذين رجَّحوا أنه من عمى البصر، قالوا: السِّياقُ لا يدلُّ إلا عليه؛ لقوله: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا}، وهو لم يكن بصيرًا في كفره قطُّ، بل قد تبيَّن له حينئذٍ أنه كان في الدُّنيا في عمًى عن الحقِّ، فكيف يقول: وقد كنتُ بصيرًا؟! وكيف يجابُ بقوله: {كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى}؟!

بل هذا الجوابُ فيه تنبيهٌ على أنه من عمى البصر، وأنه جُوزِيَ من جنس عمله؛

=

=

فإنه لما أعرض عن الذِّكر الذي بعثَ اللهُ به رسوله، وعَمِيَت عنه بصيرتُه، أعمى الله بصرَه يوم القيامة، وتركَه في العذاب، كما ترك الذِّكر في الدُّنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركِه ذكرَه تركَه في العذاب.

وقال تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا} [الإسراء: ٩٧]، وقد قيل في هذه الآية أيضًا: إنهم عميٌ وبكمٌ وصمٌّ عن الهدى، كما قيل في قوله: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}، قالوا: لأنهم يتكلَّمون يومئذٍ، ويسمعون، ويبصرون.

ومن نصر أنه العمى والبَكَم والصَّمم المضادُّ للبصر والسمع والنُّطق، قال بعضهم: هو عمًى وصممٌ وبكمٌ مقيَّدٌ لا مطلق، فهم عُميٌ عن رؤية ما يسرُّهم وسماعِه. وهذا قد رُوي عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «لا يرونَ شيئًا يسرُّهم».

وقال آخرون: هذا الحشرُ حين تتوفَّاهم الملائكة، يخرجونَ من الدُّنيا كذلك، وإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد. وهذا مرويٌّ عن الحسن.

وقال آخرون: هذا إنما يكونُ إذا دخلوا النارَ واستقرُّوا فيها، سُلِبوا الأسماعَ والأبصارَ والنطق، حين يقولُ لهم الربُّ تبارك وتعالى: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون: ١٠٨]؛ فحينئذٍ ينقطعُ الرجاء، وتَبْكَمُ عقولُهم، فيصيرونَ بأجمعهم عُميًا بكمًا صُمًّا؛ لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يُسْمَعُ منهم بعدها إلا الزفيرُ والشهيق. وهذا منقولٌ عن مقاتل.

والذين قالوا: المرادُ به العمى عن الحجة، إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أنَّ لهم حجةً هم عُميٌ عنها، بل هم عُميٌ عن الهدى كما كانوا في الدُّنيا؛ فإنَّ العبدَ يموتُ على ما عاش عليه، ويُبْعَثُ على ما مات عليه.

=

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا

=

وبهذا يظهرُ أنَّ الصوابَ هو القولُ الآخر، وأنه عمى البصر؛ فإنَّ الكافر يعلمُ الحقَّ يوم القيامة عِيانًا، ويُقِرُّ بما كان يجحدُه في الدُّنيا، فليس هو أعمى عن الحقِّ يومئذ.

وفصلُ الخطاب: أنَّ الحشرَ هو الضمُّ والجمع.

ويرادُ به تارةً الحشرُ إلى موقف القيامة؛ كقول النبي ﷺ: «إنكم محشورون إلى الله حفاةً عراةً غُرلًا»، وكقوله تعالى: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [التكوير: ٥]، وكقوله تعالى: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف: ٤٧]. ويرادُ به الضمُّ والجمعُ إلى دار المستقَرِّ؛ فحشرُ المتقين: جمعُهم وضمُّهم إلى الجنة، وحشرُ الكافرين: جمعُهم وضمُّهم إلى النار.

قال تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} [مريم: ٨٥].

وقال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [الصافات: ٢٢ - ٢٣]، فهذا الحشرُ هو بعد حشرهم إلى الموقف، وهو حشرُهم وضمُّهم إلى النار؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا: {يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [الصافات: ٢٠ - ٢١]، ثم قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}، وهذا الحشرُ الثاني.

وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول ـ من القبور إلى الموقف ـ والحشر الثاني: يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلّمون، وعند الحشر الثاني: يُحْشَرون على وجوههم عُميًا وبُكمًا وصُمًّا.

فلكلِّ موقفٍ حالٌ يليقُ به ويقتضيه عدلُ الربِّ تبارك وتعالى وحكمتُه، فالقرآن يُصَدِّقُ بعضُه بعضًا، {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢].

وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠).

{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} مَنْسُوخ بِآيَةِ الْقِتَال {وَسَبِّحْ} صَلِّ {بِحَمْدِ رَبّك} حَال أَيْ مُلْتَبِسًا بِهِ {قَبْل طُلُوع الشَّمْس} صَلَاة الصُّبْح {وَقَبْل غُرُوبهَا} صَلَاة الْعَصْر {وَمِنْ آنَاء اللَّيْل} سَاعَاته {فَسَبِّحْ} صَلِّ الْمَغْرِب وَالْعِشَاء {وَأَطْرَاف النَّهَار} عَطْف عَلَى مَحَلّ مِنْ آنَاء الْمَنْصُوب أَيْ صَلِّ الظُّهْر لِأَنَّ وَقْتهَا يَدْخُل بِزَوَالِ الشَّمْس فَهُوَ طَرَف النِّصْف الْأَوَّل وَطَرَف النِّصْف الثَّانِي {لَعَلَّك تَرْضَى} بِمَا تُعْطَى مِنْ الثَّوَاب.

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١).

{وَلَا تَمُدَّنّ عَيْنَيْك إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا} أَصْنَافًا {مِنْهُمْ زَهْرَة الْحَيَاة الدُّنْيَا} زِينَتهَا وَبَهْجَتهَا {لِنَفْتِنهُمْ فِيهِ} بِأَنْ يَطْغَوْا {وَرِزْق رَبّك} فِي الْجَنَّة {خَيْر} مِمَّا أُوتُوهُ فِي الدُّنْيَا {وأبقى} أدوم.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢).

{وَأْمُرْ أَهْلك بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ} اصْبِرْ {عَلَيْهَا لَا نَسْأَلك} نُكَلِّفك {رِزْقًا} لِنَفْسِك وَلَا لِغَيْرِك {نَحْنُ نَرْزُقك وَالْعَاقِبَة} الْجَنَّة {لِلتَّقْوَى} لِأَهْلِهَا[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: بعثني النبي ﷺ إلى يهودي، فقال: "قل له: يقول لك رسول الله: بعنا أو أسلفنا إلى رجب"، فقال: لا والله، لا أسلفه ولا أبيعه إلا برهن، فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته، فقال: "والله لو باعني أو أسلفني لقضيناه؛ إني =

=

لأمين في السماء، أمين في الأرض، اذهب بدرعي الحديد"، فذهبت بها؛ فنزلت هذه الآية يعزيه عن الدنيا: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}.

أخرجه ابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه، وأبو يعلى في "مسانيدهم"؛ كما في "المطالب العالية" (٨/ ٦١٣، ٦١٤ رقم ٤٠٤٥)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٤/ ٢٨٩ رقم ٣٨٦٨، ٣٨٦٩، ٣٨٧٠، ٨/ ١٢٤، ١٢٥ رقم ٧٧٥٢ - ط الرشد)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١/ ٣٣١ رقم ٩٨٩)، والطبري في "جامع البيان" (١٦/ ١٦٩)، والبزار في "مسنده" (٢/ ١٠٢ رقم ١٣٠٤ - كشف)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٢/ ٢٤٢ رقم ٨٦٠)، والخرائطي في "مكارم الأخلاق" (رقم ٢٢٩)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٠٥) جميعهم من طريق موسى بن عبيدة الربذي عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه موسى بن عبيدة الربذي؛ ضعيف؛ كما في "التقريب". قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٤/ ١٢٦): "وفيه موسى بن عبيدة هو ضعيف".

وأخرج الطبري عقبه: ثنا القاسم ثنا الحسين ثنا محمد بن كثير عن عبد الله بن واقد عن يعقوب بن يزيد عن أبي رافع به. والقاسم شيخ الطبري لم نعرفه ولم نجد له ترجمة، ومحمد ذا؛ صدوق كثير الغلط؛ كما في "التقريب"، والحسين هو سنيد صاحب "التفسير"؛ ضعيف.

* قوله تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [طه: ١٣٠]، أي:" فاصبر - أيها الرسول - على ما يقوله المكذبون بك من أوصاف وأباطيل".

قال مقاتل:" من تكذيبهم إياك بالعذاب".

قال الطبري:" فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون بآيات الله من قومك

=

=

لك إنك ساحر، وإنك مجنون وشاعر ونحو ذلك من القول".

قوله تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا} [طه: ١٣٠]، أي:" وسبِّح بحمد ربك في صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وفي صلاة العصر قبل غروبها".

قال الطبري:" يقول: وصل بثنائك على ربك، {قبل طلوع الشمس} وذلك صلاة الصبح {وقبل غروبها}، وهي العصر".

قال الزجاج:" وذلك وقت الغداة والعشى".

قال ابن عباس:" هي الصلاة المكتوبة".

عن قتادة قوله: " {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس}، قال: هي صلاة الفجر، {وقبل غروبها}، قال: صلاة العصر".

عن السدي قوله: " {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها}، قال: كان هذا قبل إن تفرض الصلاة".

عن جرير بن عبد الله، قال: "كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ، فرأى القمر ليلة البدر فقال: "إنكم راءون ربكم كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا" ثم تلا: {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها} ".

عن عمارة بن رُوَيْبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " لن يَلجَ النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ".

قال الزمخشري:" {بحمد ربك} في موضع الحال، أى: وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه. والمراد بالتسبيح الصلاة. أو على ظاهره، قدم الفعل على الأوقات أولا، والأوقات على الفعل آخرا، فكأنه قال: صل لله قبل طلوع الشمس، يعنى: الفجر، وقبل غروبها، يعنى: الظهر والعصر، لأنهما واقعتان

=

=

في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها".

قوله تعالى: {وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ} [طه: ١٣٠]، أي:" وسبح بحمد ربك في صلاة العشاء في ساعات الليل".

قال الطبري: يعني:" صلاة العشاء الآخرة، لأنها تصلى بعد مضي آناء من الليل".

قال ابن كثير:" أي: من ساعاته فتهجد به. وحمله بعضهم على المغرب والعشاء".

قال الزجاج:" «الآناء»: الساعات".

عن قتادة:" {ومن آناء الليل}، قال: صلاة المغرب والعشاء".

عن ابن زيد:" {من آناء الليل}: العتمة".

عن ابن عباس:" {ومن آناء الليل}، قال: المصلى من الليل كله".

عن ابن عباس:" {ومن آناء الليل فسبح}، قال: آناء الليل: جوف الليل".

عن أبي رجاء، قال: سمعت الحسن قرأ: {ومن آناء الليل}، قال: من أوله، وأوسطه، وآخره".

قال الزمخشري: أي:" وتعمد آناء الليل وأطراف النهار مختصا لهما بصلاتك، وذلك أن أفضل الذكر ما كان بالليل، لاجتماع القلب وهدو الرجل والخلو بالرب. وقال الله ﷻ: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} [المزمل: ٦]، وقال: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا} [الزمر: ٩]،ولأن الليل وقت السكون والراحة، فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق، وللبدن أتعب وأنصب، فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند الله. وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العتمة".

قوله تعالى: {وَأَطْرَافَ النَّهَارِ} [طه: ١٣٠]، أي:" وسبح بحمد ربك أطراف النهار في صلاة الظهر -إذ وقتها طرف النصف الأول والنصف الثاني من النهار-

=

=

وفي صلاة المغرب".

قال الطبري: يعني: صلاة الظهر والمغرب، لأن صلاة الظهر في آخر طرف النهار الأول، وفي أول طرف النهار الآخر، فهي في طرفين منه".

قال الزجاج:" الظهر والعصر".

عن قتادة:" {وأطراف النهار}، قال: صلاة الظهر".

عن ابن زيد:" {وأطراف النهار}: المغرب والصبح".

وعن الحسن: يعني: التطوع".

قال أبو الليث:" يعني: غدوة وعشية على معنى التأكيد للتكرار".

قال الزمخشري:" وفي «أطراف النهار» صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار، إرادة الاختصاص، كما اختصت في قوله: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى} [البقرة: ٢٣٨]، عند بعض المفسرين.

فإن قلت: ما وجه قوله: {وأطراف النهار} على الجمع، وإنما هما طرفان كما قال {أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ} [هود: ١١٤]؟

قلت: الوجه: أمن الإلباس، وفي التثنية زيادة بيان".

قوله تعالى: {لَعَلَّكَ تَرْضَى} [طه: ١٣٠]، أي:" كي تثاب على هذه الأعمال بما تَرْضى به كي تثاب على هذه الأعمال بما تَرْضى به".

قال الحسن: " {لعلك}، أي: فإنك سترضى ثواب عملك في الآخرة".

قال الطبري:" يقول: كي ترضى".

قال أبو الليث:" يعني: لعلك تعطى من الشفاعة حتى ترضى".

عن ابن زيد قوله: " {لعلك ترضى}، قال: الثواب فيما يزيدك الله على ذلك".

قال اب جريج:" بما تعطى".

وفي الصحيح: " يقول الله: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول:

=

=

هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: إني أعطيكم أفضل من ذلك. فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا ".

وفي الحديث الآخريقال: " يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدا يريد أن يُنْجزكُمُوه. فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويزحزحنا عن النار، ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم خيرًا من النظر إليه، وهي الزيادة ".

وقرأ عاصم والكسائي: «لَعَلَّك تُرْضَى»، بضم التاء، بمعنى: لعل الله يرضيك من عبادتك إياه، وطاعتك له.

قال الأزهري:" من قرأ بفتح التاء، فالخطاب للنبي ﷺ أى: تَرضى أنت يا محمد، ومن قرأ «تُرْضَى» فهو على ما لم يسم فاعله، والمعنى واحد".

قال أبو عبيدة: "وبالقراءة الأولى نقرأ يعني: بالضم، لأن فيها معنيين، أحدهما: ترضى أي: تعطى الرضا، والأخرى: ترضى أي يرضاك الله. وتصديقه قوله تعالى: {وكان عند ربه مرضيا} [مريم: ٥٥] وليس في الأخرى وهي القراءة بالنصب، إلا وجه واحد".

والفاء في قوله تعالى: فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ ... فصيحة، أى: إذا كان الأمر كما ذكرنا لك- أيها الرسول الكريم- من أن تأخير عذاب أعدائك للإمهال وليس للإهمال.. فاصبر على ما يقولونه في شأنك من أنك ساحر أو مجنون.. وسر في طريقك دون أن تلتفت إلى إيذائهم أو مكرهم واستهزائهم.

والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر منهم، لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة. وفي التسبيح المأمور به وجهان:

الأول- أنه التنزيه. والمعنى: ونزه ربك عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من

=

=

النقائص، حامدا له على ما ميزك بالهدى، معترفا بأنه المولى للنعم كلها. ومن صيغه المأثورة (سبحان الله وبحمده). وعليه فسر تخصيص هذه الأوقات الإشارة إلى الدوام، مع أن لبعض الأوقات مزية يفضل بها غيرها.

الثاني- أنه الصلاة وهو الأقرب لآية واستعينوا بالصبر والصلاة [البقرة: ٤٥]، والآيات يفسر بعضها بعضا. والمعنى: صل وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه.

فأرشده-سبحانه- إلى ما يشرح صدره، ويجلو همه فقال: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها، وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى.

أى: وعليك- أيها الرسول الكريم- أن تكثر من تسبيح ربك وتحميده وتنزيهه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وفي ساعات الليل وفي «أطراف النهار».

أى: في الوقت الذي يجمع الطرفين، وهو وقت الزوال، إذ هو نهاية النصف الأول من النهار، وبداية النصف الثاني منه، إذ في هذا التسبيح والتحميد والتنزيه لله تعالى والثناء عليه بما هو أهله، جلاء للصدور، وتفريج للكروب وأنس للنفوس، واطمئنان للقلوب.

ويرى كثير من المفسرين، أن المراد بالتسبيح هنا: إقامة الصلاة والمداومة عليها.

قال ابن كثير: قوله وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ يعنى صلاة الفجر وَقَبْلَ غُرُوبِها يعنى صلاة العصر، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته- أى: لا ينالكم ضيم في رؤيته بأن يراه بعضكم دون بعض- فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ هذه الآية..

وقوله: وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ أى: من ساعاته فتهجد به، وحمله بعضهم على

=

=

المغرب والعشاء. وَأَطْرافَ النَّهارِ في مقابلة آناء الليل لَعَلَّكَ تَرْضى كما قال- سبحانه-: وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى.

وبعد هذا الأمر بالتسبيح، جاء النهى عن الإعجاب بالدنيا وزينتها فقال تعالى: وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ...

قوله تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ} [طه: ١٣١]، أي:" ولا تنظر إلى ما مَتَّعْنا به هؤلاء المشركين وأمثالهم من أنواع المتع".

قال سفيان:" تعزية لرسول الله ﷺ".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولا تنظر إلى ما جعلنا لضرباء هؤلاء المعرضين عن آيات ربهم وأشكالهم، متعة في حياتهم الدنيا".

قوله تعالى: {زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [طه: ١٣١]، أي:" فإنها زينة زائلة في هذه الحياة الدنيا".

قال الطبري:" من زهرة عاجل الدنيا ونضرتها".

قال الزجاج:" معناه: جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة".

قال ابن قتيبة:" أي: زينتها، وهو من زهرة النبات وحسنه".

قال ابن كثير:" فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة".

عن قتادة قوله: " {زهرة الحياة الدنيا} ، قال: زينة الحياة الدنيا".

عن أبي سعيد إن رسول الله ﷺ قال: "إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله قال: بركات الأرض".

قوله تعالى: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} [طه: ١٣١]، أي:" متعناهم بها؛ لنبتليهم بها".

قال قتادة:" لنبتليهم".

قال ابن قتيبة:" أي: لنختبرهم".

قال الطبري:" يقول: لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك، ونبتليهم، فإن ذلك فانٍ

=

=

زائل، وغُرور وخدع تضمحل".

قال الزجاج:" أي: لنجعل ذلك فتنة لهم".

قوله تعالى: {وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه: ١٣١]، أي:" ورزق ربك وثوابه خير لك مما متعناهم به وأدوم؛ حيث لا انقطاع له ولا نفاد"

قال الطبري: أي:" الذي وعدك أن يرزقكه في الآخرة حتى ترضى، وهو ثوابه إياه {خَيْرٌ} لك مما متعناهم به من زهرة الحياة الدنيا {وأبْقَى} يقول: وأدوم، لأنه لا انقطاع له ولا نفاد".

قال السدي:" رزق الجنة".

قال قتادة:" مما متع به هؤلاء من زهرة الدنيا".

وفي الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه، حين آلى منهم فرآه متوسدًا مضطجعًا على رمال حصير وليس في البيت إلا صُبْرَة من قَرَظ، وأَهَب معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله: " ما يبكيك؟ ". فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: "أوفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ".

قال ابن كثير:" فكان صلوات الله وسلامه عليه أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا، في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئًا لغد".

عن زيد بن أسلم، عن أبيه: "أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ أقام – يعني أهله – وقال: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} ".

=

=

أى: أكثر- أيها الرسول الكريم- من الاتجاه إلى ربك، ومن تسبيحه وتنزيهه ومن المداومة على الصلاة ولا تطل نظر عينيك بقصد الرغبة والميل إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجًا مِنْهُمْ.

أى: إلى ما متعنا به أصنافا من هؤلاء المشركين، بأن منحناهم الجاه والمال والولد.

وما جعلناه لهم في هذه الدنيا بمثابة الزهرة التي سرعان ما تلمع ثم تذبل وتزول.

قال الآلوسى ما ملخصه: قوله أَزْواجًا مِنْهُمْ أى: أصنافا من الكفرة، وهو مفعول مَتَّعْنا قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به.. وقيل الخطاب له ﷺ والمراد أمته، لأنه كان أبعد الناس عن إطالة النظر إليها، وهو القائل: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ما أريد به وجه الله تعالى» وكان ﷺ شديد النهى عن الاغترار بها.

ويؤخذ من الآية أن النظر غير الممدود معفو منه، وكأن المنهي عنه في الحقيقة هو الإعجاب بذلك، والرغبة فيه، والميل إليه.

وقوله: زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا أى: زينتها وبهجتها. وهو منصوب بمحذوف يدل عليه مَتَّعْنا.

أى: جعلنا لهم زهرة، أو على أنه مفعول ثان، بتضمين متعنا معنى أعطينا، فأزواجا مفعول أول، وزهرة هو المفعول الثاني...

وقوله: لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ بيان للحكمة من هذا التمتيع والعطاء أى متعنا هؤلاء الكافرين بالأموال والأولاد.. لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم بهذا المتاع، فإذا آمنوا وشكروا زدناهم من خيرنا، وإذا استمروا في طغيانهم وجحودهم وكفرهم، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

فالجملة الكريمة تنفر العقلاء من التطلع إلى ما بين أيدى الكفار من متاع، لأن هذا المتاع سيئ العاقبة، إذا لم يستعمل في طاعة الله تعالى.

=

=

وقوله-سبحانه-: وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى تذييل قصد به الترغيب فيما عند الله تعالى من طيبات.

أى: وما رزقك الله إياه- أيها الرسول الكريم- في هذه الدنيا من طيبات. وما ادخره لك في الآخرة من حسنات، خير وأبقى مما متع به هؤلاء الكافرين من متاع زائل سيحاسبهم الله تعالى عليه يوم القيامة حسابا عسيرا، لأنهم لم يقابلوا نعم الله عليهم بالشكر، بل قابلوها بالجحود والكفران.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد رسمت للمؤمن أفضل الطرق وأحكمها، لكي يحيا حياة فاضلة طيبة، حياة يعتز فيها صاحبها بالمعاني الشريفة الباقية، ويعرض عن المظاهر والزخارف الزائلة.

ثم كلف الله تعالى رسوله ﷺ أن يأمر أهل بيته بالمداومة على إقامة الصلاة فقال: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها.

قوله تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} [طه: ١٣٢]، أي:" وَأْمُرْ – أيها النبي – أهلك بالصلاة، واصطبر على أدائها".

قال الطبري:" {وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا}، يقول: واصطبر على القيام بها، وأدائها بحدودها أنت".

عن سعيد بن جبير قوله: " {وأمر أهلك بالصلاة}، قال: قومك".

عن ثابت قال: "كان النبي ﷺ: إذا أصابه خصاصة نادي أهله يا أهلاه صلوا، قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة".

روي عن عروة:"أنه كان دخل على أهل الدنيا فرأى من دنياهم طرفا، فإذا رجع إلى أهله فدخل الدار قرأ: {ولا تمدن عينيك} إلى قوله: {نحن نرزقك}، ثم يقول: الصلاة الصلاة رحمكم الله".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: " يقول الله تعالى: يا ابن آدم تَفَرَّغ لعبادتي

=

=

أمْلأ صدرك غنى، وأسدّ فقرك، وإن لم تفعل ملأتُ صدرك شغلا ولـم أسـدّ فقـرك ".

عن ابن مسعود: سمعت نبيكم ﷺ يقول: " من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله هَمّ دنياه. ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك ".

عن زيد بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " من كانت الدنيا هَمَّه فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له. ومن كانت الآخرة نيَّته، جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة ".

قال القشيري:" الصلاة استفتاح باب الرزق، وعليها أحال فى تيسير الفتوح عند وقوع الحاجة إليه، ويقال الصلاة رزق القلوب، وفيها شفاؤها، وإذا استأخر قوت النفس قوى قوت القلب، وأمر- الرسول ﷺ بأن يأمر أهله بالصلاة، وأن يصطبر عليها.

قوله تعالى: {لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا} [طه: ١٣٢]، أي:" لا نسألك مالا".

قال ابن كثير:" يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب} [الطلاق: ٢، ٣]، وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] ".

وقال سفيان:" لا نكلفك الطلب".

قال ابن قتيبة:" أي: لا نسألك رزقا لخلقنا، ولا رزقا لنفسك".

قال الطبري:" يقول: لا نسألك مالا بل نكلفك عملا ببدنك، نؤتيك عليه أجرا عظيما وثوابا جزيلا".

=

=

قوله تعالى: {نَحْنُ نَرْزُقُكَ} [طه: ١٣٢]، أي:" نحن نرزقك ونعطيك".

قال الطبري:" يقول: نحن نعطيك المال ونكسبكه، ولا نسألكه".

قوله تعالى: {وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: ١٣٢]، أي:" والعاقبة الصالحة في الدنيا والآخرة لأهل التقوى".

قال الطبري:" يقول: والعاقبة الصالحة من عمل كلّ عامل لأهل التقوى والخشية من الله دون من لا يخاف له عقابا، ولا يرجو له ثوابا".

قال ابن كثير:" أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة، لمن اتقى الله".

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: " رأيت الليلة كأنا في دار عقبة بن رافع وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة وأن ديننا قد طاب ".

والمراد بأهل بيته ﷺ أزواجه وبناته: وقيل: ما يشملهم ويشمل معهم جميع المؤمنين من بنى هاشم. وقيل المراد بهم: جميع أتباعه من أمته.

أى: وأمر- أيها الرسول الكريم- أهل بيتك بالمداومة على إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص واطمئنان، واصطبر على تكاليفها ومشاقها، وعلى إقامتها كاملة غير منقوصة، وعلى تحقيق آثارها الطيبة في نفسك.

وقوله-سبحانه- لا نَسْئَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى تشجيع وتحريض للمؤمنين على إقامة الصلاة، ودفع لما يتوهمه البعض من أن المداومة على إقامة الصلاة قد تشغل الإنسان عن السعى في طلب المعاش.

أى: مر- أيها الرسول الكريم- أهلك بالمداومة على الصلاة، واصطبر على تكاليفها، فهذه الصلاة هي من أركان العبادات التي خلقك الله وخلق عباده من أجلها، ولا يصح أن يشغلكم عنها أى شاغل من سعى في طلب الرزق أو غيره، فنحن لا نكلفكم أن ترزقوا أنفسكم أو غيركم، وإنما نحن الذين نرزقكم ونرزق

=

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣).

{وَقَالُوا} الْمُشْرِكُونَ {لَوْلَا} هَلَّا {يَأْتِينَا} مُحَمَّد {بِآيَةٍ من ربه} مما يقترحونه {أو لم تَأْتِهِمْ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء {بَيِّنَة} بَيَان {مَا فِي الصُّحُف الْأُولَى} الْمُشْتَمِل عَلَيْهِ الْقُرْآن مِنْ أَنْبَاء الْأُمَم الْمَاضِيَة وَإِهْلَاكهمْ بِتَكْذِيبِ الرُّسُل.

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤).

{وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْله} قَبْل مُحَمَّد الرَّسُول {لَقَالُوا} يَوْم الْقِيَامَة {رَبّنَا لَوْلَا} هَلَّا {أَرْسَلْت إلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِع آيَاتك} الْمُرْسَل بِهَا {مِنْ قَبْل أَنْ نَذِلّ} فِي الْقِيَامَة {وَنَخْزَى} فِي جَهَنَّم.

قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥).

{قُلْ} لَهُمْ {كُلّ} مِنَّا وَمِنْكُمْ {مُتَرَبِّص} مُنْتَظِر ما يؤول إلَيْهِ الْأَمْر {فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ} فِي الْقِيَامَة {مَنْ أَصْحَاب الصِّرَاط} الطَّرِيق {السَّوِيّ} الْمُسْتَقِيم {وَمَنْ اهْتَدَى} مِنْ الضَّلَالَة أَنَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ(١).

=

الخلق جميعا قال تعالى: وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها...

وقال-سبحانه-: وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

وقوله وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى أى: والعاقبة الحميدة لأهل التقوى والخشية من الله تعالى الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة.

(١) قال المكذبون للرسول ﷺ: هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح،

=

=

ومرادهم بالآية في قوله–سبحانه–: وَقالُوا لَوْلا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ معجزة حية من المعجزات التي اقترحوها عليه ﷺ كتفجير الأنهار حول مكة، وكرقيه إلى السماء، وكنزول الملائكة معه..

قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ} [طه: ١٣٣]، أي:" وقال مكذبوك – أيها الرسول –: هلا تأتينا بعلامة من ربك تدلُّ على صدقك".

قال الطبري:" قال هؤلاء المشركون الذين وصف صفتهم في الآيات قبل هلا يأتينا محمد بآية من ربه، كما أتى قومه صالح بالناقة وعيسى بإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص".

قال الزجاج:" معناه: هلا يأتينا بآية من ربه، وقد أتتهم البينات والآيات ولكنهم طلبوا أن يقترحوا هم ما يؤيدون من الآيات".

قال السعدي:" يعنون آيات الاقتراح كقولهم: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢)} [الإسراء: ٩٠ – ٩٢]

وهذا تعنت منهم وعناد وظلم فإنهم هم والرسول بشر عبيد لله فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم وإنما الذي ينزلها ويختار منها ما يختار بحسب حكمته هو الله ولأن قولهم {لولا أنزل عليه آيات من ربه} يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه ولا بينة على حقه وهذا كذب وافتراء فإنه أتى من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات ما يحصل ببعضه المقصود".

قوله تعالى: {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى} [طه: ١٣٣]، أي:" أو لم يأتهم هذا القرآن المصدق لما في الكتب السابقة من الحق؟ ".

قال ابن عطية:" يعني: التوراة أعظم شاهد وأكبر آية له".

=

=

قال القرطبي:" يريد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها".

قال الطبري: يقول:" أو لم يأتهم بيان ما في الكتب التي قبل هذا الكتاب من أنباء الأمم من قبلهم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات فكفروا بها لما أتتهم كيف عجَّلنا لهم العذاب، وأنزلنا بأسنا بكفرهم بها، يقول: فماذا يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم حال أولئك".

قال الواحدي: أي:" بيان ما في الكتب من أنباء الأمم التي أهلكناهم لما كفروا، ثم كفروا بها فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤالهم الآيات كحال أولئك، وهذا البيان إنما قص عليهم في القرآن".

قال السمعاني: "أي: بيان ما في الصحف الأولى من أنباء الأمم، فإنهم اقترحوا الآيات، فأعطوا ولم يؤمنوا، فأهلكهم الله تعالى، ولو أعطينا هؤلاء أيضا، ولم يؤمنوا ألحقنا إهلاكهم".

قال الزمخشري:" اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوة، فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز، يعنى: القرآن، من قبل أن القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة".

قال السعدي:" أي: هذا القرآن العظيم المصدق لما في الصحف الأولى من التوراة والإنجيل والكتب السابقة المطابق لها المخبر بما أخبرت به وتصديقه أيضا مذكور فيها ومبشر بالرسول بها وهذا كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت: ٥١]، فالآيات تنفع المؤمنين ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم وأما المعرضون عنها

=

=

المعارضون لها فلا يؤمنون بها ولا ينتفعون بها {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)} [يونس: ٩٦ - ٩٧] ".

عن مجاهد، قوله:" {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأولَى}، قال: التوراة والإنجيل".

قال قتادة:" الكتب التي خلت من الأمم التي يمشون في مساكنهم".

أي: وقال الكافرون على سبيل التعنت والعناد للرسول ﷺ هلا أتيت لنا يا محمد بآية من الآيات التي طلبناها منك، أو بآية من الآيات التي أتى بها الأنبياء من قبلك، كالعصا بالنسبة لموسى، والناقة بالنسبة لصالح.

فهم- كما يقول الآلوسي-: «بلغوا من المكابرة والعناد إلى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال، من قبيل الآيات، حتى اجترءوا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء.

وقوله-سبحانه-: أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى رد على جهالاتهم وجحودهم.

والمراد بالبينة القرآن الكريم الذي هو أم الآيات، ورأس المعجزات.

والمراد بالصحف الأولى: الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل والزبور.

والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، والاستفهام لتقرير الإتيان وثبوته.

والمعنى: أجهلوا ولم يكفهم اشتمال القرآن الذي جئت به- أيها الرسول الكريم- على بيان ما في الصحف الأولى التي أنزلناها على الرسل السابقين، ولم يكفهم ذلك في كونه معجزة حتى طلبوا غيرها؟.

قال الزمخشري: اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوة، فقيل لهم: أو لم تأتكم آية من أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز، يعنى القرآن، من جهة أن

=

=

القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة، ودليل صحته لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة. ا.هـ.

وقال ابن كثير: قوله: أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى يعنى: القرآن العظيم، الذي أنزله الله تعالى عليه ﷺ وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها..

وهذه الآية كقوله تعالى: وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

ومنهم من يرى أن المراد بالبينة: الكتب السماوية السابقة.

فيكون المعنى: أو لم يكف هؤلاء الجاهلين أن الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل قد بشرت بك وبينت نعوتك وصفاتك، وهم معترفون بصدقها، فكيف لا يقرون بنبوتك.

قال القرطبي: وقوله: أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى يريد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها. وقيل: أو لم تأتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه في الكتب المتقدمة من البشارة.. ا.هـ.

وعلى كلا التفسيرين فالآية الكريمة شهادة من الله تعالى بصدق النبي ﷺ فيما بلغه عنه، ورد مبطل لشبهات الكافرين ولأقوالهم الباطلة، وإن كان تفسير البينة

=

=

هنا بالقرآن أظهر وأوضح.

وقوله تعالى: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى كلام مستأنف لتقرير ما قبله من أن القرآن الكريم هو معجزة المعجزات، وآية الآيات وأرفعها وأنفعها.

قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ} [طه: ١٣٤]، أي:" ولو أنَّا أهلكنا هؤلاء المكذبين بعذاب من قبل أن نرسل إليهم رسولا وننزل عليهم كتابًا".

قال السمعاني: أي: "من قبل إرسال الرسل وإنزال القرآن".

قال القرطبي:" أي: من قبل بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن".

قال الطبري: يقول: " ولو أنا أهلكنا هؤلاء المشركين الذين يكذبون بهذا القرآن من قبل أن ننزله عليهم، ومن قبل أن نبعث داعيا يدعوهم إلى ما فرضنا عليهم فيه بعذاب ننزله بهم بكفرهم بالله".

قوله تعالى: {لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا} [طه: ١٣٤]، أي:" لقالوا: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا من عندك".

قال الطبري: أي:" لقالوا يوم القيامة، إذ وردوا علينا، فأردنا عقابهم: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا يدعونا إلى طاعتك".

قال السمعاني: أي: " لقالوا يوم القيامة".

قوله تعالى: {فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى} [طه: ١٣٤]، أي:" فنصدقه، ونتبع آياتك وشرعك، مِن قبل أن نَذلَّ ونَخزى بعذابك".

قال الطبري: " يقول: فنتبع حجتك وأدلتك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك من قبل أن نذلّ بتعذيبك إيانا ونخزى به".

قال السمعاني: " الذل: الهوان، والخزي: الافتضاح".

قاله ابن عباس.: " {من قبل أن نذل}، أي: في العذاب، {ونخزى}،في جهنم".

=

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: "يحتج على الله يوم القيامة ثلاثة: الهالك في الفترة، والمغلوب على عقله، والصبي الصغير، فيقول المغلوب على عقله: لم تجعل لي عقلا أنتفع به، ويقول الهالك في الفترة: لم يأتني رسول ولا نبي، ولو أتاني لك رسول أو نبي لكنت أطوع خلقك لك وقرأ: {لولا أرسلت إلينا رسولا}، ويقول الصبي الصغير: كنت صغيرا لا أعقل قال: فترفع لهم نار ويقال لهم: ردوها قال: فيردها من كان في علم الله أنه سعيد، ويتلكأ عنها من كان في علم الله أنه شقي، فيقول: إياي عصيتم، فكيف برسلي لو أتتكم؟ ".

أى: ولو أنا أهلكنا هؤلاء الكافرين بعذاب الاستئصال، من قبل مجيء الرسول ﷺ إليهم ومعه هذا القرآن الكريم معجزة له، لقالوا على سبيل الاعتذار يوم القيامة: يا ربنا هلا أرسلت إلينا في الدنيا رسولا من عندك ومعه المعجزات التي تدل على صدقه، فكنا في هذه الحالة اتبعنا آياتك التي جاءنا بها وصدقناه وآمنا به، من قبل أن يحصل لنا الذل والهوان والخزي والافتضاح في الآخرة.

والمقصود من الآية الكريمة قطع أعذارهم، أى: لو أنا أهلكناهم قبل ذلك، لقالوا ما قالوا، ولكنا لم نهلكهم بل أرسلنا إليهم رسولنا، فبلغهم ما أرسلناه به، فانقطع عذرهم، وبطلت حجتهم.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

ثم ختم -سبحانه- السورة الكريمة بهذه الآية التي أمر فيها رسوله ﷺ أن يهددهم بسوء العاقبة، إذا ما استمروا في طغيانهم يعمهون، فقال تعالى: قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى.

قوله تعالى: {قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ} [طه: ١٣٥]، أي:" قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين بالله: كل منا ومنكم منتظر دوائر الزمان، ولمن يكون النصر والفلاح،

=
فانتظروا".

قال الطبري:" قل يا محمد: كلكم أيها المشركون بالله متربص يقول: منتظر لمن يكون الفلاح، وإلى ما يئول أمري وأمركم متوقف ينتظر دوائر الزمان".

قال الزمخشري:" كل أى كل واحد منا ومنكم متربص للعاقبة ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم".

قوله تعالى: {فَتَرَبَّصُوا} [طه: ١٣٥]، أي:" فانتظروا ".

قال الطبري:" يقول: فترقبوا وانتظروا".

قوله تعالى: {فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى} [طه: ١٣٥]، أي:" فستعلمون: مَن أهل الطريق المستقيم، ومَن المهتدي للحق منا ومنكم؟ ".

قال الطبري: يقول: " فستعلمون من أهل الطريق المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه إذا جاء أمر الله وقامت القيامة، أنحن أم أنتم؟ ومن اهتدى يقول: وستعلمون حينئذ من المهتدي الذي هو على سنن الطريق القاصد غير الجائر عن قصده منا ومنكم".

قال الزجاج: معناه" أصحاب الطريق المستقيم".

قال القرطبي:" يريد الدين المستقيم والهدى، والمعنى: فستعلمون بالنصر من اهتدى إلى دين الحق. وقيل: فستعلمون يوم القيامة من اهتدى إلى طريق الجنة. وفي هذا ضرب من الوعيد والتخويف والتهديد ختم به السورة".

وقرئ: «السواء»، بمعنى الوسط والجيد، أو المستوى

وقرئ: «فتمتعوا فسوف تعلمون». قال أبو رافع: "حفظته من رسول الله ﷺ".

أى: قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء الكافرين: كل واحد منا ومنكم متربص بالآخر، ومنتظر لما يؤول إليه أمر صاحبه.

وما دام الأمر كذلك فَتَرَبَّصُوا وانتظروا ما يؤول إليه حالنا وحالكم فَسَتَعْلَمُونَ بعد
=

=

زمن قريب. مَنْ هم أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ أي: الطريق الواضح المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ومن هم الذين تجنبوا الضلالة، واهتدوا إلى ما يسعدهم في دينهم وفي دنياهم وفي آخرتهم.

وقريب من هذه الآية في المعنى قوله تعالى: سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ.

وقوله-سبحانه-: وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها، وما يتعلق بها، وما يرجع إلى معناها، ويتم به ما يتصل بها، قوله تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى * وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) (طه: ٩ – ١٨)، وفي سورة النمل: (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) (النمل: ٧ – ٨) إلى قوله: (وَأَلْقِ عَصَاكَ) (النمل: ١٠).

وفي سورة القصص: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) (القصص: ٢٩ – ٣١)، هذه الآي من مشكلات الضرب (الثاني) الذي بنينا عليه مقصود هذا

=

=

الكتاب، لأن محصولها الإخبار عن ابتداء أمر موسى، عليه السلام، في رسالته، وتكليم الله سبحانه إياه، وهو خبر واحد عن قصة واحدة قد وقعت وعين وقوعها ما وقعت عليه من الصفة التي التحدت بوقوعها وتبينت، فلا يمكن فيها العدول عما وقعت عليه، فكيف هذا الواقع الوارد في السورتين (امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا) ولم يقع لفظ امكثوا في سورة النمل؟ وفي السورتين: (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا) وفي النمل: (سَآتِيكُمْ مِنْهَا) فورد: سآتيكم عوض: لعلي؟ وفي طه (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) وفي النمل: (بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)، فقدم ذكر القبس في طه وآخر في السورتين، ثم اختلف التعبير عنه، فعبر عنه في القصص: (جَذْوَةٍ) وعوض في النمل فقيل (بِشِهَابٍ) مضافًا إلى القبس وكرر: (أَوْ آتِيكُمْ) في النمل ولم يقع ذلك في غيرها؟ وأفصح في السورتين الأخيرتين بالحاجة إلى النار وهو الاصطلاء ولم يقع ذلك في طه جملة؟ وعبر عن الخبر في طه بقوله: (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) ولم يذكر ذلك في السورتين؟ فهذه مواضع اختلفت العبارة (فيها، واختلفت) في الزيادة والنقص، والتقديم والتأخير والتعويض، مع أن الإخبار عن واقعة معينة وقصة متحدة، والخبر الواحد الصدق لا تمكن فيه الزيادة ولا النقص ولا النسخ من حيث هو خبر ولا شيء مما ذكر، (ويرجع) السؤال فيها إلى شيئين: أحدهما وجه الاختلاف؟ والثاني وجه تخصيص كل موضع بما خص (به)؟

فأقول مستعينًا بالله وسائلًا منه سبحانه (توفيقه) وإرشاده أن المعاني المتصورة في الأذهان المعقولة القائمة بنفوس العقلاء لا تحصل تعديتها إلى غير من قامت به إلا بالعبارات المترجمة عنها الألفاظ الاصطلاحية، وربما خوطب العالم بغيرها وما سوى اللفظ من إشارة وغيرها لا يستقل في تحصيل المعنى المترجم عنه استقلالها، وبالجملة فلم يخاطب إلا بها، وإذا تقرر هذا، فمن المعلوم أن اللفظ

=

=

بالتفات مدلوله المعنوي يتعدد، ومرجع الألفاظ بالنظر إلى مسمياتها ينحصر في أربعة أقسام: إما أن يتحد اللفظ والمعنى، أو يختلف اللفظ والمعنى، أو يتحد اللفظ ويختلف المعنى، أو يختلف اللفظ ويتحد المعنى، ولا يقتضي النظر العقلي زائدًا على هذا التقسيم، وعلى مقتضاه دارت اللغات، وتخاطب العقلاء.

فالقسم الأول وهو المتحد اللفظ والمعنى هو المتواطئ، وهو دلالة لفظ على معنى، ثم يعرض لذلك المعنى عند التشخص كثرة فيكون ذلك اللفظ يدل على تلك الاشخاص بتواطئ، ومثاله: وجل وفرس وأسد، ومنه دلالة اسن النوع كالإنسان على أشخاصه، وكذلك دلالة الجنس على أنواعه كالحيوان على الإنسان والفرس والطائر.

والقسم الثاني هو مختلف اللفظ والمعنى، وهي الأسماء المتباينة، وهي أسماء مختلفة لمعان مختلفة، كل اسم منها يخص معناه الذي وضع له، نحو السواد والبياض والقدرة والعجز.

والقسم الثالث ما اتحد فيه اللفظ واختلف المعنى، وهي الأسماء المشتركة نحو عين للعضر الباصر وعين الماء ونحو ذلك، فاللفظ متحد والمعنى مختلف.

والقسم الرابع هو ما تعدد لفظه واتحد معناه، وهي المترادفة كالأسد والليث للحيوان المعروف، ثم يعرض للمشترك، وهو المتحد اللفظ مع اختلاف المعنى، تفاوت في قوة دلالته على ما تحته، وأعني بالتفاوت استقلال المعنى بنفسه غير مفتقر إلى الغير، وعدم استقلاله، (فينقسم) بحسب هذا إلأى متواطئ ومشكك كوقوع اسم موجود عليهما تفاوت بين، فهو في وقوعه على الجوهر (من) قسم المتواطئ، ووقوعه على العرض بتشكيك. ثم من الألفاظ على الجملة مجازية، وهي الواقعة على مسمياتها (لا) على أنها أسماء لها بل وضعت لمناسبتها لما وضعت الأسماء الحقيقية بإزائها، ومن المعلوم في عوارض التركيب الضرب

=

=

المسمى بلحن الخطاب، وهو حذف الكلمة من الجملة مع إرادتها، ودلالة السياق والمعنى عليها، كالواقع في قوله تعالى: (أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ) (الشعراء: ٦٣)، ولا شك أن المراد: فضرب فانفلق، ومما يلحق به عند الجمهور - إلا من قول بقول الكرخي - (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) (البقرة: ١٨٤)، والتقدير: فأفطر فعدة من أيام أخر، فهذا من لحن الخطاب ومن معروف التخاطب الجاري، وهي دلالة المنطوق على مسكوت عنه يفهمه السياق وقصد المتكلم من عرف اللغة، نحو فهم (منع) الضرب والشتم من قوله تعالى: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ) (الإسراء: ٢٣)، وهذا الضرب من المفهوم يجاري النصوص ولهذا لم يختلف فيه من أنكر القياس، فهذه جملة يستعان بها على تلقي ما يرد، وليست خاصة بالذي نحن فيه من هذه السورة ولا بموضوع دون موضوع.

ثم من المعلون - بإعلام الله سبحانه - أنه تعالى لم يرسل رسولًا إلا بلسان قومه، فموسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، إنما خاطب أهله في هذه المحاورة باللسان العبراني (الذي هو لسان قومه، وجل كلام ربنا عن الحرف والصوت والتقييد بالجملة، فالوارد في كتابنا إنما هو حكاية المعنى الذي خوطب به موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخاطب به، واللسان العبراني) أقرب الألسنة إلى اللسان العربي، فما المانع أن يجري فيه ويطرد كل ما في اللسان العربي من الضروب المذكورة قل أو كثر (ذلك).

(ثم) في الجواب عما تقدم ما لا يفتقر فيه إلى بنائه على ما مهدناه. فأقول مستعينًا بالله سبحانه في قول موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأهله: (امكثوا) وسقوط ذلك في سورة النمل قد يكون مما قاله، عَلَيْهِ السَّلَامُ، نطقًا باللغة التي كلمهم بها، وقد يكون مما فهمه عنه أهله بإشارة أو قرينة أو حال، فيكون قد أمرهم بذلك على كل حال فإما بنطق أو غيره، فمرة حكى معنى نطقه أو مراده بما قد فهم عنه أهله الأمر، ومرة اكتفى بما

=

=

بعد (هذا) الأمر اقتصارً على ما يحصل المقصود، فلا اختلاف ولا اعتراض في ذلك.

وأما قوله: (لَعَلِّي آتِيكُمْ) في السورتين وقوله في النمل: (سَآتِيكُمْ) فإن حرف التسويف يفهم الاستقبال، و (ولفظ) لعل أيضًا يعطي ذلك مع زيادة الترجي والطمع، فيمكن لتقارب معنييهما أن يكون في لسانهم عبارة موضوعة للمعنيين معًا، فلم يكن بد من ورود الحرفين عند الحكاية ليحرز ذلك وقوع المعنى وحصوله على ما هو في لسانهم.

وأما تقديم ذكر القبس في سورة طه على الخبر وتأخيره في السورتين فعنوان بين يعرف أن القصة محكية على معناها لضرورة اختلاف اللغتين ولو ورد الأخبار على التزام التقدين في إحداهما وتأخير الآخر على اللزوم لما أحرز ما ذكرنا.

وأما القبس والجذوة والشهاب من القبس فإن ذلك مما يتصل في لغتنا بمراعاة أدنى شيء يسوغ افتراق التسمية، وذلك كثير في لغتنا كقولهم: سيف وصارم ومهند، وقولهم في التمر طلع وضحك وإغريض وبلح وسياب إلى تمام أحواله العشر، له في كل حالة منها اسم والمسمى واحد، ومتى كان للعرب تعمم بشيء من الموجودات، وكان مما يكثر في كلامهم، وضعوا له عدة أسماء اتساعًا، حتى أنهم قد أنهو بعض المسميات إلى مائة اسم أو نحوها. وإنما ما كان هذا في لغة العرب لاضطرارهم إليه في الشعر والإسجاع، فلو لم تتسع اللغة العربية فيما ذكر لضاق عليهم الأمر واعتاص النظم والنثر، وأقرب شيء (أن) يكون التعبير في تلك اللغة وقع بلفظ واحد لا يعبر في لغتهم عن ذلك المراد المقصود لغيره، وقد أحرز وضع ذلك اللفظ العبراني ما عبر عنه في لغتنا بعدة أسماء، وسواء عني في كل اسم منها معنى ما في المسمى (أو كانت مترادفة على المسمى من غير أن يراعى في شيء منها معنى ما في المسمى).

=

=

وأما تكرار: أو آتيكم في سورة النمل فليس فيه إلا تكرار ما يحرزالتأكيد، وتأكيد ما هو خبر ليس أمرًا ولا نهيًا إنما ثمرته وفائدته صدق الإخبار، وذلك حاصل هنا سواء تأكد أو لم يتأكد وإذا كان الكلام على ما قلنا والصدق حاصل على كل حال فلا ينكر إذا حكي بمعناه. أو يؤكد مرة ولا يؤكد أخرى، إذ لا زيادة للتأكيد فيه سوى الجري على مرتكبات العرب في مثله.

وأما الإفصاح في السورتين الأخريين بالحاجة إلى النار وهو الاصطلاء، ول يقع ذلك في طه، فإن ذلك إخبار بزيادة لا يعارضها شيء مما في سورة طه، فقوله: (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) (طه: ١٠)، فإفصاح بما هو معلوم من قوله في سورة النمل: (سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ) (النمل: ٧)، لأن أهله لم يكن بهم من حاجة لغير الاصطلاء واستعلام طريقهم، فورد في سورة طه مفصحًا بالمقصود مفسرًا لما هو مفهوم في آيتي النمل والقصص من معنى الكلام وسياقه، فلا اختلاف في شيء من ذلك كله ولاتعارض ولا خلاف، والحمد لله.

والجواب عن السؤال الثاني: أن تخصيص كل سورة من هذه السور بما ورد فيها مقتضيه بين. أما أولًا فإن فواصل هذه السورة ومقاطع آيها مناسبة للوارد فيها، أما سورة طه فمقاطع آيها لازمة الألف المقصورة وعلى ذلك أي السور كلها، وأما النمل والقصص فقد اكتنف الواقع في آي هذه القصة فيها ما مقطعه النون الواقع قبلها الياء والواو الساكنتان بحسب ما تقدمهما من حركتي الضمة والكسرة. فإن قلت: إن السورتين مستويتان في هذا فما الفارق؟ قلت: الإيجاز والطول، أما سورة النمل فأوجز في هذا المقصد، وأما سورة القصص فإن خبر موسى، عليه السلام، فيها يكاد يستغرق آيها كلها، فناسبه طول الوارد فيها مما فيه الكلام، وذلك غير خاف. وتأمل الوارد في سورة طه من قوله تعالى مخبراً عن نبيه موسى، عليه السلام، من قوله: (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)، ومناسبة ذلك لما بنيت عليه سورة طه من تأنيس

=

=

نبينا ﷺ، وافتتاحها بقوله تعالى: (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) (طه: ٢)، يلح لك التلاؤم والتناسب، وقد وضح أن كل ما في كل سورة من السور الثلاث من هذه القصة لا يلائم غيرها، وأن كل قصة منها لا يحسن وقوعها في موضع الآخر لعدم المناسبة وبعد التلاؤم، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة طه - قوله تعالى: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) (طه: ١٥)، وفي سورة غافر: (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا) (غافر: ٥٩)، للسائل أن يسأل عن تخصيص آية طه بقوله في وصف الساعة: (أَكَادُ أُخْفِيهَا) ووصفها في سورة غافر بقوله: (لَا رَيْبَ فِيهَا)؟ فهذان سؤالان.

والجواب عن الأول منهما: أن آية طه خطاب للنبي ﷺ، يتضمن تأنيسه وتسليته عن حال كفار قريش في (توقفهم عن) الإيمان، فافتتحت السورة بأجل التأنيس وهو قوله تعالى مبشرًا لنبيه، عليه السلام، مقسمًا على ذلك: (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) (طه: ٢)، ثم تابع التعريف بتعظيم الكتاب، وذكر منزلته سبحانه وتعالى بما انفرد فيه من ملك السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، ووصفه بأنه يعلم السر وأخفى، وانفراده بأسمائه الحسنى، ثم عرف نبيه ﷺ بابتداء (أمر) موسى، عليه السلام، (إلى قوله): (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) (طه: ١٥) تعريفًا بعظيم خفاء أمر الساعة وتغيب كنهها عن الخلق حتى كأن أمرها لم يخبر عنه ولا وقع تعريف بشيء منه، فهو إخبار بفرط إخفاء أمرها، وذلك إعلام بوصف وحال من قد تقرر بوقوعها يقينه، وانطوى على علم كيانها إيمانه، ولما كان هذا الخطاب والتعريف لمن جرى ذكره من تنزهه ﷺ عن الارتياب في أمر الساعة، لم يحتج إلى نفي الريب، إذ مقام النبوى في الإيمان بها المقام الذي لا يداني، فلم يكن نفي الارتياب ليلائم ولا يناسب، وإنما عرفوا بحال وصف تابع.

أما آية غافر، في أكثر الخطاب المتقدم قبلها، من أول السورة إليها، خطاب لقريش

=

=

وسائر كفار العرب. وهم المجادلون في أمر الساعة، والجاهلون بكيانها، والقائلون: (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (المؤمنون: ٣٧)، فقدم لهم قبل ذكر الآيات قوله تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) (غافر: ٥٧)، فذكروا بما لا يمكن لأحد من المخلوقين إلا الاعتراف بعظيم أمره والعجز عنه، وهو بدخول اللام ونفي الريب في ذلك، وذلك أوضح شيء في المناسبة، فكل من الآيتين وارد على أتم مناسبة، ولا يمكن أن يقع الوارد في سورة غافر في سورة طه. ولا الوارد في سورة طه في سورة غافر، والله أعلم بما أراد.

والجواب عن الثاني: أن آية طه وردت أثناء خطاب رسول الله ﷺ بالتأنيس والتسلية عما يلقاه من مكابدة قريش وسائر كفار (العرب)، وتعريفه بما جرى لموسى، عليه السلام، وظهوره على فرعون، فلم يكن ليناسب ذلك تأكيد الخبر عن أمر الساعة، إذ هو، عليه السلام، من أمرها على أوضح الجادة.

أما آية غافر فإن قبلها تعنيفًا لكفار من قريش وغيرها، وعلى ذلك استمرت الآيات من أول السورة إلى قوله: (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ) (غافر: ٥٦)، إلى قوله: (قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ) (غاف: ٥٨)، فناسب ذلك من حالهم تأكيد الإخبار عن إتيان الساعة بدخول اللام، وصيرورة الآية بذلك في قوة المقيس عليه تحقيقًا للأمر وتأكيدًا لما في طي ذلك من وعيدهم بسوء مآلهم، فورد كل من الآيتين على ما يناسب، والله أعلم.

الآية الثالثة من سورة طه - قوله تعالى: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ

=

=

يَا مُوسَى) (طه: ٢٤ - ٣٦)، وفي سورة الشعراء: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) (الشعراء: ١٠ - ١٤)، وفي سورة القصص: (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ) (القصص: ٣٢ - ٣٥) إلى قوله: (وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ) (القصص: ٣٥). للسائل أن يسأل عن اختلاف المحكي من قول موسى، عليه السلام، حين بعث إلى فرعون مع اتحاد القضية في السور الثلاث وقد وقع في كل سورة منها ما ليس في الأخرى، فيسأل عن هذا؟ وعن وجه اختصاص كل سورة بما ورد فيها؟

والجواب عن السؤال الأول: أن قول موسى، عليه السلام، لا توقف في أنه لم ترد حكايته إلا بالمعنى لاختلاف اللسانين كما تقدم، وإذا تقرر كونها بالمعنى، والترادف فيما بين اللغتين في كل لفظتين يراد بهما معنى واحد غير مطرد، فلا إشكال في أن المعنى قد يتوقف حصوله على الكمال على تعبيرين أو أكثر، لا سيما مع ما في اللسان العربي من الاشتراك والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد والحقيقة والمجاز وغير ذلك من عوارض الألفاظ، فكيف ينكر اختلاف التعبير عن المعنى الواحد بألفاظ وعبارات مختلفة، بل نقول إنه لو كان المحكي قولًا عربيًا وحكي بالمعنى لما استنكر اختلاف العبارة، فكيف مع اختلاف اللسانين؟ والحاصل من قول موسى، عليه السلام، في هذه السور الثلاث سؤاله ربه شرح صدره وتيسير أمره

=

=

وإطلاق لسانه وتشكيه منه والتعاون بأخيه هارون، عليهما السلام، وخوفه أن يكذب وذكره ما تقدم منه من قتل القبطي، على هذه القضيات السبع دار المحكي من كلامه، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد يرد في سورة منها بعض ذلك مما ليس في الأخرى، ولم يتعارض شيء من ذلك، فارتفع الإشكال المتوهم جملة.

والجواب عن السؤال الثاني: أن الوارد في سورة طه من قوله: (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) (طه: ٢٥) إلى أن قيل له: (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) (طه: ٣٦) مناسب لما بينت عليه السورة من التأنيس والبشارة لنبينا ﷺ من لدن افتتاحها بقوله: (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) (طه: ٢) إلى ختامها بقوله لنبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ: (لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ) (طه: ١٣٢) وقوله تهديدًا ووعيدًا لأعداء نبيه ﷺ: (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا...) (طه: ١٣٥)، ولا توقف في بيان هذا التناسب.

وأما سورة الشعراء وسورة القصص فإنما بناؤها على قصص موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أما الشعراء فمبينة على ابتداء الرسالة ودعائه فرعون ومراجعة إياه إلى نجاة بني إسرائيل وإغراق فرعون، وأما سورة القصص فمبينة على ابتداء امتحان بني إسارئيل بذبح الأبناء واستحياء النساء للخدمة والمهنة، وتخليص موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، من ذلك، وتكفل الله سبحانه من ابتداء ونشأة، إلى توجهه إلى مدين ورجوعه من عند شعيب، عليهما السلام، إلى ما تخلل ذلك وما أعقبت به، إلى أخذ فرعون وهلاكه، ولما كانت سورة الشعراء مذكورًا فيها قصص الرسل مع أممهم ابتداء واختتامًا فيما يخص حال الرسالة، إلى أخذ كل طائفة بما أخذت به، خصت من قصص موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بما يلائم دعاء ومحاورة، إلى أخذ فرعون وملئه.

ولما كان قوله تعالى في سورة القصص: (نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ) (القصص: ٣) تأنيسًا وتنبيهًا لنبينا ﷺ، قال تعالى: (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) (هود: ١٢٠)، وفي آخر السورة الإفصاح من هذا

=

=

التأنيس برجوعه إلى مكة بعد أن أخرج عنها، عليها السلام، مهاجرًا لأجل قومه، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) (القصص: ٨٥)، ناسب ذلك من قصص موسى، عليه السلام، خروجه إلى مدين ورجوعه إلى مصر، فتناسب هذا أكمل مناسبة في السور الثلاث، (وإذا عتبر ذلك علم أنه لا يناسب كل سورة من الثلاث) إلا ما خصت به، والله أعلم بما أراد.

الآية الرابعة من سورة طه: غ – قوله تعالى: (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) (طه: ٤٧)، وفي سورة الشعراء: (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الشعراء: ١٦ – ١٧)، ففي الأولى: (فَأْتِيَاهُ) وفي الثانية: (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ)، وفي الأولى: (إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) بالتثنية والإضافة إلى ضمير الخطاب وفي الثانية: (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فورد هنا (رسول) بلفظ الإفراد وإضافة رب (إلى) العالمين، والظاهر أن أمر موس وهارون، عليهما السلام، في الآيتين كان أول أمر أُمرا به في إرسالهما إلأى فرعون، وأن أمرهما معًا بهذا لم يتكرر، وقد تقدم في سورة طه أمر موسى، عليه لاسلام منفردًا عن أخيه هارون في أول تكليم الله تعالى، وأمره بخلع نعليه، وإعطائه آيتي العصا واليد، وأمره بالذهاب إلى فرعون، وطلبه شرح صدره، إلى طلبه المعونة بأخيه هارون، وبعد ذلك أُمرا معًا بما في هاتين الآيتين، ثم لم يتكرر حسبما ذكرناه بمقتضى الظاهر، فللسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف فيهما؟ ووجه اختصاص كل سورة بما ورد فيها؟

والجواب عن الأول: ما تقدم من أن الإخبار عن ذلك كله في كتابنا معتمد فيه المعنى، وقد تقدم بيان ذلك مستوفى، وأما وجه التخصيص، فإن ورود اسم فرعون مضمرًا في قوله: (فأتياه) إنما ذلك لتقدم ذكره في قوله: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ) (طه: ٤٣ – ٤٤)، فلم تكن إعاجى اسمه

=

=

ظاهرًا مع الاتصال والقرب، إذ لم يفصل بين ظاهره ومضمره إلا كلمتان. أما آية الشعراء فقد اجتمع فيها أمران: أحداهما الفصل بين مضمر الاسم وظاهره، مع إتيان الظاهر مضافًا إليه فضلة إلى ما ذكر إليه من الفصل ببضع وعشرين كلمة، والثاني أن أمر موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أولًا إنما ورد بإتيان قوم فرعون، قال تعالى: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ) (الشعراء: ١٠ – ١١)، فقد يتوهم أن الجاري على هذا أن لو قيل عوض قوله: (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ) فأتياه، إلا أنه لم يقصد إلا ذكر متبوعهم، فلم يكن بد من الإفصاح باسمه غير مضمر.

وأما قوله تعالى في الأولى: (فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) (طه: ٤٧) بتثنية لف الرسول فوارد على اللغة الشهيرة، أما قوله في الثانية: (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الشعراء: ١٦) فعلى لغة من يقول رسول للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، وعلى ذلك قول الهذلي:

ألكني إليها وخير الرسول أعلمهم بنواحي الخبرَّ فورد (الأول) في الترتيب على اللغة الشهيرة، والثاني على اللغة الأخرى على ما تقدم في مثل هذا، وعكس الوارد مخالف للترتيب ولا يناسب.

وأما قوله: (إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) بإضافة اسمه تعالى إلى ضمير الخطاب، فإنه يناسب من حيث ما فيه من (التلطف) والرفق لما تقدمه من قوله تعالى (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) (طه: ٤٤)، وقد تفسر هذا القول وتبين ما فيه من التلطف بقوله تعالى في سورة النازعات: (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) (النازعات: ١٨ – ١٩)، وناسب هذا ما بنيت عليه سورة طه من تأنيس نبينا ﷺ وتأميس موسى كليمه ﷺ بقوله: (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى) (طه: ١٣) وما بعد إلى قوله تعالى: (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) (طه: ٣٦) وما بعد، فلما

=

=

كان بناء هذه السورة بجملتها على التلطف (والتأنيس ناسب ذلك ما أمر به موسى، عليه السلام، من دعاء فرعون آنسه وألطفه)، وأمر موسى، عليه السلام، وأخوه هارون بذلك فقيل لهما: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا)، وجرى على ذلك (قوله): (إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ)، فأشعرت هذه الإضافة بالتلطف الرباني، ولما لم تكن سورة الشعراء مبنية على ما ذكر، وإنما تضمنت تعنيف فرعون وملئه وإغراقهم وأخذ المكذبين للرسل بتكذيبهم، وهذا في طرف من التلطف، ورد فيها: (فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) بإضافة اسمه سبحانه (إلى العالمين) ليحصل منه أنه مالك الكل وأنهم تحت قهره تعالى وفي قبضته، وعدل عن الإضافة إلى ضمير الخطاب إذ لم يقصد هنا ما تقدم من التلطف، ونظير الوارد في هاتين الآيتين قوله تعالى في سورة الأنعام: (وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ) (الأنعام: ١٣٧)، فقف على ذلك في سورة الأنعام، وقد تبين جليل النظم وعلي التناسب في كل ما تقدم، وأن عكس الوارد في هذه الآي لا يناسب، والله سبحانه أعلم.

الآية الخامسة من سورة طه: غ - قوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) (طه: ٥٣)، وقال في سورة الزخرف: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (الزخرف: ١٠)، للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف بين سلك وجعل؟ ووجه اختصاص كل من السورتين بما ورد فيها؟

والجواب عن ذلك: أن العبارتين في السورتين معناهما متقارب وهو ما هيأه سبحانه لعباده من المذكور في قوله: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) (الملك: ١٥)، والمراد (بسلك) وجعل ما خلق وذلل سبحانه منها وهيأه لتصرفنا في معايشنا ومنافعها.

والجواب عن الثاني أن اختصاص كل واحدة من العبارتين بموضعها في آية طه

=

=

مقصود بها التلطف بالدعاء إلى الله (ﷻ) على ما تقدم من أمره تعالى لموسى وهارون، عليهما السلام، في قوله: ((فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) (طه: ٤٤)، فلما بني الكلام على هذا وأعقب بقوله: (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ) (طه: ٥٣ - ٥٤)، - ولا إشكال في أن هذا من التلطف والرفق في الدعاء - ناسب ذلك العبارة بسلك عما أنهج تعالى من السبل ولاطرق لمرافق العباد ومصالحهم، وهي منبئة عما تعطيه جعل في الآية الأخرى مع زيادة الوضوح وكمال التهيئة، فهي أنسب لما قصد في هذه السورة، تقول: منهج سالك أي واضح، ولو قلت مجعول لم يعط هذا المعنى من الوضوح. أما آية الزخرف فمبنية على توبيخ من كفر من العرب وترقيعهم، ألا ترى قوله سبحانه: (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ) (الزخرف: ٥)، وقوله إخبارًا عن مكذبي الأمم: (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (الزخرف: ٧)، وقوله: (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا) (الزخرف: ٨) أي من هؤلاء الذين كذبوك يا محمد، فهذا كله توبيخ للجاحدين والمعاندين، وتأمل ما افتتحت به السورة من قوله: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف: ٣)، والتعقل لا يستلزم الاهتداء والإيمان، ألا ترى قوله تعالى: (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة: ٧٥)، فأين موقع قوله: (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) من قوله: (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) و (لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ) و (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)؟ فتدبر ذلك يلح لك الفرق، فناسب هذا ما ينبئ عن الخلق والاختراع من غير زيادة، فعبر هنا بجعل.

وأيضًا فقد اكتنف لفظ جعل في الزخرف قوله: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف: ٣)، وقوله بعدها: (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) (الزخرف: ١٢)، فناسب هذا ذكر الجعل، ولم يناسب هنا هذه المناسبة

=

=

لفظ سلك، فجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية السادسة من سورة طه: غ - قوله تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) (طه: ١١٢)، وفي سورة الأنبياء: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) (الأنبياء: ٩٤)، فوردت آية طه منسوقة على ما قبلها بالواو، والثانية بالفاء المقتضية في مثل هذا استئناف التفصيل مع بنائه على ما قبله بمقتضى الفاء، ثم أعقب الأولى بقوله: (فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) والثانية بقوله: (فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) ومقصود الآيتين واحد، فللسائل أن يسأل عن الفرق؟

والجواب عن الأول: أن قوله: (ومن يعمل) بواو النسق ورد في مقابلة ما تقدمه من المعنى الحاصل من قوله: (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) (طه: ١١١) وقد خاب من حمل ظلمًا لأن عنت الوجوه ذلتها في القيامة، ومنه قولهم: العاني للأسير، فمن حمل ظلمًا خاب وخسر، ومن قدم خيرًا وعمل صالحًا فر يخاف ظلمًا أي زيادة في سيئاته، ولا هضمًا أي نقصًا في حسناته، وهذا معنى الكلام، والله أعلم، فهذا موضع الواو ولا مدخل فيه للفاء. أما قوله في الأنبياء: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ) (الأنبياء: ٩٤) فافتتح تفصيل أحوال الفريقين لما قال تعالى: (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) (الأنبياء: ٩٣)، والمراد اختلافهم وافتراقهم في المذاهب والأديان، ابتع ذلك تعالى ببيان حال المحسن والمسيء في افتراقهم، فاستؤنف تفصيل جزائهم فقال: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) (الأنبياء: ٩٤) إلى ما بعد وفي قوله تعالى: (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) (الأنبياء: ٩٥) إلى ما يتلوه بيان جزاء المسمى وحكمه، وربطت الفاء ما فصل من الجزاء بما وقع الجزاء المفصل مربوطًا به ومنبهًا عليه، فالموضوع للفاء ولا مدخل للواو هنا.

=

=

وأما تعقيب آية طه بقوله: (فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) (طه: ١١٢)، فإفصاح بالتأنيس المناسب لما بنيت عليه، وقد وضح هذا في الآية المترجم عليها قبل التي تلي هذا، ولم تبن آية سورة الأنبياء على ما ذكر فجيء فيها بما يناسب، وورد كل على ما يجب، ولا يلائم عكس الوارد ولا يناسب، والله أعلم.

الآية السابعة من سورة طه قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ) (طه: ١٢٨)، وفي سورة السجدة: (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ) (السجدة: ٢٦)، فلحقت همزة الاستفهام الواردة هنا تقريرًا وتوبيخًا حرف العطف متقدمة قبله كما يجب واختلف حرف العطف، فلسائل أن يسأل: لم اختصت الأولى بالفاء من حروف العطف والثانية بالواو؟ وعن زيادة (من) في سورة السجدة؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن قوله في الآية الأولى: (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) كلام لم يتقدمه ما يكون هذا معطوفًا عليه، وإنما هو كلام مستأنف مبتدأ، ألا ترى ما تقدم قبله من قوله تعالى إخبارًا عمن أعرض عما جاءت به الرسل فقال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي) - أي بإعراضه عن إتباع الرسل - (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) (طه: ١٢٤) إلى قوله: (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) (طه: ١٢٧)، هذا إخبار عن جزاء من أعرض ولم يؤمن، ثم ورد ما بعد مستأنفًا واردًا مورد ما يرد من الكلام التفاتًا، وهذا مراد أبي محمد بن عطية، ثم ابتدأ توبيخهم وتذكيرهم فقال تعالى: (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ)، والضمير المجرور لكفار قريش ومن كان معهم، أي أفلم يتبين لهم، والفاعل ما يفهم من جملة الكلام وسياقه، أي أفلم يهد لهم هذا المشاهد لهم الواضح من تقلبهم في بلاء عاد وثمود يمشون في مساكنهم ويعاينون آثار هلاكهم، وكم مفعولة بأهلكنا. واستمر الكلام مع المذكورين إلى آخر السورة، وإذا كان قوله: (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) مبتدأ مستأنفًا فالموضع للفاء، وهذا كقوله في سورة الرعد:

=

=

(أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا) (الرعد: ٣١)، وقوله في سورة القتال: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد: ٢٤)، وما أتى مثل هذا مما الوجه فيه الاستئناف، ولم يقصد عطفه على ما قلبه، وإنما ارتباطه بما تقدمه من جهة المعنى، ولا مدخل فيه للعطف مع أن الالتحام حاصل من وجه كما بينا.

وأما آية السجدة فالواو فيها عاطفة على مقدر لما قال الله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) (السجدة: ٢٢)، كأن قد قيل: أفلا تذكروا ولم يعرضوا: (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ) (السجدة: ٢٦) أولم يبين لهم إهلاك من تقدمهم من القرون، وقال الزمخشري في الواو في: (أَوَلَمْ يَهْدِ) للعطف على معطوف عليه منوي من جنس المعطوف والضمير في لهم لأهل مكة، قلت وهذا هو عين ما قدمنا، وإنما لم تكن الواو هنا لغير العطف لأن الواو لا يستأنف بها بخلاف الفاء كما قدمنا، فاختلف المقصود في الآيتين ووضح وجه مجيء الفاء في آية طه والواو في آية السجدة.

وأما زيادة ((من)) في قوله في آية السجدة: (مِنْ قَبْلِهِمْ) فإنها مقصود فيها استغراق عموم لمناسبة ما تقدم هذه الآية من حصر التقسيم في قوله: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) (السجدة: ١٨) وأعقب: (به) ما يفهمه قوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ) (السجدة: ٢٦)، إذ ليس هنا الوارد كالوارد في سورة طه من قوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى) (طه: ١٢٨)، فهذا يشعر بخصوص يناسبه سقوط (من) الاستغراقية، وما في آية السجدة يشعر بعموم واستغراق تناسبه (من) في قوله: (مِنْ قَبْلِهِمْ)، فجاء كل على ما يناسب ويجب، والله أعلم.

الآية الثامنة من سورة طه قوله تعالى: (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) (طه: ١٣٠)، وفي سورة ق: (فَاصْبِرْ عَلَى مَا

=

=
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) (ق: ٣٩)، فقال في الأولى: (وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) وفي الثانية: (وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)، وفي سورة الطور: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) (الطور: ٤٨ - ٤٩)، (فيسأل عن الفرق)؟

والجواب أن ذلك، والله أعلم: لرعي الفواصل ومقاطع الآي، ألا ترى ما تقدم قبل آية ق من قوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) (ق: ٣٨)، فناسب هذا قوله: (وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)، وأما آية طه فقد اكتنفها أي مقاطعها الألف المفتوح ما قبلها نطقًا وتقديرًا، فجاء ذلك على ما يجب في السورتين.

فصل: وأما قوله تعالى في السورتين: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) بناء على المتقدم فيهما من قوله تعالى: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ) واتصاله به فبين الوضوح، لن المراد أمره عليه السلام بالصبر على أذاهم في قولهم كاهن ومجنون وساحر إلى غير ذلك مما نزه الله نبيه، عليه السلام، منه فأمر (بالصبر) على ذلك وأمر أن يستعين بصبره وصلاته كما قال تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) (البقرة: ٤٥)، وهو المراد أيضًا هنا، وعن الصلاة عبر بالتسبيح في قول أكثر المفسرين، وإن أريد بالتسبيح معنى التنزيه بالذكر المعروف فذلك أيضًا بين والمعنى متعارف، ويكون مأمورًا بالصبر والذكر والتنزيه، فالالتحام بين، وإنما المشكل قوله تعالى في سورة ص: (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ...) (ص: ١٧)، وربط قوله: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) بما قبله ومطابقته إياه، وقد أجاب الزمخشري عن ذلك بما جرى فيه على شنيع المرتكب وسوء الأدب، بناء على استبداد العبيد وفعلهم ما لا يرضاه الخالق سبحانه ولا يريد، فجعل لله شركاء، وأفرد العباد بأفعالهم استبدادًا وملكًا، وأجاب (بناء) على ما أصل ولم يوفق في هذا الموضوع لوجه المطابقة ولا حصل، وأذكر
=

سُورَةِ الْأَنْبِيَاء(١)

=

إن شاء الله ذلك في أول آية من سورة ص على أوضح منهج بحلول الله تعالى. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٣٣١-٣٤٤).

(١) في وقت نزول السورة قولان:

أحدهما: أنها مكية جميعها. قاله ابن عباس، وابن الزبير، ومقاتل، ويحيى بن سلام، وابن قتيبة، والماتريدي، والسمرقندي، وابن ابي زمنين، ومكي بن أبي طالب، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وغيرهم.

قال ابن الجوزي:" هي مكية باجماعهم من غير خلاف نعلمه".

قال القرطبي:" مكية في قول الجميع".

قال الفيروزآبادي: "السورة مكّيّة بالاتفاق".

الثاني: أنها مكية إلا آية: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الأنبياء: ٤٤]، فإنها نزلت بالمدينة. نقله السيوطي في "الإتقان" دون عزوه إلى قائل.

قال ابن عاشور:" ولعله أخذه من رواية عن مقاتل والكلبي وابن عباس، أن المعنى: " «نَنْقُصُهَا» بفتح البلدان"، أي: بناء على أن المراد من الرؤية في الآية الرؤية البصرية، وأن المراد من الأرض أرض الحجاز، وأن المراد من النقص نقص سلطان الشرك منها. وكل ذلك ليس بالمتعين ولا بالراجح.. فالأرجح أن سورة الأنبياء مكية كلها".

* آياتها مائة واثنتا عشرة عند الكوفيِّين، وإِحدى عشرة عند الباقين. وكلماتها أَلف ومائة وثمانية وستون. وحروفها أَربعة آلاف وثمانمائة وسبعون، المختلف فيها آية واحدة: {وَلاَ يَضُرُّكُمْ}.

=

=

مجموع فواصل آياتها (م ن).

❋ أسماء السورة:

تسمى «سورة الأنبياء»: سماها الصحابة-رضوان الله عليهم- «سورة الانبياء».

- عن ابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: "قال: في بني إسرائيل والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي".

- وعن ابن عباس-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قال:" نزلت سورة الأنبياء بمكة".

- وعن ابن الزبير-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قال:" نزلت سورة الأنبياء بمكة".

وبذلك سميت في المصاحف وكتب التفسير وفي كتب السنة.

سميت «سورة الأنبياء» لتضمنها الحديث عن جهاد الأنبياء المرسلين مع أقوامهم الوثنيين، بدءا من قصة أبي الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بإسهاب وتفصيل، ثم إسحاق، ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون: يونس، وزكريا، وعيسى، إلى خاتم النبيين محمد صلوات الله وسلامه عليهم، وذلك بإيجاز يدل على مدى ما تعرضوا له من أهوال وشدائد، فصبروا عليها، وضحوا في سبيل الله، لإسعاد البشرية.

وتسمى «سورة اقترب» ذكر السخاوي هذه التسمية، وذلك من باب تسمية السورة بأول كلمة فيها، وقد سماها عامر بن ربيعة بأول الآية منها، فقال:" نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ} ".

❋ مقصود السّورة: ما اشتملت عليه مجملا: من التنبيه على الحساب فى القيامة، وقرب زمانها، ووصف الكفَّار بالغفلة، وإِثبات النبوّة، واستيلاء أَهل الحَقّ على أَهل الضَّلالة، وحُجّة الوحدانيّة، والإِخبار عن الملائكة وطاعتهم، وتخليق الله السّماواتِ والأَرض بكمال قدرته، وسير الكواكب ودَوْر الفَلَك، والإِخبار عن موت الخلائق وفنائهم، وكَلاءُ الله تعالى وحفظه العبدَ من الآفات، وذكر ميزان

=

=

العَدْل فى القيامَة، وذكر إبراهيم بالرّشد والهداية، وإنكاره على الأَصنام وعُبَّادها، وسلامة إبراهيم من نار نُمرود وإيقادها، ونجاة لوط من قومه أُولى العُدْوان، ونجاة نوح ومتابعَته من الطوفان، وحُكم داود، وفهم سليمان، وذكر تسخير الشيطان، وتضرّع أَيّوب، ودعاء يونس، وسؤال زكريّا، وصلاح مريم، وهلاك قُرًى أَفرطوا فى الطغيان، وفتح سدّ يأْجوج ومأْجوج فى آخر الزَّمان وذلّ الكفَّار والأَوثان، فى دخول النيران، وعِزّ أَهل الطَّاعة والإيمان، من الأَزل إلى الأَبد فى جميع الأَزمان، على علالىّ الجِنَان، وطىّ السّماوات فى ساعة القيامة، وذكر الأُمم الماضية، والمنزلة من الكتب فى سالف الأَزمان، وإرسال المصطفى ﷺ بالرأفة والرّحمة والإحسان، وتبليغ الرّسالة على حكم السّويّة من غير نقصان ورجحان، وطلب حكم الله تعالى على وَفْق الحقّ، والحكمة فى قوله {رَبِّ احكم بالحق وَرَبُّنَا الرحمان}.

* المتشابهات: قوله: {مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ} وفى الشعراءِ {مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرحمان مُحْدَثٍ} خصّت هذه السّورة بقوله {مِّن رَّبِّهِمْ} بالإضافة، لأَن (الرّحمن) لم يأْت مضافًا، ولموافقة ما بعده، وهو قوله: {قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ} وخصّت الشعراءِ بقوله {مِّنَ الرحمان} ليكون كلُّ سورة مخصوصةً بوصف من أَوصافه، وليس فى أَوصاف الله تعالى اسم أَشبهُ باسم الله من الرحمن؛ لأَنَّهما اسمان ممنوعان أَن يسمّى بهما غيرُ الله ﷻ، ولموافقة ما بعده، وهو قوله: {العزيز الرحيم}؛ لأَنَّ الرَّحمن والرَّحيم من مصدر واحد.

قوله: {وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالًا} وبعده {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلَكَ مِنْ رَسُوْلٍ}، (قبلك) و (من قبلك) كلاهما لاستيعاب الزمان المتقدّم، إلا أَنَّ (مِن) إذا دخل دَلَّ على الحَصْر بين الحَدَّيْن، وضبطه بذكر الطَّرفين. ولم يأت {وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ} إِلاَّ هذه – وخصَّت بالحذف؛ لأَنَّ قبلها {مَآ آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ} فبناه عليه لأَنه

=

=

هو؛ وآخر فى الفرقان {وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ} وزاد فى الثانى {مِنْ قَبْلَكَ مِنْ رَسُوْلٍ} على الأَصل للحصر.

قوله: {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} وفى العنكبوت: {ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}؛ لأَن ثمَّ للتراخى، والرّجوعُ هو الرّجوع إِلى الجنَّة أَو النَّار، وذلك فى القيامة، فخُصّت سورة العنكبوت به. وخُصّت هذه السّورة بالواو لَمَّا حيل بين الكلامين بقوله: {وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً وَإِلَيْنَا} وإِنَّما ذُكِرَا لتقدّم ذكرهما، فقام مقام التراخى، وناب الواو مَنابه، والله أَعلم.

قوله: {وَإِذَا رَآكَ الذين كفروا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا} وفى الفرقان {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا} لأَنَّه ليس فى الآية التى تقدّمتها ذكر الكفَّار؛ فصرّح باسمهم، وفى الفرقان قد سَبَق ذكر الكفَّار، فخُصّ الإِظهار بهذه السّورة، والكنايةُ بتلك.

قوله: {مَا هاذه التماثيل التي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَآ} وفى الشعراءِ {قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ}؛ لأَنَّ قوله: {وَجَدْنَآ آبَآءَنَا} جواب لقوله: {مَا هاذه التماثيل} وفى الشعراءِ أَجابوا عن قوله {مَا تَعْبُدُوْنَ} بقولهم {قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا} ثمَّ قال لهم {هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ} فأَتى بصورة الاستفهام ومعناه النفى {قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ} (أَى قالوا لا بل وجدنا) عليه آباءَنا، لأَن السّؤال فى الآية يقتضى فى جوابهم أَن ينفوا ما نفاه السّائل، فأَضربوا عنه إِضراب مَن ينفى الأَوّل، ويُثبت الثانى، فقالوا: بل وجدنا. فخُصت السّورة به.

قوله: {وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأخسرين}، وفى الصَّافَّات {الأسفلين}؛ لأَنَّ فى هذه السورة كادهم إِبراهيم؛ لقوله: {لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ} وهم كادوا ابراهيم لقوله: {وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا} فجرت بينهم مكايدة، فغلبهم إِبراهيم؛ لأَنَّه كسر أَصنامهم، ولم يغلبوه؛ لأَنَّهم (لم يبلغوا من إِحراقه مرادهم) فكانوا هم الأَخسرين. وفى الصَّافَّات {قَالُوا ابنوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الجحيم}، فأَجّجوا نارًا

=

=

عظيمة، وبنوا بنيانًا عاليًا، ورفعوه إِليه، ورمَوه منه إِلى أَسفل، فرفعه الله، وجعلهم فى الدّنيا سافلين، ورَدَّهم فى العقبى أَسفل سافلين. فخُصت الصَّافَّات بالأَسفلين.

قوله: {فَنَجَّيْنَاهُ} بالفاءِ سبق فى يونس. ومثله فى الشّعراءِ {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوْزًا فِي الْغَابِرِيْنَ}.

قوله: {وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ} ختم القصّة بقوله {رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا} وقال فى ص {رَحْمَةً مِّنَّا} لأَنَّه بالغ (فى التضرّع) بقوله {وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} فبالغ سبحانه فى الإِجابة، وقال {رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا} لأَنَّ (عند) حيث جاءَ دلَّ على أَنَّ الله سبحانه تولَّى ذلك من غير واسطة. وفى ص لمَّا بدأَ القصة بقوله {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا} ختم بقوله (منَّا) ليكون آخِرُ الآية ملتئما بالأَوّل.

قوله: {فاعبدون وتقطعوا} وفى المؤمنين {فاتقون فتقطعوا} لأَنَّ الخطاب فى هذه السّورة للكفار، فأَمرهم بالعبادة التى هى التَّوحيد، ثم قال: {وتقطعوا} بالواو؛ لأَنَّ التقطُّع قد كان منهم قبل هذا القول لهم. ومَن جعله خطابًا للمؤمنين، فمعناه: دُوموا على الطَّاعة. وفى المؤمنين الخطاب للنبىِّ ﷺ وللمؤمنين بدليل قوله قبله {ياأيها الرسل كُلُوا مِنَ الطيبات} والأَنبياءِ والمؤمنون مأْمورون بالتَّقوى، ثم قال {فتقطعوا أَمْرَهُمْ} أَى ظهر منهم التقطُّع بعد هذا القول، والمراد أُمّتُهم.

قوله: {والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا} وفى التحريم (فيه)؛ لأَنَّ المقصود هنا ذِكرها وما آل إِليه أَمرها، حتى ظهر فيها ابنُها، وصارت هى وابنها آية. وذلك لا يكون إِلا بالنَّفخ فى جُملتها، وبحَمْلها، والاستمرار على ذلك إِلى يوم ولادتها. فلهذا خُصَّت بالتَّأْنيث. وما فى التحريم مقصور على ذكر إِحصانها، وتصديقها بكلمات ربّها، وكان النفخ أَصاب فرجها، وهو مذكَّر، والمراد به فرج الجَيْب أَو غيره، فخُصّت بالتَّذكير. بصائر ذوي التمييز.

مَكِّيَّة وَهِيَ مِائَة وَاثْنَتَا عَشْرَة آيَة نَزَلَتْ بعد سورة إبراهيم.

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١).

{اقْتَرَبَ} قَرُبَ {لِلنَّاس} أَهْل مَكَّة مُنْكِرِي الْبَعْث {حِسَابُهُم} يَوْم الْقِيَامَة {وَهُمْ فِي غَفْلَة} عَنْهُ {مُعْرِضُونَ} عَنْ التَّأَهُّب لَهُ بِالْإِيمَانِ.

مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢).

{مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْر مِنْ رَبّهمْ مُحْدَث} شَيْئًا فَشَيْئًا أَيْ لَفْظ قُرْآن {إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} يَسْتَهْزِئُونَ.

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣).

{لَاهِيَة} غَافِلَة {قُلُوبهمْ} عَنْ مَعْنَاهُ {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} الكلام {الذين ظلموا} بدل من واو {وأسروا النجوى {هَلْ هَذَا} أَيْ مُحَمَّد {إِلَّا بَشَر مِثْلكُمْ} فَمَا يَأْتِي بِهِ سِحْر {أَفَتَأْتُونَ السِّحْر} تَتَّبِعُونَهُ {وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} تَعْلَمُونَ أَنَّهُ سِحْر.

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤).

{قَالَ} لَهُمْ {رَبِّي يَعْلَم الْقَوْل} كَائِنًا {فِي السَّمَاء وَالْأَرْض وَهُوَ السَّمِيع} لِمَا أَسَرُّوهُ {الْعَلِيم} به.

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥)

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{بَلْ} لِلِانْتِقَالِ مِنْ غَرَض إلَى آخَر فِي الْمَوَاضِع الثَّلَاثَة {قَالُوا} فِيمَا أَتَى بِهِ مِنْ الْقُرْآن هُوَ {أَضْغَاث أَحْلَام} أَخْلَاط رَآهَا فِي النَّوْم {بَلْ افْتَرَاهُ} اخْتَلَقَهُ {بَلْ هُوَ شَاعِر} فَمَا أَتَى بِهِ شِعْر {فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أرسل الأولون} كالناقة والعصا واليد قال تعالى.

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦).

{مَا آمَنَتْ قَبْلهمْ مِنْ قَرْيَة} أَيْ أَهْلهَا {أَهْلَكْنَاهَا} بِتَكْذِيبِهَا مَا أَتَاهَا مِنْ الْآيَات {أَفَهُمْ يؤمنون} لا[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عامر بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت رسول الله ﷺ واديًا: ما في العرب واد أفضل منه، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، قال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١)}.

أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ١٧٩) - ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٢٧/ ٢٢٨) من طريق محمد بن الزبرقان ثنا موسى بن عبيدة عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عامر به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ موسى وعبد الرحمن ضعيفان، وعبد الرحمن أشد ضعفًا من موسى.

وعن قتادة؛ قال: قال أهل مكة للنبي ﷺ: إن كان ما تقول حقًا ويسرك أن نؤمن؛ فحوّل لنا الصفا ذهبًا، فأتاه جبريل فقال: "إن شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا، وإن شئت استأنيت بقومك"، قال: "بل أستأني بقومي"؛ فأنزل الله: {مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان"؛ كما في "الدر المنثور" (٥/ ٦١٧) و"لباب =

=

النقول" (ص ١٤٧) ولم نجده في المطبوع. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ} [الأنبياء: ١]، أي:" قرب ودنا وقت حساب الناس على أعمالهم".

قال الزجاج:" معناه: اقتربت القيامة، ومثله: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر: ١]، والمعنى - والله أعلم - اقترب للناس وقت حسابهم".

قال الطبري:" دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم ونعمهم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم، وأجسامهم، ومطاعمهم، ومشاربهم، وملابسهم وغير ذلك من نعمه عندهم، ومسألته إياهم ماذا عملوا فيها؛ وهل أطاعوه فيها، فانتهوا إلى أمره ونهيه في جميعها، أم عصوه فخالفوا أمره فيها؟ ".

قال ابن كثير:" هذا تنبيه من الله، ﷻ، على اقتراب الساعة ودنوها".

عن ابن جريج قوله: " {اقترب للناس حسابهم}، قال: ما يوعدون".

قال الزمخشري:" المراد اقتراب الساعة. وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك. ونحوه {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} [الأنبياء: ٩٧] ".

وفي قوله تعالى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ} [الأنبياء: ١]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم الساعة، فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم، لقوله ﷺ " بعثت أنا والساعة كهاتين " وقرن بين إصبعيه، السبابة والتي تليها.

الثاني: أن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات، قامت قيامته، ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض، لا يدري متى يفجأه الموت، صباحا أو مساء، فهذه حالة الناس كلهم، إلا من أدركته العناية الربانية، فاستعد للموت وما بعده.

=

=

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف وصف بالاقتراب وقد عدت دون هذا القول أكثر من خمسمائة عام؟

قلت: هو مقترب عند الله والدليل عليه قوله ﷻ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ولأن كل آت- وإن طالت أوقات استقباله وترقبه- قريب، إنما البعيد هو الذي وجد وانقرض، ولأن ما بقي في الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها، بدليل انبعاث خاتم النبيين الموعود مبعثه في آخر الزمان. وقال عليه السلام: «بعثت في نسم الساعة»، وفي خطبة بعض المتقدمين: ولت الدنيا حذاء، ولم تبق إلا صبابة كصبابة الإناء. وإذا كانت بقية الشيء وإن كثرت في نفسها قليلة بالإضافة إلى معظمه، كانت خليقة بأن توصف بالقلة وقصر الذرع".

قوله تعالى: {وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء: ١]، أي:" ومع ذلك فالكفار يعيشون لاهين عن هذه الحقيقة، معرضين عن هذا الإنذار".

قال يحيى بن سلام:" يعني: المشركين في غفلة من الآخرة معرضون عن القرآن".

قال ابن كثير:" أي: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها".

قال الطبري:" يقول: وهم في الدنيا عما الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة، وعن دنو محاسبته إياهم منهم، واقترابه لهم في سهو وغفلة، وقد أعرضوا عن ذلك، فتركوا الفكر فيه، والاستعداد له، والتأهب، جهلا منهم بما هم لاقوه عند ذلك من عظيم البلاء، وشديد الأهوال".

روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانئ أبي نُوَاس الشاعر أنه قال: "أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول:

النَّاس في غَفَلاتِهِمْ... وَرَحا المِنيَّة تَطْحَنُ

فقيل له: من أين أخذ هذا؟ قال: من قوله تعالى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي

=

=
غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ} ".

و الغفلة: قيل: "متابعة النفس على ما تشتهيه.

وقيل: إبطال الوقت بالبطالة.

وقيل الغفلة عن الشيء: هي أن لا يخطر ذلك بباله.

وقيل: غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكره له، وقد استعمل فيمن تركه إهمالًا وإعراضًا كما قال تعالى: {وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ}. وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة.

الفرق بين الغفلة والنسيان:

- الغفلة: ترك باختيار الغافل.

- أما النسيان: فهو ترك بغير اختيار الإنسان.

- أما الذكر: فهو التخلص من الغفلة والنسيان؛ ولهذا قال الله تعالى: {وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ}، ولم يقل ولا تكن من الناسين؛ لأن النسيان لا يدخل تحت التكليف فلا ينهى عنه؛ لقول النبي ﷺ: ((إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه".

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الله تجاوز لي عن أمتي: الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تجاوز لأمتي عما توسوسُ به صدورها، ما لم تعمل به أو تتكلم به، وما استكرهوا عليه" ".

وهذا تعجب من حالة الناس، وأنه لا ينجع فيهم تذكير، ولا يرعون إلى نذير، وأنهم قد قرب حسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة، والحال أنهم في غفلة معرضون، أي: غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به، كأنهم للدنيا خلقوا، وللتمتع بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير
=

=

والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم.

وقوله-سبحانه-: اقْتَرَبَ من القرب الذي هو ضد البعد.

وفي معنى قوله: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ} قولان: أحدهما أن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم الساعة، فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم، لقوله ﷺ " بعثت أنا والساعة كهاتين " وقرن بين إصبعيه، السبابة والتي تليها.

والقول الثاني: أن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات، قامت قيامته، ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض، لا يدري متى يفجأه الموت، صباحا أو مساء، فهذه حالة الناس كلهم، إلا من أدركته العناية الربانية، فاستعد للموت وما بعده.

والمعنى: قرب الزمن الذي يحاسب فيه الناس على أعمالهم في الدنيا، والحال أن الكافرين منهم في غفلة تامة عن هذا الحساب، وفي إعراض مستمر عن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح.

قال ابن كثير: هذا تنبيه من الله- ﷻ على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أى لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها.

قال تعالى: أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ... وقال: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ا.هـ

قال الرازي: المسألة الثانية: لقائل أن يقول كيف وصف بالاقتراب، وقد عبر بعد هذا القول قريب من ستمائة عام والجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مقترب عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى: ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون [الحج: ٤٧].

=

=

وثانيها: أن كل آت قريب وإن طالت أوقات ترقبه، وإنما البعيد هو الذي انقرض قال الشاعر:

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ... ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس.

وثالثها: أن المعاملة إذا كانت مؤجلة إلى سنة ثم انقضى منها شهر، فإنه لا يقال اقترب الأجل أما إذا كان الماضي أكثر من الباقي فإنه يقال: اقترب الأجل، فعلى هذا الوجه قال العلماء: إن فيه دلالة على قرب القيامة، ولهذا الوجه قال عليه السلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وهذا الوجه قيل إنه عليه السلام ختم به النبوة، كل ذلك لأجل أن الباقي من مدة التكليف أقل من الماضي.

المسألة الثالثة: إنما ذكر تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكون أقرب إلى تلافي الذنوب والتحرر عنها خوفا من ذلك والله أعلم.

المسألة الرابعة: إنما لم يعين الوقت لأجل أن كتمانه أصلح، كما أن كتمان وقت الموت أصلح.

المسألة الخامسة: الفائدة في تسمية يوم القيامة بيوم الحساب أن الحساب هو الكاشف عن حال المرء فالخوف من ذكره أعظم ا.هـ

وقال تعالى: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ.. بلفظ العموم، مع أن ما بعده من ألفاظ الغفلة والإعراض يشعر بأن المراد بهم الكافرون، للتنبيه على أن الحساب سيشمل الجميع، إلا أنه بالنسبة للكافرين سيكون حسابا عسيرا.

قال الزمخشري: وصفهم بالغفلة مع الإعراض، على معنى: أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم، مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء للمحسن والمسيء. وإذا قرعت لهم العصا، ونبهوا عن سنة الغفلة، وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر، أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا. ا.هـ.

=

=

وفي التعبير عن اقتراب يوم القيامة باقتراب الحساب، زيادة في الترهيب والتخويف، وفي الحض على الاستعداد لهذا اليوم، لأنه يوم يحاسب فيه الناس على أعمالهم في الدنيا حسابا دقيقا، ولن تملك فيه نفس لنفس شيئا، وإنما يجازى فيه كل إنسان بحسب عمله.

وقوله-سبحانه-: (ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) بيان لمواقف هؤلاء الغافلين اللاهين ممن يذكرهم بأهوال ذلك اليوم.

قوله تعالى: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ } [الأنبياء: ٢]

قال الطبري:" ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس، ويذكرهم به ويعظهم إلا استمعوه، وهم يلعبون لاهية قلوبهم".

قال قتادة:" يقول: ما ينزل عليهم من شيء من القرآن إلا استمعوه وهم يلعبون".

عن السدي:" {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ}، يعني: القرآ، ".

قال ابن كثير:" أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ} أي: جديد إنزاله {إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} كما قال ابن عباس: ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حَرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرءونه محضًا لم يشب. ورواه البخاري بنحوه ".

والمراد بالذكر: ما ينزل من آيات القرآن على النبي ﷺ.

والمراد بالمحدث: الحديث العهد بالنزول على النبي ﷺ وهو صفة لذكر.

أى: أن هؤلاء الغافلين المعرضين عن الاستعداد ليوم الحساب، لا يصل إلى أسماعهم شيء من القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى على قلب نبيه ﷺ آية فآية، أو سورة بعد سورة في أوقات متقاربة، إلا استمعوا إلى هذا القرآن المحدث

=

=

تنزيله على الرسول ﷺ وهم يلعبون، دون أن يحرك منهم عاطفة نحو الإيمان به، فهم لانطماس بصيرتهم، وقسوة قلوبهم، وجحود نفوسهم للحق، لا يتعظون ولا يعتبرون.

وقوله: (ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ..) يشعر بأن ما نزل من قرآن قد وصل إليهم دون أن يتعبوا أنفسهم في الحصول عليه، بل أتاهم وهم في أماكنهم بدون سعى إليه.

وقوله ذِكْرٍ فاعل ومِنْ مزيدة للتأكيد.

وقوله مِنْ رَبِّهِمْ متعلق بمحذوف صفة لذكر، ومِنْ لابتداء الغاية أى:

ما يأتيهم من ذكر كائن من ربهم وخالقهم ورازقهم، في حال من الأحوال، إلا استمعوه وهم هازلون مستهترون.

قوله تعالى: {لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ} [الأنبياء: ٣]، أي:" ساهيةً قلوبهم عن كلام الله، غافلة عن تدبر معناه".

قال مقاتل:" يعني: غافلة قلوبهم عنه".

قال الزجاج:" معناه: استمعوه لاعبين".

قال الطبري:" يقول: ما يستمع هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم هذا القرآن إلا وهم يلعبون غافلة عنه قلوبهم، لا يتدبرون حكمه ولا يتفكرون فيما أودعه الله من الحجج عليهم".

عن قتادة، قوله:" {لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ}، يقول: غافلة قلوبهم".

قال ابن عباس: "أي: عما يراد بهم ".

وقال السدي: "عما جاء به محمد -ﷺ-".

قال السمعاني:" {لاهية قلوبهم} أي: غافلة، وقيل: مشتغلة بالباطل عن الحق. قال امرؤ القيس:

فمثْلُكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٌ... فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمائِمَ مُحْوِلِ

=

=

أي: شغلتها".

قولـه تعـالى: {وَأَسَـرُّوا النَّجْـوَى الَّـذِينَ ظَلَمُـوا} [الأنبيـاء: ٣]، أي:" تنـاجى المشركون فيما بينهم سرا".

قال الطبري:" يقول: وأظهروا المناجاة بينهم".

قال مقاتل:" فهو أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي معيط، قالوا سرا فيما بينهم: هل هذا.. ".

قال السعدي:" أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية، وأبدانهم لاعبة، قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل، والأقوال الردية، مع أن الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة، تقبل قلوبهم على أمر الله ونهيه، وتستمعه استماعا، تفقه المراد منه، وتسعى جوارحهم، في عبادة ربهم، التي خلقوا لأجلها، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال، فبذلك يتم لهم أمرهم، وتستقيم أحوالهم، وتزكوا أعمالهم".

قال قتادة:"يقول: أسروا الذين ظلموا النجوى".

قال ابن كثير:" أي: قائلين فيما بينهم خفْيَةً ".

قوله تعالى: {هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} [الأنبياء: ٣]، أي:" قالوا فيما بينهم خفيةً هل محمد الذي يدّعى الرسالة إلا شخص مثلكم".

قال مقاتل:" يعنون محمدا- ﷺ- إلا بشر مثلكم لا يفضلكم بشيء فتتبعونه".

قال الزجاج:" بين ما أسروه، والمعنى قالوا سرا هل هذا إلا بشر مثلكم، يعنون النبي ﷺ ".

قال الطبري:" فقالوا: هل هذا الذي يزعم أنه رسول من الله أرسله إليكم، إلا بشر مثلكم: يقولون: هل هو إلا إنسان مثلكم في صوركم وخلقكم؟ يعنون بذلك محمدا ﷺ، وقال الذين ظلموا فوصفهم بالظلم بفعلهم وقيلهم الذي أخبر به

=

=

عنهم في هذه الآيات إنهم يفعلون ويقولون من الإعراض عن ذكر الله، والتكذيب برسوله".

قال ابن كثير:" يعنونَ رسول الله ﷺ، يستبعدون كونه نبيًا؛ لأنه بَشَرٌ مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم ".

قال السدي:" اسروا نجواهم بينهم هل هذا إلا بشر مثلكم يعنون محمدا ﷺ ".

قوله تعالى: {أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} [الأنبياء: ٣]، أي:" أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ ".

قال مقاتل:" يعني القرآن {وأنتم تبصرون} أنه سحر".

قال الطبري:" يقول: وأظهروا هذا القول بينهم، وهي النجوى التي أسرّوها بينهم، فقال بعضهم لبعض: أتقبلون السحر وتصدّقون به وأنتم تعلمون أنه سحر؟ يعنون بذلك القرآن".

قال ابن زيد:" قال أهل الكفر لنبيهم لما جاء به من عند الله، زعموا أنه ساحر، وأن ما جاء به سحر، قالوا: أتأتون السحر وأنتم تبصرون؟ ".

قال ابن كثير:" أي: أفتتبعونه فتكونون كمن أتى السحر وهو يعلم أنه سحر ".

عن السدي:" {أفتأتون السحر}، يقولون: إن متابعة محمد ﷺ متابعة السحر".

قال السعدي:" هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقا بما شاهدوا من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد، والله تعالى قد أحاط علما بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه".

وقوله: (لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) حال أخرى من أحوالهم الغريبة التي تدل على نهاية طغيانهم وفجورهم، لأنهم بجانب استماعهم إلى ما ينزل من القرآن بلعب وغفلة، تستقبله قلوبهم- التي هي محل التدبر والتفكر- بلهو واستخفاف.

ثم حكى-سبحانه- لونا من ألوان مكرهم وخبثهم فقال: (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ

=

=

ظَلَمُوا) والنجوى: المسارة بالحديث، وإخفاؤه عن الناس.

أى: بعد أن استمعوا إلى القرآن بإعراض ولهو واستهتار، اختلى بعضهم ببعض، وبالغوا في إخفاء ما يضمرونه من سوء نحو النبي ﷺ ونحو ما جاء به من عند الله تعالى، وحاولوا أن يظهروا ذلك فيما بينهم فحسب، مبالغة منهم في المكر السيئ الذي حاق بهم.

وقوله-سبحانه-: (هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ. أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) بيان لما قالوه في تناجيهم من سوء. والاستفهام للنفي والإنكار.

أى: أنهم قالوا في تناجيهم: ما هذا الذي يدعى النبوة، وهو محمد ﷺ إلا بشر مثلكم، ولا يمكن أن يكون رسولا، وما جاءنا به إنما هو السحر بعينه، فكيف تذهبون إليه، وتقبلون منه ما يدعيه، والحال أنكم تعاينون بأبصاركم سحره.

وما حملهم على هذا القول الباطل إلا توهمهم أن الرسول لا يكون من البشر، وأن كل ما يظهر على يد مدعى النبوة من البشر من خوارق، إنما هو من قبيل السحر.

قال الآلوسى: وأرادوا بقولهم: «ما هذا إلا بشر مثلكم» أى: من جنسكم، وما أتى به سحر، تعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر. قالوا ذلك بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملكا، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر. وعنوا بالسحر. هنا القرآن الكريم، ففي ذلك إنكار لحقيته على أبلغ وجه، قاتلهم الله تعالى: أنّى يؤفكون. وإنما أسروا ذلك، لأنه كان على طريق توثيق العهد، وترتيب مبادئ الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد في هدم أمر النبوة. وإطفاء نور الدين ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون. ا.هـ

هذا، ودعوى المشركين أن الرسول لا يكون بشرا، قد حكاها القرآن في كثير من

=

=

آياته، ومن ذلك قوله تعالى: وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى، إِلَّا أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا .

وقد رد الله تعالى عليهم هذه الدعوى الكاذبة في كثير من آيات كتابه- أيضا، ومن ذلك قوله ﷻ: وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى.. .

ثم حكى -سبحانه- بعد ذلك ما لقنه لنبيه ﷺ من الرد عليهم، فقال: (قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأنبياء: ٤]، أي:" قال محمد ﷺ إِنَّ ربي لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض".

قال ابن كثير:" أي: الذي يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض".

قال الزجاج:" أعلمهم الله ﷻ أنه يعلم القول في السماء والأرض، وأطلع النبي ﷺ على قيلهم، وسرهم".

عن السدي:" قوله: {قال ربي يعلم القول}، قال: الغيب".

وقرئت: «قل ربي يعلم القول».

قوله تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنبياء: ٤]، أي:" السميع بأقوالكم، العليم بأحوالكم".

قال ابن كثير:" أي: السميع لأقوالكم، {الْعَلِيم} بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعيد".

قال السعدي:" {وهو السميع} لسائر الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات {العليم} بما في الضمائر، وأكنته السرائر".

قال محمد بن إسحاق:" أي: سميع ما تقولون"، عليم بما يخفون".

=

=

قال سعيد بن جبير:" {عليم} يعني: عالما بها".

أي: قال الرسول ﷺ في الرد على ما تناجوا به سرا: ربي الذي أرسلني لإخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. يعلم ما تقولونه سواء كان سرا أم جهرا، وسواء أكان القائل موجودا في السماء أم في الأرض، وهو وحده السميع لجميع ما يسمع، العليم بكل شيء في هذا الكون.

وما دام الأمر كذلك فأنا سأمضى في طريقي مبلغا رسالته-سبحانه-، أما أنتم فسترون سوء عاقبتكم إذا ما سرتم في طريق الكفر والعناد.

وفي قراءة سبعية بلفظ قل على الأمر للنبي ﷺ.

وقدم السميع على العليم لأنه لا بد من سماع الكلام أولا، ثم حصول العلم بمعناه.

وقوله تعالى: بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ، بَلِ افْتَراهُ، بَلْ هُوَ شاعِرٌ إضراب من جهته تعالى، وانتقال من حكاية قولهم السابق هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.. إلى حكاية أقوال أخرى باطلة قالوها في شأنه ﷺ وفي شأن ما جاء به.

قوله تعالى: {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ} [الأنبياء: ٥]، أي:" بل جحد الكفار القرآن فمِن قائل: إنه أخلاط أحلام لا حقيقة لها".

قال الزجاج:" أي: قالوا: الذي يأتي به النبي ﷺ أضغاث أحلام. وجاء في التفسير أهاويل أحلام، والأضغاث في اللغة الأشياء المختلطة".

قال الطبري: يقول:" ما صدّقوا بحكمة هذا القرآن، ولا أنه من عند الله، ولا أقرّوا بأنه وحي أوْحَى الله إلى محمد ﷺ، بل قال بعضهم: هو أهاويل رؤيا رآها في النوم".

قال ابن كثير:" هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم، واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحرًا، وتارة يجعلونه

=

=

شعرًا، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفتري ".

عن ابن عباس، قوله:" {أَضْغَاثُ أَحْلامٍ}، قال: مشتبهة".

عن مجاهد، قوله:" {أَضْغَاثُ أَحْلامٍ}، قال: أهاويلها".

قال قتادة:" أي: فعل حالم، إنما هي رؤيا رآها".

عن السدي:" قوله: {بل قالوا أضغاث أحلام}، قال: أباطيل أحلام".

قوله تعالى: {بَلِ افْتَرَاهُ} [الأنبياء: ٥]، أي:" ومن قائل: إنه اختلاق وكذب وليس وحيًا".

قال الطبري:" وقال بعضهم: هو فرية واختلاق افتراه واختلقه من قبل نفسه".

قوله تعالى: {بَلْ هُوَ شَاعِرٌ} [الأنبياء: ٥]، أي:" ومن قائل: إن محمدًا شاعر، وهذا الذي جاء به شعر".

قال الطبري:" وقال بعضهم: بل محمد شاعر، وهذا الذي جاءكم به شعر".

قال الزجاج:" أي: أخذوا ينقضون أقوالهم بعضها ببعض، فيقولون مرة: هذه أحلام. ومرة هذا شعر ومرة مفترى".

قال ابن كثير:" هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم، واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحرًا، وتارة يجعلونه شعرًا، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفتري، كما قال: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا} [الإسراء: ٤٨، والفرقان: ٩] ".

قال الزمخشري:" أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنه قول شاعر، وهكذا الباطل لجلج «٢»، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد، ويجوز أن يكون تنزيلا من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد: وأن قولهم الثاني أفسد من الأول، والثالث أفسد من

=

=

الثاني، وكذلك الرابع من الثالث".

قوله تعالى: {فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} [الأنبياء: ٥]، أي:" وإن أراد منا أن نصدِّقه فليأتنا محمدٌ بمعجزةٍ خارقة تدل على صدقه كما أُرسل موسى بالعصا وصالح بالناقة".

قال قتادة:" يقول: كما جاء عيسى بالبيِّنات وموسى بالبينات، والرسل".

قال الطبري:" يقول: قالوا فليجئنا محمد إن كان صادقا في قوله، إن الله بعثه رسولا إلينا وإن هذا الذي يتلوه علينا وحي من الله أوحاه إلينا، بحجة ودلالة على حقيقة ما يقول ويدّعي، كما جاءت به الرسل الأوّلون من قَبْله من إحياء المَوتى، وإبراء الأكمه والأبرص وكناقة صالح، وما أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسل".

قال ابن كثير:" يعنون ناقة صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا} الآية الإسراء: ٥٩]".

قال الزجاج:" فاقترحوا الآيات التي لا يقع معها إمهال إذا كذب بها".

أى: أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بما قالوه قبل ذلك في شأن الرسول ﷺ من أنه بشر وما جاء به سحر، بل أضافوا إلى ذلك أن القرآن أضغاث أحلام. أى: أخلاط كأخلاط الأحلام، وأنه أباطيل لا حقيقة لها.

والأضغاث: جمع ضغث. وأصله ما جمع من أنواع شتى من النبات ثم حزم في حزمة واحدة.

والأحلام: جمع حلم- بضم الحاء وسكون اللام- وهو ما يراه النائم مما ليس بحسن.

وقد استعير هذا التركيب لما يراه النائم من وساوس وأحلام خلال نومه بَلِ افْتَراهُ

=

=

أى: اختلق هذا القرآن من عند نفسه.

بَلْ هُوَ شاعِرٌ أى: أن الرسول ﷺ شاعر- في زعمهم- وما أتى به هو نوع من الشعر التخييلى الذي لا حقيقة له.

ثم أضافوا إلى هذا التخبط واضطراب قولهم: فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ.

ومرادهم بالآية هنا: آية كونية، والجملة جواب لشرط محذوف يفصح عنه السياق، والتقدير: إن لم يكن كما قلنا في شأنه من أنه شاعر بل كان رسولا حقا فليأتنا بخارق يدل على صدقه كناقة صالح، وعصا موسى، وإحياء عيسى للأموات.. فإن المرسلين السابقين فعلوا ذلك.

وكأنهم- لانطماس بصائرهم وشدة جهالاتهم- لا يعتبرون القرآن الذي هو آية الآيات- لا يعتبرونه آية ومعجزة تدل على صدقه ﷺ.

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد صورت تخبط هؤلاء المشركين تصويرا حكيما، شأنهم في ذلك شأن الحائر المضطرب الذي لا يستطيع الثبات على قرار، بل هو لتمحله وتعلله ينتقل من دعوى باطلة إلى أخرى أشد منها بطلانا.

وقد نفى القرآن عن الرسول ﷺ كل هذه الدعاوى الباطلة، ومن ذلك قوله تعالى: وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ .

وقوله-سبحانه- وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ .

ثم بين-سبحانه- جانبا من مظاهر فضله ورحمته بهؤلاء الذين أرسل إليهم رسوله محمدا ﷺ فقال: ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ.

قوله تعالى: {مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ } [الأنبياء: ٦]

أي: ما آمنت قبل كفار «مكة» من قرية طلب أهلها المعجزات من رسولهم

=

=

وتحققت، بل كذَّبوا، فأهلكناهم، أفيؤمن كفار «مكة» إذا تحققت المعجزات التي طلبوها؟ كلا إنهم لا يؤمنون.

قال يحيى:" أي: لا يؤمنون لو جاءتهم آية".

قال الزجاج:" أي: ما آمن أهل قرية أتتهم هذه الآيات حتى أوجب الله استئصالهم وإهلاكهم بالعذاب، والله جعل موعد هذه الأمة القيامة".

قال الطبري:" ما آمن من قبل هؤلاء المكذّبين محمدا من مشركي قومه الذين قالوا: فليأتنا محمد بآية كما جاءت به الرسل قبله من أهل قرية عذّبناهم بالهلاك في الدنيا، إذ جاءهم رسولنا إليهم بآية معجزة، أفهؤلاء المكذبون محمدا السائلوه الآية يؤمنون إن جاءتهم آية ولم تؤمن قبلهمْ أسلافهم من الأمم الخالية التي أهلكناها برسلها مع مجيئها".

قال ابن كثير:" أي: ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يَدَيْ نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا بل {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} [يونس: ٩٦، ٩٧].

هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات، على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى، وأبهر وأقطع وأقهر، مما شوهد مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين".

قال الزمخشري:" أفهم يؤمنون فيه أنهم أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا أو خالفوا، فأهلكهم الله. فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث".

قال السعدي:" أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له، فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة. فالأولون ما آمنوا بها، أفيؤمن هؤلاء

=

=

بها؟ ما الذي فضلهم على أولئك، وما الخير الذي فيهم، يقتضي الإيمان عند وجودها؟ وهذا الاستفهام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم أبدا".

عن مجاهد:" {أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ}، يصدّقون بذلك".

قال قتادة:" أي: الرسل كانوا إذا جاءوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم يناظروا".

أى: أن هؤلاء الجاهلين من قومك- أيها الرسول الكريم- قد طلبوا منك آية كونية كالتي جاء بها موسى وعيسى وصالح.. وهذه الخوارق عند ما جاء بها هؤلاء الرسل ولم يؤمن بها أقوامهم أهلكنا هؤلاء الأقوام، وفقا لسنتنا التي لا تتخلف في إهلاك من يكذبون بآياتنا، ولو أنا أعطيناك هذه الخوارق ولم يؤمن بها قومك لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين، لذا اقتضت حكمتنا ورحمتنا أن نمنع عنهم ما طلبوه، لأنهم بشر كالسابقين. ومادام السابقون لم يؤمنوا بهذه الخوارق فهؤلاء أيضا لن يؤمنوا بها.

فالاستفهام في قوله: أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ للإنكار. أى: أن هؤلاء الكافرين من أمتك- أيها الرسول الكريم- لن يؤمنوا بهذه الخوارق التي طلبوها متى جاءتهم لأنهم لا يقلون عتوا وعنادا عن السابقين الذين لم يؤمنوا بها فأهلكهم الله.

وصدق الله إذ يقول: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ .

(منبهة): قوله تعالى (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ) احتجت المعتزلة على حدوث القرآن بهذه الآية فقالوا: القرآن ذكر، والذكر محدث؛ فالقرآن محدث.

والجواب عن هذه الشبهة: يقال لهم: إن تمسككم بهذه الآية على أن القرآن مخلوق باطل. وذلك أن دلالة الآية على نقيض قولكم أقوى منها على قولكم كما سترى.

قال الإمام أحمد في الرد على الجهمية (ص ١٢٥): فوجدنا دلالة من قول الله (ما

=

=

يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) إلى النبي ﷺ لإن النبي ﷺ كان لا يعلم فعلمه الله فلما علمه الله كان ذلك محدثا إلى النبي ﷺ ا. هـ

وقال أبو عبيد القاسم إمام العربية كما في "خلق أفعال العباد" (ص ٣٧): "{محدث} حدث عند النبي -ﷺ- وأصحابه لما علمه الله ما لم يكن يعلم" ا. هـ

وقال ابن قتيبة في "الاختلاف في اللفظ" (ص: ٢٣٤ - ٢٣٥ - عقائد السلف): "المحدث ليس هو في موضع بمعنى: مخلوق، فإن أنكروا ذلك فليقولوا في قول الله: {لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا} [الطلاق: ١] أنه يخلق، وكذلك: {لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا} [طه: ١١٣] أي: يحدث لهم القرآن ذكرا، والمعنى: يجدد عندهم ما لم يكن، وكذلك قوله: {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث} أي: ذكر حدث عندهم لم يكن قبل ذلك" ا. هـ

وقال شيخ الإسلام في مجموع (١٢/ ٥٢١ - ٥٢٢):... وإن احتج بقوله {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث} قيل له هذه الآية حجة عليك فإنه لما قال {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث} علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته وما آكل إلا طعاما حلالا ونحو ذلك ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديدا فإن الله كان ينزل القرآن شيئا بعد شيء فالمنزل أولا هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب كما قال {كالعرجون القديم} وقال: {تالله إنك لفي ضلالك القديم} وقال {وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم} وقال: {أفرأيتم ما كنتم تعبدون} {أنتم وآباؤكم الأقدمون} وكذلك قوله: {جعلناه قرآنا عربيا} لم يقل جعلناه فقط حتى يظن أنه بمعنى خلقناه؛ ولكن قال: {جعلناه قرآنا عربيا} أي صيرناه عربيا لأنه قد كان قادرا على أن ينزله عجميا فلما

=

أنزله عربيا كان قد جعله عربيا دون عجمي. وهذه المسألة من أصول أهل الإيمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم والكلام عليها مبسوط في غير هذا الموضع والله أعلم ا. هـ

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية من سورة الأنبياء (٥/ ٣٢٥): {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث}، أي: جديد إنزاله كما قال ابن عباس (ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضًا لم يشب). رواه البخاري بنحوه.

وقال الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٥٠٥): قال البخاري: باب قول الله – تعالى –: {كُلَّ يَومٍ هُوَ فِي شَأنٍ}، {مَا يَأتِيهِم مِن ذِكرٍ مِن رَّبِهِم مُّحدَثٍ}، وقوله تعالى: {لَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بَعدَ ذَلِكَ أَمرًا}، وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين؛ لقوله تعالى: {لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَمِيعُ البَصِيرُ}.

وقال ابن مسعود عن النبي ﷺ: (إن الله ﷻ يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة).

يريد بهذا بيان أن الله – تعالى – يحدث ما يريد إحداثه، في أي وقت أراد، وأن إحداثه ذلك من أفعاله التي هي أوصاف له، فيحدث الأمر من أمره – تعالى – والكلام، ويطلق عليه أنه حدث، ومحدث؛ لأنه وجد بعد ما قبله، ويسمى كلامه حديثًا، ويطلق عليه أنه حادث، ومحدث بمعنى الجديد الذي تكلم به بعد كتبه السابقة له، ولهذا قال: وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين.

فمن ذلك كلامه، ومخاطبته لمن يريد أن يخاطبه من خلقه، وأمره لمن يأمره، ونهيه، وإجابته لمن يدعوه، وإحياؤه لمن يريد حياته، وإماتته لمن يريد أن يميته، وإذلال من يريد ذله، وإعزاز من يشاء، وهدايته من يشاء، وإضلال من يشاء، وتصرفه في خلقه وملكه كيف يشاء.

=

(قال عبيد بن عمير: {كُلَّ يَومٍ هُوَ فِي شَأنٍ} قال: من شأنه أن يجيب داعيًا، ويعطي سائلًا، أو يفك عانيًا، أو يشفي سقيمًا).

وقال مجاهد: (كل يوم يجيب داعيًا، ويكشف كربًا، ويجيب مضطرًا، ويغفر ذنبًا).

وقال قتادة: (لا يستغني عنه أهل السماوات، والأرض، يحيي حيًا، ويميت ميتًا، ويربي صغيرًا، ويفك أسيرًا، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم، ومنتهى شكواهم).

وقال سويد بن جبلة: (إن ربكم كل يوم في شأن، فيعتق رقابًا، ويعطي رغابًا، ويقحم عقابًا).

وروى ابن جرير، عن عبد الله بن مثيب الأزدي، قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: {كُلَّ يَومٍ هُوَ فِي شَأنٍ}، فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال: (أن يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا ويضع آخرين) وعلقه البخاري جازمًا به، عن أبي الدرداء، موقوفًا)، ورواه ابن ماجة مرفوعًا.

ونقل الحافظ في كلامه على هذه الترجمة قول ابن بطال، وقول الكرماني وغيرهما، وأطال فيما هو بعيد عن مراد البخاري؛ لأنهم يحاولون شرح ما ذكره على ما يتفق مع عقيدة الأشاعرة، مع أنه مباين لها.

قوله: {مَا يَأتِيهِم مِن ذِكرِ مِن رَّبِهِم مُّحدَثٍ} قيل هذه الآية، كقوله تعالى: {اقتَرَبَ لِلنَّاس حِسَابُهُم وَهُم فِي غَفلَةِ مُّعرِضُونَ} أي: دنت القيامة وقربت، والناس عنها غافلون لاهون في دنياهم.

وإذا جاءهم ذكر من الله جديد، قريب العهد بالله، فيه تذكيرهم وأمرهم بالأخذ لما فيه سعادتهم، وفيه عظتهم عن التشاغل بالدنيا ونسيان الآخرة، استمعوه سماع غافل لاه لاعب.

قال ابن كثير: (أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله.

=

=

فقال: {مَا يَأتِيهِم مِن ذِكرٍ مِن رَّبِهِم مُّحدَثٍ} أي: جديد إنزاله).

وقال أبو جعفر ابن جرير - رحمه الله -: (يقول - تعالى ذكره -: ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس، ويذكرهم به، ويعظهم، إلا استمعوه، وهم يلعبون).

وقوله: (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا) لما ذكر الله - جل وعلا - حكمه في المطلقة، وأمره بأن تطلق لعدتها، وأمر بإحصائها، ونهى عن إخراجها من بيت زوجها، ما دامت في العدة، وأنها لا تخرج منه إلا أن تأتي بفاحشة مبينة، وأخبر - تعالى - أن هذا من حدوده التي حدها،، ونهى عن تعديها، وأن من تعداها فقد ظلم نفسه، بعد ذلك قال تعالى: {لاَ تَدري لَعَلَ اللهَ يُحدِث بَعدَ ذَلِكَ أَمرًا}.

يعني: يحدث للزوجين حالًا غير ما كانا عليه وقت الطلاق، بأن تتبدل الكراهية رغبة، والبغض حبًا، وأن يراجع الرجل نفسه فيندم على ما حصل منه، والزوجة كذلك.

قال ابن جرير: {لاَ تَدري لَعَلَ اللهَ يُحدِث بَعدَ ذَلِكَ أَمرًا}: يقول - جل ثناؤه -: لا تدري ما الذي يحدث، لعل الله يحدث بعد طلاقكم إياهن رجعة).

والمقصود الذي أراده المؤلف - رحمه الله - من هاتين الآيتين: أن الله - تعالى - يتكلم بعد أن لم يكن تكلم بذلك الكلام بعينه، ويأمر، وينهى بعد أن لم يكن أمر بذلك المأمور وذلك المنهي عنه بعينه، لمن وجه إليه الأمر والنهي، وهذا هو معنى الحدث الذي أراد بيانه، وهو: الفعل المتجدد الذي يتعلق بمشيئته تعالى، سواء كان كلامًا، أو أمرًا، أو نهيًا، أو إحياء لميت، أو إماتة لحي، أو هداية ضال، أو ضلال غاو، أو تغيرًا لحكم شرعه قبل ذلك، أو أذن به، أو تغيير ما في نفوس بعض خلقه، أو غير ذلك مما يشاؤه ويريده - جل وعلا -، كما تقدم في معنى قوله تعالى: {كُلَّ يَومٍ هُوَ فِي شَأنٍ}.

=

=

وقوله تعالى: {مَا يَأتِيهِم مِن ذِكرٍ مِن رَّبِهِم مُّحدَثٍ} وقوله: {مَا يَأتِيهِم مِن ذِكرٍ مِن رَّبِهِم مُّحدَثٍ إلاَ كَانُوا عَنهُ مَعرِضينَ}، قال شيخ الإسلام: (هذا يدل على أن الذكر منه محدث، ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره، كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته، وما آكل إلا طعاما حلالا، ونحو ذلك.

ويعلم أن المحدث في الآيتين ليس هو المخلوق، الذي يقوله الجهمية.

ولكنه الذي أنزل جديدًا، فإن الله كان ينزل من القرآن شيئًا بعد شيء، فالمنزل أولًا قديم بالنسبة إلى المنزل آخرًا، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب، كمال قال: {كَالعُرجُونِ القَديمِ}، وقال: {تَاللهَ إِنَكَ لَفي ضَلاَلِكَ القَديِمِ}.

ومراد الإمام البخاري - رحمه الله - من هاتين الآيتين الرد على من ينكر أفعال الله - تعالى - من القول والفعل ونحوهما مما يتعلق بمشيئته وإرادته وقدرته، فإن هذا الأصل أنكرته الجهمية، والمعتزلة، ومن تشعب عنهما، ظانين أنه لا يمكن إثبات حدوث العالم وإثبات وجود الخالق له - تعالى - إلا بإثبات حدوث الأجسام، ولا يمكن حدوث الأجسام إلا بإثبات حدوث ما يقوم بها من الصفات والأفعال المتعاقبة، التي يسمونها: الحوادث، فلذلك قالوا: كل من قامت به الحوادث أو كان محلًا لها فهو حادث.

وهذا الذي حدا بهم إلى إنكار صفات الله، وأفعاله القائمة به المتعلقة بمشيئته وقدرته.

وعليهم توجه رد الإمام البخاري - رحمه الله - في هذا الكتاب، كما قال: (باب ما جاء في تخليق السماوات والأرض وغيرهما من الخلائق، وهو فعل الرب، وأمره، فالرب - تعالى - بصفاته وفعله وأمره وكلامه هو الخالق المكون، غير المخلوق، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه، فهو مفعول مكون مخلوق).

=

=

ثم بعد ذلك قال: (باب قول الله - تعالى -: {وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} ولم يقولوا: ماذا خلق ربكم).

ثم ذكر قول عبد الله بن مسعود: (إذا تكلم الله بالوحي) إلى آخره، وذكر حديث عبد الله بن أنيس وفيه: (فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب).

وذكر حديث أبي هريرة: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها) إلى آخره، وحديث أبي سعيد الخدري: (يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار...)، إلى آخر ما ذكره من الأبواب التي من تدبرها، وتأمل ما تحتها من النصوص، تبين له دقه فهمه رحمه الله، وتبين له بطلان مذهب أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة والأشعرية وغيرهم.

والمقصود أن الإمام البخاري - رحمه الله - يرى أن الله - تعالى - يوصف بأنه يحدث ما يشاء من القول، والأمر، والفعل، وهذا ما دل عليه العقل والفطرة وكتب الله، ولهذا قال: (وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين؛ لقوله تعالى: {لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَمِيعُ البَصِيرُ}.

فكما أنه تعالى لا مثل له في ذاته، كذلك في أفعاله، وأوصافه وأحداثه التي يحدثها مما يتعلق بمشيئته، وهي أفعاله، وهذا هو الحق الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة. انتهى.

والخلاصة: أن نوع الكلام أزلي يعني: أن الله لم يزل متكلمًا، وآحاده: التي يكلم بها رسله وعباده، وكذلك يكلم خلقه يوم القيامة، ويكلم أهل الجنة، ويكلم الملائكة فكل كلام كلم به نبيًا أو ملكًا أو تكلم به فأنزله فهو آحاد من آحاد الكلام، يعني: بعض الكلام، ومعنى ذلك أنه يتجدد، وليس معنى ذلك أنه تكلم -

=

=

كما قال الكلابية- في الأزل ثم أصبح لا يتكلم! تعالى الله وتقدس؛ ولذلك قال أهل السنة: كلام الله قديم النوع متجدد الآحاد، وبعضهم تحاشى أن يقول: حادث، لئلا يفهم الحدوث وهو الخلق، مع أن هذا جاء ذكره في القرآن: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأنبياء:٢]، فيقول جل وعلا: {لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [الطلاق:١]، ويقول الرسول ﷺ: (إن الله يحدث في أمره ما يشاء، وإن مما أحدث ألا تتكلموا في الصلاة).

(تنبيه) ذكر بعض ما حرفت المعتزلة من معاني التنزيل لإبطال صفة الكلام.

أولًا: تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام:

قالوا: إن الله خلق كلامًا في الشجرة التي أتاها موسى فسمعه موسى.

واستدلوا بقوله تعالى: نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ [القصص: ٣٠] على أن ابتداء الكلام كان من الشجرة.

فحرفوا التنزيل، ليثبتوا التعطيل، بتقرير أصلهم الفاسد، ونفي صفة الله تعالى.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن الكلام هو ما قام بالمتكلم لا ما قام بغيره، وقيام الصفة إنما يكون بالموصوف بها لا بغيره، والصفة إذا قامت بمحل كانت صفة له لا صفة لغيره - كما فصلت القول فيه في الباب الأول - فما خلقه الله تعالى من الصفات في الأشياء ليس من ذلك شيء صفة له، إنما هي صفات لمخلوقاته، فهو تعالى قد أنطق سائر الأشياء نطقًا معتادًا أو غير معتاد، فأنطق الإنسان والجان وغير ذلك من خلقه نطقًا معتادًا، وأنطق السماوات والأرض وما بينهما نطقًا غير معتاد، كما قال تعالى: وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ [الإسراء: ٤٤] وقال في غير موضع يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ [التغابن: ١] وانطق الطير لسليمان، وأنطق النملة، وأسمع نبيه ﷺ تسبيح الحصى، وفي الآخرة

=

=

تنطق الجنة والنار، وتحدث الأرض بأخبارها، وتشهد الجلود على أهلها حين تبلى السرائر: وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ [فصلت: ٢١] فكل هذا الإنطاق من خلق الله في الأشياء، فنطقها صفات لها، ولا يقول أحد: عن نطق الأشياء صفة لله، إلا حلولي مارق يعتقد أن صفة الله تحل في المخلوق، أو اتحادي يرى اتحاد المخلوق في الخالق، فنطق المخلوق وصوته وكلامه هو بعينه صفة الرب تعالى، كما قال قائلهم:

وكل كلام في الوجود كلامه... سواء علينا نثره ونظامه

وهذا غاية الكفر والإلحاد، إذ مقتضاه أن ما ينطق به المخلوق من الخير والشر وفحش القول، بل وحتى أصوات البهائم وسائر الحيوانات، كل ذلك صفة للرب تعالى وتقدس وتنزه عن صفات خلقه.

فلو أخلصت المعتزلة النية لله وسألوه التوفيق لاهتدوا إلى فحش ما أقدموا عليه، ولكنهم حرموا ذلك فهم عن الصراط لناكبون، فحسبوا أن الصوت الذي سمعه موسى صوت مخلوق في الشجرة، كنحو صفير ورقها إذا عصفت الريح، وما عقلوا أن معنى هذا أن الشجرة هي القائلة لموسى: إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي [طه: ١٤] وهي القائلة: يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [القصص: ٣٠] ولا فرق حينئذ بين دعوى الشجرة ودعوى فرعون، فكل ادعى الربوبية، فصدق موسى الشجرة وكذب فرعون.

والثاني: أن الله تعالى حين أخبر عن تكليمه لموسى قال: وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء: ١٩٤] فأكده بالمصدر تَكْلِيمًا وقد قال جماعة من أهل التحقيق في العربية: "إن التوكيد بالمصدر ينفي المجاز". والثالث: قال ابن قتيبة رحمه الله: "خرجوا بهذا التأويل من اللغة ومن المعقول، لأن معنى "تكلم الله" أتى بالكلام من عنده، و "ترحم الله" أتى بالرحمة من عنده، كما يقال: "تخشع فلان" أتى

=

=

بالخشوع من نفسه، و "تشجع" أتى بالشجاعة من نفسه، و "تبتل" أتى بالتبتل من نفسه، و "تحلم" أتى بالحلم من نفسه، ولو كان المراد: أوجد كلامًا، لم يجز أن يقال: "تكلم" وكان الواجب أن يقال: "أكلم" كما يقال: "أقبح الرجل" أتى بالقباحة، و "أطاب" أتى بالطيب، و "أخس" أتى بالخساسة، وأن يقال: "أكلم الله موسى إكلامًا" كما يقال: "أقبر الله الرجل" أي جعل له قبرًا، أو "أرعى الله الماشية" جعلها ترعى، في أشباه لهذا كثيرة لا تخفى على أهل اللغة".

والرابع: أن تكليم الله تعالى لموسى كان خصيصة فضل بها على غيره ممن لم يؤت مثل ما أوتي من الرسل، وقد قال تعالى: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء [الشورى: ٥١] فإن كان التكليم لموسى حصل بواسطة الشجرة لم يكن له على من سواه ممن يوحى إليه بواسطة الرسول فضل، ولم تكن منزلة التكليم من وراء حجاب حاصلة لأحد من رسل الله، وهذا تكذيب للقرآن، وإبطال لواضح البرهان، فجازى الله تعالى الجهمية المعتزلة على ما أرادوا به إفساد دين المسلمين بما هم أهله.

والخامس: أن قوله مِنَ الشَّجَرَةِ لابتداء الغاية نحو ذلك: "رأيت الهلال من داري" و "سمعت كلام زيد من البيت" فليس الهلال في الدار، ولا البيت هو المتكلم.

ثانيًا: إضافة الكلام إلى الله سبحانه وتعالى في مثل قوله: "حتى يسمع كلام الله": قالوا: هي إضافة خلق وتشريف لا إضافة صفة، كـ "بيت الله" و "ناقة الله" و "رسول الله".

وهذا نوع آخر من تمويههم وتلبيسهم ليفروا من الحق وينفروا الخلق.

والرد عليهم في هذا التشويش يطول شرحه، ولكن أذكر ها هنا قاعدة ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله في هذه المسألة تغني اللبيب عن التفصيل. قال رحمه الله: "كل ما يضاف إلى الله إن كان عينًا قائمةً بنفسها فهو ملك له، وإن كان صفة قائمة

=

=

بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله".

ومثل لما كان عينًا قائمةً بنفسها بقوله تعالى: نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا [الشمس: ١٣] وقوله: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا [مريم: ١٧] قال: "وهو جبريل".

فهذا خلق له وملك له، ومثله: "رسول الله" و"عباد الله" و "قبلة الله" ونحو ذلك.

ومثل لما كان صفة قائمة بغيرها بـ "علم الله، كلام الله، قدرة الله، حياة الله، أمر الله".

فهذه إذا أضيفت إلى الله تعالى كانت صفات له. قال: "لكن قد يعبر بلفظ المصدر عن المفعول به، فيسمى المعلوم علمًا، والمقدور قدرة، والمأمور به أمرًا، والمخلوق بالكلمة كلمة، فيكون ذلك مخلوقًا، كقوله: أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ [النحل: ١] وقوله: إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ [آل عمران: ٤٥] وقوله: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ [النساء: ١٧١] ".

قلت: وإنما يصار إلى هذا المعنى بالقرائن، أما بمجرد إضافة الصفة إلى الله فإنها حينئذ صفة له.

* ذكر شبه المعتزلة في القول بخلق القرآن ونقضها.

الشبهة الأولى:

القرآن شيء، وقد قال الله تعالى: اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ [الرعد: ١٦] ولفظ "كل" للعموم، القرآن داخل في عموم ما خلق الله من الأشياء.

جوابها: لا أحسب أن فساد هذا القول خاف على من قال به، ولكنهم أرادوا إدخال الريب والشك على من لا يفهم، وذلك أن صيغة "كل" وما يشبهها من صيغ العموم، عموم كل منها إنما هو بحسبه، قال تعالى في ريح عاد: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا [الأحقاف: ٢٥] فالتدمير إنما كان بأمره تعالى، وأمره تعالى كلامه، قال:

=

=

فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ [الأحقاف: ٢٥] فالتدمير إنما كان بأمره تعالى، وأمره تعالى كلامه، قال: فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ [الأحقاف: ٢٥] فأبان أن مساكنهم لم تدمر، ومقتضى ذلك أنها لم تدمر الأرض ولا الجبال ولا غير ذلك من سوى أهلها، فدل ذلك على أن عموم "كل" إنما كان في حق الكفار المستحقين للوعيد، لا كل شيء حتى من سواهم من الجماد وغيره، وهذا معقول ظاهر.

وقال تعالى في حق بلقيس: وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ [النمل: ٢٣] ومعلوم أنها لم تؤت ملك سليمان، ولا غير أرضها من الأرض.

ولقد أثبت تعالى أن له نفسًا، قال: تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ [المائدة: ١١٦] وقال: وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي [طه: ٤١] وقال تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [الأنبياء: ٣٥] فهل يدخل الجهمي نفس الله تعالى في هذا العموم؟ إن الأنفس التي تموت إنما هي الأنفس المخلوقة، أما الخالق تعالى بصفته فهو حي لا يموت.

فدلت هذه النصوص على أن عموم "كل" إنما هو بحسب الموضع الذي وردت فيه.

فكذلك قوله تعالى: اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ [الزمر: ٦٢].

فالله تعالى شيء، وصفته شيء، قال تعالى: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللهِ [الأنعام: ١٩] والمخلوق شيء، والله هو الخالق، وليس بمخلوق، وصفاته تابعة لذاته، فليست بمخلوقة، والقرآن كلامه، وكلامه صفته، وصفته غير مخلوقه، فالله شيء غير مخلوق، وصفته شيء غير مخلوق، والمخلوق من وقع عليه فعل الخلق، وهو كل شيء سوى الله تعالى وصفته.

ولكن الجهمية المعتزلة أوقعهم في ذلك اعتقادهم أن الله تعالى لا تقوم به

=

=

الصفات، فصفاته عندهم غيره، ونحن قد قررنا في الباب الأول أن الصفة إنما تقوم بالموصوف، والكلام إنما يقوم بالمتكلم، ولا تعقل ذات مجردة عن الصفات، وهذا من الجهمية المعتزلة هو التعطيل لصفات الخالق تعالى، لأن الصفة إذا قامت بمحل كانت صفة لذلك المحل، فباعتقادهم تبطل جميع الصفات.

وسبحان من شاء أن يظهر مخبوءهم ويكشف مستورهم، فإنهم أدخلوا صفة الله تعالى في عموم "كل" في هذه الآية، وأخرجوا أفعال العباد من هذا العموم، وقالوا: أفعال العباد غير مخلوقه لله، فكذبوا القرآن، من حيث أن الله تعالى قال: وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [الصافات: ٩٦] وقال: اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فكذبوا على الله رب العالمين، وألحدوا في آياته، فصرفوا الآية عما هي له، واحتجوا بها على ما ليست له.

الشبهة الثانية: القرآن مجعول، قال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا [الزخرف: ٣] والجعل: الخلق.

جوابها: لفظ "جعل" يأتي بمعنى "خلق" وبغيره.

والقاعدة فيه: أنه لا يأتي بمعنى "خلق" إلا إذا تعدى إلى مفعول واحد.

ومنه قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ [الأنعام: ١] وقوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا [الأعراف: ١٨٩].

وربما تعدى على مفعول واحد ولم يكن بمعنى "خلق" كقوله تعالى: وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء [الأنعام: ١٠٠] وقوله: فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ [الفيل: ٥].

أما إذا تعدى على مفعولين فلا يكون بمعنى "خلق" بأي حال.

ومن ذلك قوله تعالى: فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا [البقرة: ٦٦] وقوله: وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا [الأنبياء: ٧٣].

=

=

وكذلك منه قوله تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا [الزخرف: ٣] فالمفعول الأول الضمير والثاني قُرْآنًا والمعنى: قلناه قرآنا عربيًا، أو بيناه.

فبطل تمويه المعتزلة بفضل الله. وقد أجاب الإمام أحمد رحمه الله المعتزلي حين احتج عليه بهذه الآية بقوله: "فقد قال الله تعالى: فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ [الفيل: ٥] أفخلقهم؟ ".

الشبهة الثالثة:

القرآن محدث، كما قال الله: مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ [الأنبياء: ٢]. كما قال: وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ [الشعراء: ٥] والمحدث: المخلوق.

جوابها: قد تقدم في أول التنبيه.

الشبهة الرابعة: جعل الله أمره مقدورًا فقال: وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا [الأحزاب: ٣٨] وأمر الله: كلامه، والمقدور: المخلوق.

جوابها: إن لفظ: "الأمر" إذا أضيف إلى الله تعالى يأتي على تفسيرين:

الأول: يراد به المصدر، كقوله تعالى: لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ [الأعراف: ٥٤] وهو غير مخلوق - كما ذكرناه في الباب الأول في الاحتجاج لهذه المسألة -.

وهذا يجمع على: "أوامر".

والثاني: يراد به المفعول الذي هو المأمور المقدور، كقوله تعالى: وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا [الأحزاب: ٣٨] فالأمر ههنا هو المأمور، وهذا يجمع على: "أمور" وهو مخلوق.

وسبق أن ذكرت في الباب السابق أن صيغة المصدر قد ترد بمعنى المفعول في كلام العرب. قال شيخ الإسلام: "ففي قوله: وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا [الأحزاب:٣٨] المراد به المأمور به المقدور، وهذا مخلوق، وأما في قوله: ذَلِكَ

=

=

أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ [الطلاق: ٥] فأمره كلامه، إذ لم ينزل إلينا الأفعال التي أمرنا بها، وإنما أنزل القرآن، وهذا كقوله: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا [النساء: ٥٨] فهذا الأمر هو كلامه".

قلت: ونظيره لفظ "الخلق" فإنه يأتي مصدرًا فهو حينئذ فعل الرب تعالى وصفته، ويأتي مفعولًا فهو حينئذ المخلوق الذي وقع عليه فعل الخلق.

فليس لفظ "الأمر" إذا على ما قالت الجهمية المعتزلة من اختصاصه بالمفعول المقدور.

الشبهة الخامسة: سمى الله تعالى عيسى "كلمته" فقال: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ [النساء: ١٧١] وقال: يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ [آل عمران: ٤٥] وعيسى مخلوق، فالكلمة مخلوقة.

جوابها: إن عيسى عليه السلام مخلوق، خلقه الله بأمره حين قال له: كُن كما قال تعالى: قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ [آل عمران: ٤٧] وقال: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ [آل عمران: ٥٩] فكان عيسى بكلمة الله تعالى وقوله "كُنْ".

فالكلمة "كن" لا عين عيسى، والمكون بها هو عيسى عليه السلام.

وبهذا أجاب غير واحد من الأئمة. قال قتادة - وهو من أئمة التابعين في التفسير وغيره - قوله: بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ قال: "قوله "كن" فسماه الله عز وجل كلمته، لأنه كان عن كلمته كما يقال لما قدر الله من شيء: هذا قدر الله وقضاؤه، يعني به: هذا عن قدر الله وقضائه حدث".

الشبهة السادسة: القرآن ترد عليه سمات الحدوث والخلق، وذلك من وجوه عدة:

=

=

١ - قال تعالى: وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ [النحل: ١٠١] فأخبر عن وقوع النسخ فيه.
٢ - هو حروف متعاقبة، يسبق بعضها بعضًا.
٣ - لا يكون إلا بمشيئة واختيار، فيلزم منه أن تسبقه الحوادث، ويتأخر عنها.
٤ - له ابتداءً وانتهاء، وأول وآخر.
٥ - هو متبعض متجزئ.
٦ - منزل، والنزول لا يكون إلا بحركة وانتقال وتحول.
٧ - مكتوب في اللوح والمصاحف، وما حد وحصر فهو مخلوق.

وهذه الوجوه وما يشبهها صفات للمخلوق المحدث.

جوابها: هذه المعاني جميعًا مبنية على أصلهم الذي ابتدعوه لإثبات خلق العالم وقدم الصانع، وهو الاستدلال على حدوث العالم بطريقة الحركات، فقالوا: لا يمكن معرفة الصانع إلا بإثبات حدوث العالم، ولا يمكن إثبات حدوث العالم إلا بإثبات حدوث الأجسام، والاستدلال على حدوث الأجسام إنما هو بحدوث الأعراض القائمة بها كالحركة والسكون. فهذا الأصل المبتدع هو الذي جرهم إلى القول بخلق القرآن ونفي الصفات والأفعال لله تعالى.

ولو أنهم سلموا لنصوص الكتاب والسنة لكفتهم في ذلك، ولانتشلتهم من ورطة التعطيل، فإن هذه أمور لا يتوصل إليها بمجرد العقل، والله تعالى قد أثبت أزلية وخلق العالم بأحسن البراهين وأقوى الحجج: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ [المرسلات: ٥٠]؟

ونحن لا نناظر المعتزلة في دفع هذه الأباطيل بمحدثات من الأقوال والأصول، ولا نسلم لهم قولهم ودعواهم، وإنما نرفض ذلك أشد الرفض، ونقول: هو بدعة ضلالة لما جرت إليه من الكفر والباطل - شأن سائر البدع - ولا نسلك مسلك أهل البدع في الرد عليهم ومناظرتهم شأن الأشعرية والماتريدية أتباع ابن كلاب

=

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا

=

والأشعري والماتريدي، فإن هؤلاء أرادوا نقض ضلالات المعتزلة بنفس طريقتهم، فتراهم تابعوهم في هذا الأصل الذي ذكرناه عنهم، فتسلطت عليهم به المعتزلة وأظهرت تناقضهم. وصدق فيهم شيخ الإسلام حين قال: "فهم قصدوا نصر الإسلام بما ينافي دين الإسلام".

وأصل المعتزلة الذي ابتدعوه أوقعهم في قياس صفة الخالق على المخلوق وصفته، فإنهم إنما بنوا أصلهم على ما عهدوه في المخلوق من أحوال وصفات، فحسبوا أن ذلك يلحق صفو من لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فقاسوا ما لم يحيطوا به علمًا على ما حصلوه من الظنون والأوهام التي حسبوها غاية العلوم.

وهذا من أعظم ما أدخله الشيطان - لعنه الله - من التلبيس على هؤلاء، زين لهم ابتداع أصول لم ترد في كتاب ولا سنة، فالتزموها، والتزموا بسببها خلاف الشريعة، فجعلوها الحاكم على الكتاب والسنة، ومن تلك الأصول الفاسدة هذه الدعاوى المجردة عن البرهان مما هو محض العقول الزائفة، القفر من نور الوحي.

فكل ما أوردوه مما سموه "معقولًا" ليستدلوا به على خلق القرآن هو من قياس صفة الخالق على صفة المخلوق، وهو كفر بالله تعالى، فإنه كما لا شبه له في ذاته فلا شبه له في صفاته، وهذا مقرر في موضعه.

فهذه أظهر ما استدل به الجهمية والمعتزلة من الحجج (!) وأبينها وأقواها عندهم، وقد بان لك زيفها وبطلانها، وقارنها بما سبق ذكره من الأدلة لاعتقاد أهل السنة والجماعة، يجل لك الحق بذلك وتعلم استقامة منهج أهل السنة، واتباع أهل البدع للأهواء والظنون. وصدق شيخ الإسلام - وهو بهم خبير - في قوله: "وليس مع هؤلاء عن الأنبياء قول يوافق قولهم، بل لهم شبه عقلية فاسدة".

تَعْلَمُونَ (٧).

{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلك إلَّا رِجَالًا نُوحِي} وَفِي قراءة بالياء وفتح الحاء {إلَيْهِمْ} لَا مَلَائِكَة {فَاسْأَلُوا أَهْل الذِّكْر} الْعُلَمَاء بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيل {إنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَهُ وَأَنْتُمْ إلَى تَصْدِيقهمْ أَقْرَب مِنْ تَصْدِيق الْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ.

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨).

{وَمَا جَعَلْنَاهُمْ} أَيْ الرُّسُل {جَسَدًا} بِمَعْنَى أَجْسَادًا {لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَام} بَلْ يَأْكُلُونَهُ {وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ} فِي الدُّنْيَا.

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩).

{ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ الْوَعْد} بِإِنْجَائِهِمْ {فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاء} الْمُصَدِّقِينَ لَهُمْ {وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ} الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ} [الأنبياء: ٧]، أي:" وما أرسلنا قبلك - أيها الرسول - إلا رجالا من البشر نوحي إليهم".

قال ابن عباس:" أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم".

قال ابن كثير:" أي: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالا من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: {أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا} [التغابن: ٦] ".

قرأ حفص وحمزة والكسائي: «نوحي إليهم}، بالنون، وقرأ الباقون «يوحي إليهم» بالياء.

قوله تعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [الأنبياء: ٧]، أي:" فاسألوا =

=

- يا كفار «مكة» - أهل العلم بالكتب المنزلة السابقة، إن كنتم تجهلون ذلك".

قال ابن كثير:" أي: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشرًا أو ملائكة؟ إنما كانوا بشرًا، وذلك من تمام نِعمَ الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم".

قال مقاتل: " فسيخبرونكم أن الله- ﷻ- ما بعث رسولا إلا من البشر".

قال يحيى:" يقول: إن كنت لا تصدق فاسأل، وهو يعلم أنه قد كذب".

وفي قوله تعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [الأنبياء: ٧]، أقوال:

أحدها: أن «أهل الذكر»: العلماء بأخبار من سلف من القرون الخالية الذين يعلمون أن الله تعالى ما بعث رسولًا إلا من رجال الأمة، وما بعث إليهم ملكًا. حكاه الماوردي.

وقال سهل: {أهل الذكر}، " يعني: أهل الفهم عن الله، والعلماء بالله وبأوامره وبأيامه. قيل: صفهم لنا. قال: العلماء ثلاثة: عالم بالله لا بأمر الله ولا بأيام الله، وهو عامة المؤمنين وعالم بالله وبأمر الله لا بأيام الله، وهم العلماء وعالم بالله وبأمر الله وبأيام الله، وهم النبيون والصديقون".

الثاني: أنهم أهل التوراة والإنجيل، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

قال ابن عباس:" {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ}: يعني أهل الكتب الماضية أبشرا كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد رسولا".

قال ابن عباس:" قال لمشركي قريش: إن محمدا في التوراة والإنجيل".

قال الزجاج:" وأهل جميع الكتب يعترفون أن الأنبياء كلهم بشر.. والدليل على أن أهل الذكر أهل الكتب قوله تعالى {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ

=

=

إِلَيْهِم} [النحل: ٤٤]، وقوله: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاه} [الأنبياء: ٥٠] ".

الثالث: أنهم أهل التوراة خاصة، قاله مجاهد أيضا.

الرابع: أنهم أهل القرآن، قاله ابن زيد، وأبو جعفرالباقر، والأعمش.

قال الأعمش:" سمعنا أنه من أسلم من أهل التوراة والإنجيل".

عن ابن زيد: قوله:" {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}، قال: الذكر: القرآن، وقرأ {إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، وقرأ {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ}... الآية".

قال الحافظ ابن كثير: " وقول عبد الرحمن بن زيد الذكر: القرآن، واستشهد بقوله {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} صحيح، لكن ليس هو المراد هاهنا، لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه، وكذا قول أبي جعفر الباقر: نحن أهل الذكر، ومراده: أن هذه الأمة أهل الذكر صحيح، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السابقة".

الخامس: معناه: فاسألوا من آمن من أهل الكتاب. حكاه الزجاج.

قال مقاتل: يعني: "مؤمني أهل التوراة".

السادس: معناه: اسألوا كل من يذكر بعلم وافق أهل هذه الملة أو خالفهم. أفاده الزجاج.

قال الشوكاني:" استدل بالآية على أن التقليد جائز، وهو خطأ، ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنة، لا عن الرأي البحت، وليس التقليد إلا قبول قول الغير دون حجته".

قال السعدي: هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلا كان ملكا، لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق، وهلا كان خالدا؟ فإذا لم يكن كذلك، دل على أنه ليس برسول.

=

=

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسل، تشابهوا في الكفر، فتشابهت أقوالهم، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول، المقرين بإثبات الرسل قبله - ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته - بأن الرسل قبل محمد ﷺ، كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتطرأ عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة، والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

فما بال محمد ﷺ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يقر بهم المكذبون لمحمد؟ فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر، ولن يقروا برسول من غير البشر، إن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها، وتناقضهم بها، فلو قدر انتقالهم من هذا إلى إنكار نبوة البشر رأسا، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكا مخلدا، لا يأكل الطعام، فقد أجاب [الله] تعالى عن هذه الشبهة بقوله: {وَقَالُوا لَوْلا أُنزلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ} وأن البشر لا طاقة لهم بتلقي الوحي من الملائكة {قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولا} فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ} من الكتب السالفة كأهل التوراة والإنجيل يخبرونكم بما عندهم من العلم وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم، وهذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر وهم أهل العلم فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها

=

=

ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم ولـم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه، وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم ونهي له أن يتصدى لذلك وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبية لا مريم ولا غيرها لقوله {إلا رِجَالا} ا.هـ

وهذه الجملة رد مفحم على المشركين الجاهلين الذين استبعدوا أن يكون الرسول بشرا وقالوا قبل ذلك: هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.

وقوله تعالى نُوحِي إِلَيْهِمْ استئناف مبين لكيفية الإرسال.

أى: اقتضت حكمتنا أن يكون الرسل من الرجال، وأن نبلغهم ما نكلفهم به عن طريق الوحى المنزل إليهم من جهتنا.

وقوله-سبحانه-: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ توبيخ لهم وتجهيل، لأنهم قالوا ما قالوا بدون تعقل أو تدبر.

والمراد بأهل الذكر: علماء أهل الكتاب الذين كان المشركون يرجعون إليهم في أمور دينهم.

والفاء في قوله: فَسْئَلُوا.. لترتيب ما بعدها على ما قبلها. وجواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه.

أى: مادامت قد بلغت بكم الجهالة أن تستبعدوا أن يكون الرسول بشرا فاسألوا أهل العلم في ذلك، فسيبينون لكم أن الرسل السابقين لم يكونوا إلا رجالا.

قال القرطبي: قوله تعالى: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي ﷺ وسماهم أهل الذكر، لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء، مما لم تعرفه العرب، وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب في أمر النبي ﷺ.

وقال ابن زيد: أراد بالذكر: القرآن. أى: فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل

=

=

القرآن.. ا.هـ.

ثم أكد-سبحانه- هذه الحقيقة وهي كون الرسل من البشر فقال: وَما جَعَلْناهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ.

والضمير في جَعَلْناهُمْ يعود إلى الرسل، والجسد مصدر جسد الدم يجسد- من باب فرح- إذا التصق بغيره، وأطلق على الجسم جسد، لالتصاق أجزائه بعضها ببعض، ويطلق هذا اللفظ على الواحد المذكر وغيره ولذلك أفرد، أو هو أفرد لإرادة الجنس.

قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ} [الأنبياء: ٨].

قال يحيى:" أي: ولكنا جعلناهم جسدا يأكلون الطعام، يعني النبيين".

قال الطبري:" يقول: لم نجعلهم ملائكة لا يأكلون الطعام، ولكن جعلناهم أجسادا مثلك يأكلون الطعام".

قال الفراء:" يقول: لم نجعلهم جسدا إلا ليأكلوا الطعام".

قال قتادة:" يقول: ما جعلناهم جسدا إلا ليأكلوا الطعام".

قال الضحاك:" يقول: لم أجعلهم جسدا ليس فيهم أرواح لا يأكلون الطعام، ولكن جعلناهم جسدا فيها أرواح يأكلون الطعام".

قال ابن كثير:" أي: بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأسْوَاقِ} [الفرقان: ٢٠] أي: قد كانوا بشرا من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئًا، كما توهمه المشركون في قولهم: {مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأسْوَاقِ لَوْلا أُنزلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنز أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا} [الفرقان: ٧، ٨] ".

=

=

قوله تعالى: {وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ} [الأنبياء: ٨]، أي:" وما كانوا خالدين لا يموتون".

قال الفراء:" بأكلهم وشربهم، يعنى: الرجال المرسلين".

قال ابن كثير:" أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ} [الأنبياء: ٣٤]، وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله ﷻ، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكم في خلقه مما يأمر به وينهى عنه ".

قال يحيى:" ما كانوا لا يموتون".

قال مقاتل:" يذوقون الموت".

قال قتادة:" وما كانوا يخلدون في الدنيا، لا يموتون".

أى: وما جعلنا الرسل السابقين عليك يا محمد أجسادا لا تأكل ولا تشرب كالملائكة، وإنما جعلناهم مثلك يأكلون ويشربون ويتزوجون ويتناسلون ويعتريهم ما يعترى البشر من سرور وحزن، ويقظة ونوم.. وغير ذلك مما يحسه البشر.

وما جعلناهم- أيضا- خالدين في هذه الحياة بدون موت، وإنما جعلنا لأعمارهم أجلا محددا تنتهي حياتهم عنده بدون تأخير أو تقديم.

قال تعالى: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ .

وقوله-سبحانه-: ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ.. بيان لسنة الله تعالى الجارية مع رسله-عليهم الصلاة والسلام-.

قوله تعالى: {ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ} [الأنبياء: ٩]، أي:" إنا أرسلنا رسلا من البشر وصدقناهم وعدنا".

قال مقاتل:" «الوعد»، يعني: العذاب في الدنيا إلى قومهم".

قال ابن كثير:" أي: الذي وعدهم ربهم: «ليهلكن الظالمين»، صدقهم الله وعده

=

=

ففعل ذلك ".

قال يحيى:" كانت الرسل تحذر قومها عذاب الله في الدنيا وعذابه في الآخرة إن لم يؤمنوا، فلما لم يؤمنوا صدق الله رسله الوعد، فأنزل العذاب على قومهم".

قوله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ} [الأنبياء: ٩]، أي:" فنصرناهم على المكذبين وأنجيناهم هم ومن آمن معهم".

قال يحيى:" يعني: النبي والمؤمنين".

قال ابن كثير:" أي: أتباعهم من المؤمنين ".

قوله تعالى: {وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ} [الأنبياء: ٩]، أي:" وأهلَكْنا المسرفين على أنفسهم بكفرهم بربهم".

قال المراغي: أي:" وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بتكذيبهم رسل ربهم".

قال ابن كثير:" أي: المكذبين بما جاءت الرسل به ".

قال مقاتل:" يقول: وعذبنا المشركين في الدنيا".

عن قتادة، قوله: " {ثم صدقناهم الوعد}، إلى قوله: {وأهلكنا المسرفين}، قال: هم المشركون".

أى: ثم صدقنا هؤلاء الرسل ما وعدناهم به من جعل العاقبة لهم فَأَنْجَيْناهُمْ من العذاب الذي أنزلناه بأعدائهم. وأنجينا معهم مَنْ نَشاءُ إنجاءهم من المؤمنين بهم. وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ الذين تجاوزوا الحدود في كفرهم وتطاولهم على الرسل الكرام، وإعراضهم عن دعوتهم.

(منبهة): قال الرازي: فأما ما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية -(فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)- في أن للعامي أن يرجع إلى فتيا العلماء، وفي أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر- فبعيد. لأن هذه الآية خطاب مشافهة. وهي واردة في هذه الواقعة المخصوصة. ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين. انتهى.

=

=

وهو قول ضعيف بل باطل كما سترى.

ذهب كثير من المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية إلى تحريم التقليد، وذهب جماهير الأمة إلى جواز ذلك، وسنعرض إلى هذين الرأيين باختصار.

الرأي الأول: قال الزركشي في البحر المحيط (٦/ ٢٧٨): والعلوم نوعان: عقلي وشرعي، الأول: العقلي، وهو المسائل المتعلقة بوجود الباري وصفاته، واختلفوا فيها، والمختار أنه لا يجوز التقليد، بل يجب تحصيلها بالنظر، وجزم به الأستاذ أبو منصور والشيخ أبو حامد الأسفراييني في تعليقه، وحكاه الأستاذ أبو إسحاق في شرح الترتيب عن إجماع أهل العلم من أهل الحق وغيرهم من الطوائف، وقال أبو الحسين بن القطان في كتابه: لا نعلم خلافا في امتناع التقليد في التوحيد وحكاه ابن السمعاني عن جميع المتكلمين، وطائفة من الفقهاء وقالوا: لا يجوز للعامي التقليد فيها، ولابد أن يعرف ما يعرفه بالدليل ا. هـ

وقال الفخر الرازي كما في المحصول (٢/ ١٢٥): لا يجوز التقليد في أصول الدين، لا للمجتهد، ولا للعوام، وقال كثير من الفقهاء بجوازه ا. هـ

ومن أهم أدلة من يمنع ذلك ما يلي:

١ - أن النظر واجب، وفي التقليد ترك للواجب فلا يجوز واستدلوا لذلك بالأدلة العامة الواردة في ذلك من مثل قوله تعالى: (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]. وبعضهم وضع ذلك شرطا في صحة الإيمان، قال الزركشي في البحر المحيط (٦/ ٢٧٨): وجزم أبو منصور بوجوب النظر، ثم قال: فلو اعتقد من غير معرفة بالدليل، فاختلفوا فيه، فقال أكثر الأئمة: إنه مؤمن من أهل الشفاعة، وإن فسق بترك الاستدلال، وبه قال

=

=

أئمة الحديث، وقال الأشعري وجمهور المعتزلة: لا يكون مؤمنا، حتى يخرج فيها عن جملة المقلدين... ثم قال الزركشي: وقد اشتهرت هذه المقالة عن الأشعري، أن إيمان المقلد لا يصح، وقد أنكر أبو القاسم القشيري، والشيخ أبو محمد الجويني وغيرهما من المحققين صحته عنه.

٢ - وفرقوا بين العقائد والأحكام، وقالوا: إن المطلوب في العقائد العلم واليقين، وذلك لا يحصل من التقليد، بخلاف الفروع فإن المطلوب فيها الظن، فلا يلزم من جواز التقليد في الفروع جوازه في الأصول.

الرأي الثاني: جواز التقليد في العقائد، وقد نقل عن الأئمة الأربعة، واشتهر عن الحنابلة والظاهرية وغيرهم ونسبه شيخ الإسلام رحمه الله إلى جمهور الأمة. قال رحمه الله في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠٢): أما في المسائل الأصولية فكثير من المتكلمة والفقهاء من أصحابنا وغيرهم من يوجب النظر والاستدلال على كل أحد وأما جمهور الأمة فعلى خلاف ذلك، فإن ما وجب علمه إنما يجب على من يقدر على تحصيل العلم، وكثير من الناس عاجز عن العلم بهذه الدقائق، فكيف يكلف العلم بها؟ ا. هـ

ومن أهم أدلتهم: أن الأصول والفروع قد استويا في التكليف بهما، وقد جاز التقليد في الفروع فكذلك في الأصول، أما القول بأن المطلوب في العقائد اليقين وفي الفروع الظن فهذا من بدع المتكلمين المشهورة، وبسببها قالوا: لا يحتج بحديث الآحاد في أمور العقيدة، ولا يصح إيمان المقلد وغير ذلك من البدع. فلا دليل على التفريق بين الأصول والفروع في هذا الحكم، وردوا على ما اشترط أو أوجب النظر على الجميع، بأن ذلك يقتضي تضليل أو تكفير عوام المسلمين، وأن ذلك من تكليف ما لا يطاق، يقول المظفر بن السمعاني رحمه الله كما في البحر المحيط (٦/ ٢٧٩): إيجاب معرفة الأصول على ما يقوله المتكلمون، بعيد

=

=

جدا عن الصواب، ومتى أوجبنا ذلك، فمتى يوجد من العوام من يعرف ذلك؟ ويصدر عقيدته عنه؟ كيف وهم لو عرضت عليهم تلك الأدلة لم يفهموها، وإنما غاية العامي أن يتلقى ما يريد أن يعتقده ويلقى به ربه من العلماء، ويتبعهم في ذلك ويقلدهم.. إلى أن يقول: ونحن لا ننكر من الدلائل العقلية بقدر ما ينال المسلم به رد الخاطر، وإنما المنكر إيجاب التوصل إلى العقائد في الأصول بالطريق الذي اعتقدوا، وساموا به الخلق، وزعموا أن من لم يفعل ذلك لم يعرف الله تعالى، ثم أدى بهم ذلك إلى تكفير العوام أجمع ا. هـ

وقال الحافظ صلاح الدين العلائي كما في الفتح (١٣/ ٣٥٤): من لا أهلية له لفهم شيء من الأدلة أصلا وحصل له اليقين التام بالمطلوب، إما بنشأته على ذلك أو لنور يقذفه الله في قلبه، فإنه يكتفي منه ذلك، ومن فيه أهليه لفهم الأدلة لم يكتف منه إلا بالإيمان عن دليل، ومع ذلك فدليل كل أحد بحسبه وتكفي الأدلة المجملة التي تحصل بأدنى نظر، ومن حصلت له شبهة وجب عليه التعلم إلى أن تزول عنه أما من غلا فقال لا يكفي إيمان المقلد فلا يلتفت إليه، لما يلزم منه القول بعدم إيمان أكثر المسلمين، وكذا من غلا أيضا فقال: لا يجوز النظر في الأدلة، لما يلزم منه من أن أكابر السلف لم يكونوا من أهل النظر ا. هـ

وقال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٦٠): "سمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء * إذا احتاج النهار إلى دليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من جود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما" ا. هـ

ويعتبر المتكلمون أكثر من اشتغل بتقرير وجود الخالق ﷻ والاستدلال له، غير

=

=

أنهم لم يسيروا في ذلك على منهج الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، وإنما أتوا بطريقة مخترعة باطلة مستمدة من الفلسفة والمنطق اليوناني، فترتب على ذلك مفاسد عديدة في أبواب الاعتقاد.

قال النووي في شرح مسلم (١/ ٢١١): قوله (أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به) فيه دلالة ظاهرة لمذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف أن الإنسان إذا اعتقد دين الإسلام اعتقادا جازما لا تردد فيه كفاه ذلك وهو مؤمن من الموحدين ولا يجب عليه تعلم أدلة المتكلمين ومعرفة الله تعالى بها خلافا لمن أوجب ذلك وجعله شرطا في كونه من أهل القبلة وزعم أنه لا يكون له حكم المسلمين إلا به وهذا المذهب هو قول كثير من المعتزلة وبعض أصحابنا المتكلمين وهو خطأ ظاهر فإن المراد التصديق الجازم وقد حصل ولأن النبي ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به ﷺ ولم يشترط المعرفة بالدليل فقد تظاهرت بهذا أحاديث في الصحيحين يحصل بمجموعها التواتر بأصلها والعلم القطعي وقد تقدم ذكر هذه القاعدة في أول الإيمان والله أعلم ا. هـ

وقال شيخ الإسلام في النبوات (١/ ٢٥١): ولهذا صار كثير من النظار يوجبون العلم والنظر والاستدلال وينهون عن التقليد ويقول كثير منهم إن ايمان المقلد لا يصح أو أنه وان صح لكنه عاص بترك الاستدلال ثم النظر والاستدلال الذي يدعون إليه ويوجبونه ويجعلونه أول الواجبات وأصل العلم هو نظر واستدلال ابتدعوه ليس هو المشروع لا خبرا ولا أمرا وهو استدلال فاسد لا يوصل الى العلم فانهم جعلوا أصل العلم بالخالق هو الاستدلال على ذلك بحدوث الأجسام والاستدلال على حدوث الأجسام بأنها مستلزمة للأعراض لا تخلو عنا ولا تنفك منها ثم استدلوا على حدوث الاعراض قالوا فثبت أن الأجسام مستلزمة للحوادث لا تخلو عنها فلا تكون مثلها ثم كثير منهم قالوا وما لم يخل من

=

=

الحوادث أو ما لم يسبق الحوادث فهو حادث وظن أن هذه مقدمة بديهية معلومة بالضرورة لا يطلب عليها دليل وكان ذلك بسبب أن لفظ الحوادث يشعر بان لها ابتداء كالحادث المعين والحوادث المحدودة ولو قدرت ألف ألف ألف حادث فإن الحوادث اذا جعلت مقدرة محدودة فلا بد أن يكون لها ابتداء فإن مالا ابتداء له ليس له حد معين ابتدأ منه اذ قد قيل لا ابتداء له بل هو قديم أزلي دائم ومعلوم أن هذه الحوادث مالم يسبقها فهو حادث فإنه يكون إما معها وإما بعدها وكثير منهم يفطن للفرق بين جنس الحوادث وبين الحوادث المحدودة فالجنس مثل أن يقال ما زالت الحوادث توجد شيئا بعد شيء أو ما زال جنسها موجودا أو ما زال الله متكلما اذا شاء او ما زال الله فاعلا لما يشاء أو ما زال قادرا على أن يفعل قدرة يمكن معها اقتران المقدور بالقدرة لا تكون قدرة يمتنع معها المقدور فان هذه في الحقيقة ليست قدرة ومثل أن يقال في المستقبل لا بد أن الله يخلق شيئا بعد شيء ونعيم أهل الجنة دائم لا يزول ولا ينفد وقد يقال في النوعين كلمات الله لا تنفذ ولا نهاية لها لا في الماضي ولا في المستقبل ونحو ذلك فالكلام في دوام الجنس وبقائه وأنه لا ينفد ولا ينقضي ولا يزول ولا ابتداء له غير الكلام فيما يقدر محدودا له ابتداء أوله ابتداء وانتهاء فإن كثيرا من النظار من يقول جنس الحوادث إذا قدر له ابتداء وجب أن يكون له انتهاء لأنه يمكن فرض تقدمه على ذلك الحد فيكون أكثر مما وجد ومالا يتناهى لا يدخله التفاضل فإنه ليس وراء عدم النهاية شيء أكثر منها بخلاف مالا ابتداء له ولا انتهاء فإن هذا لا يكون شيء فوقه فلا يفضي الى التفاضل فيما لا يتناهى وبسط هذا له موضع آخر والمقصود هنا أن هؤلاء جعلوا هذا أصل دينهم وإيمانهم وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف وأنه من لم ينظر في هذا الدليل فاما أنه لا يصح إيمانه فيكون كافرا على قول طائفة منهم وإما أن يكون عاصيا على قول آخرين وأما إن

=

=

يكون مقلدا لا علم له بدينه لكنه ينفعه هذا التقليد ويصير به مؤمنا غير عاص والأقوال الثلاثة باطلة لأنها مفرعة على أصل باطل وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والايمان هو هذا النظر في هذا الدليل فان علماء المسلمين يعلمون بالاضطرار أن الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر ولا بهذا الدليل لا عامة الخلق ولا خاصتهم فامتنع أن يكون هذا شرطا في الايمان والعلم وقد شهد القرآن والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم، وأنهم عالمون بصدق الرسول، وبما جاء به، وعالمون بالله، وبأنه لا إله إلا الله، ولم يكن الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين؛ كما قال تعالى: {ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد}، وقال: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط}، وقال: {أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى}. وقد وصف باليقين والبصيرة في غير موضع؛ كقوله: {وبالآخرة هم يوقنون}، وقوله: {أولئك على هدى من ربهم}، وقوله: {قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني}، وأمثال ذلك.

فتبين أن هذا النظر والاستدلال الذي أوجبه هؤلاء وجعلوه أصل الدين ليس مما أوجبه الله ورسوله ولو قدر أنه صحيح في نفسه وأن الرسول أخبر بصحته لم يلزم من ذلك وجوبه اذ قد يكون المطلوب أدلة كثيرة ولهذا طعن الرازي وأمثاله على أبي المعالي في قوله إنه لا يعلم حدوث العالم إلا بهذا الطريق وقالوا هب أنه يدل على حدوث العالم فمن أين يجب أن لا يكون ثم طريق آخر وسلكوا هم طرقا أخر فلو كانت هذه الطريق صحيحة عقلا وقد شهد لها الرسول والمؤمنون الذين لا يجتمعون على ضلالة بأنها طريق صحيحة لم تتعين مع إمكان سلوك طرق أخرى كما أنه في القرآن سور وآيات قد ثبت بالنص والاجماع أنها من آيات الله الدالة على الهدى ومع هذا فاذا اهتدى الرجل بغيرها وقام بالواجب ومات ولم

=

=

يعلم بها ولم يتمكن من سماعها لم يضره كالآيات المكية التي اهتدى بها من آمن ومات في حياة النبي ﷺ قبل أن ينزل سائر القرآن فالدليل يجب طرده ولا يجب عكسه ولهذا أنكر كثير من العلماء على هؤلاء ايجاب سلوك هذه الطريق مع تسليمهم أنها صحيحة كالخطابي والقاضي أبي يعلى وابن عقيل وغيرهم والأشعري نفسه أنكر على من أوجب سلوكها أيضا في رسالته إلى أهل الثغر مع اعتقاده صحتها واختصر منها طريقة ذكرها في أول كتابه المشهور المسمى باللمع في الرد على أهل البدع وقد اعتنى به أصحابه حتى شرحوه شروحا كثيرة والقاضي أبو بكر شرحه ونقض كتاب عبد الجبار الذي صنفه في نقضه وسماه نقض نقض اللمع وأما أكابر أهل العلم من السلف والخلف فعلموا أنها طريقة باطلة في نفسها مخالفة لصريح المعقول وصحيح المنقول وانه لا يحصل بها العلم بالصانع ولا بغير ذلك بل يوجب سلوكها اعتقادات باطلة توجب مخالفة كثير مما جاء به الرسول مع مخالفة صريح المعقول كما أصاب من سلكها من الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية ومن تبعهم من الطوائف وان لم يعرفوا غورها وحقيقتها فإن أئمة هؤلاء الطوائف صار كل منهم يلتزم ما يراه لازما ليطردها فيلتزم لوازم مخالفة للشرع والعقل فيجيء الآخر فيرد عليه ويبين فساد ما التزمه ويلتزم هو لوازم أخر لطردها فيقع أيضا في مخالفة الشرع والعقل.... ا. هـ

ورد الشوكاني في إرشاد الفحول (ص: ٢٦٦) على ما حكاه أبو منصور البغدادي عن أئمة الحديث بأنهم يفسقون تارك الاستدلال، فقال: فيالله العجب من هذه المقالة التي تقشعر لها الجلود وترجف عند سماعها الأفئدة، فإنها جناية على جمهور هذه الأمة المرحومة، وتكليف لهم بما ليس في وسعهم ولا يطيقونه، وقد كفى الصحابة الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد، ولا قاربوها - الإيمان الجملي، ولم يكلفهم رسول الله ﷺ وهو بين أظهرهم بمعرفة ذلك ولا أخرجهم عن

=

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠).

{لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ} يَا مَعْشَر قُرَيْش {كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ} لِأَنَّهُ بِلُغَتِكُمْ {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} فَتُؤْمِنُونَ به.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١).

{وَكَمْ قَصَمْنَا} أَهْلَكْنَا {مِنْ قَرْيَة} أَيْ أَهْلهَا {كانت ظالمة} كافرة {وأنشأنا بعدها قوما آخرين}.

فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢).

=

الإيمان بتقصيرهم عن البلوغ إلى العلم بذلك بأدلته، وما حكاه الأستاذ أبو منصور عن أئمة الحديث من أنه مؤمن وإن من فسق فلا يصح التفسيق عنهم بوجه من الوجوه بل مذهب سابقهم ولاحقهم الاكتفاء بالإيمان الجملي، وهو الذي كان عليه خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ا. هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: هل يجوز التقليد في أبواب العقيدة، أم لابد من الأخذ بالدليل؟

فأجاب: يجوز التقليد في العقائد مما لا يتمكن معرفته بالدليل، ولهذا نرى العامة الآن كلهم يقلدون، بل قال الله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) النحل:٤٣، سؤالنا أهل الذكر عن هؤلاء الرسل معناه أن نقلد المسئول ونأخذ بقوله، فالتقليد في المسائل العقدية كالتقليد في المسائل العملية تماما ولا فرق، فالذي لا يستطيع الوصول إلى الحق بنفسه ففرضه التقليد فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون [النحل:٤٣]. وأما من قال: إنه لا يصح إيمان المقلد. فمقتضى قوله: أن العوام من الناس لا يصح إيمانهم؛ لأنهم إنما بنوا إيمانهم على التقليد، علمائهم قالوا كذا يقولون كذا.

{فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسنَا} شَعَرَ أَهْل الْقَرْيَة بِالْإِهْلَاكِ {إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ} يَهْرُبُونَ مُسْرِعِينَ.

لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣).

فَقَالَتْ لَهُمْ الْمَلَائِكَة اسْتِهْزَاء {لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ} نُعِّمْتُمْ {فِيهِ وَمَسَاكِنكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} شَيْئًا مِنْ دُنْيَاكُمْ عَلَى الْعَادَة.

قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤).

{قَالُوا يَا} لِلتَّنْبِيهِ {وَيْلنَا} هَلَاكنَا {إِنَّا كُنَّا ظالمين} بالكفر.

فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥).

{فَمَا زَالَتْ تِلْكَ} الْكَلِمَات {دَعْوَاهُمْ} يَدْعُونَ بِهَا وَيُرَدِّدُونَهَا {حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا} كَالزَّرْعِ الْمَحْصُود بِالْمَنَاجِلِ بِأَنْ قُتِلُوا بِالسَّيْفِ {خَامِدِينَ} مَيِّتِينَ كَخُمُودِ النَّار إذا طفئت[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: بعث الله نبيًا من حمير، يقال له: شعيب، فوثب إليه عبد فضربه بعصا، فسار إليهم بختنصر فقاتلهم حتى لم يبق منهم شيئًا؛ وفيهم أنزل الله: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٦١٧، ٦١٨) وقال: وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن ابن عباس. والكلبي كذاب، ولعله سقط ذكر أبي صالح بينهما؛ لأن الكلبي يروي عن ابن عباس بواسطة أبي صالح.

* قوله تعالى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ} [الأنبياء: ١٠]، أي:" لقد أنزلنا إليكم هذا القرآن، فيه عزُّكم وشرفكم في الدنيا والآخرة إن تذكرتم به".

وفي قوله تعالى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ} [الأنبياء: ١٠]، وجوه من =

=

التفسير:

أحدها: معناه: لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه حديثكم، قاله مجاهد.

الثاني: فيه مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم، قاله سفيان.

قال سفيان:" نزل القرآن بمكارم الأخلاق، ألم تسمعه يقول: {لَقَدْ أَنزلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ} ".

الثالث: فيه شرفكم. قاله ابن عباس، وسفيان-في إحدى الروايات-، ومقاتل.

قال ابن عيسى:"فيه شرفكم إن تمسكتم به وعملتم بما فيه".

قال ابن قتيبة:" أي: شرفكم، وكذلك قوله: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ} [الزخرف: ٤٤] ".

عن سفيان:" {لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ}، قال: شرف لك ولقومك".

الرابع: فيه دينكم. قاله الحسن.

قال الحسن:" فيه دينكم، أمسك عليكم دينكم كتابكم".

الخامس: فيه ذكر ما تعنون به وأمر آخرتكم ودينكم. قاله السدي.

السادس: العمل بما فيه حياتكم، قاله سهل بن عبد الله.

السابع: معناه: فيه تذكرة لكم بما تلقونه من رحمة أو عذاب، كما قال ﷻ: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} [عبس: ١١]. وهذا قول الزجاج.

قال الزمخشري: {ذكركم}، أي: شرفكم وصيتكم، كما قال: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ} [الزخرف: ٤٤]، أو موعظتكم، أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء، أو حسن الذكر، كحسن الجوار، والوفاء بالعهد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، والسخاء، وما أشبه ذلك".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء: ١٠]، أي:" أفلا تعقلون ما فَضَّلْتكم به على غيركم؟ ".

=

=

قال الصابوني:"أي: أفلا تعقلون هذه النعمة فتؤمنون بما جاءكم به محمد عليه السلام؟".

قال الرازي: ثم بين تعالى بقوله: لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم عظيم نعمته عليهم بالقرآن في الدين والدنيا، فلذلك قال فيه: ذكركم وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: ذكركم شرفكم وصيتكم، كما قال: وإنه لذكر لك ولقومك [الزخرف: ٤٤]. وثانيها: المراد فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب، ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد، كما قال: وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين [الذاريات: ٥٥].

وثالثها: المراد ذكر دينكم ما يلزم وما لا يلزم لتفوزوا بالجنة إذا تمسكتم به وكل ذلك محتمل، وقوله: أفلا تعقلون كالبعث على التدبر في القرآن لأنهم كانوا غفلاء لأن الخوض من لوازم الغفلة والتدبر دافع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس من لوازم الفعل فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل ا.هـ

وقال الآلوسى: «قوله تعالى: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتابًا.. كلام مستأنف لتحقيق حقية القرآن العظيم، الذي ذكر في صدر السورة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته، واستهزاؤهم به، واضطرابهم في أمره، وبيان علو مرتبته، إثر تحقيق رسالته ﷺ، ببيان أنه كسائر الرسل الكرام، وقد صدر الكلام بالتوكيد القسمي، إظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وإيذانا، بأن المخاطبين في أقصى مراتب النكير، والخطاب لقريش، وجوز أن يكون لجميع العرب.» ا.هـ.

والمعنى: لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب عن طريق رسولنا محمد ﷺ كتابا عظيم الشأن، نير البرهان، مشتملا على ما يسعدكم، وهذا الكتاب فِيهِ ذِكْرُكُمْ

أى: فيه شرفكم، وعلو منزلتكم، وحسن موعظتكم، وشفاء صدوركم.

أَفَلا تَعْقِلُونَ ذلك، مع أن هذا الأمر واضح، ولا يحتاج إلى جدال أو مناقشة.

=

=

فالاستفهام لإنكار عدم تدبرهم في شأن هذا الكتاب الذي أنزله الله تعالى ليظفروا بسببه بالذكر الجميل، وبالموعظة الحسنة، كما قال تعالى وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ .

وإن من مظاهر كون القرآن الكريم فيه ذكر العرب وشرفهم، أنه نزل بلغتهم، وأنه المعجزة الباقية الخالدة بخلاف غيره من المعجزات التي أيد الله تعالى بها الرسل السابقين، وأنه الكتاب الذي قادوا به البشرية قرونا طويلة. عند ما حملوه إلى الناس، فقرأوه عليهم، وشرحوا لهم أحكامه وآدابه وتشريعاته.. وما أصيب العرب في دينهم ودنياهم إلا يوم أن تخلوا عن العمل بهدايات هذا الكتاب، وقصروا في تبليغه إلى الناس.

ثم بين-سبحانه- ما أنزله بالقوم الظالمين فقال: وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْمًا آخَرِينَ.

قوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً} [الأنبياء: ١١]، أي:" وكثير من القرى كان أهلها ظالمين بكفرهم بما جاءتهم به رسلهم، فأهلكناهم بعذاب أبادهم جميعًا".

قال ابن قتيبة:" أي أهلكنا. وأصل القصم: الكسر".

قال الزجاج:" معنى «قصمنا»: أهلكنا وأذهبنا، يقال: قصم الله عمر الكافر أي أذهبه".

قال الطبري: يقول: " وكثيرا قصمنا من قرية، والقصم: أصله الكسر، يقال منه: قصمت ظهر فلان إذا كسرته، وانقصمت سنه: إذا انكسرت، وهو هاهنا معني به أهلكنا".

عن مجاهد، قوله:" {وَكَمْ قَصَمْنَا}، قال: أهلكنا".

قال ابن زيد:" قصمها أهلكها".

=

=

قوله تعالى: {وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ} [الأنبياء: ١١]، أي:" وأوجدنا بعدهم قومًا آخرين سواهم".

قال الطبري: يقول:" وأحدثنا بعد ما أهلكنا هؤلاء الظلمة من أهل هذه القرية التي قصمناها بظلمها قوما آخرين سواهم".

و «كم» هنا خبرية مفيدة للتكثير، وهي في محل نصب على أنها مفعول مقدم «لقصمنا».

وأصل القصم: كسر الشيء حتى ينقطع وينفصل عن غيره، يقال: قصم فلان ظهر فلان، إذا كسره حتى النهاية، بخلاف الفصم فهو صدع الشيء من غير قطع وانفصال.

قال القرطبي: «والقصم: الكسر، يقال: قصمت ظهر فلان، وانقصمت سنه، إذا انكسرت.

والمعنى ها هنا به الإهلاك. وأما الفصم- بالفاء- فهو الصدع في الشيء من غير بينونة» ا.هـ.

وقال الرازي: اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الاعتراضات وكانت تلك الاعتراضات ظاهرة السقوط لأن شرائط الإعجاز لما تمت في القرآن ظهر حينئذ لكل عاقل كونه معجزا، وعند ذلك ظهر أن اشتغالهم بإيراد تلك الاعتراضات كان لأجل حب الدنيا وحب الرياسة فيها فبالغ سبحانه في زجرهم عن ذلك فقال: وكم قصمنا من قرية قال صاحب «الكشاف» القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم وذكر القرية وأنها ظالمة وأراد أهلها توسعا لدلالة العقل على أنها لا تكون ظالمة ولا مكلفة ولدلالة قوله تعالى: وأنشأنا بعدها قوما آخرين فالمعنى أهلكنا قوما وأنشأنا قوما آخرين... ا.هـ

أي: وكثيرا من القرى الظالمة التي تجاوز أهلها حدود الحق، ومردوا على الكفر

=

=

والضلال، أبدناها مع أهلها، وعذبناها عذابا نكرا، بسبب ظلمهم وبغيهم، وأنشأنا من بعدهم قوما آخرين ليسوا مثلهم.

وأوقع -سبحانه- فعل القصم على القرى، للإشعار بأن الهلاك قد أصابها وأصاب أهلها معها. فالكل قد دمره -سبحانه- تدميرا.

أما عند الإنشاء فقد أوقع الفعل على القوم فقال: وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْمًا آخَرِينَ للإيماء إلى أن هؤلاء القوم الآخرين، الذين لم يكونوا أمثال السابقين، هم الذين ينشئون القرى ويعمرونها.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا.

ثم صور -سبحانه- حال هؤلاء الظالمين عند ما أحسوا بالعذاب وهو نازل بهم فقال: فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ.

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا} [الأنبياء: ١٢]، أي:" فلما رأى هؤلاء الظالمون عذابنا الشديد نازلا بهم، وشاهدوا بوادره".

قال الطبري: " يقول: فلما عاينوا عذابنا قد حلّ بهم ورأوه قد وجدوا مسه".

قال السمعاني:" أي: وجدوا عذابنا، وقيل: وصل إليهم عذابنا".

قوله تعالى: {إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ} [الأنبياء: ١٢]، أي:" إذا هم من قريتهم يسرعون هاربين".

قال الطبري: " يقول: إذا هم مما أحسوا بأسنا النازل بهم يهربون سراعا عَجْلَى، يَعْدُون منهزمين".

قال ابن قتيبة:" أي: يعدون. وأصل «الركض»: تحريك الرجلين؛ تقول: ركضت الفرس: إذا أعديته بتحريك رجليك فعدا. ولا يقال: فركض، ومنه قوله: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ} [ص: ٤٢] ".

=

=

قال السمعاني:" أي: يهربون ركضا، يقال: ركض الدابة إذا أسرع في سيرها".
عن السدى قوله: {إذا هم منها يركضون}، قال: يفرون".
قال الزمخشري:" «الركض»: ضرب الدابة بالرجل. ومنه قوله تعالى: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ} [ص: ٤٢]، فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب، ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم".
وقوله: أَحَسُّوا من الإحساس. وهو إدراك الشيء بالحاسة. يقال: أحس فلان الشيء، إذا علمه بالحس، وأحس بالشيء، إذا شعر به بحاسته.
وقوله: يَرْكُضُونَ من الركض وهو السير السريع، وأصله: أن يضرب الرجل دابته برجله ليحثها على الجري والسرعة في المشي. والمقصود به هنا: الهرب بسرعة.
أى: فلما أحس هؤلاء الظالمون عذابنا المدمر، وأيقنوا نزوله بهم، وعلموا ذلك علما مؤكدا، إذا هم يخرجون من قريتهم يَرْكُضُونَ أى: يهربون بسرعة وذعر، حتى لكأنهم من اضطرابهم وخوفهم يظنون أن ذلك سينجيهم.
وإذا هنا فجائية، والجملة بعدها جواب «لما».
وقوله-سبحانه-: لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ حكاية لما تقوله لهم الملائكة وهم يركضون هربا- على سبيل التهكم والاستهزاء.
قوله تعالى: {لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ١٣]

أي: فنودوا في هذه الحال: لا تهربوا وارجعوا إلى لذاتكم وتنعُّمكم في دنياكم الملهية ومساكنكم المشيَّدة، لعلكم تُسألون من دنياكم شيئًا، وذلك على وجه السخرية والاستهزاء بهم.
قوله تعالى: {لَا تَرْكُضُوا} [الأنبياء: ١٣]، أي:" فنودوا في هذه الحال: لا تهربوا".
=

=

قال الطبري:" يقول: لا تهربوا ".

قال مجاهد:"لا تفرّوا".

عن ابن عباس قوله:" {لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ}، يعني: من نزل به العذاب في الدنيا ممن كان يعصي الله من الأمم".

قال الزمخشري:" فقيل لهم: {لا تركضوا}، والقول محذوف فإن قلت: من القائل؟ قلت: يحتمل أن يكون بعض الملائكة أو من ثم من المؤمنين أو يجعلوا خلفاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل. أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم. أو يلهمهم ذلك فيحدثوا به نفوسهم".

قوله تعالى: {وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ} [الأنبياء: ١٣]، أي:" وارجعوا إلى لذاتكم وتنعُّمكم في دنياكم الملهية ومساكنكم المشيَّدة".

قال الطبري: يقول: " وارجعوا إلى ما أُنعمتم فيه من عيشتكم ومساكنكم".

قال السمعاني:" [وارجعوا إلى ما] نعمتم فيه، والمترف: المنعم، وقيل: إلى دنياكم، {ومساكنكم} التي نعمتم فيها".

قال الزمخشري: أي:" من العيش الرأفة والحال الناعمة. و «الإتراف»: إبطار النعمة وهي الترفة".

قال قتادة: "يقول: ارجعوا إلى دنياكم التي أترفتم فيها".

قال مقاتل: يعني: "إلى ما خولتم فيه من الأموال {وإلى مساكنكم}، يعنى: قريتكم التي هربتم منها".

قال الربيع:" كانوا إذا أحسوا بالعذاب وذهبت عنهم الرسل من بعد ما أنذروهم فكذبوهم، فلما فقدوا الرسل وأحسوا بالعذاب أرادوا الرجعة إلى الإيمان وركضوا هاربين من العذاب، فقيل لهم: {لا تركضوا}، فعرفوا أنه لا محيص لهم".

=

=

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ١٣]، أي:" لعلكم تُسألون من دنياكم شيئًا".

وفي قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ١٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: لعلكم تسألون من دنياكم شيئا على وجه السخرية والاستهزاء، قاله قتادة.

الثاني: لعلكم تفقهون وتفهمون بالمسألة، قاله مجاهد.

وقال مقاتل:" كما سئلتم الإيمان قبل نزول العذاب".

الثالث: أي: لعلكم تسألون فتجيبون عما تشاهدون إذا رأيتم ما نزل بمساكنكم وما أترفتم فيه. قاله الزجاج.

الرابع: لتسألوا عما كنتم تعملون، قاله ابن بحر.

قال الزمخشري:" {لعلكم تسئلون} تهكم بهم وتوبيخ، أى: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة. أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم. وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم: بم تأمرون؟ وبماذا ترسمون؟ وكيف نأتى ونذر كعادة المنعمين المخدمين؟ أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب، ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم، ويستضيئون بآرائكم. أو يسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحائب أكفكم، ويمترون أخلاف «١» معروفكم وأياديكم: إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء، أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم، وتوبيخا إلى توبيخ".

قال السمعاني:" قال أكثر أهل التفسير: هذه الآيات نزلت في أهل مدينة كفروا،

=

=

فسلط الله عليهم بعض الجبابرة - وقيل: كان بختنصر - فلما أصابهم عذاب السيف هربوا، فقال لهم الملائكة، والسيوف قد أخذتهم: لا تهربوا، وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم. {لعلكم تسألون} من دنياكم، فتعطون من شئتم، وتمنعون من شئتم، قالوا هذا لهم استهزاء.

وقد قيل: هذا في أهل مدينة أصابهم عذاب من السماء، فخرجوا هاربين، وقال لهم الملائكة هذا القول، ويقال في قوله: {لعلكم تسألون} أي: تسألون لم تركتم ما يصلح دينكم وأمر آخرتكم، واشتغلتم بما يوجب العذاب عليكم؟ ويقال: لعلكم تسألون عما عاينتم من العذاب، قالت الملائكة هذا توبيخا لهم".

أي: يقال لهم من جهة الملائكة أو من جهة المؤمنين لا تركضوا هاربين وَارْجِعُوا إِلى قريتكم وإلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ أى: وإلى ما نعمتم فيه من العيش الهنيء. والخير الوفير، الذي أبطركم وجعلكم تجحدون النعم، ولم تستعملوها فيما خلقت له.

فقوله: أُتْرِفْتُمْ من الترفه- بالتاء المشددة مع الضم- وهي النعمة والطعام الطيب. يقال: ترف فلان- كفرح- إذا تنعم. وفلان أترفته النعمة، إذا أطغته أو نعمته.

وقوله: وَمَساكِنِكُمْ معطوف على ما.

أي: لا تهربوا وارجعوا إلى ما نعمتم فيه من العيش الهنيء، وإلى مساكنكم التي كنتم تسكنونها، وتتفاخرون بها.

لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ أى يقصدكم غيركم لسؤالكم عما نزل بكم، فتجيبوا عن علم ومشاهدة.

وهنا أدرك هؤلاء الظالمون، أن الأمر جد لا هزل، وأن العذاب نازل بهم لا محالة، وأن القائلين لهم لا تركضوا، إنما يتهكمون بهم. فأخذ أولئك الظالمون يتفجعون ويتحسرون قائلين: يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ.

{قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } [الأنبياء: ١٤]

=

=
أي: فلم يكن لهم من جواب إلا اعترافهم بجرمهم وقولهم: يا هلاكنا، فقد ظلمنا أنفسنا بكفرنا.
قال قتادة: " فما كان هجيراهم إلا الويل".
قال يحيى:" وهذا حين جاءهم العذاب".
قال الطبري:" قال هؤلاء الذين أحلّ الله بهم بأسه بظلمهم لما نزل بهم بأس الله: يا ويلنا إنا كنا ظالمين بكفرنا بربنا".
قال السمعاني:" الويل: دعاء الهلاك".
قال الزجاج:" «ويل»: كلمة تقال لكل من وقع في هلكة، وكذلك يقولها كل من وقع
في هلكة".
والويل: الفضيحة والبلية والمصيبة التي يعقبها الهلاك. وهي كلمة جزع وتحسر. وتستعمل عند ما تحيط بالإنسان داهية عظيمة، وكأن المتحسر لنزول مصيبة به، ينادى ويلته ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من ينادى.
أى: قالوا عند ما تيقنوا أن الهلاك نازل بهم: يا هلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا، مستوجبين للعذاب. بسبب إعراضنا عن الحق، وتكذيبنا لمن جاء به.
واسم الإشارة في قوله تعالى: فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ يعود إلى الكلمات التي قالوها على سبيل التحسر عند ما يئسوا من الخلاص والهرب، وتأكدوا من الهلاك، وهي قولهم: يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ.
قوله تعالى: {فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ} [الأنبياء: ١٥]
أي: فما زالت تلك المقالة - وهي الدعاء على أنفسهم بالهلاك، والاعتراف بالظلم - دَعْوَتَهم يرددونها حتى جعلناهم كالزرع المحصود، خامدين لا حياة
=

=

فيهم.

قال الطبري:" يقول فلم تزل دعواهم، حين أتاهم بأس الله، بظلمهم أنفسهم: {يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} حتى قتلهم الله، فحصدهم بالسيف كما يُحْصَد الزرع ويستأصل قطعا بالمناجل، هالكين قد انطفأت شرارتهم، وسكنت حركتهم، فصاروا همودا كما تخمد النار فتطفأ".

قال مقاتل:" يقول: يقول فما زال الويل قولهم، [حتى] أطفأناهم بالسيف، فحمدوا مثل النار إذا طفئت فحمدت".

قال أبو عبيدة:" «الخامد»: الهامد، كما يقال للنار إذا طفئت: خمدت النار، و «الحصيد»: المستأصل".

قال ابن عباس:" {حَصِيدًا}: الحصاد، {خامدين}: خمود النار إذا طفئت".

قال قتادة، ويحيى بن سلام:" يقول: حتى أهلكوا".

قال قتادة:" فلما رأوا العذاب وعاينوه لم يكن لهم هِجِّيرَى إلا قولهم (يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) حتى دمَّر الله عليهم وأهلكهم".

قال مجاهد:" إنهم كانوا أهل حصون، وإن الله بعث عليهم بختنصر، فبعث إليهم جيشا فقتلهم بالسيف، وقتلوا نبيا لهم فحُصِدوا بالسيف، وذلك قوله: {فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ} بالسيف".

قال الزمخشري:" {تلك} إشارة إلى {يا ويلنا}، لأنها دعوى، كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى دعواهم والدعوى بمعنى الدعوة. قال تعالى {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ١٠]. فإن قلت: لم سميت «دعوى»؟ قلت: لأن المولول كأنه يدعو الويل، فيقول تعالى: يا ويل فهذا وقتك".

قال ابن وهب:" حدثني رجل عن المحرر بن حريث قال: كان باليمن قريتان يقال لإحداهما: «حضوراء» والأخرى «قلاثة»، قال: فبطروا وأترفوا حتى ما كانوا

=

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦).

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا لَاعِبِينَ} عَابِثِينَ بَلْ دَالِّينَ عَلَى قُدْرَتنَا وَنَافِعِينَ عِبَادنَا.

=

يغلقون أبوابهم، قال: فلما أترفوا بعث الله إليهم نبيا فدعاهم فقتلوه؛ فألقى الله في نفس «بخت نصر» أن يغزوهم فجهز إليهم جيشا فقاتلوهم فهزموا جيشه، فرجعوا إليه منهزمين؛ فجهز إليهم جيشا آخر أكثف من الأول فهزموهم؛ فلما رأي ذلك بخت بن نصر غزاهم هو نفسه فقاتلوهم فهزمهم حتى خرجوا منها يركضون؛ فسمعوا مناديا يقول: {لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم}، فرجعوا، فسمعوا صوتا يقول: يا آل ثأرات النبي، فقتلوا بالسيوف؛ فهي التي قال الله: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ} [الأنبياء: ١١ - ١٥]".

أي: فما زالوا يرددون تلك الكلمات بتفجع وتحسر واستعطاف.

وسميت هذه الكلمات دعوى، لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلا: أيها الويل هذا أوانك فأقبل نحوي.

وقوله: حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ بيان لما آل إليه حالهم.

وخامدين: من الخمود بمعنى الهمود والانطفاء والانتهاء. يقال: خمدت النار تخمد خمدا وخمودا، إذا سكن لهيبها، وانطفأ شررها.

أي: فما زالت تلك كلماتهم حتى جعلناهم في الهمود والهلاك كالنبات المحصود بالمناجل، وكالنار الخامدة بعد اشتعالها.

وهكذا تكون عاقبة الظالمين. وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧).

{لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذ لَهْوًا} مَا يُلْهَى بِهِ مِنْ زَوْجَة أَوْ وَلَد {لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا} مِنْ عِنْدنَا مِنْ الْحُور الْعِين وَالْمَلَائِكَة {إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ} ذَلِكَ لَكِنَّا لَمْ نَفْعَلهُ فلم نرده.

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨).

{بَلْ نَقْذِف} نَرْمِي {بِالْحَقِّ} الْإِيمَان {عَلَى الْبَاطِل} الْكُفْر {فَيَدْمَغهُ} يُذْهِبهُ {فَإِذَا هُوَ زَاهِق} ذَاهِب وَدَمَغَهُ فِي الْأَصْل أَصَابَ دِمَاغه بِالضَّرْبِ وَهُوَ مَقْتَل {وَلَكُمْ} يَا كُفَّار مَكَّة {الْوَيْل} الْعَذَاب الشَّدِيد {مِمَّا تَصِفُونَ} الله بِهِ مِنْ الزَّوْجَة أو الولد.

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩).

{وَلَهُ} تَعَالَى {مَنْ فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض} مُلْكًا {وَمَنْ عِنْده} أَيْ الْمَلَائِكَة مُبْتَدَأ خَبَره {لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَته وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ} لَا يَعْيَوْنَ.

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠).

{يُسَبِّحُونَ اللَّيْل وَالنَّهَار لَا يَفْتُرُونَ} عَنْهُ فَهُوَ كَالنَّفَسِ مِنَّا لَا يَشْغَلنَا عَنْهُ شَاغِل[١].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} [الأنبياء: ١٦]

قال الطبري:" إلا حجة عليكم أيها الناس، ولتعتبروا بذلك كله، فتعلموا أن الذي دبره وخلقه لا يشبهه شيء، وأنه لا تكون الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء =

=

غيره، ولم يَخْلق ذلك عبثا ولعبا".

قال الزمخشري:" أى: وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب، كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم، للهو واللعب، وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد والمرافق التي لا تحصى".

قال قتادة:" يقول: ما خلقناهما عَبَثا ولا باطلا".

قال مجاهد:" ما خلقنا من جنة، ولا نار، ولا موت، ولا بعث، ولا حساب لاعبين".

وقال السدي: أي: إنا لم نخلقهما وما بينهما باطلا".

قال يحيى: "أي: إنما خلقناهما للبعث والحساب، والجنة والنار".

فيخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض عبثا، ولا لعبا من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قيله، الصادقة رسله، فيما تخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمهما، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

والمعنى: إننا لم نخلق السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله، لم نخلق ذلك عبثا، وإنما خلقنا هذه المخلوقات بحكمتنا السامية، وقدرتنا النافذة، ومشيئتنا التي لا يقف في وجهها شيء.

قوله تعالى: {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا} [الأنبياء: ١٧]، أي:" لو أردنا أن نتخذ لهوًا من الولد أو الصاحبة".

=

=

قال الطبري: يقول" لو أردنا أن نتخذ زوجة وولدا".

عن ابن عباس في قوله: " {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا}، قال: لعبا".

قال قتادة:" اللهو في بعض لغة أهل اليمن: المرأة".

قال الحسن " اللهو: المرأة بلسان اليمن".

قال عقبة بن أبي حمزة: "شهدت الحسن بمكة، قال: وجاءه طاووس وعطاء ومجاهد، فسألوه عن قول الله تبارك وتعالى: {لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذنا}، قال الحسن: «اللهو»: المرأة".

عن مجاهد في قوله: " {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا}، قال: زوجة".

قال السدي:" يقول: لو أردت إن أتخذ ولدا لاتخذت من الملائكة".

قال عكرمة:" اللهو: الولد".

قال ابن جريج:"قالوا مريم صاحبته، وعيسى ولده، فقال تبارك وتعالى: {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا} نساء وولدا".

قوله تعالى: {لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا} [الأنبياء: ١٧]، أي:" لاتخذناه من عندنا لا من عندكم".

قال الطبري: يقول" لاتخذنا ذلك من عندنا".

عن ابن جريج:" {لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ}، قال: من عندنا، ولا خلقنا جنة ولا نارا، ولا موتا ولا بعثا ولا حسابا".

عن مجاهد: قوله: {لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا}، من عندنا".

قال الزمخشري:" قوله: {لاتخذناه من لدنا}، كقوله: {رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا} [القصص: ٥٧]، أى: من جهة قدرتنا، وقيل {من لدنا}، أى: من الملائكة لا من الإنس، ردا لولادة المسيح وعزير".

قوله تعالى: {إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ١٧]، أي:" ما كنا فاعلين ذلك؛ لاستحالة

=

=

أن يكون لنا ولد أو صاحبة".

قال مجاهد وقتادة:" يقول: ما كنا فاعلين".

قال قتادة:" أي، إن ذلك لا يكون ولا ينبغي".

قال مجاهد:" يقول: وما خلقنا جنة ولا نارا ولا موتا ولا بعثا ولا حسابا، وكل شيء في القرآن «إن» فهو إنكار".

قال الطبري: يقول" ولكنا لا نفعل ذلك، ولا يصلح لنا فعله ولا ينبغي، لأنه لا ينبغي أن يكون لله ولد ولا صاحبة".

قال الزمخشري:" ثم بيّن أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالى: هو أن الحكمة صارفة عنه، وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلا لأنى على كل شيء قدير".

وقوله تعالى: لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ استئناف مقرر لمضمون ما قبله، من أن خلق السموات والأرض وما بينهما لم يكن عبثا، وإنما لحكم بالغة، مستتبعة لغايات جليلة، ومنافع عظيمة، سويناها للفوائد الدينية، والحكم الربانية، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد والمرافق التي لا تحصى. وقال أبو السعود: في هذه الآية إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم وإبداع بني آدم، مؤسس على قواعد الحكم البالغة، المستتبعة للغايات الجليلة. وتنبيه على أن ما حكي من العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى، من مقتضيات تلك الحكم، ومتفرعاتها. عن حسب اقتضاء أعمالهم إياه. وإن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوبا مثل ذنوبهم. أي ما خلقناهما وما بينهما على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع، خالية عن الحكم والمصالح.

بل إنما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأ لوجود الإنسان وسببا لمعاشه. ودليلا

=

=

يقوده إلى تحصيل معرفتنا التي هي الغاية القصوى، بواسطة طاعتنا وعبادتنا. كما ينطق به قوله تعالى: وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا [هود: ٧]، وقوله تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [الذاريات: ٥٦].

و «لو» هنا حرف امتناع لامتناع. أي: امتناع وقوع فعل الجواب لامتناع وقوع فعل الشرط.

واللهو: الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة، ولا يتناسب مع الجد، وهو قريب من العبث الباطل تقول: لهوت بهذا الشيء ألهو لهوا، إذا تشاغلت به عن الجد، ويطلقه بعضهم على الولد والزوجة والمرأة.

أى: لو أردنا- على سبيل الفرض والتقدير- أن نتخذ ما نتلهى به، لاتخذناه من عندنا ومن جهتنا دون أن يمنعنا أحد مما نريده ولكنا لم نرد ذلك لأنه مستحيل علينا استحالة ذاتية، فيستحيل علينا أن نريده.

فالآية الكريمة من باب تعليق المحال على المحال، لأن كلا الأمرين يتنافى مع حكمة الله تعالى ومع ذاته الجليلة.

وقوله: إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ تأكيد لامتناع إرادة اللهو، وأَنْ نافية، أى: ما كنا فاعلين ذلك، لأن اتخاذ اللهو يستحيل علينا.

وقوله-سبحانه-: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ) إضراب عن إرادة اتخاذ اللهو، وإثبات لما تقتضيه ذاته تعالى مما يخالف ذلك.

قوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ} [الأنبياء: ١٨]، أي:" بل نقذف بالحق ونبيِّنه، فيدحض الباطل".

قال ابن كثير:" أي: نبين الحق فيدحض الباطل".

قال الطبري: يقول:" ولكن ننزل الحق من عندنا، وهو كتاب الله وتنزيله على

=

الكفر به وأهله، فيدمغه، يقول: فيهلكه كما يدمغ الرجل الرجل بأن يشجه على رأسه شجة تبلغ الدماغ، وإذا بلغت الشجة ذلك من المشجوج لم يكن له بعدها حياة".

قال الزمخشري:" {بل}، إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب، وتنزيه منه لذاته، كأنه قال: سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب، بل من عادتنا وموجب حكمتنا.. أن نغلب اللعب بالجد، وندحض الباطل بالحق. واستعار لذلك القذف والدمغ، تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا، قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه".

قال قتادة:" والحقّ كتاب الله القرآن، والباطل: إبليس، فيدمغه".

قال ابن قتيبة:" {فيدمغه}، أي: يكسره. وأصل هذا إصابة الرأس والدماغ بالضرب وهو مقتل".

قوله تعالى: {فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: ١٨]، أي:"، فإذا هو ذاهب مضمحل".

قال الطبري:" يقول: فإذا هو هالك مضمحلٌ".

عن قَتادة:" {فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}، قال: هالك". وفي رواية:" ذاهب".

قوله تعالى: {وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [الأنبياء: ١٨]، أي:" ولكم العذاب في الآخرة – أيها المشركون – مِن وَصْفكم ربكم بغير صفته اللائقة به".

قال ابن كثير:" {وَلَكُمُ الْوَيْلُ}، أي: أيها القاتلون: لله ولد، {مِمَّا} تقولون وتفترون".

قال الطبري:" يقول: ولكم الويل من وصفكم ربكم بغير صفته، وقِيلكم إنه اتخذ زوجة وولدا، وفِريتكم عليه".

عن قتادة، قوله: " {وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}، أي: تكذبون".

عن ابن جريج:" {وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}، قال: تشركون".

=

عن مجاهد: {سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ}، قال: قولهَم الكذب في ذلك".

قال الحسن:" هي والله واصف كذب إلى يوم القيامة".

والقذف: الرمي بسرعة. والاسم القذاف- ككتاب-، وهو سرعة السير، ومنه قولهم: ناقة قذاف- بكسر القاف- إذا كانت متقدمة على غيرها في السير.

ويدمغه: أى. يمحقه ويزيله. قال القرطبي: وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ.

أى: ليس من شأننا أن نتخذ لهوا، وإنما الذي من شأننا وحكمتنا، أن نلقى بالحق الذي أرسلنا به رسلنا، على الباطل الذي تشبث به الفاسقون فَيَدْمَغُهُ أى: فيقهره ويهلكه ويزيله إزالة تامة.

والتعبير القرآنى البليغ، يرسم هذه السنة الإلهية في صورة حسية متحركة حتى لكأنما الحق قذيفة تنطلق بسرعة فتهوي على الباطل فتشق أم رأسه، فإذا هو زاهق زائل.

قال الآلوسى: وفي إذا الفجائية، والجملة الاسمية، من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان مالا يخفى، فكأنه زاهق من الأصل ا.هـ.

وقوله تعالى: وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ وعيد شديد لأولئك الكافرين الذين نسبوا إلى الله تعالى مالا يليق به، ووصفوه بأن له صاحبة وولدا سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

أى: ولكم- أيها الضالون المكذبون- الويل والهلاك، من أجل وصفكم له تعالى بما لا يليق بشأنه الجليل.

وقوله تعالى: وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ استئناف مؤكد لما قبله من أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته تعالى.

قوله تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأنبياء: ١٩]، أي:" ولله سبحانه

=

كل مَن في السموات والأرض".

قال الطبري:" وكل من في السماوات والأرض عبيده، فأنى يكون له صاحبة وولد: يقول: أولا تتفكرون فيما تفترون من الكذب على ربكم".

عن ابن عباس:" قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم". وروي عن عثمان بن سعيد مثله.

قوله تعالى: {وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ} [الأنبياء: ١٩]، أي:" والذين عنده من الملائكة لا يأنَفُون عن عبادته ولا يملُّونها. فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلقه؟ ".

قال ابن كثير:" {وَمَنْ عِنْدَهُ}، يعني: الملائكة، {لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} أي: لا يستنكفون عنها، [و] لا يتعبون ولا يَملُّون ".

قال الطبري: يقول: " والذين عنده من خلقه لا يستنكفون عن عبادتهم إياه ولا يَعْيَون من طول خدمتهم له، وقد علمتم أنه لا يستعبد والد ولده ولا صاحبته".

عن قتادة قوله: " {ومن عنده}، قال: الملائكة".

قال الزمخشري:" {ومن عنده}، هم الملائكة. والمراد أنهم مكرمون، منزلون- لكرامتهم عليه- منزلة المقربين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان".

عن ابن عباس، قوله:" {وَلا يَسْتَحْسِرُونَ}، لا يرجعون".

قال مجاهد:"لا يحسرون".

قال قتادة:" لا يُعيون".

قال السدي:": لا ينقطعون من العبادة".

قال ابن زيد:" لا يملُّون ذلك الاستحسار، ولا يفترون، ولا يسأمون".

قال ابو عبيدة:" أي: لا يفترون ولا يعيون ولا يملّون، ويقال: حسرت البعير".

=

قال ابن قتيبة:" أي: لا يعيون، و «الحسير»: المنقطع به الواقف إعياء أو كلالا".

قال الزجاج:" أي: لا يعيون، يقال حسر واستحسر إذا تعب وأعيا، فالملائكة لا يعيون".

قال الطبري:" هذا كله معناه واحد والكلام مختلف، وهو من قولهم: بعير حَسِير: إذا أعيا وقام؛ ومنه قول علقمة بن عبدة:

بِها جِيفُ الحَسْرَى فأمَّا عِظامُها... فَبِيضٌ، وأمَّا جِلْدُها فَصَلِيبُ".

قال الزمخشري:" أى، تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم، لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر".

أي: وله وحده-سبحانه- جميع من في السموات والأرض، خلقا، وملكا، وتدبيرا، وتصرفا وإحياء، وإماتة، لا يخرج منهم أحد عن علمه وقدرته- ﷻ.

ثم بين-سبحانه- نماذج من عباده الطائعين له، بعد أن حكى أقوال أولئك الضالين، فقال: وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ.

قوله تعالى: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} [الأنبياء: ٢٠]، أي:" هم في عبادة دائمة ينزّهون الله عما لا يليق به ويصلّون ويذكرون الله ليل نهارَ".

قال الطبري: أي:" يسبح هؤلاء الذين عنده من ملائكة ربهم الليل والنهار".

قال الزجاج:" أي: لا يشغلهم عن التسبيح رسالة، ومجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا، لا يشغلنا عن النفس شيء، فكذلك تسبيحهم دائم".

قال ابن كثير:" فهم دائبون في العمل ليلا ونهارًا، مطيعون قصدًا وعملا قادرون عليه، كما قال تعالى: {لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦] ".

قوله تعالى: {لَا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: ٢٠]، أي:" لا يضعفون ولا يسأمون".

=

=

قال الطبري: أي:" لا يفترون من تسبيحهم إياه".

قال قتادة:" يقول: الملائكة الذين هم عند الرحمن لا يستكبرون عن عبادته، ولا يسأمون فيها".

عن عبد الله بن الحارث: "أن ابن عباس سأل كعبا عن قوله: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ} و {يسبحون الليل والنهار لا يسأمون}، فقال: هل يئودك طرفك؟ هل يَئُودك نَفَسُك؟ قال: لا قال: فإنهم ألهموا التسبيح كما ألهمتم الطَّرْف والنَّفَس".

قال عبد الله بن الحارث:" قلت: لكعب الأحبار {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ} أما يشغلهم رسالة أو عمل؟ قال: يا بن أخي إنهم جُعل لهم التسبيح، كما جُعل لكم النفس، ألست تأكل وتشرب وتقوم وتقعد وتجيء وتذهب وأنت تنفَّس؟ قلت: بلى قال: فكذلك جُعل لهم التسبيح".

قال عبد الله بن عمر: "إن الله خلق عشرة أجزاء، فجعل تسعة أجزاء الملائكة، وجزءا سائر الخلق، وجزأ الملائكة عشرة أجزاء، فجعل تسعة أجزاء يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وجزءا لرسالته، وجزأ الخلق عشرة أجزاء، فجعل تسعة أجزاء الجنّ، وجزءا سائر بني آدم، وجزأ بني آدم عشرة أجزاء، فحمل يأجوج ومأجوج تسعة أجزاء وجزءا سائر بني آدم".

عن حكيم بن حِزَام قال: بينا رسول الله- ﷺ- بين أصحابه إذ قال لهم: هل تسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله- ﷺ- إني لأسمع أطيط السماء. وما تلام أن تئط، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم".

والاستحسار: الكلل والتعب. يقال: حسر البصر يحسر حسورا- من باب قعد- إذا تعب من طول النظر، ومنه قوله تعالى: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ

=

=

الْبَصَرُ خاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ أى: كليل متعب.

أى: ومن عنده من مخلوقاته وعلى رأسهم الملائكة المقربون، لا يستكبرون عن عبادته سبحانه بل يخضعون له خضوعا تاما وَلا يَسْتَحْسِرُونَ أى: ولا يكلون ولا يتعبون.

بل هم يُسَبِّحُونَ الله تعالى ويحمدونه ويكبرونه. طوال الليل والنهار بدون فتور أو تراخ أو تقصير. يقال: فتر فلان عن الشيء يفتر فتورا، إذا سكن بعد حدة، ولان بعد شدة، ويقال: فتر الماء- من باب قعد- إذا سكن حره فهو فاتر.

قالوا: وذلك لأن تسبيح الملائكة لله تعالى يجرى منهم مجرى التنفس منا، فهو سجية وطبيعة فيهم وكما أن اشتغالنا لا يمنعنا من الكلام، فكذلك اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال.

قال الرازي: فيه مسائل:

المسألة الأولى: في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان. الأول: أنه تعالى لما نفى اللعب عن نفسه ونفي اللعب لا يصح إلا بنفي الحاجة ونفي الحاجة لا يصح إلا بالقدرة التامة، لا جرم عقب تلك الآية بقوله: وله من في السماوات والأرض لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة. الثاني: وهو الأقرب أنه تعالى لما حكى كلام الطاعنين في النبوات وأجاب عنها وبين أن غرضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين في هذه الآية أنه تعالى منزه عن طاعتهم لأنه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات، ولأجل أن الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه.

المسألة الثانية: قوله: وله من في السماوات والأرض معناه أن كل المكلفين في السماء والأرض فهم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم، فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه.

=

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١).

{أَمْ} بِمَعْنَى بَلْ لِلِانْتِقَالِ وَالْهَمْزَة لِلْإِنْكَارِ {اتَّخَذُوا آلِهَة} كَائِنَة {مِنْ الْأَرْض} كَحَجَرٍ وَذَهَب وَفِضَّة {هُمْ} أَيْ الْآلِهَة {يَنْشُرُونَ} أَيْ يُحْيُونَ الْمَوْتَى لَا وَلَا يَكُون إلَهًا إلَّا مَنْ يُحْيِي الموتى.

=

مسألة: في قوله تعالى {يسبحون الليل والنهار لا يفترون} دليل على مشروعية الذكر المطلق في كل زمان، وقد ثبت في الوحي مشروعية الذكر بإطلاق؛ وذلك في عمومات ثلاثة:

الأول: يشرع الذكر في كل زمان بلا استثناء؛ لهذه الآية: {يسبحون الليل والنهار لا يفترون}، وقول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه"؛ رواه مسلم، وعلقه البخاري.

وليس للذكر زمان مخصوص به كالصلاة والصيام والحج؛ فهو أعم منها.

الثاني: يشرع الذكر على كل حال بلا استثناء؛ كما قال تعالى: {فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم} [النساء: ١٠٣]، وقال تعالى {الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم} [آل عمران: ١٩١].

الثالث: يشرع الذكر في كل مكان، وهذا العموم دخله استثناء يسير، كعند قضاء الحاجة وما يلحق بها؛ وذلك لأن النبي ﷺ لم يرد السلام على من سلم عليه وهو على حاجته.

والشريعة خصت بعض الأحوال والأزمان والأمكنة بذكر مخصوص فيكون فيها الذكر سنة، ويكون فاضلا وغيره مفضولا، بل إن تعمد ترك الفاضل في هذا الموضع والمداومة على غيره فيما جاءت السنة بخلافه، فذلك بدعة.

(**تنبيه**): تفسير العندية في قوله تعالى (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) تقدم تفسيره بتويع العندية تحت الآية رقم (٧٦) من سورة البقرة.

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢).

{لَوْ كَانَ فِيهِمَا} أَيْ السَّمَاوَات وَالْأَرْض {آلِهَة إِلَّا الله} أَيْ غَيْره {لَفَسَدَتَا} أَيْ خَرَجَتَا عَنْ نِظَامهمَا الْمُشَاهَد لِوُجُودِ التَّمَانُع بَيْنهمْ عَلَى وَفْق الْعَادَة عِنْد تَعَدُّد الْحَاكِم مِنْ التَّمَانُع فِي الشَّيْء وَعَدَم الِاتِّفَاق عَلَيْهِ {فَسُبْحَان} تَنْزِيه {الله رَبّ} خَالِق {الْعَرْش} الْكُرْسِيّ {عَمَّا يَصِفُونَ} الْكُفَّار الله بِهِ مِنْ الشَّرِيك لَهُ وَغَيْره.

لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣).

{لَا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل وَهُمْ يُسْأَلُونَ} عَنْ أفعالهم.

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤).

{أم اتخذوا من دونه} تعالى أي سواه {آلهة} فِيهِ اسْتِفْهَام تَوْبِيخ {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانكُمْ} عَلَى ذلك ولاسبيل إِلَيْهِ {هَذَا ذِكْر مَنْ مَعِيَ} أُمَّتِي وَهُوَ الْقُرْآن {وَذِكْر مَنْ قَبْلِي} مِنْ الْأُمَم وَهُوَ التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل وَغَيْرهمَا مِنْ كُتُب الله لَيْسَ فِي وَاحِد مِنْهَا أَنَّ مَعَ الله إِلَهًا مِمَّا قَالُوا تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ {بَلْ أَكْثَرهمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقّ} تَوْحِيد الله {فَهُمْ مُعْرِضُونَ} عَنْ النَّظَر الْمُوصِل إِلَيْهِ.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥).

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلك مِنْ رَسُول إِلَّا نُوحِي} وَفِي قِرَاءَة بِالْيَاءِ وَفَتْح الْحَاء {إِلَيْهِ أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} أي وحدوني[1].

(١) لما بيَّن تعالى كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم =

=

القدرة.

قال الرازي: اعلم أن الكلام من أول السورة إلى هنا كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجوابا، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد ونفى الأضداد والأنداد..» ا.هـ.

قوله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ} [الأنبياء: ٢١]

التفسير:

كيف يصح للمشركين أن يتخذوا آلهة عاجزة من الأرض لا تقدر على إحياء الموتى؟

قال الطبري:" يقول: هذه الآلهة التي اتخذوها يحيون الأموات، وينشرون الخلق؟ فإن الله هو الذي يحيي ويميت".

قال الزجاج:" معناه: أم اتخذوا آلهة يحيون الموتى. يقال: أنشر الله الموتى ونشروا هم".

عن قتادة قوله: " {أم اتخذوا آلهة من الأرض}، يعني: مما اتخذوا من الحجارة والخشب".

قال ابن زيد:" يقول: أفي آلهتهم أحد يحيي ذلك ينشرون".

قال السدي:" يقول: ينشرون الموتى من الأرض، يقول: يحيونهم من قبورهم".

عن مجاهد، قوله:" {يُنْشِرُونَ}، يقول: يُحيون".

والاستفهام في قوله أَمِ اتَّخَذُوا.. للإنكار والتوبيخ. أي: لا يقدرون على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا} {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ. لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} فالمشرك يعبد المخلوق، الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع

=

=

الإخلاص لله، الذي له الكمال كله وبيده الأمر والنفع والضر، وهذا من عدم توفيقه، وسوء حظه، وتوفر جهله، وشدة ظلمه، فإنه لا يصلح الوجود، إلا على إله واحد، كما أنه لم يوجد، إلا برب واحد.

والمعنى: إن هؤلاء الضالين قد أشركوا مع الله تعالى آلهة أخرى في العبادة، فهل هذه الآلهة التي اتخذوها تستطيع أن تعيد الحياة إلى الأموات؟

كلا إنها لا تستطيع ذلك بإقرارهم ومشاهدتهم، ومادام الأمر كذلك فكيف أباحوا لأنفسهم أن يتخذوا آلهة لا تستطيع أن تفعل شيئا من ذلك أو من غيره؟

إن اتخاذهم هذا لمن أكبر الأدلة وأوضحها على جهالاتهم وسفاهاتهم وسوء تفكيرهم.

قال الزمخشري ما ملخصه: فإن قلت: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر. وما كانوا يدّعون ذلك لآلهتهم، لأنهم كانوا ينكرون البعث أصلا ويقولون: من يحيى العظام وهي رميم؟ قلت: الأمر كما ذكرت ولكنهم بادعائهم لها الإلهية، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور، والإنشار من جملة المقدورات. وفيه باب من التهكم بهم، والتوبيخ والتجهيل، وإشعار بأن ما استبعدوه من الله تعالى لا يصح استبعاده، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة ا.هـ.

وقوله-سبحانه- مِنَ الْأَرْضِ متعلق باتخذوا، و «من» ابتدائية، أي: اتخذوها من أجزاء الأرض كالحجارة وما يشبهها، ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للآلهة، أي: اتخذوا آلهة كائنة من الأرض.. وعلى كلا التقديرين فالمراد بهذا التعبير التحقير والتجهيل.

ثم ساق-سبحانه- دليلا عقليا مستمدا من واقع هذا الكون فقال: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا.

=

=

قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: ٢٢]، أي:" لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله سبحانه وتعالى تدبر شؤونهما، لاختلَّ نظامهما".

قال قتادة:" لو كان معهما آلهة إلا الله لفسدتا".

قال الطبري: يقول:" لو كان في السماوات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء، وله العبادة والألوهية التي لا تصلح إلا له، لفسد أهل السماوات والأرض".

قال الزمخشري:" المعنى: لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا. وفيه دلالة على أمرين:

أحدهما: وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحدا.

والثاني: أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده، لقوله إلا الله.

فإن قلت: لم وجب الأمران؟

قلت: لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف.

وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو ابن سعيد الأشدق: كان والله أعز على من دم ناظري، ولكن لا يجتمع فحلان في شول وهذا ظاهر.

وأما طريقة التمانع فللمتكلمين فيها تجاول وطراد، ولأن هذه الأفعال محتاجة إلى تلك الذات المتميزة بتلك الصفات حتى تثبت وتستقر".

قوله تعالى: {فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنبياء: ٢٢]، أي:" فتنزَّه الله رب العرش، وتقدَّس عَمَّا يصفه الجاحدون الكافرون، من الكذب والافتراء وكل نقص".

قال الطبري: يقول:" فتنزيه لله وتبرئة له مما يفتري به عليه هؤلاء المشركون به من الكذب".

=

=

قال الزجاج:" معناه: تنزيه الله من السوء".

قال قتادة:" يسبح نفسه تبارك وتعالى إذا قيل عليه البهتان".

أي: لو كان في السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله تعالى، تدبر أمرهما، لفسدتا ولخرجتا عن نظامهما البديع، الذي لا خلل فيه ولا اضطراب.

وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم.. فيختل النظام لهذا الكون، ويضطرب الأمر، ويعم الفساد في هذا العالم.

ولما كان المشاهد غير ذلك إذ كل شيء في هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق دل الأمر على أن لهذا الكون كله، إلها واحدا قادرا حكيما لا شريك له.

قال الزمخشري: «والمعنى لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا.

وفيه دلالة على أمرين: أحدهما: وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحدا.

الثاني: أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده، لقوله إِلَّا اللهُ.

فإن قلت: لم وجب الأمران؟ قلت: لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف.

قال عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق: كان والله أعز على من دم ناظري. ولكن لا يجتمع فحلان في شول- أي: في عدد مع النياق- ا.هـ.

وقال السعدي: وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك، على أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم

=

=

اقتداره واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور، غير ممكن، فإذًا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: {مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ} ومنه – على أحد التأويلين – قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} ا.هـ

وقوله تعالى: فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ تنزيه لله تعالى عما قاله الجاهلون في شأنه- ﷻ.

أي: فتنزيها لله وتقديسا وتبرئة لذاته عن أن يكون له شريك في ألوهيته، وجل عما وصفه به الجاهلون.

وقوله تعالى: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ تأكيد لوحدانيته وقدرته-سبحانه-

أي: لا يسأله سائل-سبحانه- عما يفعله بعباده من إعزاز وإذلال. وهداية وإضلال، وغنى وفقر، وصحة ومرض، وإسعاد وإشقاء.. لأنه هو الرب المالك المتصرف في شئون خلقه، وهم يسألون يوم القيامة عن أعمالهم وأقوالهم لأنهم عبيده، وقد أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، فمنهم من اتبع الرسل فسعد وفاز، ومنهم من استحب العمى على الهدى فشقي وهلك.

قوله تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [الأنبياء: ٢٣]

قال ابن ابي زمنين:" {لا يسأل عما يفعل} بعباده {وهم يسألون} والعباد يسألهم الله عن أعمالهم".

قال السمعاني:" يعني: لا يسأل عما يحكم على خلقه، والخلق يسألون عن (أفعالهم وأعمالهم)، وقيل: لا يسأل عما يفعل؛ لأنه كله حكمة وصواب، وهم يسألون عما يفعلون لجواز الخطأ عليهم، وقيل: معنى لا يسأل عما يفعل: لا يقال

=

=

له: لم؟، ولماذا؟ بخلاف الخلق، وفي الآية رد على القدرية، وقطع شبهتهم بالكلية".

قال الطبري: يقول: " لا سائل يسأل رب العرش عن الذي يفعل بخلقه من تصريفهم فيما شاء من حياة وموت وإعزاز وإذلال، وغير ذلك من حكمه فيهم؛ لأنهم خلقه وعبيده، وجميعهم في ملكه وسلطانه، والحكم حكمه، والقضاء قضاؤه، لا شيء فوقه يسأله عما يفعل فيقول له: لم فعلت؟ ولمَ لم تفعل؟ {وَهُمْ يُسْأَلُونَ} يقول جلّ ثناؤه: وجميع من في السماوات والأرض من عباده مسئولون عن أفعالهم، ومحاسبون على أعمالهم، وهو الذي يسألهم عن ذلك ويحاسبهم عليه، لأنه فوقهم ومالكهم، وهم في سلطانه".

قال الزجاج:" أي: لا يسأل في القيامة عن حكمه في عباده، ويسأل عباده عن أعمالهم سؤال موبخ لمن يستحق التوبيخ، ومجازيا بالمغفرة لمن استحق ذلك، لأن الله ﷻ قد علم أعمال العباد، ولكن يسألهم إيجابا للحجة عليهم، وهو قوله: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} [الصافات: ٢٤]، أي: سؤال الحجة التي ذكرنا، فأما قوله: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٣٩]، فهذا معناه: لا يسأل عن ذنبه ليستعلم منه، لأن الله قد علم أعمالهم قبل وقوعها وحين وقوعها وبعد وقوعها. {عالم الغيب والشهادة} ".

قال الزمخشري:" إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم، تهيبا وإجلالا، مع جواز الخطإ والزلل وأنواع الفساد عليهم- كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسئل عن أفعاله، مع ما علم واستقر في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعى الحكمة.. {وهم يسئلون}، أى: هم مملوكون مستعبدون خطاءون، فما خلقهم بأن يقال لهم: لم فعلتم؟ في كل شيء فعلوه ".

=

=

عن قتادة، قوله:" {لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}، يقول: لا يسأل عما يفعل بعباده، وهم يسألون عن أعمالهم".

قال الضحاك:" لا يسأل الخالق عما يقضي في خلقه، والخلق مسئولون عن أعمالهم".

قال ابن جريج:" لا يسأل الخالق عن قضائه في خلقه، وهو يسأل الخلق عن عملهم".

روى أبو الأسود الدؤلي أن عمران بن حصين قال له: "أرأيت ما يسعى فيه الناس ويكدحون، أهو أمر قضي عليهم أو شيء يستأنفونه؟ فقلت: لا، بل أمر قضي عليهم، قال: أفلا يكون ظلما؟ قلت: سبحان الله {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فقال لي: أصبت يا أبا الأسود، وقد أجزت عقلك، ثم روى عمران أن رجلا من جهينة – أو مزينة – أتى النبي قال له: عما يفعل الناس أو يكدحون فيه، أهو شيء قضي عليهم؟ أم شيء يستأنفونه؟ فقال النبي: " هو شيء قضي عليهم، فقال ذلك الرجل: يا رسول الله، أفلا يكون ظلما؟ قال: لا، ثم تلا قوله تعالى: {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون} ".

قال القاسمي: لا يسئل عما يفعل أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه وهم يسئلون الضمير للعباد. أي يسئلون عما يفعلون كقوله: فو ربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون [الحجر: ٩٢- ٩٣].

قال ابن كثير: وهذه الآية كقوله تعالى: وهو يجير ولا يجار عليه [المؤمنون: ٨٨].

(تنبيه): قال الغزالي في (المضنون به على غير أهله): وأما معنى قول الله تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون، وقوله تعالى: لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا [طه: ١٢٥]، فالسؤال قد يطلق ويراد به الإلزام. يقال: ناظر فلان فلانا وتوجه

=

=

عليه سؤاله. وقد يطلق ويراد به الاستخبار، كما يسأل التلميذ أستاذه. والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام. وهو المعني بقوله لا يسئل عما يفعل إذ لا يقال (لم) قول إلزام. فأما أن لا يستخبر ولا يستفهم، فليس كذلك. وهو المراد بقوله: لم حشرتني أعمى ا.هـ

وبعد أن ساق-سبحانه- دليلا عقليا على وحدانيته، أتبعه بدليل آخر نقلي، فقال تعالى: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ، هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ...

قوله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً} [الأنبياء: ٢٤]، أي:" هل اتخذ هؤلاء المشركون مِن غير الله آلهة تنفع وتضر وتحيي وتميت؟ ".

قال الطبري: يقول:" أتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة تنفع وتضرّ، وتخلق وتحيي وتميت".

قال الزمخشري:" كرر {أم اتخذوا من دونه آلهة} استفظاعا لشأنهم واستعظاما لكفرهم، أى: وصفتم الله تعالى بأن له شريكا؟ ".

قوله تعالى: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ} [الأنبياء: ٢٤]، أي:" قل - أيها الرسول - لهم: هاتوا ما لديكم من البرهان على ما اتخذتموه آلهة".

قال قتادة:" يقول: هاتوا بينتكم على ما تقولون".

قال الطبري:" قل يا محمد لهم: هاتوا برهانكم، يعني حجتكم يقول: هاتوا إن كنتم تزعمون أنكم محقون في قيلكم ذلك حجة ودليلا على صدقكم".

قال الزمخشري: أي:" فهاتوا برهانكم على ذلك: إما من جهة العقل، وإما من جهة الوحى".

قال الزجاج:" قد أبان الله الحجة عليهم في تثبيت توحيده وأن آلهتهم لا تغني عنهم شيئا، ثم قيل لهم: هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمتة بأن لهم إلها

=

=

غير الله".

قوله تعالى: {هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي} [الأنبياء: ٢٤]، أي:" هذا الكتاب الذي معي والكتب التي من قبلي كالتوراة والإنجيل ليس فيها ما يقتضي الإشراك بالله، ففي أي كتابٍ نزل هذا؟ ".

قال الطبري:" يقول: هذا الذي جئتكم به من عند الله من القرآن والتنزيل، خبر من معي مما لهم من ثواب الله على إيمانهم به، وطاعتهم إياه، وما عليهم من عقاب الله على معصيتهم إياه وكفرهم به، وخبر من قبلي من الأمم التي سلفت قبلي، وما فعل الله بهم في الدنيا وهو فاعل بهم في الآخرة".

قال الزجاج:" فهل في ذكر من معي وذكر من قبلي إلا توحيد الله ﷻ".

قال السدي:" يقول: خبر من معي وخبر من كان قبلي".

قال قتادة:" يقول: هذا القرآن فيه ذكر الحلال والحرام {وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي}، يقول: ذكر أعمال الأمم السالفة وما صنع الله بهم إلى ما صاروا".

عن ابن جُرَيج:" {هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ}، قال: حديث من معي، وحديث من قبلي".

قال مقاتل:" يقول: هذا القرآن فيه خبر من معي، وخبر من قبلي من الكتب، ليس فيه أن مع الله- ﷻ- إلها كما زعمتم".

قال الزمخشري: أي:" فإنكم لا تجدون كتابا من كتب الأولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعو إليه، والإشراك به منهى عنه متوعد عليه. أى: هذا الوحى الوارد في معنى توحيد الله ونفى الشركاء عنه، كما ورد على فقد ورد على جميع الأنبياء، فهو {ذكر}: أى: عظة للذين معى: يعنى: أمته، وذكر للذين من قبلي: يريد أمم الأنبياء عليهم السلام".

قوله تعالى: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ} [الأنبياء: ٢٤]، أي:" بل أكثر المشركين لا يعلمون التوحيد".

=

=

قال الطبري:"يقول: بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الصواب فيما يقولون ولا فيما يأتون ويذرون".

قال مقاتل:" يعني: كفار مكة، لا يعلمون التوحيد".

قوله تعالى: {فَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء: ٢٤]، أي:" فهم معرضون عن النظر والتأمل في دلائل الإيمان".

قال الطبري:" فهم معرضون عن الحق جهلا منهم به، وقلّة فهم".

قال قتادة:" عن كتاب الله".

قال الآلوسى ما ملخصه: هذا إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة، لخلوها من خصائصها التي من جملتها الإنشار، إلى تبكيتهم ومطالبتهم بالبرهان على دعواهم الباطلة، وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد، وبطلان الإشراك.. ا.هـ.

أى: إن هؤلاء الكافرين قد أشركوا مع الله تعالى آلهة أخرى في العبادة، بسبب جهلهم وعنادهم وجحودهم للحق.. قل لهم- أيها الرسول الكريم- على سبيل التبكيت والتوبيخ هاتُوا بُرْهانَكُمْ على أن مع الله تعالى آلهة أخرى تستحق مشاركته في العبادة والطاعة؟ ولا شك أنهم لا برهان لهم على ذلك.

وقوله تعالى: هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي زيادة في تبكيتهم وفي إظهار عجزهم، أى: هذا الوحى الإلهى الناطق بتوحيد الله تعالى موجود في القرآن الكريم المشتمل على ذكر المعاصرين لي من أتباعى، وموجود في كتب الأنبياء السابقين، كالتوراة التي أنزلها الله على موسى، والإنجيل الذي أنزله على عيسى، فمن أين أتيتم أنتم بهؤلاء الشركاء، وكيف اتخذتموهم آلهة مع أنهم لا برهان عليهم لا من جهة العقل ولا من جهة النقل؟

فاسم الإشارة هذا في قوله: هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ مبتدأ، مشار به إلى الوحى الإلهى،

=

=

وقد أخبر عنه -سبحانه- بخبرين- كما يقول الشيخ الجمل-: «فبالنظر للخبر الأول يراد به القرآن، وبالنظر للخبر الثاني يراد به ما عداه من الكتب السماوية».

وقوله تعالى: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ إضراب من جهته تعالى عن مناقشتهم ومطالبتهم بالبرهان، وانتقال من الأمر بتبكيتهم إلى الأمر بإهمالهم استصغارا لشأنهم.

أى: دعهم- أيها الرسول الكريم- في باطلهم يعمهون فإنهم قوم أكثرهم يجهلون الحق، ولا يستطيعون التمييز بينه وبين الباطل. فهم لأجل ذلك منصرفون عن الهدى، ومتجهون إلى الضلال، ومن جهل شيئا عاداه.

ثم بين -سبحانه- أن جميع الرسل- عليهم الصلاة والسلام- قد أمروا أقوامهم بإخلاص العبادة لله، ونبذ الشرك والشركاء، فقال تعالى: وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ.

قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} [الأنبياء: ٢٥]، أي:" وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول - من رسول إلا نوحي إليه أنه لا معبود بحق إلا الله".

قال الطبري:" وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم إلا نوحي إليه أنه لا معبود في السماوات والأرض، تصلح العبادة له سواي".

قال يحيى:" أي: لا تعبدوا غيري، بذلك أرسل الرسل جميعا".

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: {نوحي إليه}، بالنون وكسر الحاء على التعظيم، لقوله {وما أرسلنا} وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء على الفعل المجهول.

قوله تعالى: {فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]، أي:" فأخْلصوا العبادة له وحده".

قال مقاتل:" يعني: فوحّدون".

=

=

قال الطبري:" يقول: فأخلصوا لي العبادة، وأفردوا لي الألوهية".

قال الزمخشري:" هذه الآية مقررة لما سبقها من آي التوحيد".

قال قتادة:" أرسلت الرسل بالإخلاص والتوحيد، لا يقبل منهم "قال أبو جعفر: أظنه أنا قال": عمل حتى يقولوه ويقرّوا به، والشرائع مختلفة، في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي القرآن شريعة، حلال وحرام، وهذا كله في الإخلاص لله والتوحيد له".

قال عبد الله بن عمرو: "إن إدريس كان قبل نوح، بعثه الله إلى قومه، يأمرهم أن يقولوا: لا إله إلا الله، ويعملوا ما شاءوا، فأبوا، فأهلكهم الله".

أى: وما أرسلنا من قبلك من رسول يا محمد إلا وأ فهمناه عن طريق وحينا أنه لا إله يستحق العبادة والطاعة إلا أنا، فعليه أن يأمر قومه بطاعتي وعبادتي والخضوع لي وحدي.

هذا، والمتدبر لهذه الآيات الكريمة، يراها قد أقامت أحكم الأدلة العقلية والنقلية على وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار. وعلى أن الذين يتخذون معه آلهة أخرى سفهاء جاهلون.

(فائدة): {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا} هذه الأية من أدلة ما يسمى دليل التمانع.

وخلاصته كما يقول الأشعري: "فإن قال قائل: لم قلتم إن صانع الأشياء واحد؟ قيل له: لأن الاثنين لا يجرى تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام، ولابد أن لا يلحقهما العجز أو واحدا منهما، لأن أحدهما إذا أراد أن يحيى إنسانا وأراد الآخر أن يميته، لم يخل أن يتم مرادهما جميعا، أو لا يتم مرادهما، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر. ويستحيل أن يتم مرادهما جميعا، لأنه يستحيل أن يكون الجسم حيا ميتا في حال واحدة، وإن لم يتم مرادهما جميعا وجب عجزهما

=

=

والعاجز لا يكون إلها ولا قديما وإن تم مراد أحدهما دون الآخر وجب العجز لمن لم يتم مراده منهما، والعاجز لا يكون إلها ولا قديما فدل ما قلناه على أن صانع الأشياء واحد، وقد قال تعالى: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا" [الأنبياء: ٢٢] فهذا معنى احتجاجنا آنفا" .

وجميع الأشاعرة يسوقون هذا الدليل، مع تنويع الأمثلة التى يوردونها، كالحركة والسكون، والإحياء والإماتة وغيرها.

وشيخ الإسلام يقرر أن دليل التمانع دليل صحيح، موصل إلى المطلوب في إثبات وحدانية الله تعالى في ربوبيته ، ولكنه يرد على، الأشاعرة لوقوعهم في خطأين، أحدهما وقع فيه متقدموهم- ومن جاء بعدهم ممن وافقهم عليه والثاني وقع فيه المتأخرون دون المتقدمين، ثم إن شيخ الإسلام يذكر لهذا الدليل برهانين ورد بهما القرآن للدلالة على أن الله واحد.

١ - أما الخطأ الذي وقع فيه المتقدمون من الأشاعرة ووافقهم عليه المتأخرون فهو ما أورده الأشعري مما سبق نقله من كلامه حين احتج على دليل التمانع بقوله تعالى: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا" [الأنبياء: ٢٢]، وقد أوضح شيخ الإسلام أن هذا الاحتجاج خاطىء، لأن هذه الآية جاءت لتقرير توحيد الألوهية والعبادة، لا توحيد الربوبية، ويربط شيخ الإسلام خطأ هؤلاء بخطئهم في فهم المقصود بالتوحيد الذي دعت إليه، حيث ظنوا أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل ، وقد سبق شرح ذلك-، ويبين شيخ الإسلام الفرق بين دليل التمانع وبين هذه الآية بقوله:

" هذه الآية ليس المقصود بها ما يقوله من يقوله من أهل الكلام، من ذكر دليل التمانع الدال على وحدانية الرب تعالى؛ فإن التمانع يمنع وجود المفعول، لا يوجب

=

=

فساده بعد وجوده. وذلك يذكر في الأسباب والبدايات التى تجري مجرى العلل الفاعلات. والثاني يذكر في الحكم والنهايات التى تذكر في العلل التي هي الغايات، كما في قوله تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" [الفاتحة: ٥]، فقدم الغاية المقصودة على الوسيلة الموصلة" . وهذا واضح، لأن التمانع يدل على أنه لو فرض أكثر من صانع لما وجدت المخلوقات، فوجودها يدل على صانع واحد، أما الآية فهى دالة على أنه لو وجد أكثر من إله يعبد لحدث الفساد، ففى الآية " بيان امتناع الألوهية من جهة الفساد الناشىء عن عبادة ما سوى الله تعالى، لأنه لا صلاح للخلق إلا بالمعبود المراد لذاته، من جهة غاية أفعالهم ونهاية حركاتهم، وما سوى الله لا يصلح، فلو كان فيهما معبود غيره لفسدتا من هذه الجهة، فإنه سبحانه هو المعبود المحبوب لذاته، كما أنه هو الرب الخالق بمشيئته. وهذا معنى قول النبي-ﷺ: أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد:

ألا كل شيء ماخلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

ولهذا قال الله في فاتحة الكتاب: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" [الفاتحة: ٥] وقدم اسم الله على اسم الرب في أولها حيث قال: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" [الفاتحة: ١]، فالمعبود هو المقصود المطلوب المحبوب لذاته، وهو الغاية والمعين، وهو البارىء المبدع الخالق ... " .

والخلاصة أن الآية جاءت لتقرير توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية ومعنى الآية أنه لو كان فيهما- أي السموات والأرض- آلهة غير الله لفسدتا ولكن ما فسدتا تدل على أنه ليس فيهما آلهة إلا الله .

٢- والخطأ الذي وقع فيه المتأخرون من الأشاعرة هو ظنهم أن القسمة في تقرير دليل التمانع لم تنته، وأنه بقي قسم رابع وهو أن يقال: يجوز أن يتفقا فلا يفضي ذلك إلى الاختلاف.

=

=

والأشاعرة حيال هذا الأمر ثلاثة أقسام:

أ- المتقدمون، كأبي الحسن الأشعري، والباقلاني، والقاضي أبي يعلى ذكروا دليل التمانع باحتمالاته الثلاثة، ولم يذكروا الرابع- الذي هو احتمال الاتفاق- لأنهم " علموا أن وجوب اتفاقهما في الإرادة يستلزم عجز كل منهما، كما أن تمانعهما يستلزم عجز كل منهما، فمنهم من أعرض عن ذكر هذا التقرير لأن مقصوده أن يبين أن فرض اثنين يقتضي عجز كل منهما، فإذا قيل: إن أحدها لا يمكنه مخالفة الآخر، كان ذلك أظهر في عجزه " ، وهذا واضح مما فعله هؤلاء في كتبهم فإنهم ضربوا صفحا عن التطويل بذكر هذا الاحتمال الفاسد.

ب- وبعض المتأخرين، كالجويني، والشهرستاني والرازي ، قرروا دليل التمانع، ولكن أوردوا الاحتمال الرابع، وردوا عليه من طرق عديدة لكنهم أجابوا "بوجوه عارضهم فيها غيرهم " .

٣- وبعض المتأخرين رأى أن هذا الاعتراض- باحتمال الاتفاق- مشكل، ولذلك ظن بعض هؤلاء أن التوحيد إنما يعرف بالسمع . ومن الذين زيفوا دليل التمانع وظنوا أن الاعتراض عليه باحتمال الاتفاق قادح فيه الآمدى .

وقد رد عليه شيخ الإسلام، وبين أن دليل التمانع برهان عقلي صحيح كما قرره فحول النظار، وبعد أن أورد دليل التمانع كما ساقوه قال: "فلما قيل لهم: هذا يلزم إذا اختلفت إرادتهما، فيجوز اتفاق إرادتهما. أجابوا بأنه إذا اتفقا في الآخر امتنع أن يكون نفس ما فعله أحدهما نفس الآخر، فإن استقلال أحدهما بالفعل

والمفعول، يمنع استقلال الآخر به، بل لابد أن يكون مفعول هذا متميزا عن مفعول هذا، وهذا معنى قوله تعالى: "إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ" [المؤمنون: ٩١] وهذا ممتنع؛ فإن العالم مرتبط بعضه ببعضه ارتباطا يوجب أن فاعل هذا ليس هو مستغنيا عن فاعل الآخر، لاحتياج بعض أجزاء العالم إلى بعض.

=

=

وأيضا فلابد أن يعلو بعضهم على بعض، فإن ما ذكرناه من جواز تمانعهما إنما هو مبني على جواز اختلاف إرادتهما، وذلك أمر لازم من لوازم كون كل منهما قادرا، فإنهما إذا كانا قادرين، لزم جواز اختلاف الإرادة. وإن قدر أن لا يجوز اختلاف الإرادة، بل يجب اتفاق الإرادة كان ذلك أبلغ في دلالته على نفي قدرة كل واحد منهما، فإنه إذا لم يجز أن يريد أحدهما ويفعل إلا ما يريده الآخر ويفعله، لزم أن لا يكون واحد منهما قادرا، إلا إذا جعله الآخر قادرا، ولزم أن لا يقدر أحدهما إلا إذا لم يقدر الآخر، وعلى التقديرين يلزم أن لا يكون واحد نهما قادرا، فإنه إذا لم يمكنه أن يريد ويفعل، إلا ما يريده الآخر ويفعله، والآخر كذلك- وليس فوقهما أحد يجعلهما قادرين مريدين - لم يكن هذا قادرا مريدا حتى يكون الآخر قادرا مريدا، وحينئذ فإن كان كل منهما جعل الآخر قادرا مريدا، كان هذا دورا قبليا، وهو دور في الفاعلين والعلل" وهو ممتنع.

وقد أطال شيخ الإسلام في مناقشة هذا الأمر في بعض كتبه ، وبين صحة هذا الدليل وسلامته. فهو متفق مع الأشاعرة في ذلك، ونقاشه لبعضهم لا يتطرق لنتيجة الاستدلال المتفق عليها، وإنما أراد شيخ الإسلام أن يستكمل النقص الذي ظن الآمدي وغيره أنه ينال من صحة دليل التمانع وقوته.

٤- وقد ذكر شيخ الإسلام- في أثناء مناقشاته لدليل التمانع- أن القرآن الكريم جاء بالأدلة العقلية الواضحة على إثبات التوحيد لله تعالى، وبين أن من ذلك ما ذكره تعالى بقوله: "مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ" [المؤمنون: ٩١]، وذكر أن الآية دلت على برهانين يقينيين- وسماهما في شرح الأصفهانية لازمين- يدلان على إفراد الله تعالى بالألوهية.

وشيخ الإسلام وهو يشرح هذين البرهانين لا يفوته أن يُذكِّر بالفرق الواضح بين

=

=

منهج المتكلمين ومنهج القرآن في ذلك. فالمتكلمون قصدوا تقرير توحيد الربوبية فقط لظنهم أنه غاية التوحيد الذي دعت إليه الرسل. وهذا منهج قاصر، لأن القرآن إنما جاء بالدعوة إلى توحيد الألوهية، لأنه الغاية المقصودة، أما توحيد الربوبية فإن المشركين كانوا مقرين به كما هو معروف، يقول شيخ الإسلام: " ومقصود القرآن توحيد الألوهية، وهو مستلزم لما ذكروه من غير عكس، ولهذا قال: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا" [الأنبياء: ٢٢] فلم يقل: لو كان فيهما إلهان، بل المقدر آلهة غير الإله المعلوم أنه إله، فإنه لم ينازع أحد في أن الله إله حق، وإنما نازعوا هل يتخذ كره إلها مع كونه مملوكا له ... " .

وقد سبق- قبل قليل- الإشارة إلى هذين اللازميين أو البرهانين الذين يلزمان على تقدير وجود ربين خالقين، وهذان اللازمان الباطلان هما: اللازم الأول: ما أشار إليه توله تعالى: "إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ" [المؤمنون: ٩١] يقول شيخ الإسلام: "أما اللازم الأول- وهو ذهاب كل إله بما خلق- فهذا لازم، سواء فرضا متماثلين في القدرة أو متفاضلين فيها، وإن كان كل من التقديرين ممتنعا، لكن بطلان هذا اللازم مما يدل على امتناع كل منهما؛ وذلك لأنه قد تبين أنه يمتنع أن يكون المفعول الواحد فعلا لكل منهما على سبيل الاستقلال، ويمتنع أيضا التعاون، بحيث لا يصير أحدهما قادرا إلا إذا أعانه الآخر، ولا يصير فاعلا إلا إذا [أعانه] الآخر، ويبين ذلك أن ذلك ممتنع لذاته، بل لابد أن يكون أحدهما قادرا على الفعل، يفعل بإرادته دون معاونة الآخر، وإذا كان كذلك وجب أن يتميز مفعوله عن مفعول الآخر، وأن يذهب بمفعوله، لأنه لا يجب اختلاط المفعولين إلا إذا احتاج أحد الفاعلين إلى الآخر، كالحاملين للخشبة، لا يقدر أحدهما على حملها إلا بمعاونة الآخر، فلا يتميز أثره في الخشبة عن أثر الآخر.

فأما القادر- الذي يمتنع افتقاره إلى من يعينه، وقدرته من لوازم ذاته الغنية عن أن

=

=

يجعله غيره قادرا- فهذا مقدوره متميز مستقل" ، ثم يقول: "و ... تعاونهما ممتنع لذاته، سواء قدر أن كلا منهما يقدر على الاستقلال أو قدر أنه لا يقدر على الاستقلال، وتمانعهما ممتنع لذاته.

وخلط أحد المفعولين بالآخر لا يخرج عن التمانع والتعاون؛ فإنه إن كان بمشيئة الآخر لزم التعاون، وإن كان بدون مشيئته لزم التمانع، وكلاهما ممتنع

في الربين المقدرين، وما لزم منه الممتنع [فهو ممتنع].

فتبين أنه لو كان مع الله آلهة تخلق لذهب كل إله بما خلق، والموجود خلاف هذا؛ فإن العالم مرتبط بعضه ببعض، متعلق بعضه ببعض، ما من مخلوق إلا وهو متصل بغيره من المخلوقات، محتاج إليه مرتبط به " ثم قال بعد بيان كيف تحتاج المخلوقات إلى بعضها: " فتبين انتفاء اللازم في قوله تعالى: إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ" [المؤمنرن: ٩١]، وحذف سبحانه نفي اللازم لظهوره ووضوحه؛ فإن ذهاب كل إله بمخلوقه، وانفراده به، استقلاله به: أمر يظهر بطلانه لعموم العقلاء، والمقدمات الظاهرة البينة لا يحتاج إلى ذكرها في البيان الفصيح، الذي هو طريقة القرآن " ، أي أنه لو كان معه إله لذهب كل إله بمخلوقاته، وهذا غير واقع، لأن العالم مرتبط بعضه ببعض، وليس هناك عالم مستقل عن هذا العالم، فدل على أن خالقه واحد .

أما اللازم الثاني: فقد دل عليه قوله "وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ" [المؤمنون: ٩١]، يقول شيخ الإسلام: [وأما البرهان الثاني: وهو لزوم علو بعضهما على بعض، وذلك يمنع إلهية المغلوب، فإنه يمتنع أن يقدر أحدهما على عين مقدور الآخر؛ لأن ذلك يستلزم أن يكون ما فعله أحدهما يقدر الآخر أن يفعله، مع كونه فعل الأول.

ويمتنع أن يكون كل منهما لا يقدر إلا إذا مكنه الآخر وأقدره، فإن ذلك يستلزم أن

=

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦).

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَن وَلَدًا} مِنْ الْمَلَائِكَة {سُبْحَانه بَلْ} هُمْ {عِبَاد مُكْرَمُونَ} عِنْده وَالْعُبُودِيَّة تُنَافِي الولادة.

لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧).

{لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ} لَا يَأْتُونَ بِقَوْلِهِمْ إلَّا بَعْد قَوْله {وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} أَيْ بَعْده.

=

لا يكون أحدهما قادرا، فيمتنع أن يكون كل منهما قادرا على الاستقلال، ويمتنع أن يكونا قادرين على مفعول واحد، فيلزم حينئذ أن لا يوجد مفعول واحد، لا بطريق استقلال أحدهما ولا بطريق اشتراكهما فيه، وذلك يمنع أن يكون أحدهما قادرا.

وكذلك يمتنع أن يكونا متماثلين في القدرة، ة إنه إن أمكن كل منهما منع الآخر من الفعل، لزم امتناع الفعل، وانتفاء القدرة عن كل منهما، وإن لم يمكنه ذلك، لزم أن لا يكون قادرا على ما يقدر عليه الَاخر، إذا لو كان قادرا عليه لأمكنه فعله، وذلك ممتنع.

وإن لم يكن قادرا على ما يقدر عليه الَاخر، لم تكن قدرته مثل قدرته فإن المثلين هما اللذان يسد أحدهما مسد الآخر، ويقوم مقامه.

وإذا امتنع تماثل القدرتين، وجب كون أحدهما أقدر من الَاخر، وحينئذ فالأقدر الأقوى يغلب الأضعف، وهذا معنى قوله "وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ" [المؤمنون: ٩١] ". والخلاصة أنه إذا قدر إلهان فلابد أن يكون أحدهما أقدر من الآخر، والأقدر لابد أن يعلو من هو دونه في القدرة، وإذا علا بعضهم على بعض فالعالي هو الإله القاهر المستقل بالفعل وحده.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨).

{يَعْلَم مَا بَيْن أَيْدِيهمْ وَمَا خَلْفهمْ} مَا عَمِلُوا وَمَا هُمْ عَامِلُونَ {وَلَا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَنْ ارْتَضَى} تَعَالَى أَنْ يَشْفَع لَهُ {وَهُمْ مِنْ خَشْيَته} تَعَالَى {مُشْفِقُونَ} خَائِفُونَ.

وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩).

{وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إنِّي إلَه مِنْ دُونه} أَيْ الله أَيْ غَيْره وَهُوَ إبْلِيس دَعَا إلَى عِبَادَة نَفْسه وَأَمَرَ بِطَاعَتِهَا {فَذَلِك نَجْزِيه جَهَنَّم كَذَلِكَ} كَمَا نَجْزِيه {نَجْزِي الظَّالِمِينَ} الْمُشْرِكِينَ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن جريج؛ قال (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ...): نزلت في إبليس.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٧/ ١٣) من طريق سنيد صاحب "التفسير": ثني حجاج عن ابن جريج. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل: الأولى: الإعضال. والثانية: الحجاج؛ اختلط بآخره. والثالثة: سنيد صاحب "التفسير"؛ ضعيف.

* قوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا} [الانبياء: ٢٦]، أي: "وقال المشركون: اتخذ الرحمن ولدًا بزعمهم أن الملائكة بنات الله".

قال الطبري: يقول:" وقال هؤلاء الكافرون بربهم: اتخذ الرحمن ولدا من ملائكته".

قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ} [الانبياء: ٢٦]، أي: "تنزَّه الله عن ذلك".

=

=

قال يحيى:" نزه نفسه عما قالوا الله".

قال الطبري:" فقال جلّ ثناؤه استعظاما مما قالوا، وتبريًّا مما وصفوه به سبحانه، يقول تنزيها له عن ذلك، ما ذلك من صفته".

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله} : اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

عن الحسن قال: " {سبحان الله} : اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه".

قوله تعالى: {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} [الانبياء: ٢٦]، أي:" فالملائكة عباد الله مقربون مخصصون بالفضائل".

قال يحيى:" يعني: الملائكة هم كرام على الله".

قال الزجاج:" يعنى: الملائكة وعيسى ابن مريم عليه السلام، والذي في التفسير أنهم الملائكة".

قال الطبري:" يقول: ما الملائكة كما وصفهم به هؤلاء الكافرون من بني آدم، ولكنهم عباد مكرمون، يقول: أكرمهم الله".

قال قتادة:" قالت اليهود: إن الله تبارك وتعالى صاهر الجنّ، فكانت منهم الملائكة، قال الله تبارك وتعالى تكذيبا لهم وردّا عليهم، {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} ، وإن الملائكة ليس كما قالوا، إنما هم عباد أكرمهم الله بعبادته".

وفي رواية، قال قتادة:" قالت اليهود وطوائف من الناس: إن الله خاتن إلى الجن ، فالملائكة من الجن، قال الله سبحانه وتعالى: {بل عباد مكرمون} ".

يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا - قبحهم الله - أن الله اتخذ ولدا فقالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة، بأنهم عبيد مربوبون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله،

=

=

والامتثال لأوامره.

قال الآلوسى ما ملخصه: «قوله تعالى: وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا، حكاية لجناية فريق من المشركين لإظهار بطلانها، وبيان تنزهه -سبحانه- عن ذلك، إثر بيان تنزهه- جل وعلا- عن الشركاء على الإطلاق، وهم حي من خزاعة قالوا: الملائكة بنات الله، ونقل الواحدي أن قريشا وبعض العرب قالوا ذلك.

والآية مشنعة على كل من نسب إلى الله تعالى ذلك كاليهود والنصارى..» ا.هـ.

أى: وقال المشركون الذين انطمست بصائرهم عن معرفة الحق «اتخذ الرحمن ولدا سبحانه».

أى: تنزه وتقدس الله تعالى عن ذلك جل وعلا عما يقولونه علوا كبيرا.

وقوله: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ إضراب عما قالوه، وإبطال له، وثناء على ملائكته الذين زعم فريق من المشركين أنهم بنات الله.

وعباد: جمع عبد. والعبودية لله تعالى معناها: إظهار التذلل له -سبحانه-، والخضوع لذاته.

ومكرم: اسم مفعول من أكرم، وإكرام الله تعالى لعبده معناه: إحسانه إليه وإنعامه عليه.

أى: لقد كذب هؤلاء المشركون في زعمهم أن الملائكة بنات الله، والحق أن الملائكة هم عباد مخلوقون له تعالى ومقربون إليه ومكرمون عنده.

وقوله: لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ أى: لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به، ولا يقولون شيئا بدون إذنه، كما هو شأن العبيد الطائعين لسيدهم.

قوله تعالى: {لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ} [الانبياء: ٢٧]، أي:" وهم في حسن طاعتهم لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم".

قال يحيى:" فيقولون شيئا لم يقبلوه عن الله".

=

=

قال الطبري:" يقول: لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم".

قال ابن كثير:" أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر".

قال قتادة:" يثني عليهم".

قال السمعاني:" هذا ثناء من الله على الملائكة، ومعنى قوله: {لا يسبقونه بالقول} أنهم لا يقولون قولا بخلافه، وهذا مثل قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله} أي: لا تقولوا قولا بخلاف الكتاب والسنة، وقد ثبت برواية عائشة - رضي الله عنها - عن النبي أنه قال: «من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد». والإحداث في الدين أن يقول بخلاف الكتاب والسنة".

قوله تعالى: {وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الانبياء: ٢٧]، أي:" ولا يعملون عملا حتى يأذن لهم".

قال الطبري:" يقول: ولا يعملون عملا إلا به".

قال السمعاني:" معناه: أنهم لا يخالفونه، لا قولا، ولا عملا، ويقال معناه: إذ أمر بأمر أطاعوا، فإذا قال لهم: افعلوا قالوا: طاعة".

قال ابن كثير:" أي: ولا يخالفونه فيما أمر به بل يبادرون إلى فعله".

وأصل الكلام: لا يسبق قولهم قوله- عز وجل إلا أنه-سبحانه- أسند السبق إليهم، تنزيلا لسبق قولهم لقوله، منزلة سبقهم إياه، للإشعار بمزيد طاعتهم وتنزيههم عن كل قول بغير إذنه تعالى.

وقوله: وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ بيان لتبعيتهم له تعالى في الأعمال إثر بيان تبعيتهم له- سبحانه- في الأقوال.

أى: وهم بأمره وحده يعملون لا بأمر أحد سواه، ولا بأمر أنفسهم، كما قال تعالى في آية أخرى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ. عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ

=

=

.

ثم بين-سبحانه- مظهرا من مظاهر علمه الشامل، وحكمه النافذ، فقال يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ..

قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [الأنبياء: ٢٨]، أي:" وما من أعمال الملائكة عمل سابق أو لاحق إلا يعلمه الله سبحانه وتعالى، ويحصيه عليهم".

قال الطبري:" يقول: يعلم ما بين أيدي ملائكته ما لم يبلغوه ما هو وما هم فيه قائلون وعاملون، وما خلفهم: يقول: وما مضى من قبل اليوم مما خلفوه وراءهم من الأزمان والدهور ما عملوا فيه، قالوا ذلك كله محصى لهم وعليهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء".

قال ابن عباس:" يقول: يعلم ما قدّموا وما أضاعوا من أعمالهم".

قال ابن كثير:" وهو تعالى عِلْمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية".

قوله تعالى: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨]، أي:" ولا يتقدمون بالشفاعة إلا لمن ارتضى الله شفاعتهم له".

قال الطبري:" يقول: ولا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه".

قال ابن عباس:" يقول: الذين ارتضى لهم شهادة أن لا إله إلا الله".

قال قتادة: لأهل التوحيد".

عن مجاهد، قوله:" {إلا لِمَنِ ارْتَضَى}، قال: لمن رضي عنه".

قال القشيري:" قوله: {لا يشفعون إلا لمن ارتضى} دل على أنهم يشفعون لقوم، وأن الله يتقبل شفاعتهم".

قوله تعالى: {وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: ٢٨]، أي:" وهم من خوف الله حذرون من مخالفة أمره ونهيه".

=

=

قال مقاتل:" يعنى" خائفين".

قال السمعاني:" أي: من عذابه".

قال ابن كثير:" أي: من خوفه ورهبته".

قال البغوي:" خائفون لا يأمنون مكره".

قال القشيري:" ليس لهم ذنب ثم هم خائفون، ففى الآية دليل على أنه سبحانه يعذبهم وأن ذلك جائز، فإذا لم يجز أن يعذب البريء لكانوا لا يخافونه لعلمهم أنهم لم يرتكبوا زلة".

أي: يعلم-سبحانه- أحوالهم كلها صغيرها وكبيرها، متقدمها ومتأخرها، وَلا يَشْفَعُونَ لأحد من خلقه إلا لمن ارتضى الله تعالى شفاعتهم له.

وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ أى: وهم لخوفهم من الله ومن عقابه حذرون وجلون.

فأنت ترى أن الله تعالى قد وصف الملائكة في هذه الآيات بجملة من الصفات الكريمة التي تدل على طاعتهم المطلقة لله تعالى وعلى إكرامه-سبحانه- لهم.

ثم بين-سبحانه- بعد ذلك أنهم مع كرامتهم عند الله تعالى لو ادعى أحد منهم- على سبيل الفرض- أنه إله، لعاقبه الله عقابا شديدا، فقال تعالى: وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ، فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ، كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ.

قوله تعالى: {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ} [الأنبياء: ٢٩]، أي:" ومن يدَّع من الملائكة أنه إله مع الله - على سبيل الفرض -".

قال الضحاك:" ولم يقل ذلك أحد من الملائكة إلا إبليس، دعا إلى عبادة نفسه وشرع الكفر".

قال قتادة:" إنما كانت هذه خاصة لإبليس".

قال القشيري:" وقد علم أنهم لا يقولون ذلك، ولكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكمه، فالحق-سبحانه- يعلم ما لا يكون كيف كان يكون".

=

قوله تعالى: {فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ} [الأنبياء: ٢٩]، أي:" فجزاؤه جهنم".

قال ابن كثير:" أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [الزخرف: ٨١]، وقوله {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: ٦٥] ".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٢٩]، أي:" مثل ذلك الجزاء نجزي كل ظالم مشرك".

قال مقاتل:" النار، حين زعموا أن مع الله- ﷻ- إلها ولم يقل ذلك أحد من الملائكة غير إبليس عدو الله رأس الكفر".

قال السعدي:" وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟ ".

قال الشنقيطي: الضمير في قوله: {مِنْهُمْ} عائد إلى الملائكة المذكورين في قوله: {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦)} والمعنى: أنهم مع كرامتهم على الله لو ادعى أحد منهم أن له الحق في صرف شيء من حقوق الله الخاصة به إليه لكان مشركًا، وكان جزاؤه جهنم. ومعلوم أن التعليق يصح فيما لا يمكن ولا يقع؛ كقوله: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} الآية، وقوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا} والمراد بذلك تعظيم أمر الشرك. وهذا الفرض والتقدير الذي ذكره جل وعلا هنا في شأن الملائكة، ذكره أيضًا في شأن الرسل على الجميع صلوات الله وسلامه، قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)} ولما ذكر جل وعلا من ذكر من الأنبياء في سورة "الأنعام" في قوله: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ} إلى آخر من ذكر منهم قال بعد ذلك: {ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠).

{أو لم} بِوَاوٍ وَتَرْكهَا {يَرَ} يَعْلَم {الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السماوات وَالْأَرْض كَانَتَا رَتْقًا} سَدًّا بِمَعْنَى مَسْدُودَة {فَفَتَقْنَاهُمَا} جَعَلْنَا السَّمَاء سَبْعًا وَالْأَرْض سَبْعًا أَوْ فَتَق السَّمَاء أَنْ كَانَتْ لَا تُمْطِر فَأَمْطَرَتْ وَفَتَقَ الْأَرْض أَنْ كَانَتْ لَا تُنْبِت فَأَنْبَتَتْ {وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاء} النَّازِل مِنْ السَّمَاء وَالنَّابِع مِنْ الْأَرْض {كُلّ شَيْء حَيّ} مِنْ نَبَات وَغَيْره أَيْ فَالْمَاء سَبَب لِحَيَاتِهِ {أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} بِتَوْحِيدِي.

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١).

{وجعلنا في الأرض رواسي} جبالا ثواب ل {أَنْ} لَا {تَمِيد} تَتَحَرَّك {بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا} الرَّوَاسِيَ {فِجَاجًا} مَسَالِك {سُبُلًا} بَدَل طُرُقًا نَافِذَة وَاسِعَة {لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} إلَى مَقَاصِدهمْ فِي الْأَسْفَار.

=

جَهَنَّمَ} الآية؛ دليل قاطع على أن حقوق الله الخالصة له من جميع أنواع العبادة لا يجوز أن يصرف شيء منها لأحد ولو ملكًا مقربًا، أو نبيًّا مرسلًا. ومما يوضح ذلك قوله تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)}، وقوله تعالى مخاطبًا لسيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)}.

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢).

{وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا} لِلْأَرْضِ كَالسَّقْفِ لِلْبَيْتِ {مَحْفُوظًا} عَنْ الْوُقُوع {وَهُمْ عَنْ آيَاتهَا} مِنْ الشَّمْس وَالْقَمَر وَالنُّجُوم {مُعْرِضُونَ} لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا فَيَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقهَا لَا شَرِيك لَهُ.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣).

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْل وَالنَّهَار وَالشَّمْس وَالْقَمَر كُلّ} تَنْوِينه عِوَض عَنْ الْمُضَاف إلَيْهِ مِنْ الشَّمْس وَالْقَمَر وَتَابِعه وَهُوَ النُّجُوم {فِي فَلَك} مُسْتَدِير كَالطَّاحُونَةِ فِي السَّمَاء {يَسْبَحُونَ} يَسِيرُونَ بِسُرْعَةٍ كَالسَّابِحِ فِي الْمَاء وَلِلتَّشْبِيهِ بِهِ أَتَى بِضَمِيرِ جَمْع مَنْ يَعْقِل[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا} [الأنبياء: ٣٠]، أي:" أولم يعلم هؤلاء الجاحدون أن السماوات والأرض كانتا شيئًا واحدًا ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقرَّ الأرض كما هي؟ ".

قال الطبري:" لم ينظر هؤلاء الذي كفروا بالله بأبصار قلوبهم، فيروا بها، ويعلموا أن السماوات والأرض كانتا ملتصقتين ليس فيهما ثقب، فصدعناهما وفرجناهما".

قال السمعاني:" أي: كانتا مظلمة بالرتق ففتقتا بالضياء".

وفي قوله تعالى: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا} [الأنبياء: ٣٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ففصل الله بينهما بالهواء، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة.

=

=

قال ابن عباس:" كانتا ملتصقتين، فرفع السماء ووضع الأرض".

وقال مقاتل:" يعني: ملتزقين، وذلك أن الله- تبارك وتعالى- أمر بخار الماء فارتفع فخلق منه السموات السبع فأبان إحداهما من الأخرى، فذلك قوله: {ففتقناهما} ".

الثاني: أن السموات كانت مرتتقة مطبقة ففتقها الله سبع سموات وكانت الأرض كذلك ففتقها سبع أرضين، قاله مجاهد، وأبو صالح، والسدي.

قال مجاهد:" فتقهنّ سبع سماوات، بعضهنّ فوق بعض، وسبع أرضين بعضهنّ تحت بعض".

قال السدي:" كانت سماء واحدة ثم فتقها، فجعلها سبع سماوات في يومين، في الخميس والجمعة، وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السماوات والأرض، فذلك حين يقول: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ يَقُولُ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا} ".

الثالث: أن السموات كانت رتقًا لا تمطر، والأرض كانت رتقًا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات، قاله ابن عباس -في رواية-، وعكرمة، وعطية، وابن زيد، وبه قال ابن قتيبة.

قال عكرمة:" كانتا رتقا لا يخرج منهما شيء، ففتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات".

قال عطية العوفي: "كانت هذه رتقا لا تمطر، فأمطرت وكانت هذه رتقا لا تنبت، فأنبتت".

عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر: "إن رجلا أتاه يسأله عن «السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما»؟ قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعالى فأخبرني ما قال لك. قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: نعم، كانت

=

=

السماوات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، فلما خلق الأرض أهلا فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت إن ابن عباس قد أوتى في القرآن علما صدق- هكذا كانت: قال ابن عمر قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتى في القرآن علما".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا من المطر والنبات، ففتقنا السماء بالغيث والأرض بالنبات، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب في ذلك لدلالة قوله: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}، على ذلك، وأنه جلّ ثناؤه لم يعقب ذلك بوصف الماء بهذه الصفة إلا والذي تقدمه من ذكر أسبابه".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: ٣٠]، أي:" وجعلنا الماء أصل كل الأحياء وسببًا للحياة فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات".

قال الطبري: يقول:" وأحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كلّ شيء".

قال قتادة:" كلّ شيء حيّ خُلق من الماء".

قال الحسن:" خلق كل شيء من الماء، وهو حياة كل شيء".

عن أبى هريرة، قال: "يا نبي الله، إذا زرتك قرت عيني، وطابت نفسي فأخبرني عن كل شيء، قال: كل شيء خلق من ماء".

وروي عن ابي العالية، قوله:" {وجعلنا من الماء كل شيء حي}، قال: نطفة الرجل".

قوله تعالى: {أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} [الأنبياء: ٣٠]، أي:" أفلا يؤمن هؤلاء الجاحدون فيصدقوا بما يشاهدونه، ويخصُّوا الله بالعبادة؟ ".

قال الطبري: " يقول: أفلا يصدّقون بذلك، ويقرّون بألوهية من فعل ذلك

=

=

ويفردونه بالعبادة".

قال الرازي: اعلم أنه سبحانه وتعالى شرع الآن في الدلائل الدالة على وجود الصانع، وهذه الدلائل أيضا دالة على كونه منزها عن الشريك، لأنها دالة على حصول الترتيب العجيب في العالم، ووجود الإلهين يقتضي وقوع الفساد. فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم. وفيها أيضا رد على عبدة الأوثان من حيث إن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع. فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها ا.هـ

وقوله رَتْقًا مصدر رتقه رتقا: إذا سده. يقال: رتق فلان الفتق رتقا، إذا ضمه وسده، وهو ضد الفتق الذي هو بمعنى الشق والفصل.

قال الشنقيطي: قرأ هذا الحرف عامة السبعة ماعدا ابن كثير {أَوَلَمْ يَرَ} بواو بعد الهمزة، وقرأه ابن كثير "ألم ير الذين كفروا" بدون واو، وكذلك هو في مصحف مكة. والاستفهام لتوبيخ الكفار وتقريعهم، حيث يشاهدون غرائب صنع الله وعجائبه، ومع هذا يعبدون من دونه ما لا ينفع من عبده، ولا يضر من عصاه، ولا يقدر على شيء.

وقوله: {كَانَتَا} التثنية باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء، ونوع الأرض؛ كقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا} ونظيره قول عمر بن شييم:

ألم يحزنك أن جبال قيس ... وتغلب قد تباينتا انقطاعا

والرتق مصدر رتقه رتقًا: إذا سده؛ ومنه: الرتقاء، وهي التي انسد فرجها، ولكن المصدر وصف به هنا، ولذا أفرده ولم يقل: كانتا رتقين. والفتق: الفصل بين الشيئين المتصلين؛ فهو ضد الرتق. ومنه قول الشاعر:

=

=

يهون عليهم إذا يغضبو ... ن سخط العداة وإرغامها
ورتق الفتوق وفتق الرتـ ... ـوق ونقض الأمور وإبرامها

واعلم أن العلماء اختلفوا في المراد بالرتق والفتق في هذه الآية كما تقدم على خمسة أقوال، بعضها في غاية السقوط، وواحد منها تدل له قرائن من القرآن العظيم:

الأول: أن معنى {كَانَتَا رَتْقًا} أي كانت السموات والأرض متلاصقة بعضها مع بعض، ففتقها الله وفصل بين السموات والأرض، فرفع السماء إلى مكانها، وأقر الأرض في مكانها، وفصل بينهما بالهواء الذي بينهما كما ترى.

القول الثاني: أن السموات السبع كانت رتقًا؛ أي متلاصقة بعضها ببعض، ففتقها الله وجعلها سبع سموات، كل اثنتين منها بينهما فصل، والأرضون كذلك كانت رتقا ففتقها، وجعلها سبعًا بعضها منفصل عن بعض.

القول الثالث: أن معنى {كَانَتَا رَتْقًا} أن السماء كانت لا ينزل منها مطر، والأرض كانت لا ينبت فيها نبات، ففتق الله السماء بالمطر، والأرض بالنبات.

الرابع: أنهما {كَانَتَا رَتْقًا} أي في ظلمة لا يرى من شدتها شيء ففتقهما الله بالنور. وهذا القول في الحقيقة يرجع إلى القول الأول والثاني.

الخامس: وهو أبعدها لظهور سقوطه: أن الرتق يراد به العدم. والفتق يراد به الإيجاد؛ أي كانتا عدمًا فأوجدناهما. وهذا القول كما ترى!

فإذا عرفت أقوال أهل العلم في هذه الآية، فاعلم أن القول الثالث منها وهو كونهما كانتا رتقًا بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر، والأرض لا تنبت شيئًا ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات؛ قد دلت عليه قرائن من كتاب الله تعالى.

الأولى: أن قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا} يدل على أنهم رأوا ذلك؛ لأن الأظهر في "رأى" أنها بصرية، والذي يرونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل

=

=

منها مطر، والأرض ميتة هامدة لا نبات فيها؛ فيشاهدون بأبصارهم إنزال الله المطر، وإنباته به أنواع النبات.

القرينة الثانية: أنه أتبع ذلك بقوله: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)}. والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله؛ أي وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض كلَّ شيءٍ حي.

القرينة الثالثة: أن هذا المعنى جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢)} لأن المراد بالرجع نزول المطر منها تارة بعد أخرى، والمراد بالصدع: انشقاق الأرض عن النبات. وكقوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦)} الآية. واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية وغيرهما للقرائن التي ذكرنا. ويؤيد ذلك كثرة ورود الاستدلال بإنزال المطر، وإنبات النبات في القرآن العظيم على كمال قدرة الله تعالى، وعظم منته على خلقه، وقدرته على البعث. والذين قالوا: إن المراد بالرتق والفتق أنهما كانتا متلاصقتين ففتقهما الله وفصل بعضهما عن بعض قالوا في قوله: {أَوَلَمْ يَرَ} أنها من "رأى" العلمية لا البصرية. وقالوا: وجه تقريرهم بذلك أنه جاء في القرآن، وما جاء في القرآن فهو أمر قطعي لا سبيل للشك فيه. والعلم عند الله تعالى.

وأقرب الأقوال في ذلك: هو ما ذكرنا دلالةَ القرائن القرآنية عليه، وقد قال فيه الفخر الرازي في تفسيره: ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم، ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ما ذكرنا.

فإن قيل: هذا الوجه مرجوح؛ لأن المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا.

=

=

قلنا: إنما أطلق عليه لفظ الجمع لأن كل قطعة منها سماء؛ كما يقال ثوب أخلاق، وبرمة أعشار اهـ.

والآية الكريمة مسوقة لتجهيل المشركين وتوبيخهم على كفرهم، مع أنهم يشاهدون بأعينهم ما يدل دلالة واضحة على وحدانية الله تعالى وقدرته، ويعلمون أن من كان كذلك، لا يصح أن تترك عبادته إلى عبادة حجر أو نحوه، مما لا يضر ولا ينفع.

والمعنى: أو لم يشاهد الذين كفروا بأبصارهم، ويعلموا بعقولهم، أن السموات والأرض كانتا رتقا، بحيث لا ينزل من السماء مطر، ولا يخرج من الأرض نبات، ففتق الله تعالى السماء بالمطر، والأرض بالنبات.

إنهم بلا شك يشاهدون ذلك، ويعقلونه بأفكارهم. ولكنهم لاستيلاء الجحود والعناد عليهم، يعبدون من دونه -سبحانه- مالا ينفع من عبده، ولا يضر من عصاه.

وقال -سبحانه-: كانَتا بالتثنية، باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء، ونوع الأرض، كما في قوله- ﷻ: إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا ...

وقوله تعالى: وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ.. تأكيد لمضمون ما سبق، وتقرير لوحدانيته ونفاذ قدرته -سبحانه- والجعل بمعنى الخلق. ومِنَ ابتدائية.

أى: وخلقنا من الماء بقدرتنا النافذة، كل شيء متصف بالحياة الحقيقية وهو الحيوان، أو كل شيء نام فيدخل النبات، ويراد من الحياة ما يشمل النمو.

وهذا العام مخصوص بما سوى الملائكة والجن مما هو حي، لأن الملائكة- كما جاء في بعض الأخبار خلقوا من النور، والجن مخلوقون من النار.

قال ابن كثير: يقول تعالى منبها على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات فقال: (أولم ير الذين كفروا) أي: الجاحدون لإلهيته،

=

=

العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره، أو يشرك به ما سواه، ألم يروا (أن السموات والأرض كانتا رتقا) أي: كان الجميع متصلا بعضه ببعض، متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعا، والأرض سبعا، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض، ولهذا قال: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئا فشيئا عيانا، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء " انتهى.

فمناسبة سياق المحاججة تقتضي الاستشهاد بآيات ظاهرة يشاهدها المخاطبون ويعايشونها، فكان قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) منطلقا من واقعهم الذي يرونه: من حاجتهم وحاجة جميع الحيوانات إلى الماء، أو من تخلقهم وتخلق الحيوانات من ماء التناسل. وليس في هذا السياق تعرض ـ أصلا ـ لعالم الغيب من الملائكة أو الجن أو غيرهم من خلق الله؛ لأن المحاججة إنما تكون بعالم الشهادة، حتى تكون الحجة أقوى وأبين، وأما عالم الغيب فقد لا يؤمن به المخاطب، فضلا عن أن يعرف كيفية خلقه وما هي مكوناته، وعلى هذا يكون الجن والملائكة لم يدخلوا في سياق العموم ابتداء.

٢- صيغ العموم في اللغة العربية ليست دائما على إطلاق عمومها، فقد تكون مخصوصة، بل قال أهل العلم: إن أكثر عمومات القرآن مخصوصة.

وقد جاءت صيغة العموم (كل) في بعض الآيات، ولم تدل على العموم المطلق، وذلك في قوله تعالى عن الريح التي أرسلها لإهلاك قوم عاد: (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) الأحقاف/ ٢٥، وقوله تعالى عن ملكة سبأ: (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ

=

=

مِن كُلِّ شَيْءٍ) النمل/ ٢٣، ومن المعلوم أن الريح لم تدمر السماء ولا حتى المساكن، وأن ملكة سبأ لم تؤت ما أوتيه النبي سليمان عليه السلام.

وعلى هذا ينبغي فهم صيغ العموم في القرآن، لأنه نزل بلسان عربي مبين، والعرب تطلق صيغ العموم كثيرا، وهي تعلم أن ثمة بعض المخصوصات.

فكذلك قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) ينبغي تخصيصه بالملائكة، فإنها قد خلقت من نور، ولا تحتاج إلى الماء، ويبقى الجن أيضا في دائرة احتمال التخصيص.

وبهذا يظهر التوافق وعدم التناقض بين الآيات.

قال الألوسي: " ولا بد من تخصيص العام، لأن الملائكة عليهم السلام وكذا الجن أحياء، وليسوا مخلوقين من الماء " انتهى.

وقال الرازي: " لقائل أن يقول: كيف قال: وخلقنا من الماء كل حيوان، وقد قال: (والجآن خلقناه مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم) الحجر/ ٢٧، وجاء في الأخبار أن الله تعالى خلق الملائكة من النور، وقال تعالى في حق عيسى عليه السلام: (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى) المائدة/ ١١٠، وقال في حق آدم: (خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ) آل عمران/ ٥٩.

والجواب: اللفظ وإن كان عامًا إلا أن القرينة المخصِّصَة قائمة، فإن الدليل لا بد وأن يكون مشاهدًا محسوسًا ليكون أقرب إلى المقصود، وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام؛ لأن الكفار لم يروا شيئًا من ذلك " انتهى.

٣- وخلق الجن من النار هو في أصل خلق الله سبحانه وتعالى لهم، ثم كان تكاثرهم عن طريق التناسل، تماما كما أن الله خلق الإنسان بداية من الطين، ثم بدأ بالتناسل والتكاثر، ولما لم نكن نعرف شيئا عن كيفية تناسل الجن، يبقى احتمال

=

=

تناسلهم بماء التناسل قائما، ومن ينفي الاحتمال يحتاج إلى دليل حسي أو عقلي أو شرعي، وقد لا يوجد، وقد فسر بعض أهل العلم: ومنهم أبو العالية من السلف، الماءَ الوارد في قوله سبحانه: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) بماء النطفة التي جعلها الله طريق التناسل في جميع الحيوانات، فقد يكون الجن يتناسلون بالنطف أيضا.

قالالشنقيطي: " قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

الظاهر أن (جَعل) هنا بمعنى خَلَق؛ لأنها متعدية لمفعول واحد؛ ويدل لذلك قوله تعالى في سورة النور: (والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ) النور/ ٤٥

واختلف العلماء في معنى: " خلق كل شيء من الماء ": قال بعض العلماء: الماء الذي خلق منه كل شيء هو النطفة؛ لأن الله خلق جميع الحيوانات التي تولد عن طريق التناسل من النطف، وعلى هذا فهو من العام المخصوص.

وقال بعض العلماء: هو الماء المعروف؛ لأن الحيوانات إما مخلوقة منه مباشرة، كبعض الحيوانات التي تتخلق من الماء، وإما غير مباشرة؛ لأن النطف من الأغذية، والأغذية كلَّها ناشئة عن الماء، وذلك في الحبوب والثمار ونحوها ظاهر، وكذلك هو في اللحوم والألبان والأسماك ونحوها: لأنه كله ناشئ بسبب الماء.

وقال بعض أهل العلم: معنى خَلْقه كل حيوان من ماء: أنه كأنما خلقه من الماء لفرط احتياجه إليه، وقلة صبره عنه، كقوله: (خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ) " انتهى.

وقوله: أَفَلا يُؤْمِنُونَ إنكار لعدم إيمانهم مع وضوح كل ما يدعو إلى الإيمان الحق، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه هذا الإنكار.

أى: أيشاهدون بأعينهم ما يدل على وحدانية الله وقدرته. ومع ذلك لا يؤمنون؟ إن أمرهم هذا لمن أعجب العجب، وأغرب الغرائب!!.

ثم ساق-سبحانه- أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته فقال: وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ

=

=

رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ.

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ} [الأنبياء: ٣١]، أي:" وجعلنا في الأرض جبالًا ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب فلا يستقر لهم عليها قرار".

قال مقاتل:" يعني: الجبال أرسيت في الأرض فأثبتت الأرض بالجبال، لئلا تزول الأرض بهم".

قال الطبري: يقول: "فجعلنا في هذه الأرض هذه الرواسي من الجبال، فثبتناها لئلا تتكفأ بالناس، وليقدروا بالثبات على ظهرها ".

قال الزجاج:" معنى «تميد» في اللغة: تدور، ويقال للذي يدار به إذا ركب البحر: مائد، وميدى، و «الرواسي»، تعني: الجبال الثوابت".

عن قَتادة، قوله:" {وَجَعَلْنَا فِي الأرْضِ رَوَاسِيَ}، أي: جبالا".

قال قتادة:" كانوا على الأرض تمور بهم لا تستقرّ، فأصبحوا وقد جعل الله الجبال وهي الرواسي أوتادا للأرض".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [الأنبياء: ٣١]، أي:" وجعلنا في هذه الجبال مسالك وطرقًا واسعة كي يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار".

قال الطبري:" جعلنا هذه الفجاج في الأرض ليهتدوا إلى السير فيها".

قال الزجاج:" «فجاج»: جمع: فج، وهوكل منخرق بين جبلين، و {سبلا}: طرقا".

عن قتادة قوله: " {فجاجا}، أي: أعلاما، {سبلا}، أي: طرقا".

عن ابن عباس، قوله:" {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا} سبلا، قال: بين الجبال".

والرواسي: جمع راسية، من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ، والمراد بها الجبال الثابتة الراسخة في الأرض.

=

=

أي: وجعلنا في الأرض جبالا ثوابت، كراهة أن تَمِيدَ بِهِمْ أي: أن تضطرب وتتحرك بهم الأرض. يقال: ماد الشيء يميد ميدا- من باب باع إذا تحرك واهتز.

وَجَعَلْنا فِيها فِجاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ، والفجاج. جمع فج وهو الطريق الواسع. والسبل: جمع سبيل وهو الطريق. وهو بدل من فِجاجًا.

أي: وجعلنا في الأرض طرقا واسعة، ومنافذ متعددة، لعلهم بذلك يهتدون ويتوصلون إلى الأماكن التي يريدون الوصول إليها. ويعلمون أن الذي وهبهم كل هذه النعم، هو الله تعالى الذي يجب أن يخلصوا له العبادة والطاعة.

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا} [الأنبياء: ٣٢]، أي:" جعلنا السماء كالسقف للأرض محفوظة من الوقوع والسقوط".

قال الطبري: يقول:" {سَقْفًا} للأرض مسموكا، حفظناها من كلّ شيطان رجيم".

عن ابن عباس:" قال رجل: يا رسول الله، ما هذه السماء، قال: «موج مكفوف عنكم» ".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا} [الأنبياء: ٣٢]، وجوه:

أحدها: محفوظًا من أن تقع على الأرض. قاله الزجاج.

الثاني: محفوظًا من الشياطين بالنجوم، قاله الفراء، وابن قتيبة.

يدل عليه قوله تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ} [الصافات: ٦ - ٧].

الثالث: بمعنى مرفوعًا، قاله مجاهد.

الرابع: محفوظًا من الشرك والمعاصي. أفاده الماوردي.

الخامس: محفوظا من الهدم والنقض، وعن أن يبلغه أحد بحيلة. حكاه القرطبي.

قوله تعالى: {وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} [الأنبياء: ٣٢]، أي:" والكفار عن الاعتبار بآيات السماء «من الشمس والقمر والنجوم وسائر الأدلة والعبر»، غافلون

=

=

لاهون عن التفكير فيها".

قال يحيى:" لا يتفكرون فيما يرون فيها، فيعرفون أن لهم معادا فيؤمنوا".

عن مجاهد، قوله:" {وهم عن اياتها معرضون}، قال: الشمس والقمر والنجوم من آيات السماء".

قال الفراء:" فآياتها قمرها وشمسها ونجومها".

قال ابن قتيبة:" أي: عما فيها: من الأدلة والعبر".

قال القرطبي:" أضاف «الآيات» إلى «السماء»، لأنها مجعولة فيها، وقد أضاف «الآيات» إلى نفسه في مواضع، لأنه الفاعل لها، بيّن أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها، من ليلها ونهارها، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعا قادرا واحدا فيستحيل أن يكون له شريك".

قال ابن كثير:" لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها، وفي نهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله، في يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الذي قدرها وسخرها وسيرها".

ذكر ابن أبي الدنيا، رحمه الله، في كتابه "التفكر والاعتبار": "أن بعض عباد بني إسرائيل تعبد ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلته غمامة، فلم ير ذلك الرجل شيئًا مما كان يرى لغيره، فشكى ذلك إلى أمه، فقالت له: يا بني، فلعلك أذنبت في مدة عبادتك هذه، فقال: لا والله ما أعلم، قالت: فلعلك هممت؟ قال: لا ولا هممت. قالت: فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر؟ فقال: نعم، كثيرًا. قالت: فمن هاهنا أتيت".

أى: وجعلنا السماء سقفا للأرض كما يكون السقف للبيت، وجعلناه محفوظا من

=

=

السقوط ومن التشقق، ومن كل شيطان رجيم. وهم- أى المشركون- عن آياتها الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلمنا. معرضون ذاهلون، لا يتعظون ولا يتذكرون.

ومن الآيات الدالة على حفظ السماء من السقوط، قوله تعالى: ... وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ .

ومن الآيات الدالة على حفظها من التشقق والتفطر قوله-سبحانه-: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ. .

وعلى حفظها من الشياطين قوله تعالى: وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ .

ومن الآيات الدالة على إعراض هؤلاء المشركين عن العبر والعظات قوله-سبحانه-: وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ .

ثم ختم-سبحانه- هذه الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته بقوله تعالى وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} [الأنبياء: ٣٣]، أي:" والله تعالى هو الذي خلق الليل؛ ليسكن الناس فيه، والنهار؛ ليطلبوا فيه المعايش، وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دالتين على وحدانيته".

قال ابن كثير:" أي: هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر".

قوله تعالى: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} [الأنبياء: ٣٣]، أي:" وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دالتين على وحدانيته".

قال ابن كثير:" هذه لها نور يخصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور خاص آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر".

=

=

قوله تعالى: {كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء: ٣٣]، أي:" كلٌّ من الشمس والقمر مدار يجري فيه وَيَسْبَح لا يحيد عنه".

قال الطبري:" يقول: كلّ ذلك في فلك يسبحون".

قال ابن كثير:" أي: يدورون".

عن ابن عباس، وابن زيد، والكلبي، وأبي عبيدة، في قوله: {يسبحون}، قالوا: "يجرون".

وفي رواية عن ابن عباس:" {يسبحون}، قال: يدورون ".

وحكي الماتريدي عن بعضهم: " {يسبحون}: يعلمون، وكذلك روي في حرف عبد الله: «كل في فلك يعلمون».

قال مقاتل:" يقول: يدخلان من قبل المغرب فيجريان تحت الأرض حتى يخرجا من قبل المشرق، ثم يجريانفي السماء إلى المغرب، فذلك قوله-سبحانه-: {كل}، يعني: الشمس والقمر، {في فلك}، يعني: في دوران، {يسبحون}، يعني: يجرون فذلك دورانهما".

وفي معنى «الفلك» في قوله تعالى: {كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء: ٣٣]، وجوه:

أحدها: أنه كهيئة حديدة الرحى. قاله مجاهد، وابن جريج.

وقال مجاهد:" يدورون كما يدور فلك المغزل".

وعن ابن عباس، قوله:" {كل في فلك}، قال: دوران ".

الثاني: أن االفلك سرعة جري الشمس والقمر والنجوم وغيرها. وهذا قول الضحاك.

قال الضحاك:" الفلك: الجري والسرعة".

الثالث: أن الفلك موج مكفوف تجري الشمس والقمر والنجوم فيه. حكاه

=

=

الطبري عن بعضهم.

الرابع: أن الفلك: هو القطب الذي تدور به النجوم، قاله ابو عبيدة، واستشهد بقول الشاعر:

باتَتْ تناصى الفلك الدَّوَّارَا... حتى الصباح تعمل الأَقْتارَا

الخامس: معناه: فلك السماء. وهذا قول قتادة.

قال معمر: "ثم سألت قتادة عنها، فقال: فلك السماء كما رأيت".

وقال ابن زيد:" قال ابن زيد: "الفلك الذي بين السماء والأرض من مجاري النجوم والشمس والقمر".

قال حسان بن عطية: "الشمس والقمر والنجوم مسخرة في فلك بين السماء والأرض".

السادس: أن الفلك طاحونة كهيئة فلكة المغزل. قاله ابن عباس، والحسن.

عن الحسن:" إن الشمس والقمر والنجوم في طاحونة بين السماء والأرض كهيئة فلك المغزل يدورون فيها، ولو كانت ملتصقة في السماء لم تجر".

وقال ابن عباس:" فلكة كفلكة المغزل، {يسبحون}، قال: يدورون في أبواب السماء ما تدور الفلكة في المغزل".

وقال الكلبي:" كل شيء يدور فهو فلك".

عن السري بن يحيى قال: "سأل رجل الحسن عن قول الله: {كل في فلك يسبحون}، قال: يعني: في استدارتهم، وقال بيده".

قال البغوي:" «الفلك»: مدار النجوم الذي يضمها، والفلك في كلام العرب: كل شيء مستدير، وجمعه أفلاك، ومنه فلك المغزل".

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: كما قال الله ﷻ: {كُلّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} وجائز أن يكون ذلك الفلك كما قال مجاهد كحديدة الرحى،

=

=

وكما ذُكر عن الحسن كطاحونة الرحى، وجائز أن يكون موجا مكفوفا، وأن يكون قطب السماء، وذلك أن الفلك في كلام العرب هو كل شيء دائر، فجمعه أفلاك، وقد ذكرت قول الراجز:

باتَّتْ تُناجِي الفُلْكَ الدَّوَّارَا

وإذ كان كل ما دار في كلامها، ولم يكن في كتاب الله، ولا في خبر عن رسول الله ﷺ، ولا عمن يقطع بقوله العذر، دليل يدل على أيّ ذلك هو من أيّ كان الواجب أن نقول فيه ما قال، ونسكت عما لا علم لنا به. فإذا كان الصواب في ذلك من القول عندنا ما ذكرنا، فتأويل الكلام: والشمس والقمر، كلّ ذلك في دائر يسبحون".

قال القرطبي:" الأصح أن السيارة تجري في «الفلك»، وهي سبعة أفلاك دون السموات المطبقة، التي هي مجال الملائكة وأسباب الملكوت، فالقمر في الفلك الأدنى، ثم عطارد، ثم الزهرة، ثم الشمس، ثم المريخ، ثم المشتري ثم زحل، والثامن فلك البروج، والتاسع الفلك الأعظم. والفلك واحد أفلاك النجوم".

قال الزمخشري:" أى: كلهم في فلك يسبحون، والضمير للشمس والقمر، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة، جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها وهو السبب في جمعهما بالشموس والأقمار، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد.

فإن قلت: لكل واحد من القمرين فلك على حدة، فكيف قيل: جميعهم يسبحون في فلك؟

قلت: هذا كقولهم «كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفا» أى: كل واحد منهم، أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين، فاكتفى بما يدل على الجنس اختصارا، ولأن الغرض الدلالة على الجنس".

قال الماتريدي:" ظاهر الآية: أن يكون هنالك بحر ونهر فيه يجري الشمس والقمر

=

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤).

وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ الْكُفَّار إنَّ مُحَمَّدًا سَيَمُوتُ {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلك الْخُلْد} الْبَقَاء فِي الدنيا {أفائن مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ} فِيهَا لَا فَالْجُمْلَة الْأَخِيرَة مَحَلّ

=

وفيه يغربان ومنه يطلعان؛ لأنه قال: {في فلك يسبحون}، والسباحة هي المعروفة عند الناس، وهو ما يسبح المرء في بحر أو نهر، هذا ظاهر الآية".

وفي الإخبار عن الشمس والقمر بضمير الجمع العقلاء، «يسبحون»، وجهان:

أحدهما: أنه لما جعلهم يطيعون، شبههم بالانس، وعلى هذا القياس قوله تعالى: {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١]. قاله الاخفش.

الثاني: أنه لما خبر بفعل من يعقل، وجعلهن في الطاعة بمنزلة من يعقل خبر عنهن بـ «الواو والنون». وهذا مذهب سبويه.

قال السمعاني:" وإنما ذكر {يسبحون} ولم يقل: يسبح على ما يقال لما لا يعقل؛ لأنه ذكر عنهم ما يذكر من العقلاء، وهو الجري والسبح، فذكر على ما يعقل".

قال الزمخشري:" وإنما جعل الضمير «واو» العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة".

أى: وهو وحده-سبحانه- الذي خلق بقدرته الليل والنهار بهذا النظام البديع، وخلق الشمس والقمر بهذا الإحكام العجيب «كل» أى: كل واحد من الشمس والقمر يسير في فلكه وطريقه المقدر له بسرعة وانتظام، كالسابح في الماء.

وقوله: يَسْبَحُونَ من السبح وهو المر السريع في الماء أو الهواء.

وجاء يسبحون بضمير العقلاء. لكون السباحة المسندة إليهما من فعل العقلاء، كما في قوله تعالى: وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ.

هذا والمتأمل في هذه الآيات يراها قد ساقت جملة من الأدلة على وحدانية الله تعالى وعلى كمال قدرته.

الِاسْتِفْهَام الْإِنْكَارِيّ.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥).

{كُلّ نَفْس ذَائِقَة الْمَوْت} فِي الدُّنْيَا {وَنَبْلُوكُمْ} نَخْتَبِركُمْ {بِالشَّرِّ وَالْخَيْر} كَفَقْرٍ وَغِنًى وَسَقَم وَصِحَّة {فِتْنَة} مَفْعُول لَهُ أَيْ لِنَنْظُر أَتَصْبِرُونَ وَتَشْكُرُونَ أم لا {وإلينا ترجعون} فنجازيكم.

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦).

{وإذا رآك الذين كفروا إن} ما {يتخذونك إلا هزؤا} أي مهزوءا به يقولون {هذا الَّذِي يَذْكُر آلِهَتكُمْ} أَيْ يَعِيبهَا {وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن} لهم {هم} تأكيد {كافرين} بِهِ إذْ قَالُوا مَا نَعْرِفهُ.

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧).

وَنَزَلَ فِي اسْتِعْجَالهمْ الْعَذَاب {خُلِقَ الْإِنْسَان مِنْ عَجَل} أَيْ أَنَّهُ لِكَثْرَةِ عَجَله فِي أَحْوَاله كأنه خلق منه {سأريكم آيَاتِي} مَوَاعِيدِي بِالْعَذَابِ {فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ} فِيهِ فَأَرَاهُمْ القتل ببدر.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨).

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْد} بِالْقِيَامَةِ {إنْ كُنْتُمْ صادقين} فيه.

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩).

قال تعالى {لَوْ يَعْلَم الَّذِينَ كَفَرُوا حِين لَا يَكُفُّونَ} يَدْفَعُونَ {عَنْ وُجُوههمْ النَّار وَلَا عَنْ ظُهُورهمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} يُمْنَعُونَ مِنْهَا فِي الْقِيَامَة وَجَوَاب لَوْ مَا قَالُوا ذَلِكَ.

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠).

{بَلْ تَأْتِيهِمْ} الْقِيَامَة {بَغْتَة فَتَبْهَتهُمْ} تُحَيِّرهُمْ {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ} يُمْهَلُونَ لِتَوْبَةٍ أَوْ مَعْذِرَة.

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١).

{وَلَقَدْ اُسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلك} فِيهِ تَسْلِيَة لِلنَّبِيِّ ﷺ {فَحَاقَ} نَزَلَ {بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} وَهُوَ الْعَذَاب فَكَذَا يَحِيق بِمَنْ اسْتَهْزَأَ بِك[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن جريج؛ قال: لما نعى جبريل للنبي ﷺ نفسه، قال: "يا رب! فمن لأمتي؟"؛ فنزلت: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٦٢٨)، و"لباب النقول" (ص ١٤٧) ونسبه لابن المنذر.

وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن السدي؛ قال: مر النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك، وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف. فغضب أبو سفيان، فقال: ما تنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي، فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوّفه، وقال: "ما أراك منتهيًا حتى يصيبك ما أصاب عمك". وقال لأبي سفيان: "أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية"؛ فنزلت هذه الآية: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٦٣٠)، و"لباب النقول" (ص ١٤٧، ١٤٨) ونسبه لابن أبي حاتم. وهذا ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ} [الأنبياء: ٣٤] أي:" وما جعلنا =

=

لبشر من قبلك – أيها الرسول – دوام البقاء في الدنيا".

قال يحيى:" على الاستفهام، أي: لا يخلدون".

قال الطبري: يقول:" وما خلدنا أحدا من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلدك فيها، ولا بد لك من أن تموت كما مات من قبلك رسلنا".

قوله تعالى: {أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} [الأنبياء: ٣٤] أي:" أفإن مت فهم يُؤمِّلون الخلود بعدك؟ لا يكون هذا".

قال الطبري:" يقول: فهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون في الدنيا بعدك، لا ما ذلك كذلك، بل هم ميتون بكلّ حال عشت أو متّ، فأدخلت الفاء في إن وهي جزاء، وفي جوابه، لأن الجزاء متصل بكلام قبله، ودخلت أيضا في قوله فهم لأنه جواب للجزاء، ولو لم يكن في قوله فهم الفاء جاز على وجهين: أحدهما: أن تكون محذوفة، وهي مرادة، والآخر أن يكون مرادا تقديمها إلى الجزاء فكأنه قال: أفهم الخالدون إن متّ".

قال الرازي: اعلم أنه سبحانه وتعالى لما استدل بالأشياء الستة التي شرحناها في الفصل المتقدم وكانت تلك الأشياء من أصول النعم الدنيوية أتبعه بما نبه به على أن هذه الدنيا جعلها كذلك لا لتبقى وتدوم أو يبقى فيها من خلقت الدنيا له، بل خلقها سبحانه وتعالى للابتلاء والامتحان، ولكي يتوصل بها إلى الآخرة التي هي دار الخلود.

فأما قوله تعالى: وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ففيه ثلاثة أوجه: أحدها: قال مقاتل: أن أناسا كانوا يقولون أن محمدا ﷺ لا يموت فنزلت هذه الآية. وثانيها: كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا أي قضى الله تعالى أن لا يخلد في الدنيا بشرا فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت أفإن مت أنت أيبقى هؤلاء لا وفي معناه قول القائل:

=

=

فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا.

وثالثها: يحتمل أنه لما ظهر أنه عليه السلام خاتم الأنبياء جاز أن يقدر مقدر أنه لا يموت إذ لو مات لتغير شرعه فنبه الله تعالى على أن حاله كحال غيره من الأنبياء عليهم السلام في الموت ا.هـ

وقال القرطبي: قوله تعالى: وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أى دوام البقاء في الدنيا.

نزلت حين قالوا: نتربص بمحمد ﷺ ريب المنون. وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوته ويقولون: شاعر نتربص به ريب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بنى فلان، فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء قبلك يا محمد، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك..ا.هـ.

والاستفهام في قوله-سبحانه-: أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ للإنكار والنفي..

والمعنى: وما جعلنا- أيها الرسول الكريم- لبشر من قبلك- كائنا من كان- الخلود في هذه الحياة، وأنت إن مت فهم- أيضا- سيموتون في الوقت الذي حدده الله تعالى لانقضاء عمرك وأعمارهم، وما دام الأمر كذلك فذرهم في جهالتهم يعمهون، ولا تلتفت إلى شماتتهم فيك، أو إلى تربصهم بك، فإنك ميت وإنهم ميتون، وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون، ورحم الله الإمام الشافعى حيث يقول:

تمنى أناس أن أموت. وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغى خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلها، وكأن قد

وقال شاعر آخر:

إذا ما الدهر جر على أناس ... كلاكله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا.

=

=

قال ابن كثير: فقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات، وليس بحي إلى الآن. لأنه بشر. وتقدم بسط ذلك في سورة الكهف.

ثم أكد-سبحانه- عدم خلود بشر في هذه الحياة فقال: كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ.

قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} [الأنبياء: ٣٥]، أي:" كل نفس ذائقة الموت لا محالة مهما عُمِّرت في الدنيا".

قال الطبري:"يقول: كل نفس منفوسة من خلقه، معالجة غصص الموت ومتجرّعة كأسها".

قوله تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء: ٣٥]، أي:" ونختبركم بالمصائب والنِّعم لنرى الشاكرين من الكافر، والصابر من القانط".

قال الطبري:" ونختبركم أيها الناس بالشر وهو الشدة نبتليكم بها، وبالخير وهو الرخاء والسعة العافية فنفتنكم به".

قال ابن كثير:" أي: نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط".

عن ابن عباس، قوله:" {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}، قال: بالرخاء والشدة، وكلاهما بلاء".

قال ابن عباس:" يقول: نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلالة".

قال قتادة:" يقول: نبلوكم بالشر بلاء، والخير فتنة".

قال ابن زيد:" نبلوهم بما يحبون وبما يكرهون، نختبرهم بذلك لننظر كيف شكرهم فيما يحبون، وكيف صبرهم فيما يكرهون".

قوله تعالى: {وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: ٣٥]، أي:"، ثم المآل والمرجع بعد ذلك إلى الله – وحده – للحساب والجزاء".

=

=

قال الطبري:" يقول: وإلينا يردّون فيجازون بأعمالهم، حسنها وسيئها".

قال ابن كثير:" أي: فنجازيكم بأعمالكم ".

أى: كل نفس أوجدها الله تعالى في هذه الحياة، ستذوق مرارة نزول الموت بها، ومفارقة روحها لجسدها.

قال الآلوسى ما ملخصه: والموت عند الأشعرى، كيفية وجودية تضاد الحياة، وعند كثيرين غيره: أنه عدم الحياة عما من شأنه الحياة بالفعل.

وقال بعضهم: المراد بالنفس هنا: النفس الإنسانية لأن الكلام مسوق لنفى خلود البشر.

واختير عمومها لتشمل نفوس البشر والجن وسائر نفوس الحيوان ا.هـ.

قلت الموت أمر وجودي، قال تعالى: {الذي خلق الموت والحياة}، والعدم لا يكون مخلوقًا. وإنما يقول إن الموت زوال الحياة الفلاسفة ومن وافقهم. وقولهم باطل.

قال ابن كثير رحمه الله:... " واستدل بهذه الآية من قال: إنَّ الموت أمر وجودي؛ لأنه مخلوق. ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا؟.

وقال الألوسي: " والموت على ما ذهب الكثير من أهل السنة صفة وجودية تضاد الحياة، واستدل على وجوديته بتعلق الخلق به وهو لا يتعلق بالعدمي لأزلية الإعدام ".

وقوله تعالى: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ بيان لسنة من سننه تعالى في معاملة عباده.

وقوله-سبحانه-: وَنَبْلُوكُمْ من البلو بمعنى الاختبار والامتحان. يقال: فلان بلاه الله بخير أو شر يبلوه بلوا، وأبلاه وابتلاه ابتلاء، بمعنى امتحنه ا.هـ.

=

=

وقوله: فِتْنَةً مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه.

أي: كل نفس ذائقة الموت، ونختبركم في هذه الحياة بألوان من النعم وبألوان من المحن، لنرى أتشكرون عند النعمة، وتصبرون عند المحنة، أم يكون حالكم ليس كذلك؟ وفي جميع الأحوال فإن مرجعكم إلينا لا محالة، وسنجازيكم بما تستحقون من ثواب على شكركم وصبركم، وسنجازى غير الشاكرين وغير الصابرين بما يستحقون من عقاب، ولا يظلم ربك أحدا.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ.

وقوله-سبحانه-: وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

وقوله تعالى في هذه الآيات الكريمة: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيرِ} يدل على أن بلا يبلو تستعمل في الاختبار بالنعم، وبالمصائب والبلايا. وقال بعض العلماء: أكثر ما يستعمل في الشر بلا يبلو، وفي الخير أبلى يبلى. وقد جمع اللغتين في الخير قول زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم ... وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيرِ} قال: أي نبتليكم بالشر والخير فتنة بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

وقوله (وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ) أي سيرجعون الله عَزَّ وَجَلَّ؛ وذلك يوم القيامة.

فالصواب أن العبد سيلقى ربه يوم القيامة، ويقف بين يديه، ويوفيه جزاء عمله، وقد جاء في الصحيحين البخاري (٣٥٩٥)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له (... فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله -قلت فيما بيني وبين نفسي

=

=

فأين دعار طيئ الذين قد سعروا البلاد- ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت كسرى بن هرمز قال كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فليقولن له ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك فيقول بلى فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك فيقول بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم...) فهذا قول المعصوم ﷺ، وهو بخلاف قول أهل البدع النافون للقاء الله عبده، لشبه وقعت لهم من علم الكلام المذموم، مثل شبه المكان والجهة والجسم وغير ذلك من باطلهم، وهم يتبعون أهواءهم، وزعموا أنهم يتبعون عقولهم، والعقول قاصرة لا تغني من الحق شيئًا، وإنما الواجب اتباع كتاب الله وما أرشد إليه رسول الله ﷺ.

ثم حكى -سبحانه- جانبا من السفاهات التي كان المشركون يقابلون بها النبي ﷺ فقال: وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا.

قوله تعالى: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} [الأنبياء: ٣٦]، أي:" وإذا رآك الكفار - أيها الرسول - أشاروا إليك ساخرين منك بقول بعضهم لبعض: أهذا الرجل الذي يسبُّ آلهتكم؟ ".

قال يحيى:" يقوله بعضهم لبعض أي: يعيبها ويشتمها".

قال الطبري:" يقول: ما يتخذونك إلا سخريا يقول بعضهم لبعض: {أَهَذَا الَّذِي} يذكر آلهتكم بسوء ويعيبها، تعجبا منهم من ذلك".

قال الزجاج:" المعنى: أهذا الذي يعيب آلهتكم، يقال: فلان يذكر الناس، أي: يغتابهم ويذكرهم بالعيوب، ويقال: فلان يذكر الله، أي: يصفه بالعظمة، ويثني عليه ويوحده".

=

=

قال الصابوني:" استفهام فيه إنكار وتعجيب أي هذا الذي يسب آلهتكم ويُسفّه أحلامكم؟ ".

قال الماتريدي:" كانوا إذا رأوه هزئوا به، إذا خلا بعضهم إلى بعض يقولون فيما بينهم: أبعث الله بشرا رسولا، هكذا كانت عادة الكفرة يهزءون به إذا حضروه، وإذا غابوا عنه قالوا ما ذكر".

قوله تعالى: {وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ} [الأنبياء: ٣٦]، أي:" وهم كافرون بالله ومع ذلك يستهزئون برسول الله".

قال الطبري:" فيعجبون من ذكرك يا محمد آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بسوء {وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ} الذي خلقهم وأنعم عليهم، ومنه نفعهم، وبيده ضرّهم، وإليه مرجعهم بما هو أهله منهم؛ أن يذكروه به {كافرون} ".

قال السمعاني:" قال هذا؛ لأنهم كانوا يقولون: لا نعرف الرحمن إلا مسيلمة، {وهم}، الثانية صلة".

قال الزمخشري:" الذكر يكون بخير وبخلافه، فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد، كقولك للرجل: سمعت فلانا يذكرك، فإن كان الذاكر صديقا فهو ثناء، وإن كان عدوّا فذمّ، ومنه قوله تعالى: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ} [الأنبياء: ٦٠]، وقوله: {أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ}، والمعنى: أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم بهممهم وما يجب أن لا تذكر به، من كونهم شفعاء وشهداء، ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك، وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية، فهم به كافرون لا يصدّقون به أصلا فهم أحق بأن يتخذوا هزؤا منك، فإنك محق وهم مبطلون.

وقيل معنى {بِذِكْرِ الرَّحْمنِ} قولهم: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة، وقولهم {وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا} [الفرقان: ٦٠].

=

=

وقيل: {بِذِكْرِ الرَّحْمنِ} بما أنزل عليك من القرآن، والجملة في موضع الحال، أى: يتخذونك هزؤا، وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية وهي الكفر بالله".
قال الشنقيطي: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا رأوا النبي ﷺ ما يتخذونه إلا هزوًا، أي مستهزأ به مستخفًا به. والهزؤ: السخرية، فهو مصدر وصف به. ويقولون: أهذا الذي يذكر آلهتكم أي يعيبها وينفي أنها تشفع لكم وتقربكم إلى الله زلفى، ويقول: إنها لا تنفع من عبدها، ولا تضر من لم يعبدها، وهم مع هذا كله كافرون بذكر الرحمن. فالخطاب في قوله: {وَإِذَا رَآكَ} للنبي ﷺ. و {إِنْ} في قوله: {إِنْ يَتَّخِذُونَكَ} نافية. والاستفهام في قوله: {أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} قال فيه أبو حيان في البحر: إنه للإنكار والتعجيب. والذي يظهر لي أنهم يريدون بالاستفهام المذكور التحقير بالنبي ﷺ، كما تدل عليه قرينة قوله: {إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا}. وقد تقرر في فن المعاني: أن من الأغراض التي تؤدى بالاستفهام التحقير. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: إن جواب {وَإِذَا} هو القول المحذوف، وتقديره: وإذا رءاك الذين كفروا يقولون: أهذا الذي يذكر آلهتكم. وقال: إن جملة {إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا} جملة معترضة بين إذا وجوابها. واختار أبو حيان في البحر أن جواب {وَإِذَا} هو جملة {إِنْ يَتَّخِذُونَكَ} وقال: إن جواب "إذا" بجملة مصدرة بـ {إِنْ} أو "ما" النافيتين لا يحتاج إلى الاقتران بالفاء. وقوله: {يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} أي يعيبها. ومن إطلاق الذكر بمعنى العيب قوله تعالى: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)} أي: يعيبهم. وقول عنترة:

لا تذكري مهري وما أطعمته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

أي: لا تعيبي مهري، قاله القرطبي.

ثم بين -سبحانه- ما جبل عليه الإنسان من تسرع وتعجل فقال: (خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ).

=

=

قوله تعالى: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ} [الأنبياء: ٣٧]، أي:" خُلق الإنسان عجولا يبادر الأشياء ويستعجل وقوعها".

قال القرطبي: "أي: طَبْعُ الإنسان العجلة، فيستعجل كثيرًا من الأشياء وإن كانت مضرة".

قال الماوردي:" «العجلة»: تقديم الشيء قبل وقته، والسرعة تقديمه في أول أوقاته".

قال الراغب:" العجلة: طلب الشيء وتحريه قبل أوانه، وهو من مقتضى الشهوة، فلذلك صارت مذمومة في عامة القرآن حتى قيل: «العجلة من الشيطان».

قال القشيري:" العجلة مذمومة والمسارعة محمودة فالمسارعة البدار إلى الشيء فى أول وقته، والعجلة استقباله قبل وقته، والعجلة نتيجة وسوسة الشيطان، والمسارعة قضية التوفيق".

قال ابن كثير:" والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت، فقال الله تعالى: {خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}؛ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر".

وفي المراد بـ«الإنسان» ها هنا، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه النضر بن الحارث، وهو الذي قال: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢]. رواه عطاء عن ابن عباس.

القول الثاني: أنه آدم-عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

قعن سفيان الثوري، في قوله: {خلق الانسان من عجل}، قال: آدم".

فعلى هذا في قوله: {مِنْ عَجَلٍ}، ثلاثة وجوه من التفسير:

=

=

أحدها: معناه: من تعجيل في خلق الله إياه ومن سرعة فيه وعلى عجل. وهذا قول مجاهد، وابن زيد.

وقال الاخفش:" يقول: من تعجيل من الأمر".

قال مجاهد:" آدم حين خلق بعد كل شيء آخر النهار من يوم خلق الخلق، فلما أجرى الروح في عينيه ولسانه ورأسه ولم يبلغ أسفله، قال: يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس".

وعن ابن زيد: قوله:" {لخُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}، قال: على عجل آدم آخر ذلك اليوم من ذينك اليومين، يريد يوم الجمعة، وخلقه على عجل، وجعله عجولا".

قال سلمان الفارسي:" أول ما خلق الله من آدم عليه السلام رأسه، فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه، فما كان العصر قال: يا رب، اعجل قبل الليل، فذلك قوله: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} ".

وقال ابن عباس:" لما نفخ الله في آدم من روحه أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجرى شيء منها في جسده، إلا صار لحما ودما؛ فلما انتهت النفخة إلى سرته، نظر إلى جسده، فأعجبه ما رأى من جسده فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تبارك وتعالى: {وكان الإنسان عجولا}، قال: ضجرا لا صبر له على سراء، ولا ضراء".

الثاني: معناه: من عجل في بنيته وخلقته، كان من العجلة، وعلى العجلة. وهذا قول سعيد بن جبير، والسدي، والفراء.

قال سعيد بن جبير:" لما نفخ فيه الروح في ركبتيه ذهب لينهض، فقال الله: {خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ} ".

قال السدي:" لما نفخ فيه، يعني: في آدم الروح، فدخل في رأسه عطس، فقالت الملائكة: قل الحمد لله، فقال: الحمد لله، فقال الله له: رحمك ربك، فلما دخل

=

الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة؛ فذلك حين يقول: {خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}، يقول: خلق الإنسان عجولا".

قال الواحدي:" ذهب كثيرٌ من أهل التفسير إلى أن المراد بالإنسان هاهنا: آدم. وقالوا: لما نفخ فيه الروح لم تبلغ رجليه حتى استعجل، وأهوى إلى عنقود من عنب الجنة ليأكل منه، وأراد الوثوب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان، وأورث أولاده العجلة".

الثالث: أنه سأل ربه بعد إكمال صورته ونفخ الروح في عينيه ولسانه أن يعجل إتمام خلقه وإجراء الروح في جميع جسده، قاله الكلبي.

الرابع: أن معنى: {من عجل}، أي: من طين، ذكره اليزيدي عن ابن عباس، ومنه قول الشاعر:

والنَّبْعُ في الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ مَنْبِتُهُ... والنَّخْلُ يَنْبِتُ بَيْنَ المَاءِ وَالعَجَل

قال الزمخشري بعد إنشاده عجز هذا البيت: "والله أعلم بصحته".

قال أبو عبيد: "وكثير من أهل المعاني يقولون: «العجل»: الطين بلغة حمير".

قال الألوسي:" واعترض بأنه لا تقريب لهذا المعنى هاهنا".

وقال القرطبي:" وقيل المراد: النضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار في تفسير ابن عباس، أي: لا ينبغي لمن خلق من الطين الحقير أن يستهزئ بآيات الله ورسله".

وقال الطيبي: "يكون القصد عليه تحقير شأن جنس الإنسان تتميما لمعنى التهديد في قوله تعالى: {سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُون} ".

القول الثالث: أنه أنه اسم جنس، والمعنى بـ «الإنسان»: الناس كلهم، قاله علي بن أحمد النيسابوري، وعلى هذا في قوله: {مِنْ عَجَلٍ}، ثلاثة وجوه من التفسير:

=

أحدها: يعني: خلق الإنسان عجولًا، قاله قتادة.

قال الواحدي:" وهذا القول اختيار جميع أهل اللغة والمعاني. والإنسان هاهنا اسم الجنس".

الثاني: أنه من المقدم والمؤخر، والمعنى: خلقت العجلة في الإنسان. قاله ابو عبيدة، و ابن قتيبة.

قال أبو عبيدة:" والعرب تفعل هذا إذا كان الشيء من سبب الشيء بدءوا بالسبب".

الثالث: يعني: أنه خلق على حُب العجلة. حكاه الماوردي.

قال الطبري:" والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا الذي ذكرناه عمن قال معناه: خُلق الإنسان من عجل في خلقه: أيْ على عجل وسرعة في ذلك، وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه بُودر بخلقه مغيب الشمس في آخر ساعة من نهار يوم الجمعة، وفي ذلك الوقت نفخ فيه الروح، وإنما قلنا أولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بالصواب، لدلالة قوله تعالى: {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ} علي ذلك... عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ فِي الجُمُعَةِ لَساعَةٌ يَقَلِّلُها،فقال: - لا يُوَافِقُها عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسأْلُ اللهَ فِيها خَيْرًا إلا أتاهُ اللهُ إيَّاهُ فقال عبد الله بن سلام: قد علمت أيّ ساعة هي، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، قال الله: {خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ}» ".

قوله تعالى: {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ} [الأنبياء: ٣٧]، أي:" سأوريكم انتقامي واقتداري على من عصاني فلا تتعجلوا الأمر قبل أوانه".

قال الثعلبي:" فلا تستعجلون بالعذاب وسؤال الآيات".

قال ابن كثير:" أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني، {فَلا تَسْتَعْجِلُونِ} ".

=

=

قال يحيى:" وذلك لما كانوا يستعجلون به النبي ﷺ، لما خوفهم به من العذاب، وذلك منهم استهزاء وتكذيب".

قال الحسن: "يعني: الموعد الذي وعده الله في الدنيا؛ القتل لهم، والنصر عليهم، والعذاب لهم في الآخرة".

قال البغوي:" هذا خطاب للمشركين، نزل هذا في المشركين كانوا يستعجلون العذاب، ويقولون أمطر علينا حجارة من السماء، وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، فقال تعالى: سأريكم آياتي أي مواعيد عذابي فلا تستعجلون، أي: فلا تطلبوا العذاب من قبل وقته، فأراهم يوم بدر، وقيل: كانوا يستعجلون القيامة".

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله خلق الإنسان من عجل وقوله وكان الإنسان عجولا أليس هذا من تكليف ما لا يطاق؟

قلت: هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها، لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة".

والراجح - والله أعلم - أن أقوى الأقوال في معنى الآية هو أن المراد: خلق الإنسان عجولا.

ويشهد لهذا ما يلي:

- أن هذا القول تؤيده قرينة في السياق، والقول الذي تؤيده قرينة في السياق مرجح على ما خالفه.

- وجود آيات أخرى في كتاب الله تؤيد هذا المعنى، والقول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على غيره.

يقول الرازي مؤيدا المعنى: (وهو متأكد بقوله تعالى: { وكان الإنسان عجولا } [الإسراء: ١١]).

- ذهاب أكثر المفسرين إلى هذا المعنى، يقول ابن عطية: (وليس في الأقوال ما

=

=

يصح معناه ويلتئم مع الآية إلا القول الأول - يريد: عجولا -).
قال الشنقيطي: قوله {مِنْ عَجَلٍ} فيه للعلماء قولان معروفان، وفي نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة أحدهما. أما القول الذي دلت القرينة المذكورة على عدم صحته؛ فهو قول من قال: العجل: الطين وهي لغة حميرية؛ كما قال شاعرهم: البيع في الصخرة الصماء منبته ... والنخل ينبت بين الماء والعجل
يعني: بين الماء والطين. وعلى هذا القول فمعنى الآية: خلق الإنسان من طين، كقوله تعالى: {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}، وقوله: {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧)}. والقرينة المذكورة الدالة على أن المراد بالعجل في الآية ليس الطين قوله بعده: {فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)}، وقوله: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)}. فهذا يدل على أن المراد بالعَجَل هو العَجَلَة التي هي خلاف التأنِّي والتثبت. والعرب تقول: خلق من كذا. يعنون بذلك المبالغة في الاتصاف؛ كقولهم: خلق فلان من كرم، وخلقت فلانة من الجمال، ومن هذا المعنى قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ} على الأظهر. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١)} أي: ومن عجلته دعاؤه على نفسه أو ولده بالشر. قال بعض العلماء: كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار، ويقولون متى هذا الوعد؛ فنزل قوله: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ} للزجر عن ذلك. كأنه يقول لهم: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا؛ فإنكم مجبولون على ذلك، وهو طبعكم وسجيتكم ا.هـ
وقال الرازي: المسألة الأولى: في المراد من الإنسان قولان: أحدهما: أنه النوع، والثاني: أنه شخص معين... أما القول الثاني: وهو أن المراد شخص معين فهذا فيه وجهان: أحدهما: أن المراد آدم عليه السلام، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي والكلبي ومقاتل والضحاك،

=

=

وروى ابن جريج وليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: خلق الله آدم عليه السلام بعد كل شيء من آخر نهار الجمعة، فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله، قال: يا رب استعجل خلقي قبل غروب الشمس، قال ليث: فذلك قوله تعالى: خلق الإنسان من عجل.

وعن السدي لما نفخ فيه الروح فدخل في رأسه عطس، فقالت له الملائكة: قل الحمد لله، فقال ذلك: فقال الله له: يرحمك ربك. فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، ولما دخل الروح في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه إلى ثمار الجنة. وهذا هو الذي أورث أولاده العجلة.

وثانيهما: قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث والمراد بالإنسان هو، واعلم أن القول الأول أولى لأن الغرض ذم القوم، وذلك لا يحصل إلا إذا حملنا لفظ الإنسان على النوع ا.هـ

فالمعنى: خلق جنس الإنسان مجبولا على العجلة والتسرع فتراه يستعجل حدوث الأشياء قبل وقتها المحدد لها، مع أن ذلك قد يؤدى إلى ضرره.

فالمراد من الآية الكريمة وصف الإنسان بالمبالغة في تعجل الأمور قبل وقتها، حتى لكأنه مخلوق من نفس التعجل. والعرب تقول: فلان خلق من كذا، يعنون بذلك المبالغة في اتصاف هذا الإنسان بما وصف به، ومنه قولهم خلق فلان من كرم، وخلقت فلانة من الجمال.

وقوله: سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ تهديد وزجر لأولئك الكافرين الذين كانوا يستعجلون العذاب.

أى: سأريكم عقابي وانتقامي منكم- أيها المشركون- فلا تتعجلوا ذلك فإنه آت لا ريب فيه.

قال ابن كثير: والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هنا: أنه-سبحانه- لما ذكر

=

=

المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم. فقال-سبحانه-: خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ لأنه تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: سَأُرِيكُمْ آياتِي أى: نقمى واقتدارى على من عصاني فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ا.هـ.

وقال الآلوسى: «والنهى عن استعجالهم إياه تعالى مع أن نفوسهم جبلت على العجلة، ليمنعوها عما تريده وليس هذا من التكليف بما لا يطاق. لأنه-سبحانه- أعطاهم من الأسباب ما يستطيعون به كف النفس عن مقتضاها، ويرجع هذا النهى إلى الأمر بالصبر» ا.هـ.

وقال الرازي: المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: القوم استعجلوا الوعد على وجه التكذيب ومن هذا حاله لا يكون مستعجلا على الحقيقة. قلنا: استعجالهم على هذا الوجه أدخل في الذم لأنه إذا ذم المرء استعجال الأمر المعلوم فبأن يذم على استعجال ما لا يكون معلوما له كان أولى، وأيضا فإن استعجالهم بما توعدهم من عقاب الآخرة أو هلاك الدنيا يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك فكانوا مستعجلين في الحقيقة.

أما قوله تعالى: سأريكم آياتي فلا تستعجلون فقد اختلفوا في المراد بالآيات على أقوال: أحدها: أنها هي الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولذلك قال: فلا تستعجلون أي أنها ستأتي لا محالة في وقتها. وثانيها: أنها أدلة التوحيد وصدق الرسول. وثالثها: أنها آثار القرون الماضية بالشام واليمن والأول أقرب إلى النظم ا.هـ

ثم أكد-سبحانه- ما يدل على تعجلهم لما فيه هلاكهم فقال: وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} [الأنبياء: ٣٨]، أي:" ويقول الكفار -

=

=

مستعجلين العذاب مستهزئين -: متى حصول ما تَعِدُنا به يا محمد".

قال يحيى:" قول المشركين للنبي ﷺ: متى هذا الذي تعدنا به من أمر القيامة؟ قال الله تبارك وتعالى: {لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون} [الأنبياء: ٣٩] وفيها تقديم".

قال الطبري:" ويقول هؤلاء المستعجلون ربهم بالآيات والعذاب لمحمد ﷺ: متى يجيئنا هذا الذي تعدنا من العذاب".

قال مكي:" أي: ويقول المشركون متى يأتنا هذا الذي تعدنا يا محمد، الوعد بمعنى الموعود. كما قيل: الخلق بمعنى المخلوق".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأنبياء: ٣٨]، أي:" إن كنت أنت ومَن اتبعك من الصادقين؟ ".

قال الطبري: أي:" فيما تعدوننا به من ذلك، كأنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ وللمؤمنين به".

قال مكي:" يخاطبون النبي ﷺ والمؤمنين".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضًا بوقوع العذاب بهم، تكذيبًا وجحودًا وكفرًا وعنادًا واستبعادًا".

قال القشيري:" اعتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيما وعدوهم، فاستعجلوا حصول ما توعدوهم به، ولو علموا ما ينالهم لكان السكون منهم، فالفزع يدل على استعجالهم".

أى: أن هؤلاء المشركين بلغ من طغيانهم وجهلهم أنهم كانوا يتعجلون العذاب الذي توعدهم الله تعالى به إذا ما استمروا على كفرهم. ويقولون للرسول ﷺ ولأصحابه- على سبيل التهكم والاستهزاء- متى يقع هذا العذاب الذي توعدتمونا به. إننا مترقبون له، فإن كنتم صادقين في وعيدكم، فأسرعوا في إنزاله.

=

=

وأسرعوا في دعوة ربكم -سبحانه- أن يأتي بالساعة.

وجواب الشرط لقوله إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ محذوف، لدلالة ما قبله عليه. أى: إن كنتم صادقين في وعيدكم بأن هناك عذابا ينتظرنا، فأتوا به بسرعة.

وهنا يسوق القرآن ما يدل على غفلتهم وسوء تفكيرهم، وعلى أنهم لو كانوا يعلمون ما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة، لما تفوهوا بما تفوهوا به- فيقول- سبحانه- لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ، وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ.

قوله تعالى: {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ} [الأنبياء: ٣٩]، أي:" لو يعلم هؤلاء الكفار ما يلاقونه عندما لا يستطيعون أن يدفعوا عن وجوههم وظهورهم النار".

قال مقاتل:" لو علموا ذلك ما استعجلوا بالعذاب".

قال الطبري:" لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون عذاب ربهم ماذا لهم من البلاء حين تلفح وجوههم النار، وهم فيها كالحون، فلا يكفون عن وجوههم النار التي تلفحها، ولا عن ظهورهم فيدفعونها عنها بأنفسهم".

قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} [الأنبياء: ٣٩]، أي:" ولا يجدون لهم ناصرًا ينصرهم، لما أقاموا على كفرهم، ولما استعجلوا عذابهم".

قال مقاتل:" يقول: ولا هم يمنعون من العذاب".

قال الطبري:" يقول: ولا لهم ناصر ينصرهم، فيستنقذهم حينئذ من عذاب الله لما أقاموا على ما هم عليه مقيمون من الكفر بالله، ولسارعوا إلى التوبة منه والإيمان بالله، ولما استعجلوا لأنفسهم البلاء".

قال يحيى:" فيها تقديم. أي: أن الوعد الذي كانوا يستعجلون به في الدنيا هو يوم لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون لو يعلم الذين

=

=

كفروا".

وجواب «لو» محذوف. و «يعلم» بمعنى يعرف، و «حين» مفعوله.

أى: لو عرف الكافرون وقت وقوع العذاب بهم. وما فيه من فظائع تجعلهم يعجزون عن دفع النار عن وجوههم وعن ظهورهم.. لو يعرفون ذلك لما استعجلوه. ولما استخفوا بالنبي ﷺ وبأصحابه، لكن عدم معرفتهم هي التي جعلتهم يستعجلون ويستهزئون.

وخص-سبحانه- الوجوه والظهور بالذكر. لكونهما أظهر الجوانب، ولبيان أن العذاب سيغشاهم من أمامهم ومن خلفهم دون أن يملكوا له دفعا.

وقال-سبحانه- وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ لبيان أنهم مع عجزهم عن دفع العذاب بأنفسهم. فإن غيرهم- أيضا- لن يستطيع دفعه عنهم.

قال الزمخشري: «جواب «لو» محذوف. و «حين» مفعول به ليعلم. أى: لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم: «متى هذا الوعد» وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصرا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذي هونه عندهم، ويجوز أن يكون «يعلم» متروكا بلا تعدية، بمعنى: لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين، لما كانوا مستعجلين، وحين: منصوب بمضمر، أى حين «لا يكفون عن وجوههم النار» يعلمون أنهم كانوا على الباطل.. ا.هـ.

قوله تعالى: {بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ} [الأنبياء: ٤٠]، أي:" بل تأتيهم الساعة فجأة فتدهشهم وتحيرهم".

قال الزجاج:" {بغتة} : فجاءة وهم غافلون عنها، {فتبهتم} : فتحيرهم".

قال الطبري:" لا تأتي هذه النار التي تلفح وجوه هؤلاء الكفار الذين وصف أمرهم

=

=

في هذه السورة حين تأتيهم عن علم منهم بوقتها، ولكنها تأتيهم مفاجأة لا يشعرون بمجيئها فتبهتهم: يقول: فتغشاهم فجأة، وتلفح وجوههم معاينة كالرجل يبهت الرجل في وجهه بالشيء، حتى يبقى المبهوت كالحيران منه".

قوله تعالى: {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا} [الأنبياء: ٤٠]، أي:" ولا يستطيعون دَفْعَ العذاب عن أنفسهم".

قال الطبري:" يقول: فلا يطيقون حين تبغتهم فتبهتهم دفعها عن أنفسهم".

قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ} [الأنبياء: ٤٠]، أي:" ولا يُمهلون ويُؤخرون لتوبةٍ واعتذار".

قال الطبري:" يقول: ولا هم وإن لم يطيقوا دفعها عن أنفسهم يؤخرون بالعذاب بها لتوبة يحدثونها، وإنابة ينيبون، لأنها ليست حين عمل وساعة توبة وإنابة، بل هي ساعة مجازاة وإثابة".

قال السعدي:" فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة، لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم، قالوا ما قالوا، ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم: {أهذا الذي يذكر آلهتكم} ".

وقوله-سبحانه- بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ.. بيان لسرعة قيام الساعة، ومفاجأتها لهم. أى: بل تأتيهم الساعة الموعود بها، وبعذابهم فيها، مفاجأة من غير شعور بمجيئها «فتبهتهم» أى: فتدهشهم وتحيرهم، والبهت: الانقطاع والحيرة.

«فلا يستطيعون ردها» أى: فلا يستطيعون دفع الساعة أوردها عنهم وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ أى: ولا هم يمهلون لتوبة أو معذرة.

ثم ختم-سبحانه- الآيات الكريمة بتسلية النبي ﷺ عما أصابه من هؤلاء المشركين، فقال: وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ. ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ.

=

=

قوله تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ} [الأنبياء: ٤١]، أي:" ولقد استهزئ برسل مِن قبلك أيها الرسول".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن يتخذك يا محمد هؤلاء القائلون لك: هل هذا إلا بشر مثلكم، أفتأتون السحر وأنتم تبصرون، إذ رأوك هُزُوا ويقولون: هذا الذي يذكر آلهتكم كفرا منهم بالله، واجتراء عليه، فلقد استهزئ برسل من رسلنا الذين أرسلناهم من قبلك إلى أممهم".

قال المراغي:" أي: ولقد استهزئ برسل من رسلنا الذين أرسلناهم قبلك إلى أممهم".

قال السعدي:" سلاه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم".

قوله تعالى: {فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنبياء: ٤١]، أي:" فحلَّ بالذين كانوا يستهزئون العذاب الذي كان مَثار سخريتهم واستهزائهم".

قال الطبري: يقول:" حلّ بهم الذي كانوا به يستهزءون من البلاء والعذاب الذي كانت رسلهم تخوّفهم نزوله بهم".

قال السمعاني:" أي: نزل بالذين سخروا منهم جزاء استهزائهم".

قال السعدي:" أي: نزل بهم العذاب، وتقطعت عنهم الأسباب، فليحذر هؤلاء، أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين".

قال المراغي:" فنزل بالذين استهزءوا بهم العذاب والبلاء الذي كانت الرسل تخوفهم نزوله، ولن يعدو أن يكون أمر هؤلاء الكفار كأمر أسلافهم من الأمم المكذبة لرسلها، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم مثل ما نزل بمن قبلهم فانظر لهم عاقبة وخيمة كعاقبة أولئك، وسيكون لك النصر عليهم".

قال الزجاج:" «الحيق» في اللغة: ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله، ومنه

=

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢).

{قُلْ} لَهُمْ {مَنْ يَكْلَؤُكُمْ} يَحْفَظكُمْ {بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار مِنْ الرَّحْمَن} مِنْ عَذَابه إنْ نَزَلَ بِكُمْ أَيْ لَا أَحَد يَفْعَل ذَلِكَ وَالْمُخَاطَبُونَ لَا يَخَافُونَ عَذَاب الله لِإِنْكَارِهِمْ

=

قوله ﷻ: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِه} [فاطر: ٤٣]، أي: لا ترجع عاقبة مكروهه إلا عليهم".

أى: ولقد استهزئ- أيها الرسول الكريم- برسل كثيرين من قبلك، فنزل بهؤلاء المشركين المستهزئين برسلهم، العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا، ويستعجلون رسلهم في نزوله.

وصدرت الآية الكريمة بلام القسم وقد، لزيادة تحقيق مضمونها وتأكيده، وتنوين الرسل:

للتفخيم والتكثير، أى: والله لقد استهزئ برسل كثيرين ذوى شأن خطير كائنين في زمان قبل زمانك.

وعبر-سبحانه- بالفعل حاق، لأن هذه المادة تستعمل في إحاطة المكروه، فلا يقال:

فلان حاق به الخير، ولأنها تدل على الشمول واللزوم.

أى: فنزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا نزولا شاملا، أحاط بهم من كل جهة إحاطة تامة.

وبذلك تكون الآيات الكريمة، قد بينت جانبا من سنن الله تعالى في خلقه، وحكت بعض الأفعال القبيحة التي كان المشركون يفعلونها مع النبي ﷺ وهددتهم عليها تهديدا شديدا، وسلّت النبي ﷺ عما ارتكبوه في حقه.

لَهُ {بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْر رَبّهمْ} أَيْ الْقُرْآن {مُعْرِضُونَ} لَا يتفكرون فيه.

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣).

{أم} فيها معنى الهمزة للإنكار أي أ {لهم آلهة تمنعهم} مما يسوؤهم {مِنْ دُوننَا} أَيْ أَلَهُمْ مَنْ يَمْنَعهُمْ مِنْهُ غَيْرنَا لَا {لَا يَسْتَطِيعُونَ} أَيْ الْآلِهَة {نَصْر أَنْفُسهمْ} فَلَا يَنْصُرُونَهُمْ {وَلَا هُمْ} أَيْ الْكُفَّار {مِنَّا} مِنْ عَذَابنَا {يُصْحَبُونَ} يُجَارُونَ يُقَال صَحِبَك الله أَيْ حَفِظَك وَأَجَارَك.

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤).

{بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ} بِمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ {حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمْ الْعُمُر} فَاغْتَرُّوا بِذَلِكَ {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْض} نَقْصِد أَرْضهمْ {نَنْقُصهَا مِنْ أَطْرَافهَا} بِالْفَتْحِ عَلَى النَّبِيّ {أَفَهُمْ الْغَالِبُونَ} لَا بَلْ النَّبِيّ وَأَصْحَابه.

قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (٤٥).

{قُلْ} لَهُمْ {إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ} مِنْ الله لَا مِنْ قِبَل نَفْسِي {وَلَا يَسْمَع الصُّمّ الدُّعَاء إِذَا} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيل الثَّانِيَة بَيْنهَا وَبَيْن الْيَاء {مَا يُنْذَرُونَ} هُمْ لِتَرْكِهِمْ الْعَمَل بِمَا سَمِعُوهُ مِنْ الْإِنْذَار كَالصُّمِّ.

وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦).

{وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَة} وَقْعَة خَفِيفَة {مِنْ عَذَاب رَبّك لَيَقُولُنَّ يَا} لِلتَّنْبِيهِ {وَيْلنَا} هَلَاكنَا {إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} بِالْإِشْرَاكِ وَتَكْذِيب مُحَمَّد.

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧).

{وَنَضَع الْمَوَازِين الْقِسْط} ذَوَات الْعَدْل {لِيَوْمِ الْقِيَامَة} أَيْ فِيهِ {فَلَا تُظْلَم نَفْس شَيْئًا} مِنْ نَقْص حَسَنَة أَوْ زِيَادَة سَيِّئَة {وَإِنْ كَانَ} الْعَمَل {مِثْقَال} زِنَة {حَبَّة مِنْ خَرْدَل أَتَيْنَا بِهَا} بِمَوْزُونِهَا {وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} مُحْصِينَ كُلّ شيء[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ} [الأنبياء: ٤٢]، أي:" قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين من يحفظكم ويحرسكم في ليلكم أو نهاركم، في نومكم أو يقظتكم، مِن بأس الرحمن إذا نزل بكم".

قال مقاتل:" يقول: من يحرسكم بالليل والنهار من عذاب الرحمن".

قال الفراء:" {من الرحمن}، يريد: من أمر الرحمن".

قال الزجاج:" معناه - والله أعلم - من يحفظكم من بأس الرحمن، كما قال: {فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّه} [هود: ٦٣]، أي: من عذاب الله".

قال الطبري: " قل يا محمد بهؤلاء المستعجليك بالعذاب، القائلين: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين من يكلؤكم أيها القوم: يقول: من يحفظكم ويحرسكم بالليل إذا نمتم، وبالنهار إذا تصرّفتم من أمر الرحمن إن نزل بكم، ومن عذابه إن حلّ بكم، وترك ذكر الأمر، وقيل {من الرحمن} اجتزاء بمعرفة السامعين لمعناه من ذكره".

قال السعدي:" يقول تعالى - ذاكرا عجز هؤلاء، الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحمته، شملت البر والفاجر، في ليلهم ونهارهم - فقال: {قل من يكلؤكم} أي: يحرسكم ويحفظكم {بالليل} إذ كنتم نائمين على فرشكم، وذهبت حواسكم {والنهار} وقت انتشاركم وغفلتكم {من الرحمن} أي: بدله غيره، أي: هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو".

قال ابن كثير:" ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته =

=

وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: {قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ} ؟ أي: بدل الرحمن بمعني غيره كما قال الشاعر:

جَارية لَمْ تَلْبَس المُرقَّقا... وَلَم تَذق منَ البُقول الفُسْتُقا

أي: لم تذق بدل البقول الفستق".

قال أبو عبيدة: {قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ}، معناه: " يحفظكم ويمنعكم، قال ابن هرمة:

إنّ سليمى والله يكلؤها... ضنّت بشئ ما كان يرزؤها".

قال السمعاني:" قوله: {بالليل والنهار من الرحمن}، أي: من عذاب الرحمن، والله تعالى يحفظ العباد من عذاب نفسه".

قال القاسمي:".وتقديم «الليل» لما أن الدواهي فيه أكثر وقوعا وأشد وقعا. وفي لفظ «الرحمن» تنبيه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته، وتلقين للجواب. وقيل إنه إيماء إلى شدته. كغضب الحليم. وتنديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته. ودلالة على شدة خبثهم".

عن ابن عباس، قوله:" {قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ}، قال: يحرسكم".

قال مجاهد:" من يحفظكم بالليل والنهار".

قال قتادة:" قل من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن".

قوله تعالى: {بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء: ٤٢]، أي:" بل هم عن القرآن ومواعظ ربهم لاهون غافلون".

قال مقاتل:" يعني: القرآن، معرضون عنه".

قال الطبري: معناه:" وما لهم أن لا يعلموا أنه لا كالئ لهم من أمر الله إذا هو حلّ بهم ليلا أو نهارا، بل هم عن ذكر مواعظ ربهم وحججه التي احتجّ بها عليهم معرضون لا يتدبرون ذلك فلا يعتبرون به، جهلا منهم وسفها".

=

=

قال ابن كثير:" أي: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه".

قال السعدي:" فلهذا أشركوا به، وإلا فلو أقبلوا على ذكر ربهم، وتلقوا نصائحه، لهدوا لرشدهم، ووفقوا في أمرهم".

قوله تعالى: يَكْلَؤُكُمْ أى: يرعاكم ويحفظكم. يقال: فلان كلأ فلانا كلأ وكلاءة- بالكسر- إذا حرسه، واكتلأ فلان من غيره، إذا احترس منه. والاستفهام للإنكار والتقريع.

فقوله (قل من يكلؤكم أي يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن) أي من بأسه أي يفجأكم. وتقديم (الليل) لما أن الدواهي فيه أكثر وقوعا وأشد وقعا. وفي لفظ (الرحمن) تنبيه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته، وتلقين للجواب. وقيل إنه إيماء إلى شدته. كغضب الحليم. وتنديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته. ودلالة على شدة خبثهم. قال المهايمي: ولا يمنع من ذلك عموم رحمته. إذ بتعذيبكم يعتبر أهل عصركم ومن بعدهم. فيكون لإصلاح أمورهم الموجب لرحمته عليهم.

قال الشنقيطي: قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ}.

أمر الله جل وعلا نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يقول للمعرضين عن ذكر ربهم: {مَنْ يَكْلَؤُكُمْ} أي من هو الذي يحفظكم ويحرسكم {بِاللَّيلِ} في حال نومكم {وَالنَّهَار} في حال تصرفكم في أموركم. والكِلاءة بالكسر: الحفظ والحراسة؛ يقال: اذهب في كِلاءة الله؛ أي في حفظه. واكتلأت منهم: احترست. ومنه قول ابن هرمة:

إن سُليمى والله يكلؤها ... ضنَّت بشيءٍ ما كان يَرْزَؤها

وقول كعب بن زهير:

=

=

أنخت بعيري واكتلأت بعينه ... وآمرت نفسي أيّ أمريَّ أفعلُ

و {مِنَ} في قوله: {مِنَ الرَّحْمَنِ} فيها للعلماء وجهان معروفان: أحدهما -وعليه اقتصر ابن كثير-: أن {مِنَ} هي التي بمعنى بدل. وعليه فقوله: {مِنَ الرَّحْمَنِ} بدل الرحمن، يعني غيره. وأنشد ابن كثير لذلك قول الراجز:

جارية لم تلبس المرقّقا ... ولم تذق من البقول الفُسْتقا

أي: لم تذق بدل البقول الفستق. وعد هذا القول فالآية كقوله تعالى: {أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ} أي بدلها ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

أخذوا المخاض من الفصيل غلبة ... ظلمًا ويكتب للأمير أفيلا

يعني أخذوا في الزكاة المخاض بدل الفصيل. والوجه الثاني: أن المعنى {مَنْ يَكْلَؤُكُمْ} أي يحفظكم {مِنَ الرَّحْمَنِ} أي من عذابه وبأسه. وهذا هو الأظهر عندي. ونظيره من القرآن قوله تعالى: {فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ} أي من ينصرني منه فيدفع عني عذابه.

والاستفهام في قوله تعالى: {مَنْ يَكْلَؤُكُمْ} قال أبو حيان في البحر: هو استفهام تقريع وتوبيخ. وهو عندي يحتمل الإنكار والتقرير؛ فوجه كونه إنكاريًّا أن المعنى: لا كالئ لكم يحفظكم من عذاب الله ألبتة إلا الله تعالى؛ أي فكيف تعبدون غيره؟! ووجه كونه تقريريًّا أنهم إذا قيل لهم: من يكلؤكم؟ اضطروا إلى أن يقروا بأن الذي يكلؤهم هو الله؛ لأنهم يعلمون أنه لا نافع ولا ضار إلا هو تعالى، ولذلك يخلصون له الدعاء عند الشدائد والكروب، ولا يدعون معه غيره، كما قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة "الإسراء" وغيرها. فإذا أقروا بذلك توجه إليهم التوبيخ والتقريع، كيف يصرفون حقوق الذي يحفظهم بالليل والنهار إلى ما لا ينفع ولا يضر؟! وهذا المعنى الذي أشارت إليه هذه الآية الكريمة: أنه لا أحد يمنع أحدًا من عذاب الله، ولا يحفظه ولا يحرسه من الله، وأن الحافظ لكل شيء

=

=

هو الله وحده؛ جاء مبينًا في مواضع أخر؛ كقوله تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَينِ يَدَيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ} على أظهر التفسيرات، وقوله تعالى: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا} الآية، وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧)}، وقوله تعالى: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} وقوله تعالى: {وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)} إلى غير ذلك من الآيات ا.هـ

قوله:(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) أى: بل هم بعد كل هذا الإنكار عليهم، والتنبيه لهم عن ذكر ربهم وكتابه الذي أنزله لهدايتهم، معرضون شاردون، لا يحاولون الانتفاع بتوجيهاته، ولا يستمعون إلى إرشاداته.

فالجملة الكريمة تنفى عنهم الانتفاع بما يوجهه الرسول ﷺ إليهم من هدايات وعظات.

ثم وجه-سبحانه- إليهم سؤالا آخر فقال: أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا..؟.

قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا} [الأنبياء: ٤٣]، أي:" ألهم آلهة تمنعهم من العذاب غيرنا؟ ".

قال الطبري: معناه:" أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم منا".

قال ابن كثير:" استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا ".

قال السعدي:" أي: إذا أردناهم بسوء هل من آلهتهم، من يقدر على منعهم من ذلك السوء، والشر النازل بهم؟ ".

قوله تعالى: {لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ} [الأنبياء: ٤٣]، أي:" إنَّ آلهتهم لا

=

=

يستطيعون أن ينصروا أنفسهم، فكيف ينصرون عابديهم؟ ".

قال الطبري:" ثم وصف جلّ ثناؤه الآلهة بالضعف والمهانة، وما هي به من صفتها، فقال وكيف تستطيع آلهتهم التي يدعونها من دوننا أن تمنعهم منا وهي لا تستطيع نصر أنفسها".

قال ابن كثير:" أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم".

قوله تعالى: {وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ} [الأنبياء: ٤٣]، أي:" وهم منا لا يُجارون".

قال السمعاني:" أي: يجارون، يقال: أجارك الله، أي: حفظك، وتقول العرب: صحبك الله أي: حفظك ونصرك".

قال السعدي:" أي: لا يعانون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم يعانوا من الله، فهم مخذولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة".

وفي قوله تعالى: {وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ} [الأنبياء: ٤٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: يُجَارُون، قاله ابن عباس، وبه قال الفراء، واب قتيبة، من قولهم: إن لك من فلان صاحبًا، أي مجيرًا، قال الشاعر:

ينادي بأعلى صوته متعوذًا... ليصحب منها والرماح دواني

عن ابن عباس، قوله:" {وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ}، يقول: ولا هم منا يجارون، وهو قوله {وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ}، يعني: الصاحب، وهو الإنسان يكون له خفير مما يخاف، فهو قوله يصحبون".

قال مقاتل:" يقول الله تعالى:لا يجيرهم مني ولا يؤمنهم مني أحد".

قال ابن قتيبة:" أي: لا يجيرهم منا أحد؛ لأن المجير صاحب لجاره".

وحكي يحيى بن سلام عن الحسن، قال: "لا تمنعهم من دون الله إن أراد عذابهم {ولا هم منا يصحبون}، ولا من يعبدها منا يجارون، أي ليس لهم من يجيرهم،

=

=

أي يمنعهم منا إن أراد الله عذابهم".

وقال الحسن:" إنما تعذب الشياطين التي دعتهم إلى عبادة الأصنام، ولا تعذب الأصنام"".

الثاني: يحفظون، قاله مجاهد.

الثالث: ينصرون، قاله ابن عباس، ومجاهد ايضا.

الرابع: يمنعون. وهذا مروي عن مجاهد كذلك.

الخامس: ولا يصحبون من الله بخير، قاله قتادة.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هذا القول الذي حكيناه عن ابن عباس، وأن {هُمْ} من قوله {ولا هُمْ} من ذكر الكفار، وأن قوله {يُصْحَبُونَ}، بمعنى: يجارون يصحبون بالجوار؛ لأن العرب محكي عنها أنا لك جار من فلان وصاحب، بمعنى: أجيرك وأمنعك، وهم إذا لم يصحبوا بالجوار، ولم يكن لهم مانع من عذاب الله مع سخط الله عليهم، فلم يصحبوا بخير ولم ينصروا".

وأَمْ هنا هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة، فهي مشتملة على معنى الإضراب والإنكار.

والمعنى: وسلهم- أيها الرسول الكريم- مرة أخرى: ألهؤلاء الجاحدين آلهة أخرى تستطيع أن تحرسهم وترعاهم سوانا نحن؟ كلا لبس لهم ذلك.

فالجملة الكريمة إضراب عن وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم على جهالاتهم بسبب اعتمادهم على آلهة لا تنفع ولا تضر.

وقوله: لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ نفى على أبلغ وجه لأن تكون هناك آلهة ترعاهم سوى الله تعالى أى: كلا.. ليس لهم آلهة تمنعهم من عذابنا إن أردنا إنزاله بهم، فإن هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن

=

=

نصر غيرهم، فهذه الآلهة لا تستطيع حماية أنفسها عن الآفات، وحماية النفس أولى من حماية الغير. فإذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها

ولا هم منا يصحبون، أي: يجارون ويمنعون من نزول الضر بهم.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة أخرى من نعم الله عليهم لم يحسنوا شكرها، فقال تعالى: بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ...

قوله تعالى: {بَلْ مَتَّعْنَا هَـؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ} [الأنبياء: ٤٤]، أي:" لقد متعنا هؤلاء المشركين وآباءهم من قبلهم بما رزقناهم من حطام الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة وحسبوا أن ذلك يدوم فاغتروا بذلك".

قال يحيى:" يعني: قريشا، لم يأتهم رسول حتى جاءهم محمد".

قال الطبري:" ما لهؤلاء المشركين من آلهة تمنعهم من دوننا، ولا جار يجيرهم من عذابنا، إذا نحن أردنا عذابهم، فاتكلوا على ذلك، وعصوا رسلنا اتكالا منهم على ذلك، ولكنا متعناهم بهذه الحياة الدنيا وآباءهم من قبلهم حتى طال عليهم العمر، وهم على كفرهم مقيمون، لا تأتيهم منا واعظة من عذاب، ولا زاجرة من عقاب على كفرهم وخلافهم أمرنا، وعبادتهم الأوثان والأصنام، فنسوا عهدنا وجهلوا موقع نعمتنا عليهم، ولم يعرفوا موضع الشكر".

قوله تعالى: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} [الأنبياء: ٤٤]، أي:" أفلا ينظرون فيعْتبرون بأننا نأتي أرضهم فننقصها من أطرافها بالفتح على النبي وتسليط المسلمين عليها؟ ".

وفي قوله تعالى: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} [الأنبياء: ٤٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: أحدها: بالفتوح على المسلمين من بلاد المشركين، قاله ابن عباس،

=

=

والحسن، والضحاك، وقتادة، وبه قال ابن جرير الطبري، وابن كثير.

الثاني: بموت فقهائها وعلمائها، قاله ابن عباس، ومجاهد، وبه قال ابن قتيبة.

الثالث: بخرابها بعد العمارة. قاله ابن عباس أيضا، ومجاهد، وعكرمة.

الرابع: بنقصان أهلها وقلة بركتها. قاله ابن عباس، ومجاهد، والكلبي، والشعبي، وابن ابي طلحة.

الخامس: بالقتل والسبي، حكاه الكلبي.

السادس: بجور ولاتها وأمرائها. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الأنبياء: ٤٤]، أي:" أفهم الغالبون والحالة هذه أم المغلوبون؟ ".

قال الصابوني:" استفهام بمعنى التقريع والإنكار، والمعنى: بل هم المغلوبون الأخسرون الأرذلون".

قال الحسن:" أي: ليسوا بغالبين، ولكن الرسول هو الغالب".

قال قتادة:" يقول: ليسوا بغالبين، ولكن رسول الله ﷺ هو الغالب".

أى: لا تلتفت- أيها الرسول الكريم- إلى هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن ذكر ربهم، والذين زعموا أن آلهتهم تضر أو تنفع، فإننا قد كلأناهم برعايتنا بالليل والنهار، ومتعناهم وآباءهم من قبلهم بالكثير من متع الحياة الدنيا، حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة، فحملهم ذلك على الطغيان والبطر والإصرار على الكفر. وسنأخذهم في الوقت الذي نريده أخذ عزيز مقتدر، فإن ما أعطيناه لهم من نعم إنما هو على سبيل الاستدراج لهم.

ثم يلفت-سبحانه- أنظارهم إلى الواقع المشاهد في هذه الحياة فيقول: أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ.

وللعلماء في تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها: أن المراد بنقص الأرض من

=

=

أطرافها:

إهلاك المشركين السابقين الذين كذبوا رسلهم، كقوم نوح وعاد وثمود، وهم يمرون على قرى بعض هؤلاء المكذبين، ويرون آثارهم وقد دمرت ديارهم.

والمعنى: أفلا ينظر هؤلاء المشركون الذين كذبوك يا محمد، فيرون بأعينهم ما حل بأمثالهم ممن كذبوا الرسل من قبلك. وكيف أننا طوينا الأرض بهم. وجعلناهم أثرا بعد عين.

والاستفهام في قوله: أَفَهُمُ الْغالِبُونَ للإنكار.

أي: لم تكن الغلبة والعاقبة في يوم من الأيام لمن كذبوا رسل الله تعالى وإنما الغلبة والظفر وحسن العاقبة لمن آمن بالرسل وصدقهم واتبع ما جاءوا به من عند ربهم.

وقد أشار ابن كثير إلى هذا المعنى بقوله: «أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين. ولهذا قال: أَفَهُمُ الْغالِبُونَ.

يعني: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون ا.هـ.

قال الشنقيطي: ما ذكره ابن كثير رحمه الله صواب، واستقراء القرآن العظيم يدل عليه. وعليه فالمعنى: أفلا يري كفار مكة ومن سار سيرهم في تكذيبك يا نبي الله، والكفر بما جئت به {أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} أي بإهلاك الذين كذبوا الرسل كما أهلكنا قوم صالح وقوم لوط، وهم يمرون بديارهم. وكما أهلكنا قوم هود، وجعلنا سبأ أحاديث ومزقناهم كل ممزق كل ذلك بسبب تكذيب الرسل، والكفر بما جاءوا به. وهذا هو معنى قوله: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى} كقوم صالح وقوم لوط وقوم هود وسبإ، فاحذروا من تكذيب نبينا محمد ﷺ، لئلا تنزل بكم مثل ما أنزلنا بهم. وهذا الوجه لا ينافي قوله بعده:

=

=

{أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤)} والمعنى: أن الغلبة لحزب الله القادر على كل شيء، الذي أهلك ما حولكم من القرى بسبب تكذيبهم رسلهم، وأنتم لستم بأقوى منهم، ولا أكثر أموالًا ولا أولادًا؛ كما قال تعالى: {أَهُمْ خَيرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ} الآية. وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)}، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا} الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وإنذار الذين كذبوه ﷺ بما وقع لمن كذب من قبله من الرسل كثير جدًا في القرآن. وبه تعلم اتجاه ما استحسنه ابن كثير رحمه الله من تفسير آية "الأنبياء" هذه بآية "الأحقاف" المذكورة كما بينا ا.هـ

ومنها أن المراد بنقص الأرض من أطرافها: نقص أرض الكفر ودار الحرب، وتسليط المسلمين عليها وانتزاعها من أيديهم بدليل الاستفهام الإنكارى في قوله أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ أى: لا.. ليسوا هم الذين يغلبون جندنا، وإنما جندنا هم الغالبون.

وقد صدر الآلوسى تفسيره لهذا القول فقال: «أفلا يرون أنا تأتى الأرض» أى: أرض الكفرة «ننقصها من أطرافها» بتسليط المسلمين عليها، وحوز ما يحوزونه منها، ونظمه في سلك ملكهم.. «أفهم الغالبون» على رسول الله ﷺ والمؤمنين.

والمراد إنكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المؤمنين عليها، كأنه قيل: أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم، وفي التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون فيها. ا.هـ.

قال الرازي: وفي تفسير النقصان وجوه: أحدها: قال ابن عباس ومقاتل والكلبي رضي الله عنهم ننقصها بفتح البلدان. وثانيها: قال ابن عباس في رواية أخرى يريد نقصان

=

=

أهلها وبركتها. وثالثها: قال عكرمة: تخريب القرى عند موت أهلها. ورابعها: بموت العلماء وهذه الرواية إن صحت عن رسول الله ﷺ فلا يعدل عنها وإلا فالأظهر من الأقاويل ما يتعلق بالغلبة فلذلك قال: أفهم الغالبون والذي يليق بذلك أنه ينقصها عنهم ويزيدها في بلاد الإسلام، قال القفال: نزلت هذه الآية في كفار مكة فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء فبين تعالى أن كل ذلك من العبر التي لو استعملوا عقلهم فيها لأعرضوا عن جهلهم ا.هـ

قال السيوطي في الدرر المنثور:" أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ في قوله ننقصها من أطرافها قال: ذهاب العلماء". و تفرد ابن مردويه ـ في الأعم الأغلب ـ مظنة النكارة والضعف الشديد.

وقال الزمخشري: «فإن قلت: أى فائدة في قوله نَأْتِي الْأَرْضَ؟.

قلت: فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدى المسلمين، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها، ناقصة من أطرافها ا.هـ.

وهذان الرأيان مع وجاهتهما، إلا أن الرأى الأول الذي ذهب إليه ابن كثير أكثر شمولا، لأنه يتناول ما أصاب المكذبين للرسل السابقين من عقاب كما يشمل التهديد للمكذبين المعاصرين للعهد النبوي، بأنهم إذا استمروا في طغيانهم فسيحل بهم ما حل بمن سبقوهم.

وهناك من يرى أن المراد بنقص الأرض من أطرافها: موت العلماء، أو خرابها عند موت أهلها، أو نقص الأنفس والثمرات.. ولكن هذه الآراء ليس معها ما يرجحها.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يوجه إلى هؤلاء المشركين إنذارا حاسما، فقال تعالى: قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ...

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ} [الأنبياء: ٤٥]، أي:" قل - أيها الرسول -

=

=

لمن أُرسلتَ إليهم: ما أُخوِّفكم من العذاب إلا بوحي من الله، وهو القرآن".

قال قتادة:" أي: بهذا القرآن".

قال مقاتل:" بما في القرآن من الوعيد".

قال الطبري: يقول:" قل يا محمد لهؤلاء القائلين فليأتنا بآية كما أرسل الأولون: إنما أنذركم أيها القوم بتنزيل الله الذي يوحيه إلى من عنده، وأخوّفكم به بأسه".

قوله تعالى: {وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ} [الأنبياء: ٤٥]، أي:" ولكن الكفار لا يسمعون ما يُلقى إليهم سماع تدبر إذا أُنذِورا، فلا ينتفعون به".

قال قتادة:" يقول: إن الكافر أصم عن كتاب الله، لا يسمعه ولا ينتفع به، ولا يعقله كما يسمعه أهل الإيمان".

قال السمعاني:" «الصم»: هم الكفار، وسماهم صما، لأنهم لم يسمعوا ما ينفعهم، وقوله: {إذا ما ينذرون}، أي: يخوفون بالوحي".

أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنى بعد أن بينت لكم ما بينت من هدايات وإرشادات أنذركم عن طريق الوحى الصادق، بأن الساعة آتية لا ريب فيها، فلا تستعجلوا ذلك فكل آت قريب، وسترون فيها ما ترون من أهوال وعذاب.

وقوله وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ توبيخ لهم وتجهيل.

أى: ولا يسمع الصم دعاء من يدعوهم إلى ما ينفعهم، ولا يلتفتون إلى إنذار من ينذرهم وذلك لكمال جهلهم، وشدة عنادهم، وانطماس بصائرهم.

ثم بين-سبحانه- حالهم عند ما ينزل بهم شيء من العذاب فقال: وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ.

قوله تعالى: {وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ} [الأنبياء: ٤٦]، أي:" لو أصاب الكفارَ نصيب من عذاب الله".

قال قتادة:" يقول: لئن أصابتهم عقوبة".

=

=

قال الزجاج:" أي: إن مستهم أدنى شيء من العذاب".
قال السمعاني:" أي: طرف من عذاب ربك".
قال الطبري: يقول:" ولئن مست هؤلاء المستعجلين بالعذاب يا محمد نفحة من عذاب ربك، يعني بالنفحة النصيب والحظّ، من قولهم: نفح فلان لفلان من عطائه: إذا أعطاه قسما أو نصيبا من المال".
قوله تعالى: {لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} [الأنبياء: ٤٦]، أي:" ليعترفنَّ بجريمتهم ويقولون: يا هلاكنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله".
قال الطبري: "وليقولن يا ويلنا إنا كان ظالمين في عبادتنا الآلهة والأنداد، وتركنا عبادة الله الذي خلقنا وأنعم علينا، ووضعنا العبادة غير موضعها".
قال الزجاج:" «الويل» ينادى به، وينادي به كل من وقع في هلكة".
أي: ولئن أصاب هؤلاء المشركين شيء قليل من عذاب ربك يا محمد. ليقولن على سبيل التفجع والتحسر وإظهار الخضوع: يا ويلنا- أى يا هلاكنا- إنا كنا ظالمين، ولذلك نزل بنا هذا العذاب، وفي هذا التعبير ألوان من المبالغات منها: ذكر المس الذي يكفى في تحققه إيصال ما، ومنها: ما في النفح من النزارة والقلة، يقال: نفح فلان فلانا نفحة، إذا أعطاه شيئا قليلا ومنها. البناء الدال على المرة والواحدة كما يفيد ذلك التعبير بالنفحة. أى: نفحة واحدة من عذاب ربك، والمقصود من الآية الكريمة بيان سرعة تأثر هؤلاء المشركين، بأقل شيء من العذاب الذي كانوا يستعجلونه، وأنهم إذا ما نزل بهم شيء منه، أصيبوا بالهلع والجزع، وتنادوا بالويل والثبور والاعتراف بالظلم وتجاوز الحدود.
ثم بين-سبحانه- مظهرا من مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة فقال: وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ...
قوله تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: ٤٧]، أي:" ونقيم

=

=

الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال في يوم القيامة".

قال الزجاج:" «القسط»: العدل، المعنى: ونضع الموازين ذوات القسط، و «الميزان» في القيامة - جاء في التفسير - أن له لسانا وكفتين، وتمثل الأعمال بما يوزن، وجاء في التفسير أنه يوزن خاتمة العمل، فمن كانت خاتمة عمله خيرا جوزي بخير، ومن كانت خاتمة عمله شرا فجزاؤه الشر".

قال ابن عباس:" يعني بـ «الوزن»: القسط بينهم بالحقّ في الأعمال الحسنات والسيئات، فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه، يقول: أذهبت حسناته سيئاته، ومن أحاطت سيئاته بحسناته فقد خفَّت موازينه وأمه هاوية، يقول: أذهبت سيئاته حسناته".

عن مجاهد:" {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ}، قال: العدل".

قال مجاهد:"إنما هو مثل، كما يجوز الوزن كذلك يجوز الحقّ".

قال عمرو بن دينار:" إنا نرى ميزانًا وكفتين، سمعت عبيد بن عمير يقول: يُجْعَل الرجل العظيم الطويل في الميزان، ثم لا يقوم بجناح ذباب".

عن عبيد بن عمير، قوله:" {والوزن يومئذ الحق}، قال: يقول يؤتى بالرجل الطويل العظيم الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة".

قال الزمخشري:" وصفت «الْمَوازِينَ» بالقسط وهو العدل، مبالغة، كأنها في أنفسها قسط".

قوله تعالى: {فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} [الأنبياء: ٤٧]، أي:" فلا يُنقص محسنٌ من إحسانه، ولا يُزاد مسيءٌ على إساءته".

عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: «قال رجل: يا رسول الله، كيف ترى في رقيقنا نضربهم؟ فقال: توزن ذنوبهم وعقوبتكم إياهم، فإن كانت عقوبتكم أكثر من ذنوبهم أخذوا منكم. قال: أفرأيت سبنا إياهم؟ قال: توزن

=

=

ذنوبهم وأذاكم إياهم، فإن كان أذاكم إياهم أكثر أعطوا منكم قال: أرأيت يا رسول الله ولدي أضربهم؟ قال: إنك لا تتهم في ولدك ولا تطيب نفسك، تشبع ويجوعون وتكسى ويعرون».

قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا} [الأنبياء: ٤٧]، أي:" وإن كان العمل الذي عملته زنة حبةٍ من خردل جئا بها وأحضرناها".

قال الطبري:" يقول: وإن كان الذي من عمل الحسنات، أو عليه من السيئات وزن حبة من خردل أتينا بها: يقول: جئنا بها فأحضرناها إياه".

عن السدى قوله: " {وإن كان مثقال حبة}، قال: وزن حبة".

عن مجاهد: قوله: {وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا}، قال: جازينا بها".

عن ابن زيد، قوله:" {وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا}، قال: كتبناها وأحصيناها له وعليه".

قال ابن زيد:" يؤتي بها لك وعليك، ثم يعفو إن شاء أو يأخذ، ويجزي بما عمل له من طاعة".

عن مجاهد أنه كان يقرأ: " «وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها» بمد الألف. قال: جازينا بها".

عن عاصم بن أبي النجود، أنه كان يقرأ: " «وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها» على معنى جئنا بها لا يمد «أتينا» ".

قرأ أهل المدينة: {مثقال} برفع اللام، أي: وإن وقع مثقال حبة، ونصبها الآخرون على معنى: وإن كان ذلك الشيء مثقال حبة.

قوله تعالى: {وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧]، أي:" كفى بربك أن يكون محصيًا لأعمال العباد مجازيًا عليها".

قال يحيى:" يعني: عالمين".

=

=

قال الطبري:" يقول: وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين، لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم وما سلف في الدنا من صالح أو سيئ منا".

قال الزجاج:" المعنى: اكتفوا بالله حسيبا".

عن السدى قوله: " {وكفى بنا حاسبين}، قال: محصين".

قال الخازن:" الغرض منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون بأشد الخوف منه".

أى: ونحضر الموازين العادلة لمحاسبة الناس على أعمالهم يوم القيامة ولإعطاء كل واحد منهم ما يستحقه من ثواب أو عقاب، دون أن يظلم ربك أحدا من خلقه.

وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ أى: وإن كانت الأعمال التي عملها الإنسان في الدنيا في نهاية الحقارة والقلة، أتينا بها في صحيفة عمله لتوزن، وكفى بنا عادّين ومحصين على الناس أعمالهم، إذ لا يخفى علينا شيء منها سواء أكان قليلا أم كثيرا.

قال ابن كثير: قوله: وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الأكثر على أنه ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه ا.هـ.

وقال القرطبي: «الموازين: جمع ميزان، فقيل: إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلف ميزانا توزن به أعماله، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة. وقيل: يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله.. وقيل: ذكر الميزان مثل وليس ثمّ ميزان وإنما هو العدل وهو قول باطل، والذي وردت به الأخبار، وعليه السواد الأعظم القول الأول. و «القسط» صفة الموازين ووحد لأنه مصدر.. ا.هـ.

واللام في قوله لِيَوْمِ الْقِيامَةِ قيل للتوقيت. أى للدلالة على الوقت، كقولهم: جاء

=

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨).

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُون الْفُرْقَان} أَيْ التَّوْرَاة الْفَارِقَة بَيْن الْحَقّ وَالْبَاطِل وَالْحَلَال وَالْحَرَام {وَضِيَاء} بها {وذكرا} عظة بها {للمتقين}.

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩).

{الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهمْ بِالْغَيْبِ} عَنْ النَّاس أَيْ فِي الْخَلَاء عَنْهُمْ {وَهُمْ مِنْ السَّاعَة} أَيْ أَهْوَالهَا {مُشْفِقُونَ} خَائِفُونَ.

=

فلان لخمس ليال بقين من الشهر. وقيل هي لام كي، أى: لأجل يوم القيامة، أو بمعنى في أى: في يوم القيامة.

وقوله-سبحانه- فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا بيان للعدل الإلهى، وأنه-سبحانه- لا يظلم أحدا شيئا مما له أو عليه، أى: فلا تظلم نفس شيئا من الظلم لا قليلا ولا كثيرا.

وقوله وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها تصوير لدقة الحساب، وعدم مغادرته لشيء من أعمال الناس، إذ الخردل حب في غاية الصغر والدقة. ومثقال الشيء: وزنه.

وأنث الضمير في قوله «بها» وهو راجع إلى المضاف الذي هو «مثقال» وهو مذكر. لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه الذي هو «حبة من خردل».

وقوله-سبحانه-: وَكَفى بِنا حاسِبِينَ بيان لإحاطة الله تعالى: بعلم كل شيء. كما قال تعالى إِنَّ اللهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ.

وفي معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة منها قوله تعالى: إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا.

وقوله-سبحانه-: يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.

وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٠).

{وَهَذَا} أَيْ الْقُرْآن {ذِكْر مُبَارَك أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ} الِاسْتِفْهَام فِيهِ لِلتَّوْبِيخِ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً} [الأنبياء: ٤٨]، أي:" ولقد أعطينا موسى وهارون التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال نورًا وضياءً".

قال الثعلبي:" الفرقان، يعني: الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل وهو التوراة".

قال الواحدي:" و «ضياء» من صفة التوراة، مثل قوله: {فيها هدى ونور} [المائدة: ٤٤] والمعنى أنهم استضاءوا بها حتى اهتدوا في دينهم".

وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ} [الأنبياء: ٤٨]، أقوال:

أحدها: التوراة التي فرق فيها بين الحق والباطل، قاله مجاهد، وقتادة.

قال قتادة:" الفرقان: التوراة حلالها وحرامها، وما فرق الله به بين الحق والباطل".

وروي عن مجاهد، قال:" الفرقان: الكتاب ".

الثاني: هو الحق الذي آتاه الله موسى وهارون، فرق بينهما وبين فرعون، قضى بينهم بالحق. قاله ابن زيد.

قال الثعلبي:" دليله قوله {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ} [الأنفال: ٤١]، يعني: يوم بدر، وهذا القول أشبه بظاهر الآية لدخول الواو في «الضياء» والذكر للمتقين، وعلى هذا التأويل تكون الواو مقحمة زائدة كقوله سبحانه وتعالى: {بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ {وَحِفْظًا} [الصافات: ٦ - ٧] ".

الثالث: هو النصر والنجاة، فنصر موسى وأشياعه، وأهلك فرعون وأتباعه. قال الكلبي.

=

=

قال الطبري:" وهذا القول الذي قاله ابن زيد في ذلك أشبه بظاهر التنزيل، وذلك لدخول الواو في «الضياء»، ولو كان الفرقان هو التوراة كما قال من قال ذلك، لكان التنزيل: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء، لأن الضياء الذي آتى الله موسى وهارون هو التوراة التي أضاءت لهما ولمن اتبعهما أمر دينهم فبصرّهم الحلال والحرام، ولم يقصد بذلك في هذا الموضع ضياء الإبصار، وفي دخول الواو في ذلك دليل على أن الفرقان غير التوراة التي هي ضياء".

قال ابن كثير:" وجامع القول في ذلك: أن الكتب السماوية تشتمل على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نورًا في القلوب، وهداية وخوفًا وإنابة وخشية".

وروي عن ابن عباس في قوله: {ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء}، قال: انزعوا هذه «الواو» واجعلوها في: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَه} ".

قال الزمخشري:" وقرأ ابن عباس: «ضياء»، بغير واو: وهو حال عن الفرقان".

قوله تعالى: {وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ} [الأنبياء: ٤٨]، أي:" وتذكيرًا للمؤمنين المتقين".

قال مقاتل:" {وذكرا}، يعني: وتفكرا للمتقين الشرك".

قال ابن كثير:" أي: تذكيرًا لهم وعظة".

قال الواحدي:" معنى: {وذكرا للمتقين}، أنهم يذكرونه ويعلمون بما فيه، ويتعظون بمواعظه".

قال الزمخشري:" الذكر: الموعظة، أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم. أو الشرف".

قال الرازي: اعلم أنه سبحانه لما تكلم في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص الأنبياء عليهم السلام، تسلية للرسول عليه السلام فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها وذكر هاهنا منها قصصا. ا.هـ

=

=

قال الرازي: واختلفوا في المراد بالفرقان على أقوال:

أحدها: أنه هو التوراة، فكان فرقانا إذ كان يفرق به بين الحق والباطل، وكان ضياء إذ كان لغاية وضوحه يتوصل به إلى طرق الهدى وسبل النجاة في معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع، وكان ذكرى أي موعظة أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم أو الشرف أما الواو في قوله: وضياء فروى عكرمة عن ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا أنه قرأ ضياء بغير واو وهو حال من الفرقان، وأما القراءة المشهورة فالمعنى آتيناهم الفرقان وهو التوراة وآتينا به ضياء وذكرى للمتقين. والمعنى أنه في نفسه ضياء وذكرى أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرى.

القول الثاني: أن المراد من الفرقان ليس التوراة ثم فيه وجوه:

أحدها: عن ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا الفرقان هو النصر الذي أوتي موسى عَلَيْهِالسَّلَامُ كقوله: وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان [الأنفال: ٤١] يعني يوم بدر حين فرق بين الحق وغيره من الأديان الباطلة.

وثانيها: هو البرهان الذي فرق به دين الحق عن الأديان الباطلة عن ابن زيد. وثالثها: فلق البحر عن الضحاك. ورابعها: الخروج عن الشبهات، قال محمد بن كعب واعلم أنه تعالى إنما خصص الذكر بالمتقين لما في قوله: هدى للمتقين [البقرة: ٢] ا.هـ

والصواب أن المراد بالفرقان وبالضياء وبالذكر: التوراة، فيكون الكلام من عطف الصفات. والمعنى:

ولقد أعطينا موسى وهارون- عليهما السلام كتاب التوراة ليكون فارقا بين الحق والباطل، وليكون- أيضا- ضياء يستضيء به أتباعه من ظلمات الكفر والضلالة، وليكون ذكرا حسنا لهم، وموعظة يتعظون بما اشتمل عليه من آداب وأحكام.

وقال الآلوسي: «قوله-سبحانه-: وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْرًا

=

=

...

نوع تفصيلي لما أجمل في قوله تعالى قبل ذلك: وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ.

وتصديره بالتوكيد القسمي لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه. والمراد بالفرقان: التوراة، وكذا بالضياء والذكر. والعطف كما في قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

وقيل: الفرقان هنا: النصر على الأعداء.. والضياء التوراة أو الشريعة. وعن الضحاك:

أن الفرقان فرق البحر.. ا.هـ.

وخص المتقين بالذكر، لأنهم هم الذين انتفعوا بما اشتمل عليه هذا الكتاب من هدايات.

وقوله تعالى: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ.. صفة مدح للمتقين.

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ} [الأنبياء: ٤٩] أي:" الذين يخافون عذاب ربهم وهو غائب عنهم غير مرئى لهم".

قال مقاتل:" فأطاعوه ولم يروه".

قال الواحدي:" أي: في الدنيا، غائبين عن الآخرة وأحكامها".

قال السمعاني:" إنما قال: {بالغيب}؛ لأن المؤمنين يخشونه ولا يرونه، فأما هو يراهم وليسوا بغيب عنه".

قوله تعالى: {وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: ٤٩] أي:" وهم من أهوال يوم القيامة وشدائدها خائفون وجلون".

قال مقاتل:" يعنى: من القيامة خائفين".

قال ابن كثير:" أي: خائفون وجلون".

=

قال الواحدي:" أي: من أهوالها وعذابها، مشفقون خائفون".

أى: آتينا موسى وهارون الكتاب الجامع لصفات الخير ليكون هداية للمتقين، الذين من صفاتهم أنهم يخافون ربهم وهو غير مرئى لهم، ويخشون عذابه في السر والعلانية وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ أى: وهم من الساعة وما يقع فيها من حساب دقيق خائفون وجلون وليسوا كأولئك الكافرين الجاحدين الذين يستعجلون حدوثها.

وخصت الساعة بالذكر مع أنها داخلة في الإيمان بالغيب، للعناية بشأنها حيث إنها من أعظم المخلوقات، وللردّ على من أنكرها واستعجل قيامها.

واسم الإشارة في قوله: وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ للقرآن الكريم.

قوله تعالى: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ} [الأنبياء: ٥٠]، أي:" وهذا القرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ ذِكْرٌ لمن تذكَّر به، وعمل بأوامره واجتنب نواهيه، كثير الخير، عظيم النفع".

قال قتادة:" أي: هذا القرآن".

قال الزمخشري:" هو القرآن. وبركته: كثرة منافعه، وغزارة خيره".

قال الطبري:" وهذا القرآن الذي أنزلناه إلى محمد ﷺ ذكر لمن تذكر به، وموعظة لمن اتعظ به {مُبَارَكٌ أَنزلْنَاهُ} كما أنزلنا التوراة إلى موسى وهارون ذكرا للمتقين".

قال ابن كثير:" يعني: القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ".

قال القشيري:" وصف القرآن بأنه «مبارك»، وهو إخبار عن دوامه، من قولهم: برك الطائر على الماء أي دام، وإن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وما لا ابتداء له- وهو كلامه القديم- فلا انتهاء للكتاب الدال عليه".

=

عن ميمون بن مهران قال: "خصلتان فيهما البركة: القرآن والمطر، وتلا: {وأنزلنا من السماء ماء}، {وهذا ذكر مبارك} ".

قوله تعالى: {أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ} [الأنبياء: ٥٠]، أي:" أفأنتم يا معشر العرب منكرون له وهو في غاية الجلاء والظهور؟ ".

قال الطبري:" أفأنتم أيها القوم لهذا الكتاب الذي أنزلناه إلى محمد منكرون وتقولون هو لأضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون}، وإنما الذي آتيناه من ذلك ذكر للمتقين، كالذي آتينا موسى وهارون ذكرا للمتقين".

قال ابن كثير:" أي: أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور؟ ".

أى: وهذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ هو ذكر وشرف لكم، وهو كذلك كثير الخيرات والبركات لمن اتبع توجيهاته.

والاستفهام في قوله: أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ للتوبيخ والإنكار، والخطاب للمشركين.

أى: كيف تنكرون كونه من عند الله مع أنكم بمقتضى فصاحتكم تدركون من بلاغته، ما لا يدركه غيركم، ومع أنكم تعترفون بنزول التوراة على موسى وهارون.

إن إنكاركم لكون القرآن من عند الله، لهو دليل واضح على جحودكم للحق بعد أن تبين لكم.

قال الجمل: وتقديم الجار والمجرور على المتعلق، دل على التخصيص، أى: أفأنتم للقرآن خاصة دون كتاب اليهود تنكرون؟ فإنهم كانوا يراجعون اليهود فيما عنّ لهم من المشكلات.

قال السعدي: كثيرا ما يجمع تعالى، بين هذين الكتابين الجليلين، اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما، ولا أعظم ذكرا، ولا أبرك، ولا أعظم هدى وبيانا، وهما

=

=

التوراة والقرآن فأخبر أنه آتى موسى أصلا وهارون تبعا {الْفُرْقَانَ} وهي التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأنها {ضِيَاءً} أي: نور يهتدي به المهتدون، ويأتم به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية، {وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ} يتذكرون به، ما ينفعهم، وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر، وخص {المتقين} بالذكر، لأنهم المنتفعون بذلك، علما وعملا.

ثم فسر المتقين فقال: {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ} أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم، {وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

{وَهَذَا} أي: القرآن {ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزلْنَاهُ} فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكرا يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكرا، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلا والنهي عن القبيح عقلا وكونه {مباركا} يقتضي كثرة خيراته (٢) ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكرا مباركا، وجب تلقيه بالقبول والانقياد، والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه، صفحا وإنكاره،

=

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١).

{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيم رُشْده مِنْ قَبْل} أَيْ هَدَاهُ قَبْل بُلُوغه {وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} بِأَنَّهُ أهل لذلك.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢).

{إذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمه مَا هَذِهِ التَّمَاثِيل} الْأَصْنَام {الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} أَيْ عَلَى عبادتها مقيمون.

قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣).

{قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ} فَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ.

قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤).

{قَالَ} لَهُمْ {لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ} بِعِبَادَتِهَا {فِي ضَلَال مُبِين} بَيِّن.

قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥).

{قَالُوا أَجِئْتنَا بِالْحَقِّ} فِي قَوْلك هَذَا {أَمْ أَنْتَ مِنْ اللَّاعِبِينَ} فِيهِ.

قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦).

{قَالَ بَلْ رَبّكُمْ} الْمُسْتَحِقّ لِلْعِبَادَةِ {رَبّ} مَالِك {السَّمَاوَات وَالْأَرْض الَّذِي فَطَرَهُنَّ} خَلَقَهُنَّ عَلَى غَيْر مثقال سَبَقَ {وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ} الَّذِي قُلْته {مِنْ الشاهدين} به.

وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧).

=

وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره فقال: {أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ}.

{وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين}.

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨).

{فَجَعَلَهُمْ} بَعْد ذَهَابهمْ إِلَى مُجْتَمَعهمْ فِي يَوْم عِيد لَهُمْ {جُذَاذًا} بِضَمِّ الْجِيم وَكَسْرهَا فُتَاتًا بِفَأْسٍ {إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ} عَلَّقَ الْفَأْس فِي عُنُقه {لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ} أَيْ إِلَى الْكَبِير {يَرْجِعُونَ} فَيَرَوْنَ مَا فَعَلَ بِغَيْرِهِ[1].

---

(١) لما ذكر تعالى موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم، وكتابيهما قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ}.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ} [الأنبياء: ٥١]، أي:" ولقد آتينا إبراهيم هداه، الذي دعا الناس إليه من قبل موسى وهارون".

عن مجاهد: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ}، قال:" هديناه صغيرا".

قال قتادة:" يقول: آتينا هداه".

قال مقاتل:" يقول: ولقد أعطينا إبراهيم هداه فى السرب وهو صغير".

قال الفراء: أي:" هداه، إذ كان في السرب حتى بلغه الله ما بلغه".

قال ابن قتيبة: {من قبل}، " أي: وهو غلام".

قال الزجاج:" أي: آتيناه هداه حدثا، وهو مثل قوله: {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها} ".

وحكي السمعاني، قوله:" {من قبل}، أي: من قبل موسى وهارون".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن خليله إبراهيم، عليه السلام، أنه آتاه رشده من قبل، أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [الأنعام: ٨٣]، وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب، وهو رضيع، وأنه خرج به بعد أيام، فنظر إلى الكوكب والمخلوقات، فتبصر فيها وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم - فعامتها أحاديث بني إسرائيل، =

=

فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئًا من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وفقًا، وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخص كثير من السلف في روايتها، وكثير من ذلك ما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين. ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة. والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة.

والمقصود هاهنا: أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده، من قبل، أي: من قبل ذلك".

قوله تعالى: {وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} [الأنبياء: ٥١]، أي:" وكنَّا عالمين أنه أهل لذلك".

قال مقاتل:" وكنا بإبراهيم عالمين بطاعته لنا".

قال السمعاني:" أي: عارفين".

قال ابن كثير:" أي: وكان أهلا لذلك".

قال الطبري:" يقول: وكنا عالمين به أنه ذو يقين وإيمان بالله وتوحيد له، لا يشرك به شيئا".

قال الرازي: اعلم أن قوله تعالى: ولقد آتينا إبراهيم رشده فيه مسائل:

المسألة الأولى: في الرشد قولان: الأول: أنه النبوة واحتجوا عليه بقوله: وكنا به عالمين قالوا: لأنه تعالى إنما يخص بالنبوة من يعلم من حاله أنه في المستقبل يقوم بحقها ويجتنب/ ما لا يليق بها ويحترز عما ينفر قومه من القبول. والثاني: أنه الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا قال تعالى: فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا

=

=

إليهم أموالهم وفيه قول ثالث وهو أن تدخل النبوة والاهتداء تحت الرشد إذ لا يجوز أن يبعث نبي إلا وقد دله الله تعالى على ذاته وصفاته ودله أيضا على مصالح نفسه ومصالح قومه وكل ذلك من الرشد.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا في أن الإيمان مخلوق لله تعالى بهذه الآية........ ألخ ا.هـ

قلت قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٦٥٥) لما سئل: هل الإيمان مخلوق أم غير مخلوق؟: أن هذه المسألة نشأ النزاع فيها لما ظهرت محنة الجهمية في القرآن هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ وهي محنة الإمام أحمد وغيره من علماء المسلمين، وقد جرت بها أمور يطول وصفها هنا، لكن لما ظهر القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأطفأ الله نار الجهمية المعطلة، صارت طائفة يقولون أن كلام الله الذي أنزله مخلوق، ويعبرون عن ذلك باللفظ، فصاروا يقولون ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، أو تلاوتنا أو قراءتنا مخلوقة، وليس مقصودهم مجرد كلامهم وحركاتهم بل يدخلون فيه نفس كلام الله الذي نقرؤه بأصواتنا وحركاتنا، وعارضهم طائفة أخرى فقالوا: ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة. فرد الإمام أحمد على الطائفتين وقال: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. وتكلم الناس حينئذ بالإيمان فقالت طائفة: الإيمان مخلوق وأدرجوا في ذلك ما تكلم الله به من الإيمان مثل (قول لا إله إلا الله)، فصار مقتضى قولهم أن هذه الكلمة مخلوقة، ولم يتكلم الله بها، فبدع الإمام أحمد هؤلاء، وقال: قال النبي ﷺ (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها: قول لا إله إلا الله) أفيكون قول لا إله إلا الله مخلوقا؟. ومراده أن من قال: إن ألفاظنا وتلاوتنا وقراءتنا للقرآن مخلوقة، كان مقتضى كلامه أن الله لم يتكلم بالقرآن الذي أنزله. وأن القرآن المنزل ليس هو كلام الله.

=

=

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى (٧/ ٦٦٤): وإذا قال: الإيمان مخلوق أو غير مخلوق؟ قيل له: ما تريد (بالإيمان)؟ أتريد شيئا من صفات الله وكلامه، كقول (لا إله إلا الله) و (إيمانه) الذي دل عليه اسمه المؤمن، فهو غير مخلوق. أو تريد شيئا من أفعال العباد وصفاتهم فالعباد كلهم مخلوقون، وجميع أفعالهم وصفاتهم مخلوقة، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق صفة قديمة غير مخلوقة، ولا يقول هذا من يتصور ما يقول، فإذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدى وبان السبيل، وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وأمثالها مما كثر فيه تنازع الناس بالنفي والإثبات إذا فصل فيها الخطاب، ظهر الخطأ من الصواب. والواجب على الخلق أن ما أثبته الكتاب والسنة أثبتوه، وما نفاه الكتاب والسنة نفوه، وما لم ينطق به الكتاب والسنة لا بنفي ولا إثبات استفصلوا فيه قول القائل: فمن أثبت ما أثبته الله ورسوله، فقد أصاب، ومن نفى ما نفاه الله ورسوله فقد أصاب، ومن أثبت ما نفاه الله أو نفى ما أثبته الله فقد لبس دين الحق بالباطل، فيجب أن يفصل ما في كلامه من حق أو باطل، فيتبع الحق ويترك الباطل، وكل من خالف الكتاب والسنة فإنه مخالف أيضا لصريح المعقول، فإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، كما أن المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضا، ولكن كثيرا من الناس يظن تناقض ذلك، وهؤلاء من الذين اختلفوا في الكتاب ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ [البقرة: ١٧٦]، ونسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ا.هـ

قال الإمام أحمد - رَحِمَهُ اللَّهُ -: من قال: الإيمان مخلوق كفر، ومن قال: غير مخلوق ابتدع. فقيل: بالوقف مطلقا، وقيل: أقواله قديمة وأفعاله مخلوقة. قال ابن حمدان

=

=

في نهاية المبتدئين: وهو أصح، ونقله عن ابن أبي موسى وغيره. ونقل الإمام الحافظ ابن رجب في طبقات الأصحاب في ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي – قدس الله روحه – ما لفظه قال: روي عن إمامنا أحمد – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أنه قال: من قال: الإيمان مخلوق فهو كافر، ومن قال: قديم فهو مبتدع. قال الحافظ عبد الغني: وإنما كفر من قال بخلقه؛ لأن الصلاة من الإيمان، وهي تشتمل على قراءة وتسبيح وذكر الله – عَزَّ وَجَلَّ – ومن قال بخلق ذلك كفر، وتشتمل على قيام وقعود وحركة وسكون ومن قال بقدم ذلك ابتدع. انتهى بحروفه، والله – تعالى – الموفق.

والمراد بقوله تعالى مِنْ قَبْلُ أى: من قبل أن يكون نبيا.

والمعنى: ولقد آتينا– بفضلنا وإحساننا– إبراهيم– عَلَيْهِ السَّلَامُ الرشد إلى الحق، والهداية إلى الطريق المستقيم، «من قبل» أى: من قبل النبوة بأن جنبناه ما كان عليه قومه من كفر وضلال.

وقد اكتفى الإمام ابن كثير بهذا المعنى في قوله تعالى مِنْ قَبْلُ فقال: يخبر تعالى عن خليله إبراهيم– عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه آتاه رشده من قبل.

أى: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ.. ا.هـ.

ومن المفسرين من يرى أن المقصود بقوله تعالى مِنْ قَبْلُ أى: من قبل موسى وهارون، فقد كان الحديث عنهما قبل ذلك بقليل في قوله تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ... فيكون المعنى: ولقد آتينا إبراهيم رشده وهداه، ووفقناه للنظر والاستدلال على الحق، من قبل موسى وهارون، لأنه يسبقهما في الزمان.

وقد رجح هذا المعنى الآلوسى فقال: وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ».

=

=

أى: الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار، وهو الرشد الكامل، أعنى: الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا.. «من قبل» أى: من قبل موسى وهارون، وقيل: من قبل البلوغ ... والأول مروى عن ابن عباس وابن عمر، وهو الوجه الأوفق لفظا ومعنى، أما لفظا فللقرب، وأما معنى فلأن ذكر الأنبياء- عليهم السلام للتأسى، وكان القياس أن يذكر نوح ثم إبراهيم ثم موسى، لكن روعي في ذلك ترشيح التسلي والتأسى، فقد ذكر موسى، لأن حاله وما قاساه من قومه.. أشبه بحال نبينا ﷺ ا.هـ

وقال السعدي: أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحدا من العالمين، غير محمد، وأضاف الرشد إليه، لكونه رشدا، بحسب حاله، وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن، له من الرشد، بحسب ما معه من الإيمان... ا.هـ

والآية الكريمة محتملة للمعنيين. أى: أن الله تعالى قد أعطى إبراهيم رشده، من قبل النبوة، ومن قبل موسى وهارون لسبقه لهما في الزمان.

وقوله: وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ بيان لكمال علم الله تعالى أى: وكنا به وبأحواله وبسائر شئونه عالمين، بحيث لا يخفى علينا شيء من أحواله أو من أحوال غيره.

وقوله: إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ بيان لما جابه به إبراهيم أباه وقومه من قول سديد يدل على شجاعته ورشده.

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)} [الأنبياء: ٥٢]

قال الطبري:" قال لهم: أيّ شيء هذه الصور التي أنتم عليها مقيمون، وكانت تلك التماثيل أصنامهم التي كانوا يعبدونها".

=

=

قال ابن كثير:" هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره، الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله، ﷻ، فقال: {مَا هَـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} أي: معتكفون على عبادتها".

عن مجاهد، قوله:" {مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ}، قال: الأصنام".

عن قتادة، قوله: " {التي أنتم لها عاكفون}، قال: عابدون".

أي: وكنا به عالمين. وقت أن قال لأبيه وقومه على سبيل الإرشاد والتنبيه: ما هذه التماثيل الباطلة التي أقبلتم عليها، وصرتم ملازمين لعبادتها بدون انقطاع.

وسؤاله- عليه السلام لهم بما التي هي لبيان الحقيقة، من باب تجاهل العارف، لأنه يعلم أن هذه الأصنام مصنوعة من الأحجار أو ما يشبهها، وإنما أراد بسؤاله تنبيههم إلى فساد فعلهم. حيث عبدوا ما يصنعونه بأيديهم.

وعبر عن الأصنام بالتماثيل، زيادة في التحقير من أمرها، والتوهين من شأنها، فإن التمثال هو الشيء المصنوع من الأحجار أو الحديد أو نحو ذلك، على هيئة مخلوق من مخلوقات الله تعالى كالإنسان والحيوان، يقال: مثلت الشيء بالشيء إذا شبهته به.

فهو- عليه السلام سماها باسمها الحقيقي الذي تستحقه، دون أن يجاريهم في تسميتها آلهة.

وقوله: عاكِفُونَ من العكوف بمعنى المداومة والملازمة. يقال: عكف فلان على الشيء إذا لازمه وواظب عليه، ومنه الاعتكاف لأنه حبس النفس عن التصرفات العادية.

وفي التعبير عن عبادتهم لها بالعكوف عليها، تفظيع لفعلهم وتنفير لهم منه، حيث انكبوا على تعظيم من لا يستحق التعظيم، وتعلقوا بعبادة تماثيل هم صنعوها بأيديهم.

=

=

وقوله-سبحانه-: قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ حكاية لما قالوه في ردهم على إبراهيم- عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو رد يدل على تحجر عقولهم، وانطماس بصائرهم حيث قلدوا فعل آبائهم بدون تدبر أو تفكر.

قوله تعالى: {قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣)} [الأنبياء: ٥٣]

قال الطبري:" قال أبو إبراهيم وقومه لإبراهيم: وجدنا آباءنا لهذه الأوثان عابدين، فنحن على ملة آبائنا نعبدها كما كانوا يعبدون".

قال السمعاني:" معناه: وجدناهم كذلك فاتبعناهم".

قال الواحدي:" فاقتدينا بهم".

قال ابن كثير:" لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال".

عن قتادة، قوله: " {قالوا وجدنا آباءنا لها عابدي} ، أي: على دين، وإنا متبعوهم على ذلك".

قال الزمخشري:" ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء، وجادّون في نصرة مذهبهم، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم".

أى: قالوا في جوابهم على إبراهيم- عَلَيْهِ السَّلَامُ وجدنا آباءنا يعبدون هذه التماثيل فسرنا على طريقتهم.

وهنا يرد عليهم إبراهيم بقوله: لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ.

قوله تعالى: {قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤)} [الأنبياء: ٥٤]

قال البغوي: أي: في" خطأ بين بعبادتكم إياها".

قال السمعاني:" أي: في خطأ بين، و «البين»: الواضح، و «المبين»: الموضح".

قال ابن كثير:"الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم

=

=

وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم".

أي: لقد كنتم أنتم وآباؤكم الذين وجدتموهم يعبدون هذه الأصنام، في ضلال عجيب لا يقادر قدره، وفي فساد ظاهر واضح لا يخفى أمره على عاقل، لأن كل عاقل يعلم أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة أو التقديس أو العكوف عليها، والباطل لا يصير حقا بفعل الآباء له.

وعند ما واجههم إبراهيم- عليه السلام بهذا الحكم البين الصريح، قالوا له: أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ.

قوله تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥)} [الأنبياء: ٥٥]

قال يحيى بن سلام:" أهزء هذا الذي جئتنا به أم منك حق؟ ".

قال الثعلبي:" يعنون أجاد أنت فيما تقول أم لاعب؟ ".

قال الواحدي:" وهذا جهل منهم إذ تخيلوا المحق لاعبًا هازلًا".

قال ابن كثير:" فلما سفه أحلامهم، وضلل آباءهم، واحتقر آلهتهم {قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاعِبِينَ} يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعبًا أو محقًا فيه؟ فإنا لم نسمع به قبلك ".

قال الزمخشري:" بقوا متعجبين من تضليله إياهم، وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة، لا على طريق الجدّ، فقالوا له: هذا الذي جئتنا به، أهو جدّ وحق، أم لعب وهزل؟ ".

أي: أجئتنا يا إبراهيم بالحق الذي يجب علينا اتباعه، أم أنت من اللاعبين اللاهين الذين يقولون ما يقولون بقصد الهزل والملاعبة.

وسؤالهم هذا يدل على تزعزع عقيدتهم. وشكهم فيما هم عليه من باطل، إلا أن التقليد لآبائهم. جعلهم يعطلون عقولهم «ويستحبون العمى على الهدى».

ويجوز أن يكون سؤالهم هذا من باب الإنكار عليه. واستبعاد أن يكون آباؤهم

=

=

على باطل، وإلى هذا المعنى أشار الزمخشري بقوله: «بقوا متعجبين من تضليله إياهم، وحسبوا أن ما قاله، إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة، لا على طريق الجد، فقالوا له: هذا الذي جئتنا به، أهو جد وحق أم لعب وهزل ا.هـ.

وقد رد عليهم إبراهيم- عليه السلام ردا حاسما يدل على قوة يقينه فقال: بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ..».

قوله تعالى: {قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ} [الأنبياء: ٥٦]، أي:" قال لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: بل ربكم الذي أدعوكم إلى عبادته هو رب السموات والأرض الذي خلقهنَّ".

قال الطبري:" قال إبراهيم لهم: بل جئتكم بالحق لا اللعب، ربكم ربّ السماوات والأرض الذي خلقهن".

قال ابن كثير:" أي: ربكم الذي لا إله غيره، هو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء".

قوله تعالى: {وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [الأنبياء: ٥٦]، أي:" وأنا من الشاهدين على ذلك".

قال ابن كثير:" أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه ".

قال أبو الليث:" بأن الذي خلق السموات والأرض هو ربكم".

قال الطبري:" وأنا على ذلكم من أن ربكم هو ربّ السماوات والأرض الذي فطرهنّ، دون التماثيل التي أنتم لها عاكفون، ودون كلّ أحد سواه شاهد من الشاهدين، يقول: فإياه فاعبدوا لا هذه التماثيل التي هي خلقه التي لا تضرّ ولا تنفع".

أى: قال لهم إبراهيم بلغة الواثق بأنه على الحق: أنا لست هازلا فيما أقوله لكم، وإنما أنا جاد كل الجد في إخباركم أن الله تعالى وحده هو ربكم ورب آبائكم،

=

=

ورب السموات والأرض، فهو الذي خلقهن وأنشأهن بما فيهن من مخلوقات بقدرته التي لا يعجزها شيء.

وقوله: وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ تذييل المقصود به تأكيد ما أخبرهم به، وما دعاهم إليه. أي: وأنا على أن الله تعالى هو ربكم ورب كل شيء من الشاهدين، الذين يثقون في صدق ما يقولون ثقة الشاهد على شيء لا يشك في صحته. فجمع لهم بين الدليل العقلي، والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده، الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدبر لهن، بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطورا مدبرا متصرفا فيه، ودخل في ذلك، جميع ما عبد من دون الله.

أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقا متصرفا فيه، لا يملك نفعا، ولا ضرا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟

أما الدليل السمعي: فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك فلهذا قال إبراهيم: {وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ} أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل {مِنَ الشَّاهِدِينَ} وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصا أولي العزم منهم خصوصا خليل الرحمن.

ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها وليكيد كيدا يحصل به إقرارهم بذلك فلهذا أضاف إلى هذا التأكيد القولي، تأكيدا آخر فعليا، فقال لهم: وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ.

قوله تعالى: {وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)} [الأنبياء: ٥٧]

=

=

قال أبو الليث:" أي: قال إبراهيم عليه السلام: والله لأكسرن أصنامكم. بعد أن تولوا مدبرين، يعني: بعد أن تنطلقوا ذاهبين إلى عيدكم".

قال ابن كثير:" أقسم الخليل قسمًا أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي: ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين، أي: إلى عيدهم. وكان لهم عيد يخرجون إليه".

قال القرطبي:" أخبر أنه لم يكتف بالمحاجة باللسان بل كسر أصنامهم فعل واثق بالله تعالى، موطن نفسه على مقاساة المكروه في الذب عن الدين".

عن مجاهد، قوله:" {وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ}، قال: [هذا] قول إبراهيم حين استتبعه قومه إلى عيد لهم فأبى وقال: إني سقيم، فسمع منه وعيد أصنامهم رجل منهم استأخر، وهو الذي يقول {سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} ".

عن قتادة، قوله: " {وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ}، قال: نرى أنه قال ذلك حيث لم يسمعوه بعد أن تولَّوا مدبرين".

قال الشافعي:" «تالله»: يمين، ولو قال بالله، أو تالله، فهي يمين، نوى أو لم ينو".

أي: وحق الله الذي فطركم وفطر كل شيء، لأجتهدن في تحطيم أصنامكم، بعد أن تنصرفوا بعيدا عنها. وتولوها أدباركم.

وأصل الكيد: الاحتيال في إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه. وقد عبر به إبراهيم عن تكسير الأصنام وتحطيمها، لأن ذلك يحتاج إلى احتيال وحسن تدبير.

وقد نفذ إبراهيم ما توعد به الأصنام، فقد انتهز فرصة ذهاب قومه بعيدا عنها فحطمها، قال تعالى- فَجَعَلَهُمْ جُذاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ.

قوله تعالى: {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا} [الأنبياء: ٥٨]، أي:" فحطم إبراهيم الأصنام وجعلها قطعًا صغيرة".

عن ابن عباس، قوله:" {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا}، يقول: حُطاما".

=

=

عن ابن عباس، قوله: {جُذَاذًا}، قال: فتاتا".

عن مجاهد: " {جُذَاذًا}، كالصَّريم"

عن قَتادة، قوله:" {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا}، أي: قطعا".

قال ابن قتيبة: {جُذَاذًا}،" أي: فتاتا. وكل شيء كسرته: فقد جذذته. ومنه قيل للسويق: جذيذ".

قوله تعالى: {إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ} [الأنبياء: ٥٨]، أي:" إلا الصنم الكبير فإنه لم يكسره".

قال ابن عباس:"إلا عظيما لهم، عظيم آلهته".

قال مجاهد:" جعل إبراهيم الفأس التي أهلك بها أصنامهم مُسْندة إلى صدر كبيرهم الذي تَرَك".

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} [الأنبياء: ٥٨]، أي:" لعلهم يرجعون إلى الصنم فيسألونه عمن كسَّر الأصنام فيتبين لهم عجزه وتقون الحجة عليهم".

عن قتادة:" {لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ}، قال: كادهم بذلك لعلهم يتذكرون أو يبصرون".

قال ابن كثير:" ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غَارَ لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها".

والفاء في قوله: «فجعلهم» فصيحة. والجذاذ القطع الصغيرة جمع جذاذة من الجذ بمعنى القطع والكسر.

أي: فولوا مدبرين عن الأصنام فجعلها بفأسه قطعا صغيرة، بأن حطمها عن آخرها- سوى الصنم الأكبر لم يحطمه بل تركه من غير تكسير. لعلهم إليه يرجعون فيسألونه كيف وقعت هذه الواقعة وهو حاضر، ولم يستطع الدفاع عن إخوته الصغار؟!!.

=

=

ولعل إبراهيم- عليه السلام قد فعل ذلك ليقيم لهم أوضح الأدلة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة، لأنها لم تستطع الدفاع عن نفسها، وليحملهم على التفكير في أن الذي يجب أن يكون معبودا، إنما هو الله الخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء.

قال الرازي: المسألة الثالثة: إن قيل ما معنى: إلا كبيرا لهم قلنا: يحتمل الكبير في الخلقة ويحتمل في التعظيم ويحتمل في الأمرين.

وأما قوله: لعلهم إليه يرجعون فيحتمل رجوعهم إلى إبراهيم عليه السلام، ويحتمل رجوعهم إلى الكبير. أما الأول: فتقريره من وجهين: الأول: أن المعنى أنهم لعلهم يرجعون إلى مقالة إبراهيم ويعدلون عن الباطل. والثاني: أنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فبكتهم بما أجاب به من قوله: بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم [الأنبياء: ٦٣] أما إذا قلنا: الضمير راجع إلى الكبير ففيه وجهان: الأول: أن المعنى لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات فيقولون ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيحا والفأس على عاتقك. وهذا قول الكلبي، وإنما قال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم فلعلهم كانوا يعتقدون فيها أنها تجيب وتتكلم.

والثاني: أنه عليه السلام قال ذلك مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاء بهم، وإن قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع إليه في حل المشكلات ا.هـ

وقال الآلوسى ما ملخصه: وقوله: لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ لبيان وجه الكسر واستبقاء الكبير، وضمير «إليه» عائد إلى إبراهيم، أى: لعلهم يرجعون إلى إبراهيم، فيحاجهم ويبكتهم.

وعن الكلبي: أن الضمير للكبير، أى: لعلهم يرجعون إلى الكبير، كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات فيقولون له: ما لهؤلاء مكسورة، وما لك صحيحا،

=

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩).

{قَالُوا} بَعْد رُجُوعهمْ وَرُؤْيَتهمْ مَا فَعَلَ {مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنْ الظَّالِمِينَ} فِيهِ.

قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠).

{قَالُوا} أَيْ بَعْضهمْ لِبَعْضٍ {سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرهُمْ} أي يعيبهم {يقال له إبراهيم}.

=

والفأس في عنقك أو في يدك؟ وحينئذ يتبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر، ويظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم...

وعاد القوم إلى أصنامهم بعد تركهم إياها لفترة من الوقت، فوجدوها قد تحطمت إلا ذلك الكبير، فأصابهم ما أصابهم من الذهول والعجب..

وقال الرازي: المسألة الرابعة: إن قيل أولئك الأقوام إما أن يقال إنهم كانوا عقلاء أو ما كانوا عقلاء. فإن كانوا عقلاء وجب أن يكونوا عالمين بالضرورة أن تلك الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، فأي حاجة في إثبات ذلك إلى كسرها؟ أقصى ما في الباب أن يقال: القوم كانوا يعظمونها كما يعظم الواحد منا المصحف والمسجد والمحراب، وكسرها لا يقدح في كونها معظمة من هذا الوجه. وإن قلنا: إنهم ما كانوا عقلاء وجب أن لا تحسن المناظرة معهم ولا بعثة الرسل إليهم. الجواب: أنهم كانوا عقلاء وكانوا عالمين بالضرورة أنها جمادات ولكن لعلهم كانوا يعتقدون فيها أنها تماثيل الكواكب وأنها طلسمات موضوعة بحيث إن كل من عبدها انتفع بها وكل من استخف بها ناله منها ضرر شديد، ثم إن إبراهيم عليه السلام كسرها مع أنه ما ناله منها البتة ضرر فكان فعله دالا على فساد مذهبهم من هذا الوجه.

قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١).

{قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُن النَّاس} أَيْ ظَاهِرًا {لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ} عَلَيْهِ أَنَّهُ الْفَاعِل.

قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ (٦٢).

{قَالُوا} لَهُ بَعْد إتْيَانه {أَأَنْتَ} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَال الثَّانِيَة أَلِفًا وَتَسْهِيلهَا وَإِدْخَال أَلِف بَيْن المسهلة والأخرى وتركه {فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم}.

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣).

{قَالَ} سَاكِتًا عَنْ فِعْله {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرهمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ} عَنْ فَاعِله {إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ} فِيهِ تَقْدِيم جَوَاب الشَّرْط وَفِيمَا قَبْله تَعْرِيض لَهُمْ بِأَنَّ الصَّنَم الْمَعْلُوم عَجْزه عَنْ الْفِعْل لَا يَكُون إلَهًا.

فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤).

{فَرَجَعُوا إلَى أَنْفُسهمْ} بِالتَّفَكُّرِ {فَقَالُوا} لِأَنْفُسِهِمْ {إنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ} بِعِبَادَتِكُمْ مَنْ لَا يَنْطِق.

ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥).

{ثم نكسوا} من الله {على رؤوسهم} أَيْ رُدُّوا إلَى كُفْرهمْ وَقَالُوا وَاَللَّه {لَقَدْ عَلِمْت مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ} أَيْ فَكَيْفَ تَأْمُرنَا بسؤالهم[1].

---

(١) قوله تعالى: {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩)} [الأنبياء: ٥٩].

قال الطبري:" قال قوم إبراهيم لما رأوا آلهتهم قد جذّت، إلا الذي ربط به الفأسَ إبراهيم: من فعل هذا بآلهتنا؟ إن الذي فعل هذا بآلهتنا لمن الفاعلين بها ما لم يكن له فعله".

=

=

قال ابن كثير:" أي: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ} أي: في صنيعه هذا".

قال السمعاني:" فيه تقدير، وهو أنهم رجعوا ودخلوا على الأصنام، فلما رأوها قالوا كذلك".

لما رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ} فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة.

فحين رجع القوم من عيدهم ورأوا ما حل بأصنامهم «قالوا» على سبيل التفجع والإنكار: «من فعل هذا» الفعل الشنيع «بآلهتنا» التي نعظمها «إنه» أى هذا الفاعل «لمن الظالمين» لهذه الآلهة. لإقدامه على إهانتها وهي الجديرة بالتعظيم- في زعمهم-، ولمن الظالمين لنفسه حيث سيعرضها للعقوبة منا.

قالُوا أى: بعضهم وهم الذين سمعوا من إبراهيم قوله: «وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين». سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ والمراد بالذكر هنا: الذكر بالسوء والذم.

قوله تعالى: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)} [الأنبياء: ٦٠]

قال الفراء:" يذكرهم بالعيب والشتم وبما قال من الكيد".

قال الطبري:" سمعنا فتى يذكرهم بعيب يقال له إبراهيم".

قال ابن كثير:" أي: قال من سمعه يحلف أنه ليكيدنهم: {سَمِعْنَا فَتًى}، أي: شابًا {يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} ".

قال ابن جريج:" {يَذْكُرُهُمْ}: يعيبهم".

قال ابن إسحاق:" سمعناه يسبها ويعيبها ويستهزئ بها، لم نسمع أحدا يقول ذلك

=

=

غيره، وهو الذي نظن صنع هذا بها".

أي: سمعنا فتى يذكرهم بالنقص والذم والتهديد بالكيد، وهذا الفتى يقال له إبراهيم، ولعله هو الذي فعل بهم ما فعل.

وهنا تشاوروا فيما بينهم وقالوا. إذا كان الأمر كذلك: فَأْتُوا بِهِ وأحضروه عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ أى: أمام أعينهم ليتمكنوا من رؤيته على أتم وجه لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ مساءلتنا له، ومواجهتنا إياه بالعقوبة التي يستحقها على فعله هذا، أو يشهدون عليه بأنه هو الذي حطم الأصنام.

قوله تعالى: {قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ} [الأنبياء: ٦١]، أي:" قال رؤساؤهم: فَأْتوا بإبراهيم على مرأى من الناس".

قال الطبري:" قال قوم إبراهيم بعضهم لبعض: فأتوا بالذي فعل هذا بآلهتنا الذي سمعتموه يذكرها بعيب ويسبها ويذمها على أعين الناس ".

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ} [الأنبياء: ٦١]، أي:" كي يشهدوا على اعترافه بما قال؛ ليكون ذلك حجة عليه".

وفي قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ} [الأنبياء: ٦١]، وجوه:

أحدها: معناه: يشهدون عليه بما فعل ، لأنهم كرهوا أن يعاقبوه بغير بينة. وهذا قول الحسن، وقتادة، والسدي.

قال قتادة:" كرهوا أن يأخذوه بغير بيِّنة".

الثاني: يشهدون عقابه وما يصنع به، قاله محمد بن إسحاق.

الثالث: يشهدون بما يقول من حجة، وما يقال له من جواب، قاله ابن كامل.

قال الرازي: اعلم أن القوم لما شاهدوا كسر الأصنام، وقيل إن فاعله إبراهيم عليه السلام قالوا فيما بينهم: فأتوا به على أعين الناس قال صاحب «الكشاف»: على أعين الناس في محل الحال أي فأتوا به مشاهدا أي بمرأى منهم ومنظر. فإن قلت: ما

=

=

معنى الاستعلاء في على؟ قلت: هو وارد على طريق المثل أي يثبت إتيانه في الأعين ثبات الراكب على المركوب. أما قوله تعالى: لعلهم يشهدون ففيه وجهان: أحدهما: أنهم كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فأرادوا أن يجيئوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون عليه بما قاله فيكون حجة عليه بما فعل. وهذا قول الحسن وقتادة والسدي وعطاء وابن عباس رضي الله عنهم. وثانيهما: وهو قول محمد بن إسحاق أي يحضرون فيبصرون ما يصنع به فيكون ذلك زاجرا لهم عن الإقدام على مثل فعله، وفيه قول ثالث: وهو قول مقاتل والكلبي أن المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله ويشهدون عقابه ا.هـ

وقال ابن كثير: وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم، أن يتبين في هذا المحفل العظيم، كثرة جهلهم، وقلة عقلهم، في عبادة هذه الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضرا، ولا تملك لها نصرا..» ا.هـ.

وجاءوا بإبراهيم- عليه السلام وقالوا له على سبيل الاستنكار والتهديد: «أأنت فعلت هذا» التكسير والتحطيم «بآلهتنا» التي نعبدها «يا إبراهيم» ؟

قال مقاتل:" قال نمروذ: أنت كسرتها".

قال الطبري:" فأتوا بإبراهيم، فلما أتوا به قالوا له: أأنت فعلت هذا بآلهتنا من الكسر بها يا إبراهيم؟ ".

قال السمعاني:" طلبوا منه الإقرار والاعتراف بما فعل".

وهنا يرد عليهم إبراهيم- عليه السلام بتهكم ظاهر، واستهزاء واضح فيقول: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا يعنى الذي تركه بدون تحطيم، فإن كنتم لم تصدقوا قولي فَسْئَلُوهُمْ عمن فعل بهم ذلك إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ أى: إن كانوا ممن يتمكن من النطق أجابوكم وأخبروكم عمن فعل بهم ما فعل.

قوله تعالى: {قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} [الأنبياء: ٦٣]، أي:" قال إبراهيم بل

=

=

حطَّمها الصنم الكبير".

قال الطبري:" فأجابهم إبراهيم: بل فعله كبيرهم هذا وعظيمهم".

قال الواحدي:" أسند فعله إلى كبير الأصنام، إقامة للحجة عليهم، قال: غضب من أن يعبدوا معه الصغار فكسرهن".

قال ابن كثير:" وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم، لأنه جماد".

قال ابن إسحاق:" أُتِي به واجتمع له قومه عند ملكهم نمرود {قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ}، غضب من أن يعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها، فكسرهن".

قوله تعالى: {فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ} [الأنبياء: ٦٣]، أي:" اسألوا هذه الأصنام من كسرها؟ إن كانوا يقدرون على النطق".

قال مقاتل:" يقول سلوا الأصنام المجذوذة من قطعها؟ إن قدروا على الكلام".

قال الطبري:" فاسألوا الآلهة من فعل بها ذلك وكسرها إن كانت تنطق، أو تعبر عن نفسها".

قال أبو السعود: وإنما لم يقل عليه السلام: إن كانوا يسمعون أو يعقلون، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضًا، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب، وأن عدم نطقهم أظهر، وتبكيتهم بذلك أدخل. ا.هـ

فأنت ترى أن إبراهيم- عليه السلام لم يقصد بقوله هذا الإخبار بأن كبير الأصنام هو الذي حطمها، أو سؤالهم للأصنام عمن حطمها، وإنما الذي يقصده هو الاستهزاء بهم، والسخرية بأفكارهم، فكأنه يقول لهم: إن هذه التماثيل التي تعبدونها من دون الله. لا تدرى إن كنت أنا الذي حطمتها أم هذا الصنم الكبير، وأنتم تعرفون أنى قد بقيت قريبا منها بعد أن وليتم عنها مدبرين، وإذا كان الأمر كذلك فانظروا من

=

=

الذي حطمها إن كانت لكم عقول تعقل؟

قال الزمخشري: هذا- أي قول إبراهيم لهم: بل فعله كبيرهم هذا- من معاريض الكلام، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الخاصة من علماء المعاني.

والقول فيه أن قصد إبراهيم- عليه السلام لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته لها على أسلوب تعريضي، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم.

وهذا كما لو قال لك صاحبك، وقد كتبت كتابا بخط رشيق- وأنت شهير بحسن الخط-: أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط، ولا يقدر إلا على خربشة فاسدة- أي كتابة رديئة- فقلت له: بل كتبته أنت، كان قصدك بهذا الجواب، تقرير أن هذه الكتابة لك. مع الاستهزاء به.. .

وقال ابن العربي في أحكام القرآن: المسألة الثانية: قوله تعالى: { بل فعله كبيرهم هذا } اختلف الناس في ظاهر المقصود به، فمنهم من قال: هذا تعريض، وفي التعاريض مندوحة عن الكذب.

ومنهم من قال: بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون؛ فشرط النطق في الفعل.

والأول أصح: لأنه عدده على نفسه، فدل على أنه خرج مخرج التعريض، وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة دون الله، وهم كما قال إبراهيم لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ؟ فقال إبراهيم: بل فعله كبيرهم هذا، ليقولوا إنهم لا ينطقون ولا يفعلون ولا ينفعون ولا يضرون، فيقول لهم: فلم تعبدون ؟ فتقوم الحجة عليهم منهم.

ولهذا يجوز عند الأئمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه، فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة، كما قال لقومه: هذا ربي، على معنى الحجة عليهم، حتى إذا أفل منهم تبين حدوثه، واستحالة كونه إلها.

=

=

المسألة الثالثة: قوله: هذا ربي، هذه أختي، وإني سقيم، وبل فعله كبيرهم: هذه وإن كانت معاريض وحسنات، وحججا في الحق، ودلالات، لكنها أثرت في الرتبة، وخفضت عن محمد من المنزلة، واستحيا منها قائلها على ما ورد في حديث الشفاعة؛ لأن الذي كان يليق بمرتبته في النبوة والخلة أن يصدع بالحق، ويصرح بالأمر فيكون ما كان، ولكنه رخص له فقبل الرخصة، فكان ما كان من القصة، ولهذا جاء في حديث الشفاعة: { إنما اتخذت خليلا من وراء وراء } يعني بشرط أن تتبع عثراتي، وتختبر أحوالي، والخلة المطلقة لمحمد؛ لأنه قال له: { ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر }، ولذلك تقول العرب في أمثالها: ابغني من ورائي، أي اختبر حالي.

المسألة الرابعة: في هذا الحديث نكتة عظمى تقصم الظهر، وهي أنه قال رسول الله: { لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ثنتين منها ماحل بهما عن دين الله } وهي قوله: إني سقيم، وبل فعله كبيرهم هذا، ولم يعد قوله: هذه أختي في ذات الله، وإن كان دفع بها مكروها، ولكنه لما كان لإبراهيم فيها حظ من صيانة فراشه، وحماية أهله، لم يجعل في جنب الله ذلك؛ لأنه لا يجعل في ذات الله إلا العمل الخالص من شوائب الحظوظ الدنيوية، أو المعاني التي ترجع إلى النفس، حتى إذا خلصت للدين كانت لله، كما قال: { ألا لله الدين الخالص } وهذا لو صدر منا لكان لله، ولكن منزلة إبراهيم اقتضت هذا، والله أعلم. ا.هـ

وقال الرازي: فإن قيل قوله: بل فعله كبيرهم كذب. والجواب للناس فيه قولان: أحدهما: وهو قول كافة المحققين أنه ليس بكذب، وذكروا في الاعتذار عنه وجوها. أحدها: أن قصد إبراهيم عليه السلام لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك، وقد كتبت

=

=

كتابا بخط رشيق، وأنت شهير بحسن الخط، أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة، فقلت له: بل كتبته أنت، كأن قصدك بهذا الجواب تقرير ذلك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمي أو المخرمش، لأن إثباته والأمر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به وإثبات للقادر. وثانيها: أن إبراهيم عليه السلام غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مزينة. وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه لأنه هو السبب في استهانته بها وحطمه لها، والفعل كما يسند إلى مباشره يسد إلى الحامل عليه. وثالثها: أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم، فإن من حق من يعبد ويدعى إلها أن يقدر على هذا وأشد منه. وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب «الكشاف». ورابعها: أنه كناية عن غير مذكور، أي فعله من فعله وكبيرهم هذا ابتداء الكلام ويروى عن الكسائي أنه كان يقف عند قوله بل فعله ثم يبتدئ كبيرهم هذا.

وخامسها: أنه يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله كبيرهم ثم يبتدئ فيقول هذا فاسألوهم، والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لأن الإنسان أكبر من كل صنم. وسادسها: أن يكون في الكلام تقديم وتأخير كأنه قال: بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم فتكون إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطا بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين. وسابعها: قرأ محمد بن السميفع فعله كبيرهم أي فلعل الفاعل كبيرهم.

القول الثاني: وهو قول طائفة من أهل الحكايات، أن ذلك كذب واحتجوا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلها في ذات الله تعالى، قوله: إني سقيم وقوله: بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هي أختي»

وفي خبر آخر: «أن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة قال: إني كذبت ثلاث

=

=

كذبات»

ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا: الكذب ليس قبيحا لذاته، فإن النبي عليه السلام إذا هرب من ظالم واختفى في دار إنسان، وجاء الظالم وسأل عن حاله فإنه يجب الكذب فيه، وإذا كان كذلك فأي بعد في أن يأذن الله تعالى في ذلك لمصلحة لا يعرفها إلا هو، واعلم أن هذا القول مرغوب عنه ا.هـ

وقال ابن عاشور: { قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) } وقع هنا حذف جملة تقتضيها دلالة الاقتضاء. والتقدير: فأَتَوا به فقالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا.

وقوله تعالى { بل } إبطال لأن يكون هو الفاعل لذلك، فنفى أن يكون فعَل ذلك، لأن (بل) تقتضي نفي ما دل على كلامهم من استفهامه.

وقوله تعالى { فعله كبيرهم هذا } الخبر مستعمل في معنى التشكيك، أي لعله فعله كبيرهم إذ لم يقصد إبراهيم نسبة التحطيم إلى الصنم الأكبر لأنه لم يدع أنه شاهد ذلك ولكنه جاء بكلام يفيد ظنه بذلك حيث لم يَبق صحيحًا من الأصنام إلا الكبير.

وفي تجويز أن يكون كبيرهم هذا الذي حطمهم إخطار دليل انتفاء تعدد الآلهة لأنه أوهمهم أن كبيرهم غضب من مشاركة تلك الأصنام له في المعبودية، وذلك تدرّج إلى دليل الوحدانية، فإبراهيم في إنكاره أن يكون هو الفاعل أراد إلزامهم الحجة على انتفاء ألوهية الصنم العظيم، وانتفاء ألوهية الأصنام المحطمة بطريق الأَوْلى على نية أن يكر على ذلك كله بالإبطال ويوقنهم بأنه الذي حطم الأصنام وأنها لو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها ولو كان كبيرهم كبير الآلهة لدفع عن حاشيته وحرفائه، ولذلك قال { فاسألوهم إن كانوا ينطقون } تهكُّمًا بهم وتعريضًا بأن ما لا ينطق ولا يعرب عن نفسه غير أهل للآلهية. وشمل ضمير { فاسألوهم } جميع الأصنام ما تحطم منها وما بقي قائمًا. والقوم وإن علموا أن الأصنام لم تكن تتكلم

=

=

من قبل إلا أن إبراهيم أراد أن يقنعهم بأن حدثًا عظيمًا مثل هذا يوجب أن ينطقوا بتعيين من فعلَه بهم.

وهذا نظير استدلال علماء الكلام على دلالة المعجزة على صدق الرسول بأن الله لا يخرق عادة لتصديق الكاذب، فخلقه خارق العادة عند تحدّي الرسول دليل على أن الله أراد تصديقه.

وأما ما روي في "الصحيح" عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: " لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثَ كَذبات ثنتين منه في ذات الله ﷻ قوله { إني سقيم } [الصافات: ٨٩] وقوله { بل فعله كبيرهم هذا } . وبيْنَا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبّار من الجبابرة فقيل له: إن ها هنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وأن هذا سألني فأخبرته أنككِ أختي فلا تكذبيني... " وساق الحديث.

فمعناه أنه كذب في جوابه عن قول قومه: { أأنت فعلت هذا بآلهتنا } حيث قال: { بل فعله كبيرهم هذا }، لأن (بل) إذا جاء بعد استفهام أفاد إبطال المستفهم عنه.

فقولهم: { أأنت فعلتَ هذا } سؤال عن كونه محطمَ الأصنام، فلما قال: { بل } فقد نفى ذلك عن نفسه، وهو نفي مخالف للواقع ولاعتقاده فهو كذب.

غير أن الكذب مذموم ومنهي عنه ويرخص فيه للضرورة مثل ما قاله إبراهيم، فهذا الإضراب كان تمهيدًا للحجة على نية أن يتضح لهم الحق بآخره.

ولذلك قال: { أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضرّكم } الآية.

أما الإخبار بقوله { فعله كبيرهم هذا } فليس كذبًا وإن كان مخالفًا للواقع ولاعتقاد المتكلم لأن الكلام والأخبار إنما تستقر بأواخرها وما يعقبها، كالكلام المعقب بشرط أو استثناء، فإنه لما قصد تنبيههم على خطأ عبادتهم للأصنام مهدّ لذلك كلامًا هو جار على الفرض والتقدير فكأنه قال: لو كان هذا إلهًا لما رضي

=

=

بالاعتداء على شركائه، فلما حصل الاعتداء عليهم بمحضر كبيرهم تعين أن يكون هو الفاعلَ لذلك، ثم ارتقى في الاستدلال بأن سلبَ الإلهية عن جميعهم بقوله { إن كانوا ينطقون } كما تقدم.

فالمراد من الحديث أنها كذبات في بادىء الأمر وأنها عند التأمل يظهر المقصود منها.

وذلك أن النهي عن الكذب إنما علته خدع المخاطب وما يتسبب على الخبر المكذوب من جريان الأعمال على اعتبار الواقعُ بخلافه.

فإذا كان الخبر يُعقب بالصدق لم يكن ذلك من الكذب بل كان تعريضًا أو مزحًا أو نحوهما.

وأما ما ورد في حديث الشفاعة "فيقول إبراهيم: لست هناكم ويذكر كذَبات كذبها" فمعناه أنه يذكر أنه قال كلامًا خِلافًا للواقع بدون إذن من الله بوحي، ولكنه ارتكب قولَ خلاف الواقع لضرورة الاستدلال بحسب اجتهاده فخشي أن لا يصادف اجتهاده الصواب من مراد الله فخشي عتاب الله فتخلص من ذلك الموقف. ا.هـ

وقوله-سبحانه-: فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ بيان للأثر الذي أحدثه رد إبراهيم- عليه السلام.

أي: أنهم بعد أن قال لهم إبراهيم بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ، أخذوا في التفكر والتدبر، فرجعوا إلى أنفسهم باللوم، وقال بعضهم لبعض إنكم أنتم الظالمون، حيث عبدتم مالا يستطيع الدفاع عن نفسه أو حيث تركتم آلهتكم بدون حراسة.

قال الطبري:" رجعوا إلى عقولهم، ونظر بعضهم إلى بعض".

قال ابن كثير:" أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم".

=

=

عن ابن جُرَيج:" {فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ}، قال: نظر بعضهم إلى بعض".

قال ابن إسحاق:" أرعوَوْا ورجعوا عنه- يعني: عن إبراهيم-، فيما ادّعوا عليه من كسرهنّ إلى أنفسهم فيما بينهم".

قوله تعالى: {فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ} [الأنبياء: ٦٤]، أي:"فقالوا:" أنتم الظالمون في عبادة ما لا ينطق".

قال ابن كثير: أي: "في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها".

قال الطبري:" فقالوا: إنكم معشر القوم الظالمون هذا الرجل في مسألتكم إياه وقيلكم له من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم، وهذه آلهتكم التي فعل بها ما فعل حاضرتكم فاسألوها".

قال ابن إسحاق:" فقالوا: لقد ظلمناه وما نراه إلا كما قال".

قال ابن عاشور: وقوله تعالى { فرجعوا إلى أنفسهم } يجوز أن يكون معناه فرجع بعضهم إلى بعض، أي أقبل بعضهم على خطاب بعض وأعرضوا عن مخاطبة إبراهيم على نحو قوله تعالى: { فسلِّموا على أنفسكم } [النور: ٦١] وقوله تعالى: { ولا تقتلوا أنفسكم } [النساء: ٢٩]، أي فقال بعضهم لبعض إنكم أنتم الظالمون. وضمائر الجمع مراد منها التوزيع كما في: ركب القومُ دوابهم، ويجوز أن يكون معناه فرجع كل واحد إلى نفسه، أي ترك التأمل في تهمة إبراهيم وتدبر في دفاع إبراهيم. فلاح لكل منهم أن إبراهيم بريء فقال بعضهم لبعض { إنكم أنتم الظالمون } . وضمائر الجمع جارية على أصلها المعروف. ا.هـ

ولكن هذا الأثر، وهذا اللوم لأنفسهم، لم يلبث إلا قليلا حتى تبدد، بسبب استيلاء العناد والجحود عليهم، فقد صور القرآن حالهم بعد ذلك فقال: ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ.

قوله تعالى: {ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ} [الأنبياء: ٦٥]، أي:"ثم أنقلبوا من

=

=

الإذعان إلى المكابرة والطغيان".

قال ابن كثير:" أي: ثم أطرقوا في الأرض".

قال الطبري:" ثم غُلبوا في الحجة، فاحتجوا على إبراهيم بما هو حجة لإبراهيم عليهم".

قال السعدي:" أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم وضلت أحلامهم".

عن قتادة، قوله: {ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ}، قال:" أدركت الناس حَيرة سَوْء".

قال السدي:"نكسوا في الفتنة على رءوسهم، فقالوا: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون".

وقال ابن زيد: "أي: في الرأي".

قال ابن كثير:" وقول قتادة أظهر في المعنى؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزًا؛ ولهذا قالوا له: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ} ".

قال السمعاني:" قال أهل التفسير: أجرى الله تعالى حقا على لسانهم في القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة، فهو معنى قوله: {ثم نكسوا على رءوسهم} ومعناه: رجعوا إلى شركهم، ويقال: نكس المريض إذا رجع إلى حاله الأول، وقيل: نكسوا على رءوسهم أي: رجعوا، ومعناه: إلى الاحتجاج عن الأصنام".

قوله تعالى: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ} [الأنبياء: ٦٥]، أي:" قالوا في لجاجهم وعنادهم: لقد علمتَ يا إِبراهيم أن هذه الأَصنام لا تتكلم ولا تجيب فكيف تأمرنا بسؤالها؟ ".

قال الطبري:" فقالوا: لقد علمت ما هؤلاء الأصنام ينطقون".

قال السمعاني:" معناه: فكيف نسألهم؟ ".

قال ابن كثير:" فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق".

=

=

قال السعدي: أي: "فكيف تهكم بنا وتستهزئ بنا وتأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟ ".

قال ابن إسحاق:" ثم قالوا: -يعني قوم إبراهيم- وعرفوا أنها، -يعني: آلهتهم- لا تضرّ ولا تنفع ولا تبطش: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ}، أي: لا تتكلم فتخبرنا من صنع هذا بها، وما تبطش بالأيدي فنصدّقك، يقول الله {ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ}، في الحجة عليهم لإبراهيم حين جادلهم، فقال عند ذلك إبراهيم حين ظهرت الحجة عليهم بقولهم: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ} ".

وقوله: نُكِسُوا فعل مبنى للمجهول من النكس، وهو قلب الشيء من حال إلى حال، وأصله: قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفله.

أى: ثم انقلبوا من لومهم لأنفسهم لعبادتهم لما لا يقدر على دفع الأذى عنه، إلى التصميم على كفرهم وضلالهم، فقالوا لإبراهيم على سبيل التهديد: لقد علمت أن هذه الأصنام لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟ إن أمرك هذا لنا لهو دليل على أنك تسخر بعقولنا، ونحن لن نقبل ذلك، وسننزل بك العقاب الذي تستحقه.

وقد شبه القرآن الكريم عودتهم إلى باطلهم وعنادهم، بعد رجوعهم إلى أنفسهم باللوم، شبه ذلك بالانتكاس، لأنهم بمجرد أى خطرت لهم الفكرة السليمة، أطفأوها بالتصميم على الكفر والضلال، فكان مثلهم كمثل من انتكس على رأسه بعد أن كان ما شيا على قدميه، فيا له من تصوير بديع لحالة من يعود إلى الظلام، بعد أن يتبين له النور.

والجملة الكريمة لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ جواب لقسم محذوف، معمول لقول محذوف، والتقدير: ثم نكسوا على رءوسهم قائلين: والله لقد علمت ما هؤلاء ينطقون.

قال الآلوسي: { ثُمَّ نُكِسُواْ على } أصل النكس قلب الشيء بحيث يصير أعلاه

=

=

أسفله، ولا يلغو ذكر الرأس بل يكون من التأكيد أو يعتبر التجريد، وقد يستعمل النكس لغة في مطلق قلب الشيء من حال إلى حال أخرى ويذكر الرأس للتصوير والتقبيح.

وذكر الزمخشري في المراد به هنا ثلاثة أوجه، الأول: أنه الرجوع عن الفكرة المستقيمة الصالحة في تظليم أنفسهم إلى الفكرة الفاسدة في تجويز عبادتها مع الاعتراف بتقاصر حالها عن الحيوان فضلًا أن تكون في معرض الإلهية فمعنى { رُءوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ } لا يخفى علينا وعليك أيها المبكت بأنها لا تنطق أنها كذلك وإنا إنما اتخذناها آلهة مع العلم بالوصف، والدليل عليه جواب إبراهيم عليه السلام الآتي، والثاني: أنه الرجوع عن الجدال معه عليه السلام بالباطل في قولهم: { مَن فَعَلَ هذا بِئَالِهَتِنَا } [الأنبياء: ٥٩] وقولهم: { أأنت فَعَلْتَ هذا } [الأنبياء: ٦٢] إلى الجدال عنه بالحق في قولهم { لَقَدْ عَلِمْتَ } لأنه نفى للقدرة عنها واعتراف بعجزها وأنها لا تصلح للإلهية وسمي نكسًا وإن كان حقًا لأنه ما أفادهم عقدًا فهو نكس بالنسبة إلى ما كانوا عليه من الباطل حيث اعترفوا بعجزها وأصروا.

وفي لباب التفسير ما يقرب منه مأخذًا لكنه قدر الرجوع عن الجدال عنه في قولهم: { إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون } [الأنبياء: ٦٤] إلى الجدال معه عليه السلام بالباطل في قولهم: { لَقَدْ عَلِمْتَ } والثالث: أن النكس مبالغة في إطراقهم رؤوسهم خجلًا وقولهم: { لَقَدْ عَلِمْتَ } الخ رمى عن حيرة ولهذا أتوا بما هو حجة عليهم وجاز أن يجعل كناية عن مبالغة الحيرة وانخذال الحجة فإنها لا تنافي الحقيقة، قال في "الكشف".

وهذا وجه حسن وكذلك الأول، وكون المراد النكس في الرأي رواه أبو حاتم عن ابن زيد وهو للوجهين الأولين، وقال مجاهد: { نُكِسُواْ على رُءوسِهِمْ } ردت السفلة على الرؤساء فالمراد بالرؤوس الرؤساء، والأظهر عندي الوجه الثالث،

=

=

وأيًا ما كان فالجار متعلق بنكسوا.

(منبهة): قال الله تعالى: (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم (٦٢) قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون (٦٣)) [الأنبياء: ٦٢ - ٦٣].

وقال تعالى: (وإن من شيعته لإبراهيم (٨٣) إذ جاء ربه بقلب سليم (٨٤) إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون (٨٥) أئفكا آلهة دون الله تريدون (٨٦) فما ظنكم برب العالمين (٨٧) فنظر نظرة في النجوم (٨٨) فقال إني سقيم (٨٩)) [الصافات: ٨٣ - ٨٨].

وفي الحديث عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ قط إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله: قوله: (إني سقيم)، وقوله: (بل فعله كبيرهم هذا)، وواحدة في شأن سارة؛ فإنه قدم أرض جبار، ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي؛ فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وغيرك. فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، أتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة، لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها، فأتي بها، فقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الصلاة، فلما دخلت عليه، لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي، ولا أضرك. ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك. ففعلت، وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها، فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي، وأعطها هاجر. قال: فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ انصرف فقال لها: مهيم، قالت: خيرا، كف الله يد الفاجر، وأخدم خادما. قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء» أخرجه مسلم في صحيحه،

=

=

في كتاب الفضائل، حديث (٢٣٧١)، وأخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، حديث (٣٣٥٨)، موقوفا على أبي هريرة، وأخرجه في الموضع نفسه، مرفوعا من حديث أبي هريرة، لكن باختصار، ولفظه: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثا».

* ظاهر الحديث الشريف أن قول إبراهيم: (بل فعله كبيرهم هذا)، وقوله: (إني سقيم) كان كذبا منه، عليه السلام، وهذا مشكل؛ لأن الكذب لا يجوز في حق الأنبياء عليهم السلام، إذ الرسول ينبغي أن يكون موثوقا به؛ ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه، ولأن الكذب المحض من جملة الكبائر، والأنبياء - عليهم السلام - معصومون منها بالإجماع.

* مسالك العلماء في دفع الإشكال الوارد في الحديث:

للعلماء تجاه الإشكال الوارد في الحديث ثلاثة مسالك:

الأول: مسلك تأويل الآيات والحديث، ومنع وقوع الكذب المحض من إبراهيم الخليل، عليه السلام. وهذا مذهب الجمهور من العلماء. وممن قال به:

ابن قتيبة، والزمخشري، وابن العربي، والقاضي عياض، وابن الجوزي، وأبو العباس القرطبي، وأبو عبد الله القرطبي، والنووي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن حجر، والسيوطي، والآلوسي، وابن عثيمين.

ويرى أصحاب هذا المسلك: أن ما قاله إبراهيم - عليه السلام - يعد من المعاريض، وهي مباحة، وليست من الكذب الذي يذم صاحبه.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف جاز له أن يكذب؟ قلت: قد جوزه بعض الناس في المكيدة في الحرب، والتقية، وإرضاء الزوج، والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين، والصحيح أن الكذب حرام، إلا إذا عرض وورى، والذي قاله إبراهيم - عليه السلام - معراض من الكلام». اهـ

=

=

قالوا: والمعاريض لا تذم، خصوصا إذا احتيج إليها، فعن عمران بن حصين - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»، وقال عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «ما يسرني أن لي بما أعلم من معاريض القول، مثل أهلي ومالي»، وقال رسول الله ﷺ لعجوز: «إن الجنة لا يدخلها عجوز»، أراد قوله تعالى: (إنا أنشأناهن إنشاء (٣٥)) [الواقعة: ٣٥]، وكان أبو بكر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - حين خرج من الغار، مع رسول الله ﷺ، إذا سأله أحد: من هذا بين يديك؟ يقول: «هاد يهديني»... وقد اختلف أصحاب هذا المسلك في وجه إطلاق النبي ﷺ على تلك الكلمات التي قالها إبراهيم الخليل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بأنها كذب، على أقوال:

الأول: أن النبي ﷺ أطلق عليها الكذب من باب التجوز؛ لأنها في الحقيقة شبيهة بالكذب، لما فيها من إيهام السامع، وإخباره بخلاف ما يعتقده المتكلم، ولم يرد النبي ﷺ أنها من الكذب الذي هو قصد قول الباطل، والإخبار بضد ما في النفس، من غير غرض شرعي؛ لأن هذا لا يجوز في حق الأنبياء، عليهم السلام.

وهذا رأي: ابن قتيبة، والقاضي عياض، وابن عطية، وابن الجوزي، وابن جزي الكلبي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والحافظ ابن كثير، والحافظ ابن حجر، والآلوسي.

قال أبو بكر بن الأنباري: «كلام إبراهيم كان صدقا عند البحث، وإنما أراد النبي ﷺ أنه قال قولا يشبه الكذب في الظاهر، وليس بكذب». اهـ

وقال ابن عقيل: «دلالة العقل تصرف ظاهر هذا اللفظ، وذاك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقا به، ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه، وإنما استعير ذكر الكذب؛ لأنه بصورة الكذب، فسماه كذبا مجازا، ولا يجوز سوى هذا». اهـ

=

=

وقال ابن القيم: «وسمي قول إبراهيم هذا كذبا؛ لأنها تورية، وقد أشكل على الناس تسميتها كذبة، لكون المتكلم إنما أراد باللفظ المعنى الذي قصده، فكيف يكون كذبا؟ والتحقيق في ذلك: أنها كذب بالنسبة إلى إفهام المخاطب، لا بالنسبة إلى غاية المتكلم، فإن الكلام له نسبتان: نسبة إلى المتكلم، ونسبة إلى المخاطب، فلما أراد المورِي أن يفهم المخاطب خلاف ما قصده بلفظه، أطلق الكذب عليه بهذا الاعتبار، وإن كان المتكلم صادقا باعتبار قصده ومراده». اهـ

وقال الحافظ ابن حجر: «وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة، فلكونه قال قولا يعتقده السامع كذبا، لكنه إذا حقق لم يكن كذبا؛ لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين، فليس بكذب محض». اهـ

القول الثاني: أن النبي ﷺ أطلق عليها كذبا؛ لأن الله تعالى قد أعلمه أن إبراهيم - عليه السلام - يطلق ذلك على نفسه يوم القيامة. وهذا رأي أبي العباس القرطبي.

القول الثالث: أن المراد من الحديث: أنها كذبات في بادئ الأمر، لكنها عند التأمل يظهر المقصود منها، وذلك أن النهي عن الكذب إنما علته خدع المخاطب، وما يتسبب على الخبر المكذوب من جريان الأعمال على اعتبار الواقع بخلافه، وأما إذا كان الخبر يعقب بالصدق لم يكن ذلك من الكذب، بل يكون تعريضا، أو مزحا، أو نحوهما.

وهذا قول الطاهر بن عاشور، ويرى: أنه لم يكن في لغة قوم إبراهيم التشبيه البليغ، ولا المجاز، ولا التهكم، فكان ذلك عند قومه كذبا، وأن الله تعالى أذن له فعل ذلك، وأعلمه بتأويله؛ كما أذن لأيوب - عليه السلام - أن يأخذ ضغثا من عصي؛ فيضرب به ضربة واحدة، ليبر قسمه، إذ لم تكن الكفارة مشروعة في دين أيوب - عليه السلام.

وأما حديث الشفاعة، وقول إبراهيم - عليه السلام -: «إني كذبت ثلاث كذبات»؛ فقد

=

=

أجاب عنه الطاهر بن عاشور بأن معناه: «أنه قال كلاما خلافا للواقع، بدون إذن الله بوحي، ولكنه ارتكب قول خلاف الواقع؛ لضرورة الاستدلال، بحسب اجتهاده، فخشي أن لا يصادف اجتهاده الصواب من مراد الله، فخشي عتاب الله، فتخلص من ذلك الموقف». اهـ (٦)

ويرى الشيخ ابن عثيمين: أن إبراهيم - عليه السلام - سماها كذبات، تواضعا منه؛ لأنها بحسب مراده صدق مطابق للواقع، فهي من باب التورية.

رأي أصحاب هذا المسلك، في معنى الآيتين، ووجه كونهما من المعاريض:

لأصحاب هذا المسلك عدة تأويلات في معنى الآيتين، ووجه كونهما من المعاريض، وفيما يأتي ذكر أقوالهم في كل آية:

أولا: تأويلهم لقوله تعالى: (بل فعله كبيرهم) [الأنبياء: ٦٣]:

اختلفوا في تأويل الآية على قولين:

الأول: أن معنى الآية: بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون، حيث جعل النطق شرطا للفعل، والمعنى إن كانوا ينطقون فقد فعله، قالوا: ولما علق الفعل على النطق، والنطق غير متحقق، لم يكن قوله هذا كذبا.

وهذا رأي: ابن قتيبة، والقاضي عياض، وأبي عبد الله القرطبي.

واعترض: بأن قوله: (إن كانوا ينطقون) [الأنبياء: ٦٣] متعلق بقوله: (فاسألوهم) [الأنبياء: ٦٣]، والمعنى: إن كانوا ينطقون، فاسألوهم.

القول الثاني: أنه قال ذلك تمهيدا لإقامة الحجة عليهم، على نية أن يتضح لهم الحق بآخره، فإنه لما قصد تنبيههم على خطأ عبادتهم للأصنام مهد لذلك بكلام هو جار على الفرض والتقدير، فكأنه قال: لو كان هذا إلها لما رضي بالاعتداء على شركائه، فلما حصل الاعتداء عليهم بمحضر كبيرهم، تعين أن يكون هو الفاعل لذلك.

=

=

وهذا رأي: الزمخشري، وابن العربي، وابن الجوزي، وابن جزي الكلبي، وأبي العباس القرطبي، والرازي، والسيوطي، والآلوسي.
ثانيا: تأويلهم لقوله تعالى: (إني سقيم) [الصافات: ٨٩]:
يرى الأكثر من أصحاب هذا المسلك أن معنى الآية: إني سأسقم؛ لأن من كتب عليه الموت فلا بد من أن يسقم، ومنه قوله تعالى: (إنك ميت وإنهم ميتون (٣٠)) [الزمر: ٣٠]، أي ستموت، ويموتون.
الثاني: مسلك إجراء الآيات والحديث على ظاهرها، وأن ما قاله إبراهيم الخليل - عليه السلام - كان كذبا على الحقيقة.
ويرى أصحاب هذا المسلك: أن إبراهيم - عليه السلام - فعل ذلك من باب التقية، ودفع أذى الظالمين، والكذب إذا كان لمثل هذا الغرض، وكان لمصلحة شرعية؛ فإنه لا مانع منه، ولا يكون محرما. وهذا رأي: ابن جرير الطبري، وابن حزم، والواحدي، والمازري، والبغوي، والسمعاني.
قال ابن جرير الطبري: «وقد زعم بعض من لا يصدق بالآثار، ولا يقبل من الأخبار إلا ما استفاض به النقل، من العوام، أن معنى قوله: (بل فعله كبيرهم) إنما هو بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم، أي إن كانت الآلهة المكسورة تنطق؛ فإن كبيرهم هو الذي كسرهم. وهذا قول خلاف ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ : أن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات، كلها في الله، قوله: (بل فعله كبيرهم) وقوله: (إني سقيم) وقوله لسارة: هي أختي. وغير مستحيل أن يكون الله تعالى ذكره أذن لخليله في ذلك، ليقرع قومه به، ويحتج به عليهم، ويعرفهم موضع خطئهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال مؤذن يوسف لإخوته: (أيتها العير إنكم لسارقون) [يوسف: ٧٠] ولم يكونوا سرقوا شيئا». اهـ
وقال - بعد أن ذكر الأقوال في تفسير قوله تعالى: (إني سقيم) -: «وقال آخرون:
=

=

إن قوله: (إني سقيم) كلمة فيها معراض، ومعناها: أن كل من كان في عقبة الموت فهو سقيم، وإن لم يكن به حين قالها سقم ظاهر، قال: والخبر عن رسول الله ﷺ بخلاف هذا القول، وقول رسول الله ﷺ هو الحق دون غيره». اهـ

وقال ابن حزم: «أما الحديث: أنه – عليه السلام – كذب ثلاث كذبات، فليس كل كذب يكون معصية، بل منه ما يكون طاعة لله ﷻ، وفرضا واجبا يعصي من تركه....، وقد أجمع أهل الإسلام على أن إنسانا لو سمع مظلوما قد ظلمه سلطان، وطلبه ليقتله بغير حق، ويأخذ ماله غصبا؛ فاستتر عنده، وسمعه يدعو على من ظلمه، قاصدا بذلك السلطان، فسأل السلطان ذلك السامع عما سمعه منه، وعن موضعه؛ فإنه إن كتم ما سمع، وأنكر أن يكون سمعه، أو أنه يعرف موضعه أو موضع ماله؛ فإنه محسن مأجور، مطيع لله ﷻ، وأنه إن صدقه فأخبره بما سمعه منه، وبموضعه وموضع ماله؛ كان فاسقا عاصيا لله ﷻ، فاعل كبيرة، مذموما تماما.

وقد أبيح الكذب في إظهار الكفر في التقية، وكل ما روي عن إبراهيم – عليه السلام – في تلك الكذبات فهو داخل في الصفة المحمودة، لا في الكذب الذي نهي عنه». اهـ

الثالث: مسلك تأويل الآيات، ورد الحديث وإنكاره.

وهذا رأي الفخر الرازي، حيث قال: «واعلم أن بعض الحشوية روى عن النبي ﷺ أنه قال: ما كذب إبراهيم – عليه السلام – إلا ثلاث كذبات. فقلت: الأولى أن لا نقبل مثل هذه الأخبار، فقال على طريق الاستنكار: فإن لم نقبله؛ لزمنا تكذيب الرواة. فقلت له: يا مسكين، إن قبلناه؛ لزمنا الحكم بتكذيب إبراهيم – عليه السلام – وإن رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة، ولا شك أن صون إبراهيم – عليه السلام – عن الكذب، أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب». اهـ

قلت: وهذا القول من الرازي مردود عليه، فالحديث صحيح لا مطعن فيه، وقد روي من عدة طرق، رواتها كلهم ثقات عدول معروفون، ولا سبيل لتكذيبهم، أو

=

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦).

{قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله} أَيْ بَدَله {مَا لَا يَنْفَعكُمْ شَيْئًا} مِنْ رِزْق وَغَيْره {وَلَا يَضُرّكُمْ} شَيْئًا إذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ.

أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧).

{أُفٍّ} بِكَسْرِ الْفَاءِ وَفَتْحهَا بِمَعْنَى مَصْدَر أَيْ نتنا وقبحا {لكم ولما تبعدون مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَام لَا تَسْتَحِقّ الْعِبَادَة وَلَا تَصْلُح لَهَا وَإِنَّمَا يَسْتَحِقّهَا الله تَعَالَى.

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨).

{قَالُوا حَرِّقُوهُ} أَيْ إبْرَاهِيم {وَانْصُرُوا آلِهَتكُمْ} أَيْ بتحريقه {إن كنتم فاعلين} نصرتها فجعوا لَهُ الْحَطَب الْكَثِير وَأَضْرَمُوا النَّار فِي جَمِيعه وَأَوْثَقُوا إبْرَاهِيم وَجَعَلُوهُ فِي مَنْجَنِيق وَرَمَوْهُ فِي النار قال تعالى.

قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩).

=

رميهم بالجهالة؛ ورحم الله الفخر الرازي؛ فإنه لما أعياه الجواب عن الحديث لجأ إلى رده وإنكاره، ورمي رواته بالكذب، وليس هذا من شأن العلماء العارفين؛ فإن النصوص لا ترد بمجرد الرأي والهوى، والرازي لا يؤخذ بقوله في تصحيح الأحاديث وتضعيفها؛ لأنه ليس من أهل هذا الشأن، وبضاعته فيه مزجاة، قال عنه الإمام الذهبي: «وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم، وسحر وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه؛ فإنه توفي على طريقة حميدة، والله يتولى السرائر».

وأما رأي الرازي في معنى الآيتين، فقد مضى بيانه، عند ذكر رأي أصحاب المذهب الأول.

{قُلْنَا يَا نَار كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إبْرَاهِيم} فَلَمْ تُحْرِقْ مِنْهُ غَيْر وَثَاقه وَذَهَبَتْ حَرَارَتهَا وَبَقِيَتْ إضَاءَتهَا وَبِقَوْلِهِ {وَسَلَامًا} سَلِمَ مِنْ الموت ببردها.

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠).

{وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا} وَهُوَ التَّحْرِيق {فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ} في مرادهم.

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١).

{ونجيناه ولوطا} بن أَخِيهِ هَارَان مِنْ الْعِرَاق {إلَى الْأَرْض الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} بِكَثْرَةِ الْأَنْهَار وَالْأَشْجَار وَهِيَ الشَّام نَزَلَ إبْرَاهِيم بِفِلَسْطِين وَلُوط بِالْمُؤْتَفِكَةِ وَبَيْنهمَا يوم.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢).

{وَوَهَبْنَا لَهُ} أَيْ لِإِبْرَاهِيم وَكَانَ سَأَلَ وَلَدًا كَمَا ذُكِرَ فِي الصَّافَّات {إسْحَاق وَيَعْقُوب نَافِلَة} أي زيادة على المسؤول أَوْ هُوَ وَلَد الْوَلَد {وَكُلًّا} أَيْ هُوَ وَوَلَدَاهُ {جَعَلْنَا صَالِحِينَ} أَنْبِيَاء.

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣).

{وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّة} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَال الثَّانِيَة يَاء يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الْخَيْر {يَهْدُونَ} النَّاس {بِأَمْرِنَا} إلى ديننا {وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصَّلَاة وَإِيتَاء الزَّكَاة} أَيْ أَنْ تُفْعَل وَتُقَام وَتُؤْتَى مِنْهُمْ وَمِنْ أَتْبَاعهمْ وَحُذِفَ هَاء إقَامَة تخفيف {وكانوا لنا عابدين}[1].

(١) قوله تعالى: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ} [الأنبياء: ٦٦]، أي:" قال إبراهيم محقِّرًا لشأن الأصنام: كيف تعبدون أصنامًا لا =

=

تنفع إذا عُبدت، ولا تضرُّ إذا تُركت؟ ".

قال الطبري:" قال إبراهيم لقومه: أفتعبدون أيها القوم ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم، وأنتم قد علمتم أنها لم تمنع نفسها ممن أرادها بسوء، ولا هي تقدر أن تنطق إن سئلت عمن يأتيها بسوء فتخبر به، أفلا تستحيون من عبادة ما كان هكذا".

قال البغوي: يقول:" {ما لا ينفعكم شيئا} إن عبدتموه، {ولا يضركم} إن تركتم عبادته".

قال ابن إسحاق:" يقول يرحمه الله: ألا ترون أنهم لم يدفعوا عن أنفسهم الضرّ الذي أصابهم، وأنهم لا ينطقون فيخبرونكم من صنع ذلك بهم، فكيف ينفعونكم أو يضرّون".

قوله تعالى: {أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [الأنبياء: ٦٧]، أي:" قبحًا لكم ولآلهتكم التي تعبدونها من دون الله تعالى".

قال الطبري:" يقول: قُبحا لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله".

قال السعدي:" أي: ما أضلكم وأخسر صفقتكم، وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء: ٦٧]، أي:" أفلا تعقلون فتدركون سوء ما أنتم عليه؟ ".

قال البغوي:" أي: أليس لكم عقل تعرفون هذا".

قال الطبري:" أفلا تعقلون قبح ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضرّ ولا ينفع، فتتركوا عبادته، وتعبدوا الله الذي فطر السماوات والأرض، والذي بيده النفع والضر".

قال السعدي:" إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقل، وارتكبتم الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم، أحسن حالا منكم".

=

=

أى: قال إبراهيم لقومه بعد أن ضاق بهم ذرعا موبخا لهم ومعلنا بشركهم على رءوس الأشهاد، ومبينا عدم استحقاق آلهتهم للعبادة: أتتركون عبادة الله الذي خلقكم، وتعبدون غيره أصناما لا تنفعكم بشيء من النفع، ولا تضركم بشيء من الضر، ثم يضيف إلى هذا التبكيت لهم، الضجر منهم، فيقول: أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ.

و «أف» اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر. وأصله صوت المتضجر من استقذار الشيء.

واللام في قوله لَكُمْ لبيان المتضجر لأجله.

أى: سحقا وقبحا لكم، ولما تعبدونه من أصنام متجاوزين بها عبادة الله تعالى عن جهل وسخف وطغيان.

أَفَلا تَعْقِلُونَ ما أنتم فيه من ضلال واضح، فترجعون عنه إلى عبادة الواحد القهار.

ولما وصل بهم إلى هذا الحد من البيان، فدحضت حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، فانقطعوا انقطاعا فاضحا أخذتهم العزة بالإثم، شأنهم في ذلك شأن كل طاغية جهول، يلجأ إلى القوة الغاشمة بعد أن تبطل حجته، فقالوا فيما بينهم: حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ.

أى: قال بعضهم لبعض بعد أن عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة، وبعد أن رأوا إبراهيم قد أفحمهم بمنطقه الحكيم: حَرِّقُوهُ أى: بالنار، فإنها أشد العقوبات.

قوله تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ} [الأنبياء: ٦٨]، أي:" فقالوا: احرقوا إبراهيم بالنار انتقامًا لآلهتكم ونصرةً لها".

قال الطبري:" قال بعض قوم إبراهيم لبعض: حرّقوا إبراهيم بالنار".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ٦٨]، أي:" إن كنتم ناصري آلهتكم حقًا".

=

=

قال الطبري:" يقول: إن كنتم ناصريها، ولم تريدوا ترك عبادتها، قيل: إن الذي قال ذلك رجل من أكراد فارس".

عن مجاهد، قوله: " {حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آ}، قال: قالها رجل من أعراب فارس، يعني: الأكراد".

قال مجاهد:" تلوت هذه الآية على عبد الله بن عمر، فقال: أتدري يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم بالنار؟ قال: قلت لا قال: رجل من أعراب فارس. قلت: يا أبا عبد الرحمن، أو هل للفرس أعراب؟ قال: نعم الكرد هم أعراب فارس، فرجل منهم هو الذي أشار بتحريق إبراهيم بالنار".

قال شعيب الجبئي: "إن الذي قال حرّقوه "هيزن" فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة".

قال ابن إسحاق:" أجمع نمرود وقومه في إبراهيم فقالوا: {حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ}، أي: لا تنصروها منه إلا بالتحريق بالنار إن كنتم ناصريها".

قيل: إن الذي اقترح عليهم ذلك هو رئيسهم: نمرود بن كنعان. وقيل: هو رجل من الفرس اسمه: هينون.

وقوله: وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ.. بيان لسبب تحريقه بالنار.

أى: حرقوه بالنار من أجل الانتصار لآلهتكم التي حطمها في غيبتكم إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ.

أى: إن كنتم بحق تريدون أن تنصروا آلهتكم نصرا يرضيها، فأحرقوه بالنار، فإن النار أهول المعاقبات وأفظعها، فهي أزجر لمن يريد مثل هذا الفعل، واتركوا الجدال فإنه يورث ضد ما تريدون، ويؤثر عكس ما تطلبون.

قال الزمخشري: أجمعوا رأيهم- لما غلبوا- بإهلاكه، وهكذا المبطل إذا قرعت

=

=

شبهته بالحجة وافتضح. لم يكن أحد أبغض إليه من المحق ولم يبق له مفزع إلا مناصبته العداء، كما فعلت قريش برسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة.

والذي أشار بإحراقه: نمروذ. وعن ابن عمر: رجل من أعراب العجم. واختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه، ولذلك جاء: «لا يعذب بالنار إلا خالقها» ا.هـ.

وقال ابن كثير: {حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين} فجمعوا حطبا كثيرا جدا -قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض، فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطبا لحريق إبراهيم-ثم جعلوه في جوبة من الأرض، وأضرموها نارا، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد قط نار مثلها، وجعلوا إبراهيم، عليه السلام، في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد -قال شعيب الجبائي: اسمه هيزن-فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوه قال: "حسبي الله ونعم الوكيل"، كما رواه البخاري، عن ابن عباس أنه قال: "حسبي الله ونعم الوكيل" قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قالوا: {إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل} [آل عمران: ١٧٣] ا.هـ

وقال البقاعي: وقد وقع مثل هذا لبعض أتباع نبينا -ﷺ-، وهو أبو مسلم الخولاني، طلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم! فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائما يصلي فيها وقد صارت عليه بردا وسلاما، وقدم المدينة بعد موت النبي -ﷺ- فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر -رضى الله عنهما- وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني من أمة محمد -ﷺ- من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله. ا.هـ

=

=

وقوله تعالى: قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلى إِبْراهِيمَ.. مسبوق بكلام محذوف يفهم من سياق القصة.

قوله تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ} [الأنبياء: ٦٩].

قال الطبري: في الكلام محذوف، تقديره:" فأوقدوا له نارا ليحرقوه ثم ألقوه فيها، فقلنا للنار: يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم".

قال السدي:" فحبسوه في بيت، وجمعوا له حطبا، حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول: لئن عافاني الله لأجمعنّ حطبا لإبراهيم، فلما جمعوا له، وأكثروا من الحطب حتى إن الطير لتمرّ بها فتحترق من شدة وهجها، فعمدوا إليه فرفعوه على رأس البنيان، فرفع إبراهيم ﷺ رأسه إلى السماء، فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة: ربنا، إبراهيم يحرق فيك، فقال: أنا أعلم به، وإن دعاكم فأغيثوه، وقال إبراهيم حين رفع رأسه إلى السماء: اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض ليس في الأرض أحد يعبدك غيري، حسبي الله ونعم الوكيل، فقذفوه في النار، فناداها فقال: {يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}، فكان جبريل عليه السلام هو الذي ناداها".

قال علي -رضي الله عنه-:"بردت عليه حتى كادت تقتله، حتى قيل: وسلاما، قال: لا تضرّيه".

عن أبي العالية، في قوله:" {قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}، قال: السلام لا يؤذيه بردها، ولولا أنه قال: وسلاما لكان البرد أشدّ عليه من الحرّ".

عن ابن جُرَيج، قوله:" {بَرْدًا}، قال: بردت عليه، {وَسَلاما}، لا تؤذيه".

قال ابن عباس:"لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من شدّة بردها، فلم يبق يومئذ نار في الأرض إلا طفئت، ظنت أنها هي تعنى، فلما طُفئت النار نظروا إلى إبراهيم، فإذا هو رجل آخر معه، وإذا رأس إبراهيم في

=

=

حجره يمسح عن وجهه العرق، وذكر أن ذلك الرجل هو ملك الظلّ، وأنزل الله نارا فانتفع بها بنو آدم، وأخرجوا إبراهيم، فأدخلوه على الملك، ولم يكن قبل ذلك دخل عليه".

عن قتادة، قوله:" {قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}، قال: ذُكر لنا أن كعبا كان يقول: ما انتفع بها يومئذ أحد من الناس، وكان كعب يقول: ما أحرقت النار يومئذ إلا وثاقه".

قال قتادة: "لم تأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ".

قال الزهري: "أمر النبي ﷺ بقتله، وسماه فُوَيسقا".

عن الفاكه بن المغيرة المخزومي، قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحا. فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: "إن إبراهيم حين ألقي في النار، لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار، غير الوَزَغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم"، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله".

قال سعيد:"لمَّا ألقي إبراهيم خليل الله ﷺ في النار، قال الملك خازن المطر: رب خليلك إبراهيم، رجا أن يؤذن له فيرسل المطر، قال: فكان أمر الله أسرع من ذلك فقال: {قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}، فلم يبق في الأرض نار إلا طُفئت".

قال أبو هريرة-رضي الله عنه-:" إن أحسن شيء قاله أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار، وجده يرشح جبينه، فقال عند ذلك: نعم الربّ ربك يا إبراهيم".

قال المنهال بن عمرو: "قال إبراهيم خليل الله: ما كنت أياما قطّ أنعم مني من الأيام التي كنت فيها في النار".

قال شعيب الجَبَسِي: "ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ستّ عشرة سنة، وذبح إسحاق وهو ابن سبع سنين، وولدته سارة وهي ابنة تسعين سنة، وكان مذبحه من

=

=

بيت إيلياء على ميلين، ولما علمت سارة بما أراد بإسحاق بُطِنت يومين، وماتت اليوم الثالث، قال ابن جُرَيج: قال كعب الأحبار: ما أحرقت النار من إبراهيم شيئا غير وثاقه الذي أوثقوه به".

عن معتمر بن سليمان التيمي، عن بعض أصحابه قال: "جاء جبريل إلى إبراهيم عليهما السلام وهو يوثق أو يقمَّط ليلقى في النار، قال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أمَّا إليك فلا".

عن أرقم: "أن إبراهيم قال حين جعلوا يوثقونه ليلقوه في النار: لا إله إلا أنت سبحانك ربّ العالمين، لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك".

والتقدير: وأحضر قوم إبراهيم الحطب، وأضرموا نيرانا عظيمة، وألقوا بإبراهيم فيها، فلما فعلوا ذلك، قلنا: يا نار كوني- بقدرتنا وأمرنا- ذات برد، وذات سلام على إبراهيم، فكانت كما أمرها الله تعالى، وصدق-سبحانه- إذ يقول: بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

وتحولت النار إلى برد وسلام على إبراهيم، وأراد الكافرون به كيدا، أى إحراقا بالنار «فجعلناهم» بإرادتنا وقدرتنا «الأخسرين» حيث لم يصلوا إلى ما يريدون، ولم يحققوا النصر لآلهتهم، بل رد الله تعالى كيدهم في نحورهم.

قال ابن كثير: قال سعيد بن جبير -ويروى عن ابن عباس أيضا-قال: لما ألقي إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله: ﷻ {يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم} قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفئت.

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحد يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه.

وقال الثوري، عن الأعمش، عن شيخ، عن علي بن أبي طالب: {قلنا يا نار كوني

=

=

بردا وسلاما على إبراهيم} [قال: بردت عليه حتى كادت تقتله، حتى قيل: {وسلاما}، قال: لا تضريه.

وقال ابن عباس، وأبو العالية: لولا أن الله ﷻ قال: {وسلاما} لآذى إبراهيم بردها...

وقال السدي: كان معه فيها ملك الظل....

وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ -وقال الزهري: أمر النبي ﷺ: بقتله وسماه فويسقا ا.هـ

وقال الشنقيطي: عن أبي العالية: لو لم يقل الله { وسلاما } لكان بردها أشد عليه من حرها. ولو لم يقل على " إبراهيم " لكان بردها باقيا إلى الأبد. وعن علي وابن عباس رضي الله عنهم لو لم يقل " وسلاما " لمات إبراهيم من بردها. وعن السدي: لم تبق في ذلك اليوم نار إلا طفئت. وعن كعب وقتادة: لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه. وعن المنهال بن عمرو: قال إبراهيم ما كنت أياما قط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار.

وعن شعيب الحماني: أنه ألقي في النار وهو ابن ست عشر سنة. وعن ابن جريج: ألقي فيها وهو ابن ست وعشرين. وعن الكلبي بردت نيران الأرض جميعا، فما أنضجت ذلك اليوم كراعا. وذكروا في القصة: أن نمروذ أشرف على النار من الصرح فرأى إبراهيم جالسا على السرير يؤنسه ملك الظل، فقال: نعم الرب ربك، لأقربن له أربعة آلاف بقرة وكف عنه. وكل هذا من الاسرائيليات. والمفسرون يذكرون كثيرا منها في هذه القصة وغيرها من قصص الأنبياء. ا.هـ

قال ابن عطية: وقد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم وذكروا تحديد مدة بقائه في النار وصورة بقائه ما رأيت اختصاره لقلة صحته، والصحيح من ذلك أنه ألقي في النار فجعلها الله تعالى عليه { بردا وسلاما } فخرج منها سالما وكانت أعظم آية.

=

=

ا.هـ

وقال الرازي: أما قوله تعالى: {قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم} ففيه مسائل:

المسألة الأولى:

قال أبو مسلم الأصفهاني في تفسير قوله تعالى: {قلنا يا نار كوني بردا} المعنى أنه سبحانه جعل النار بردا وسلاما، لا أن هناك كلاما كقوله: {أن يقول له كن فيكون} أي يكونه، وقد احتج عليه بأن النار جماد فلا يجوز خطابه، والأكثرون على أنه وجد ذلك القول.

ثم هؤلاء لهم قولان: أحدهما: وهو قول سدي: أن القائل هو جبريل عليه السلام.

والثاني: وهو قول الأكثرين أن القائل هو الله تعالى، وهذا هو الأليق الأقرب بالظاهر، وقوله: النار جماد فلا يكون في خطابها فائدة، قلنا: لم لا يجوز أن يكون المقصود من ذلك الأمر مصلحة عائدة إلى الملائكة.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن النار كيف بردت على ثلاثة أقوال: أحدها: أن الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والإحراق، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق والله على كل شيء قدير.

وثانيها: أن الله تعالى خلق في جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه، كما يفعل بخزنة جهنم في الآخرة، وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث في النار.

وثالثها: أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار إليه، قال المحققون: والأول أولى لأن ظاهر قوله: {يانار كوني بردا} أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها، لا أن النار بقيت كما كانت، فإن قيل: النار جسم موصوف بالحرارة واللطافة، فإذا كانت الحرارة جزء من مسمى النار امتنع

=

=

كون النار باردة، فإذا وجب أن يقال: المراد من النار الجسم الذي هو أحد أجزاء مسمى النار وذلك مجاز فلم كان مجازكم أولى من المجازين الآخرين ؟ قلنا: المجاز الذي ذكرناه يبقى معه حصول البرد وفي المجازين اللذين ذكرتموهما لا يبقى ذلك فكان مجازنا أولى.

أما قوله تعالى: {كوني بردا وسلاما على إبراهيم} فالمعنى أن البرد إذا أفرط أهلك كالحر بل لا بد من الإعتدال ثم في حصول الاعتدال ثلاثة أوجه: أحدها: أنه يقدر الله تعالى بردها بالمقدار الذي لا يؤثر.

وثانيها: أن بعض النار صار بردا وبقي بعضها على حرارته فتعادل الحر والبرد.

وثالثها: أنه تعالى جعل في جسمه مزيد حر فسلم من ذلك البرد بل قد انتفع به والتذ ثم ههنا سؤالات:

السؤال الأول: أو كل النار زالت وصارت بردا.

الجواب: أن النار هو اسم الماهية فلا بد وأن يحصل هذا البرد في الماهية ويلزم منه عمومه في كل أفراد الماهية، وقيل: بل اختص بتلك النار لأن الغرض إنما تعلق ببرد تلك النار وفي النار منافع للخلق فلا يجوز تعطيلها، والمراد خلاص إبراهيم عليه السلام لا إيصال الضرر إلى سائر الخلق.

السؤال الثاني: هل يجوز ما روي عن الحسن من أنه سلام من الله تعالى على إبراهيم عليه السلام.

الجواب الظاهر كما أنه جعل النار بردا جعلها سلاما عليه حتى يخلص، فالذي قاله يبعد وفيه تشتيت الكلام المرتب.

السؤال الثالث: أفيجوز ما روي من أنه لو لم يقل وسلاما لأتى البرد عليه.

والجواب: ذلك بعيد لأن برد النار لم يحصل منها وإنما حصل من جهة الله تعالى فهو القادر على الحر والبرد فلا يجوز أن يقال: كان البرد يعظم لولا قوله سلاما.

=

=

السؤال الرابع: أفيجوز ما قيل من أنه كان في النار أنعم عيشا منه في سائر أحواله.
والجواب: لا يمتنع ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه وكمالها، ويجوز أن يكون إنما صار أنعم عيشا هناك لعظم ما ناله من السرور بخلاصه من ذلك الأمر العظيم ولعظم شروره بظفره بأعدائه وبما أظهره من دين الله تعالى. ا.هـ
(فائدة): قال الآلوسي ما ملخصه: وأيا ما كان فهو آية عظيمة وقد يقع نظيرها لبعض صلحاء الأمة المحمدية كرامة لهم لمتابعتهم النبي الحبيب ﷺ، وما يشاهد من وقوعه لبعض المنتسبين إلى الرفاعي من الفسقة الذين الذين كادوا يكونون لكثرة فسقهم كفارا فقيل إنه باب من السحر المختلف في كفر فاعله وقتله فإن لهم أسماء مجهولة المعنى يتلونها عند دخول النار والضرب بالسلاح ولا يبعد أن تكون كفرا وإن كان معها ما لا كفر فيه، وقد ذكر بعضهم أنهم يقولون عند ذلك تلسف تلسف هيف هيف أعوذ بكلمات الله تعالى التامة من شر ما خلق أقسمت عليك يا أيتها النار أو أيها السلاح بحق حي حلي ونور سبحي ومحمد ﷺ أن لا تضري أو لا تضر غلام الطريقة، ولم يكن ذلك في زمن الشيخ الرفاعي قدس سره العزيز فقد كان أكثر الناس اتباعا للسنة وأشدهم تجنبا عن مظان البدعة وكان أصحابه سالكين مسلكه متشبثين بذيل اتباعه قدس سره ثم طرأ على بعض المنتسبين إليه ما طرأ، قال في "العبر": قد كثر الزغل في أصحاب الشيخ قدس سره وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التاتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات وهذا لا يعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه فنعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ا.هـ
قوله تعالى: {وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)} [الأنبياء: ٧٠]
قال الطبري:" وأرادوا بإبراهيم كيدا {فَجَعَلْنَاهُمُ} الهالكين".
قال ابن كثير:" أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبي الله كيدا، فكادهم الله
=

=

ونجاه من النار، فغلبوا هنالك".

قال السعدي:" حيث عزموا على إحراقه، {فجعلناهم الأخسرين} أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله وأتباعه، هم الرابحين المفلحين".

قال عطية العوفي: "لما أُلقِيَ إبراهيم في النار، جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه، فأحرقته مثل الصوفة".

قال ابن جريج:" ألقوا شيخا منهم في النار لأن يصيبوا نجاته، كما نجي إبراهيم ﷺ، فاحترق".

وقال-سبحانه- فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ بالإطلاق لتشمل خسارتهم كل خسارة سواء أكانت دنيوية أم أخروية.

ثم بين-سبحانه- نعما أخرى أنعم بها على إبراهيم فقال: وَنَجَّيْناهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ.

قوله تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)} [الأنبياء: ٧١]

قال الطبري: يقول: " ونجينا إبراهيم ولوطا من أعدائهما نمرود وقومه من أرض العراق [إلى] أرض الشأم، فارق صلوات الله عليه وقومه ودينهم وهاجر إلى الشأم، وهذه القصة التي قص، الله من نبأ إبراهيم وقومه تذكير منه بها قوم محمد ﷺ من قريش أنهم قد سلكوا في عبادتهم الأوثان، وأذاهم محمدا على نهيه عن عبادتها، ودعائهم إلى عبادة الله مخلصين له الدين، مسلك أعداء أبيهم إبراهيم، ومخالفتهم دينه، وأن محمدا في براءته من عبادتها وإخلاصه العبادة لله، وفي دعائهم إلى البراءة من الأصنام، وفي الصبر على ما يلقى منهم في ذلك سالك منهاج أبيه إبراهيم، وأنه مخرجه من بين أظهرهم كما أخرج إبراهيم من بين أظهر قومه حين تمادوا في غيهم إلى مهاجره من أرض الشأم، مسلٍّ بذلك نبيه محمدا

=

=

ﷺ عما يلقى من قومه من المكروه والأذى، ومعلمه أنه منجيه منهم كما نجى أباه إبراهيم من كفرة قومه".

وفي قوله تعالى: {إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ٧١]، ثلاثة أقوال:

أحدها: من أرض العراق إلى أرض الشام قاله أبيّ بن كعب، والحسن، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد.

قال السدي:" انطلق إبراهيم ولوط قبل الشأم، فلقي إبراهيم سارة، وهي بنت ملك حران، وقد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها على أن لا يغيرها".

قال ابن كثير:" رواه ابن جرير، وهو غريب، والمشهور أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجرًا من بلاده".

الثاني: إلى أرض بيت المقدس، قاله أبو العوام.

الثالث: إلى مكة، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:" يعني مكة ونزول إسماعيل البيت. ألا ترى أنه يقول: {إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين} ".

قال الطبري:" لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة وبنى بها البيت وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يقم بها، ولم يتخذها وطنا لنفسه، ولا لوط، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين".

قال أبو حيان: والأرض التي صار إليها هي أرض الشام وبركتها ما فيها من الخصب والأشجار والأنهار وبعث أكثر الأنبياء منها.

وقيل: مكة قاله ابن عباس، كما قال { إن أول بيت } الآية.

=

=

وقيل أرض مصر وبركتها نيلها وزكاة زروعها وعمارة مواضعها.

وفي بركتها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن منها بعث الله أكثر الأنبياء.

الثاني: لكثرة خصبها ونمو نباتها.

الثالث: عذوبة مائها وتفرقه في الأرض منها.

قال أبو العالية:" ليس ماء عذب إلا يهبط إلى الصخرة التي ببيت المقدس، ثم يتفرّق في الأرض".

قال كعب الأحبار:"والذي نفسي بيده إن العين التي بدارين لتخرج من تحت هذه الصخرة، يعني: عينًا في البحر".

قال ابن إسحاق: "خرج إبراهيم مهاجرا إلى ربه، وخرج معه لوط مهاجرا، وتزوج سارة ابنة عمه، فخرج بها معه يلتمس الفرار بدينه، والأمان على عبادة ربه، حتى نزل حرّان، فمكث فيها ما شاء الله أن يمكث، ثم خرج

منها مهاجرا حتى قدم مصر، ثم خرج من مصر إلى الشام، فنزل السبع من أرض فلسطين، وهي برّية الشام، ونزل لوط بالمؤتفكة، وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة، أو أقرب من ذلك، فبعثه الله نبيا ﷺ".

عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: " إنى رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادى فاتبعته بصرى فإذا هو نور ساطع فعمد به إلى الشام ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام".

عن ابن حوالة: أنه قال: قال رسول الله ﷺ : «سيصير الأمر إلى أن يكون جنود مجندة: جند بالشام، وجند باليمن، وجند بالعراق»، فقال ابن حوالة: خر لى يا رسول الله إن أدركت ذاك. قال: «عليك بالشام، فإنه خيرة الله فى أرضه يدتبى إليه خيرته، من عباده، فإن أبيتم فعليكم بيمنكم، واسقوا من غدركم فإن الله قد تكفل

=

=

لى بالشام وأهله».

عن قتادة وغيره: "أن عمر بن الخطاب قال لكعب ألا تتحول إلى المدينة فيها مهاجر رسول الله ﷺ وقبره فقال كعب يا أمير المؤمنين إنى وجدت فى كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله من أرضه فيها كنز من عباده".

وروي أن ابراهيم خرج مهاجرا إلى ربه ومعه لوط وكان ابن أخيه، فآمنت به سارة وهي ابنة عمه فأخرجها معه فارا بدينه، وفي هذه الخرجة لقي الجبار الذي رام أخذها منه فنزل حران ومكث زمانا بها.

وقيل: سارة ابنة ملك حران تزوجها إبراهيم وشرط عليه أبوها أن لا يغيرها، والصحيح أنها ابنة عمه هاران الأكبر، ثم قدم مصر ثم خرج منها إلى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة على مسيرة يوم وليلة من السبع أو أقرب فبعثه الله نبيا. ا.هـ

والضمير في قوله: وَنَجَّيْناهُ يعود إلى إبراهيم. و «لوطا» هو ابن أخيه، وقيل: ابن عمه.

فالمراد بالأرض التي باركنا فيها: أرض الشام على الصحيح وعدّى نَجَّيْناهُ بإلى، لتضمينه معنى أخرجناه.

أى: وأخرجناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها، بأن جعلناها مهبطا للوحى، ومبعثا للرسل لمدة طويلة، وبأن جعلناها كذلك عامرة بالخيرات وبالأموال وبالثمرات للأجيال المتعاقبة.

والآية الكريمة تشير إلى هجرة إبراهيم ومعه لوط- عليهما السلام من أرض العراق التي كانا يقيمان فيها، إلى أرض الشام، فرارا بدينهما. بعد أن أراد قوم إبراهيم أن يحرقوه بالنار، فأبطل الله تعالى كيدهم ومكرهم، ونجاه من شرهم.

وقد أشار-سبحانه- إلى ذلك في آيات أخرى منها قوله تعالى: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ

=

=

إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.. .

وقوله تعالى وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً.. بيان لنعمة أخرى من النعم التي أنعم الله-سبحانه- بها على إبراهيم.

قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً} [الأنبياء: ٧٢]، أي:" أعطينا إبراهيم - بعدما سأل ربه الولد - إسحاق وأعطيناه كذلك يعقوب نافلةً أي زيادة وفضلًا من غير سؤال".

قال الطبري: يقول:" ووهبنا لإبراهيم إسحاق ولدا ويعقوب ولد ولده، نافلة لك".

وفي معنى «النافلة»، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها بمعنى: الزيادة، والمراد بها: يعقوب خاصة، فكأنه سأل واحدا، فأعطي اثنين، وهذا مذهب ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، والفراء.

قال ابن عباس:" يقول: ووهبنا له إسحاق ولدا، ويعقوب ابن ابن نافلة".

قال ابن زيد:" سأل واحدا فقال: {رب هب لي من الصالحين}، فأعطاه واحدا، وزاده يعقوب، ويعقوب ولد ولده".

قال الفراء:" «النافلة»: ليعقوب خاصة، لأنه ولد الولد، كذلك بلغني".

قال ابن قتيبة:" دعا بإسحاق فاستجيب له، وزيد يعقوب نافلة. كأنه تطوع من الله وتفضل بلا دعاء، وإن كان كل بفضله".

قال الراغب:" هو ولد الولد، ويقال: نفلته كذا. أي: أعطيته نفلا، ونفله السلطان: أعطاه سلب قتيله نفلا. أي: تفضلا وتبرعا، والنوفل: الكثير العطاء، وانتفلت من كذا:

انتقيت منه".

الثاني: أن «النافلة» بمعنى: العطية، والمراد بها: إسحاق ويعقوب، وهذا مذهب

=

=

مجاهد، وعطاء.

الثالث: أن «النافلة» بمعنى: غنيمة، قاله أبو عبيدة، وأنشد قول لبيد بن ربيعة:

لله نافلة الأعزّ الأفضل

قال الطبري:" «النافلة»: الفضل من الشيء يصير إلى الرجل من أي شيء كان ذلك، وكلا ولديه إسحاق ويعقوب كان فضلا من الله تفضل به على إبراهيم، وهبة منه له، وجائز أن يكون عنى به أنه آتاهما إياه جميعا نافلة منه له، وأن يكون عنى أنه آتاه نافلة يعقوب، ولا برهان يدل على أي ذلك المراد من الكلام، فلا شيء أولى أن يقال في ذلك مما قال الله ووهب الله له لإبراهيم إسحاق ويعقوب نافلة".

قوله تعالى: {وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ} [الأنبياء: ٧٢]، أي:" وكلًا من إِبراهيم وإِسحاق ويعقوب جعلناه من أهل الخير والصلاح".

قال ابن كثير:" أي: الجميع أهل خير وصلاح".

والنافلة: الزيادة على الأصل. ولذا سميت صلاة السنن نافلة، لأنها زيادة على الصلوات المفروضة. وإسحاق هو ابن إبراهيم. ويعقوب هو ابن إسحاق.

فلفظ «نافلة» حال من يعقوب أى: ووهبنا لإبراهيم يعقوب حال كونه زيادة على إسحاق. وَكُلًّا من المذكورين وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب.

قال الماوردي: قوله تعالى: { ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة }

فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن النافلة الغنيمة، قال لبيد:

لله نافلة الأفضل.... الثاني: أن النافلة الابن، حكاه السدي.

الثالث: أنها الزيادة في العطاء. وفيما هو زيادة قولان:

أحدهما: أن يعقوب هو النافلة، لأنه دعا بالولد فزاده الله ولد الولد، قاله ابن عباس

=

=

وقتادة.

الثاني: أن إسحاق ويعقوب هما جميعا نافلة، لأنهما زيادة على ما تقدم من النعمة عليه، قاله مجاهد، وعطاء. ا.هـ

جَعَلْنا صالِحِينَ أى: جعلناهم أفرادا صالحين، بأن وفقناهم لما نحبه ونرضاه، وشرفناهم بالنبوة والرسالة.

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} [الأنبياء: ٧٣]، أي:" وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب قدوة للناس يدعونهم إلى عبادة الله وطاعته بإذنه تعالى".

قال السدي:" يعني: يدعون بأمرنا".

وقال قتادة: "جعلهم الله أئمة يقتدى بهم في أمر الله".

قال ابن كثير:" {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً}، أي: يقتدي بهم، {يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}، أي: يدعون إلى الله بإذنه".

قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ} [الأنبياء: ٧٣]، أي:" وأوحينا إليهم فِعْلَ الخيرات من العمل بشرائع الأنبياء".

قال الطبري: يقول: " وأوحينا فيما أوحينا أن افعلوا الخيرات".

قال أبو الليث:" يعني: أمرناهم بالأعمال الصالحة، ويقال: بالدعاء إلى الله ﷻ، أي قول لا إله إلا الله".

قال السمعاني:" معناه: العمل بالشرائع".

قال ابن عباس: شرائع النبوة".

قال الماتريدي:" دل قوله: {وأوحينا إليهم}، أنهم كانوا رسلا".

قوله تعالى: {وَإِقَامَ الصَّلَاةِ} [الأنبياء: ٧٣]، أي:" وإقام الصلاة على وجهها".

قال أبو الليث:" يعني: إتمام الصلاة".

قال السمعاني:" أي: المحافظة عليها".

=

=

قوله تعالى: {وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ} [الأنبياء: ٧٣]، أي:" وإعطاء الزكاة".

قال أبو الليث:" يعني: الزكاة المفروضة وصدقة التطوع".

قوله تعالى: {وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ} [الأنبياء: ٧٣]، أي:" وكانوا منقادين مطيعين لله وحده دون سواه".

قال الطبري:" يقول: كانوا لنا خاشعين، لا يستكبرون عن طاعتنا وعبادتنا".

قال أبو الليث:" يعني: مطيعين".

قال الماتريدي: أي:" عابدين له في كل وقت".

قال ابن كثير:" أي: فاعلين لما يأمرون الناس به ".

أى: وجعلنا هؤلاء المذكورين، أئمة في الخير، يهدون ويرشدون غيرهم إلى الدين الحق بسبب أمرنا لهم بذلك، وتكليفهم بتبليغ وحينا إلى الناس.

قال الزمخشري: قوله-سبحانه-: يَهْدُونَ بِأَمْرِنا فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله، فالهداية محتومة عليه، مأمور بها من جهة الله ليس له أن يخل بها، ويتثاقل عنها، وأول ذلك أن يهتدى بنفسه، لأن الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل» ا.هـ.

وقال الشنقيطي: { وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا }

الضمير في قوله { جعلناهم } يشمل كل المذكورين: إبراهيم، ولوطا وإسحاق، ويعقوب، كما جزم به أبو حيان في البحر المحيط، وهو الظاهر.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أن الله جعل إسحاق ويعقوب من الأئمة، أي جعلهم رؤساء في الدين يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات وقوله " بأمرنا " أي بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي، أو يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم، بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد.

وهذه الآية الكريمة تبين أن طلب إبراهيم الإمامة لذريته المذكور في سورة " البقرة

=

=

" أجابه الله فيه بالنسبة إلى بعض ذريته دون بعضها، وضابط ذلك: أن الظالمين من ذريته لا ينالون الإمامة بخلاف غيرهم. كإسحاق ويعقوب فإنهم ينالونها كما صرح به تعالى في قوله هنا { وجعلناهم أئمة }. وطلب إبراهيم هو المذكور في قوله تعالى: { وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين } [البقرة: ١٢٤]. فقوله: { ومن ذريتي } أي واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم في الخير. فأجابه الله بقوله { لا ينال عهدي الظالمين } أي لا ينال الظالمين عهدي بالإمامة. على الأصوب. ومفهوم قوله { الظالمين } أن غيرهم يناله عهده بالإمامة، كما صرح به هنا. وهذا التفصيل المذكور في ذرية إبراهيم أشار له تعالى في " الصافات " بقوله: { ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين } [الصافات: ١١٣] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { وأوحينا إليهم فعل الخيرات } [الأنبياء: ٧٣] أي أن يفعلوا الطاعات، ويأمروا الناس بفعلها. وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من جملة الخيرات، فهو من عطف الخاص على العام. ا.هـ

وقوله: وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ أى: وأوحينا إليهم أن يفعلوا الطاعات، وأن يأمروا الناس بفعلها، وأوحينا إليهم كذلك إِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ أى: أن يقيموا الصلاة وأن يؤدوا الزكاة وأن يأمروا غيرهم بذلك.

وعطف إقام الصلاة وإيتاء الزكاة على فعل الخيرات من باب عطف الخاص على العام.

للاهتمام به إذ الصلاة أفضل العبادات البدنية والزكاة أفضل العبادات المالية وَكانُوا لَنا عابِدِينَ لا لغيرنا، فهم لم يخطر ببالهم عبادة أحد سوانا، لأنهم من المصطفين الأخيار.

قال ابن عاشور: قوله تعالى: { وأوحينا إليهم فعل الخيرات } فذلك إقامة شرائع

=

=

الـدين بـين النـاس مـن العبـادات والمعـاملات. وقـد شـملها قولـه تعـالى { فعـل الخيرات }.

و{ فعـل الخيـرات } مـصدر مـضاف إلـى { الخيـرات }، ويتعـين أنـه مـضاف إلـى مفعوله لأن الخيـرات مفعولـة وليست فاعلـة فالمصدر هنـا بمنزلـة الفعـل المبنـي للمجهول لأن المقصود هو مفعوله، وأما الفاعل فتبع له، أي أن يفعلوا هم ويفعـل قـومهم الخيـرات، حتـى تكـون الخيـرات مفعولـة للنـاس كلهـم، فحـذف الفاعـل للتعميم مع الاختصار لاقتضاء المفعول إياه.

واعتبار المصدر مصدرا لفعل مبني للنائب جائز إذا قامت القرينـة. وهـذا مـا يـؤذن به صنيع الزمخشري.

على أن الأخفش أجازه بدون شرط.

ويجوز أن يكون { فعل الخيرات } هو الموحى به، أي وأوحينا إليهم هذا الكلام، فيكـون المـصدر قائمـا مقـام الفعـل مـرادا بـه الطلـب، والتقـدير: افعلـوا الخيـرات، كقوله تعالى: { فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب } [محمد: ٤].

وتخصيص { إقام الصلاة وإيتاء الزكاة } بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما تنويـه بـشأنهما لأن بالـصلاة صـلاح الـنفس إذ الـصلاة تنهـى عـن الفحـشاء والمنكـر، وبالزكاة صلاح المجتمع لكفاية عوز المعوزين.

وهذا إشارة إلى أصل الحنيفية التي أرسل بها إبراهيم عليه السلام.

ومعنى الوحي بفعل الخيرات وإقـام الـصلاة وإيتـاء الزكـاة أنـه أوحـي إلـيهم الأمـر بذلك كما هو بين.

ثم خصهم بذكر ما كانوا متميزين به على بقية النـاس مـن ملازمـة العبـادة لله تعـالى كمـا دل عليـه فعـل الكـون المفيـد تمكـن الوصـف، ودلـت عليـه الإشـارة بتقـديم المجرور إلى أنهم أفردوا الله بالعبادة فلم يعبدوا غيره قط كما تقتضيه رتبـة النبـوءة

=

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤).

{وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا} فَصْلًا بَيْن الْخُصُوم {وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَة الَّتِي كَانَتْ تَعْمَل} أَيْ أَهْلهَا الْأَعْمَال {الْخَبَائِث} مِنْ اللِّوَاط وَالرَّمْي بِالْبُنْدُقِ وَاللَّعِب بِالطُّيُورِ وَغَيْر ذَلِكَ {إنَّهُمْ كَانُوا قَوْم سوء} مصدر ساءه نقيض سره {فاسقين}.

وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥).

{وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتنَا} بِأَنْ أَنْجَيْنَاهُ مِنْ قَوْمه {إنه من الصالحين}[1].

=

من العصمة عن عبادة غير الله من وقت التكليف كما قال يوسف: { ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء } [يوسف: ٣٨] وقال تعالى في الثناء على إبراهيم: { وما كان من المشركين } [البقرة: ١٣٥].

(١) اعلم أنه سبحانه بعد بيان ما أنعم به على إبراهيم عليه السلام أتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام لما جمع بينهما من قبل.

قوله تعالى: {وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} [الأنبياء: ٧٤]، أي:" وآتينا لوطًا النبوة وفصل القضاء بين الخصوم وعلمًا بأمر الله ودينه".

قال يحيى:" النبوة فيها الحكم والعلم".

قال الطبري: يقول:" وآتينا لوطا حكما، وهو فصل القضاء بين الخصوم، وآتيناه أيضا علما بأمر دينه، وما يجب عليه لله من فرائضه".

قوله تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ} [الأنبياء: ٧٤]، أي:" ونجيناه من قريته «سدوم» التي كان يعمل أهلها الخبائث".

قال الطبري: يقول: ونجيناه من عذابنا الذي أحللناه بأهل القرية التي كانت تعمل

=

=

الخبائث، وهي قرية سدوم التي كان لوط بعث إلى أهلها، وكانت الخبائث التي يعملونها: إتيان الذكران في أدبارهم، وخذفهم الناس، وتضارطهم في أنديتهم، مع أشياء أخر كانوا يعملونها من المنكر، فأخرجه الله حين أراد إهلاكهم إلى الشام".

قال يحيى:" يعني: أن أهلها كانوا يعملون الخبائث، وكانوا مما يعملون إتيانهم الرجال في أدبارهم".

قال السمعاني:" القرية: هي سدوم، وأما الخبائث قيل: إتيانهم الذكور، ويقال هو: التضارط في الأندية".

قال السدي:" أخرجهم الله، يعني لوطا وابنتيه زيثا وزعرثا إلى الشام حين أراد إهلاك قومه".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ} [الأنبياء: ٧٤]، أي:" إنهم كانوا بسبب الخبائث والمنكرات التي يأتونها أهل سوء وقُبْح، خارجين عن طاعة الله".

قال يحيى:" يعني: مشركين، والشرك أعظم الفسق".

قال الطبري: يعني:" مخالفين أمر الله، خارجين عن طاعته وما يرضى من العمل".

قال أبو حيان: ولما ذكر تعالى ما أنعم على إبراهيم ما أنعم به على من هاجر معه فارًّا بدينه وهو لوط ابن أخيه وانتصب { ولوطًا } على الاشتغال والحكم الذي أوتيه النبوة. وقيل: حسن الفصل بين الخصوم في القضاء. وقيل: حفظ صحف إبراهيم، ولما ذكر الحكم ذكر ما يكون به وهو العلم ا.هـ

وقوله تعالى: وَلُوطًا منصوب بفعل مضمر يفسره المذكور بعده وهو آتَيْناهُ.

أى: وآتيناه لوطا- عليه السلام حُكْمًا أى: نبوة، أو حكمة تهديه إلى ما يجب فعله أو تركه و «علما» أى: علما كثيرا لما ينبغي علمه وفهمه.

قال ابن الجوزي: قال الزجاج: انتصب "لوط" بفعل مضمر، لأن قبله فعلًا،

=

=

فالمعنى: وأوحينا إليهم وآتينا لوطًا.

وذكر بعض النحويين: أنه منصوب على "واذكر لوطًا"، وهذا جائز، لأن ذِكْر إبراهيم قد جرى، فحُمل لوط على معنى: واذكر. ا.هـ

وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ والمراد بالقرية: قرية سدوم التي أرسل الله تعالى لوطا لأهلها.

والأعمال الخبيثة التي كانوا يعملونها على رأسها الإشراك بالله تعالى وفاحشة اللواط التي اشتهروا بها دون أن يسبقهم إليها أحد. كما قال تعالى: وَلُوطًا إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ، وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ، الْمُنْكَرَ، فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ...

أي: ونجينا لوطا بفضلنا ورحمتنا من العذاب الذي حل بأهل قريته الذين كانوا يعملون الأعمال الخبائث، كالشرك بالله تعالى واللواط، وقطعهم الطريق، وارتكابهم المنكر في مجالسهم.

وقوله تعالى: إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ تعليل لنجاة لوط- عليه السلام مما حل بهم.

أي: جعلنا هذه القرية عاليها سافلها، ونجينا لوطا ومن آمن معه من العذاب الذي حل بسكانها إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ أي: أصحاب عمل سيئ فاسِقِينَ أي: خارجين عن طاعتنا.

قوله تعالى: {وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا} [الأنبياء: ٧٥]، أي:" وأتمَّ الله عليه النعمة فأدخله في رحمته بإنجائه ممَّا حلَّ بقومه".

قال مقاتل:" يعني نعمتنا وهي النبوة كقوله- عز وجل-: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} [الزخرف: ٥٩]، بالنبوة".

قال الطبري: يقول:" وأدخلنا لوطا في رحمتنا بإنجائنا إياه ما أحللنا بقومه من

=

=

العذاب والبلاء وإنقاذناه منه".

قال يحيى:" يعني: لوطا، ورحمتنا هاهنا: الجنة".

قال أبو الليث:" يعني: أكرمنا لوطا عليه السلام في الدنيا بطاعتنا وفي الآخرة بالجنة".

قال المراغي: أي:" وجعلناه فى جملة من يستحقون رحمتنا ولطفنا، بإدخاله جنتنا".

وفى الحديث الصحيح: «قال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء من عبادى».

روي عن ابن زيد، قوله: " {وأدخلناه في رحمت}، قال: في الإسلام".

قوله تعالى: {إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} [الأنبياء: ٧٥]، أي:"إنه كان من الذين يعملون بطاعة الله".

قال الطبري:" يقول: إن لوطا من الذين كانوا يعملون بطاعتنا، وينتهون إلى أمرنا ونهينا ولا يعصوننا".

قال أبو الليث:" أي: من المرسلين".

قال يحيى:" الصالحون أهل الجنة".

قال الرازي: وههنا مسألتان:

المسألة الأولى: في الواو في قوله: {وَلُوطًا} قولان: أحدهما: وهو قول الزجاج أنه عطف على قوله: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ} [الأنبياء: ٧٣].

والثاني: قول أبي مسلم أنه **عطف** على قوله: {آتينا إبراهيم رُشْدَهُ} [الأنبياء: ٥١] ولا بد من ضمير في قوله: {وَلُوطًا} فكأنه قال وآتينا لوطًا فأضمر ذكره.

المسألة الثانية: في أصناف النعم وهي أربعة وجوه: أحدها: الحكم أي الحكمة وهي التي يجب فعلها أو الفصل بين الخصوم وقيل هي النبوة.

وثانيها: العلم، واعلم أن إدخال التنوين عليهما يدل على علو شأن ذلك العلم

=

=

وذلك الحكم.

وثالثها: قوله: {ونجيناه مِنَ القرية التي كَانَت تَّعْمَلُ الخبائث} والمراد أهل القرية لأنهم هم الذين يعملون الخبائث دون نفس القرية ولأن الهلاك بهم نزل فنجاه الله تعالى من ذلك، ثم بين سبحانه وتعالى بقوله: {إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فاسقين} ما أراده بالخبائث، وأمرهم فيما كانوا يقدمون عليه ظاهر.

ورابعها: قوله: {وأدخلناه فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصالحين} وفي تفسير الرحمة قولان: الأول: أنه النبوة أي أنه لما كان صالحًا للنبوة أدخله الله في رحمته لكي يقوم بحقها عن مقاتل.

الثاني: أنه الثواب عن ابن عباس والضحاك، ويحتمل أن يقال: إنه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جلساء السوء فتحت عليه أبواب المكاشفات وتجلت له أنوار الإلهية وهي بحر لا ساحل له وهي الرحمة في الحقيقة.

وقال القرطبي: { وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَآ } في النبوّة. وقيل: في الإسلام. وقيل: الجنة. وقيل: عنى بالرحمة إنجاءه من قومه.

وقال الشنقيطي: قال القرطبي في تفسير هذه الآية: الحكم: النبوة. والعلم: المعرفة بأمر الدين، وما يقع به الحكم بين الخصوم. وقيل: علمًا فهمًا. وقال الزمخشري: حكمًا: حكمة، وهو ما يجب فعله، أو فصلًا بين الخصوم، وقيل: هو النبوة.

قال مقيده عفا الله عنه: أصل الحكم في اللغة: المنع كما هو معروف. فمعنى الآيات: أن الله آتاه من النبوة والعلم ما يمنع أقواله وأفعاله من أن يعتريها الخلل. والقرية التي كانت تعمل الخبائث: هي سدوم وأعمالها، والخبائث التي كانت تعملها جاءت موضحة في آيات من كتاب الله: منها اللواط، وأنهم هم أول من فعله من الناس، كما قال تعالى { أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين } [الأعراف: ٨٠]، وقال: { أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ

=

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦).

{وَ} اُذْكُرْ {نُوحًا} وَمَا بَعْده بَدَل مِنْهُ {إِذْ نَادَى} دَعَا عَلَى قَوْمه بِقَوْلِهِ {رَبّ لَا تَذَر} إلَخْ {مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل إبْرَاهِيم وَلُوط {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ} الَّذِينَ فِي سَفِينَته {مِنْ الْكَرْب الْعَظِيم} أَيْ الْغَرَق وَتَكْذِيب قَوْمه لَهُ.

وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ

=

رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ } [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. ومن الخبائث المذكورة إتيانهم المنكر في ناديهم، وقطعهم الطريق، كما قال تعالى: { أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال وَتَقْطَعُونَ السبيل وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر } [العنكبوت: ٢٩] الآية. ومن أعظم خبائثهم: تكذيب نبي الله لوط وتهديدهم له بالإخراج من الوطن. كما قال تعالى عنهم: { قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالوط لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين } [الشعراء: ١٦٧]، وقال تعالى: { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [النمل: ٥٦] إلى غير ذلك من الآيات. وقد بين الله في مواضع متعددة من كتابه: أنه أهلكهم فقلب بهم بلدهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، كما قال تعالى: { فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ } [الحجر: ٧٤] والآيات بنحو ذلك كثيرة. والخبائث: جمع خبيثة، وهي الفعلة السيئة كالكفر واللواط وما جرى مجرى ذلك.

وقوله { قَوْمَ سَوْءٍ } أي أصحاب عمل سيئ، ولهم عند الله جزاء يسوءهم: وقوله: { فَاسِقِينَ } أي خارجين عن طاعة الله. وقوله { وَأَدْخَلْنَاهُ } يعني لوطًا { فِي رَحْمَتِنَآ } شامل لنجاته من عذابهم الذي أصابهم، وشامل لإدخاله إياه في رحمته التي هي الجنة، كما في الحديث الصحيح: " تحاجَّت النَّار والجنة " الحديث. وفيه: " فقال للجنة أنت رَحْمَتي أرحم بها من أَشَاء من عبَادي ".

(٧٧).

{وَنَصَرْنَاهُ} مَنَعْنَاهُ {مِنْ الْقَوْم الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} الدَّالَّة عَلَى رِسَالَته أَنْ لَا يَصِلُوا إلَيْهِ بسوء {إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ} [الأنبياء: ٧٦]، أي:" واذكر - أيها الرسول - نوحا حين نادى ربه مِن قبلك ومِن قبل إبراهيم ولوط".

قال الطبري:" واذكر يا محمد نوحا إذ نادى ربه من قبلك، ومن قبل إبراهيم ولوط، وسألنا أن نهلك قومه الذين كذبوا الله فيما توعدهم به من وعيده، وكذبوا نوحا فيما أتاهم به من الحق من عند ربه:{قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نوح: ٢٦] ".

قال أبو الليث:" يعني: واذكر نوحا عليه السلام إذ دعا على قومه من قبل إبراهيم وإسحاق عليهما السلام".

قال مقاتل:" وكان نداؤه حين قال: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ} [القمر: ١٠] ".

قوله تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ} [الأنبياء: ٧٦]، أي:" فاستجبنا له دعاءه".

قوله تعالى: {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} [الأنبياء: ٧٦]، أي:" فنجيناه وأهله المؤمنين به من الغم الشديد".

قال الطبري:"يعني: بـ «أهل»: أهل الإيمان من ولده وحلائلهم، يعني بـ «الكرب العظيم»: العذاب الذي أحل بالمكذبين من الطوفان والغرق، والكرب: شدة الغم".

قال مقاتل:" يعني: الهول الشديد، يعني: الغرق".

قال الماتريدي:" قال عامة أهل التأويل: {من الكرب العظيم} هو الغرق والهول الشديد الذي كان به، وجائز أن يكون {من الكرب العظيم}: هو ما قاسى من قومه ولقي منهم بدعائه إياهم إلى دين الله في تسعمائة وخمسين عاما، وما كانوا =

=

يسخرون به ويؤذونه من أنواع الأذى؛ كقوله: (إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم)، ونحو ذلك من الأذى الذي قاساه منهم، فأنجاه من ذلك الكرب، والله أعلم".

قال ابن كثير:" {وَأَهْلَهُ}، أي: الذين آمنوا به كما قال: {وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ} [هود: ٤٠]، قوله: {مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله ﷻ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يقصدون لأذاه ويتواصون قرنًا بعد قرن، وجيلا بعد جيل على خلافه".

قال الجصاص:" سمى أتباعه في دينه: «أهله» ".

قال أبو حيان: لمّا ذكر تعالى قصة إبراهيم، وهو أبو العرب، وتنجيته من أعدائه، ذكر قصة أبي العالم الأنسي كلهم، وهو الأب الثاني لآدم؛ لأنه ليس أحد إلّا من نسله، من سام وحام ويافث ا.هـ

أي: واذكر - أيضا- أيها المخاطب عبدنا «نوحا» عليه السلام إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ أى: حين نادانا واستجار بنا من قبل زمان إبراهيم ومن جاء بعده من الأنبياء.

وهذا النداء الذي نادى به نوح ربه، قد جاء ذكره في آيات منها قوله تعالى: وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وقوله-سبحانه-: وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّارًا.

فَاسْتَجَبْنا لَهُ أى: أجبنا له دعاءه، ولم نخيب له رجاء فينا.

فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ الذين آمنوا به وصدقوه مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ أى: من الطوفان العظيم الذي أغرق الكافرين، والذي كانت أمواجه كالجبال.

وأصل الكرب: الغم الشديد. يقال: فلان كربه هذا الأمر، إذا ضايقه وجعله في أقصى درجات الهم والخوف.

قال الآلوسى: «وكأنه على ما قيل من كرب الأرض، وهو قلبها بالحفر. إذ الغم

=

=

يثير النفس إثارة ذلك، أو من كربت الشمس إذا دنت للمغيب، فإن الغم الشديد، تكاد شمس الروح تغرب منه.. وفي وصفه بالعظيم تأكيد لشدته» ا.هـ.

قوله تعالى: {وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأنبياء: ٧٧]، أي:" ونصرناه مِن كيد القوم الذين كذَّبوا بآياتنا الدالة على صدقه".

قال الطبري:" يقول: ونصرنا نوحا على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا، فأنجيناه منهم".

قال السمعاني:" أي: منعناه وحفظناه".

قال البغوي: أي: " منعناه، {من القوم الذين كذبوا بآياتنا} أن يصلوا إليه بسوء".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ} [الأنبياء: ٧٧]، أي:" إنهم كانوا أهل قُبْح".

قال أبو الليث:" يعني: كفارا".

قوله تعالى: {فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنبياء: ٧٧]، أي:" فأغرقناهم بالطوفان أجمعين".

قال الطبري: يقول:" إن قوم نوح الذين كذبوا بآياتنا كانوا قوم سوء، يسيئون الأعمال، فيعصون الله ويخالفون أمره".

قال أبو الليث:" يعني: الصغير والكبير فلم يبق منهم أحد إلا هلك بالطوفان".

قال ابن كثير:" أي: أهلكهم الله بعامة، ولم يُبْقِ على وجه الأرض منهم أحدًا؛ إذ دعا عليهم نبيهم".

(وَنَصَرْنَاهُ) بفضلنا وإحساننا (مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا. وعلى أن نوحا رسولا من رسلنا.

وقد فسر بعض العلماء [من] بـ[على]؛ لأن [نصر] إنما يعدى بـ[على]، وهذا أحد الأقوال في تفسير هذه الآية، وهو قول الجوهري، والثعالبي.

قال ابن قتيبة: (قال الله تعالى: {ونصرناه من القوم} [الأنبياء:٧٧]، أي: على

=

=

القوم).

والقـول الثـاني: أن [مـن] علـى معناهـا الأصـلي، وقولـه تعـالى: {ونـصرناه} [الأنبياء:٧٧] مضمن معنى آخر، وهو قول النسفي، وابن كثير.

قال ابن تيمية: (قوله: {ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا} [الأنبياء:٧٧]، ضمن معنى: نجيناه وخلصناه، وكذلك قوله: {يشرب بها عباد الله} [الإنسان:٦]، ضمن: يروى بها، ونظائره كثيرة).

وكلا القولين صحيح؛ لأن الجميع قالوا بالتضمين في الآية، فأصحاب القول الأول ضمنوا [من] معنى [على]، وأصحاب القول الثاني ضمنوا [النصر] معنى يناسب تعديته بـ[من] كالإنجاء والتخليص ونحوها، وليس أحد التضمينين بأولى من الآخر.

ولذا لم أجد من جزم بترجيح أحد القولين، بل جمع الطبري بينهما حيث قال: (يقول: ونصرنا نوحا على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا، فأنجيناه منهم، فأغرقناهم أجمعين).

والذي عليه أكثر المفسرين وغيرهم: ذكر القولين دون ميل لأحدهما مما يدل على تساويهما.

قال السمرقندي: ({ونصرناه من القوم} [الأنبياء:٧٧]، أي: على القوم الذين كذبوا بآياتنا، يعني: كذبوا نوحا بما أنذرهم من الغرق، ويقال: نصرناه من القوم، أي: نجيناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا).

وقال ابن الجوزي: (قوله تعالى: {ونصرناه من القوم} [الأنبياء:٧٧]، أي: منعناه منهم أن يصلوا إليه بسوء، وقيل [من] بمعنى [على]).

وقال الزركشي: ({ونصرناه من القوم} [الأنبياء:٧٧]، أي: على القوم، وقيل: على التضمين، أي: منعناه منهم بالنصر).

=

=

وحكى الآلوسي قولا يؤيد ما ذكرت وهو: (أن النصر يتعدى بـ[على]، و [من]؛ ففي الأساس نصره الله تعالى على عدوه، ونصره من عدوه، وفرق بينهما: بأن المتعدي بـ[على]: يدل على مجرد الإعانة، والمتعدي بـ[من]: يدل على استتباع ذلك للانتقام من العدو والانتصار).

وقال الزمخشري: (هو نصر الذي مطاوعه انتصر).

وبهذا يتبين أن لا خلاف في الآية بين القولين؛ بل كل ما ذكر فيها يصح تفسيرها به، ... ومن قواعد التفسير: أنه إذا احتمل لفظ الآية معاني عدة ولم يمتنع إرادة الجميع حمل عليها. والله أعلم.

والمراد بهؤلاء القوم: قومه الذين لبث نوح فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما. يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله. فلم يؤمن به إلا قليل منهم.

إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ أى: إنهم كانوا قوما يعملون أعمال السوء والقبح فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ بسبب إصرارهم على الكفر والعصيان، ولم ننج منهم إلا من اتبع نوحا عليه السلام.

قال ابن عاشور: لما ذكر أشهر الرسل بمناسبات أعقب بذكر أول الرسل.

وعطف { ونوحًا } على { لوطًا } [الأنبياء: ٧٤]، أي آتينا نوحًا حُكمًا وعلمًا، فحذف المفعول الثاني ل { آتينا } [الأنبياء: ٧٤] لدلالة ما قبله عليه، أي آتيناه النبوءة حين نادى، أي نادانا.

ومعنى { نادى } دعا ربه أن ينصره على المكذبين من قومه بدليل قوله { فاستجبنا له ونجيناه وأهله من الكرب العظيم }.

وبناء { قبلُ } على الضمّ يدل على مضاف إليه مقدر، أي من قبل هؤلاء، أي قبل الأنبياء المذكورين.

وفائدة ذكر هذه القبلية التنبيه على أن نصر الله أولياءه سنّتُه المرادة له تعريضًا

=

=

بالتهديد للمشركين المعاندين ليتذكروا أنه لم تشذ عن نصر الله رسلَه شاذّة ولا فاذّة.

وأهل نوح: أهل بيْتِه عدا أحد بنيه الذي كفر به.

وقال أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن: الأهل: اسم يقع على الزوجة، وعلى جميع من يشتمل عليه منزله، وعلى أتباع الرجل وأشياعه ، قال الله تعالى: (إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك) العنكبوت/ ٣٣، فكان ذلك على جميع أهل منزله من أولاده وغيرهم ، وقال: (فنجيناه وأهله أجمعين) الشعراء/ ١٧٠، ويقع على من اتبعه في دينه كقوله: (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) الأنبياء/ ٧٦، فسمى أتباعه في دينه أهله ؛ وقال في ابنه: (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) هود/ ٤٦، فاسم الأهل يقع على معاني مختلفة.

وقال الحافظ ابن كثير: (وأهله) أي: الذين آمنوا به كما قال: (وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) هود/ ٤٠".

وقال الشنقيطي: قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: (فنجيناه وأهله) يعني إلا من سبق عليه القول من أهله بالهلاك مع الكفرة الهالكين، كما قال تعالى: (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول)، ومن سبق عليه القول منهم: ابنه المذكور في قوله: (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين)، وامرأته المذكورة في قوله: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح) إلى قوله: (ادخلا النار مع الداخلين) " انتهى.

والكرب العظيم: هو الطوفان.

والكَرب: شدّة حزن النفس بسبب خوف أو حزن.

ووجه كون الطوفان كربًا عظيمًا أنه يهول الناس عند ابتدائه وعند مَدّه ولا يزال لاحقًا بمواقع هروبهم حتى يعمهم فيبقَوا زمنًا يذوقون آلام الخوف فالغرق وهم

=

وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨).

{وَ} اذْكُر {دَاوُد وَسُلَيْمَان} أَيْ قِصَّتهمَا وَيُبْدَل مِنْهُمَا {إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْث} هُوَ زَرْع أَوْ كَرْم {إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَم الْقَوْم} أَيْ رَعَتْهُ لَيْلًا بِلَا رَاعٍ بِأَنْ انْفَلَتَتْ {وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} فِيهِ اسْتِعْمَال ضَمِير الْجَمْع لِاثْنَيْنِ قَالَ دَاوُد

=

يغرقون ويَطفَوْن حتى يموتوا بانحباس التنفس؛ وفي ذلك كله كرب متكرر، فلذلك وصف بالعظيم.

وعدي { نصرناه } بحرف (من) لتضمينه معنى المنع والحماية، كما في قوله تعالى: { إنكم منا لا تنصرون } [المؤمنون: ٦٥]، وهو أبلغ من تعديته بـ (علَى) لأنه يدل على نصر قوي تحصل به المَنعَةُ والحماية فلا يناله العدوّ بشيء. وأما نصره عليه فلا يدل إلا على المدافعة والمعونة. ووصف القوم بالموصول للإيماء إلى علة الغرق الذي سيذكر بعد.

و { أجمعين } حال من ضمير النصب في { أغرقناهم } لإفادة أنه لم ينج من الغرق أحد من القوم ولو كان قريبًا من نوح فإن الله قد أغرق ابن نوح.

وهذا تهديد لقريش لئلا يتكلوا على قرابتهم بمحمد ﷺ كما رُوي أنه لما قرأ على عتبة بن ربيعة [سورة فصّلت: ١٣] حتى بلغ { فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود } فزع عتبة وقال له: ناشدْتُك الرّحمَ.

وجملة { إنهم كانوا قوم سوء } علة لنصر نوح عليه السلام لأن نصره يتضمن إضرار القوم المنصور عليهم. والسّوء بفتح السين تقدم آنفًا.

وإضافة قوم إلى السوء إشارة إلى أنهم عرفوا به.

والمراد به الكفر والتكبر والعناد والاستسخار برسولهم.

لِصَاحِبِ الْحَرْث رِقَاب الْغَنَم وَقَالَ سُلَيْمَان يَنْتَفِع بِدَرِّهَا وَنَسْلهَا وَصُوفهَا إلَى أَنْ يَعُود الْحَرْث كَمَا كَانَ بِإِصْلَاحِ صَاحِبهَا فيردها إليه.

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩).

{فَفَهَّمْنَاهَا} أَيْ الْحُكُومَة {سُلَيْمَان} وَحُكْمهمَا بِاجْتِهَادٍ وَرَجَعَ دَاوُد إلَى سُلَيْمَان وَقِيلَ بِوَحْيٍ وَالثَّانِي نَاسِخ للأول {وكلا} منهما {آتينا} هـ {حُكْمًا} نُبُوَّة {وَعِلْمًا} بِأُمُورِ الدِّين {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُد الْجِبَال يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْر} كَذَلِكَ سُخِّرَا لِلتَّسْبِيحِ مَعَهُ لِأَمْرِهِ بِهِ إذَا وَجَدَ فَتْرَة لِيَنْشَط لَهُ {وَكُنَّا فَاعِلِينَ} تَسْخِير تَسْبِيحهمَا مَعَهُ وَإِنْ كَانَ عَجَبًا عِنْدكُمْ أَيْ مُجَاوَبَته لِلسَّيِّدِ دَاوُد.

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠).

{وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَة لَبُوس} وَهِيَ الدِّرْع لِأَنَّهَا تُلْبَس وَهُوَ أَوَّل مَنْ صَنَعَهَا وَكَانَ قَبْلهَا صَفَائِح {لكم} في جملة الناس} لنحصنكم} بِالنُّونِ لِلَّهِ وَبِالتَّحْتَانِيَّة لِدَاوُد وبِالْفَوْقَانِيَّةِ لِلَّبُوسِ {مِنْ بَأْسكُمْ} حَرْبكُمْ مَعَ أَعْدَائِكُمْ {فَهَلْ أَنْتُمْ} يَا أَهْل مَكَّة {شَاكِرُونَ} نِعَمِي بِتَصْدِيقِ الرَّسُول أَيْ اشكروني بذلك.

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١).

{و} سخرنا {لِسُلَيْمَان الرِّيح عَاصِفَة} وَفِي آيَة أُخْرَى رَخَاء أَيْ شَدِيدَة الْهُبُوب وَخَفِيفَته حَسَب إرَادَته {تَجْرِي بِأَمْرِهِ إلَى الْأَرْض الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} وَهِيَ الشَّام {وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْء عَالِمِينَ} مِنْ ذَلِكَ عَلِمَ الله تَعَالَى بِأَنَّ مَا يُعْطِيهِ سُلَيْمَان يَدْعُوهُ إلَى الْخُضُوع لِرَبِّهِ فَفَعَلَهُ تَعَالَى عَلَى مقتضى علمه.

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ

(٨٢).

{و} سخرنا {مِنْ الشَّيَاطِين مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ} يَدْخُلُونَ فِي الْبَحْر فَيُخْرِجُونَ مِنْهُ الْجَوَاهِر لِسُلَيْمَان {وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُون ذَلِكَ} أَيْ سِوَى الْغَوْص مِنْ الْبِنَاء وَغَيْره {وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} مِنْ أَنْ يُفْسِدُوا مَا عَمِلُوا لِأَنَّهُمْ كَانُوا إذَا فَرَغُوا مِنْ عَمَل قَبْل اللَّيْل أَفْسَدُوهُ إنْ لَمْ يَشْتَغِلُوا بغيره[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ} [الأنبياء: ٧٨]، أي:" واذكر قصة داود وسليمان حين يحكمان في شأن الزرع".

وفي نوع الحرث، قولان:

أحدهما: أنه كان عنبا، قاله ابن مسعود، ومسروق، وشريح.

قال ابن مسعود:" كرم قد أنبت عناقيده".

الثاني: كان زرعا، قاله قتادة.

قال قتادة:" ذكر لنا أن غنم القوم وقعت في زرع ليلا".

قال مرة:" كان الحرث نبتا".

قال الطبري:"الحرث: إنما هو حرث الأرض، وجائز أن يكون ذلك كان زرعا، وجائز أن يكون غرسا، وغير ضائر الجهل بأي ذلك كان".

قوله تعالى: {إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ} [الأنبياء: ٧٨]، أي:" وقت رعت فيه غنم القوم ليلًا فأفسدته".

قال الطبري:" يقول: حين دخلت في هذا الحرث غنم القوم الآخرين من غير أهل الحرث ليلا فرعته أو أفسدته".

عن ابن عباس، قوله: " {إذ نفشت فيه غنم القوم}، قال: رعت".

قال ابن إسحاق:" النفش: الرعية تحت الليل".

قال قتادة:" النفش بالليل، والهمل بالنهار".

=

=

قوله تعالى: {وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} [الأنبياء: ٧٨]، أي:" وكنا مطَّلعين على حكم كلٍ منهما عالمين به".

قال الطبري:" يقول: وكنا لحكم داود وسليمان والقوم الذين حكما بينهم فيما أفسدت غنم أهل الغنم من حرث أهل الحرث، شاهدين لا يخفى علينا منه شيء، ولا يغيب عنا علمه".

قال ابن عباس:" يقول: كنا لما حكما شاهدين، وذلك أن رجلين دخلا على داود، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا أرسل غنمه في حرثي، فلم يبق من حرثي شيئا، فقال له داود: اذهب فإن الغنم كلها لك، فقضى بذلك داود، ومر صاحب الغنم بسليمان، فأخبره بالذي قضى به داود، فدخل سليمان على داود فقالا يا نبي الله إن القضاء سوى الذي قضيت، فقال: كيف؟ قال سليمان: إن الحرث لا يخفى على صاحبه ما يخرج منه في كل عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث، فإن الغنم لها نسل في كل عام، فقال داود: قد أصبت، القضاء كما قضيت، ففهمها الله سليمان".

قال البقاعي: ولما كان ربما قيل: لم قدم إبراهيم ومن معه على نوح وهو أبوهم ومن أولي العزم، وموسى وهارون على إبراهيم وهو كذلك، أشار بقصة داود وسليمان - على جميعهم الصلاة والسلام - إلى أنه ربما يفضل الابن الأب في أمر، فربما قدم لأجله وإن كان لا يلزم منه تقديمه مطلقًا، مع ما فيها من أمر الحرث الذي هو أنسب شيء لما بعد غيض الماء في قصة نوح عليه السلام، هذا في أوله وأما في آخره فما ينبته مثال للدنيا في بهجتها وغرورها، وانقراضها ومرورها، ومن تصريف داود عليه السلام في الجبال وهي أشد التراب الذي هو أقوى من الماء، وفي الحديد وهو أقوى من تراب الجبال، وسليمان عليه السلام في الريح وهي أقوى من

=

=

التراب ا.هـ

وقال الرازي: اعلم أن قوله تعالى: وداود وسليمان وأيوب وزكريا وذا النون، كله نسق على ما تقدم من قوله: {وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِن قَبْلُ} [الأنبياء: ٥١] ومن قوله: {وَلُوطًا اتيناه حُكْمًا وَعِلْمًا} [الأنبياء: ٧٤] واعلم أن المقصود ذكر نعم الله تعالى على داود وسليمان فذكر أولًا النعمة المشتركة بينهما، ثم ذكر ما يختص به كل واحد منهما من النعم.

أما النعمة المشتركة فهي القصة المذكورة وهي قصة الحكومة، ووجه النعمة فيها أن الله تعالى زينهما بالعلم والفهم في قوله: {وَكُلًا ءاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} ثم في هذا تنبيه على أن العلم أفضل الكمالات وأعظمها، وذلك لأن الله تعالى قدم ذكره ههنا على سائر النعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطير والريح والجن. ا.هـ

وسليمان هو ابن داود، وكلاهما من أنبياء الله-سبحانه-، وينتهى نسبهما إلى يعقوب عليه السلام وكانت وفاتهما قبل ميلاد المسيح عليه السلام بألف سنة تقريبا، وقد جمع الله تعالى لهما بين الملك والنبوة.

والحرث: الزرع. قيل: كان كرما- أى عنبا- تدلت عناقيده.

وقوله: نَفَشَتْ من النفش وهو الرعي بالليل خاصة. يقال: نفشت الغنم والإبل، إذا رعت ليلا بدون راع.

والمعنى: اذكر- أيها الرسول الكريم- قصة داود وسليمان، وقت أن كانا يحكمان في الزرع الذي «نفشت فيه غنم القوم» أى: تفرقت فيه وانتشرت ليلا دون أن يكون معها راع فرعته وأفسدته.

قال القرطبي: «ولم يرد-سبحانه- بقوله إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ: الاجتماع في الحكم وإن جمعهما في القول، فإن حكمين على حكم واحد لا يجوز وإنما حكم كل واحد منهما على انفراده، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله تعالى له .

=

=

وقوله تعالى: وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ جملة معترضة جيء بها لبيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء.

أي: وكنا لما حكم به كل واحد منهما عالمين وحاضرين، بحيث لا يغيب عنا شيء مما قالاه.

وضمير الجمع في قوله لِحُكْمِهِمْ: لداود وسليمان، واستدل بذلك من قال إن أقل الجمع اثنان، وقيل: ضمير الجمع يعود عليهما وعلى صاحب الزرع وصاحب الحرث أى: وكنا للحكم الواقع بين الجميع شاهدين.

والضمير المنصوب في قوله تعالى: فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ يعود إلى القضية أو المسألة التي عرضها الخصمان على داود وسليمان.

قوله تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ} [الأنبياء: ٧٩]، أي:" علمنا وألهمنا سليمان الحكم في القضية".

قال الطبري:" يقول: ففهمنا القضية في ذلك «سليمان» دون داود".

قال ابن مسعود:" فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان غير هذا يا نبي الله، قال: وما ذاك؟ قال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب

منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: {ففهمناها سليمان} ".

قال ابن عباس:" قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث، فخرج الرعاة معهم الكلاب، فقال سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وافيت أمركم لقضيت بغير هذا، فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال: أدفع الغنم إلى أصحاب الحرث، فيكون لهم أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها، ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه،

=

=

أخذ أصحاب الحرث الحرث، وردوا الغنم إلى أصحابها".

قال مجاهد:" أعطاهم داود رقاب الغنم بالحرث، وحكم سليمان بجزة الغنم وألبانها لأهل الحرث، وعليهم رعايتها على أهل الحرث، ويحرث لهم أهل الغنم حتى يكون الحرث كهيئته يوم أكل، ثم يدفعونه إلى أهله ويأخذون غنمهم".

قال ابن زيد:" انفلت غنم رجل على حرث رجل فأكلته، فجاء إلى داود، فقضى فيها بالغنم لصاحب الحرث بما أكلت، وكأنه رأى أنه وجه ذلك، فمروا بسليمان، فقال: ما قضى بينكم نبي الله؟ فأخبروه، فقال: ألا أقضي بينكما عسى أن ترضيا به؟ فقالا نعم. فقال: أما أنت يا صاحب الحرث، فخذ غنم هذا الرجل فكن فيها كما كان صاحبها، أصب من لبنها وعارضتها وكذا وكذا ما كان يصيب، وأحرث أنت يا صاحب الغنم حرث هذا الرجل، حتى إذا كان حرثه مثله ليلة نفشت فيه غنمك، فأعطه حرثه، وخذ غنمك، فذلك قول الله تبارك وتعالى {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم}، وقرأ حتى بلغ قوله: {وكلا آتينا حكما وعلما} ".

قال شريح:" كان النفش ليلا وكان الحرث كرما، قال: فجعل داود الغنم لصاحب الكرم، قال: فقال سليمان: إن صاحب الكرم قد بقي له أصل أرضه وأصل كرمه، فاجعل له أصوافها وألبانها! قال: فهو قول الله: {ففهمناها سليمان} ".

عن عامر، قال: "جاء رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: إن شياه هذا قطعت غزلا لي، فقال شريح: نهارا أم ليلا؟ قال: إن كان نهارا فقد برئ صاحب الشياه، وإن كان ليلا فقد ضمن، ثم قرأ: {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم}، قال: كان النفش ليلا".

قال ابن مسعود:"دخلت ناقة للبراء بن عازب حائطا لبعض الأنصار فأفسدته، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: {إذ نفشت فيه غنم القوم}، فقضى على

=

=

البراء بما أفسدته الناقة، وقال على أصحاب الماشية حفظ الماشية بالليل، وعلى أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم بالنهار".

قوله تعالى: {وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} [الأنبياء: ٧٩]، أي:" وكلًا من داود وسليمان أعطيناه الحكمة والعلم الواسع مع النبوة".

قال الطبري:" يقول: وكلهم من داود وسليمان والرسل الذين ذكرهم في أول هذه السورة {آتينا حكما} وهو النبوة، {وعلما} : يعني وعلما بأحكام الله".

قال الحسن:" كان الحكم بما قضى به سليمان، ولم يعنف الله داود في حكمه".

عن حميد؛ أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى، قال ما يبكيك؟ قال يا أبا سعيد، بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ، فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان، عليهما السلام، والأنبياء حكمًا يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال - يعني: الحسن -: إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثًا: لا يشترون به ثمنًا قليلا ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحدًا، ثم تلا {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [ص: ٢٦] وقال: {فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ} [المائدة: ٤٤]، وقال {وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا} [المائدة: ٤٤].

قلت-ابن كثير-: أما الأنبياء، عليهم السلام، فكلهم معصومون مُؤَيَّدون من الله ﷻ. وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»، فهذا

=

=

الحديث يرد نصا ما توهمه "إياس" من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم.

وفي السنن: «القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار: رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه، فهو في النار».

وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد في مسنده... عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، لا تَشُقه، فقضى به للصغرى» ".

قوله تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ} [الأنبياء: ٧٩]، أي:" ومننًّا على داود بتطويع الجبال تسبِّح معه إذا سبَّح، وكذلك الطير تسبِّح".

قال الطبري:" وسخرنا مع داود الجبال، والطير يسبحن معه إذا سبح".

قال قتادة:" أي: يصلين مع داود إذا صلى".

قال ابن كثير:" وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا تَرَنَّم به تقف الطير في الهواء، فتجاوبه، وتَرد عليه الجبال تأويبًا؛ ولهذا لمَّا مَرَّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جدًا، فوقف واستمع لقراءته، وقال: "لقد أوتي هذا مزامير آل داود". قال يا رسول الله، لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرًا.

وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صَنْج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه، ومع هذا قال: «لقد أوتي مزمارًا من مزامير آل داود» ".

وفي رواية: «يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود».

=

=

قوله تعالى: {وَكُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ٧٩]، أي:" وكنا قادرين على فعل ذلك".
قال الطبري:" يقول: وكنا قد قضينا أنا فاعلو ذلك، ومسخرو الجبال والطير في أم الكتاب مع داود عليه الصلاة والسلام ".
قال الشافعي -رحمه الله-: "قال الله تبارك وتعالى: {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا (٧٩)} الآيتان، قال الحسن بن أبي الحسن: لولا هذه الآية لرأيت أن الحكام قد هلكوا.
ولكن الله حمد هذا لصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده".
أى: ففهمنا سليمان الحكم الأنسب والأوفق في هذه المسألة أو القضية، وذلك لأن داود- كما يقول العلماء. قد اتجه في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث. وهذا عدل فحسب.
أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير، وهذا هو العدل الحي الإيجابى في صورته البانية الدافعة، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء» .
وقوله-سبحانه- وَكُلًّا آتَيْنا حُكْمًا وَعِلْمًا ثناء من الله تعالى على داود وسليمان- عليهما السلام- والمقصود من هذا الثناء دفع ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن داود لم يكن مصيبا في حكمه.
أي: وكلا من داود وسليمان قد أعطيناه من عندنا حُكْمًا أى: نبوة وإصابة في القول والعمل وَعِلْمًا أى: فقها في الدين، وفهما سليما للأمور.
وقد توسع بعض المفسرين في الحديث عن هذا الحكم الذي أصدره داود وسليمان في قضية الحرث أكان بوحي من الله إليهما، أم كان باجتهاد منهما.
وقد اختلف العلماء فيه هذه المسألة على قولين:

=

=

القول الأول: أن سليمان أصاب الحق في هذه المسألة باجتهاده دون داود مع عدم نفي العلم عنه في غيرها من المسائل، وهذا هو قول ابن عقيل، وهو ما عليه جمهور العلماء.

واستدلوا: بالآية التي معنا، ووجه الاستدلال: تخصيص سليمان بالفهم دون داود.

القول الثاني: أنهما مصيبان جميعا؛ لأنهما حكما بوحي؛ لكن ما حكم به داود كان منسوخا، وما حكم به سليمان كان ناسخا؛ فعلم سليمان النص الناسخ وغاب عن داود.

واستدلوا: بالآية نفسها، ووجه الاستدلال: أن الله آتى كلا منهما حكما وعلما.

والقول الراجح هو قول جمهور العلماء: أن سليمان أصاب باجتهاده وأثنى الله عليه بذلك، أما داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد اجتهد وأخطأ، وذلك لأمور منها:

١ - أن في الآية قرائن تدل على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحي، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ولم يستوجب لوما ولا ذما بعدم إصابته، ومنها:

أ/ قوله تعالى: {ففهمناها} [الأنبياء:٧٩] دليل على أنه فهمها من نصوص ما عنده من الشرع لا أنه نزل عليه وحي جديد ناسخ.

ب/ أن داود لم يفهم هذه المسألة ولو كان حكمه فيها بوحي لكان مفهما إياها.

ج/ أن في سياق الآية دلالة على أن كل واحد منهما حكم بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحيا لما ساغ الخلاف.

٢ - ما قاله ابن عقيل: وهو أن تخصيص سليمان بالفهم لا بد أن يكون له فائدة، وهو دليل على رجحان قول سليمان، ولا يلزم من هذا انتقاص داود فخطأ المجتهد لا يقدح في كونه مجتهدا، بل هو فضيلة راجعة إلى داود لأن الوالد تسره

=

=

زيادة ولده عليه، وقد مدحه الله بأن له حكما وعلما يرجع إليه في غير هذه النازلة.

٣ - أن القول بالنسخ دعوى تحتاج إلى دليل، ولو كان فيه نص ناسخ لحكم لما خفي على نبي تلك الشريعة، والقول به تأويل بعيد.

٤ - أن الخطأ يجوز على الأنبياء؛ لكن لا يقرون عليه.

٥ - أن الحق عند الله في واحد من أقوال المجتهدين والباقي باطل وهذا هو مذهب أكثر الفقهاء والأصوليين، وقد اختلف حكم داود وسليمان فلا بد من كون أحدهما أصاب والآخر أخطأ.

٦ - أن الحاكم قد يصيب الحق وقد يخطئ ولا يلام على خطئه إذا اجتهد وتحرى وإلا تحرج الحكام وتركوا الحكم، وهذا هو ما دلت عليه نصوص الشريعة، ومنها: قوله ﷺ: " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر "، وكونه مخطئا ليس براجع إلى الخطأ في الاجتهاد وإصابة الحق بدليله؛ وإنما يرجع إلى أنه لم يصب حكم الله، كأن يقتطع المحكوم له مال خصمه أو حقه بذلك الحكم؛ لكذب الشهود، أو كون الخصم ألحن بحجته. ولذا قال الشافعي: (قال الحسن بن أبي الحسن: لولا هذه الآية لرأيت أن الحكام قد هلكوا، ولكن الله حمد هذا لصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده)، وفي رواية ذكرها القرطبي: (ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه، وعذر داود باجتهاده).

٧ - أن كثيرا من أصحاب القول الثاني يرون أن سليمان عليه السلام فهم القضية وأفتى بالأرجح لا أن الحكم الأول خطأ، فكلاهما مصيب، ولكن حكم سليمان أولى، وهنا يجتمع القولان ويزول الخلاف، قال ابن عطية: (وكثيرا ما يكون بين الأقوال في هذه المسائل قليل تباين، إلا أن ذلك الشفوف يشرف القول، وكثيرا ما يبين الفضل بين القولين بأدنى نظر).

=

=

وقال الشنقيطي: اعلم أن هذا الذي ذكرنا أن القرينة تدل عليه في هذه الآية من أنهما حكما فيها باجتهاد، وأن سليمان أصاب في اجتهاده جاءت السنة الصحيحة بوقوع مثله منهما في غير هذه المسألة. فدل ذلك على إمكانه في هذه المسألة، وقد دلت القرينة القرآنية على وقوعه، قال البخاري في صحيحه (باب إذا ادعت المرأة ابنًا) حدثنا أبو اليَمَان، أخبرنا شُعَيْب، حدثنا أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: " كانت امْرَأتان مَعَهما ابْنَاهما، جاء الذِئب فَذَهب بابن إحداهما، فقالت لِصَاحِبَتِها: إنما ذَهَب بابْنِك. فقالت الأُخْرَى: إنَّما ذَهَبَ بِابْنِك. فَتَحَاكَمَتَا إلى دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَضَى بِهِ للْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا على سُلَيْمان بن دَاوُد عليهما السَّلام، فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَال: ائْتُوني بِالسِّكِين أَشُقُّه بَيْنَهُمَا. فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لاَ تَفْعَل يَرْحَمُكَ الله هُو ابْنُهَا. فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى. قَالَ أبو هُرَيرَة: والله إنْ سَمِعْتُ بالسِّكِين قَطّ إلا يَوْمَئِذ، وَمَا كُنَّا نَقُولُ إلاَّ الْمُدْيَة " انتهى من صحيح البخاري. وقال مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثني زُهَيْر بن حَرْب، حدثني شَبَابَة " حدثني وَرْقَاء عن أبِي الزِّناد، عنِ الأَعْرَج عن أبي هُرَيرَة، عن النَّبي ﷺ قال: " بينما امرأتان معهما ابناهما جَاء الذِّئْب فذهب بِابْن احداهما. فَقَالَتْ هَذِهِ لصاحبتها: إِنما ذَهَبَ بِابْنِك أنتِ. وَقالت الأُخرَى: إنما ذَهب بابنك، فَتَحَاكَمَتا إِلى دَاود فَقَضَى بهِ لِلْكُبرى. فَخرجَتَا عَلى سُلَيْمانَ بن دَاود عليهما السلام. فَأخبرتاه فقال: ائتوني بالسِّكين أشقُّه بيَنكما فقالت الصغرى: لاَ يَرْحَمُكَ الله " انتهى منه فهذا الحديث الصحيح يدل دلالة واضحة على أنهما قضيا معًا بالاجتهاد في شأن الولد المذكور، وأن سليمان أصاب في ذلك، إذ لو كان قضاء داود بوحي لما جاز نقضه بحال. وقضاء سليمان واضح أنه ليس بوحي، لأنه أوهم المرأتين أنه يشقه بالسكين، ليعرف أمه بالشفقة عليه، ويعرف الكاذبة برضاها بشقه لتشاركها أمه في المصيبة لعرف الحق بذلك. وهذا شبيه جدًا بما

=

=

دلت عليه الآية حسبما ذكرنا، وبينا دلالة القرينة القرآنية عليه. ومما يشبه ذلك من قضائهما القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في ترجمة " سليمان " عليه السلام من تاريخه، من طريق الحسن بن سفيان، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، وعن سعيد بن بشر، عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس فذكر قصة مطولة، ملخصها: أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت على كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها. فشهدوا عند داود عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلبًا لها، قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان، واجتمع معه ولدان مثله. فانتصب حاكمًا وتزيا أربعة منهم بزي أولئك، وآخر بزي المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلبًا، فقال سليمان: فرقوا بينهم. فسأل أولهم: ما كان لون الكلب؟ فقال أسود، فعزله. واستدعى الآخر فسأله عن لونه؟ فقال أحمر. وقال الآخر أغبش. وقال الآخر أبيض، فأمر عند ذلك بقتلهم، فحكى ذلك لداود عليه السلام، فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب فاختلفوا عليه، فأمر بقتلهم انتهى بواسطة نقل ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة. وكل هذا مما يدل على صحة ما فسرنا به الآية، لدلالة القرينة القرآنية عليه. وممن فسّرها بذلك الحسن البصري رحمه الله كما ذكره البخاري وغيره عنه. قال البخاري رحمه الله في صحيحه (باب متى يستوجب الرجل القضاء): وقال الحسن: أخذ الله على الحكام أن لا يتبعوا الهوى ولا يخشوا الناس، ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلًا إلى أن قال وقرأ { وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا } [الأنبياء: ٧٨-٧٩] فحمد سليمان ولم يلم داود. ولولا ما ذكره الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة هلكوا، فإنه أثنى على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده انتهى محل الغرض منه. وبه

=

=

تعلم أن الحسن رحمه الله يرى أن معنى الآية الكريمة كما ذكرنا، ويزيد هذا إيضاحًا ما قدمناه في سورة " بني إسرائيل " من الحديث المتفق عليه عن النَّبي ﷺ من حديث عمرو بن العاص وأبي هريرة رضي الله عنهما " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " كما قدمنا إيضاحه. ا.هـ

قال الرازي: لو وقعت هذه الواقعة في شرعنا ما حكمها ؟ الجواب: قال الحسن البصري: هذه الآية محكمة، والقضاة بذلك يقضون إلى يوم القيامة، واعلم أن كثيرًا من العلماء يزعمون أنه منسوخ بالإجماع ثم اختلفوا في حكمه فقال الشافعي رحمه الله: إن كان ذلك بالنهار لا ضمان لأن لصاحب الماشية تسييب ماشيته بالنهار، وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه. وإن كان ليلًا يلزمه الضمان لأن حفظها بالليل عليه.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا ضمان عليه ليلًا كان أو نهارًا إذا لم يكن متعديًا بالإرسال، لقوله ﷺ: " جرح العجماء جبار " واحتج الشافعي رحمه الله بما روي عن البراء بن عازب أنه قال: " كانت ناقة ضارية فدخلت حائطًا فأفسدته فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقضى أن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل " وهذا تمام القول في هذه الآية. ا.هـ

ثم بين-سبحانه- نماذج من النعم التي أنعم بها على داود عليه السلام فقال: وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ.

والتسخير: التذليل أى: وجعلنا الجبال والطير يسبحن الله تعالى ويقدسنه مع داود، امتثالا لأمره-سبحانه-.

قال ابن كثير: وذلك لطيب صوته، بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويبا. ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبى

=

=

موسى الأشعرى، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب، فوقف واستمع إليه وقال: «لقد أوتى هذا من مزامير آل داود» ا.هـ.

وقال الزمخشري: «فإن قلت: لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب، وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد، والطير حيوان، إلا أنه غير ناطق، روى أنه كان يمر بالجبال مسبحا وهي تجاوبه، وقيل: كانت تسير معه حيث سار.. ا.هـ.

وتسبيح الجبال والطير مع داود عليه السلام هو تسبيح حقيقى، ولكن بكيفية يعلمها الله تعالى كما قال-سبحانه- تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. .

قال الشنقيطي: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه سخر الجبال أي ذللها، وسخر الطير تسبح مع داود. وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة: من تسخيره الطير، والجبال تسبح مع نبيه داود؛ بينه في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَينَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيرَ} الآية. وقوله: {أَوِّبِي مَعَهُ} أي: رَجِّعي معه التسبيح، {وَالطَّيرَ} أي: ونادينا الطير بمثل ذلك من ترجيع التسبيح معه. وقول من قال: {أَوِّبِي مَعَهُ}: أي سيري معه، وأن التأويب سير النهار؛ ساقط كما ترى. وكقوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩)}.

والتحقيق: أن تسبيح الجبال والطير مع داود المذكور تسبيح حقيقي؛ لأن الله جل وعلا يجعل لها إدراكات تسبح بها، يَعْلَمها هو جل وعلا ونحن لا نعلمها؛ كما قال: {وَإِنْ مِنْ شَيءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}، وقال تعالى: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ

=

=

مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ} الآية، وقال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} الآية. وقد ثبت في صحيح البخاري: أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ لما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سمع له حنين، وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: "إني لأعرف حجرًا كان يسلم علي في مكة" وأمثال هذا كثيرة. والقاعدة المقررة عند العلماء: أن نصوص الكتاب والسنة ا.هـ

ثم ختم-سبحانه- الآية الكريمة بقوله: وَكُنَّا فاعِلِينَ أى: وكنا فاعلين ذلك لداود من تسخير الجبال والطير معه يسبحن الله وينزهنه عن كل سوء، على سبيل التكريم له.

والتأييد لنبوته، إذ أن قدرتنا لا يعجزها شيء، سواء أكان هذا الشيء مألوفا للناس أم غير مألوف.

وقوله تعالى: وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ بيان لنعمة أخرى من النعم التي أنعم الله بها على داود.

قوله تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ} [الأنبياء: ٨٠]، أي:" وعلمنا داود صنع الدروع بإلانةِ الحديد له".

قال الطبري:" اللبوس عند العرب: السلاح كله، درعا كان أو جوشنا أو سيفا أو رمحا، يدل على ذلك قول الهذلي:

ومعي لبوس للبيس كأنه... روق بجبهة ذي نعاج مجفل

وإنما يصف بذلك رمحا، وأما في هذا الموضع فإن أهل التأويل قالوا: عنى الدروع".

قال قتادة:" كانت قبل داود صفائح، قال: وكان أول من صنع هذا الحلق وسرد داود".

=

=

قوله تعالى: {لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ} [الأنبياء: ٨٠]، أي:" لتقيكم في القتال شرُّ الأعداء".

وقرئ: «ليحصنكم» بالياء، بمعنى: ليحصنكم اللبوس من بأسكم.

قوله تعالى: {فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} [الأنبياء: ٨٠]، أي:" فهل أنتم شاكرون نعمة الله عليكم حيث أجراها على يد عبده داود؟ ".

وهو استفهامٌ يراد به الأمر، أي: اشكروا الله على ما أنعم به عليكم.

قال ابن كثير:" أي: نعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم".

قال الطبري:" يقول: فهل أنتم أيها الناس شاكرو الله على نعمته عليكم بما علمكم من صنعة اللبوس المحصن في الحرب وغير ذلك من نعمه عليكم، يقول: فاشكروني على ذلك".

واللبوس: كل ما يلبس كاللباس والملبس: والمراد به هنا: الدروع.

أى: وبجانب ما منحنا داود من فضائل، فقد علمناه من لدنا صناعة الدروع بحذق وإتقان، وهذه الصناعة التي علمناه إياها بمهارة وجودة لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ.

أى: لتجعلكم في حرز ومأمن من الإصابة بآلة الحرب. وتقى بعضكم من بأس بعض، لأن الدرع تقى صاحبها من ضربات السيوف، وطعنات الرماح.

يقال: أحصن فلان فلانا، إذا جعله في حرز وفي مكان منيع من العدوان عليه.

والاستفهام في قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ للحض والأمر أى: فاشكروا الله تعالى على هذه النعم، بأن تستعملوها في طاعته-سبحانه-.

قال القرطبي- رحمه الله-: «وهذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب. لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء، فالسبب سنة الله في خلقه، فمن طعن في ذلك فقط طعن في الكتاب

=

=

والسنة، وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود أنه كان يصنع الدروع، وكان- أيضا- يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حراثا، ونوح نجارا، ولقمان خياطا، وطالوت دباغا، فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس، وفي الحديث: «إن الله يحب المؤمن المحترف المتعفف، ويبغض السائل الملحف» .

ثم بين-سبحانه- بعد ذلك جانبا من نعمه على سليمان بن داود فقال: وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها.

قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً} [الأنبياء: ٨١]، أي:" وسخَّرنا لسليمان الريح شديدة الهبوب تحمله ومَن معه".

قال ابن كثير:" أي: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة".

قال الطبري:" عصوفها: شدة هبوبها".

قال ابن زيد:" عاصفة شديدة".

قرأ عبد الرحمن الأعرج: «الريح» رفعا بالكلام في «سليمان» على ابتداء الخبر عن أن لسليمان الريح.

قال سعيد بن جبير:"كان يُوضَع لسليمان ستمائة ألف كرسي، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتظلهم، ثم يأمر الريح فتحمله ﷺ".

وقال عبد الله بن عُبَيْد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح، فتجتَمع كالطَّود العظيم، كالجبل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفَرَس من ذوات الأجنحة، فترتفع حتى تصعد على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كُل شَرَف دون السماء، وهو مطأطئ رأسه، ما يلتفت يمينا ولا شمالا تعظيمًا لله ﷻ، وشكرًا لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله تعالى حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه".

=

=

قوله تعالى: {تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [الأنبياء: ٨١]، أي:" تجري بأمره إلى أرض «بيت المقدس» بـ«الشام» التي باركنا فيها بالخيرات الكثيرة".

قال الطبري:" يقول: تجري الريح بأمر سليمان إلى الشام، وذلك أنها كانت تجري بسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان، ثم تعود به إلى منزله بالشام".

قال ابن كثير:" وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة، والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير من الحر، إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه، قال الله تعالى: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} [ص: ٣٦]، وقال {غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} [سبأ: ١٢] ".

عن ابن زيد:" {تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها}، قال: الشام".

قال قتادة:" ورث الله سليمان داود، فورثه نبوته وملكه وزاده على ذلك أن سخر له الريح والشياطين".

قال وهب:" كان سليمان إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجن والإنس حتى يجلس إلى سريره، وكان امرءا غزاء، قلما يقعد عن الغزو، ولا يسمع في ناحية من الأرض بملك إلا أتاه حتى يذله، وكان فيما

يزعمون إذا أراد الغزو، أمر بعسكره فضرب له بخشب، ثم نصب له على الخشب، ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب كلها، حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح، فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته، حتى إذا استقلت أمر الرخاء، فمدته شهرا في روحته، وشهرا في غدوته إلى حيث أراد، يقول الله ﷻ {فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب قال ولسليمان الريح

=

=

غدوها شهر ورواحها شهر}، قال: فذكر لي أن منزلا بناحية دجلة مكتوب فيه كتاب كتبه بعض صحابة سليمان، إما من الجن وإما من الإنس، نحن نزلناه وما بنيناه، ومبنيا وجدناه، غدونا من إصطخر فقلناه، ونحن راحلون منه إن شاء الله قائلون الشام".

قوله تعالى: {وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} [الأنبياء: ٨١]، أي:" وقد أحاط علمنا بجميع الأشياء".

قال الطبري:" يقول: وكنا عالمين بأن فعلنا ما فعلنا لسليمان من تسخيرنا له، وإعطائنا ما أعطيناه من الملك وصلاح الخلق، فعلى علم منا بموضع ما فعلنا به من ذلك فعلنا، ونحن عالمون بكل شيء لا يخفى علينا منه شيء".

عن ابن عباس: {وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} : "يريد بكل شيء فعلنا".

قال السمعاني:" يعني: أنه ما غاب عنا شيء من الأشياء".

وقوله: وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ معطوف على معمول «سخرنا» في قوله تعالى قبل ذلك: وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ و «عاصفة» حال من الريح.

أى: وسخرنا لسليمان الريح حال كونها عاصفة أى: شديدة الهبوب، كما سخرنا مع أبيه الجبال يسبحن والطير.

يقال: عصفت الريح تعصف إذا اشتدت، فهي عاصف وعاصفة وعصوف سميت بذلك لتحطيمها ما تمر عليه فتجعله كالعصف وهو التبن.

وقوله تعالى: تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها أى: جعلناها مع قوتها وشدتها تجرى بأمر سليمان وإذنه إلى الأرض التي باركنا فيها وهي أرض الشام.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد بها ما هو أعم من أرض الشام.

ووصفت الريح هنا بأنها عاصفة، وفي آية أخرى بأنها رخاء قال تعالى: تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ . لأنها تارة تكون عاصفة، وتارة تكون لينة رخاء. على حسب

=

=

ما تقتضيه حكمته- سبحانه.

وإلى هذا المعنى أشار الزمخشري بقوله: «فإن قلت: وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى، فما التوفيق بينهما؟.

قلت: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة، على ما قال: «غدوها شهر ورواحها شهر» فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء في نفسها وعاصفة في عملها، مع طاعتها لسليمان على حسب ما يريد»

.

وقال-سبحانه- هنا: تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها أى تجرى بأمره إلى تلك الأرض في حال إيابه ورجوعه إليها، حيث مقر مملكته ومسكنه. فالمقصود من الآية الكريمة الإخبار عن جريانها في حال عودته إلى مملكته.

أما الآية الأخرى التي تقول: فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ أى: حيث أراد لها أن تجرى، فالمقصود منها الإخبار عن جريها بإذنه في غير حال عودته إلى مملكته، وبذلك أمكن الجمع بين الآيتين، إذ الجهة فيهما منفكة.

وقوله تعالى: وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ أى: وكنا بكل شيء يجرى في هذا الكون عالمين علما مطلقا لا كعلم غيرنا من خلقنا. فإنه علم محدود بما نشاؤه ونقدره. فالجملة الكريمة بيان لإحاطة علم الله تعالى بكل شيء، والتنبيه بأن ما أعطاه الله تعالى لسليمان، إنما كان بإرادته-سبحانه- وعلمه.

وقوله-سبحانه-: وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ بيان لمنة أخرى من المنن الكثيرة التي امتن بها-سبحانه- على عبده ونبيه سليمان.

قوله تعالى: {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ} [الأنبياء: ٨٢]، أي:" وسخرنا لسليمان بعض الشياطين يغوصون في الماء ويدخلون أعماق البحار ليستخرجوا له الجواهر واللآلئ".

=

=

قال ابن كثير:" أي: في الماء يستخرجون اللآلئ وغير ذلك ".

قال الطبري:" وسخرنا أيضا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر".

عن السدي: {ومن الشياطين من يغوصون له}، قال:" يغوصون في الماء".

قال الحسن: "لم يُسَخَّر له في هذه الأعمال وفيما يُصَفِّد بجعلهم في السلاسل من الجنِّ إلا الكفار منهم، واسم الشيطانِ لا يقع إلا على الكافر مِن الجن".

قوله تعالى: {وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ} [الأنبياء: ٨٢]، أي:" ويعملون أعمالًا أخرى سوى الغوص".

قال ابن كثير:" غير ذلك، كما قال تعالى: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ}. [ص: ٣٧، ٣٨] ".

قال الطبري: أي:" من البنيان والتماثيل والمحاريب".

قال الصابوني:" كبناء المدن والقصور الشاهقة والأمور التي يعجز عنها البشر".

قوله تعالى: {وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} [الأنبياء: ٨٢]، أي:" وكنا نحفظهم عن الزيغ عن أمره أو الخروج عن طاعته".

قال الطبري:" يقول: وكنا لأعمالهم ولأعدادهم حافظين، لا يئودنا حفظ ذلك كله".

قال ابن كثير:" يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو مُحَكَّم فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء؛ ولهذا قال: {وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ} ".

ويغوصون من الغوص وهو النزول تحت الماء، ومنه الغواص الذي ينزل تحت الماء لاستخراج الجواهر وغيرها.

وقوله: مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ في محل نصب عطفا على معمول سَخَّرْنا، السابق.

=

=

أى: وسخرنا- أيضا- لسليمان من يغوص له، أى: لأجله، من الشياطين، فينزلون تحت مياه البحار ليستخرجوا له منها الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان.

وفي التعبير بقوله: لَهُ إشعار بأن غوصهم لم يكن لمنفعة أنفسهم أو باختيارهم، وإنما هم كانوا يغوصون من أجل مصلحة سليمان عليه السلام وبأمره.

وقوله: وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ أى: لم تكن مهمتهم الغوص فقط وإنما كان سليمان يسخرهم ويكلفهم بأعمال أخرى كثيرة كبناء المدائن والقصور وصنع التماثيل والمحاريب.. كما قال تعالى: وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ، وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ، وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ .

فاسم الإشارة في قوله وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ يعود إلى الغوص أى: ويعملون له عملا كثيرا سوى ذلك الغوص.

ثم ختم-سبحانه- الآية الكريمة بقوله: وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ أى: وكنا لهؤلاء الشياطين حافظين من أن يخرجوا عن طاعته. أو أن يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون له.

مسألة: قال القرطبي: اختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء فمنعه قوم، وجوّزه المحققون؛ لأنه ليس فيه استحالة عقلية؛ لأنه دليل شرعي فلا إحالة أن يستدل به الأنبياء، كما لو قال له الربّ سبحانه وتعالى: إذا غلب على ظنك كذا فاقطع بأن ما غلب على ظنك هو حكمي فبلغه الأمة؛ فهذا غير مستحيل في العقل.

فإن قيل: إنما يكون دليلًا إذا عدم النص وهم لا يعدمونه.

قلنا: إذا لم ينزل الملك فقد عدم النص عندهم، وصاروا في البحث كغيرهم من المجتهدين عن معاني النصوص التي عندهم. والفرق بينهم وبين غيرهم من

=

=

المجتهدين أنهم معصومون عن الخطأ، وعن الغلط، وعن التقصير في اجتهادهم، وغيرهم ليس كذلك.

كما ذهب الجمهور في أن جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط في اجتهادهم.....

وقد اختلف الناس في المجتهدين في الفروع إذا اختلفوا؛ فقالت فرقة: الحق في طرف واحد عند الله، وقد نصب على ذلك أدلة، وحمل المجتهدين على البحث عنها، والنظر فيها، فمن صادف العين المطلوبة في المسألة فهو المصيب على الإطلاق، وله أجران أجر في الاجتهاد وأجر في الإصابة، ومن لم يصادفها فهو مصيب في اجتهاده مخطىء في أنه لم يصب العين فله أجر وهو غير معذور. ا.هـ

قلت هذه من المسائل التي طال البحثُ فيها، وتفرّع عنها بعضُ مسائل الاجتهاد الأخرى، وتُسمّى مسألةَ: «التصويب» أو «تصويب المجتهدين». وقد عنون لها بعضُهم بنحو هذا العنوان. وعنون لها بعضُهم بقوله: هل الحقُّ يتعدّدُ في مسائل الاجتهاد؟ وقال بعضُهم: هل لله في كلّ واقعةٍ حكمٌ معيّنٌ؟.

ومحلُّ النزاع: إنما هو في المسائل الاجتهادية العملية، أما المسائل العملية القطعية، والعلمية الاعتقادية، فإن المصيبَ فيها واحدٌ، بإتفاقٍ، والحقُّ فيها لا يتعدّدُ

ولم ينقلوا فيها خلافًا إلاّ عن القاضي العنبريّ، فإنه نُقل عنه قوله: كلُّ مجتهدٍ في الأصول مصيبٌ. وعن الجاحظ مثلُ ذلك.

وقد حمله بعضُهم على تعدُّد الحقّ في المسائل العلمية الخبرية، وهو مخالفٌ لبدائه العقول؛ إذْ لا يُمكنُ أنْ يقولَ عاقلٌ إن اللهَ يُمكنُ أنْ يوصَفَ بهذه الصفة وبعدمها، وأن هذا الشيءَ واقعٌ وغيرُ واقعٍ.

وحمله بعضُهم على أنه لا يُؤَثَّمُ المخطئُ من الكفار إذا بذل جهدَه في طلب

=

=

الإيمان بالله فلم يصلْ إليه.

وحمله المحققون على أنه خاصٌّ بالمجتهدين من أهل الملّة، إذا بذلوا جهدهم في إدراك الحقّ في مسائل الأصول أو الفروع، فأخطأوا، فإنهم لا يأثمون. ففسروا قولَه بالتصويب بأن المرادَ نفيُ الإثم.

وقد صحّح هذا التفسيرَ ابنُ تيميةَ، ودافع عن العنبريّ ـ وانتصر له، وقال: «إن المخطئَ من مجتهدي المسلمين مأجورٌ، سواء كان الخطأُ في الأصول أو الفروع، إذا بذل جهدَه ولم يصلْ إلى الحقّ».

قال رحمه الله في مجموع الفتاوى (١٣/ ١٢٥): «ولم يفرق أحد من السلف والأئمة بين أصول وفروع، بل جعل الدين قسمين: أصولا، وفروعا، لم يكن معروفا في الصحابة والتابعين، ولم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين إن المجتهد الذي استفرغ وسعه في طلب الحق يأثم لا في الأصول ولا في الفروع... وحكوا عن عبيد الله العنبري أنه قال: كل مجتهد مصيب، ومراده: لا يأثم، وهذا قول عامة الأئمة كأبي حنيفة والشافعي وغيرهما».

والخلاصةُ: أن الكلامَ في مقامين:

الأول: هل يُقال لكلٍّ من المختلفين: إنه مصيبٌ؟

الثاني: هل يأثمُ إذا خالف ما هو الحقّ عند الله؟.

فأما في المقام الأول: فإن المسائلَ العلميةَ الخبريةَ لا يُمكنُ أنْ يتعدّدَ الحقُّ فيها، فيكونَ الصوابُ مع كلٍّ منهما؛ إذْ لا يقول عاقلٌ إن اللهَ موصوفٌ بصفة الرحمة، وغير موصوفٍ! وإن اللهَ قد كتب السعادةَ أو الشقاءَ على الإنسان، ولم يكتبها! لوجود التناقُض الممتنع عقلًا.

وعلى ذلك: فإن مَن قال في شيءٍ من مسائل الاعتقاد: إن كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ، فلا يُحمَلُ قولُه على تعدُّد الحقّ فيها؛ لامتناعه عقلًا، وإنما يُحملُ على أنه معذورٌ في

=

=

خطئه إذا لم يُخالفْ قاطعًا، وأما إذا خالف قاطعًا من غير تأويل، فإنه يكونُ مقصِّرًا. والجمهور على تأثيمه إذا خالف دليلًا قطعيًا، وعذرِه إذا خالف ظنّيًّا.

ولا خلافَ في تأثيم الكفار؛ لورود النصوص القطعية بذلك، كقوله تعالى: {وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت ٢٣]، وقوله: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف ١٠٣ - ١٠٥].

وما نُقل عن العنبريّ لا يصحُّ فيهم؛ لأن كلامه في أهل القبلة.

وأما الجاحظ فليس من أهل الاجتهاد، فلا يُعتدُّ بقوله.

وأما المسائل العملية: فإن كانت قطعية، أي: قام عليها دليل قطعي، فالحق ما قام عليه الدليل؛ إذ لا يمكن مخالفة الدليل القطعي.

وأما العملية الظنية: فإن العقل لا يمنع من تصويب المختلفين فيها. ولذلك اختلفوا فيها أيقال: الجميع مصيبون أم المصيب واحد؟

والثاني أرجحُ، والدليلُ عليه من وجوهٍ:

١ - أن النبيَّ ﷺ سمّى أحدَ المجتهدَين مصيبًا، والآخَرَ مخطئًا، فقال: «إذا حكم الحاكمُ فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجرٌ»، (متفق عليه)، فسمّاه مخطئًا.

٢ - أنه لو كان الجميعُ مصيبين مع اختلافِهم، لما كانتْ هناك حاجةٌ إلى المناظرة والاستدلالِ على المخالف؛ لأن الخلافَ يكونُ من باب اختلاف التنوُّع، والإجماعُ على خلاف ذلك.

٣ - أنه لو كان الحقُّ يتعدّدُ للزم اجتماعُ الضدّين في بعض صور الاجتهاد، كما إذا طلّق زوجتَه ثلاثًا، وهو ممن يرى الثلاث واحدةً، وهي ممن يرى الثلاثَ ثلاثًا،

=

=

فهل يُقالُ له: لا تُفارقْها، ويُقالُ لها: فارقيه؟! وكيف يكون كلٌّ من القولين حقًّا في هذا الصورة؟!

٤ - إجماع الصحابة على إطلاق وصف الخطأ على بعض أنواع الاجتهاد، كما في قول ابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في المفوضة: أقول فيها برأيي فإنْ كان صوابًا فمن الله، وإنْ كان خطًا فمني ومن الشيطان، وأستغفرُ الله» (أخرجه أحمد والنسائي) ولا يُعرَفُ له مخالفٌ.

وأما عن المقام الثاني: وهو مقام التأثيم، فإن الجماهيرَ متّفقون على أن كلَّ مجتهدٍ من المسلمين مأجورٌ، إما أجرًا واحدًا، أو أجرين، ولم يُنقلْ خلافٌ في ذلك، إلاّ عن ابن عُليّةَ وبعضِ الظاهرية.

والدليل على أن المخطئَ في مسائل الاجتهاد مأجورٌ: الحديثُ المتقدّمُ: «إذا حكم الحاكمُ فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجرٌ»، (متفق عليه).

وقد حكى غيرُ واحدٍ الإجماعَ على عدم تأثيم المخطئ في مسائل الاجتهاد.

وقد بنى بعضُ العلماء على الخلاف في تصويب المجتهدين اختلافَهم فيمن اجتهد في القبلة فصلى، ثم تبين له أنه صلى إلى غير الجهة الصحيحة، فهل عليه إعادةٌ؟

ذهب بعضُهم إلى إيجاب الإعادة، وبعضهم إلى عدم الإيجاب، وفرّق بعضُهم بين مَن كان داخلَ المصر فيُعيدُ، دون مَن كان خارجه.

ومن المسائل التي تُبنى على تصويب المجتهدين مع اختلافهم: موقف المجتهد إذا تعارضت عنده الأدلّةُ، فالقائلون بالتصويب قالوا: يتخيّرُ أحدَ القولين فيقضي به؛ لأن كلًا منهما صوابٌ.

ومَن قال المصيبُ واحدٌ، قال: يجبُ عليه التوقُّفُ حتى يترجّحَ له أحدَ القولين،

=

وإنْ حضر وقتُ العمل فله أنْ يُقلِّدَ عالمًا آخَر.
ومن تلك المسائل: إذا تعارضت فتوى عالمين، فما موقفُ المقلِّد؟
فمَن قال: كلُّ مجتهدٍ مصيبٌ، قال: يتخير.
ومَن قال: المصيبُ واحدٌ، قال: يأخذُ بقول الأوثق منهما والأعلم، فإن تساويا فالأورعُ منهما والأتقى، فإن تساويا، سأل ثالثًا.
وقد فسّر بعضُ العلماء ما نُقلَ عن الشافعيّ من تصويب المجتهدين بأن المرادَ أنه أصاب في عمله بما توصَّل إليه اجتهادُه، وليس المرادُ أنه أصاب الحقَّ عند الله في واقع الأمر. والمسألةُ فيها كلامٌ طويلٌ للأصوليين، ولكن فيما ذكرتُه كفايةٌ إن شاء الله تعالى.
وقد ساق جماعةٌ من الأصوليين - منهم الغزالي والصفيُّ الهنديّ - المسألةَ على وجهٍ آخَر، فقالوا: الواقعةُ إما أنْ يكونَ عليها نصٌّ أو لا، فإنْ كان عليها نصٌّ، فإما أنْ يجتهدَ في طلبه أو لا، إن اجتهد: فإما أنْ يبذُلَ وُسعَه أو يُقصّرَ في البحث.
فإن وجد المجتهدُ نصًّا وحكم به، فهو مصيب ولا خلافَ في ذلك.
وإنْ وجده ولم يحكمْ به مع العلم بدلالته، فهو مخطئٌ آثمٌ.
وإنْ قصّر في البحث، فهو آثمٌ. وإنْ لم يُقصِّرْ، فهو غير آثم.
وإنْ كانت المسألةُ لا نصَّ فيها، فقد قال جمهورُ المتكلِّمين: ليس لله فيها حكمٌ معيَّنٌ قبلَ اجتهاد المجتهد، بل حكمُ الله تابعٌ لاجتهاد كلّ مجتهد. ولهذا قالوا: كلُّ مجتهدٍ فيها مصيبٌ. وقال أكثرُ الفقهاء: لله فيها حكمٌ معيَّنٌ قبلَ الاجتهاد، والمصيبُ فيها واحدٌ، والمخطئُ معذورٌ. وقال بعضُ المتكلِّمين: يوجدُ حكمٌ أشبهَ بحكم الله، وهو الحكمُ الذي لو حكم الله فيها لما حكم بغيره.
سبب الخلاف: قال ابنُ دقيق العيد: إن سببَ الخلاف في التصويب والتخطئة اختلافُهم في أصلٍ، وهو هل لله في كلّ واقعةٍ حكمٌ معيَّنٌ، أو أن حكمَه في مسائل
=

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣).

{و} اُذْكُرْ {أَيُّوب} وَيُبْدَل مِنْهُ {إذْ نَادَى رَبّه} لَمَّا اُبْتُلِيَ بِفَقْدِ جَمِيع مَاله وَوَلَده وَتَمْزِيق جَسَده وَهَجْر جَمِيع النَّاس لَهُ إلَّا زَوْجَته سِنِينَ ثَلَاثًا أَوْ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيَ عَشْرَة وَضِيق عَيْشه {أَنِّي} بِفَتْحِ الْهَمْزَة بِتَقْدِيرِ الياء {مسني الضر} أي الشدة {وأنت أرحم الراحمين.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤).

{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ} نِدَاءَهُ {فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرّ وَآتَيْنَاهُ أَهْله} أَوْلَاده الذُّكُور

=

الاجتهاد تبَعٌ لاجتهاد المجتهدين؟

فعلى الأول: المصيبُ واحدٌ. وعلى الثاني: كلُّ مجتهدٍ مصيبٌ.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: هل يلزم أن كل مجتهد مصيب؟ وهل يلزم أن كل مصيب مخلص وكل مخلص مصيب أم لا يلزم هذا؟

فأجاب: لا ، يقول بعض العلماء: كل مجتهد مصيب، وهذا على إطلاقه ليس بصحيح؛ لأن النبي ﷺ قسم المجتهدين إلى قسمين فقال: (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإن حكم فأخطأ فله أجر) وهذا واضح في التفصيل أن من المجتهدين من يصيب ومنهم من يخطئ، ولكن المخطئ قد يكون مصيبًا من وجه آخر وهو إذا اجتهد وبذل الجهد، ووصل إلى نتيجة لكن هذه النتيجة خطأ في حكم الله، فهو مصيب في اجتهاده وتعبه وطلبه للحق، لكن في الحكم مخطئ، ثم إن إصابة الحكم توفيق من الله ﷻ، وقد يوفق لإصابة الحكم من ليس من أهل الاجتهاد، أو من ليست نيته خالصة، لكن من كانت نيته خالصة فهو على خير سواء أصاب أم أخطأ.

وَالْإِنَاث بِأَنْ أُحْيُوا لَهُ وَكُلّ مِنْ الصِّنْفَيْنِ ثَلَاث أَوْ سَبْع {وَمِثْلهمْ مَعَهُمْ} مِنْ زَوْجَته وَزِيدَ فِي شَبَابهَا وَكَانَ لَهُ أَنْدَر لِلْقَمْحِ وَأَنْدَر لِلشَّعِيرِ فَبَعَثَ الله سَحَابَتَيْنِ أَفْرَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَر الْقَمْح الذَّهَب وَأَفْرَغَتْ الْأُخْرَى عَلَى أَنْدَر الشَّعِير الْوَرِق حَتَّى فَاضَ {رَحْمَة} مَفْعُول لَهُ {مِنْ عندنا} صفة {وذكرى للعابدين} ليصبروا فيثابوا(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ} [الأنبياء: ٨٣]، أي:" واذكر - أيها الرسول - عبدنا أيوب حين دعا ربَّه بتضرع وخشوع".

قال الطبري: يقول:" واذكر أيوب يا محمد، إذ نادى ربه وقد مسه الضر والبلاء".

قال السدي:" وقال أيوب -عليه السلام-: يا رب، إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك. وإنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها وأقول لنفسي: يا نفس، إنك لم تخلقي لوطئ الفرش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك".

عن وهب بن مُنَبِّه -من طريق ابن إسحاق، عمَّن لا يتهم- قال: "أيوب بن أموصَ بن رَزاحِ بن عِيصِ بن إسحاق بن إبراهيم الخليل".

عن محمد بن السائب الكلبي -من طريق ابنه هشام- قال: "أولُ نبيٍّ بُعِث إدريس، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل وإسحق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوط، ثم هود، ثم صالح، ثم شعيب، ثم موسى وهارون، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم يونس، ثم أيوب".

قوله تعالى: {أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ} [الأنبياء: ٨٣]، أي:" أني قد أصابني الضر".

و «الضر»: المرض، قاله قتادة، والضحاك، والربيع، وابن جريج.

قال الربيع:" الضراء: في النفس، من وجع أو مرض يصيبه في جسده".

وفي سبب سؤاله العافية ستة أقوال:

=

=

أحدها: أنه اشتهى إداما، فلم تصبه امرأته حتى باعت قرونا من شعرها، فلما علم ذلك قال: «مسني الضر»، رواه الضحاك عن ابن عباس.

الثاني: أن الله تعالى أنساه الدعاء مع كثرة ذكره الله، فلما انتهى أجل البلاء، يسر الله له الدعاء، فاستجاب له، رواه العوفي عن ابن عباس.

الثالث: أن نفرا من بني إسرائيل مروا به، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم، فعند ذلك قال: «مسني الضر»، قاله نوف البكالي.

عن نَوف البِكالي -من طريق أبي عمران الجَوني- قال: "مرَّ نفرٌ مِن بني إسرائيل بأيوب، فقالوا: ما أصابه ما أصابهُ إلا بذنب عظيم أصابه. فسمعها أيوبُ، فعند ذلك قال: {مسني الضر وأنت أرحم الراحمين} . وكان قبل ذلك لا يدعو".

وعن الحسن -من طريق هشام- قال: "لقد مكث أيوب مطروحًا على كُناسَةٍ سبع سنين وأشهرًا، ما يسأل الله أن يكشف ما به، وما على وجه الأرض خلقٌ أكرم من أيوب، فيزعمون أن بعض الناس قال: لو كان لربِّ هذا فيه حاجةٌ ما صنع به هذا. فعند ذلك دعا".

الرابع: أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة، فقال: ليذبح أيوب هذه لي وقد برأ، فجاءت فأخبرته، فقال: لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة، أمرتني أن أذبح لغير الله؟! ثم طردها عنه، فذهبت، فلما رأى أنه لا طعام له ولا شراب ولا صديق، خر ساجدا وقال: «مسني الضر»، قاله الحسن.

وقال ابن عباس:" الشيطان الذي مس أيوب يقال له: مسوط. فقالت امرأة أيوب: ادع الله يشفيك فجعل لا يدعو حتى مر به نفر من بني إسرائيل فقال بعضهم لبعض: ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه، فعند ذلك قال: «رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين» ".

الخامس: أن الله تعالى أوحى إليه وهو في عنفوان شبابه: إني مبتليك، قال: يا رب،

=

=

وأين يكون قلبي؟ قال: عندي، فصب عليه من البلاء ما سمعتم، حتى إذا بلغ البلاء منتهاه، أوحى إليه أني معافيك، قال: يا رب، وأين يكون قلبي؟ قال: عندك، قال: «مسني الضر». قاله إبراهيم بن شيبان القرميسي.

السادس: أن الوحي انقطع عنه أربعين يوما، فخاف هجران ربه، فقال: «مسني الضر»، حكاه الماوردي عن جعفر الصادق -رحمه الله-.

وفي مخرج قوله: {مَسَّنِيَ الضُّرُّ}، أربعة وجوه:

أحدها: أنه خارج مخرج الاستفهام، وتقديره: أيمسني الضر وأنت أرحم الراحمين.

الثاني: أنت أرحم بي أن يمسني الضر.

الثالث: أنه قال ذلك استقالة من ذنبه ورغبة إلى ربه.

الرابع: أنه شكا ضعفه وضره استعطافًا لرحمته.

قال أبو عمرو الدمشقى:"أى: مسنى الضر فصبرنى لأنك أرحم الراحمين".

قوله تعالى: {وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: ٨٣]، أي:" وأنت أرحم الراحمين، فاكشفه عني".

قال ابن الجوزي:" أي: أكثرهم رحمة، وهذا تعريض منه بسؤال الرحمة إذ أثنى عليه بأنه الأرحم وسكت".

ومن أدب أيوب ﷺ : "فبعدما ذكر أيوب عليه السلام حالته بهذه الجملة الموجزة {أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ}، وهذه الجملة الاسمية {وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} محل نصب حال؛ لأن الواو فيها هي واو الحال، أي أنا مسني الضر، والحال أنك أرحم الراحمين، فتأمل رقة العبارة، وحسن العرض، فلم يفصل في الضر الذي مسه، ولم يسترسل في الكلام عن نفسه، ولم يتسخط، أو يشك، أو يعترض، وإنما أشار إلى أن هذا الضر مسه، ولم يقل: (فاعفني واشفني) بصورة الأمر، وفي هذا غاية الأدب مع الله

=

=

ﷻ والرضا بقدره".

قال الرازي: اعلم أن في أمر أيوب ﵇ وما ذكره الله تعالى من شأنه ههنا وفي غيره من القرآن من العبر والدلائل ما ليس في غيره، لأنه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله مما كان غبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك وتعريفًا لهم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها، ويجتهد في القيام بحق الله تعالى ويصبر على حالتي الضراء والسراء.

وقال ابن كثير: «يذكر الله تعالى عن أيوب ﵇ ما كان قد أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرون، ومنازل مرضية. فابتلى في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلى في جسده..

ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته.. وقد كان نبي الله أيوب غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك. ا.هـ.

وقال الآلوسى: وهو ابن أموص بن رزاح بن عيص بن إسحاق. وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط، وأن أباه ممن آمن بإبراهيم فعلى هذا كانت بعثته قبل موسى وهارون. وقيل: بعد شعيب، وقيل: بعد سليمان..» ا.هـ.

والضر- بالفتح- يطلق على كل ضرر- وبالضم- خاص بما يصيب الإنسان في نفسه من مرض وأذى وما يشبههما.

والمعنى: واذكر- أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب- عبدنا أيوب ﵇ وقت أن نادى ربه، وتضرع إليه بقوله: يا رب أنى أصابنى ما أصابنى من الضر والتعب، وأنت أجل وأعظم رحمة من كل من يتصف بها.

فأنت ترى أن أيوب ﵇ لم يزد في تضرعه عن وصف حاله أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ

=

=

ووصف خالقه تعالى بأعظم صفات الرحمة دون أن يقترح شيئا أو يطلب شيئا، وهذا من الأدب السامي الذي سلكه الأنبياء مع خالقهم- ﷻ-.

قال الزمخشري: «ألطف- أيوب- في السؤال، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب. ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت: يا أمير المؤمنين، مشت جرذان- أي فئران- بيتي على العصى!! فقال لها: ألطفت في السؤال، لا جرم لأجعلنها تثب وثب الفهود، وملأ بيتها حبا..» ا.هـ.

قوله تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ} [الأنبياء: ٨٤]، أي:" أجبنا دعاءه وتضرعه".

قال الطبري: يقول:" فاستجبنا لأيوب دعاءه إذ نادانا".

قوله تعالى: {فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ} [الأنبياء: ٨٤]، أي:" أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء".

قال الطبري: يقول:" فكشفنا ما كان به من ضر وبلاء وجهد، وكان الضر الذي أصابه والبلاء الذي نزل به امتحانا من الله له واختبارا".

قوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} [الأنبياء: ٨٤]، أي:" ورددنا عليه ما فقده من أهل وولد ومال مضاعفًا".

واختلف في الأهل الذي ذكر الله في قوله: {وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} [الأنبياء: ٨٤]، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه وعد وعده الله أيوب أن يفعل به في الآخرة. قاله عكرمة، ومجاهد-في رواية.

قال ليث: "أرسل مجاهد رجلا يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن قول الله لأيوب {وآتيناه أهله ومثلهم معهم}، فقال: قيل له: إن أهلك لك في الآخرة، فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في

=

=

الآخرة، وآتيناك مثلهم في الدنيا، فقال: يكونون لي في الآخرة، وأوتي مثلهم في الدنيا، قال: فرجع إلى مجاهد فقال: أصاب".

قال مجاهد:" قيل له: إن شئت أحييناهم لك، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وتعطى مثلهم في الدنيا، فاختار أن يكونوا في الآخرة ومثلهم في الدنيا".

الثاني: أنهم أهله الذين أوتيهم في الدنيا، إذ ردهم إليه بأعيانهم وأعطاه مثلهم معهم. وهذا قول ابن مسعود، وابن عباس، والحسن -في رواية-، وقتادة، ومجاهد -في رواية أخرى.

قال ابن عباس:" لما دعا أيوب استجاب الله له، وأبدله بكل شيء ذهب له ضعفين، رد إليه أهله ومثلهم معهم".

قال مجاهد:" أحياهم بأعيانهم، ورد إليه مثلهم".

قال الحسن وقتادة: "أحيا الله أهله بأعيانهم، وزاده إليهم مثلهم".

الثالث: آتاه الله المثل من نسل ماله الذي رده عليه وأهله، فأما الأهل والمال فإنه ردهما عليه. وهذا قول الحسن -في رواية أخرى-.

وأكثر التفاسير:" أن الله - جل ثناؤه - أحيا من مات من بنيه وَبَنَاتِه ورَزَقَه مِثلهمْ من الْوَلَدِ".

قوله تعالى: {رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا} [الأنبياء: ٨٤]، أي:" فَعَلْنا به ذلك رحمة منَّا".

قال الطبري: معناه:" فعلنا بهم ذلك رحمة منا له".

قال يحيى:" يعني: أن الذي كان ابتلي به أيوب لم يكن من هوانه على الله، ولكن الله تبارك وتعالى أراد كرامته بذلك".

قوله تعالى: {وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء: ٨٤]، أي:" وتذكرة لغيره من العابدين ليصبوا كما صبر".

قال ابن عباس:" موعظة للمطيعين".

=

=

قال الثعلبي: أي:" عظة لهم".

قال يحيى:" وجعل ذلك عزاء للعابدين بعده فيما يبتلون به".

قال الطبري:" يقول: وتذكرة للعابدين ربهم فعلنا ذلك به ليعتبروا به، ويعلموا أن الله قد يبتلي أولياءه ومن أحب من عباده في الدنيا بضروب من البلاء في نفسه وأهله وماله، من غير هوان به عليه، ولكن اختبارا منه له ليبلغ بصبره عليه واحتسابه إياه وحسن يقينه منزلته التي أعدها له تبارك وتعالى من الكرامة عنده".

قال القرطبي:" أي: وتذكيرا للعباد، لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له وهو أفضل أهل زمانه وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب، فيكون هذا تنبيها لهم على إدامة العبادة، واحتمال الضرر".

وقال ابن كثير: "أي: وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء وله الحكمة البالغة في ذلك".

قال كعب القرظي:" أيما مؤمن أصابه بلاء فذكر ما أصاب أيوب، فليقل: قد أصاب من هو خير منا نبيا من الأنبياء".

واختلف في مدة إقامة النبي أيوب-عليه السلام- في البلاء، على أربعة أقوال:

أحدها: كانت مدة البلاء ثماني عشرة سنة، رواه أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم.

الثاني: سبع سنين. قاله ابن عباس.

الثالث: ثلاثين سنة. قاله وهب.

الرابع: سبع سنين وستة أشهر. قاله الحسن.

وروي:" أنه كان يقال له: ما لك لا تدعو في العافية؟ فكان يقول: إني لأستحيي من الله تعالى أن أسأله زوال عذابه حتى يمر علي فيه ما مر من الرخاء، وأصابه البلاء فيما روي وهو ابن ثمانين سنة".

=

=

وبعد أن دعا أيوب ربه تعالى بهذه الثقة، وبهذا الأدب والإخلاص، كانت الإجابة المتمثلة في قوله تعالى: فَاسْتَجَبْنا لَهُ أى دعاءه وتضرعه فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ أى: فأزلنا ما نزل به من بلاء في جسده، وجعلناه سليما معافى. بأن أمرناه أن يضرب برجله الأرض ففعل، فنبعت له عين فاغتسل منها، فزال عن بدنه كل مرض أصابه بإذن الله تعالى.

قال-سبحانه-: وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ.. .

وقد ورد في الحديث عن أنس بن مالك مرفوعا (إن نبي الله أيوب ﷺ لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة فرفضه القريب و البعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه و يروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه: و ما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتنازعان، فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، قال: و كان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها و أوحي إلى أيوب أن (اركض برجلك هذا مغتسل بارد و شراب) فاستبطأته فتلقته تنظر و قد أقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء و هو أحسن ما كان فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحا، فقال: فإني أنا هو، و كان له أندران (أي بيدران): أندر للقمح و أندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض و أفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض) أخرجه أبو يعلى (٣٦١٧)، وابن حبان (٢٨٩٨)،

=

=

والحاكم (٢/ ٦٣٥)، والطبرى فى التفسير (٢٣/ ١٦٧)، وأبو نعيم فى الحلية (٣/ ٣٧٤)، والطبراني في الأحاديث الطوال (٤٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٣٦٩٨)، والضياء في المختارة (٢٦١٧) والحديث قال عنه الضياء: إسناده صحيح، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٦٥٢٧): إسناده صحيح وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ١٢٤): صححه ابن حبان والحاكم وأقرهم، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق صحيح ابن حبان: إسناده على شرط مسلم، وصححه العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٧)، أما ابن كثير فقال في البداية والنهاية (١/ ٢٠٨): غريب رفعه جدا والأشبه أن يكون موقوفا، وأقره الشيخ مقبل في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (٥٤)، وأظن أن هذا هو الحكم المتأخر، لأن الشيخ مقبل قد صححه في صحيح دلائل النبوة (٤٢٤) والله أعلم.

وقال تعالى: وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ أى: لم نخيب رجاء أيوب حين دعانا، بل استجبنا له دعاءه، بفضلنا وكرمنا، فأزلنا عنه المرض الذي نزل به، ولم نكتف بهذا- أيضا- بل عوضناه عمن فقده من أولاده، ورزقناه مثلهم معهم.

قال الآلوسى ما ملخصه: «قوله: وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال: سألت النبي ﷺ عن قوله: وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ فقال: «رد الله تعالى امرأته إليه، وزاد في شبابها، حتى ولدت له ستا وعشرين ذكرا». فالمعنى على هذا: آتيناه في الدنيا مثل أهله عددا مع زيادة مثل آخر. وعن قتادة: إن الله أحيا له أولاده الذين هلكوا في بلائه، وأوتى مثلهم في الدنيا.. ا.هـ.

ثم ختم -سبحانه- الآية الكريمة بقوله تعالى: رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ أى: أجبنا له دعاءه، وفعلنا معه ما فعلناه من ألوان الخيرات، من أجل رحمتنا به، ومن أجل أن يكون ما فعلناه معه عبرة وعظة وذكرى لغيره من العابدين حتى

=

=

يقتدوا به في صبره على البلاء، وفي المداومة على شكرنا في السراء والضراء.
وخص -سبحانه- العابدين بالذكرى، لأنهم أكثر الناس بلاء وامتحانا. ففي الحديث الشريف: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل».
وفي حديث آخر: «يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه».
وقد كان أيوب آية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك.
هذا، وقصة أيوب عليه السلام ستأتي بصورة أكثر تفصيلا في سورة «ص»، وقد تركنا هنا أقوالا عن كيفية مرضه، وعن مدة هذا المرض.. نظرا لضعفها، ومنافاتها لعصمة الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- من الأمراض المنفرة.
(**تنبيه**): قال ابن العربي: "ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين: الأولى في قوله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرّ...} والثانية في "ص": {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} وأما النبي ﷺ: فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: "بينما أيوب يغتسل، إذ خر عليه رجل من جراد من ذهب..." الحديث، وإذا لم يصح فيه قرآن، ولا سنة إلا ما ذكرنا فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أي لسان سمعه ؟!، والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصم عن سماعها أذنيك؛ فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالا، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا، وفي الصحيح واللفظ للبخاري: أن ابن عباس قال: "يا معشر المسلمين، تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله، تقرءونه محضا لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله، وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب، فقالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم"٢ وقد أنكر النبي ﷺ في
=

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥).

{و} اذكر {إسماعيل وَإِدْرِيس وَذَا الْكِفْل كُلّ مِنْ الصَّابِرِينَ} عَلَى طَاعَة الله وَعَنْ مَعَاصِيه.

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦).

=

حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة".

وقال الإمام الآلوسي في تفسيره، بعد أن ذكر بعض مما ذكرنا: وعظم بلائه عليه السلام مما شاع وذاع ولم يختلف فيه اثنان، لكن في بلوغ أمره إلى أن ألقي على كناسة، ونحو ذلك فيه خلاف.

قال الطبرسي: قال أهل التحقيق: إنه لا يجوز أن يكون بصفة يستقذره الناس عليها؛ لأن في ذلك تنفيرًا، فأما الفقر والمرض، وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله تعالى بذلك.

وفي هداية المريد للَّقاني: أنه يجوز على الأنبياء عليهم السلام كل عرض بشري، ليس محرما ولا مكروها، ولا مباحا مرزيا، ولا مزمنا، ولا مما تعافه الأنفس، ولا مما يؤدي إلى النفرة، ثم قال بعد ورقتين: واحترزنا بقولنا: ولا مزمنا ولا مما تعافه الأنفس.

عما كان كذلك كالإقعاد، والبرص والجذام، والعمى، والجنون.

وأما الإغماء: فقال النووي: لا شك في جوازه عليهم؛ لأنه مرض بخلاف الجنون، فإنه نقص، وقيد أبو حامد يعني الغزالى الإغماء بغير الطويل، وجزم به البلقيني، قال السبكي: وليس كإغماء غيرهم، لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة، دون قلوبهم، لأنها معصومة من النوم الأخف، قال: ويمتنع عليهم الجنون، وإن قل، لأنه نقص، ويلحق به العمى، ولم يعمى نبي قط، وما ذكر عن شعيب من أنه كان ضريرا لم يثبت، وأما يعقوب فحصلت له غشاوة وزالت. انتهى.

{وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتنَا} مِنْ النُّبُوَّة {إِنَّهُمْ مِنْ الصَّالِحِينَ} لَهَا وَسُمِّيَ ذَا الْكِفْل لِأَنَّهُ تَكَفَّلَ بِصِيَامِ جَمِيع نَهَاره وَقِيَام جَمِيع لَيْله وَأَنْ يَقْضِيَ بَيْن النَّاس وَلَا يَغْضَب فَوَفَّى بِذَلِكَ وَقِيلَ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ} [الأنبياء: ٨٥]، أي:" واذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل".

قال الطبري:" يعني تعالى ذكره بإسماعيل: إسماعيل بن إبراهيم صادق الوعد، وبإدريس: أخنوخ، وبذي الكفل: رجلا تكفل من بعض الناس، إما من نبي وإما من ملك من صالحي الملوك بعمل من الأعمال، فقام به من بعده، فأثنى الله عليه حسن وفائه بما تكفل به، وجعله من المعدودين في عباده، مع من حمد صبره على طاعة الله".

قال السعدي:" أي: واذكر عبادنا المصطفين، وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء، إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذا الكفل، نبيين من أنبياء بني إسرائيل".

قال الزمخشري:" قيل في ذى الكفل: هو إلياس. وقيل: زكريا. وقيل: يوشع بن نون، وكأنه سمى بذلك لأنه ذو الحظ من الله والمجدود على الحقيقة. وقيل: كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم. وقيل: خمسة من الأنبياء ذوو اسمين: إسرائيل ويعقوب. إلياس وذو الكفل. عيسى والمسيح. يونس وذو النون. محمد وأحمد: صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين".

وفي قوله تعالى: {وَذَا الْكِفْلِ} [الأنبياء: ٨٥]، قولان:

أحدهما: أنه لم يكن نبيا، ولكنه كان عبدا صالحا، قاله أبو موسى الأشعري، ومجاهد.

ثم اختلف أرباب هذا القول في عله تسميته بذي الكفل على ثلاثة أقوال:

=

=

أحدها: أن رجلا كان يصلي كل يوم مائة صلاة فتوفي، فكفل بصلاته، فسمي: ذا الكفل، قاله أبو موسى الأشعري.

الثاني: أنه تكفل للنبي بقومه أن يكفيه أمرهم ويقيمه ويقضي بينهم بالعدل ففعل، فسمي: ذا الكفل، قاله مجاهد.

وقال ابن عباس:" كان قاض في بني إسرائيل، فحضره الموت فقال: من يقوم مقامي على إن لا يغضب؟ قال: فقال رجل: أنا فسمى ذا الكفل قال: فكان ليله جميعا يصلي، ثم يصبح صائما فيقضي بين الناس. قال: وله ساعة يقيلها قال: فكان كذلك، فأتاه الشيطان عند نومته فقال له أصحابه: مالك؟ قال: إنسان مسكين له على رجل حق، وقد غلبني عليه، قالوا: كما أنت حتى يستيقظ، قال: وهو فوق نائم- قال: فجعل يصيح عمدا حتى يوقظه قال: فسمع، فقال: مالك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق قال: اذهب فقل له: يعطيك، قال: قد أبي قال: اذهب أنت إليه قال: فذهب، ثم جاء من الغد فقال: مالك؟ قال: ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأسا. قال: اذهب إليه فقل له: يعطيك حقك، قال: فذهب، ثم جاء من الغد حين قال: قال: فقال له أصحابه: اخرج فعل الله بك، تجيء كل يوم حين ينام، لا تدعه ينام؟ فجعل يصيح: من أجل أني إنسان مسكين لو كنت غنيا؟ قال: فسمع أيضا، فقال: مالك؟ قال: ذهبت إليه فضربني، قال: امش حتى أجئ معك قال: فهو ممسك بيده فلما راه ذهب معه نثر يده منه ففر".

الثالث: أن ملكا قتل في يوم ثلاثمائة نبي، وفر منه مائة نبي، فكفلهم ذو الكفل يطعمهم ويسقيهم حتى أفلتوا، فسمي ذا الكفل، قاله ابن السائب.

القول الثاني: أنه كان نبيا، قاله الحسن، وعطاء.

قال عطاء: "أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: إني أريد قبض روحك، فاعرض ملكك على بني إسرائيل، فمن تكفل لك بأنه يصلي الليل لا يفتر، ويصوم النهار

=

=

لا يفطر، ويقضي بين الناس ولا يغضب، فادفع ملكك إليه، ففعل ذلك، فقام شاب فقال: أنا أتكفل لك بهذا، فتكفل به، فوفى، فشكر الله له ذلك، ونبأه، وسمي: ذا الكفل".

وقد ذكر الثعلبي حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ في الكفل: «أنه كان رجلا لا ينزع عن ذنب، وأنه خلا بامرأة ليفجر بها، فبكت، وقالت: ما فعلت هذا قط، فقام عنها تائبا، ومات من ليلته، فأصبح مكتوبا على بابه: قد غفر الله للكفل».

قال ابن الجوزي:" فجعله الثعلبي أحد الوجوه في بيان ذي الكفل، وهذا غلط، لأن ذلك اسمه الكفل، والمذكور في القرآن: ذو الكفل، ولأن الكفل مات في ليلته التي تاب فيها، فلم يمض عليه زمان طويل يعالج فيه الصبر عن الخطايا، وإذا قلنا: إنه نبي، فإن الأنبياء معصومون عن مثل هذا الحال. وذكرت هذا لشيخنا أبي الفضل بن ناصر، فوافقني، وقال: ليس هذا بذاك".

قوله تعالى: {كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الأنبياء: ٨٥]، أي:"، كل هؤلاء من الصابرين على طاعة الله سبحانه وتعالى، وعن معاصيه، وعلى أقداره".

قال الطبري:" كلهم من أهل الصبر فيما نابهم في الله".

قال ابن الجوزي:" أي: على طاعة الله وترك معصيته".

قال السعدي:" الصبر: هو حبس النفس ومنعها، مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

فلا يستحق العبد اسم الصبر التام، حتى يوفي هذه الثلاثة حقها.

فهؤلاء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قد وصفهم الله بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضا بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلب، بمعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطبا من

=

=

ذكر الله، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم، إلا أن الله تعالى نوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفا وفضلا".

لما ذكر صبر أيوب عليه السلام وانقطاعه إليه أتبعه بذكر هؤلاء فإنهم كانوا أيضا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة،

أي: اذكر عبادنا المصطفين، وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء، إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذا الكفل.

وإسماعيل: هو الابن الأكبر لإبراهيم- عليهما السلام- وهو الذبيح الذي افتداه الله تعالى بذبح عظيم.

وإدريس: هو واحد من أنبياء الله تعالى، قالوا: وهو جد نوح عليه السلام وأنه ولد في حياة آدم، وبعث بعد موته.

أما ذو الكفل: فقد قال القاسمي: قال ابن كثير: أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام. وقد تقدم ذكره في سورة مريم. وكذا إدريس عليه السلام. وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلا صالحا، وكان ملكا عادلا وحكما مقسطا، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم. وذهب بعض المحققين إلى أن ذا الكفل هو حزقيل عليه السلام ا.هـ

وقال الآلوسى في شأنه ما ملخصه: ظاهر نظم ذي الكفل في سلك الأنبياء أنه منهم، وهذا ما ذهب إليه الأكثر. واختلف في اسمه: فقيل: بشر وهو ابن أيوب، بعثه الله تعالى بعد أبيه، وكان مقيما بالشام.

وقيل: هو إلياس بن ياسين وينتهى نسبه إلى هارون عليه السلام.

وقيل: هو زكريا والد يحيى- عليهما السلام- وسمى بذلك لكفالته مريم.

=

=

وقيل: لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا..».

قال الرازي: قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ومجاهد ذو الكفل لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا، وقال الحسن والأكثرون إنه من الأنبياء عليهم السلام وهذا أولى الوجوه: أحدها: أن ذا الكفل يحتمل أن يكون لقبا وأن يكون اسما، والأقرب أن يكون مفيدا، لأن الاسم إذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب. إذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب والظاهر أن الله تعالى إنما سماه بذلك على سبيل التعظيم، فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو إنما سمي بذلك لأن عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره ولقد كان في زمنه أنبياء على ما روي ومن ليس بنبي لا يكون أفضل من الأنبياء. وثانيها: أنه تعالى قرن ذكره بذكر إسماعيل وإدريس والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم وذلك يدل على نبوته. وثالثها: أن السورة ملقبة بسورة الأنبياء فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبي. ا.هـ

ثم مدح -سبحانه- هؤلاء الأنبياء فقال: كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ أى: كل واحد منهم من عبادنا الصابرين الذين تحملوا في سبيلنا الكثير من المصاعب والآلام.

وَأَدْخَلْناهُمْ بفضلنا وإحساننا فِي رَحْمَتِنا التي وسعت كل شيء إِنَّهُمْ مِنَ عبادنا الصَّالِحِينَ لحمل رسالتنا، وتبليغها إلى أقوامهم بصدق وصبر وأمانة.

قوله تعالى: {وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا} [الأنبياء: ٨٦]، أي:" أدخلناهم بصبرهم وصلاحهم الجنة دار الرحمة والنعيم".

قال الطبري: يقول:" وأدخلنا إسماعيل وإدريس وذا الكفل {فِي رَحْمَتِنَا} ".

قال مقاتل:" يعني: في نعمتنا وهي النبوة".

قال الحسن: "أدخلناهم في رحمتنا وهي الجنة".

قال الماتريدي:" جائز أن يكون جميع ما نالوا من الصبر والصلاح كان ذلك كله

=

=

رحمة الله وفضله، وهكذا أن من نال شيئا من الخيرات والطاعات فإنما ينال ذلك كله برحمته".

قال السمعاني:" قال بعض أهل المعاني: إن قوله: {وأدخلناهم في رحمتنا} أبلغ من قوله: ورحمناهم؛ لأن قوله: {وأدخلناهم في رحمتنا} يقتضي أنهم غمروا بالرحمة، وقوله: ورحمناهم يقتضي أنه أصابهم رحمته".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ} [الأنبياء: ٨٦]، أي:" لأنهم من أهل الفضل والصلاح".

قال الطبري:" يقول: إنهم ممن صلح، فأطاع الله، وعمل بما أمره".

قال مقاتل:" يعني: من المؤمنين".

قال السمعاني:" «الصلاح»: اسم يجمع جميع خصال الخير".

قال ابن عاشور قوله {مِنَ الصَّابِرِينَ} جمع هؤلاء الثلاثة في سلك واحد لاشتراكهم في خصيصية الصبر كما أشار إليه قوله تعالى كل من الصابرين. جرى ذلك لمناسبة ذكر المثل الأشهر في الصبر وهو أيوب.

فأما صبر إسماعيل- عليه السلام فقد تقرر بصبره على الرضى بالذبح حين قال له إبراهيم: إني أرى في المنام أني أذبحك فقال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين [الصافات: ١٠٢]، وتقرر بسكناه بواد غير ذي زرع امتثالا لأمر أبيه المتلقي من الله تعالى، وتقدمت ترجمة إسماعيل في سورة البقرة.

وأما إدريس فهو اسم (أخنوخ) على أرجح الأقوال. وقد ذكر أخنوخ في التوراة في سفر التكوين جدا لنوح. وتقدمت ترجمته في سورة مريم ووصف هنالك بأنه صديق نبيء وقد وصفه الله تعالى هنا فليعد في صف الصابرين. والظاهر أن صبره كان على تتبع الحكمة والعلوم وما لقي في رحلاته من المتاعب. وقد عدت من صبره قصص، منها أنه كان يترك الطعام والنوم مدة طويلة لتصفو نفسه للاهتداء

=

=

إلى الحكمة والعلم.

وأما ذو الكفل فهو نبيء اختلف في تعيينه، فقيل هو إلياس المسمى في كتب اليهود (إيليا).

وقيل: هو خليفة اليسع في نبوءة بني إسرائيل. والظاهر أنه (عوبديا) الذي له كتاب من كتب أنبياء اليهود وهو الكتاب الرابع من الكتب الاثني عشر وتعرف بكتب الأنبياء الصغار.

والكفل- بكسر الكاف وسكون الفاء-، أصله: النصيب من شيء، مشتق من كفل إذا تعهد. لقب بهذا لأنه تعهد بأمر بني إسرائيل لليسع. وذلك أن اليسع لما كبر أراد أن يستخلف خليفة على بني إسرائيل فقال: من يتكفل لي بثلاث أستخلفه: أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب. فلم يتكفل له بذلك إلا شاب اسمه (عوبديا)، وأنه ثبت على ما تكفل به فكان لذلك من أفضل الصابرين. وقد عد عوبديا من أنبياء بني إسرائيل على إجمال في خبره (انظر سفر الملوك الأول الإصحاح ١٨. ورؤيا عوبديا صفحة ٨٩١ من الكتاب المقدس). وروى العبري عن أبي موسى الأشعري ومجاهد أن ذا الكفل لم يكن نبيئا. وتقدمت ترجمة إلياس واليسع في سورة الأنعام.

وجملة إنهم من الصالحين تعليل لإدخالهم في الرحمة، وتذييل للكلام يفيد أن تلك سنة الله مع جميع الصالحين ا.هـ

وقال السعدي: والصبر: هو حبس النفس ومنعها، مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام، حتى يوفي هذه الثلاثة حقها. فهؤلاء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قد وصفهم الله بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضا بالصلاح، وهو يشمل صلاح

=

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧).

{وَ} اُذْكُرْ {ذَا النُّون} صَاحِب الْحُوت وَهُوَ يُونُس بْن مَتَّى وَيُبْدَل مِنْهُ {إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا} لِقَوْمِهِ أَيْ غَضْبَان عَلَيْهِمْ مِمَّا قَاسَى مِنْهُمْ وَلَمْ يُؤْذَن لَهُ فِي ذَلِكَ {فظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِر عَلَيْهِ} أَيْ نَقْضِي عَلَيْهِ بِمَا قَضَيْنَاهُ مِنْ حَبْسه فِي بَطْن الْحُوت أَوْ نُضَيِّق عَلَيْهِ بِذَلِكَ {فَنَادَى فِي الظُّلُمَات} ظُلْمَة اللَّيْل وَظُلْمَة الْبَحْر وَظُلْمَة بَطْن الْحُوت {أَنْ} أَيْ بِأَنْ {لَا إِلَه إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانك إِنِّي كُنْت مِنْ الظَّالِمِينَ} فِي ذَهَابِي مِنْ بَيْن قَوْمِي بِلَا إِذْنٍ.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨).

{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمّ} بِتِلْكَ الْكَلِمَات {وَكَذَلِكَ} كَمَا نَجَّيْنَاهُ {نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} مِنْ كَرْبهمْ إِذَا اسْتَغَاثُوا بِنَا دَاعِينَ[١].

=

القلب، بمعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطبا من ذكر الله، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم، إلا أن الله تعالى نوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفا وفضلا.

(١) واذكر قصة صاحب الحوت، وهو يونس بن مَتَّى عليه السلام، أرسله الله إلى قومه فدعاهم فلم يؤمنوا، فتوعَّدهم بالعذاب فلم ينيبوا، ولم يصبر عليهم كما أمره الله، وخرج مِن بينهم غاضبًا عليهم، ضائقًا صدره بعصيانهم، وظن أن الله لن يضيِّق عليه ويؤاخذه بهذه المخالفة، فابتلاه الله بشدة الضيق والحبس، والتقمه الحوت
=

=

في البحر، فنادى ربه في ظلمات الليل والبحر وبطن الحوت تائبًا معترفًا بظلمه؛ لتركه الصبر على قومه، قائلا: لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين.

قوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا} [الأنبياء: ٨٧]، أي:" واذكر قصة صاحب الحوت، حين خرج من بلده مغاضبًا لقومه إِذ كان يدعوهم إِلى الإِيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم".

قال الطبري: يقول:" واذكر يا محمد صاحب الحوت، يونس بن متى حين ذهب مغاضبا".

قال ابن كثير:" وذلك أن يونس بن مَتَّى، عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية "نينوى"، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه، ورغت الإبل وفُصْلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحُمْلانها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: {فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس: ٩٨].

وأما يونس، عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فَلَجَّجت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضًا، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا، قال الله تعالى: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} [الصافات: ١٤١]، أي: وقعت عليه القرعة، فقام يونس، عليه السلام، وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله، سبحانه وتعالى، من البحر الأخضر - فيما قاله ابن

=

=

مسعود - حوتًا يشق البحار، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحمًا، ولا تهشم له عظما؛ فإن يونس ليس لك رزقا، وإنما بطنك له يكون سجنًا".

وفي قوله تعالى: {إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا} [الأنبياء: ٨٧]، وجوه:

أحدها: يعني: مراغمًا للملك وكان اسمه حزقيا ولم يكن به بأس، حكاه النقاش.

الثاني: مغاضبًا عن قومه، قاله ابن عباس، والحسن، والضحاك.

الثالث: مغاضبًا لربه، إذ كشف عنهم العذاب بعدما وعدهموه. قاله ابن عباس، والشعبي.

قال ابن عباس:" بعثه الله، يعني يونس إلى أهل قريته، فردوا عليه ما جاءهم به وامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه: إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا، فاخرج من بين أظهرهم، فأعلم قومه الذي وعده الله من عذابه إياهم، فقالوا: ارمقوه، فإن خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم، فلما كانت الليلة التي وعدوا بالعذاب في صبحها أدلج ورآه القوم، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم، وفرقوا بين كل دابة وولدها، ثم عجوا إلى الله، فاستقالوه، فأقالهم، وتنظر يونس الخبر عن القرية وأهلها، حتى مر به مار، فقال: ما فعل أهل القرية؟ فقال: فعلوا أن نبيهم خرج من بين أظهرهم، عرفوا أنه صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من

قريتهم إلى براز من الأرض، ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها، وعجوا إلى الله وتابوا إليه، فقبل منهم، وأخر عنهم العذاب، قال: فقال يونس عند ذلك وغضب: والله لا أرجع إليهم كذابا أبدا، وعدتهم العذاب في يوم ثم رد عنهم، ومضى على وجهه مغاضبا".

الرابع: إنما غاضب ربه من أجل أنه أمر بالمصير إلى قوم لينذرهم بأسه،

=

=

ويدعوهم إليه، فسأل ربه أن ينظره، ليتأهب للشخوص إليهم، فقيل له: الأمر أسرع من ذلك، ولم ينظر حتى شاء أن ينظر إلى أن يأخذ نعلا ليلبسها، فقيل له نحو القول الأول، وكان رجلا في خلقه ضيق، فقال: أعجلني ربي أن آخذ نعلا فذهب مغاضبا. وهذا قول الحسن.

الخامس: وهو ما قاله عمرو بن قيس:" كانت تكون أنبياء جميعا يكون عليهم واحد، فكان يوحى إلى ذلك النبي ﷺ: أرسل فلان إلى بني فلان، فقال الله: إذ ذهب مغاضبا قال: مغاضبا لذلك النبي".

قوله تعالى: {فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} [الأنبياء: ٨٧]، أي:" فظنَّ يونس أنْ لن نضيّق عليه بالعقوبة".

وفي قوله تعالى: {فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} [الأنبياء: ٨٧]، أربعة وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: فظن أن لن نضيّق عليه، وأنّا نخلّيه ونهمله. والعرب تقول: فلان مقدّر عليه في الرزق، ومقتّر عليه، بمعنى واحد، أي مضيّق عليه. ومنه قوله تعالى: {وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ} [الفجر: ١٦]، أي: ضيق عليه. قاله ابن قتيبة.

الثاني: فظن أن لن نعاقبه بما صنع، قاله قتادة، ومجاهد، والضحاك، والكلبي، ومقاتل.

قال الاخفش:" أي: لن نقدر عليه العقوبة، لأنه قد اذنب بتركه قومه وانما غاضب بعض الملوك ولم يغاضب ربه كان بالله ﷻ اعلم من ذلك".

وقال ابن عباس:" ظن أن لن نقضي عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه في غضبه إذ غضب عليهم، وفراره وعقوبته أخذ النون إياه".

الثالث: فظن أن لن نحكم عليه بما حكمنا، حكاه ابن شجرة. وهو معنى قول قتادة.

قال قتادة:" ظن أن لن نقضي عليه العقوبة".

=

=

قال الفراء: "يريد أن لن نقدر عليه من العقوبة ما قدرنا".

وقرأ ابن عباس: «نقدّر» بالتشديد، وهو معنى ما ذكره الفراء.

قال الماوردي:"ولا يجوز أن يكون محمولًا على العجز عن القدرة عليه لأنه كفر".

وروي عن عوف سعيد بن أبي الحسن، قال: "بلغني أن يونس لما أصاب الذنب، انطلق مغاضبا لربه، واستزله الشيطان، حتى ظن أن لن نقدر عليه، قال: وكان له سلف وعبادة وتسبيح، فأبى الله أن يدعه للشيطان، فأخذه فقذفه في بطن الحوت، فمكث في بطن الحوت أربعين من بين ليلة ويوم، فأمسك الله نفسه فلم يقتله هناك، فتاب إلى ربه في بطن الحوت، وراجع نفسه، قال: فقال: {سبحانك إني كنت من الظالمين}، قال: فاستخرجه الله من بطن الحوت برحمته، بما كان سلف من العبادة والتسبيح، فجعله من الصالحين، قال عوف: وبلغني أنه قال في دعائه: وبنيت لك مسجدا في مكان لم يبنه أحد قبلي".

عن إياس بن معاوية المدني،:"أنه كان إذا ذكر عنده يونس، وقوله {فظن أن لن نقدر عليه}، يقول إياس: فلم فر؟ ".

الرابع: أنه على معنى استفهام، تقديره: أفظن أن لن نقدر عليه، فحذف ألف الاستفهام إيجازًا، قاله ابن زيد، وسليمان بن المعتمر.

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب، قول من قال: عنى به: فظن يونس أن لن نحبسه ونضيق عليه، عقوبة له على مغاضبته ربه، لأنه لا يجوز أن ينسب إلى الكفر وقد اختاره لنبوته، ووصفه بأن ظن أن ربه يعجز عما أراد به ولا يقدر عليه، ووصف له بأنه جهل قدرة الله، وذلك وصف له بالكفر، وغير جائز لأحد وصفه بذلك، وأما ما قاله ابن زيد، فإنه قول لو كان في الكلام دليل على أنه استفهام حسن، ولكنه لا دلالة فيه على أن ذلك كذلك، والعرب لا

=

=

تحذف من الكلام شيئا لهم إليه حاجة إلا وقد أبقت دليلا على أنه مراد في الكلام، فإذا لم يكن في قوله: {فظن أن لن نقدر عليه}، دلالة على أن المراد به الاستفهام كما قال ابن زيد، كان معلوما أنه ليس به وإذا فسد هذان الوجهان، صح الثالث وهو ما قلنا".

قال الشنقيطي: " قوله: {فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيهِ} فيه وجهان من التفسير لا يكذب أحدهما الآخر.

الأول: أن المعنى {لَنْ نَقْدِرَ عَلَيهِ} أي: لن نضيق عليه في بطن الحوت. ومن إطلاق "قدر" بمعنى "ضيق" في القرآن قوله تعالى: {اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} أي: ويضيق الرزق على من شاء، وقوله تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ} الآية. فقوله: {وَمَنْ قُدِرَ عَلَيهِ رِزْقُهُ} أي ومن ضيق عليه رزقه.

الوجه الثاني: أن معنى: {لَنْ نَقْدِرَ عَلَيهِ} لن نقضي عليه ذلك. وعليه فهو من القدر والقضاء. "وقَدِر" بالتخفيف تأتي بمعنى "قدر" المضعفة؛ ومنه قوله تعالى: {فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)} أي: قدره الله. ومنه قول الشاعر وأنشده ثعلب شاهدًا لذلك:

فليست عشياتُ الحمى برواجعٍ ... لنا أبدًا ما أورق السَّلم النضرُ
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى ... تباركْتَ ما تَقْدِر يقع ولك الشكر

والعرب تقول: قدر الله لك الخير يَقْدِره قدرًا، كضرب يضرب، ونصر ينصر، بمعنى قدَّره لك تقديرًا؛ ومنه على أصح القولين "ليلة القدر"؛ لأن الله يقدر فيها الأشياء؛ كما قال تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤)} والقَدَر بالفتح، والقَدْر بالسكون: ما يقدره الله من القضاء؛ ومنه قول هدبة بن الخشرم:

ألا يا لقومي للنوائب والقَدْر ... وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري

=

=

أما قول من قال: إن {لَنْ نَقْدِرَ عَلَيهِ} من القدرة؛ فهو قول باطل بلا شك؛ لأن نبي الله يونس لا يشك في قدرة الله على كل شيء، كما لا يخفى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: {مُغَاضِبًا} أي: في حال كونه مغاضبًا لقومه. ومعنى المفاعلة فيه: أنه أغضبهم بمفارقته وتخويفهم حلول العذاب بهم، وأغضبوه حين دعاهم إلى الله مدة فلم يجيبوه، فأوعدهم بالعذاب. ثم خرج من بينهم على عادة الأنبياء عند نزول العذاب قبل أن يأذن الله له في الخروج؛ قاله أبو حيان في البحر. وقال أيضًا: وقيل معنى {مُغَاضِبًا} غضبان، وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكًا؛ نحو عاقبت اللص، وسافرت".

قوله تعالى: {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٨٧]، أي:" فنادى ربه في ظلمات الليل والبحر وبطن الحوت تائبًا معترفًا بظلمه؛ لتركه الصبر على قومه، قائلا: لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين".

قال الطبري:" يقول: نادى يونس بهذا القول معترفا بذنبه تائبا من خطيئته {إني كنت من الظالمين} في معصيتي إياك".

قال ابن عباس:" معترفا بذنبه، تائبا من خطيئته".

عن محمد بن قيس، قوله:" {لا إله إلا أنت سبحانك}، ما صنعت من شيء فلم أعبد غيرك، {إني كنت من الظالمين}، حين عصيتك".

قال عوف الأعرابي: "لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات، ثم حرك رجله، فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى: يا رب اتخذت لك مسجدا في موضع ما اتخذه أحد".

عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: "لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت: أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر عظما، فأخذه، ثم

=

=

هوى به إلى مسكنه من البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حسا، فقال في نفسه: ما هذا؟ قال: فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبه؟ قال: ذاك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح
الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله تبارك وتعالى: {وهو سقيم} ".

وفي قوله تعالى: {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ} [الأنبياء: ٨٧]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، قاله ابن عباس، وقتادة، وعمرو بن ميمون، وابن جريج، ومحمد بن كعب.

الثاني: أنها ظلمة الحوت في بطن الحوت، قاله سالم بن أبي الجعد.

قال سالم بن أبي الجعد:" أوحى الله إلى الحوت أن لا تضر له لحما ولا عظما، ثم ابتلع الحوت حوت آخر، قال: {فنادى في الظلمات}، قال: ظلمة الحوت، ثم حوت، ثم ظلمة البحر".

الثالث: أنها ظلمة الخطيئة، وظلمة الشدة، وظلمة الوحدة. أفاده الماوردي.

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن يونس أنه ناداه في الظلمات: {أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين}، ولا شك أنه قد عنى بإحدى الظلمات: بطن الحوت، وبالأخرى: ظلمة البحر، وفي الثالثة اختلاف، وجائز أن تكون تلك الثالثة: ظلمة الليل، وجائز أن تكون كون الحوت في جوف حوت آخر، ولا دليل يدل على أي ذلك من أي، فلا قول في ذلك أولى بالحق من التسليم لظاهر التنزيل".

=

=

وملخص قصة يونس «أن الله تعالى أرسله إلى أهل نينوى بالعراق في حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله- ﷻ فاستعصوا عليه، فضاق بهم ذرعا، وتركهم وهو غضبان ليذهب إلى غيرهم، فوصل إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة فركب فيها، وفي خلال سيرها في البحر ضاقت بركابها، فقال ربانها: إنه لا بد من أحد الركاب يلقى بنفسه في البحر لينجو الجميع من الغرق. فجاءت القرعة على يونس، فألقى بنفسه في اليم فالتقمه الحوت.. ثم نبذه إلى الساحل بعد وقت يعلمه الله تعالى، فأرسله-سبحانه- إلى قومه مرة أخرى فآمنوا.

والمعنى: واذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ- عبدنا ذا النون. وقت أن فارق قومه وهو غضبان عليهم، لأنهم لم يسارعوا إلى الاستجابة له.

قال الجمل: وقوله: إِذْ ذَهَبَ مُغاضِبًا أى: غضبان على قومه، فالمفاعلة ليست على بابها فلا مشاركة كعاقبت وسافرت، ويحتمل أن تكون على بابها من المشاركة، أى غاضب قومه وغاضبوه حين لم يؤمنوا في أول الأمر» ا.هـ.

وقوله تعالى: فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ بيان لما ظنه يونس- عليه السلام حين فارق قومه غاضبا عليهم بدون إذن من ربه- ﷻ.

واعلم أن قول من قال: {مُغَاضِبًا} أي: مغاضبًا لربه كما تقدم وهو مروي عن ابن مسعود، وبه قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير، واختاره الطبري والقتيبي، واستحسنه المهدوي؛ يجب حمله على معنى القول الأول؛ أي: مغاضبًا من أجل ربه. قال القرطبي بعد أن ذكر هذا القول عمن ذكرنا: وقال النحاس: وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح، والمعنى: مغاضبًا من أجل ربه كما تقول: غضبت لك أي: من أجلك. والمؤمن يغضب لله ﷻ إذا عُصِي. انتهى منه. والمعنى على ما ذكر: مغاضبًا قومه من أجل ربه، أي: من أجل كفرهم به، وعصيانهم له. وغير هذا لا يصح في الآية ا.هـ

=

=

ثم بين -سبحانه- ما كان يردده يونس وهو في بطن الحوت فقال: فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. والفاء في قوله فَنادى فصيحة.

والمراد بالظلمات: ظلمات البحر، وبطن الحوت، والليل.

أى: خرج يونس غضبان على قومه. فحدث له ما حدث من التقام الحوت له، فلما صار في جوفه المظلم، بداخل البحر المظلم، أخذ يتضرع إلينا بقوله: أشهد أن لا إله إلا أنت يا إلهى مستحق للعبادة، سُبْحانَكَ أى: أنزهك تنزيها عظيما إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ لنفسي حين فارقت قومي بدون إذن منك. وإنى أعترف بخطئي- يا إلهى- فتقبل توبتي، واغسل حوبتي.

هذا وقد ذكر ابن جرير وابن كثير وغيرهما من المفسرين هنا روايات متعددة عن المدة التي مكثها يونس في بطن الحوت، وعن فضل الدعاء الذي تضرع به إلى الله تعالى، ومن ذلك ما رواه ابن جرير عن سعد بن أبى وقاص- رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «باسم الله الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى». قال: قلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة، إذا دعوا بها. ألم تسمع قول الله تعالى: فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنا لَهُ، وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ فهو شرط من الله لمن دعاه به».

ثم بين -سبحانه- أنه قد أجاب ليونس دعاءه فقال: فَاسْتَجَبْنا لَهُ أى: دعاءه وتضرعه وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ أى: من الحزن الذي كان فيه حين التقمه الحوت وصار في بطنه.

قوله تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ} [الأنبياء: ٨٨]، أي:" فاستجبنا له دعاءه".

=

=

قال الطبري:" {فاستجنا} ليونس دعاءه إيانا، إذ دعانا في بطن الحوت، ونجيناه من الغم الذي كان فيه بحبسناه في بطن الحوت وغمه بخطيئته وذنبه".

قوله تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ} [الأنبياء: ٨٨]، أي:" وخلَّصناه مِن غَم هذه الشدة".

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: وكما أنجينا يونس من كرب الحبس في بطن الحوت في البحر إذ دعانا، كذلك ننجي المؤمنين من كربهم إذا استغاثوا بنا ودعونا".

قال ابن كثير:" أي: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات".

وفي مدة لبثه في بطن الحوت ثلاثة أقوال:

أحدها: أربعون يومًا. قاله سعيد بن ابي الحسن.

الثاني: ثلاثة أيام.

الثالث: من ارتفاع النهار إلى آخره.

قال الشعبي: "أربع ساعات، ثم فتح الحوت فاه فرأى يونس ضوء الشمس، فقال: سبحانك إني كنت من الظالمين، فلفظه الحوت".

قال ابن زيد: "ما لفظه الحوت حتى صار مثل الصبي المنفوس، قد نشر اللحم والعظم، فصار مثل الصبي المنفوس، فألقاه في موضع، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين".

قال ابن عباس: "كانت رسالة يونس بعد أن ألقاه الحوت".

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء: ٨٨]، أي:" وكذلك ننجي المصدِّقين العاملين بشرعنا".

قال ابن كثير:" أي: إذا كانوا في الشدائد ودَعَونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء بها عن سيد الأنبياء ".

=

=

عن كثير بن معبد، قال: "سألت الحسن قلت: يا أبا سعيد، اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ قال: ابن أخي أما تقرأ القرآن؟ قول الله: {وذا النون إذ ذهب مغاضبا}، إلى قوله: {المؤمنين}، ابن أخي هذا اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى".

عن سعد بن مالك، قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى، قال: فقلت: يا رسول الله، هي ليونس بن متى خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس بن متى خاصة، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تبارك وتعالى: {فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين}،فهو شرط الله لمن دعاه بها".

عن سعد ابن أبي وقاص – قال: "مررت بعثمان بن عفان، رضي الله عنه، في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني ثم لم يَردُدْ عليّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين، قال: لا وما ذاك؟ قلت: لا إلا أني مررتُ بعثمان آنفا في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يَرْدُد علي السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رَدَدت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلتُ. قال سعد: قلتُ: بلى حتى حلفَ وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكرَ فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفا وأنا أحدّث نفسي بكلمة سمعتُها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تَغْشَى بصري وقلبي غشَاوة. قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله، حتى قَام رسولُ الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إليّ رسولُ الله ﷺ فقال: "من هذا؟ أبو إسحاق؟ " قال: قلت: نعم، يا رسول الله. قال: "فمه؟ " قلت: لا والله،

=

=

إلا أنك ذكرتَ لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك. قال: "نعم، دعوةُ ذي النون، إذ هو في بطن الحوت: {لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له".

وما ذكره الله جل وعلا في هذه الآية: من نداء نبيه يونس في تلك الظلمات؛ هذا النداء العظيم، وأن الله استجاب له ونجاه من الغم أوضحه في غير هذا الموضع.

وبيَّن في بعض المواضع: أنه لو لم يسبح هذا التسبيح العظيم للبث في بطن الحوت إلى يوم البعث ولم يخرج منه. وبين في بعضها أنه طرحه بالعراء وهو سقيم.

وبين في بعضها: أنه خرج بغير إذن كخروج العبد الآبق، وأنهم اقترعوا على من يلقى في البحر فوقعت القرعة على يونس أنه هو الذي يلقى فيه.

وبين في بعضها: أن الله تداركه برحمته؛ ولو لم يتداركه بها لنبذ بالعراء في حال كونه مذمومًا، ولكنه تداركه بها فنبذ غير مذموم، قال تعالى في "الصافات": {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)}، فقوله في آيات "الصافات" المذكورة: {إِذْ أَبَقَ} أي: حين أبق، وهو من قول العرب: عبد آبق؛ لأن يونس خرج قبل أن يأذن له ربه، ولذلك أطلق عليه اسم الإباق. واستحقاق الملامة في قوله: {وَهُوَ مُلِيمٌ} لأن المليم اسم فاعل ألام إذا فعل ما يستوجب الملام. وقوله: {فَسَاهَمَ} أي: قارع بمعنى أنه وضع مع أصحاب السفينة سهام القرعة ليخرج سهم من يلقى في البحر. وقوله: {فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} أي: المغلوبين في القرعة؛ لأنه خرج له السهم الذي يلقى صاحبه في البحر....

=

=

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)} يدل على أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيبتهل إلى الله داعيًا بإخلاص، إلا نجاه الله من ذلك الغم، ولاسيما إذا دعا بدعاء يونس هذا. وقد جاء في حديث مرفوع عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال في دعاء يونس المذكور: "لم يدع به مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له" رواه أحمد والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم. والآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث شهادة قوية كما ترى؛ لأنه لما ذكر أنه أنجى يونس شبه بذلك إنجاءه المؤمنين.

(تنبيه): قال الشنقيطي: قوله: {نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} صيغة عامة في كل مؤمن كما ترى. وقرأ عامة القراء السبعة غير ابن عامر وشعبة عن عاصم: {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ } بنونين أولاهما مضمومة، والثانية ساكنة بعدها جيم مكسورة مخففة فياء ساكنة، وهو مضارع "أنجى" الرباعي على صيغة "أفعل"، والنون الأولى دالة على العظمة. وقرأ ابن عامر وشعبة عن عاصم: "وكذلك نُجِّي المؤمنين" بنون واحدة مضمومة بعدها جيم مكسورة مشددة فياء ساكنة. وهو على هذه القراءة بصيغة فعل ماض مبني للمفعول من "نَجَّى" المضعَّفة على وزن "فَعَّل" بالتضعيف.

وفي كلتا القراءتين إشكال معروف. أما قراءة الجمهور فهي من جهة القواعد العربية واضحة لا إشكال فيها، ولكن فيها إشكال من جهة أخرى، وهي: أن هذا الحرف إنما كتبه الصحابة في المصاحف العثمانية بنون واحدة، فيقال: كيف تقرأ بنونين وهي في المصاحف بنون واحدة؟ وأما على قراءة ابن عامر وشعبة فالإشكال من جهة القواعد العربية؛ لأن نجَّى على قراءتهما بصيغة ماض مبني للمفعول، فالقياس رفع {الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)} بعده على أنه نائب الفاعل، وكذلك القياس فتح ياء "نجى" لا إسكانها.

=

=

وأجاب العلماء عن هذا بأجوبة: منها ما ذكره بعض الأئمة، وأشار إليه ابن هشام في باب الإدغام من توضيحه: أن الأصل في قراءة ابن عامر وشعبة (نُجِّي) بفتح النون الثانية مضارع "نجَّى" مضعفًا، فحذفت النون الثانية تخفيفًا، أو "نُنْجي" بسكونها مضارع أنجى، وأدغمت النون في الجيم لاشتراكهما في الجهر والانفتاح والتوسط بين القوة والضعف، كما أدغمت في "إجّاصة وإجّانة" بتشديد الجيم فيهما، والأصل "إنجاصة وإنجانة" فأدغمت النون فيهما، والإجاصة: واحدة الإجاص، قال في القاموس: الإجاص بالكسر مشددًا: ثمر معروف دخيل؛ لأن الجيم والصاد لا يجتمعان في كلمةٍ، الواحدةُ بهاءٍ. ولا تقل انجاص، أو لغية اهـ. والإجانة: واحدة الأجاجين. قال في التصريح: وهي بفتح الهمزة وكسرها. قال صاحب الفصيح: قصرية يعجن فيها ويغسل فيها. ويقال: إنجانة كما يقال: إنجاصة، وهي لغة يمانية فيهما أنكرها الأكثرون اهـ فهذا وجهان في توجيه قراءة ابن عامر وشعبة، وعليهما فلفظة {الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)} مفعول به بـ{نُنْجِي}.

ومن أجوبة العلماء عن قراءة ابن عامر وشعبة: أن "نُجِّي" على قراءتهما فعل ماض مبني للمفعول، والنائب عن الفاعل ضمير المصدر، أي نجي هو أي الإنجاء، وعلى هذا الوجه فالآية كقراءة من قرأ {لِيَجْزِيَ قَوْمًا} الآية، ببناء "يجزي" للمفعول والنائب ضمير المصدر، أي ليجزي هو أي الجزاء، ونيابة المصدر عن الفاعل في حال كون الفعل متعديًا للمفعول تَرِد بِقِلَّة، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وقابلٌ من ظرفٍ أو من مصدرٍ ... أو حرفِ جرٍّ بنيابةٍ حَرِي
ولا ينوبُ بعضُ هذي إن وُجِد ... في اللفظِ مفعولٌ به وقد يَرِد

ومحل الشاهد منه قوله: "وقد يرد" وممن قال بجواز ذلك الأخفش والكوفيون وأبو عبيد. ومن أمثلة ذلك في كلام العرب قول جرير يهجو أم الفرزدق:

=

=

ولو ولدت قفيرة جرو كلب ... لسب بذلك الجرو الكلابا

يعني لسب هو أي السب. وقول الراجز:

لم يعن بالعلياء إلا سيدًا ... ولا شفى ذا الغي إلا ذو هدى

وأما إسكان ياء "نُجِّي" على هذا القول فهو على لغة من يقول من العرب: رضي، وبقي بإسكان الياء تخفيفًا. ومنه قراءة الحسن (وذروا ما بَقِي من الربا) بإسكان ياء (بَقِي) ومن شواهد تلك اللغة قول الشاعر:

خمَّر الشيب لمتي تخميرًا ... وحدا بي إلى القبور البعيرا

ليت شعري إذ القيامة قامت ... ودُعي بالحساب أين المصيرا

وأما الجواب عن قراءة الجمهور فالظاهر فيه أن الصحابة حذفوا النون في المصاحف لتمكن موافقة قراءة ابن عامر وشعبة المصاحف لخفائها. أما قراءة الجمهور فوجهها ظاهر ولا إشكال فيها، فغاية الأمر أنهم حذفوا حرفًا من الكلمة لمصلحة مع تواتر الرواية لفظًا بذكر الحرف المحذوف. والعلم عند الله تعالى.

الفهرس

